

رواية

توم كريستينسن

ترجمتها عن الدنماركية: دُنى غالي



المتوسط

توم كريستينسن

ترجمتها عن الدنماركية: دُنى غالي



المتوسط

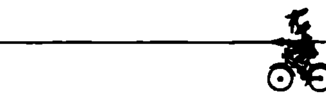


The translation has been financed by Danish Art Foundation

المؤلف: توم كريستينسن / المترجم: دُنى غالي / عنوان الكتاب: هدم
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

تُرجم هذا الكتاب بدعم من مؤسسة الفنون والآداب الدنماركية
DANISH ARTS FOUNDATION

ISBN: 978-88-85771-66-6



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

"في زماننا قد يُولد قدّيسٌ واحد كل مئة عام، بينما يولد آثمون كل ثانية، نحن لسنا قلّة".

توم كريستينسن

عن رواية "هَدْم" ومؤلّفها توم كريستينسن

تتناول رواية "هَدْم" للروائي توم كريستينسن حياة شاعر وصحفي معروف، يعمل في أكبر الصحف الدنماركية، يعيش حياة مستقرّة، بدخل ثابت، وعائلة، وأطفال، وشقّة راقية، قرّر فجأة أن يهدم حياته. هذا القرار، كما سوف نرى، يتجاوز طابع التّمرّد الشخصي إلى اضطرابات مرحلة زمنية كاملة.

تدور أحداث الرواية في فترة من تاريخ الدنمارك، جرى فيها الكثير من المتغيّرات سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وهي الفترة ما بين الحربَيْن التي تناولها الأدب الأوروبي بتوسّع. عُدّت الرواية وثيقة لما أُطلِق عليه جيل ما بين الحربَيْن الضائع، وظهرت انعكاساته واضحة عبر فصول الرواية متمثّلة في استعراض دقيق ممتع لإيقاع المدينة، ونبضها، في مرحلة أواخر العشرينيات.

تصوّر الرواية أزمة هذا الشاعر والصحفي النفسية، وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، حيث ينضب الإلهام لديه بعد عمله كصحفي، ويتوقّف عن الكتابة، فنراه في صراع داخلي خاسر، يشدّه اليأس والإحساس بالجدب الروحي إلى القعر، ليخسر في النهاية وظيفته وعائلته. اختار الروائي أن تدور أحداث روايته في كواليس جغرافية معروفة، تتمركز حول ساحة البلدية في العاصمة كوبنهاجن، أزقّتها، حاناتها الرخيصة، إلى جانب مقرّ الجريدة الذي هو مركز الحدث الأهمّ فيها.

تُعدّ الرواية من الأعمال الكلاسيكية الرائعة للأدب الدنماركي، فهي فضلاً عن التفاصيل الدقيقة التي تُقدّمها عن حالة البطل، تتناول بتحليل عميق الشّكّ الذي يصيب الإنسان في بحثه عن الحقيقة، معنى وجوده وأهمّيّته. ما معنى الدِّين ودوره؟ هل تختلف الكاثوليكية في نظرتها إلى الإنسان؟ وما الذي يقرّب الإنسان من المسيح؟ هل هو سُكْره وانسحابهُ؟ أم إيمانهُ الدِّيني؟

والحال أن الأسئلة تتكاثر، مستوعبة ما يجري في الحياة الاجتماعية والفكرية من تطوّرات،

عن الشيوعية، ودعوتها المشاركة في ثورة راديكالية، وسياسة الأحزاب الأخرى التي كانت تتصدّر المشهد السياسي، حزب المحافظين، وحزب الاشتراكيّيْن الديمقراطيّيْن وحزب الراديكاليّيْن اليساري

إن البطل الذي يدير أسئلته، ويتفحّصها، يواصلها نحو الحدود الوجودية كالأبدية، والخلود، بيد أنه يعود بها إلى الواقع الإنساني الفعلي، متسائلاً إن كان اتّباع الرغبات، بممارسة الجنس وشرب الكحول والانغماس بالملذّات هو الطريق نحو الأبدية؟ وما القِيَم الأخلاقية؟

ألم يقل نيتشه إن على الإنسان أن يهدم قِيَماً، ليفسح المجال لخَلْق أخرى جديدة؟

المشاغل الذهنية التي اهتمّ بها الروائي توم كريستينسن في روايته "هَدْم" لم تكن غريبة عن اهتمامات الجيل الذي عاش الدمار، ولازمه الشّكّ في المُثُل العليا بعد حدوث انحراف أخلاقي، خلّفتْهُ الحرب العالمية الأولى. ومن الواضح أن ما وصفه في رحلة آلام بطله كان موضوعة حَيّة عصرية وجوهرية في الأدب العالمي.

مفاتيح الرواية وزمنها

اكتسبت رواية "هَدْم" أهمّيّة مضاعفة بعد أن جرى الحديث عنها بوصفها سيرة شبه ذاتية للكاتب بأسماء مستعارة (رواية مقنّعة roman à clef). والحال أن جزءاً كبيراً من الرواية مَبنيّ على أساس واقعي، ينتمي إلى البيئة الثقافية الدنماركية في العاصمة، كذلك عالم شخصيّاتها، وبطلها على وجه التحديد. من الممكن عَدّ المحرّر أوله ياستراو (المُكنّى جاز) هو الأنا الثانية "alter ego"لمؤلّفها توم كريستينسن، والجريدة "داو بلاذيت" المذكورة في الرواية هي جريدة "بوليتيكين" التي ما زالت تواصل الصدور منذ عام تأسيسها في 1884، وتُعدّ من أكبر الجرائد اليومية الدنماركية إلى الآن. وإلى جانب البطل أوله ياستراو الذي يقترب من حياة الكاتب نفسه، تبرز بعض الشخصيات الرئيسة التي تجد أسماءها الحقيقية في الواقع، ابتداء من رئيس تحرير الجريدة، وإلى المُراجع الأدبي المعروف فيها، إلى الشاعر الشيوعي، بل بالإمكان التّعرّف أيضاً حتّى إلى رُوّاد البار الذي يرد ذِكْره في الرواية، والتابع إلى فندق الملك فريديريك الواقع في الشارع نفسه التي تقع فيه الجريدة. مازالت الجريدة نفسها في المكان نفسه منذ العام 1912، و"مكتب الزاوية" الذي يتردّد اسمه طوال السَّرْد هو مكتب رئيس التحرير المعروف، وله دلالته الرمزية حتّى هذه اللحظة. المكتب يتمتّع بإطلالة جميلة واسعة على فضاء المدينة (ساحة البلدية)، ومن هذا المكتب، اتُّخذت أهمّ القرارات، وصدرت أهمّ المقالات والبيانات.

لربمّا أثّر هذا الجانب الوقائعي على فنيّة العمل وقُوّته، فوفق تقدير النُّقّاد حينذاك، لم يكن أدب الثلاثينيات يعتبر أصلاً ذا قيمة، وهذا التقدير شمل أدب الأربعينيات والخمسينيات، كما لم تكن الحركات الثقافية وبعض المدارس الأدبية معرّفة، مثلما حدث لاحقاً. لقد رأى النُّقّاد أدب تلك المراحل جافّاً مملاً، وبلا روح، عدا عن تجاوزه المتعارف عليه اجتماعياً وأخلاقياً، والإشارة الأخيرة ربمّا توضح الحكم الجائر على رواية "هَدْم" نفسها، كما سوف نلاحظ أوّل صدورها.

لقد اقتضى الأمر مرور سنين وتغيُّر أجيال، ليُعاد تقييم تلك المراحل. حصل ذلك تحديداً في السّتّينيّات، إذ أُعيد تقييم بعض الأعمال، من حيث حداثتها ومغايرتها، كما جرى إدراجها لاحقاً ضمن الأعمال الكلاسيكية، مثل رواية "هَدْم".

لم تُستقبَل رواية "هَدْم" وقت صدورها بالترحاب، بل انهالت عليها الانتقادات الجارحة من كل جهة، حتّى إن البعض من الشخصيات الأدبية المعروفة عبّرت عن اشمئزازها، بسبب الإهانة المتعمّدة التي لحقت بها عبر صفحات الرواية. البعض الآخر استهدف شخص الكاتب أيضاً، الملتذّ بأنانيّته، الذي لا يشغله سوى نفسه ونفسه فقط. وهناك مَنْ عبّر عن سخطه، عن طريق شجبه لسلوكيات البطل في الرواية، ووصفها بالعُقْم، ووصف نظرته بالأحادية المفجعة اللاإنسانية واللا أخلاقية.

حتّى دار النشر التي كانت قد عقدت الاتّفاق معه وقعت في حيرة خلال فترة تطوّر العمل، وانقسمت الإدارة إلى جناحَيْن، بين فريق متّفق وآخر معارض للنشر. دارَ النِّقاشُ حينها بشأن الحدود المسموحة للكاتب في تناوله الحياة الشخصية للمحيطين به، وتعريتها على هذا النحو السافر، سواء كانوا من العائلة أم من زملاء العمل والأصدقاء. ونجد في سيرة حياة الكاتب إشارة إلى تدخّل عدد من الكُتّاب، ومنهم الفيلسوف والشاعر لودفي هولستين في النِّقاش الدائر، والأخير كتب رسالة اعتراض موثّقة إلى المدير العامّ لدار النشر، يذكر فيها : "إن كنتم تودّون مَنْع الكتابة عن شخصيات من واقعنا وحياتنا، فالأفضل أن تُصدورا منعاً لجنس الرواية أصلاً!".

ما حدث وكان فاصلاً مهمّاً في حياة الكاتب كريستنسن، ومصير روايته هو استلامه لرسالة خاصّة، وصلتْهُ من زميله الكاتب النرويجي كنوت هامسون، أهمّ روّاد الرومانسية الجديدة في أوروبا، وصاحب رواية تيار الوعي الحاصل على نوبل للآداب في العام 1920. تلك الرسالة هي التي أنقذت سمعة رواية هدم وكاتبها ودار النشر. وكان هامسون قد قرأ "هَدْم"، وأُخذ بها، وبعث برسالة إلى كريستينسن، يُعبّر من خلالها عن إعجابه الكبير بها. وفيما يلي نصّها:

لقـد عشـتُ ليـوم وليلـة مـع ياسـتراو والآخريـن، لكـن رفقتـي لهـم انتهـت الآن، وهـا أنـا أجلـس مريضـاً بشـوقي للمزيـد منهـم. أشـعر بفـراغ كبـير حقّـاً بانتهائهـا.

لا أدري إن كنـتُ قـد أُخِـذتُ يومـاً بكتـاب مـا في حياتـي، وزوجتـي شـهدتْ كيـف كنـتُ أقـرأ - أقـرأ وأستشـهد - وهـي قـد شرعـت بقراءتهـا الآن. عمـل عبقـري عظيـم. أرجـو منـكَ أن تتقبّـل منّـي خالـص التهنئة. لـديّ كُتُبـي، ولا ينقـص العالـم كُتُـبٌ، ولكـنْ، علـيّ الآن أن أتواضـع، فـلا كتـاب مثـل كتابـكَ.

كنوت هامسون

6-12-1930

سمح هامسون بنشر هذه الرسالة نهاية عام 1930، وكان لها الدور الكبير في إعادة الاعتبار إلى العمل، بعد أن جاءت بالضّدّ من تحديد قيمة الرواية، ومحاكمة كاتبها، وتحجيم فاعليّتها، واغفال فنيتها، بتعريفها كرواية مُملّة عن الإدمان والمدمنين على الكحول، ومحض تجريح شخصي وانتقام، لا غير، كما لو كانت استعراضاً كبيراً للخروقات اللا أخلاقية.

فجأة أظهر المحرّر هيغل في دار غولدينداال احتراماً وتقديراً كبيراً للكاتب، تطوّر بعدها إلى إعجاب كبير، وهو عينه مَنْ وقف ضدّ طبع الرواية قبل عام من ذلك.

هذه الرسالة جعلت النُّقَّاد، بدورهم، يُعيدون قراءة الرواية بعين أخرى. واستغلّت دار النشر الفرصة لإصدار طبعة جديدة في الحال، ما جعل نسبة المبيعات ترتفع بشكل ملحوظ.

بين "تراجيديا جاز" و"هَدْم"

اختار الكاتب توم كريستينسن أن يكون عنوان روايته "تراجيديا جاز" أو "جاز التراجيدي". هذا الاسم من صلب الرواية، فـ "جاز" هو الاسم الذي كان أصدقاء البطل واسمه "أوله ياستراو" ينادونه به، ويُمثّل في الحقيقة فترة العشرينيات التي انتشرت فيها موسيقى الجاز، وهيمنتها على أجواء المدينة، منطلقة من غرامافونات البارات وصالونات البيوت. كما سنرى ونشعر بذلك طوال صفحات الرواية. هذا الاسم يكاد يكون تعبيراً عن الفردية، والحُرّيّة، وتلاشي جزء كبير من الروح التقليدية في الحياة والأدب على السواء، وفي الوقت نفسه، يرمز "جاز" إلى الفراغ المهول الذي بدأ الفرد يشعر به بسبب التغيير الجذري الذي حصل، وأثار جملة من التساؤلات في الداخل.

فما الذي دفع هذا الرجل إلى اتّخاذ قراره بتدمير نفسه؟ هل هو الإحساس بالفراغ والملل؟ هل هو الإدمان؟ ولماذا أقبل على الكحول؟ ما الحالة التي تدفعه دوماً إلى الهروب من يقظته وصحوه؟ ما إيمانه؟ ولِمَ كان يتأمّل المسيح الابن وهو يعاتب الأب "ربي لِم تركتَني؟!". إنه الشّكّ إزاء كل شيء، فهل كانت له مبرّراته، حيال زوجته، أصدقائه، وقبل ذلك كله قناعاته هو نفسه؟

كان على أوله ياستراو "جاز" أن يقرّ بجملة من الحقائق، أهمّها أن ليس بمقدوره أن يُسعد زوجته أوّلاً، وثانياً أن العمل في الجريدة بهذا القلق والنفاق والكَبْت والتّكتّم على الحقائق بات مستحيلاً، وكل من المؤسّسة الزوجية والجريدة كانا مصدر عذاب له.

أدرك أن عليه خوض تجربة الحياة بما تُمليه عليه تماماً، لأجل أن يتوصّل إلى شكل من أشكال الاستقرار، أو التّحوّل في شخصه. لكن هذه التجربة تقتضي منه البحث عن ذاته، عن الإنسان في داخله، بيد أن عليه أن يعيش وفق غرائزه مثل حيوان، لكي يكتشف الإنسان في داخله، على حدّ قوله. ولقد عاش حياة السُّكْر والجاز والخيانة، ورافق المومسات، حتّى تصوّر نفسه ذات يوم أنه المسيح بينهنّ!

وهنا يصف الناقد والكاتب الدنماركي هارتفي فريش عالم "هَدْم" بجملة مثيرة : "برغم أن الرواية تدور حول شخص الكاتب وحده إلا أنها تُخلِّف في دواخلنا بعد قراءتها أوركسترا "جاز" بأكملها".

المثير أن توم كريستنسن عدل عن عنوان "تراجيديا جاز"، بسبب حادث رواه في واحدة من المقابلات الصحفية. ذكر فيها أنه كان مارّاً ليلاً، ويظهر أنه اصطدم ببيت زجاجي في شارع ما، وإذا به يُفاجأ صباح اليوم التالي بقراءة خبر صغير في جريدة يقول: [شابّ يحمل الاسم أوغه كريستينسن (اسم الكاتب) قام بأعمال شغب وتخريب، وهدم ليلاً لحق البيت الزجاجي الواقع في شارع بيله ألليه]. من هنا جاءته فكرة العنوان الجديد. وهو المشهد الذي سيستخدمه في الرواية حين يقوم البطلان بتهشيم زجاج لوحة إعلانات، تعود إلى الكنيسة التي رفضت أن تفتح أبوابها لهما، وفي تخريب شقّة البطل، وتهشيم زجاج باب المدخل لها. الكلمة "هَدْم" تعني هذا التدمير، والإيذاء المتعمّد للآخرين، وأعمال الشغب.

والحال أن "هَدْم" تهدّم ديكورات الواقع جميعها، وتخفيه، تُعرّي الذات، عبر تيار الوعي الذي يكشف عن انطباعاته، هلوساته، عن هجائه، سخريته، سخطه وخوفه. تجري أحداثها على لسان البطل الذي كانت له مكانة محترمة في الوسط الثقافي والأدبي، ويعيش حياة الطبقة الوسطى المرفّهة. ومع أخذ الزمن بالحسبان، حطّم كريستينسن، عبر هذا النّصّ الروائي، التابوات كلها

التي لم يكن اختراقها ممكناً ولا مقبولاً آنذاك، إذ كتب عن حالة الإدمان بالتفصيل، عن الويسكي والأبسنث، الجاز والحفلات والمجون والمازوخية، الخيانات الزوجية، الخليلات، عوالم الدعارة بأزقّتها ونسائها والأمراض المُعدِيَة التي تنقلها المومسات كالسِّفْلِس الذي كان منتشراً في تلك الفترة. والأمر أنه لم يخفِ في بعض تصريحاته للصحافة على الصعيد الشخصي أن "الويسكي" كان سبباً في جلّ مواجهاته في الوسط الثقافي، وانزعاج البعض منه.

وبصراحةِ كاتب حُرٍّ يعترف توم كريستنسن أنه رسم صورته الشخصية بقوله:

> *"كتبتُ عن صورتي الشخصية من دون اعتبارات، بمقاسي الطبيعي قدر الإمكان ... كانت هناك لحظات في أثناء كتابتي للرواية، تناولتُ فيها شخصي كحيوان من الرخويات، لأني جمعتُ في البطل نقاط ضعفي الشخصي كلها ... أمّا الريش الفولاذي ... أو اللولب الذي أدّى إلى توقّفي عن تعاطي الكحول، وحوّلني إلى رجل ممتنع عن المُسكِرات، فلقد أبعدتُهُ عن الشخصية تماماً، فأنا لم أشأ أن أكتب رواية عن "كيف تمتنع عن الكحول"، لا يمكن الاقتناع بهؤلاء إلا في الواقع، وليس في الكُتُب".*

لازالت رواية "هَدْم" تحظى باهتمام بالغ من قِبَل فئات عمرية مختلفة. ومنذ الثلاثينيات زمن صدورها وحتّى يومنا هذا، صدر عدد كبير من الطبعات، تجاوزت الحادية والعشرين، إلى جانب البحوث والدراسات الأكاديمية، كما تُرجمت الرواية إلى عدّة لغات، وأُنتجت كفلم سينمائي، بمعالجة جميلة، كما عُولجت الرواية في أكثر من عمل مسرحي، في أكبر المسارح في الدنمارك.

وأخيراً، وكما يذكر الناقد والشاعر يان سومرغورد: "رغم مرور أكثر من ثمانين عاماً منذ صدور طبعة الرواية الأولى، يبقى المحور الذي تدور حوله الرواية هو عالم الميديا ذاته بصراعاته، بتواطؤاته، وربّما في الجريدة ذاتها اليوم وما يدور في ممرّاتها من غَمْز ولَمْز وخطط ومماحكات".

احذر الروح، ولا تُفرطْ في حُبّها

كي لا تُدمنها

الجزء الأوّل
ما بين الأفكار

الفصل الأول

ها هو جرس الهاتف يدقّ ثانية.

أوله ياستراو، الذي كان يقرأ مستلقياً على الأريكة، وضَعَ الكتابَ مفتوحاً على جنب. لكسله، لم يضع الكتاب على طاولة المكتب، بل على ضبّة نسخ الكُتُب المخصّصة للمراجعة الأدبية، والتي لم تُفَضّ أوراقها بعد، وقد شكّلت بظهورها الصقيلة تلك بناية جديدة على الأرض. كانت وجبة الأدب الصادرة لموسم الربيع، والتي يُنتَظر أن يتمّ مراجعتها في صحيفة -داو بلاذيت-. لم يضعْ كتاباً يوماً على طاولةِ المكتب، لا يجب أن يكون هناك من مكان لغير الهاتف الأسود اللامع، وهذا الصنم الزنجي الخشن.

اتّكأ بظهره إلى الخلف على الأريكة، مطّط عضلات وجهه، من أجل أن يلين الوجه المنغولي، ويبدو لطيفاً، ثمّ مدّ يده أخيراً بشعور من النفور، لتناول سمّاعة الهاتف.

"أوله ياستراو!"، قال في قمع السَّمّاعة. كان مستلقياً باسترخاء على ظهره. من المثير للخيال التّحدّث مع طرف آخر، يمكن تصوّره مُحلِّقاً أفقياً في الهواء. "ماذا؟ نقابة ماذا؟ ... آه! أن أُلقي محاضرة؟ حول ماذا؟ ... ولكنْ، ليس لديّ ما أقوله، لا شيء إطلاقاً، أؤكّد لحضرتكَ سيِّد رابن". حدّق بالسقف الأبيض المُربَّع. قَفْرٌ مثل نظرتِه للحياة. ليس غير غطاء المصباح بالألوان المتداخلة يتحرّك خفيفاً بحركات شبح قنديل البحر في تيّار الهواء، مثل ذهن إنسان. كم بدا السقف واسعاً ومهجوراً. "النظرة إلى الحياة؟ ها ها! إلى أين يريدون المضي بنا؟ النظرة للحياة(*)" وأرجَحَ ساقيه بمرحٍ في الهواء.

"ياه، ماذا يفعل بابا بساقَيْه" علا صوت صبيّ عبر الصالة، وظهَرَ رأسٌ مدوّرٌ بخصلاتِ شَعْرٍ شقرٍ مجعّدة عبر حافّة طاولة المكتب. كانت هناك فقاعة شَفَّافَة في إحدى منخَرَيْه. "أوو، باباً ما الذي يفعله بساقَيْه"، وانفقأت الفقاعة حماسة.

"إشش، أولوف! اسكت! ... لا، يا عزيزي، سيِّد رابن، اللعنة، بصراحة ليس لديّ وقت، ماذا

*) يكرّرها بالألمانية: lebensanschauung

قلتَ حضرتكَ؟ ... أن آتي مساء غد إلى الجريدة، لأحضر نتائج الانتخابات؟ سيكون بلا شكّ لأجل الضحك على أنفسنا، يا إلهي، يا لبؤس ما نحن عليه! بلاء حقّاً، سنبتلى! ... ما سيواجهه الراديكاليون! أجل أجل، ثقْ بهذا، هل عليّ الذهاب لأنتخب؟ أنا؟ لا، ما لي وهذا كله؟!"

في اللحظة ذاتها، دقّ جرس باب المدخل.

"حسناً، هناك مَنْ يطرق الباب! مع السلامة، إذاً، مع السلا.. مة" أعاد السَّمَّاعة إلى مكانها على الجهاز، "أف، لتذهب إلى الجحيم".

"جحيم، حو حو، جحيم" كرّر أولوف مثل صدى مناكفٍ، ودفع ببطنه المدوّرة التي برزت أسفل بلورته إلى الأمام. "حووو حووو!".

دقّ جرس باب المدخل مجدّداً. بإلحاح! بحذر!

"ابقَ مكانكَ أولوف"، وخرج ياستراو إلى الممرّ.

لمَحَ عبر الزجاجات الطويلة المعتمة لنوافذ باب المدخل ظِلاً إلى اليمين، مُتراجِعاً تماماً إلى الخلف. كان ولا بدّ أحد المتسوّلين! متى تراها تعود يوهانه بالمناسبة ليتملّص من مهمّة الركض إلى الباب كلّما دقّ؟ وعليه أيضاً أن يراقب موقد التدفئة! ومخافة أن يصطدم به ويحرق نفسه. ولكن المتسوّل! فتح ياستراو الباب وهو يشعر وكأن بالإمكان أن يُهاجَم من الظَهْر أيضاً، موقد التدفئة، النار تندلع، وأن يسقط أولوف ويؤذي نفسه.

رجلٌ برأس أحمر مثل سرطان البحر وقَفَ على مسافة طويلة من الباب متقرفصاً، متواضعاً. ولكنْ، ما أمرُ عينَيْه؟ بدا وكأن كل شَعْرة في رمشَيْه قُلِعَت واحدة بعد الأخرى. واللحم المتقرّح وصل عينَيْه. قشعريرة تُغشي البصر. كما لو أن طرفَ منديلٍ يندسّ في العين.

"لا، لا، المعذرة ... نحن لا نتصدّق على الأبواب هنا" أجاب ياستراو بانتقالة مُفاجِئة من الخجل إلى العنف وصفَقَ الباب بقُوّةٍ صلّصلت لها زجاجات النوافذ.

سمع القامة وهي تُجرجر قَدَمَيْهَا ببطء نازلة السّلّم؛ ولكن ذكرى وجه المتسوّل الأحمر بلون سرطان البحر لصقت مثل شعورٍ رطبٍ في وجهه. المكر والتّضرّع والأجفان المسحوجة! الوجه الأحمر! هل سيتذكّره لسنوات طوال؟ يهبط الاشمئزار عليه مثل شمس تغرب.

فتّش بسبابة معوجّة في جيب الصديري. كانت هناك قطعة معدنية، أمسك بها. قطعة من فئة الكرونتينْ! كان ذلك غباء، عاطفية، أن يعطي هذا المبلغ عند الباب. ولكنْ ... وفتح

ياستراو الباب بعجل، ركض نازلاً طابقَيْن إلى الأسفل عبر درجات الممرّ الضَّيِّقة البائسة مثل دَرَجٍ خلفي لمطبخ. كان عليه أن يتخلّص من تلك النظرة، هذه الهلوسة.

"هالو، يا أنتَ!"

استدار الوجه الأحمر بلون سرطان البحر عالياً نحوه. وقف المتسوّل بضع خطوات بعيداً عنه. رمشَتْ عيناه.

"هاك، تفضّل!".

أعطاه ياستراو النقود واستدار باللحظة. شعر أنه دَفَعَ من أجل أن يَسمح له بأن يوليه ظهره. ومشى بطيئاً صاعداً سلّم البناية.

وها هي نافذة السلّم تلك ثانيةً. توقّف. كان زجاجها قد تحطّم. في زمن السَّكَن العصيب، لم يُضحِّ المالك بلا شكّ بفِلْسَين من أجل زجاجة جديدة. مع ذلك كان هناك شيء ناعم في ذلك الهواء البارد الذي يهبّ داخلاً عبرها. لمسةُ شعورٍ بالربيع. ألم تكن الأشجار بالمناسبة على وشك الإزهار؟ لم يكن بالإمكان ملاحظة ذلك تحت في الفسحة الخلفية الصغيرة لفناء العمارة، حيث سقيفة الدَّرَّاجات وصناديق القمامة المفتوحة. هواء بارد حَيّ! مُربَّع النافذة المكسورة الزجاج كانت بمثابة متنفّسٍ، وعلى المرء أن يتذكّر الربيع بينما هو حاضر.

ولكن موقد التدفئة!

ودقّ الهاتف مجدّداً في داخل الشَّقَّة. بإمكانه سماعه عبر باب المدخل من مكانه على السلّم. لم يُسمَح له بالانتظار ولو لثانية، أن يحصل على هواء ويروّح عن نفسه، أن يقف ساكناً حسب، يتذكّر الربيع بينما هو حاضر.

لا، لا يريد أن يكون عبداً لهذا الهاتف! هو الذي كان يجب أن يحصل على الهدوء ليقرأ ويُنجِز مراجعاته النقدية! يجب أن يحصل على الهدوء! كفى. مهلكَ، على مهلكَ! وأجبر نفسه على الهدوء وصعد السّلّم ببطء.

"بابا الفون، يدقّ!" جلسَ أولوف بين الأريكة الصفراء والكرسي الروكوكو بظهره الأصفر البيضوي. لم يظهر منه غير الرقبة المنحنية بالشَّعْر المجعّد مثل أقحوان. كان جوّاً من الانشغال يلفّه. الخصلات المجعّدة قد أخفت شيئاً ممنوعاً.

"بابا! الفون يدقّ" يكرّر. ربّما لكي يصرف الانتباه عنه.

"نعم، أعرف أعرف، اللعنة" همس ياستراو، وابتسم. لم يكفّ عن السّبّ عالياً، بوجود الصّبيّ. ولكن موقد التدفئة هذا! وبخطوة بطيئة، وكأنه يودّ أن يعذّب الهاتف، اقترب من الموقد الخزفي الأخضر الكبير. مازال هناك نار فيه. آه، الحمد لله! متى كان من المُفترَض أن تعود يوهانه؟ قالت إنها ستذهب بمشوار قصير، لتشتري حذاء.

الرماد! فتح وهزّ المشبك، لكي تنسل الجمرات إلى دُرْج الرماد.

حينها رنّ جرس الهاتف ثانية. بقُوّة أكبر.

"بابا! الفون يدقّ" قالها بانتصار. لم يكن بإمكان الرجل تجنّب قَدَره على أيّة حال ... والكُتُب مصفوفة هنا تنتظر النقد، تنتظر وتنتظر.

وكأنه قد فَقَدَ الأمل بالحصول يوماً على الهدوء، توجّه إلى الهاتف وأمسك مُمتعِضاً بالسمّاعة، وقف عند النافذة مُحملِقاً بيأس بشقق الجيران المقابلة عبر الشارع. نوافذ الطابق الرابع بطراز مستعار للأقواس الرومانية. الستائر البيض المُسدلَة دوماً.

"أوله ياستراو، تفضّلْ! آها، هذا أنتَ! تمام، وأنتَ؟ بلـى، شكراً، حقيقة، بودّي ذلك جدّاً، لو توفّر لي وقت حسب! بلى بلى! دعني أرى، الخميس، بعد ثمانية أيّام. الساعة الثامنة مساء، سموكنج؟ لا، بدلة سهرة(*). هذا يعني طلاء حربياً تماماً! اسمعْ، انتظرْ قليلاً! دعني أُدوّن ذلك!"

تناول دفتراً، وكتب: أويفند كروك. الخميس المصادف 24 نيسان الساعة 8.

"أجل. أجل. كسول؟ هل تظنّ ذلك؟ نعم، ولكن مسألة كتابة نقد تتطلّب الكثير من الوقت. يَضْحَى المرءُ مخبولاً بسبب قراءة هذه الآراء المجنونة كلها لدى الآخرين ... أجل، اللعنة، الآراء كلها مجنونة.

كم أطال هذا الـ "كروك" بمكالمته. ووقف ياستراو سارحاً بعيداً يُحملِق بالجيران عبر الشارع. لمرّة واحدةٍ فقط، رأى امرأة تسحب الستارة جانباً. وجهٌ أبيض ببياض الستارة، وشفاهٌ مرسومة

---

*) الزّيّ الاحتفالي kjole og hvidt/white tie والترجمة الحَرْفِيّة هي "البدلة مع الصديري الأبيض" وهناك أيضاً البدلة مع الصديري الأسود، السترة ذات ذيل خلفي طويل، وكلاهما يُستخدمان للمناسبات، الفارق بينهما وبين "السموكنج" هو أن بالامكان ارتداءها طوال اليوم، بينما السموكنج بعد الساعة الخامسة عصراً فقط وفق التقليد. وبدلة السهرة هو الزّيّ الأكثر رسمية للرجال في حفلات الزفاف والمناسبات الاحتفالية، ويُذكَر أن من النادر أن تخلو خزانات ملابس الرجال الغربيّيْن منه. يتكوّن طقم البدلة الاحتفالي الكامل من السترة ذات الذيل الخلفي الطويل، القميص الأبيض المُنشّى الصدر، الصديري الأبيض، الوردة البيضاء، الياقة المثنية الزوايا. وقد تكون منفصلة، البنطلون الأسود مع الحمّالات السود مع حذاء أسود وجوارب سود، وللزينة قُبَّعة عالية، وإيشارب أبيض من الحرير، أزرار الأكمام، وساعة الجيب الذهبية، إضافة إلى القفّازات البيض.

بإحكام لِفَمٍ غامق كبير. قناعٌ جبسي في ضوء الضحى. ولكنها تنبَّهتْ إليه حينها، فأغلقت الستارة بانزعاج.

"لا، يا أويفند. اللعنة، لا وقت الآن للشِّعْر".

وبدأ كروك الحديث مجدّداً. طويلاً. طويلاً. أصاب أذن ياستراو ألما بسبب ضغطه لقمع السَّمَّاعة عليها، وتقلّصت أصابعه جرّاء حمله للسِّلك. وكم أسهب هذا الكروك في الحديث. النظر إلى سقف الجارة عبر الشارع! والمداخن، وحيدة تحت السماء في الأعالي مثل شواخص حجرية فوق هضبة، ... من النادر أن يمرّ بها إنسان.

"لا، اسمعني. لا. الكل يحتاج إلى فضاء من حوله ليكتب شِعْراً. أن يجول ويسرح قبل أن يكتبه، وأن يعرف أيضاً أن بالإمكان التجوال والسَّرَحَان بعد كتابتها. الكسل؟ لا. إنه التراخي الكوني، هذا هو ما يحتاج المرء الوقت من أجله، وإلا لن تطلع أبيات شِعْرِيّة منّا. لا، ومن دون الكحول لا يمكنني اليوم الوصول إلى الشعور بالفضاء من حولي، الفضاء المثمر، ولكني حين أشرب لا يمكنني الكتابة ... هههه! نعم. الثَّمِلُون هُمْ قصائد، من دون قدرة على أخذ شكل معيّن. كنج جورج ذا فورث أم دكتور سبيشال ... أشعر بعطش شديد، ما إن أفكّر بذلك. ماذا؟ آآ، جون هيج(*)! هههه، لم تُقصرّ معي، تأكّدْ أنا بحاجة لأعبّ الشراب الكوني كله في جوفي. إنه مصطلح جيّد هذا الذي اخترعتَه ... شراب آينشتاين، هل يعجبكَ؟هههه، بلى اللعنة، نعم، اللعنة، أن نعيش البُعْد الرابع. سآتي. سلامي لزوجتكَ. مع السلامة، هههه".

ولكنه وعندما وضع السمَّاعة شحبت ضحكة الهاتف الصداقية، ورفرفت الـ هههه الأخيرة تائهة عبر الصالة مثل ورقة ذابلة. استند بيده مُتعَباً على خشبة النافذة. سقط ضوء الضحى على وجهه الممتلئ. لم يتدمّر الوجه بعد؛ ولكنه كان تَعِبَاً، شيءٌ ما ضبابيّ، ومن دون هوية. اندفعت شَفَتُهُ السفلى إلى الأمام بطريقة غير طبيعية.

لِم أتى كروك على السؤال عن شِعْره؟ صار من الصعب فَهْم وجهه، اكتسب طابعَ عالِمٍ أو سِكّير. حلَّ بعدها الوجه المنغولي الذي يصعب وصفه.

باللحظة، اصطدمت قَدَمُهُ بالكُتُب التي عليه كتابة مراجعات بشأنها. آ، عليه مراعاة الدقائق التي تمرّ! ولكنْ... عليه أن يُشعل غليونه أوّلاً، وقبل ذلك، آ، أجل، عليه أيضاً أن يتذكّر الاتّصال بذلك الناشر، وهناك أيضاً الرَّقْم الذي دوَّنتْهُ زوجته يوهانه على دفتر الملاحظات؛ هذا الرَّقْم؛ لمَنْ؟

(* King George the forth, Doctor's Special, John Haig ماركات ويسكي إسكوتلندي

"الرجل!" صاح أولوف من خلف كرسي الروكوكو، ويبدو أنه قد آذى نفسه بقَدَم الأريكة الخشبية.

ماذا هناك؟! نظر ياستراو سريعاً عبر طاولة المكتب. اختفى الصنم الزنجي. هذا الولد لا يدعه في مكانه. لا يمسس الطفل كل الأشياء الأخرى قطّ (وكانت الطاولة البيضاوية تزدحم بالمنمنمات). ما أن يترك للحظة من دون مراقبة حتى يقوم باختطاف "الرجل".

"أولوف، ضع من فضلك -الرجل- في مكانه".

لم يصدر صوت. لم يرَ غير عينَيْن بارقَتَيْن بالغضب تحت ذراع الأريكة.

"هلا فعلتَ ما قلتُهُ لكَ؟"

وببطء، استدار أولوف على بطنه هناك، زحف إلى الأمام على أطرافه الأربعة مع الصنم بين طَرَفَيْه الأماميَّتَيْن، ونهض بصعوبة. شَفَتُهُ السفلية مزمومة.

"أشكركَ" قال الأب.

ناول أولوف الصنم الزنجي. وفي اللحظة التي سلّمه فيها إيّاه، ركض مُترنِّحاً إلى الصالة الثانية، وقد فتح الباب إلى الممرّ الصغير الذي يربط غرفة الطعام بالمطبخ البعيد، واختفى.

خطوة لطالما تكرّرت. ركضَ الأب خلفه مبتسماً. وحقيقة! قد وقف الطفل هناك ويده على باب المطبخ. أقصى حدود الشَّقَّة. بكى بوجه ضغطه على ذراعه من دون صوت، بكاء محبوساً عنيفاً. الطفل الصغير بالشَّعْر الأجعد مثل باروكةٍ إلى أسفلِ رقبته، وبساقَي البنطلون الصغيرَتَيْن اللَّتَيْن ضاقتا جدَّاً حول الركبَتَيْن العاريَتَيْن، سيطر على بكائه حتّى اهتزّ قفل باب المطبخ.

"اششش، أولوف".

"لا أريد أن أراكَ! أويوف يبكي وحده".

لم يتمالك الأب نفسه فضحك. ذلك هو الأكثر تخفيفاً عليه. ولكنه وقف بالرغم من ذلك عاجزاً، شعَرَ أنه قد دُفع جانباً من قِبَل الصغير، الكائن ذي الثلاث سنوات. وقد شعر بخوف، هاجس ما، ولكنه لم يتمالك نفسه من الضحك.

حينها دقّ جرس المدخل، هذا الجرس المُدان ثانية. هل كانت حياته مهزلة؟ هل عليه أن ينقسم بين هذَيْن الجرسَيْن الأبديَّيْن؟ الهاتف وجرس الباب ؟ مُطارَداً في شقَّته. أيّ بيت هذا؟! صالة انتظار. بدّالة هاتف. الساحة الأمامية للجحيم.

وها هو بلا شكّ متسوّل جديد.

مشى إلى باب المدخل. عبر زجاجة النافذة المضبّبة، وقف هناك ظلاّن، اقتربا جدّاً من الباب حتّى بَدَوَا أسوَدَيْن في المركز، ورماديَّيْن مضبَّبَيْن بخطوط حدود عريضة.

فتَحَ ياستراو الباب.

"مرحبا أوله".

زرّ ياستراو عينَيْه، لأن الضوء كان أقوى في ممرّ السّلّم عنه في ممرّ مدخل البيت. ولكنه لم يتعرّف على القامَتَيْن.

"مرحباً" أجاب بتردّد.

الأوّل الذي ألقى التَّحيَّة كان يرتدي (كاسكيتاً) وسخاً على رأسه. نظّارة شمسية كبيرة غامقة، أخفت وجهه. المعطف الصيفي الأنيق فاتح اللون بذراعَيْن، بتفصيل الرغلان، أربكَ ذلك طبيعة الانطباع عنه. الفم كان مشدوداً وكأنه شُفِطَ إلى الداخل، ولكن الشَّفَتَيْن فجأة ارتختا وصار الفم أكبر. لا بدّ وأنه لعب دوراً كوميدياً.

"أ حقّاً لا تعرفني؟" سأل بصوت أجشّ ومُجامِل، صوت عميق جدّاً، ونغمة جميلة.

نظر ياستراو بخطف إلى القامة الثانية. كان طويلاً وأحدباً. (الكاسكيت) الذي فقَدَ شكله لكثر ما شُدّ على الجبهة فَضَحَ شكل جمجمته المائل المُدبَّب. لم يكن يرتدي معطفاً رغم أن الجوّ لازال بارداً. وكانت يداه في جيبيه دافعاً ظهره مثل إحدى عصابات منطقة الميناء في حَيّ النوهاون(*).

لا، لم يتعرّف ياستراو عليه كذلك. لم يستطع أن يستخلص انطباعاً بشأنه. لم يشعر إلا بنظرة عينَيْه الزجاجية.

"حسناً، مرحباً! وما الذي تريده؟" قال ياستراو من دون وثوق للقامة أمامه والنّظّارة السوداء.

زمّ صاحبُ القامةِ المعتمةِ الشَّفَتَيْن ثانية، تغيّر تعبير وجهه، وكأنه أبدل بالقناع آخر، ثمّ ضحك، وبحركة ذراع مسرحية احتفاليةِ رفع النّظّارة عن وجهه. برزت عينان غجريّتان غامقتان، وانزلقت الشَّفَتَان تحت الضحكة إلى مكانهما الطبيعي ثانية.

---

*) Nyhavn هذا الحَيّ هو اليوم من أهمّ معالم كوبنهاجن السياحية كان محطّة لتجمّع مختلف شرائح المجتمع، على الأخصّ البحّارة الذين تزدحم بهم صفوف من الخمّارات والبارات الفقيرة في فترة العشرينيات.

"هكذا، هذا أنتَ ساندرز" علّق ياستراو بِرَسْمِيّة. لم يكن شيئاً نابعاً من القلب في نبرة صوته. فما الذي يفعله هذا الصّبيّ الشيوعي هنا؟

"كنتُ على يقين أنكَ لن تسعدَ برؤيتي، ولكنْ، لا يهمّ لأننا نحن الذين نودّ أن نزروكَ وعليكَ أن تتقبّل ذلك" قال ساندرز بسخرية خفيفة مفتعلة، ولكن صوته الملحّن جعل كلماته مريحة وصادقة.

"هذا هو ما قلتُهُ لكَ" أضاف متوجّهاً إلى الآخر، والآخر رفع كتفَيْه أكثر علواً وأطلق ضحكة، وكأنها شماتة.

"ظننتُ أنكَ بالحفظ والصون في السجن" أجاب ياستراو، ومن أجل أن يكون بالمستوى ذاته من السخرية مع ساندرز أكمَلَ "لنتخلّص منكَ مُؤقّتاً، ولكني مضطرّ الآن لدعوتكما للتّفضّل والدخول".

"هذا ليس برفيق الذي يتحدّث، ولكننا نقبل دعوتكَ. شكراً! ونحن لهذا السبب أيضاً جئنا. ولكنْ لا تُزعج نفسكَ بأمرنا. لا بدّ وأن لديكَ الكثير لتفعله" قال مجاملاً.

"لا بدّ وأنكَ هالكٌ في برجوازيّة عملكَ" استهزاء خفيف في النغمة، تابعَ بعدها بصوت متضامن متعاطف "إنهم يبخسونكَ حقّكَ بالطبع هناك في جريدة الافتراء، أليس كذلك؟"

شعَرَ ياستراو بنفسه محاطاً بأنواع النغمات كلها لساندرز، أشكال ساندرز كلها، سرعان ما تضخّم هذا الرجل وصار متعالٍ، وسرعان ما تقلّص هو وصار مُتضرّعاً من دون مخرج على الأرجح.

"دعْنا من الحديث عن ذلك، ادخلا" أجاب ياستراو.

"وبلا شكّ أن هناك تقاليد في بيوت البرجوازية الصغيرة، وبقدر معرفتي أظنّ أن عليّ أن أقوم بالتعريف، هذا ما عرفته، هذا هو إذاً ستيفان ستيفينسن، الشاعر الوحيد الذي لدينا في دول الشمال منذ -سيجبيورن أوبستفيلدر-(*)، وهذا هو أوله ياستراو ... كما تعرف، ولا شكّ يا ستيفان، إنه الناقد المساوم في جريدة الافتراء تلك، المُنشقّ، الخائن، أجل، المعذرة أوله، على الضيف ألا يتصرّف بالتأكيد بهذه الطريقة".

ولكن ياستراوا كان في طريقه إلى الانحناء انحناءة كبيرة وبسخرية. كانت عيناه نصف مُطبقَتَيْن إذ شَعَرَ أنه مُسوَّر بالضباب، وحرّك يده داعياً بالتّفضّل.

---

*) Sigbjørn Obstfelder 1866-1900: كاتب وشاعر نرويجي، هاجم الحداثة في شِعْر النرويج ودول الشمال. اقتباس من كتاب العهد الجديد "ربّي لماذا تركتَني؟"

تجاوبساندرز مع الدعوة ودخل إلى صالة المعيشة بحركة مؤدّبة وابتسامة، وكأنه قد توقّع مقابلة سيِّدة المنزل، جاء من بعده ستيفان ستيفينسن بخطوات واسعة، من دون مراعاة لحجم الصالة.

عند الباب ذي الدَّرْفَتَيْن المفتوح والمؤدّي إلى صالة الطعام، وبينما أخذ ساندرز بالبحث عن روح الشَّقَّة الأنثوية وقد ارتسمت ابتسامة حارّة على شَفَتَيْه الكبيرتَين، راح ستيفان يضرب الأرض بقَدَمه انزعاجاً من رباط حذائه الطويل الذي رسَمَ قوساً بحركته. زرع فردة حذائه على مقعد الكرسي الروكوكو، من دون مبالاة مثل خنفساء، وأخذ يربط جزمته بعناية ما جعل الكرسي القديم يئنّ.

نظر ياستراو إليه بسخط، وقد استشاط غضباً. ستيفان ستيفينسن! هذا هو إذنْ! الشاعر في هيئة الشيوعيّيْن الشباب الصغيرة -المطرقة-. علا الوجه شيء ما بيضوي وطفولي، ولكن الشَّفَتَيْن كانتا جامدَتَيْن وباردَتَيْن، وكأنما بسبب غضب غير مُفسّر.

"أنتَ حيوان، وهذا الصالون ليس من مقامكَ" قال بيرنهارد ساندرز.

كان المشهد بكُلّيّته غير واضح لياستراو، ما هذا الذي يحصل أمامه؟ ما هو؟ هل جاءا من أجل أن يهيناه، مثل محاولتهما قبل أربعة عشر يوماً لصقَ ملصقات بالشتائم على زجاج النوافذ الكبيرة لبهو الـ-الداوبلاذيت-؟ اقتحمْ البرجوازية، وبثّ رعباً، أهكذا يكون الخطاب؟ لا، لم يكن بإمكانه الرؤية بوضوح بعد، إلى هذا الحدّ كان متنرفزاً، وقد وقف خجولاً ومُباغَتاً في بيته.

خلال ذلك كان ستيفينسن يحاول أن يجعل الجوّ بهيجاً قدر استطاعته. برمية واثقة، طوّح (الكاسكيت) في الهواء، ليحطّ على أحد الكراسي الروكوكو، وجلس بعدها برعونة على الكرسي الآخر، ووضع إحدى ساقَيْه على ركبته بغلاظة ومن دون تفكير، في أن الجزمة قد وسّخت قبل قليل قماشة الكرسي. تدلىّ شَعْره مُشعَّثاً على جبهته، ولكن جبهته كانت عالية إلى درجة مزعجة، ورؤية تلك المساحة الصفراء الشاحبة كلها من بين الخصلات المتلبّدة، كان هناك شيء ما غير إنسانيّ بخصوصها.

حدثت في هذه الأثناء فوضى وضوضاء. كان أولوف الذي بلحظة مَثلَ أمامهم، وقد برزت بطنه عند الباب ذي الدَّرْفتَيْن، شعّ شَعْره الأصفر حول وجهه مثل هالة، وقد مطّ شَفَتَهُ العليا الطويلة بابتسامة مُرحِّبة صغيرة.

"مرحباً رِجال" صاحَ الصّبيّ وقد لمعت دمعتان كبيرتان مرتعشتان قلقتان في عينَيْه، بينما

مشى بمرح صوب ساندرز الذي انحنى عميقاً إلى الأسفل، حيث السَّيِّد الصغير الباكي الذي حمل آخر دموعه الأخيرة بكرامة غير آبه، مضيّفاً أكثر من أبيه. ثمّ تنشّق عميقاً، وكأن رئَتَيْه قد هدأتا أخيراً، والابتسامة انطلقت بأنفاس لاهثة.

هل كان من أجل إضحاك الصّبيّ، حين جلس بيرنهارد ساندرز على حافّة الديوان وفتح معطفه الرغلان الأنيق؟ بانت بلوزة روسية طويلة وحزام. ولمَرْأى إبزيم الحزام اشتعل لمعان فضولي في عينَي الصّبيّ. لم تكن البلوزة نظيفة تماماً، كما لم يكن خَدّا ساندرز خاليَيْن من شَعْرات لحية نابتة غامقة، ما يلفت النظر لرجل من أمثاله، كان مُنشغلاً جدّاً بأدواته.

"ما هذا الذي ترتديه، ساندرز؟" سأل ياستراو بانزعاج بعض الشيء.

"ماذا، بلوزة رغلان ونظّارة شمسية"

"لا لا، أقصد هذا الزّيّ الروسي تحتها".

نظر إليه ساندرز نظرة احتقار.

"ما الغريب فيه؟ إنه عملي جدّاً، وطبيعي. خلال عشر سنوات سيرتديه الجميع. حتّى أنتَ، والمعطف الرغلان، إنه زيّي التّنكّري".

"لدينا ما يكفي من المفارقات".

"لا، لا، أوله"، أجاب ساندرز بمرارة. "أرتدي هذه النّظّارات الشمسية كي لا تتعرّف الشرطة عليّ. أنا مُدان، لمُدَّة شهر، للاضطراب الأخير الذي حصل، بالأحرى للاضطرابات الأخيرة التي حصلت"

"هل هُم مَنْ يبيعون -المطرقة- في الشوارع؟"

أومأ ساندرز برأسه إيجاباً.

"هل قرأتَ -المطرقة- ؟"

"كلا".

"عليكَ بذلك. فيها كل ما يجري".

ابتسم ياستراو مُجامِلاً لتصريحاته، لكن ساندرز واصل: "أنا محكوم بالسجن لمُدَّة شهر

واحد، لأننا لا ندفع الغرامات من حيث المبدأ، ونحن نعرف الآن، حقيقةً لدينا علاقاتنا، نعرف أننا سوف نحصل على عفو على الفور، إن فاز الديمقراطيون الاشتراكيون، لقد وعدونا بذلك".

تحدّث ساندرز بنبرة سياسية، وحدس ياستراو ما يريد ساندرز الوصول إليه. كان ذلك هو سبب مجيئهما. ولكنْ، فجأة تمّت مقاطعتهما، حين استسلم أولوف أخيراً لهذا الفضول الذي كان مُتّقداً في عينَيْه. كان يريد الوقوف بين ركبَتَي ساندرز. هناك شيء ما يخصّ إبزيم الحزام.

"إنه صبيّ خفيف الدم" علّق ساندرز بحُبّ.

"أجل، أحبّه كثيراً" ابتسم ياستراو.

"ولكنْ، أين هي زوجتكَ؟" وأدار ساندرز رأسه، كما لو أنه ينوي تفتيش غرفة الطعام مرّة أخرى.

"لا بدّ وأنها على وشك الوصول"، أجاب ياستراو ببرود. كان هناك شيء من الحميمية في صوت ساندرز، الأمر الذي صدمه. اجتماعات المناقشة، المحادثات الطويلة في مقصف الجامعة، رفع الكلفة في التخاطب، خمس سنوات خلت، هل يعني ذلك معرفة أحدهما للآخر؟

"سأخلع معطفي. الجوّ حارّ جدَّاً هنا"، علّق ساندرز.

ابتسم ياستراو بتعب. وأجاب:

"أجل، هذا أفضل ربّما، ستبقيان هنا ولا شكّ حتّى تنتهي الانتخابات في الغد، أليس كذلك؟ من المؤسف أن يتمّ قنصكما من قِبَل الشرطة الليلة".

كان ساندرز قد نهض، وعلى وشك نضو معطفه.

"شيء جميل أن تلتقي في بعض الأحيان بأناس متفهّمين، أليس كذلك ستيفان؟"

"نعم"، أجاب ستيفان، كما لو أنه استيقظ فجأة. صرّ الكرسي من تحته، "كرسي تعس" دمدم.

وضحك ساندرز بنظرة ذات مغزى موجّهة إلى ياستراو، وهزّ رأسه، كما لو أن ستيفينسن كان غير مُحتمَل، ولكن عينَيْه لَمَعَتَا تشفِّياً.

"أجل، أعني أني فهمتُ القصد من الزيارة"، قال ياستراو بسخرية، "وذلك يعني أنكما ستبقيان هنا الليلة."

"إنه ولا شكّ ذكيّ"، علّق ساندرز مُوجِّهاً كلامه إلى ستيفينسن.

"قد كان"، زمجر ستيفينسن، ومن ثمّ تنحنح، ليتخلّص من بُحّته، ثمّ شرع بنغمة متطرّفة شبابية، لها جمالها الغليظ الخاصّ، وهو يردّد:

"الأمّ، مادونا ورفيق الحرب،

المرأة الحبيبة وجنديّ مشرق

أمّ الثورات"

غنّى بغلاظة، من دون أن ينظر إلى ياستراو الذي انكمش لسماعه "أربايدسكان"(*). كان اقتباساً من إحدى قصائده الثورية أيّام الشباب.

ابتسم ساندرز بضغينة.

زمّ ياستراو شَفَتَيْه وقال:

"آآ، تذكّرت".

"نعم، إنه شبابكَ أنتَ، الذي يركل إلى الوراء، وهو يُركَل بعنف" قال ساندرز، "وأودّ أن أقول لكَ، ليس لدينا أدنى تعاطف معكَ بالمرّة، "العاملة" قصيدة جيِّدة، ليس فيها من عيب سوى أنكَ أنتَ مَنْ كتَبَها".

"يسعدني أنك تعترف بشيء لي" أجاب ياستراو.

ولكن أولوف تقلّب بمشيته إلى ستيفينسن، وأخذ يُحدِّق باهتمام فيه.

"غنِّ مرّة أخرى" صاح بصوت حادّ، "هيا، غنّ مرّة أخرى."

ضحك ساندرز بصوت عال. نظر ستيفينسن بدوره إلى الأسفل حيث الصّبيّ مُوجّهاً إليه نظرة غريبة، ثمّ نقل قَدَمَيْه الكبيرَتَيْن، كما لو أنه كان يخشى أن يمسَّه، وبفَهْمٍ فطريّ أدار الصّبيّ ظهره ومشى إلى ساندرز مرّة أخرى. الإبزيم، يلتمع.

تحرّك ستيفينسن بقلق في مكانه، وقد صرّ الكرسي مرّة أخرى.

"ولكنكما ستبقيان هنا، أليس كذلك؟" قال ياستراو، "الله يعلم ما الذي ستقوله يوهانه حيال ذلك"

(*) Arbejdersken 1898: "العاملة" عمل مسرحي كتبه في الأصل سوفوس كلاوسن، تناول الحركة العمّالية التي بدأت في أواخر القرن التاسع عشر عبر عاملة المصنع التي ترتبط بعلاقة حُبّ بربّ العمل للمصنع.

الكرسي مازال يصرّ، وكأن ستيفينسن لم يجد الراحة فيه.

"أوه، هناك دائماً لمسات رومانسية لدى النساء"، أجاب ساندرز بتعالٍ، "مثل هكذا نساء من البرجوازية الصغيرة يُدغدغنَ الجسد أكمله"، استطعَمَ ساندرز بقول الكلمات، "حين يجالسنَ المحكومين من دون خطر، عندما تكون ثورياً تمتلك جاذبية جنسية، وهي لا بدّ ستُصدَم في البداية، ولكنْ، آه، بعدها، أنتَ تعرف يا أوله، علم النفس الجنسي، ونحن بالتالي لسنا خطرين، ستيفان وأنا، صحيفة أعمالنا تقريباً نظيفة".

"وأنا أريد الجلوس على كرسي آخر، اللعنة عليه" انفجر ستيفينسن، "تعال هنا، بيرنهارد! لديك إليةٌ أفضل منّي للجلوس على مقعد كهذا".

"لماذا كراسيكَ بهذا التصميم؟"سأل ساندرز، وقام ببعض خطوات رقص على نمط الروكوكو عندما تبادل مكانه مع ستيفينسن. خبّ أولوف بخطواته تابعاً ساندرز.

"لا شيء، إنها تذكّرني بالكراسي في مسرحي للدمى" قال ياستراو وهو يبتسم بخجل، "أنتَ تعرف، قَصر الملك في قصّة "القدّاحة" و"هانس الأحمق"(*). أعتقد أنني لهذا السبب اشتريتُهم، لعلّكَ تفهم"، بدا وكأنه اعتذار.

ولكنْ، كان هناك ثمّة وميض في عينَي ساندرز. شيء أحمر من السخط قد برز فيهما. عينا غجري مُحمرَّتان متفجّرتان بالدم.

"أفهم "سخَر منفعلاً. "نعم، وتظنّ نفسكَ مشاركاً في الحرب بلعبكَ بجنود الصفيح، وها أنتَ قد أفسدتَهُ، ابنكَ، وتركتَهُ يلعب بهم، هه؟ يا لهم من جنود هؤلاء الذين لديكَ! ما هو اسمك؟" نظر إلى الأسفل، حيث وقف الصّبيّ بين ركبتَيْه. كان ذلك الإبزيم.

"أويوف"، أجاب الصّبيّ دون النظر إلى أعلى. لم يرغب في أن يُزعجه أحد.

"أويوف، اسمع، أولوف، يجب التّحدّث بوضوح دائماً مع الأطفال، اسمع، أولوف، أنتَ نملك حقّاً جنوداً حلوين".

نظر أولوف عالياً إليه من دون أن يردّ. إنه لا يملك جنوداً من الصفيح، لم يفهم ما قاله الغريب. ابتسم ياستراو بخبث.

ولم يدع ساندرز لذلك العائق أن يُوقفِه. ازداد الصوتِ ضخامة وقُوَّة، رغم السخط المقدّس،

---

*) من حكايات الكاتب الدنماركي هانس كريستيان أندرسن الخرافية

وبتصاعد غير حماسي في النغمة، غضبٌ نبوي، واصل حديثه: "ليس هناك من لا عقلانية مثل عقول البرجوزاييّن، بمقدوري أن آخذ كل قطعة أثاث هنا في شقَّتكَ لأريكَ كم أنت بالأساس عاطفي، مثل الآخرين كلهم، وما الذي تخفيه هذه العاطفية؟ في أحسن الأحوال، تخفي ضراوة الغريزة والتّحرّكات الخاصّة، وفي أسوأ الأحوال، تغطّي على الجُبْن، لا، لا شيء آخر مَخفيّ خلف اضطرابكَ، ثمّ انظر إلى هذا الصنم! ما الذي يفعله هنا؟"

"ولكنْ... لماذا، مكانه حلوٌ هنا؟" دمدم ستيفينسن الذي تناوله وراح يدحرجه بين يَدَيْه مثل قطعة سجق، ثمّ تلمّس بيده رأسه، وتحسّس شكله.

"قل لي ما الذي يفعله هذا بين كراسي الروكوكو، أريكة كريستيان الثامن، لوحات كريستان التاسع على الحائط".

هناك لوحات عادية قد عُلّقت على الجدران، كان ياستراو قد حصل عليها من بيت أهله.

"جُمعت الله أعلم من أين، هدية من الخالة -بينا-! للذكرى من الجدّة، من هنا وهناك. ما وُجِدَ في محلات بيع الأنتيكات، تسلية وعاطفيات، ولا حتّى فقر حقيقي خالص، فبيت العمّال يكون ...".

وقعت عين ياستراو باللحظة على ولده الذي انسحب بعيداً عن ساندرز الصاخب، ووقف مُتَّكِئاً إلى الباب، يُحملِق به بوميض متوهّج من الغضب في عينَيْه. مضيّفاً أكثر من أبيه.

لقد عرف بالفعل كيف يدافع عن بيته، بينما أبوه ...

"أنتُما باقيان، إذاً، الليلة هنا" قاطع ياستراو صائحاً بصوت عال، ونهض.

التزم ساندرز الصمت مُتفاجِئاً، وأعاد ستيفينسن الصنم إلى مكانه.

"أجل"، همهم ستيفينسن.

"تماماً" أجاب ساندرز مبتسماً.

"هذا يعني أنكما ضيفاي".

"تماماً".

"إذاً عليكما أن تتقبّلا قوانين هذا البيت كما هي. لِتُعلِّقا معطفَيْكما في المدخل. واتركوني بسلام، لأقرأ. يجب أن أُكمل مراجعة لكتاب. عليّ أن أراعي عملي"

"سنلزم بالتأكيد الهدوء" أجاب ساندرز بدبلوماسية، ونهض لكي يُعلّق معطفه في الممرّ. "أنتَ تفهم في المزاح، يا أوله؟"

لم يُجبه ياستراو.

"بالطبع أعني ما أقول" واصل ساندرز عندما عاد ودخل. "جزء من هذا مناكفة، هل تفهم؟ وأنا لا أقول رأيي لأيّ شخص".

فأجابه ياستراو بسخرية"هكذا إذاً، كان ذلك إطراء"

وباللحظة، ضحك ستيفينسن، ضحكة خشنة غير حقيقية.

استهزاء وسخرية على الدوام من قِبَل هذَيْن الشّابَّيْن. شعر ياستراو بأنه مُحتَقَر من قِبَلهما مثل رجل مُسِنّ أعزل. كانا فَطِّيْن جدَّاً معه. بدت الصالة وكأنها مكتظّة بالبشر، إلى هذه الدرجة كانا قد تعدّيا عليه. كيف يمكن له أن يهدأ؟ عليه، على الأقلّ، أن يُتمّ قراءة كتاب اليوم! ويجب أن يكتب نقداً فيه! وهذه الكُتُب الأخرى كلها؟

"آ، انتظرا لحظة" قال بنرفزة لهذَيْن الاثنَيْن. هكذا دائماً. يصير ضعيفاً دائماً بعد نوبات غضبه القصيرة.

حينها دقّ جرس الهاتف.

"ليجب أحدكما، قل إني غادرتُ للتّوّ. وهذا صحيح حرفياً،" واصل بابتسامة متعبة، "لأني ذاهب إلى المطبخ من أجل القليل من نبيذ بورتو".

"رجل ذكي" قال ستيفينسن، وانحنى مُبدِياً استعداده للخدمة متوجّهاً صوب سمّاعة الهاتف.

راح ياستراو إلى المطبخ، وقعد على ركبَتَيْه، حيث خزانة المؤن. اصطفّت الزجاجات في قاع الخزانة. سمع صوت ستيفينسن من عمق الصالون. كانت مكالمة خطأ. وأخيراً عثر على الزجاجة التي بحث عنها. زجاجة من ماركة نبيذ بورمستر الغامق. ها هي بملصقها الأسود والختم الأصفر في الأسفل عند الزاوية. وحدها رؤية الملصق أسعدتْه. ووضع الزجاجة بعناية على طاولة المطبخ.

"نحملها".

كان هذا رأس أولوف المجعّد هو الذي ظهر أسفل جيب السترة. كان يودّ المساعدة.

"لا، هذا ليس للأولاد الصغار، ستنكسر."

وجد من ثمّ ثلاثة أقداح بلون أخضر، رفعها صوب الضوء، وأدارها، ليرى إن كانت نظيفة، ودخل بعدها إلى حيث الآخرون. تقلّب أولوف في مشيته لصق أبيه.

ولكن ياستراو وحالما حمل الزجاجة إلى صدره شعر بهدوء صاف ولامع، وكأنه كان فجأة في بيته، هو الذي كان غريباً بين كل ما حوله، بين أثاثه، تجاه ابنه، تجاه ... تجاه، ما كتبه هو. ولكنْ، الآن بدا كل شيء من حوله بشكل أوضح. صار أنظف. صار للأثاث حدود أكثر ثباتاً. الضيوف أكثر طمأنة، أكثر ليناً، أكثر موضوعية. صاروا بشراً بمنأى عنه. كان بإمكانه مخالطتهم. بينما كانوا جزءاً من ذاته قبلاً، أرواحاً شرّيرة في داخله، هلوسات، لم يمكنه تحرير نفسه منها، مطارَدٌ من قبلهم.

لكنه لن يكون مضيّفاً الآن كذلك، هذا الكرم ليس له موهبة فيه. كان أكثر منه الرفيق الذي كان محظوظاً في قيامه بانقلاب. وبابتسامةٍ فيها دهاء وانتصار وضع الزجاجة والثلاثة أقداح على الطاولة الكبيرة ونقل الهاتف إلى سدّة النافذة.

"لا، شكراً، أنا لا أشرب" اعترض ساندرز، ولكنه قرّب كرسيه لأجل المؤانسة.

"ألا تشرب أنتَ كذلك؟" سأل ياستراو مُنزعِجاً.

"بلى!" قال ستيفينسن ومطق شَفَتَيْه. طاف في عينَيْه بريق حادّ. "أنا أشرب" أضاف بتركيز على كلمة أشرب ما يجعلها مُدانة.

"أوه يا ساندرز، هيّا خذْ لكَ كأساً". كان ياستراو حقّاً حزيناً "البورت نبيذ ممتاز".

"ولكني لا أشرب. في الواقع، ليس لأني لا أُحبّ الشرب، ولكنْ، عندما ينظر أحدنا إلى العالم اجتماعياً، كما أفعل ...".

"ولكنكَ لم تكن يوماً مخموراً" قاطعه ياستراو.

حينها اعتدل ساندرز وصار حادّاً في استهانته؛ "نعم، ها نحن عدنا إلى لغو الفردية من جديد، وكأن أحدنا ينقطع عن الشرب فقط بسبب الانهيار، انظر، أنا شيوعي، ولديّ مسؤولية تجاه الآخرين عدا نفسي، لديّ مسؤولية أمام المجتمع، المجتمع الجديد، و ...".

"آمين!" رتّل ستيفينسن، وتناول الزجاجة بتصرّف فردي، وملأ الأقداح، ثلاثتها، وأخذ كأسه إلى فمه من دون أن ينتظر ياستراو، وأفرغه في جوفه دفعة واحدة، من دون أن يستمتع بالنبيذ، من دون أن يتذوّقه.

ياسترا و نظر إليه بخيبة، ورفع كأسه بحذر إلى شَفَتَيْه.

"صحّة!"وهزّ رأسه، وابتسم عندما تناول ستيفينسن الكأس الثالثة التي كانت مقرّرة لساندرز، من دون خجل، وأفرغها باللحظة في جوفه.

كان شيئاً جامداً، فجّاً تقريباً في ذلك الوجه، فكّر ياستراو وشرب. ترك النبيذ يملأ فمه ببطء، جعله ينزلق من على اللسان ببطء إلى البلعوم، لكي تترسّب طبقة من المذاق الحلو.

"ولكن هذا الشيوعي ستيفينسن، إنه يشرب كما ترى؟" علّق ياستراو متسائلاً وهو يؤشّر بيده بالكأس صوبه بسخرية ووقار. كان هنا للحظة مضيّفاً. المضيّف المناسب.

"هو" ضحك ساندرز باستخفاف، "هو ليس بشيوعي. إنه سلاّب".

في الوقت ذاته، دار المفتاح في قفل الباب عند المدخل.

كانت يوهانه قد عادت إلى البيت.

الفصل الثاني

"ماما" صاح أولوف، وركض صوب الباب.

نهض ساندرز مُسبَّقاً في مكانه، بيدٍ استندت إلى ظهر الكرسي بدا مُدهِشاً ولافتاً للنظر. بلورته الروسية بلونها المصفّر وحزامه اللامع أظهرا قامته الهزيلة الزاهدة. كان نموذجاً أصلياً للشيوعي الروسي.

بينما بقي ستيفينسن جالساً في مكانه، يُحملِقُ بخجل في إحدى الكؤوس الفارغة.

وها هي السَّيِّدة يوهانه تقف عند الباب، وقد بدت مُتفاجِئة، ولكنْ، بهيئة مَنْ تملك زمام الموقف. كانت طويلة وممتلئة، وقد ارتدت جزمة طويلة، بطبيعية رائعة.

جاكيت شامواه وحقيبة كتف جِلْدية بشراريب كاوبوي، خشّنت من عودها الذي لازال طرياً.

"عندكَ ضيوف كما أرى" علّقت بجفوة، والعينان الزرقاوان برقتا للحظة. ولكن الومضة القاسية سرعان ما صارت رقيقة كما بدت، والابتسامة حول الشَّفَتَيْن الشهوانيَّتَيْن خلّفت طبقة مضيئة من الضباب على وجهها، ضباب تداخل مع لمعان الشَّعْر الأشقر. كانت كبيرة وذهبية.

"إنه لمن الممتع دوماً أن نرى غرباء عندنا" علّقتْ، ووضعتْ طرداً على الكرسي وتنهّدتْ بتوتّر. "لا بدّ لي من نزع معطفي أوّلاً" تابعتِ القول، ونزعت قفّازَيْها الجِلْديَّيْن الطويلَيْن بينما أغلقت عينَيْها الوقت ذاته، وزفرت كأنها تنفخ جوّاً من العجلة بعيداً عنها. تمكّن ياستراو من خلال عينَي ساندرز أن يرى أنها جلبت الضوء إلى داخل الصالة.

"أرى أنكَ قمتَ بالواجب تجاه ضيوفكَ، يا أوله، وهل كان أولوف هادئاً؟ ماذا عن الموقد؟ نعم، ربّة البيت لديها الكثير الذي تفكّر فيه!".

الأخير الذي قالته كان مُوجَّهاً إلى ساندرز الذي تقدّم بأناقة، ليعينها في نضو معطفها الشامواه. نهض ستيفينسن أيضاً، ولكنْ، بصعوبة، وكأنه يترنّح، وسرعان ما تجمّد وجه السَّيِّدة يوهانه حال رؤيتها له. الضباب الذهبي الخفيف اختفى وكشف عن معاني وجهها القاسية جدَّاً.

"أجل، الموقد، لقد تذكّرته" أجاب ياستراو متوزّعاً. ولكنْ، ثمّة شيء آخر، شيء ما؟ أجل، عليه أن يقدّم الآخرين لبعضهم. وأفرغ الكأس، وتماسك.

"هذه زوجتي، وهؤلاء أصدقائي، بيرنهارد ساندرز وستيفينسن، من الزمانات القديمة. وهي، من المقصف في الجامعة كما تعرف".

"بيرنهارد ساندرز،" كرّر ساندرز، وانحنى.

السَّيِّدة يوهانه مدّت يدها بوقار، وقد لاحظ ياستراو بوخزة ألم كم هو طبيعي وقارها هذا!

و كانت محافظة تجاه ستيفينسن الذي تمتم بكلمَتَيْن.

"أصدقاء زوجي مرحّب بهم دائماً في بيتنا. ولكنْ، يا لكثرة أصدقائه! لازلت أتوقّع أن جُددا سيتوالون في الظهور".

"أجل، سيحصل ذلك" قال ياستراو وهو سارح. فكّر كيف سيفهمها الموقف. رنّ الهاتف حينها.

"هل رنّ الهاتف كثيراً اليوم؟" سألت يوهانه. كانت قد جلست، وعلى وشك أن تخلع جزمتها الطويلة من قَدَمَيْهَا عندما ظهرت ساقاها الجميلتان المشدودتان بجواربها الخفيفة، بدتا حسّيّاً عاريَتَيْن.

"الجحيم بعينه" أجاب ياستراو، وقال بعدها في سمَّاعة الهاتف؛ نعم، هو أنا. حسناً، لا! لا، لم تنقطع. بلى، بإمكاني ولا شكّ. إيه، هناك ما يكفي في قسم التنضيد، هناك البرجوازي، وهناك الضئيل، ولكنْ، بلى، الصور، الكليشيهات أيضاً، هناك مادّة كافية، ولكنْ، ولكنْ، إنها مراجعتي لكتاب ستيفاني، أردتُها في الصفحة الثقافية، ولكنْ ... ألا يمكن نشرها في الجريدة؟ لا يزال ستيفاني يضغط بشأنها. هو يُلحّ في المتابعة معي في التحرير يومياً، أو على الهاتف أيضاً. هه! غير ممكن! أجل، فريد من نوعه. أظنّه يريد أن يكتب المقال بنفسه. لا، ولكنْ، على أيّة حال، فيما لو، نعم، حسناً! حسناً!".

"هل ستذهب إلى الجريدة هذا المساء؟" سألت يوهانه بحدّة.

"أجل، أنا مضطرّ ومُرغَم على ذلك" أجاب ياستراو.

ولكنه، وعندما نظر بالوقت نفسه صوب ساندرز، قنص ومضة أخيرة من ابتسامة شرّيرة قبل

أن تختفي. ما الذي جرى؟ من خلف ظهره؟ لم يرّ إلا ظلاً منه قبل أن ينزلق بعيداً. وستيفينسن؟ كان ستيفينسن ينظر بعيداً عنهم، كما لو أنه كان يُنصت، ولكنْ، إلى ماذا؟ المكالمة الهاتفية؟

"أجل، أنا مضطرّ ومُرغَم على الذهاب" كرّر بقلق. هنا ثمّة مخرج. لم تكن السكرتيرة في التحرير قد أمرت، ولكنْ ... ولكنْ، لن يمكنه ترك زوجته تجلس مع اثنَيْن غريبَيْن تماماً. أووه، السلام، السلام، لتبعد من هنا حسب، انزلْ إلى الشارع، تَبرَّدْ. وهل يصحّ التّنصّت إلى المكالمات الهاتفية؟ هل هذا صحيح؟

"أنا لا أفهم هذا الركض" انبرت قائلة بانزعاج. "نكاد لا نعرف متى تكون في البيت، أنتَ لستَ مراسلاً صحفياً".

"لا، للأسف،" تنهّد ياستراو.

"هكذا هو الحال مدام" علّق ساندرز مواسيا إيّاها، "صحفي ورجل بيتوتي في الوقت ذاته، ذلك أمر مثالي، مستحيل تقريباً". الكلمات انسابت خفيفة.

"اسمعوا، يوهانه، من المؤكّد لدينا طعام كاف في البيت، نتناوله نحن الخمسة؟" سأل ياستراو، كما لو كان مروراً سريعاً. كان عليه أن يقترب من الموضوع الخطير، كي يدخل إليه.

نظر ساندرز إليه نظرة تجسّس. أزعجته ومضة مناكفة في عينَيْه السوداوَيْن الغجريَّتَيْن.

"أجل، إن قبِلَ أصدقاوك بما لدينا. فكّرتُ بتناول المعكرونة مع قِطَع من لحم الظهر. بإمكاني الذهاب لشراء قطعة إضافية. بصلصة البندورة مثلاً. ما رأيكم؟ سيِّد. سيِّد. سيِّد ساندرز"، بلحظة توقّفت مُتفاجِئة من الاسم، وصارت أكثر حدّة، أكثر بياضاً في وجهها. للحظة، لم تتمكّن من التّكلّم. ولكن الكلمات انطلقت بعد ذلك، كلمات غريبة لا شخصية، وهي تُمعِن النظر أمامها بعينَيْن زرقاوَيْن شاحبَتَيْن، وكأنها كانت تردّد أُغنيّة للأطفال: "نعم، لدينا بيرة، لدينا قهوة، لدينا سكّر وقشطة، بلى، سأتدبّر الأمر، ولكنْ، لن يكون شيئاً باذخاً."

"ليس باذخاً، سيِّدتي؟" علّق ساندرز. صار صوته طرِباً، نصف مستاء، نصف منتصر. "إنه الشَّرَهُ بعينه، والطعام لا يعني أخيراً شيئاً".

"كلا، بحقّ الشيطان، الجوع ليس بأمر سيِّئ" دمدم ستيفينسن بصوت حياديّ، "على ألا يطول الأمر كثيراً".

"لعلمكم، الفقراء لديهم رأي آخر" أجابت يوهانه بسخرية، "هلا تركتَ الجزمة، يا أولوف".

"أنا فقير" خرجت بغضب من فم ستيفينسن، ولكنه انحنى مرّة واحدة إلى الأمام الوقت ذاته. لم يشأ أن ينفعل. حملق بغباء في كؤوس النبيذ. كأس أخضر! كأس أخضر! يبدو النبيذ مثل دواء في هذا الكأس الأخضر.

"ولكنْ، يوهانه، هل لدينا شراشف؟" أضاف ياستراو.

"لا، لا،" كان هذا ساندرز. "لا تُتعبوا أنفسكم كثيراً، بإمكاني النوم على كرسي، إن اقتضى الأمر، وستيفينسن على الأريكة. ذلك أفضل من النوم على مصطبة في شارع سوندرا بوليفارد".

"أو تلك التي في منطقة فريديريكسبيرغ روندال، أليس كذلك؟" ضحك ستيفينسن، وتناول الكأس، قرّبه إلى فمه، وأفرغه.

تحرّكت عينا يوهانه تائهة بينهم، وتوقّفت أخيراً بريبة عند الرجل. وفجأة وجدت لها متنفّساً. سحل أولوف إحدى جزمَتَيْها الطويلتَيْن، فانحنت تماماً إليه قائلة "أولوف، كم مرّة قلتُ لكَ، اترك الجزمة في مكانها" ضربة خفيفة على أصابعه.

"ولكنْ، سيِّدتي، لا تتصوّري أننا بلا بيت" علّق ساندرز بدماثة. لم تسمعه يوهانه. أدركَ ياستراو أن نفوراً شملها. ولكنْ، لِمَ هذا الصدود المُفاجِئ تجاه ساندرز؟ جاء مُفاجِئاً جدًّاً، بنظرة واحدة.

"ما نحن إذاً؟" ضحك ستيفينسن.

"أنتَ، أجل، أنتَ متشرّد، ولكنْ، أنا لديّ سَكَنٌ هناك" وهزّ رأسه تجاه منطقة الفيستربروغيذه.

"أنتَ لا تجرؤ أن تكون هناك. أنتَ ميّت من الخوف من الشرطة" أجاب ستيفينسن.

وما سمعتْهُ يوهانه هزّها تماماً.

"قل لي يا أوله" انبرت يوهانه قائلة "سأُجنّ حقّا، ما هذا الذي يجري؟ شرطة؟ وينامون هنا الليلة؟ ونحن ليس لدينا مكان هنا للمبيت، أنتَ تعرف جيِّداً، لا يمكننا استقبال ضيوف للمبيت".

"شرطة؟ إنها مُجرّد تفاهات. ويمكننا استقبالهم، بإمكاننا ذلك" دبكَ ياستراو على الأرض، وشعر بنفسه سخيفاً، "بإمكاننا، بإمكاننا، بإمكاننا، لأن ذلك مفروض علينا، عليّ أنا، على أيّة حال. أنا مَدين لنفسي بذلك" حاول أن يبدو غاضباً.

"هكذا، إذنْ، حسناً" أجابت بشعور بالإهانة، وبفجائية يمكن الإحساس بها بالفراغ الذي حلّ في جوّ الصالة حين غادرت مختفية في المطبخ.

"لا، هذا ما لا أُحبّه" أجاب ساندرز قلقاً وبسرعة "نحن لا نفرض أنفسنا على أحد. لو لم يكن أنتَ، يا أوله، الذي أعرفه جيِّداً، لما تجرّأت..".

بدا ستيفينسن مُستمتِعاً من دون صوت.

"آه، أيّها الحيوان،" قالها مُمتعِضاً منه.

سمع ياستراو في الوقت ذاته قعقعة الصحون في المطبخ. كانت تصلصل انزعاجاً، وباب إحدى الخزانات ينصفق.

"آه، انتظر لحظة" اعتذر ياستراو بنرفزة، وتوجّه إليها.

"اسمعي يوهانه".

أعطتْهُ ظهرها، وكأنها منشغلة بحماسة في حسابات ما، ولم تجبه.

"اسمعي يوهانه،" حاول أن يكون هادئاً ووديّاً.

دسّت خنصر يدها اليسرى في فمها مقلّبة الأمور في رأسها. كانت منشغلة بالتفكير تماماً. ثمّ أدارت وجهها. كان عارياً شاحباً، عارياً جدّاً ومذهولاً.

"وأنتَ ذاهب إلى الجريدة، وعليّ أن أكون وحيدة مع هذَيْن الرجلَيْن"، طارت الكلمات فجأة من فمها.

"اشش، اشش، بإمكانهما أن يسمعا".

"لا يهمّني ذلك، وأيّ أصدقاء جميلين لديكَ!" واستدارت بانفعال شديد ومشت إلى طاولة المطبخ، تناولت قدحاً، وظلّت واقفة في مكانها قليلاً والقدح في يدها، ثمّ أعادتْهُ بضربة منفعلة: "لا، لا أقبل".

من خلال ظهرها ورقبتها العارية كان بإمكانه أن يرى مدى غضبها.

"لا، لا أقبل".

واستدارت، من ثمّ، بتصميم مُتّكئة إلى الطاولة، لتتماسك.

"اسمع، لا أقبل بذلك، سأذهب إلى بيت أهلي في المساء، سآخذ معي أولوف".

ورافق، من ثمّ، صوتها شكوى وندب "بلى، سأفعل ذلك. هو ذنبكَ أنتَ. أنتَ الذي يشرّدني من بيتي. هذا ليس بمكان لي".

"ولكنْ، يا يوهانه" اعترض ياستراو.

هزّت يوهانه رأسها، وسرّحت شَعْرها لتهدأ.

"لا، لا نواح، سأطبخ الآن الطعام، وسأقول بعد ذلك، للأسف عليّ الذهاب، ولكنْ ..."، صار صوتها جافّاً "هذا غير مقبول، أن لا نهنأ حتّى في بيتنا، وفوق ذلك أن يبقيا هذه الليلة هنا أيضاً. لماذا، إن سمحت لي بالسؤال؟ هل تريد الشرطة القبض عليهم لمقالاتهم الرخيصة، تظنّ أني لا أعرف هذا الساندرز، هل تظنّ أني لا أقرأ شيئاً، أعرفها جيِّداً، هذه التي يكتبون فيها، مجلّة القذارة".

"ولكن ذلك ليس إجراماً أخلاقياً " انبرى ياستراو قائلاً "إنهم .."

"لا، غير صحيح؟ عندما يكتبون هكذا بطريقتهم فهم ليسوا أفضل بشيء. هذا رأيي. وأنتَ ... مَنْ تدخلهم بيتنا ...".

رفع ياستراو حاجبَيْه عالياً تعِباً.

"هكذا كنتُ أكتب ... في يوم ما".

"لا يمكنني حقيقةً أن أفهم" أجابها، "وهم، على أيّة حال أناس يكافحون من أجل فكرة".

"فكرة! نعم، فكرة لا أخلاقية، إنها بالفعل فكرة جميلة! النساء يجب أن يكنّ ملكية للدولة، أليس هذا صحيحاً؟ وأنتَ تريد الموافقة على ذلك ... إنها".

"مهلاً مهلاً!"

"قد لا تظنّ أيضاً أنها لا أخلاقية؟"

"كفى!"

"ولكني أعرف الكثير، والدي لم يكن ليحتمل إطلاقاً هؤلاء الناس في بيته، وأدولف كذلك".

"أخوكَ الحبيب أدولف، هه؟ ولكنْ، يوهانه، ألا يمكنكَ أن تفهمي أن ليس بمقدوري غير ذلك؟ هه، فنّان يفتح بيته لصديقه، لمعارفه القدماء، لأن الشرطة تبحث عنهم. ألا يمكنك أن ترين، إن كان هناك من شيء سخيف فهو هذا، وإن كانت جريمة بقصد السرقة؟".

"هل حقّاً ما تقول؟".

"نعم، ما دخلي بالشرطة؟ والمسألة لا تتعدّى الاعتقال كعقوبة، لأنهم يجرؤون على كتابة ما لا يجرؤ الآخرون على كتابته. صحيح أني لا أتّفق معهم، أعني ليس تماماً، ولكني لا أستطيع الآن أن أُقفل الباب بوجوههم، احتقريهم، كوني برجوازية، أمّا أنا، فلا أستطيع. وهي ليلة واحدة فقط، فإن فاز الديمقراطيون الاشتراكيون بالانتخابات في الغد، وذلك سيحصل، فسيشمل هؤلاء عفو".

"حسناً، لا يهمّني ذلك. أنتَ تجعل من بيتكَ حانة حقيرة حسب، بينما وحين يخصّ الأمر عائلتي فأنتَ نحس على الدوام، أجل، هكذا أنتَ. أجل، وعليّ الآن أن أتدبّر أمر لحمة حبل الظهر".

"هل ستبيتين عند أهلكَ؛ إذاً، الليلة؟".

"نعم".

عضّ أوله ياستراو طرف الغليون بعصبية، وراح إلى ضيوفه. ولكنْ، كان هناك جوّ دافئ في الصالة. جلس ساندرز على راحته مُتّكِئاً، يقرأ في كتاب صغير، طوى ظهره. وضرب ستيفينسن غليونه بقَدَم الكرسي كي ينزل الرماد منها على السّجّادة.

"غريب أن لديكَ قصائد "سيجبيورن أوبستفيلدر" قال ساندرز، ووضع الكتاب المَطويّ في حضنه. "لم أتصوّر أنكَ تفهمه".

يقصم ظهر كتاب! طبع أصابع أسود على صفحات بيض! لا، لم يشأ ياستراو أن يرّد. جلس غاضباً على كرسيٍّ عند النافذة، بعيداً عن الحميمية الرفاقية.

كان ستيفينسن خلالها قد أشعل غليونه من جديد، وشرع في الكتابة. راح يكتب على ضبّة ورق لِلَفّ الساندويتشات، كان قد سرقها من مقهى.

"كما ترى بإمكاننا تدبُّر أمورنا بأنفسنا" علّق ساندرز من دون سخرية "لتتمكّن أنتَ من مواصلة عملكَ مع كتابة المراجعات، لن نزعجكَ".

"شكراً" أجاب ياستراو.

"ماذا؟ هل تسخر، يا أوله؟"

لم يجبْ ياستراو. ولكنه توجّه بكُلّيّته بغرابة إلى صفوف المراجعات، وتناول كتاب هـ. س. ستيفاني "لماذا تركتَني؟"(*). كان تواضعه مردّ ذلك.

عمّ الصمت في الصالة. من شارع الفيستربروغيذه الذي كان على مبعدة بناية، يمكن للمرء سماع صوتٍ منطفئ لضوضاء حركة المرور. عَلا صفير القاطرات داخل محطّة القطار الرئيسة. غَلى غليون ستيفينسن. كان ذلك هو الصوت الوحيد والأقوى في الصالة. يوهانه قد أخذت معها أولوف إلى الأسواق، لتجلب لحمة حبل الظهر.

ولكنْ، كان هناك، بالرغم من ذلك شيء دافئ في الجوّ، أن بضعة رفاق تكيّفوا في صالته، وشعروا كأنهم في بيتهم. وأن تكون الشرطة تبحث عن هذَيْن الاثنَيْن كان فعلاً لا مَدَنياً تماماً، وبلا حدود، أليس لذلك علاقة بالانفتاح والأبدي؟ هناك أناس يمكن أن يكونوا أبديِّيْن إلى حدّ كبير. لامتناه! ولكنْ، هل كان هناك دفء؟ كلا، كان هناك وميض كهربائي بارد. يمكن أن نواجه مثل هذا الوميض في ليلة شتوية، ونتجمّد.

اكتشفَ لحظتها أن عينَي ستيفينسن بالنظرة الصقيعية تلك قد استقرّت عليه. هكذا وميض ذات ليلة شتائية. الكثير من البشر. المصابيح المُنحنية المُزرقّة لأعمدة الشوارع، الضوء الضبابي. الإسفلت.

نقل ستيفينسن، من ثمّ، نظرته، وحملق في أوراقه. ولم يتحرّك ساندرز من مكانه، عدا حين يقلب صفحة في ديوان سيجبيورن أوبستفيلدر الشِّعْري، أو حين يشعل له سيجارة ثانية بجمرة الأولى.

بلى، كان هناك حميمية ودفء. كان هذا ما يريده ياستراو، على أيّة حال. هذان الاثنان قد لجأا إليه، وقد كانا في مأزق. مرحلة الشباب قد جاءتْهُ، الشاعر والناقد. قد أهاناه، نعم، ولكن ذلك لم يكن من أجل أن يُبرِزا نفسَيْهما؟ سرعان ما هدأا، وشعرا بأن البيت بيتهما. لديه الذهن المطلوب، الذهن الذي لا حدود له، والذي ينتمي إلى مرحلة الشباب. مرحلة الشباب؟ عمره أربعة وثلاثون عاماً. ليس شابّاً. ليس شابّاً. هل سرعان ما حان دوره ليُطيع، وينحني ليُنصت؟

واندسّ المفتاح في باب المدخل، وسمِعَ ضجّةَ أولوف وجزمةَ يوهانه في المدخل. هما ثانية.

اعتدل ساندرز في جلسته، وأنصت بابتسامة المعجب بنفسه. ولم يفعل ستيفينسن سوى أن يهزّ رأسه، كما لو قد تمّ إزعاجه، وتابع الكتابة.

---

*) اقتباس من كتاب العهد الجديد "ربّي لماذا تركتَني؟"

ولكن يوهانه لم تدخل الصالة. ذهبت من المدخل عبر غرفة النوم إلى المطبخ، وقد أخذت معها الصّبيّ، وعجّلته.

"والآن، سرعان ما سيحضر الطعام" قال ياستراو.

"إن هذا لكثير حقيقة" علّق ساندرز.

سُمع صوت ضربة مخنوقة سريعة في المطبخ. إنه طبّاخ الغاز الذي تمّ إيقاده.

"وماذا في ذلك؟ من النادر أن نلتقي كما تعرف" أجاب ياستراو. "هاها!" ضحك ساندرز بصوت عال. الاستهانة من جديد! على ياستراو أن ينهض. تلك الرطانة لم تكن محتملة. وبعصبية، شرع يروح ويجيء في الصالة. لم يقلْ شيئاً. من السخف أن يتحسّس من نغمتهما في الحديث. واصل ساندرز القراءة غير عابئ. ستيفينس كان يكتب. كانا يشعران وكأنهما في بيتَيْهما. ولكنْ، هو ... هو ...

تخلّلت أصابعه شَعْرَهُ بحزن، بدا وكأنه كان يفكّر. جالَ في الصالة، جيئة وذهاباً.

وأخيراً جاءت يوهانه مندفعة، هي الآن ربّة بيت، ليست سوى ربّة بيت، ولكنْ، متكاملة من نوعها، راشدة وجميلة، غارقة في عالمها تماماً.

"بإمكانكم الآن أن تجلسوا، الطعام جاهز".

كانت سلْطةً محض. لم يكن بمقدور ياستراو أن يُقاومَها. لا بدّ وأن جسدها سيمتلئ مثل أمّها، فكّر ياستراو.

"تفضّلوا، وخذوا مقاعدكم عند الطاولة. آمل فقط أن يناسب الطعام ذوقكم، لأننا، بصراحة، لم نتوقّع زيارة أحد اليوم".

كم كان ما قالته صحيحاً! كم كانت حَيّة متألّقة في ذلك الصالون العادي بأثاثه البلوطي بلونه الفاتح التقليدي، والذي جاءت به من بيت الأهل! تحت ضوء المغرب الخافت صار جسدها، وجهها الشاحب وشَعْرها الذهبي مُشبَعَاً بمادّة مضاءة روحية بالألق المنسحب ذاته ليوم نَيسانيّ. لربّما بمقدورها أن تكون سعيدة يوماً. ووقف ياستراو سارحاً عند الباب بدَرفَتَيْه، وقد قطع الطريق على ضيوفه. دائماً كان جسده الضخم يقف عقبة. كان جسماً زائداً.

دخل ساندرز وستيفينسن. ساندرز بنظرة تحليلية. مرأى غرامافون جانب البوفيه أيقظ ابتسامة

اعتراف. جلسوا عند المائدة. ياستراو عند طرف المائدة وستيفينسن بظهره إلى النافذة وساندرز مقابل يوهانه والصّبيّ.

أبعد ساندرز البيرةَ عن صحنه بحركة دقيقة.

"أنا لا أشرب" قالها بابتسامة خجولة.

وشرعوا بالأكل.

في البدء، كان هناك صمت مضغوط أخضع حتّى الصّبيّ. كان يدور برأسه طوال الوقت بشَعْره المجعّد، ويودّ قول شيء. ولكنه شعر بأن اليوم هذا لم يكن من الممكن أن يكون فيه شقياً، فالتزم الصمت. الفم كان يتحرّك بصمت.

وأخيراً قطع ساندرز الصمت.

"آمل ألا تظنّي أننا بضعة مجرمين سيِّدتي لأن الشرطة تطلبنا".

الصوت الغليظ دفع بالصمت بعيداً.

"لا، ولكني أعتقد أنكم بضعة أولاد عابثين" أجابت يوهانه برمية واثقة برأسها، ثمّ أمعنت النظر بشكل ثابت في ساندرز، وهزّت رأسها.

"نعم، زوجتي تأخذ الأمور على محمل أكثر حزماً منّا نحن في الجريدة" أضاف ياستراو ضاحكاً.

"يا له من عبث أولاد!" واصلت يوهانه مستاءة: "لا يجوز أن تُلصَقَ الملصقات على مبنى -داوبلاذيت-، ملصقات من نوع جريدة الافتراء والرشوة وغيره ممّا تقوله. لا يمكن فعل أمر كهذا".

"ولكنْ، بالمناسبة، ماذا لوكانت بالفعل جريدة افتراءات مثل سائر الجرائد ...".

"لا، في الحقيقة، الفعل الوحيد والأمثل الذي يجب فعله هو الاتّصال بسيّارة الشرطة. ليسوا سوى بضعة غوغائيّيْن، وما نوع هذه الأكاذيب التي تكتبها الجريدة؟"

كان وجهها عابساً جدّاً.

اتّكأ ياستراو مبتسماً يشرب البيرة وهو يرى عند الطرف الثاني من الطاولة حدود وجه ستيفينسن الداكنة، قامة زرقاء تحت الضوء الشاحب للنهار، وهو يجلس مُنحنياً بجذعه العلوي واضعاً كوعَيْه على الطاولة، يُحملِق بيوهانه.

ابتسم بخبث، محاولة شيطانية.

"هذا لا يعني زوجي" قالت يوهانه بقُوَّة.

وفجأة شرع ستيفينسن بهزّ جسده الظّلّ، وردّد مغنّياً مقطعاً من "العاملة":

"سيأتي يوم أعتى.

هل تقدر على حمل البندقية؟"

"أوه، تخرّصات" انفجرت يوهانه قائلة.

ضحك ستيفينسن وساندرز وبلحظة دخل أولوف راكضاً بضحكة مجلجلة في الصالة.

"آ، ماما، حلو، هوو هو هو" وأخذ يقفز على الكرسي فرحاً.

"اسكتْ، ألا تسمعني؟"

"هل ترين، سيِّدتي" واصل ساندرز: "عندما يحاكم المسؤولون ..."،ثم رفع سكّينه "يحاكم القليل منهم قدر الإمكان. بدلاً من قطع اللحمة من هنا، يُقطَع الطرف العلوي فقط، هنا" وهو يعرض بالسّكّين كيفية ذلك.

"الناس الذين قدّموا تنازلات مُسبَّقاً قد ضحّوا بهم، البلد كله التزم الصمت، الكلّ عدانا، عدا "المطرقة"، ووضع السّكّين على الطاولة، واعتدل في جلسته، وكأنه ينتظر عاصفة من التصفيق.

"إنهم يريدون ثورة، هل فهمتِ؟" قال ياستراو بسخرية ناعمة ليوهانه.

"نعم، قد فهمتُ ذلك طوال الوقت".

"كما ترى، عندما يتمّ القبض على عصابة حرامية، يجب الإمساك بهم جميعاً، الذيول كلها، وهذا يُسمّى التنظيف، ولكنْ، في هذه الحالة، هل تمّ التنظيف هنا؟".

الاحتقار سبّب لساندرز ثورانا. أمسك بياقة بلورته الروسية، وكأنه لغضبه ينوي تمزيق ملابسه.

"مبادئ الرأسمالية هي كسر للقانون الدنماركي" صاح ساندرز. الوحشية جعلت وجهه هزيلاً. "إنها الحقيقة، هذا هو ما اتّضح. ولذلك إمّا أن يُغيَّر القانون أو، أو .."، وضرب بقبضة يده الطاولة كما لو أنه ينوي القتل.

”آآ، ولكنها قصّة قديمة كما تعلم“ قال ياستراو وهو يرفع كتفَيْه مشكّكاً.

”ها هو الصحفي يتحدّث“ أجابهساندرز مهتاجاً، حتّى إن أولوف رفع حاجبَيْه.

ردّ ساندرز: ”بالنسبة إلى الصحفي، لا يوجد شيء لا أخلاقي أكثر من القصّة القديمة. الحقيقة مُملّة بالنسبة إليكم. المثاليّ مشاكس. ولكنْ على الإنسان أن يكون مشاكساً في هذا البلد، أم أن ما أقوله غير صحيح، سيِّدتي؟“.

ضحك ياستراو. ولكن يوهانه التي بَحْلَقَتْ بعينَيْن أكبر وأكبر في قُوّة ساندرز، نغمته المريحة، الجمال الفوّار، العاطفة الغامضة، هزّت رأسها، وكأنها في حالة تنويم مغناطيسي. وَصَحَتْ من ثمّ متفاجِئة، نَفَضَتِ السِّحْر عنها، منتفشة الشَّعْر، وسألتْهُ:

”إذاً، هذا هو ما تحاربون لأجله؟“.

لفظت الكلمة تحاربون بنغمة إعجاب خفيفة، فنظر ياستراو إليها مستغرباً. لم يعرفها ثانية. ما النغمة التي صعدت من قلبها؟ نغمة لم يسمعها من قبل.

ابتسم ساندرز بغرور ورضا، وهزّ رأسه مُثنياً على ما قالتْهُ.

”نعم، هذا من ضمن ما نفعله. كان ذلك حين انهار البنك لمّا أسّسنا -المطرقة- ولكنْ حينها بدأت مضايقتنا. وعلى العموم هكذا هو الحال، لم نتوقّع شيئاً آخر“.

ابتسم ابتسامة، تعكس خبرة، بمرارة وبتعب جميل. وأولوف ابتسم أيضاً، خبرة ومرارة انعكست في وجه الصّبيّ حين قلب شَفَتَيْه الطفوليَّتَيْن المُبلَّلتَيْن، وأبقاهما باستعداد لتقليد المزيد من حركات الفم لساندرز.

بعد وقفة استمتاع تامّة بالمرارة، تابع ساندرز بأسلوب إخباري ملحّن: ”ليس هناك بائع مجلات يقبل أن يبيع صحيفتنا. وإن خالف أحدهم ستتمّ مقاطعته من قِبَل شركة المجلات. جميل، أليس كذلك؟ لن يحصل على -جريدة المساء- وهي ما يكسب منها. وكان علينا بذلك أن ننزل إلى الشارع، ونبيع -المطرقة- وهكذا قبضوا علينا بتُهمة خَلْق الفوضى في الشارع. حصلنا على غرامة، لم ندفعها، بسبب المبدأ. فنحن قضينا مُدَّة الحكم، لماذا الغرامات؟ لأن قنّاصي الطَّلَبَة والزعران الفاشيّيْن تجمّعوا من حولنا عندما نادينا -المطرقة-، تصايحوا وتصارخوا يودّون العراك معنا، ولكنْ - هم - بالطبع، لم يُقبَض عليهم“.

باللحظة ذاتها مدّ ستيفينسن يده ببطء إلى قنّينة البيرة التي لم يمسّها ساندرز، وملأ قدحه

من دون كلمة. حدث ذلك من دون صوت، وبطبيعية جعلت ياستراو يضحك. ولكن يوهانه التي لم تلحظ مناورة ستيفينسن الصامتة أساءت فَهْم ضحكة زوجها. شعرت طوال الوقت بمدى حاجتها إلى مساعدة، وها هي الضحكة جاءت، وحرّرتها.

"آ، ولكنه مُجرّد عَبَث صبياني" علّقتْ بتسامح.

"ولكننا دخلنا السجن لأجل ذلك" أجاب ساندرز بترفّع.

"صحيح، لتقضوا العقوبة. هذه الشهادة تتشاركون بها اللعنة مع المشرّدين ودافعي الإعالة للأولاد غير الشرعيّيْن الذين يلقطونهم من ساحة المقصب" ضحك ياستراو. احمرّت عينا ساندرز.

"عندما لا يرغب الرجال بفعل شيء فعلى الصبيان أن يقوموا بها. ليس عندي أفضل من هذا لأقوله. وليُطلقوا عليّ بصبيّ أو شابّ حسب ما يرغبون" صار صوته أبطأ وأكثر قَرْصاً "الشباب الصادق والمُعْجَب بنفسه كما تقول -داوبلاذيت- بدعابة". استدار نحو ياستراو ساخراً.

"آ، أنا متأكّد أنكما ستصيران موظَّفَيْن لدينا ذات يوم" أجاب ياستراو مُتعالياً.

"لا" صاح ساندرز بحدّة.

"بلى، اللعنة" دمدم ستيفينسن.

"ولكنْ، أنتم تغفلون عن الأكل" قاطعتْهم يوهانه. كانت مندفعة إلى حدّ بعيد. تمكّن ياستراو من ملاحظة جِلْد جبهتها التي تقلّصت بقلق متفاقم.

"لا" كرّر ساندرز، وهزّ رأسه بابتسامة متعجرف.

تُرى مَنْ كان يُقلّد طوال الوقت بابتسامته هذه؟ كانت انعكاساً لشيء.

أكلوا لوهلة بصمت.

"بلى، ستقومان فعلاً بذلك" قال ياستراو فجأة بنعومة متعبة، باستسلام وخذلان. "لم يمضِ الكثير مذ ديسمبر أظنّ، حين تحدّث رئيس التحرير إيفرسن معي بشأنكما".

علّق ساندرز بازدراء: "آ، في ديسمبر، ولكنْ، حينها، لم نكن قد قمنا بتلك القلاقل أمام مبنى ال -داوبلاذيت-"

"هكذا! أنتَ لا تكاد تعرفنا، إذاً، يا ساندرز" أجاب ياستراو مبتسماً. شدّ شَفَتَيْه، وأظهر أسنانه

حين ابتسم. "لا فرق، لا. ولكني جئتُ إلى العجوز يوماً، لعلّه كان بين عيد الميلاد ورأس السنة، وكان جالساً، غارقاً في اعتبارات رأس السنة أو كان نائماً أو كلا الأمرَيْن. إنه، تدري؟، قد صار حيواناً عجوزاً الآن، وحيد القرن الذي يسعل ويبصق وينعر في زاويته، ولم يعد ينفع. اسمع، يا ياستراو، قال لي، ...".

ووضع ياستراو يده على شَفَته الحليقة، وكأنه يمُسِّد لحية كبيرة مدلاة، تحدّث بصوت واهن، وتلفّظ الكلمات بطريقة، يمكن أن يقال عنها عامّيّة بسيطة، لو لم تكن كلماته.

ضحك ساندرز مقاطعا: "عجيب أمركم أنتم في الداوبلاذيت، لا يمكنكم الحديث عن إيفرسن، سوى أنكم تُقوِّسون ظهوركم، وتتكلّمون بتراخ، وتمُسِّدون لِحيتكم، وتبصقون في سلّة الورق، وتقولون: "حقّاً؟" أو "بون(*)"! كلكم تفعلون ذلك".

أحنت يوهانه رأسها مسانِدة بحماس، وضحكت.

"نعم، وهذا صحيح" قالت.

"إنها طريقتنا في عبادة الرّبّ" أجاب ياستراو ضاحكاً.

"صحيح، ربٌّ جميل" أضاف ساندرز بتهكّم. "إنه رجل الدنمارك الأخطر. والأكثر تدميراً".

"لا لا، من السهل أن تقول هذا، إن لم تعرفه" أجاب ياستراو مُنزعِجاً. "قال العجوز لي، ربمّا لأنه كان في مزاج رأس السنة الجديدة، اسمع يا ياستراو، أليس هناك من بين الشباب أحد ما ممّنْ يعرف الكتابة؟، لقد سأل الجميع عن ذلك، وكانت لديه حقيقة تلك النظرة الباحثة التَّعِبَة، وقال لي مواصلا: نعم، هناك أصحاب -السندان-، إن كان هذا ما يُسمّونه، هه هه! إنهم غاضبون جدّاً منّا"،ثم يرمقك بتلك النظرة المراوغة ويتابع؛ ولكنْ، هكذا أناس غاضبون، علينا دوماً أن نقرأ لهم، ثمّ يبصق في سلّة الأوراق. (تُفْ)، ويتابع بتركيز واهتمام كبيرين؛ لأن هذا ما لمسته في العديد من المرّات، بالتحديد مع هكذا كُتّاب غاضبين، من أمثال -جورج براندس-، و-يوهانس. ڤي. ينسن-(**)، هه! ولكن السندان! أخذتُ عدداً منها معي قبل يومَيْن،

---

*) Bong الكلمة الفرنسية بون بمعنى جيّد

**) (Georg Brandes, 1842-1927): ناقد وباحث أدبي ومُنظِّر دنماركي. درس الفلسفة وتاريخ الأدب وعلوم الأدب، وبعد جولة في أوروبا ما بين إيطاليا وفرنسا وإنجلترا عاد مُشبعاً بالأفكار التي كانت الشرارة لتغييرات جذرية، حدثت في الأدب الدنماركي والإسكندنافي، وعُدّ إثرها مُنظِّر ما سُمّي بـ "الاختراق الحداثي".

وهل تدري؟ لقد خيّبتْ أملي إلى حدّ بعيد، ليس هناك من أحد من بين الشباب مَنْ يستطيع الكتابة، بطريقة ما سهلة وطريفة".

ضحك كل من ساندرز وستيفينسن باحتقار وبصوت عال أفزع أولوف الذي انكمش ولجأ لأمّه، وقطّب وجهه لهما.

أما ياستراو فقد جلس بظهر منتصب، وكأنه يضع شالاً على كتفَيْه مثل المحرّر إيفرسن، وبصق في سلّة الورق غير المَرئية، وتابع: "كنّا، بخلاف ذلك، افتتحنا عمود الصفحة، بواحد منهم أو اثنَيْن. تُفْ".

"ماما! بابا يبصق على الأرض. مسموح له؟" صرخ أولوف. بلحظة صار شجاعاً.

"إشش، اسكت" نبّهتْهُ أمّه، وهزّت ذراعه.

ولكن الآخرين ضحكوا، حتّى تجمّد وجه ساندرز.

"ها نحن نضحك، ولكنْ، أليس هذا فظيعاً؟ الآراء كلها لا تعني شيئاً. تنزلق جميعها في -داوبلاذيت- لتُحرِّك السطح. لا أهمّيّة لكل شيء إطلاقاً، المهمّ أن يكون مكتوباً بشكل جيّد، نعم، مكتوباً! مكتوباً!"

رسم ياستراو ابتسامته المغلّفة على وجهه. بدت مثل حزن ساخر على وجهه الممتلئ المنغولي. ظنّ أن هذه الابتسامة تليق به.

"نحن نُدللّ الشباب" قال بنعومة مع قسوة شهوانية متباطئة، "نمنحهم وسادة يجلسون عليها. نترك لهم السلطة، كما يبدو، قبل أن تنضج، ونحن نسلب هذه السلطة أيضاً قبل أن تنضج. وهي، بهذا، ليّنة طيّعة قبل أن تتصلّب، من دون خطوط، من دون سمات، أو حين تصبح مُملّة أيضاً، برائحة جنون، أيْ حين لا نعود نأخذها على محمل الجدّ؟"

وكان يودّ المتابعة، ولكنه بلحظةٍ أقفل.

ضرب يَدَيْه تعباً، وابتسم سارحاً، وانحنى أسفلاً، ليتناول قنّينة كارلسبيرغ حذو قائمة الكرسي.

ملأ قدحه، وجرع الكأس مرّة واحدة.

(Johannes Vilhelm Jensen 1873-1950): شاعر وقاصّ وروائي دنماركي حاز على نوبل للآداب في العام 1944 عن روايته "سقوط الملك"

حينها حرّك ساندرز يَدَيْه مثل خطيب الشَّغب، ووجّه نظرته الكئيبة إلى يوهانه التي استسلمت معاني وجهها لرؤية ضعف زوجها غير المحدّد. لقد أحسّت بذلك. عرفت ذلك الآن. شعرت الآن بأنها قد خُذلت. ما الفرق إن كان ما قاله بشأن الصحيفة صحيحاً أم لا، والتي كان هو المحرّر الأدبي فيها؟ كم بدا كل شيء لا معنى له! الحقيقة، ماذا كانت؟ ولكنْ، أن لا يستطيع صحفي الدفاع عن جريدته، أو رجل لا يستطيع الدفاع عن زوجته، فذلك أمر واحد. وسيسدّد الآن هذا المبهم الجميل العاطفي ساندرز ضربته. أدركت ذلك. ذلك ما كانت تخشاه. هذا العاطفي المبهم، والجميل.

"ولكنْ، ألا يعني ذلك، بالنسبة إليكِ سيّدتي، الضياع؟" بدأ ساندرز القول بدرامية "هل هذا هو ما يعني أن نكون ناضجين، راشدين. اللهمّ، ارحمني من ذلك. من الجائز ألا أكون على حقّ. لربّما ليس لديّ الحقّ في القول إن المجتمع في محنة. في محنة، لدرجة أن على البعض أن يضحّي بنفسه، على مَنْ باستطاعته أن يرى جيِّداً أن يضحّي، رغم أني على حقّ بالطبع. المجتمع غير الخائف ليس عليه أن يخنق شبابه بوسادة من حرير. ولكنْ، رغم أني لستُ على حقّ، وإن المحافظين، الفاشستيّيْن هم مَنْ لديهم الحقّ، فأنا أفضّل أن أكون ما أنا عليه، أعني أن أعيش في القعر، بدلاً من أن أعيش حياتكَ يا أوله. لأنكَ، بالأحوال كلها، ليس لديكَ الحقّ، رغم أن نظرتي بذلك كلها خاطئة تماماً"، وتحرّك ساندرز برأسه وجسده إلى الأمام صوب يوهانه التي ابتعدت إلى الخلف. كان الظلمة مقابل الضوء. "أليس كذلك سيِّدتي؟"

"هل ما أقوله كذب؟" زأر ستيسفنسن عبر الطاولة.

وضع يَدَيْه على فمه مثل منادٍ مقلّداً بمهارة تشارلز المجعّد الشَّعْر المعروف أمام فندق "الدانكلتير" وهو يصيح(*) منادياً بالحقائق التافهة أمام الجمهور الأنيق على رصيف المطعم.

"هل هو كذب ما أقوله؟"زأر ستيفينسن ثانية. أدار ساندرز رأسه غاضباً. أراد ياستراو أن يضحك، ولكن صوت ستيفينسن كان جافياً جدّاً، ولشدّة عصبيّته لاحت أنفاسه وجهه.

تقلّص وجه يوهانه مستهجنة ذلك الوحش الثوري الذي تمدّد بعتمته على الطرف الثاني من الطاولة.

وخلال هذا الصمت الذي عمّ حدث ما هو بلا معنى، حيث زأر ستيفينسن للمرّة الثالثة: "هل هو كذب ما أقوله؟".

---

*) "كذبٌ ما أقوله"هي الجملة التي كان يردّدها تشارلز ذو الشَّعْر الأجعد على المارّة في شوارع كوبنهاجن

غباء وقسوة كتفريغ لعصيان، شدٌّ عصبي، صرخة لا تنتمي إلى هذا البيت.

"ماما، ماما" صرخ أولوف، والتصق بأمّه، وشرع بالبكاء.

زمجر ساندرز "اللعنة، صعب العيش معكَ كإنسان" وألقى السّكّين على الطاولة بغضب.

صرخ أولوف، ونهضت يوهانه بعجلة وأنزلت الصّبيّ من كرسيّه، وحملتْهُ إلى المطبخ. "اششش" سمعها الجميع، وقد كان الولد ينشق في بكائه.

ولكن ستيفينسن ضجّ بضحكة مثل قزم خرافي يقف أعلى منحدر ويقذف بالصخر إلى الأسفل مستمتعاً، من دون مراعاة أحد، متعة خطيرة وخشنة، لا يفهمها أحد.

"مسكين الصّبيّ" قال ساندرز بمرارة.

فترنّم ستيفينسن بطريقة سترندبيرغية(*): "مسكينة البشرية" وضحك ثانية.

ولكنْ، ياستراو انحنى إلى الأمام على الطاولة وقلّص عينَيْه، يختلس النظر اليهما.

ثمّ سأل "ما رأيكم بالمزيد من كارلسبيرغ؟" وهو يمدّ يده لتناول البيرة التي كانت على الأرض عند قَدَم الكرسي.

"أجل، أيّتها البشرية العجوز" ضحك ستيفينسن، وأمسك القنّينة برغبة، وصبّ البيرة بعنف في القدح الذي طفح بالرغوة، ففاضت على شرشف الطاولة.

"أنا سأعدّ القهوة، لأن عليّ أن أذهب"، صاحت يوهانه الوقت ذاته من المطبخ.

"حسناً، زوجتي ستذهب إلى بيت والدَيْها في فريديريكسبيرغ" تابع ياستراو. "ستبيتُ الليلة هناك، فيا للحظّ!".

ابتسم ساندرز بارتياب، ورفع ستيفينسن كأسه ودمدم "صحّة". كانت دائماً هناك نبرة غريبة مضاعفة وغير واضحة في مقاطعاته. نهض ياستراو "هلا انتقلنا إلى الصالة الثانية لشرب القهوة، ولنتمكّن من الهذر والتدخين قليلاً قبل مغادرتي إلى الجريدة". شكره ساندرز بأدب.

أغلقوا الستائر في الصالة الثانية وأشعلوا المصابيح الكهربائية. وباللحظة جاءت السَّيِّدة يوهانه بالقهوة. كانت ربّة البيت ذاتها المنطلقة والواثقة من نفسها كما كانت من قبل. وبعفوية

(*) (Johan August Strindberg 1849 –1912): شاعر ومسرحي سويدي معروف.

تامّة اعتذرت لاضطرارها المغادرة، بأقصى الحُبّ وأكثره لطفاً، ثمّ انطلقت. وعندما سمعوا باب المدخل يُغلَق، وخطوات يوهانه وأولوف تنزل على درجات السّلّم، نهض ياستراو ليأتي بقنّينة نبيذ. كان لا بدّ له من كأس آخر على أيّة حال قبل أن يذهب إلى -داوبلاذيت-.

الفصل الثالث

كانت قد مرّت ثلاث ساعات.

جلس ياستراو خلالها في مكتبه في -داوبلاذيت-، غرفة تَشارَكَ فيها مع ناقد موسيقي واثنَيْن من أشهر صحفيّي أخبار الصفحة الأخيرة. ولكنه تمكّن هذا المساء من العمل بسلام. لم يأت أحد من الموظّفين ويزعجه. والغرفة تقع بمكان جانبي جدًّاً، في الطابق فوق مكاتب التحرير المخصّصة للموظّفين السياسيّيْن، كَتَبَة التقارير، تحرير التلغرامات، ورئيس التحرير، وسكرتارية التحرير.

تمكّن من خَلْق ظلمة من حوله بحُرّيّة. أطفأ الضوء في السقف. لم تُزعجه الطاولات الأخريات الثلاث بسطوحها المدهونة. ورؤية الكراسي الفارغة ذات المساند لم تستطع مضاعفة الشعور إيّاه بالتيه والضياع، والذي كان عليه دائماً مقاومته. وها هي اللحظة قد أتت، ذلك التلامس الحميمي بين الظّلّ المنعكس من المصباح الكهربائي وبين الورق الأبيض، كون مشعّ يُولَد، له فعل التنويم المعناطيسي عليه بضوئه الباهر. وقد تمكّن من جديد من كتابة مقالات نقدية، دلّت على موهبة أكبر من التي هو عليه حقيقة، التي تسرّ بانضباط ذاتي لم يملكه إطلاقاً. انضباط ذاتي يوعزه إلى نظرة الورق القادرة على كل شيء، من دون حَدَقَتَيْن.

سماوات الورق الأبيض الصقيل.

وأخيراً انتهى من كتابة مراجعته النقدية لكتاب هـ. سي. ستيفاني -لماذا تركتَني؟- ومال بظهره إلى الخلف في الكرسي. راجع المقال مرّة أخرى وعالج نواقصه اللغوية. كانت رغبته كبيرة بقراءته جهورياً. ولكنه خجل من المشي وحيداً مثيراً ضجّة في الغرفة. من الأفضل له إذاً أن يُدمدمَها بحذر، ليرى إن كان أسلوب المقالة قد احتوى الموضوع.

نهض أخيراً، وأطفأ ضوء مصباح الطاولة، فغرقت الغرفة بأكملها بالظلمة.

وعبر زجاج النوافذ التي نقشها المطر بخطوط طويلة منقطة، لمعت أضواء الرصيف المُبتلّة. ألقت بظلالها على السقف، رائعة مثل الشَّفَق القطبي ممزوجة بفوانيس التِّرام الملوّنة وبروجكترات السَّيَّارات الحادّة. شعّ الزجاج بلمعان أسود من عَتَمَة صقيلة وبقع خفيفة في قطرات المطر.

وبالمقابل، فوق السطح اللامع بدت أحرف -داو بلاذيت- بالمقلوب، خلال النهار بيضاً، وخلال الليل سوداً. لا يمكن قراءة غير حرف الألف والتاء. اسم مُلغِز. لا يمكن الانتهاء من قراءته بسهولة ولا المَلَل بسرعة منه.

هنا يمكن له أن يجلس في العَتَمَة سارحاً يحشو غليونه. هل عليه الآن أن يذهب إلى البيت، إليهما هذَيْن الاثنَيْن؟ تابع بنظرةِ التِّرام أسفلاً في الشارع. رأى ظلمته، سقف رطب ينزلق في سيره. كان يشبه بارجة. ولكنه لا يرغب في الذهاب إلى البيت. الشيوعيون احتلّوا شقّته. إضافة إلى الاحتقار! احتُقر من قِبَل الوَلَدَيْن. كان ذلك مَدعاة غضب!

ولكنْ، تروَ! بارجة في نهر. ما الذي كان قد حصل بالروح على أيّة حال عندما مرّت به الباخرة، أو أيّ من المواصلات؟ مُجرّد تمسيد مطمْئنِ لظهركَ. مهلاً مهلاً، اهدأ! مهلاً مهلاً.

حينها دقّ على الباب وسط العَتَمَة، فأسرع ياستراو إلى مصباح الطاولة وأدار الزّرّ، ليوقده. لا يودّ، على أيّة حال، أن يُفاجَأ وسط أحلام اليقظة العاطفية.

"ادخل".

فتح الباب ببطء، وخطا بعدها رجل طويل القامة داخل الغرفة، بمعطف رمادي فاتح أنيق، رفع قُبَّعته المتينة بتحيّة ساخرة.

"مساء الخير سيّدي".

إنه الأديب، آرنه فولدوم مساعد أمين مكتبة، المشهور بعَدَمِ فتحِهِ كتاباً دنماركياً واحداً للأدب في السنوات الخمس الأخيرة. كان يكتب في الجريدة عن الأدب العالمي.

بوقفته تلك بأناقته المفرطة كان يُذكّر بدانتي، بالشيء المستبعَد عن التفكير تماماً، عذراء فاسدة. وفمه ذلك الذي كان جافّاً وأجدباً، وشَعْره الأحمر المصفوف كقطعة صقيلة معدنية منسدلة على الجانب الأيسر من الجبهة، كان لامعاً بقُوّة، مُرِبكاً مثل ضوء شمس على البحر، وتحت هذا التأثير الضوئي الخاصّ لمعت عينان رماديّتان ماكرتان. كان يتذكّرهما دائماً طويلاً بعد لقائهما دائماً.

"مساء الخير فولدوم" أجاب ياستراو بأدب للتّملّص.

"أرجو ألا أكون قد أزعجتُكَ؟" سأل آرنه فولدوم، وترك لجسمه أن يغطس بتعب مصطنَع في الأريكة التي حجزت الباب ذا الدَّرفَتَيْن المؤدّي إلى قاعة المحاضرات لداو بلاذيت.

"أحزان ماديّة؟"سأل ياستراو بنِيّة سيّئة. "لا يا عزيزي"، تنهّد فولدوم أو كما عمّده الصحفيون، بسبب اهتماماته الكاثوليكية بـ -قبّة بيتر-، ثمّ وضع قُبَّعته المنتصبة بحذر على أكثر طاولات الكتابة تنظيماً.

"أتألّم من الأسوأ من ذلك، من الأحزان النَّحْوِيّة. كنتُ للتّوّ في الطابق الأعلى عند التنضيد، وقرأتُ مقالتي النقدية المصفوفة ثانية".

"من الغريب فعلا أنها لم تُنشَر بعد؟"علّق ياستراو.

ابتسم فولدوم بمرارة.

"المُصحّحون ناقمون جدَّاً أيضاً، بسبب هذا الإهمال من جانب الجريدة. هم بالفعل ساخطون، منفعلون. أتدري؟ أنا أحضر هنا كل يوم لأُغيّر في مقالاتي".

"أوه، أنتَ أيضاً مُوَسْوَسٌ جدَّاً".

"لا، يا أوله، ولكني صرتُ مجنوناً" أجاب فولدوم بجدّيّة تماماً، وأخرج السيجارة التي لا يمكن أن يفرغ فمه منها، "وذلك بسبب كتابتي للدنماركية. تخيّلْ كم هو صعب أن تقول شيئاً بدقّة بهذه اللغة. إنها مؤلّفة بشكل قطعي من أجذاذ همجية ماديّة. غير ممكن، تماماً، مثل الأمريكية".

حملق أمامه، وبإمكان المرء أن يلمح انهياراً عصبياً، لا قرار في تلك النظرة الرمادية.

"ولكنْ، كيف تسير الأحوال معكَ، عزيزي أوله؟"سأل فجأة وقد تماسك. مودّته كان مبالغاً فيها. يُفَضّل، كما يبدو، تبادلها بالسخرية.

"آآ، شكراً، قد انتهيتُ للتّوّ من كتابة نقد لكتاب ستيفاني".

اعتدل فولدوم بجلسته مُنصِتاً. نظرته الرمادية اقتربت، كما لو أنه يودّ قراءة وجه ياستراو، وعندما ثبّت ياستراو نظره في عينَيْه عَبَرَ فولدوم النظر بعينَيْه وتوقّف عند ربطة العنق، وبقيت عالقا هناك.

شعر ياستراو وكأنه سيُخنَق.

"سيكون من دواعي سروري" علّق فولدوم بهدوء "سماع ما كتبته من نقد بشأن أسبرينه الدِّيني؟".

"أسبرين؟".

"نعم، كما تعلم، فهو صيدلاني في أورهوس".

قاطعه ياستراو "آه، هذا المهرّج المحظوظ" ودار بكرسيّه، "هناك أيضاً مَنْ يعرف دائماً كيف يفعلها"، "ألم تعرف بذلك؟" سأل فولدوم مُتفاجِئاً. "لن تصير صحفياً حقيقياً أبداً، ليس لديكَ حياة خاصّة، ولا تعرف حياة الآخرين. ولكنْ دعني الآن استمتع بسماع مراجعتكَ للقدّيس ستيفاني".

"آا، حسناً" أمسك ياستراو بالورق على طاولة الكتابة، وأدار ظهره صوب المصباح الأرضي، اتّكأ إلى الخلف حتّى وقع شعاع الضوء عبر أحد كتفَيْه على المقالة النقدية. كان صوته هادئاً رقيقاً، ولكنْ ما هي إلا تنويعة صغيرة حتّى تنقلب الرّقّة إلى قسوة.

في الوقت عينه، ندّت هناك حركة عصبية من يَدَي فولدوم البيضاويَّتَيْن الذي جلس في شبه عَتَمَة في الزاوية، ومن دون وعي، دقّ سيجارة غير مشتعلة براحة يده، حركة هدأت شيئاً فشيئاً، بعد أن أمسك به إيقاع الأفكار في مقالة ياستراو.

...."عندما يجرؤ السيِّد هـ. سي. ستيفاني "يقرأ ياستراو عالياً" على القول إن المسيح أنْسَنَ نفسه إلى حدّ بعيد، لدرجة أنه ترك لنفسه أن يُحتَلّ من قِبَل خوف الإنسان من الموت، كما كان عندما نادى مِنْ على الصليب؛ ربيّ ربيّ، لماذا تركتَني؟ بل ومن الخوف من الخطيئة الأولى أيضاً، حتّى إنه وفي نوبة من غضب انفعالي لم يحرِّض على لعن شجرة التين فقط، ولكنْ حرّض أيضاً على طرد السماسرة بعيداً عن المعبد بالسوط، لماذا لم يواصل السَّيِّد ستيفاني تعمّقه في الفكرة؟ لماذا لم يضاعف من التّوتّر السيكولوجي بين الإلهي والإنساني، والذي هو تماماً لغز المسيح السحيق؟ لماذا لم يفترض أن المسيح خلالها يمكن أن يكون قد أُخِذَ بجمال امرأة!".

..."هناك ما هو جميل بالمسيحية" قاطعه فولدوم بصوت مشحوذ، فعدّل ياستراو رأسه وابتسم حيث استطاع أن يميّز نبرة المحرّر إيفرسن حين واصل فولدوم: "رغم أننا بلا دين للأسف. أنا لا يمكنني أن أستوعب كيف لا يكفّ ياستراو عن مناكفة القساوسة. ذلك لم يعد يناسب الموضة". ثم مسح فولدوم ما تحت أنفه، وبصق في سلّة المهملات التي كانت لحسن الحظّ إلى جانب الأريكة. و تابع فولدوم بذات الصوت:"بالمناسبة، هناك العديد من الناس الأصلاء من بين القساوسة".

"هل تعتقد حقّاً أنه سيأخذها بهذا الشكل؟" سأل ياستراو بحماس.

"من أين لي أن أعلم؟" أجاب فولدوم بصوته هو هذه المرّة، وابتسم بخبث. "ولكن ستيفاني

يستحقّ ذلك. ليس هناك من شيء أنا ضدّه بقَدْر هذه التّصوّرات المعاصرة عن المسيح. إنه مثال على الاحتياج الديمقراطي لرفع الكلفة مع الإلهي، وهم لا يهنؤون، إن لم يقبضوا على ربّهم متلبّساً بالجريمة. ولقد أشرتَ أنتَ بالمناسبة إلى ذلك، بشكل جيّد".

"هل سيتسبّب ذلك بإثارة مشكلة لي بتصوّركَ؟".

طالتْهُ نظرات فولدوم الرمادية؛ "أنتَ لستَ تحت الرقابة في هذه الجريدة المتحرّرة العتيدة" معلّقاً باستهانة.

"لا، ليس الأمر كذلك".

"كيف هو إذاً؟".

"إيه، أنتَ ولا شكّ تعرف. صوتٌ ما في الهاتف. مشترك مجهول يتّصل بالعجوز، ويسبّ جريدته القذرة، وبعد ذلك يُحوِّطني فضاء مفرَغ من الهواء لأسابيع عديدة".

"صحيح؟" سأل فولدوم مُقلِّداً مجدّداً صوت المحرّر إيفرسن.

"أو أن تصل رسالة من مجهول، أو الأسوأ من هذا، هناك أكثر من طرد سيحصل في الجريدة".

"لا، مستحيل، هل تعني ما تقول فعلاً؟" سأل فولدوم مباشر بصوت ضعيف مُستثار.

"سيضعون الناقوس الزجاجي عليّ، يُفرِّغونه من الهواء، وأنتَ تدري في الهواء المُفرَّغ لا يمكن لأحدنا أن يحتفظ بآرائه الشخصية".

"لا، لا، عزيزي ياستراو، لم أكن أعلم حقيقة" ظلّ فولدوم

على النبرة ذاتها في صوته "إنه خبر مريع بالفعل. هل ذُكِر شيء حول ذلك في الجريدة؟".

ابتسم ياستراو ولكنه واصل بعناد. كان يريد أن يُفرِّغ ما في جعبته. "الناس فوقنا أفظاظ، وفي فوضى، الكل يتسلّل على أطراف أصابعه ...".

"أطراف أصابعه؟! نعم، ههههه، أتذكّر بالتأكيد تلك المرّة في رانجون ...." مازال مقلّدا نبرة المحرّر المعروفة إيّاها.

ولكن ياستراو شعر بتحجّر دماغه، وكأنه بقي يتحدّث بتذمّر. لماذا عليه البقاء هنا والاعتراف؟

وفولدوم يلهو لا غير، يُقلِّد دور إيفرسن، يُناكف. انبرى بعدها ياستراو بصوت قوي رتيب مُنهياً قراءته لمقاله؛

"بانتقاصه لتداعيات الموضوع، لم ينل هـ. سي ستيفاني بنظرنا شيئاً غير إضعاف قامة المُخلِّص. ولهذا، فكتابه يمكن أن يختم على أنه من ناحية سيكولوجية إلحاد."

"سيسرّ ستيفاني لذلك" هلّل فولدوم. "هه، الانتقام بانتظاره. وله ابن يريد أن يصير شاعراً. بالإمكان القول إنه عقاب الرّبّ. سيكون مُطارَداً. ولكنه يستحقّ ذلك جدًّاً".

"ابن؟! لا أعرفه".

"لا، لأنكَ لا تعلم شيئاً كما قلتَ سابقاً. ولكنْ، ككل الراديكاليّيْن القدماء سواء كانوا متديّنين أم لا، لديه ابن شيوعي. والذي يكرهه ويحتقر نشأته. الانتقام قادم حقّاً"، قالها فولدوم بانتصار، وهو يُلوِّح بقبضة يده.

"ستيفاني بعينه؟".

"كتمرّد شيوعي ضدّ الأب، أطلق هذا الغبي على نفسه اسم ستيفينسن. ستيفان. ستيفينسن! تبدو الكلمة مثل مارش بروليتاري. أ لا تسمع ذلك؟".

"اللعنة، إنه هو مَنْ يجلس مع ساندرز في بيتي الآن، وينتظر"، قاطعه ياستراو، وأنزل للمفاجأة أوراقه. ولكنْ، ها هو الآن يفهم. المكالمة الهاتفية. نعم، لقد كان بالانتظار إذاً. كان يُفضِّل أن يكتب النقد بنفسه. مع ظلال ابتسامة منسحبة.

"هكذا إذنْ" علّق فولدوم بازدراء. "هل تخالط هكذا أناساً؟ فاجأتَني!".

"أنا لا أخالطهم" أجاب ياستراو بانزعاج. "وإلا لما كنتُ جالساً هنا".

لاح لمعان في عينَي فولدوم، "هل أنتَ الآن من دون بيت إذاً؟". وقفة. "هلا سمحتَ لي، إذنْ، بدعوتكَ إلى كأس شراب؟"

"كأس واحدة فقط، لا إمكانية عندي لأكثر، من النادر أن ترى متزوّجاً يخرج مساء".

وفجأة وضع يده على كتف ياستراو بقلق "ولكنْ زوجتكَ؟ لا تقلْ إنها ...".

"لا، لا سمح الله. كنتُ قلقتُ الآن. لا يجب أن نتركَ زوجاتنا في أنواع المحافل كلها".

نظر ياستراو إليه سريعاً. هل كان ساخراً؟ ولكن الوجه المنهَك والمتعَب كان جادّاً، والفم قاسياً.

"أقول لكَ، إنه انتقام. ولكنْ، لِمَ حقّاً حظيتَ بزيارة هذَيْن السَّيِّدَيْن؟".

"آآ، لا شيء مهمّ" أجاب ياستراو.

"أوكي. وأنا لستُ فضولياً كذلك. ولكنْ، اصعد الآن بمقالتك للتنضيد، لنذهب من بعدها إلى بار "دس آرتيست". دعني أتّصل فقط بالأب غارهامر، لأُلغي موعداً، وسأكون حينها جاهزاً".

تناول ياستراو قلم الحبر، وكتب على عجل بضع ملاحظات للمنضّدين في الزاوية أعلى الأوراق المُرقَّمة. -الصفحة الأدبية- كتب ملاحظته بخطٍّ البورجواز الطباعي الكبير. وكتب -المسيح الإنسان- بخطٍّ شيلتنهام مُكبَّر. جمع من بعدها الأوراق وخرج إلى الممرّ عند السّلّم حيث المصعد، بينما رفع فولدوم بوق الهاتف إلى فمه، وبصوت مُحبّ خالص ترجّى من عاملة البدّالة الرَّقْم للكنيسة الكاثوليكية.

عندما نزل ياستراو ثانية إلى غرفته، كان فولدوم قد انتهى من مكالمته.

"بإمكاننا الآن الذهاب" علّق فولدوم.

"أجل" أجاب ياستراو، وجعّد المسوّدات، وألقاها في سلّة المهملات.

ترافقا. فولدوم لم يكن يوماً متعجّلاً بشيء. كان يتمشّى، سواء كان عليه اللحاق بالتِّرام، أم متأخّراً في ذهابه إلى موعد. ولهذا نزلا عبر سلّم التحرير المظلم.

"آه، كم أحبّ هذه الدار" قال فولدوم، وتنفّس بعمق. "لأنها بيت، هذا بيت حقيقي. هنا تقيم الجريدة. ألا تشعر بذلك؟".

وتحت في الأسفل، ودّ أن يستكشف طريقه إلى قسم التحرير عبر الباب بنوافذه المرآتية. لا يمكنه مقاومة ذلك! يودّ الاستمتاع بذلك. وقد أصابت ياستراو العدوى.

خلف النوافذ المرآتية، بهو التحرير الواسع. طاولة مغطّاة باللّبّاد الأخضر. وفوق الطاولة كالعادة، هناك لفّة ورق لكتابة عناوين الأخبار ولصقها على نوافذ التحرير المطلّة على الشارع. إلى اليسار بعض الصور الفوتوغرافية لموظّفين متوفّين. وفي غرفة في العمق هناك سكرتير التحرير ببدلته الرمادية المعتادة. كان يهاتف أحداً.

أدار فولدوم رأسه صوب ياستراو.

"كم هو بهيج حميمي هذا المكان! هذا هو ما يطلقون عليه في الروايات الحياة النابضة والصاخبة في مكتب التحرير، وهذا الأثاث والديكور الأنيق(*) لفيرمير. هل تراه؟ الباب هنا مثل الإطار الغامق. الضوء الأصفر في البهو. الطاولة باللّبّاد الأخضر في الأمام. وبعدها الغرفة التالية في الداخل، أكثر عَتَمَة. بمنظورية كما عند فيلاسكيس(**). والأخرى تلو الأخرى. وهناك في الداخل، فضاءات شبه مظلمة، المصباح بالقبّة الخضراء، وانعكاس الضوء على الوجه ذاك في الداخل. وجه حليق حديث. قامة بوضع منحنٍ إلى الأمام. الهاتف عند الأذن. أين راحت تلك الحركة المحمومة؟ نعم، أسألكَ، لأنني لا أراها، مهما حاول الكتّاب المعاصرون الصراخ بها. تنتابني رغبة بالتّسلّل بهدوء هنا.

"عليكَ ألا تنجرف هكذا، فتنسى أنكَ دعوتَني لكأس شراب" علّق ياستراو بمشاكسة.

"لا، لا، كيف تتصوّر هذا؟" وضع فولدوم يداً حانية على كتفه. "هل تتصوّر أني أنسى أن لي هذا الشرف بالسهر مع زوج، تمّ احتلال شَقَّته من قِبَل الشيوعيّيْن؟"

هزّ قوله ياستراو. هل تمكّن فولدوم من معرفة القصّة المخجلة؟ ستكون قصّة مُثلى للرواية هنا في قسم التحرير غداً. عليه الحذر حقّاً، لئلا يجعله الويسكي يتداعى في الحديث.

"لاا، مُحتَلّ" قال محتجّاً.

"ولكنْ، دعنا لا نستعجل، كل ما دعوتُكَ إليه هو كأس واحدة، ليس إلا".

وتابعا النزول عبر السّلّم المظلم.

وبينما هما يدخلان إلى بهو التلغرام المضاء تحرّك فجأة الباب الدّوّار المؤدّي إلى الشارع. لقد دخل أحد ما.

عبر النوافذ الدّوّارة اللّمّاعة، حيث الضوء يقتحمها في زوايا غير محسوبة لُمِحَتْ قامة محدودبة وقُبّعة منتصبة غطّت شيئاً من الجبهة كمثل صبيّ جزّار قويّ. ارتسمَ ظلّه الأسود بومضة، وكانت تلك إشارة كافية.

"العجوز" همس فولدوم.

---

*) (Vermeer 1632-75): رسّام هولندي. واقعية العصر الذهبي

**) (Velazquez 1599-1660): من أهمّ رسّامي الباروك في أوروبا

قفزت ابتسامة صبيان المدارس من على وجهَيْهما رغم أنها لا تُناسب أيّاً منهما. كان فولدوم رجلاً مُنهَكاً، وياستراو أكثر مَيلاً إلى السمنة. كانا على الأصحّ كوميديَّيْن كممثّلَيْن كبيرَيْن في السّنّ، يقومان بدور أطفال مدارس. لم تناسب الابتسامة العيون الخبيرة، وظلّت معلّقة تحت الأنف. ولم يقفا والقُبَّعة في اليد، بل كانت أذرعهما مُسدَلَة جانباً، وهما ممسكان بقُبَّعة البحارة. مشهد غريب حقّاً.

كان العجوز هو رئيس التحرير إيفرسن.

ما إن دخل حتّى رفع قُبَّعته قليلاً. لاح جزء من جمجمة، كأنها تعود لحيوان برقبة ضخمة. الشَّعْر كان رمادياً. الشاربُ ضخمٌ مُتدلٍّ قد أخفى فمه. لكنه لم يخفِ ابتسامته أبداً، والتي لا تخفي خطّ الذقن الطويل، لذا إن نظرتَ إلى المحرّر إيفرسن من الجانب، لا يمكنكَ أن تتجنّب تتبّع عظمة الفكّ السفلي حتّى الإذن، واتّصاله الوحشي بالرقبة.

العينان المتعبتان المخذولتان استقرّتا للحظة عليهما. كان ذلك مثل النظر داخل كوب فيه فقاعات صابون وفي قعره ماءٌ عَكِرٌ داكن. وإذا به بعدها يرفع سبّابته بدعابة، النظرة اكتسبت لوناً، وصارت أصغر عشرين عاماً. وبتراخٍ قال:

"أهلاً، ها هو الأدب بأكمله عندنا، بضربة واحدة، حسناً. آمل ألا تُبيِّتا لنا نِيّة سيِّئة؟"

ودّ فولدوم أن يُحرِّك يده، ليقول شيئاً، ولكنْ، لم يصدر شيء منه غير هزّة في يده اليمنى، ومن ثمّ انحنى بهدوء. أمّا ياستراو فقد وقف بلاوعي في ظلّ الربع من قامته.

"أجل، ما الذي يمكن قوله؟" واصل المحرّر بعد وقفة، ثمّ حملق بفراغ فلسفي أمامه.

دخل حينها سيِّدٌ ذو شَعْر داكن بمعطف أسود، يترنّح مجتازاً إيّاهم، ولم يتجنّب الصياح بـ "مساء الخير، سيِّد إيفرسن" مشوبة بضجيج وصل رنينه أقصى زاوية من بهو التلغرام. زادت البلاطات المُربَّعة وكعبا جزمَتَيْه المتخبِّطَتَيْن من قُوّة الصدى لتحيّته. الواجب الواجب! الكعوب على البلاطات.

" انظرا، قسم الراديو يمشي" علّق المحرّر بتفكّر، وهو يُحلق في ذي الشَّعْر الداكن الذي اختفى في دخوله المصعد. "أجل، ماذا نقول؟ إنه المستقبل، ولا بدّ، الراديو، هذا ما يقوله الناس".

ونفض رأسه فجأة بيأس، ونظر بعطف إلى ياستراو وفولدوم، وكأنه يعتذر لأن كلَيْهما سرعان ما سيحين هلاكه.

"أجل، ما الذي يمكن قوله؟"

وبهذه الجملة الختامية، حيّاهما بابتسامة، وقامته العالية المحدودبة اختفت داخل السّلّم المعتم.

شعر ياستراو أنه قد أُصيب. قبضة كبيرة بضربة واحدة قد كنست كل عمله في حفرة الزمن التي لا قاع لها. هكذا كان شعوره. ولكن فولدوم دسّ يده فجأة تحت ذراعه، وسحبه معه عبر الباب الدّوّار. ضربهما البرد المتُأتّي من الساحة المفتوحة المعتمة. ارتجف فولدوم داخل معطفه الكبير، وضحك؛

"بلى، نحن تعيسان خالدان. كم سيعيننا الآن كأس شراب نحن الاثنان."

بار "دس آرتيست" يقع على مبعدة بضعة بيوت من هنا في هذا الشارع. يملكه فندق صغير. عُلّقَتْ على واجهته يافطة بيضوية كبيرة، كتب عليها دس آرتيست، رُسمت بشكل قوس مثل جسر والخطّ المستقيم، الماء تحت الجسر كان لكلمة واحدة فقط؛ رقص.

كان المدخل بسيطاً. انحشر الباب والشّبّاكان بين مدخل فندق راقٍ وبين مطعم كبير. الضوء يشعّ مساء، من نوافد المطعم أيضاً، لأن ستائره شَفَّافَة، بينما حُجِب البار خلف قاطع وأقمشة سميكة، لذا لا يشعر المرء بغير ظلّ خافت خاصّ، دخان خفيف. وكذلك الموسيقى. من المطعم، يمكن سماع حفيف وَتَري من الكمان، خلف نوافذ البار المعتمة والباب. يمكن تمييز دندنة خفيفة من الغرامافون، همسٌ مرح. لذا كان هناك شيء لا يجلب الاهتمام إلى بار دس آرتيست. ولكنْ، لم يكن هناك من داع كذلك للصياح، لأجل جلب الاهتمام إلى وجوده، فلم يكن المطعم الفارغ، الضّاجّ بالموسيقى والمشعّ السبب في طابور السَّيَّارات الخاصّة التي تقف على الجهة الثانية من الشارع دوماً.

ولمخافة رؤيتهما، فقد سحب فولدوم ياستراو معه عابراً البار، البعض لا يُحبّذ دخول البار مباشرة من الشارع. استدارا ودخلا عبر مدخل الفندق، وكأنهما مُتوجّهان إلى المطعم. ولكن البوّاب هزّ رأسه سرّاً لفولدوم، لم يخطئ في إدراك مرامهما. فتح لهما في الحال باباً من بهو الفندق يؤدّي إلى البار.

وباللحظة، أصمّهما الطنين القوي للأصوات والأنين البعيد للغرامافون، كيتار من هاواي، ظلٌّ بلون أصفر مُحمرّ منعكس من ورق الجدران، ودخان تبغ مزرقّ جرفهما فجأة إلى عالم غير حقيقي. اجتمع الضيوف من الرجال بدفء حول طاولات مدوّرة. ولكنْ، لم يكن هناك من امرأة على الإطلاق. لم يرَ ياستراو على العموم واحدة في ارتباكه الأوّلي.

اندفع يتقدّمه فولدوم صوب خلفية برّاقة من القناني الزجاجية على الأرفف، وبارٍ من النحاس الأصفر.

من هناك، كان يتمّ السيطرة على الأمزجة القلقة. من قِبَل الساعة أوّلاً، والتي كانت متقدّمة دوماً خمس دقائق كجزء من ترتيبات البار الرحيمة بالإنسان. وثانياً من قِبَل المالك السويدي للبار ذي الوجه الكبير الدمث والشهواني الذكي، الممتلئ مثل الساعة التي كانت دائرية، الأحمر مثل وجهها الذي كان أبيض. مزيجٌ مُبهِجٌ من رئيس كهنة ونادل حانة، بِسمِنةٍ منحتْ الضيوف ثقة به، فوجدوا في مصافحة يده اللدنة لهم إخلاصاً، وفي تعليقاته العابرة حميمية، وفي ابتسامته الغامضة دفئاً، وجوّاً رفاقياً من رَفْع الكلفة في المحيط من حولهم، والذي كان تقليداً متّبعاً لأمّته.

حيّا الرجل فولدوم من على مسافة وبسرور شخصي وكأنه يستقبل أحدا في بيته، وبالغ تقريبا بعدها في إمالة رأسه جانبا ليتأكد من مرافقِهِ ياستراو. هو من أفضل خلاّطي الكوكتيل في دول الشمال واسمه لوندبوم.

كان اقتحام البار صعباً. بعض الضيوف رفعوا أيديهم عالياً مثل تحيّة فاشستية غير سياسية، آخرون لوّحوا أو حيّوا بالكؤوس المرفوعة. كان فولدوم كما يبدو معروفاً هنا. "مساء الخير أيّها العجوز". "ها أنتَ هنا، أيّها الصديق القديم". سيِّد ممتلئ بوجه أُسقفٍ أحمر مبقّع، غمّازتان وذقن مفروق، حرّك يَدَيْه بتعظيم، ينوي دعوتهما لطاولته، حيث يجلس ويلعب النرد مع سيِّد قميء، بشَعْر خفيف، يرتدي جاكيتاً، لا بدّ وأن يكون مندوب مبيعات. ولكن فولدوم ردّ بهزّ رأسه بوقار وتحفّظ، وهو يواصل مروره والسيجارة بيده. فجأة لمح امرأة ببدلة سوداء لمّاعة، كانت بصحبة سيِّد عريض الكتفَيْن، جلسا بتوزانٍ على الكراسي العالية عند نضد البار. كانت هي السَّيِّدة الوحيدة في البار.

وقبل أن يجلسا إلى جانب الاثنَيْن، ترك لنظراته أن تنزلق على الظهر، وعلى الوركَيْن للسَّيِّدة. طلب بسَرَحَان كأسَي ويسكي، وتناول لوزاً مُملَّحاً من الطاس على النضد، وحاول أن يقنص ومضة لجانب وجه السَّيِّدة. لقد نسي ياستراو تماماً.

فزّ فجأة. سمع "ها، مساء الخير سيِّد فولدوم!"، صوت السَّيِّدة كان مهيناً بعض الشيء. جَمَدَ فولدوم في مكانه، ثم استدار بحركة غير مهذّبة صوب ياستراو. وبلحظة رمق لوندبوم بنظرة متسائلة مؤذية، وقد أمال رقبته إلى الخلف صوب السَّيِّدة استنكاراً لها، ولا شكّ. ولكن لوندبوم اكتفى برَصِّ عينَيْه الصغيرتَيْن الذكيَّتَيْن، وهزّ رأسه تقريباً، من دون حركة ملحوظة.

"هل لمحتَ السَّيِّدَ الصحفي إيريكسن اليوم؟" سأله فولدوم مبتسماً كي يُشتِّت انتباهه.

"كلا".

"كان منتشياً ليلة البارحة. يا سلام، وهو قاس أيضاً" علّق لوندبوم بابتسامة، ارتسمت وسط الارتباك، لأن الغرض منها كان عكس قلقه.

كان فولدوم شاحباً كالموت. وقد أكسبه شَعْره الأحمر هيئة ميّتة.

"حسناً، ولكنْ، أيّها الزوج، هل لي بشرف التَّحيَّة ورفع نخبٍ؟" قالها وجلس متماسكاً.

سلَّم ياستراو، وبدأ يشرب.

"اسمع، فولدوم، ما اعتراضكَ الدائم على زواجي؟"

نظر فولدوم إليه بتعبير، وكأنه كان يفكّر برقبته.

"ليس لديّ شيء ضدّ زواجكَ" أجاب بميكانيكية، "أنا، على الأصحّ، معجب بكَ لأجل ذلك فقط".

ضحك ياستراو باستهزاء، وبصوت عالٍ، ليجعلَه قريباً.

"لا، يا عزيزي أوله" عارضه فولدوم، ووضع يده على ذراعه باهتمام كبير، ولكن عينَيْه كانتا بعيدَتَيْن وخبيثَتَيْن، بقعَتَيْن رماديَّتَيْن لامعَتَيْن. "أنا حقّاً معجب بطريقتكَ في إخفاء زوجتكَ. لم تقدّمني لها، ولا لمرّة واحدة. وأنتَ لم تصحبها معكَ يوماً إلى -داو بلاذيت- وفي الحفلات. أنا معجب بانتقاصكَ لحياتكَ الخاصّة في المحافل العامّة".

لم يكن ياستراو يصغي إلا للميكانيكية في نغم الكلمات، وليس لمعناها.

"نعم، صدِّقني" واصل فولدوم. "بإمكاني أن أرى ذلك فيكَ. ولكنْ، بإمكانك أن ترى نفسكَ أنتَ، كشخص من طبيعة محافظة مثلي، يقال عنّي، كما تعرف، محافظ". ثم أضاف مع صدى سخرية في صوته؛ "أنا مُعجَب بكَ، لأنكَ تُغلق على زوجتكَ. وإن جاء غزو من قِبَل البلاشفة، أرسلتَها إلى بيت أهلها. ولكنْ، اسمعْ، هؤلاء البلاشفة، ألا ينتظرونكَ؟"

حتّى في نومه يمكن أن يكون شرّيراً.

"أوه، دعهم ينتظرون"، أجابه ياستراو. لِمَ يجب أن يتذكّرهم؟ ها هو يجلس مع فولدوم في

بار، ويتحدّثان معاً، ولكنْ، كل منهما بأفكار أخرى في رأسه. كانت لعبة أقنعة. بصحّتكَ! ودوّى من ثمّ صوت ساكسفون منفرداً من الغرامافون، وياستراو يرغب الآن في أرجحة كرسيه العالي على إيقاع نغماته، وينسى، ينسى، ينسى ...

"إنه رائع، أليس كذلك؟ رودي ويدوفت، أفضل عازف ساكسفون في العالم".

أمسك فولدوم بكلتا يَدَيْه القويَّتَيْن بالمقبض النحاسي وأمال الكرسي إلى الخلف، ليتوازن بقائمَتَيْن، كما يظهر من أجل أن يُنصت، وأيضاً من أجل أن يخطف نظرة سريعة للسَّيِّدة، الخطر الذي يهدّده من الخلف.

أدارت السَّيِّدة رأسها قليلاً أيضاً. استطاع ياستراو أن يلمح شعرها الأسود. الوجه عريض، يعلوه شيء من خضوع وابتذال، وهي لا تبدو حقيقة جميلة. لم يرها إلا الآن. كان هناك عصيان في نظرتها. والفم يُرادُ به أن يكون مزدرياً، كان مجروراً باعوجاج. وبهزّة مستنكرة، استدارت بعنقها، استخفافٌ ساذج أجبر ياستراو على الابتسام.

"بلى، ممتع جدّاً هذا الساكسفون" علّق فولدوم، وكأنه لم يرَ شيئاً. "ولكنْ، لا يناسب ذائقتي".

"ولنعد إلى موضوعنا" قال ياستراو، "فتملُّقكَ يُدهِشني بصراحة".

اعتدل فلولدوم في جلسته.

"إن كانت قناعتي الصادقة فوق هذا تملّقاً، فهو من دواعي سروري مضاعفاً. لا يحدث لي ذلك إلا نادراً جداً جداً". رمى ذلك بمقدرة لفظية، وكأنه كان يقتبس، ولكنه أضاف بتهكّم فجأة، ومن دون توطئة نهائياً: "وبخلاف ذلك، لا يسرّني أن الساكسفون المستنكَر جعلنا نشرب على عجل. ها هو كأسي قد فرغ".

وصفع بكأسه سطح النضد البلاستيكي.

أمَرَ ياستراو: "اثنان ويسكي".

تنفّس فولدوم ملء رئَتَيْه.

"شكراً لكَ، أنا بحاجة لذلك، وليس معي الكثير من النقود الآن. ألا نأخذ سيجاراً أيضاً. هنا يوفّرون نوعاً، اسمه مارسمان، وهو مقبول".

هزّ ياستراو رأسه، وتناول بالوقت نفسه بحذر نقوده من جيب صديريه.

"لديكَ أكثر من اللازم" علّق فولدوم بنظرة طويلة إلى الكرونات المعدنية في يد ياستراو. "بإمكاننا أن نطلب المزيد من الويسكي".

"نعم بمقدورنا" قال ياستراو بميكانيكية. كان مُتعباً لذا لم يتذكّر إن كانت النقود تخصّ شيئاً آخر.

وتقدم باللحظة رجل قصير متواضع بجاكيته القامط عبر بهو البار. كانت لديه سلّة تحوي وروداً تحت ذراعه، وقد حمل في يده ثلاث وردات جورية، بلون أحمر شاحب، ولا شكّ ليناولها للضيوف. هناك شيء حلمي ومقدّس يُتوِّجُ مظهره اللطيف، ابتسامة متورّدة مُزهِرة، جاءت منسجمة مع الجوريات. كان يشبه جندياً من جيش الخلاص.

دنا منهما من دون كلمة. حركة يد مشجّعة لا غير. وانحناءة مهذّبة لا غير حين انصرف. روحُ وردة صامتة.

عندما وقعت عين فولدوم عليه، صارت عيناه باللحظة مُتفحِّصَتَيْن، وتابعتا مثل حيوان مفترس حركته. استدار تماماً وجلس مُولِياً ظهره إلى البار. أسطوانة جديدة طنّت بلحن روز ماري(*) العاطفي عبر فضاء البار. بعض الضيوف كانوا يُدندنون معها. والسَّيِّدة إلى جانبه تتلوّى على إيقاع اللحن الراقص حتّى صرّ كرسيها. هزّ الساقي لوندبوم بحركة موجية خلاّط الكوكتيل حتّى تكسّر الثلج الناشف بداخلها. كانت الأجواء وردية. ولكنْ، ياستراو كان متنرفزاً، متنرفزاً جدّاً أكثر من قبل، لأن فولدوم كان قد انحنى والشَّعْر الأحمر الأملس سَرَح على جبهته، وعيناه كانتا جامدَتَيْن. وما لا يمكن تجنُّبه قد حدث.

لم يتنبه بائع الورد إليه. لم تقع عينه إلا على السَّيِّدة، وعندما تقدّم صوب البار، مدّ بحركة متضرّعة وبتأدُّب ذليل يده بالوردات صوب السَّيِّد عريض الكتفَيْن، والذي كان جالساً إلى جوارها. باللحظة نهض فولدوم من مكانه على الكرسي العالي واضعاً قَدَمَيْه على الخشبة العارضة أسفل القائمَتَيْن، فصار أعلى من الباقين بنصف جسد، وبارتجافة شديدة، وكل كلمة كانت مصبوبة من حديد، قال:

"كيف تجرؤ على بيع الورود هنا؟ كما ترى، ليس هناك من سيّدات في البار".

---

*) إشارة إلى عازف البيانو الأمريكي ومعزوفته الجازية الشهيرة "ماي روز ماري" التي عزفتها الأوركسترا بقيادته في نيويورك عام 1924 بعزف أرمسترونغ على الترومبيت.

عمّ الصمت البار بأكمله. وحدها روز ماري كانت تترنّم من دون توقّف في الغرامافون.

بعدها بلحظة وقف السَّيِّد ذو الكتفَيْن العريضَيْن.

"تعالي، لنذهب" قال بصوت مرتجف للسَّيِّدة.

قفزت هي من على الكرسي، ساعدها بارتداء فروها، ومن دون أن يسلّمْ على لوندبوم الذي فغر فمه قلقاً على بارِهِ. تابع الضيوف بأعينهم خروجهما حتّى اختفيا.

كان ياستراو قلقاً، لأن الأمر سيتمّ تصعيده إلى فضيحة. لم يكن ليطيق ذلك في ذهنه. الناس أغبياء جدّاً عندما يتعاركون. وقد شعَرَ في الوقت نفسه بتعاطف زائد تجاه بائع الورد الذي ابتسم بارتباك ودَّ لو انحنى إلى الجانبَيْن مرّة واحدة. ومن أين له أن يعرف أن هذا الرجل المتواضع كان يملك بيتاً في النورابرو؟!

"اسمع، أعطني تلك الوردات الثلاث، كم ثمنها؟"

وندَّ صوتٌ مُنتقِدٌ من السَّيِّد الضخم؛ "سحقاً لكَ، فولدوم"، وهزّ مندوب المبيعات برأسه الذي يشبه رأس دمية صغيراً. ردّ لوندبوم بالحال بلهجة سويدية خفيفة، وبعتب هادئ: "لا. هل تعرف حضرتكَ يا سيِّد فولدوم، لا يمكنكَ فعل هذا، اللعنة".

وقد لفظ اللعنة بدنماركية طليقة.

ولكن فولدوم اعتدل بعجل في جلسته.

"وهل تعرف حضرتكَ أيّ نوع من السَّيِّدات كانت؟"

"لا، سيِّد فولدوم،" أجاب لوندبوم السمين، وأدّى انحناءة بأدب. "ولكنْ، حضرتكَ تعرفها، أليس كذلك؟".

"أنا؟!" انفجر فولدوم مُستهجِناً. "لا، هي التي تعرفني، وأودّ أن أقول لحضرتكَ إن أردتَ حضرتكَ لباركم أن يكون باراً محترماً، لا يمكنكَ أن تستقبل إلْسا السوداء، ولا إحدى صديقاتها هنا".

خفض لوندبوم صوته إلى همس.

"هذا صحيح، سيِّد فولدوم. أعرف ذلك جيِّداً. ولكنها كانت بصحبة السَّيِّد المدير ستاروب،

وبنِيَّتي قول ذلك للسَّيِّد المدير في مرّة ثانية، إن هكذا سيّدات، تعلم أن السَّيِّد المدير صديق قديم وليّن، رجل طيب، إنسان، وهو يحضر يومياً ما بعد الظهر ليتناول كأساً هنا، إنه إنسان طيِّب، وكنتُ أودّ قول ذلك له في الغد ...".

"إذنْ، قلها له" أجاب فولدوم بلا مبالاة

"سأفعل، حين يحضر السَّيِّد المدير ... هذا إن كان السَّيِّد المدير سيحضر بعد اليوم هنا." علّق لوندبوم غارقاً بالحزن. "حتّى إنه لم يُلقِ التَّحيَّة حين غادر. الناس تتصرّف وفق طبيعتها، يا سيِّد فولدوم".

"لا، إطلاقاً، لا، ليس عندما يكون لهذا السَّيِّد ذوق سيِّئ، كي يجرّ إلْسا السوداء معه إلى هنا. ما الذي سنفعله بها؟ لدينا كما تعلم كارل الثاني عشر هناك، ماذا نقول أكثر من ذلك بظنّكَ؟"

وأشار بيده إلى الحائط يميناً. استدار ياستراو على الكرسي، فلمح لوحة لامرأة عارية بقياس جسدها، الأصحّ سيِّدة من غير ثياب، بقَدَمَيْن موضوعَتَيْن من دون قصد على صدفة بوتشيلية(*)، أطبقت اليَدَيْن ببراعة خلف رقبتها، حيث الذراعان كانتا قصيرتَيْن، لذا لم تكن الصورة في الوضع الكلاسيكي المعتاد، إحدى الذراعَيْن أمام الصدر والثانية إلى الأسفل أمام الحضن. ولكي يجعل السَّيِّدة كاملة بطزاجتها، نما الشَّعْر فقط في رأسها.

"آآآ" جاءت من فم السَّيِّد الضخم "الأجمل بين النساء، بلا مثيل".

"إنه لشرف للسَّيِّد لوندبوم وأمّته، أننا عمّدناها تحت اسم كارل الثاني عشر"، علّق فولدوم لياستراو وتجاهل ثورة الحُبّ.

انحنى لوندبوم بخجل، وابتسم.

"شرف عظيم، شرف عظيم، سيِّد فولدوم".

"وبهذا إلينا باثنَيْن ويسكي، لأنك لم تشترِ الوردات بنقودكَ كلها، عزيزي أوله" قال فولدوم، وهو ينظر إلى أوله بتفحّص.

"كلا كلا، اطمئنّ. لم أركَ مهتاجاً جدّاً هكذا".

رصّ فولدوم عينَيْه بخبث.

---

*) (Sandro Botticelli 1444-1510): نسبة إلى الرّسّام الإيطالي ولوحته الشهيرة ميلاد فينوس

"هل رأيتَها؟" سأله.

"لا، ليس تماماً".

"إذاً، كنتَ ستفهم الأمر جيِّداً. رقبة بيضاء ثخينة. ألم ترها؟ وبدلة سوداء لمَنْ تملك هكذا رقبة. فظيع".

"كان بإمكانكَ ألا تنظر إليها".

"وأن ترى ذراعها؟هل تعرف شيئاً أسوأ من جرحٍ مغطّى بالبودرة؟ اسمع، دعني أقل لكَ، إنها الأكثر سوءاً والأكثر وقاحة. ألا يمكننا التّحدّث عن شيء آخر؟ كيف حال بلاشفتكَ؟ لِمَ هُمْ في شقَّتكَ، وبانتظار أبيهم؟" سأل فولدوم مناكفاً إيّاه.

لم يسمع ياستراو. جرحٌ مغطّى بالبودرة. يمكنه رؤية ذلك. صورة ملوّنة في كتاب طبّيّ. شَعَرَ به جسدياً، لون اللحم، لون الجرح، الوسخ. ولم يجبْه.

وفي عمق البار، كان هناك العديد من الضيوف قد تفاعلوا مع مجموعة صاخبة. سيِّد مُسِنّ سمين، وطالب طويل ضعيف، يرقصان في الحلبة على إيقاع موسيقى الغرامافون. وخلالها دفع الكيس السمين الطالب إلى الجدار، وزأر: "مَنْ تظنّ نفسكَ، أيّها الولد المتعجرف، هل تنوي أن تسخر من رجل عجوز؟" ولكن نوبات الغضب جاءت بشكل دفعات متّسقة، وواصلا من ثمّ الرقص حتّى حلّ غضب الكيس السمين من جديد: "مَنْ تظنّ نفسكَ، أيّها الولد المتعجرف؟!" ودفعه من بعدها إلى الجدار.

"ما هذا؟ الأجواء اليوم ليست مريحة" علا صوت فولدوم مُنزعِجاً مرتعداً، وكأنه متجمّد من البرد. "الكثير من السخافات هذه الليلة، وانظر ها هو -كيير- و-بي- الصغير هناك".

حرّك رأسه بامتعاض صوب الرجل الضخم ومندوب المبيعات. هذان السّكّيران، سمحا لنفسَيْهما التعبير عن الرأي!

"كان بإمكاننا الحصول على ويسكي مجاناً هناك، لو أردنا" أضاف.

"مَنْ هؤلاء؟ -كيير- و-بي- الصغير؟" سأل ياستراو من دون اهتمام.

ولكن تلك الصورة الملوّنة لجرح السِّفْلِس! كان لا بدّ له من طردها من رأسه. لقد رأى جروح السفلس ذات مرّة في كتاب طبّيّ. ويا للحسرة! فها هي الورود قد استلقت على نضد البار.

"تفاهات حسب، ولكنْ، لكل منهم كيس ذهب" أجاب فولدوم بسوداوية. "الصغير ذاك، بيتر كراو، ابن العجوز كراو المالك لعزبة كاتروب، لذا بإمكانكَ القول وزنه ذهب، وأكثر، يا لبؤس حالي!".

تمعّن ياستراو بالطاولة المدوّرة بعيداً، وقد جلس عندها -بي- الصغير، النبيل الذي يشبه مندوب مبيعات، كان يُحملِق أمامه بعينَي دمية لامعَتَيْن، وابتسامة سارحة مثل مانيكان في نافذة عرض. مالَ الثقيلُ كيير بجذعه نحو الطاولة يتفحّص قدح ويسكي بحاجبَيْن معقودَيْن، وكأنه سيرعد بقرار جديد.

"وكيير هذا، هل يملك نقوداً أيضاً؟"

هزّ فولدوم رأسه إيجاباً.

"نعم نعم، نحن الاثنان خالدان" تنهّد. "مع ذلك، هلا مشينا باسم الروح، وتطفّلنا عليهم ببضعة أقداح ويسكي؟"

هزّ ياستراو رأسه بتعب.

أجابه فولدوم وتمطّط "ولكنْ، لا، أتدري؟ قد نمتُ في الأمس متأخّراً جدّاً أنا أيضاً، وأنا، كما تعرف، مُوظّف، وعليّ أن أكون في مكتبتي صباحاً، لأكتبَ خطّ المزج الأمريكي، لذا أظنّ عليّ الذهاب للبيت".

"سآتي معكَ" قال ياستراو. "أنا أيضاً سأقطع جزءاً من الطريق في الفيستربروغيذه"

دفع الحساب، وأمسك بورداته.

كان فولدوم قد تقدّمه في الطريق إلى البهو.

عندما طلعا أخيراً إلى الشارع، كان أسود فارغاً. وعبر الشارع كان الضوء في الطابق الأوّل والأعلى من -داوبلاذيت- مشتعلاً. المكان من حول الجريدة في الخارج خالٍ، سوى درّاجة هوائية مقلوبة على ناصية الشارع.

"هلا ذهبنا إلى قسم التنضيد، وتناولنا البيرة؟" اقترح ياستراو.

في البيت، هناك ساندرز وستيفينسن ينتظران، فلِمَ العودة إلى البيت؟

"لا، عزيزي، رغم أن ذلك سيكون مُمتِعاً"، أجاب فولدوم بهدوء. كانا واقفَيْن في الزاوية المعاكسة، ينظران إلى دار-داوبلاذيت-.

"هل ستأتي غداً مساء؟" سأل ياستراو.

"للانتخابات؟ لا، وحدها الفكرة تجعلني أتجمّد من البرد".

"أنا أيضاً".

ثمّ استدارا، وانطلقا بسيرهما الهادئ قطرياً عبر الساحة التي كانت واسعة بشكل كبير ليلاً بامتداداتها الخالية، والتي تسير التِّرامات عبرها نهاراً. غشاوة معتمة حول قشرة صدفةٍ أمام مبنى البلدية. عَبَرَ أناسٌ في الساحة بين شارع المشي وشارع فيستربروغيذه مشياً بخطٍّ مُوحِش مثل أناس تسير فوق بحيرة متجمّدة.

"ليس هناك من أحد هذا المساء" علّق ياستراو وهما يهتزّان من البرد.

"إنهم يوفّرون طاقتهم للانتخابات".

وما إن وصلا للناصية العريضة أمام مبنى "سكالا وناشونال" حتّى توقّف فولدوم، وبحلق عند إحدى نوافذ المحلّ الكبيرة، في امرأة بملابس فاتحة اللون، اتّكأت إلى درابزين نحاسي، وقد لمع جوربها النايلون بالبياض اللحمي وسط العَتَمَة.

انحنى فولدوم إلى الأمام.

"أ هذه هي أنتِ؟" سأل بلطف.

"أجل، مساء الخير فولدوم" بدا الصوت شبابياً، يكشط بالبلعوم.

اقترب كلّ من ياستراو وفولدوم.

لم تكن طويلة كثيراً، ولكنها ممتلئة. أضاء وجهها الأبيض الطباشيري رغم بُعْد انعكاس ضوء المصباح المُقوّس الذي لمع على امتداد الطريق مثل جليد. لاحت الهالات الداكنة تحت عينَيْها، والفم المرسوم بدا مثل خطٍّ فاحم سميك.

"ما الذي تفعلينه هنا؟"

"أتجمّد من البرد" ومالت برأسها بغُنْج إلى الجانب.

"هذا فقط؟"

"انتظر سمكة".

ضحك فولدوم، وجاء بسؤالَيْن إضافيَّيْن كريمَيْن، أخذها من ذراعها، وأبدى إعجابه بامتلائها، فضحكت، وتلوّت بغُنْج. وقف ياستراو كمتفرّج، وبين آونة وأخرى يواجه نظراتها اللامعة.

قال فولدوم أخيراً؛"حسناً، عليّ الذهاب للبيت، يا فأرتي الصغيرة، لم أشأ أن أتخطّاكِ من دون أن أعيركِ اهتماماً".

وأخذَ الوردات بهدوء من يد ياستراو، وناولها إيّاها من ثم بانحناءة أنيقة.

"اهتمام بسيط من قِبَلي ومن قِبَل صديقي. وتصبحين على خير يا صغيرتي".

شعَرَ ياستراو بالسعادة بداخله لهذا الحدث الصغير، القليل من الروكوكو في الحياة الليلية للمدينة الكبيرة.

وقال بصوت من القلب إلى حدّ؛ "عمتَ مساء، يافولدوم"، عند نصب الحُرّيّة الوطني قبل أن يستدير إلى شارع إستيدغيذه.

هناك كانا نائمَيْن، هذان الاثنان.

الفصل الرابع

استيقظ ياستراو لسماعه صوت صَلْصَلَة.

لم يكن في البدء واضحاً تماماً. استيقظ بهزّة عصبية. اعتاد ذلك عندما يشرب الويسكي.

... هناك صَلْصَلَة ... صَلْصَلَة في المطبخ، صحون وأكواب. كان صوت غسيل صحون.

"يوهانه" صاح برثيره الصباحي المعتاد.

سَمعَ صوتَ خطواتٍ ثقيلة في الممرّ المؤدّي إلى المطبخ، وانفتح الباب، ولكنها لم تكن يوهانه. تلك الخطوات الثقيلة التي أقلقتْه، كانت لساندرز الكدر، الذي ضَحَكَ ملء شدقَيْه بأكمامٍ مرفوعَتَيْن وخرقةِ تنشيفٍ على ذراعه.

"ماذا هناك؟" هتف ياستراو، ونهض عند رأس السرير. "هل أرى مناماً؟" وفرك عينَيْه.

غيّر ساندرز فجأة تعبير وجهه حتّى أدرك ياستراو أن ما كان هو يقين.

"أنا لا أفهمكَ".

"هل غسلتَ الصحون؟"سأل ياستراو باستهجان.

"أجل، طبعاً،" شدّت ابتسامة ازدراء شَفَةَ ساندرز العليا، ولحقها بصِدامٍ ؛ "هكذا إذنْ، أهذا الذي فاجأكَ؟! أجل، غسلتُ الصحون".

استلقى ياستراو ثانية. لم يطق الدخول في حرب مباشرة في الضحى مع أقنعة ساندرز المتغيّرة.

ولكن ساندرز استمرّ بصوت أخلاقي:

"أليس الأمر منطقياً بعد أن وسّخنا المكان أن نقوم بتنظيفه. وفق ذلك، فقد غسلتُ الأرضية، وكنستُ، وانتهيتُ للتّوّ من غسل الصحون." وبسخرية خفيفة في صوته: "وستُقدَّم القهوة للسادة في الفراش حالا".

"السادة!" دمدم ياستراو مُنزعِجاً تحت اللحاف. "هل مازال ستيفينسن نائماً؟".

"أجل، الحيوان لا يريد أن ينهض".

"آه، الحمد لله" تنهد ياستراو مُتخفّفاً من هَمّ. "كنتُ أخشى أن يكون هو الآخر نظرياً مثلكَ".

ارتسمت على مُحيّا ساندرز ابتسامة الشقي.

واصل ياستراو؛"اسمع، إنه ابن المَدعو هـ. سي. ستيفاني".

"نعم" ابتسم ساندرز مناكفة."كان كلامكَ لاذعاً، وأنتَ تتحدّث بالأمس في الهاتف عن ستيفاني. لو رأيتَ وجه ستيفينسن".

"ومن أين لي، بحقّ الشيطان أن أعرف ان ابن ستيفاني اسمه ستيفينسن. ولكن آرنه فولدوم يعرف ذلك".

"هكذا إذاً، لهذا السبب، كنتَ خارج البيت " علّق ساندرز بسخرية. "فهمتُ الآن".

"ما الذي فهمتَهُ؟"

"إنه لرجل راقٍ هذا الـ آرنه فولدوم، رجل طيّب، ومن المؤكّد أيضاً أن الأمر أكثر أهمّيّة أن تكون بصحبة مثقّفين على أن تستمع إلى لغو شيوعي غبي. ولكننا تدبّرنا أمورنا رغم كل شيء. ستيفينسن شرب قنّينة نبيذ بورت وجدناها في غرفة المؤونة، ودخّنّا معظم سيجاركَ، وقرأنا قليلاً أيضاً، وتحادثنا، كما كتب ستيفينسن شِعْراً. كان مساء مُمتِعاً. لقد عثر على إحدى دفاتركَ، وهذا الورق كله ألهمه بشكل عنيف. وبعدها غنّينا أغان جميلة، وشغّلنا الغرامافون. لذا قد تدبّرنا أمورنا بشكل ممتاز. واليوم لدينا انتخابات، وستتخلّص منّا".

"بإمكانكما البقاء للغداء" أجاب ياستراو، ومدّ ساقَيْه من السرير، ينوي النهوض.

"تعرف، لقد فكّرنا بذلك، ولكنْ، ألا تريد تناول قهوتكَ في السرير. سأذهب لأضع الماء على النار".

سحب ياستراو بنطلونه من دون كلمة. واختفى ساندرز بابتسامة مشرقة متوجّهاً إلى المطبخ.

هل صار بيته نُزُلاً للمشرّدين؟ للحظة جلس حزيناً متفكّراً على حافّة السرير. لا، لا، بدون تفكير. أمسكَ بالقميص بأسرع ما يمكن، ياقة، صديري، وسترة، وأسرع إلى غرفة الطعام، إلى الدفء. ولكنْ صحيح، يوهانه لم تعدْ إلى البيت، ولذا لم تُشغّل النار في الموقد. دفعَ الباب

بضيق. وذلك أيضاً، اللعنة، قد فكّر به ساندرز الذي لا يمكن حزره هو الآخر. لقد وضع الحطب في الموقد. وكان قد نفض الغبار ومسح الأرضية. ولا يدري إن كانت ألعاب أولوف قد عُرِضَت أيضا بطريقة معيّنة ما، كانت هناك مسحة نسائية! غباء! كم يناسب ذلك ساندرز المخلوق الممثّل الشبقي، هه!

ارتدى ياستراو ملابسه على مهل، بينما كان يروح ويجيء ويدخّن. أكان هذا نوعاً من عجرفة؟ ألم تكن هذه وقاحة؟ وقف أمام المرآة عند البوفيه، وشدّ ربطة عنقه. ألم تكن ...؟ أبصَرَ فجأة مدى شرّانية عينَيْه في المرآة. سرْت رعدة في بدنه. وجهٌ منغولي شرّير. ولكنه شعر بعد لحظة بإطراء، وابتسم بتجهّم لنفسه. هل يمكن أن يبدو شرّيراً حقّاً؟ ما الذي فكّر به، حين بدا تعبير وجهه هكذا؟ إنه التحليل النفسي للشرّ تجاه ساندرز! ألم يكونوا مراهقين، وأحبّوا ارتداء ملابس النساء، أحبّوا تخيُّل أنفسهم نساء، تتملّكهنّ رغبة شديدة بذلك؟

فتح الباب دفعة واحدة إلى ممرّ المطبخ، وصاح بصوت حادّ:

"وقد أشعلتَ الموقد أيضاً، ها؟"

"بالطبع" أجاب ساندرز لامبالياً.

وأطبق ياستراو الباب. ولكن الدّويّ كان عالياً جدًّاً. لقد اندفع مضطرباً. إنه تهوّر أيضاً، ما قام به. لقد عرّض نفسه للإهانة، فعاد، وفتح الباب ثانية، وصاح؛

"يا له من تيّار هواء قوي، الأبواب تنصفق".

"لا أفهم" جاءه الصوت الذي لازال غير مبالٍ من المطبخ، "ليس هناك من شبّاك مفتوح في الجانب الآخر".

حينها أقفل ياستراو الباب بتماسك وبطء، ودخل الصالون. لم يستطع تحمّل المزيد.

قد تمّ ترتيب هذه الغرفة أيضاً من قِبَل ساندرز. ستيفينسن مايزال نائماً على الأريكة، منظر له فعل التّحرّر. كان مستلقياً هناك بأنفه الكبير المرفوع، حيث بالإمكان رؤية ما بداخل منخَرَيْه. كان الفم مفتوحاً. كما لو كان هناك ثلاثة ثقوب، هرب الوعي منها في رأسه الضخم. وكان الشَّعْر قد نما على الذقن والخَدَّيْن خلال الليل، فبدا نابتاً مثل قنفذ. اضطراب جميل!

على الطاولة، ضبّة ورق، والكثير من الأوراق الممزّقة المبعثرة، إلى جانب علبة سيجار كانا قد فتحاها. ومن دون أن يفكّر – كان يفكّر بسيجاره الفاخر، تناول إحدى الأوراق، ونظر إليها. وماذا

كان فيها؟ كان مكتوباً ؛-مثل وحش بيَدَيْن مدمّيَتَيْن- وفي آخر الصفحة -مثل وحش بقبضَتَيْن مدميَّتَيْن-. ولم يكن غير ذلك على هذه الورقة.

تناول ورقة أخرى. من جديد السطر ذاته، ذات التنويع على -يَدَيْن- و-قبضَتَيْن-. وبالمناسبة، كانت الورقة ملأى برسومات لوجوه رجال شيوخ، كلهم بياقات قساوسة، بضعة خطوط طويلة، سيقان نساء، منحنيات ظهور نساء، صدور، خاصرة، وفجأة لقلق المارابو.

لا بدّ وأن ستيفينسن حاول أن يكتب شِعْراً، ابتسم ياستراو. من أين عرف ذلك؟! اليد العاطلة التي ترسم وجوها بينما تجتمع الأفكار محلّقة فوق الورقة مثل جمع حمام، لا يريد أن يحطّ ويستقرّ.

ولكنْ، على الورقة الثالثة، كان هناك أخيراً بيت شِعْري.

الشطر الأوّل كُتب بيد كبيرة واضحة ولكنها مشطوبة بخطّ؛

مثل وحش بيَدَيْن مدمّيَتَيْن
بعد شجار وكحول
أنهضُ من على فراش الصدْفة
على أريكةٍ عند شفا الأهوال

ونزولاً آخر الصفحة تقريباً في زاوية الورقة ومن دون علاقة أخرى بهذا المقطع غير الإيقاع، كان قد دوّن مقاطع ثلاثة أخرى بحروف سريعة صغيرة، وبتصحيحات بسيطة، ولا شكّ كُتبت مرّة بجرة واحدة. وعندما أمسك ياستراو بفضول الورقة الرابعة، كانت هناك الثلاثة مقاطع قد كُتِبَتْ مبيّضة بتاريخ واسم، طُبِعا في الأسفل. ذلك يعني بالتأكيد أن القصيدة كانت ناجزة.

الخوفُ آسيويّ في تدفّقه
ناضجٌ، والعمر في بواكيره
أشعرُه بقلبي كل يوم
مثل قارّات تُفنَى بأكملها كل يوم

خوفي ينعتق في توجّسي خيفة
في رؤاي للأهوال والفقر
قد توجّستُ كوارثَ السفن
الخرابَ والموتَ المُفاجِئ

توجّستُ مُدُناً محترقة
وأقواماً في نزوح
انفجاراً يضربُ العالم
وهزّةً أرضيةً، سُمِّيتْ عقاب الله

صوّب بهزّةٍ نظره إلى ستيفينسن. شعر بنفسه مُراقَباً. وقد صحّ ذلك إذ ارتعش جفنا ستيفينسن. خطٌّ رفيع من العينَيْن بلمعان المينا عبر أهدابه. فمه كان مغلقاً.

ثمّ فتح عينَيْه.

"هذه القصيدة سأُصادرها لصفحتي الأدبية" علّق ياسترِاو من دون تردّد، بينما كان يثني الورقة، ويدسّها في جيبه.

نهض ستيفينسن بحركة عنيفة.

"صحيح، هل هي جميلة كفاية كي تصير مُومِساً؟" هتف وحملق بخبث صوب ياستراو.

"ليس أسوأ البنات مَنْ يُصبحنَ كذلك دائماً"، أجابه ياستراو.

"لا، ولكنْ،" تفاصح ستيفينسن، "ولكنْ، دعني أراها مرّة أخرى".

"بإمكانكَ النظر في المسوّدة، لأني سأحتفظ بالقصيدة، وستكون هنا في هذا الجيب." وضرب ياستراو على صدره.

في اللحظة نفسها، جاء ساندرز بثلاثة أكواب قهوة ساخنة في صينية، وضعها على الطاولة.

"يا أنت، يا بيرنهارد، لقد اشترى قصيدتي التي تخصّ البارحة" دمدم ستيفينسن.

نقل ساندرز نظره بينهما مُتفاجِئاً، وقال بعدها بحدّة:

"ولكنها ليست أفضل ما لديكَ".

"كلا" تمتم ستيفينسن بجدّيّة تامّة. "أخشى أن القصيدة تضمّنت الكثير من الأفكار".

جلس ساندرز هادئاً تماماً على أحد الكراسي الروكوكو، وعضّ شَفَتَهُ السفلى. لم يكن قريباً في هذه اللحظة. ولكن ياستراو سحب له كرسياً، وجلس مُقوِّساً ظهره بنظرته المفتوحة الداكنة التي نوّمت مغناطيسياً من قِبَل ستيفينسن.

"ماذا تقصد بالكثير من الأفكار؟".

قلب ستيفينسن وجهه متسائلاً. "هل صرنا أصحاباً الآن؟".

"هراء" ردّ بفظاظة. "ولكنْ، ما الذي عنيتَ بما قلتَهُ؟".

"أعني ما أعني، ليس لي أفكار مثل ذاك، ساندرز".

"ألن تغيّر قليلاً من نكاتكَ" توسّل ساندرز. "اشرب القهوة الآن. ويا أوله، لا تقلقْ" قال ساندرز متوجّهاً بكلامه إلى ياستراو: "لم يكن يعني شيئاً".

غمز ستيفينسن خِفية. "لِمَ يجب على الفنّانين أن يعنون شيئاً" قالها متفاصحاً.

تأمّله ياستراو مُتفاجِئاً.

"تماماً تماماً" هتف من أعماقه. "والأصحّ ربمّا، يجب على الفنّان أن يعني شيئاً، ولكنْ، غير مهمّ ما يعنيه".

اتّكأ ساندرز مستنكراً إلى ظهر الكرسي الروكوكو البيضوي، وقد أعطى بوضعيّته الملكية مظهراً ثورياً، بألق خيالي، لينين في الكرملين.

"من الأفضل لنا أن نتحدّث عن الغداء"، علّق ساندرز بابتسامة متعالية ماركسية. "الحقيقة دائماً محدّدة، ماذا لديكَ من طعام في غرفة المؤونة، يا أوله؟".

"ينقصنا على أيّة حال بيرة. أعرف ذلك من البارحة" عقّب ستيفينسن.وضحك ياستراو. جاءت ضحكته صادقة. كان، على أيّة حال، منفتحاً أمام أيّة ملاحظة، يأتي ستيفينسن بها.

ياستراو لا يعرف بالطبع ماذا كان في البيت من طعام، بينما من الطبيعي أن يعرف ساندرز ذلك. طبيعي. ألم يذهب إلى المطبخ، ربمّا، وحدّد سجقاً وفيليه وشرائح سمك ملفوف؟ كان ينقصهم بيض وخبز أسود، وطبعاً بيرة. وسينزل ياستراو للتّسوّق، وبإمكان ستيفينسن مرافقته لحمل القناني، وهو أكثر من مستعدّ لذلك. خلالها سيُعِدّ ساندرز المائدة للغداء. يعرف بالطبع أين مكان شراشف الطاولة النظيفة.

"هل تعرف مكان الأواني وملاعق الفضّة أيضاً؟" سأله ياسترو بخبث. هزّ ساندرز رأسه إيجاباً.

ونزل ياستراو وستيفينسن إلى البقّال. مشيا بخَبَب رفاقي. وتوجّها من ثمّ إلى محلّ البقالة في الزاوية من كولبيورنسنسكيذة. ظلّ ستيفينسن منتظراً خارج المحلّ مع القناني تحت ذراعه وفي جيوب جاكيته.

"همم" دمدم عندما جاء ياستراو من المحلّ ثانية "إستدغيذه شارع جميل".

"لِمَ؟".

"لأنه طويل".

أوشك ياستراو أن يضحك، ولكنه لمح نظرة ستيفينسن اللامعة البعيدة. فنظر هو بالتالي عميقاً على طول الشارع. كان من دون نهاية. برقت شمس الظهيرة في حشد من زجاج النوافذ المفتوحة مثل قطرات ماء، وبعيداً في ساحة -إنكهيوا- صارت الواجهات الصفر والرمادية ظلالية مثل جبال بعيدة، ذابت في ضباب وامض.

"صحيح، إنه غباء منّي، إني لم أرَ دوماً كم هو جميل هذا الشارع" علّق ياستراو.

"نعم، إنه حقّاً يشبه فكرة، من تلك التي تريد أن توجد في قصيدة" وابتسم بجمود." كل هذا الروث والرثاثة هنا، يصير ضوءاً سماوياً هناك بعيداً" وضحك ضحكة ساخرة.

عندما وصل ياستراو وستيفينسن البيت، كانت يوهانه قد عادت خلالها مع الصّبيّ، والصّبيّ جاء راكضاً في قوس من غرفة الطعام، ومال منحرفاً بخطورة انحراف دراجة بخارية. وفي اللحظة التي وقعت عيناه على كمّيّة القناني، توقّف بكبحة بقَدَمَيْه، ووقف مُترنِّحاً بجسمه الضئيل المربك بينما صاح مُتفاجِئاً: "واه، قناني بيلة كثيرة"، لفظ بيلة نفخاً جعلها تتبخّر بلحظة. والدهشة كانت بالنسبة إلى ياستراو كبيرة عندما رأى ستيفينسن ينحني، ليناوله قنّينة.

"هل بإمكانكَ حملها؟" غمز وهو يدمدم.

مدّ أولوف قبضته، ليتناول القنّينة، وأبدى فضولاً للنظر في علامة البيرة، بينما طبطب ستيفينسن على رأسه، وفرك رقبته، كما لو يلاعب كلباً. "أوسا كاسا، أوسا كاسا".

"أوسا، كاسا! يا له من اسم" صاح أولوف، وتأمّله مُندهِشاً. أخذ ياستراو يضحك عالياً.

"ما الذي يمكن تسميتها إذاً؟" علّق ستيفينسن مع نفسه بابتسامة واهنة.

"حسناً، هذه هي البيرة"، تهادى في مشيته بخطوات بحّار طويلة إلى غرفة المائدة، وزرع القناني على المائدة بينما واصل ياستراو إلى المطبخ.

"لا، لا تفعل، دعني، دعني أنا" سمع صوت زوجته. الصوت بدا مرحاً. وعندما خطا داخلاً المطبخ، توقّف متعجّباً. وقفت يوهانه عند مائدة المطبخ، تحاول أن تنتزع صحناً من يد ساندرز.

ولكن ذلك لم يكن ما دعاه للتّعجّب. لا، كان ذلك الألق الذهبي الذي أحاط بكيانها في أوضاع مقاومتهما الحثيثة. وهو يميّز ذلك بمرارة. كان ذلك هو ما أغشى بصره واقتحمه مثل عاطفة، التّوهّج.

سعادتها كانت تُربِكُ نظره دوماً. لبث في مكانه هادئاً، بحقدٍ بداخله متابعاً بعينَيْه الخلاف بينها وبين ساندرز المعتم الذي لمعت عيناه مثل ذبابة الخومع.

وقد رآها وهي تقذف الصحن الملمّع بانتصار عالياً مثل دفّ.

"يوهانه" قال هادئاً.

استدارت بجسدها، وحين رأت زوجها حطّ الألق الذهبي كله، واختفى. ها هي تقف أمامه، وهو يتأمّلها للحظة، ليرى عينَيْها وهي تعوم، والفم الذي انفتح لاهثاً. أرنب أبيض، فكّر هو فجأة.

"ها هو البيض والخبز الأسود" قال ياستراو. ولا بدّ أنها شعرت بمباغتة، لأنها شرعت تحوم، حركات، كلمات، نظرات. صارت أكثر من واحدة!

"أليس رائعاً ماقام به السَّيِّد ساندرز؟! غسل الصحون، قام بالتنظيف، التنفيض، إشعال الموقد، صنع القهوة وكل شيء. لم يشأ في البدء أن يقول إنه هو الذي قام بهذا كله. ولكني اكتشفتُ ذلك. أليس رائعاً؟!".

إعجابها كان متدفّقاً، لاهثاً. كان من المفترَض أن يجتاحه، ولكنْ، صار الموقف كوميدياً، فوقف بابتسامة صغيرة، افترّ فمه عنها.

"لم تكن لتستطيع فعل ذلك، يا أوله!".

حملق بها بدقّة. كان جسداً متحمّساً لامرأة. كانت أرنباً أبيض! فمه لازال منفرجاً بابتسامة.

"ولكنْ، دعني الآن، سيِّد ساندرز، أخرج من هنا، الرجال ليس لهم ما يفعلونه هنا. انصرف من مطبخي".

وضاحكة دفعت ساندرز أمامها. وحتّى ياستراو حصل على دفعة.

"اخرجا! اخرجا".

خرج ياستراو طائعاً. وقد رمق بحقده ساندرز بنظرة. هكذا تنتصر إذاً على امرأة برجوازية؟ إلى هذا الحدّ ممكن لزوجة أن تكون مستسلمة؟ رقاقة رغوة من إثارة جنسية! إغواء كما في الماضي،

ولكنها واحدة فقط. فجأة يبدو ما أمامه كوميدياً، أرنب أبيض. لِمَ هذا التّحوّل؟ واقعية الزواج؟ ربّما؟ هل انتهى كل شيء؟

"واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة!" سُمِعَتْ من داخل غرفة الطعام.

كان ستيفينسن قد جلس في مكانه على طرف المائدة، وقد صفّ القناني كلها أمامه. "واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة!" يعدّ ويؤشّر بسبابة معقوفة على القناني واحدة بعد الأخرى، بينما اتّكأ أولوف بذقنه إلى حافّة المائدة، وتابع بحماس الأصبع بعينَيْه. "واحد، اثنان، ثلاث!" صرخ، وبدأ يؤشّر، كأنما بفتور.

لم يشعر ياستراو بهما. سحل كرسياً بفتور إلى المائدة. كان واهناً. وتلك الابتسامة الصامتة والبعيدة من قِبَل ساندرز الذي جلس بارتخاء عند الطاولة، لم يكن ليستطيع سَدّ الطريق عليها. غرقت بداخله، ولمعت مثل حجر كريم.

كانت يوهانه تقوم في أثناء ذلك بأداء ربّة بيت تروح وتجيء، لتعدّ الطاولة.

"أعتقد بإمكاننا الآن أن نبدأ" قال ياستراو.

"ألا ننتظر قليلاً زوجتكَ، لكي ...؟" قاطعه ساندرز.

"لا" جاءت منه قاطعة.

ابتسامة ياستراو صارت وقحة.

"حسناً" أجابه بتهذّب مبالغ به.

وعندما جلست السَّيِّدة يوهانه أخيراً عند المائدة مع الآخرين، بدأت الحديث ثانية عن مهارات ساندرز البيتية. كانت نشوى تماماً. "تصوّر" و"تصوّر" وصيحات مرحة.

"إنها لا تتعدّى البديهيات" قاطع ساندرز بأدب، ولوّح بيده التي لم تكن كافية تماماً، لتعينه في بلاغته، "بالنسبة إلى الشيوعي، على أيّة حال، في الدولة الشيوعية، لكل شخص الحقّ في غرفة واحدة لا أكثر، وعليه واجب التنظيف".

"أما زلتَ حضرتكَ مع الشيوعية هذه؟!" ضحكت يوهانه، ومازحتْهُ بضربة خفيفة على ذراعه، وكأنها خادمة تهمّ بالقول؛ آه!

نظر ياستراو إلى مفرش الطاولة.

"أجل دوماً" أجاب ساندرز لا مبالياً، "إنها جزء من المعركة لتحرير المرأة. قَدَر الغالبية من النساء هنا في هذا المجتمع الرأسمالي بربري تامّ، على حضرتكِ الاعتراف بهذا؟".

"أجل أجل" أجابت مُتلكِّئة. "ولكن الشيوعية، إنها كما تعرف شيء آخر، النساء ملك للدولة فيها".

لم يجرؤ ياستراو على النظر إليها. ارتسمت على جبهتها أقسى الثنيات والعينان كانتا شاحبتَيْن، ولا شكّ من دون لون، لمعتا جرّاء التفكير.

ترك ياستراو أصبعه الوسطى ينزلق على نقشة المفرش الأبيض.

"هذا افتراء" هتف ساندرز. "كذب، الجرائد يُدفَع لها من أجل نشره في أوروبا. إنها كذبة دعائية."

عند هذه الكلمات، نظر ياستراو إلى ستيفينسن، ولكنه كان جالساً بملامح لا مبالية، وقد فتح له قنّينة بيرة.

"ولكني قرأتُ في -المطرقة-" اعترضت يوهانه.

"هل قرأتِ حضرتكِ المطرقة؟" سأل ساندرز.

هزّت رأسها بحماس إيجاباً، وقد صوّب ياستراو نظره أخيراً إليها. اضطرّ إلى الابتسام.

"أراكَ تبتسم أوله" علّقت بحدّة.

"نعم، لأنكِ متحمّسة جدّاً".

"ألا يتحدّث زوجكِ مع حضرتكِ حول هذه المواضيع؟"سأل ساندرز بخباثة.

"لا، والله، لا يفعل".

"ربّما يقول لا فهم لديكِ لهذه المواضيع" جاءت بشرّانية منه، ومن دون أن ينتظر إن كان تعليقه قد أصاب الهدف، واصل بنصره؛ "يا إلهي، كم يشبه البرجوزاييّن!".

ولكن يوهانه لم تفهم النبرة، وأجابت بسذاجة؛

"كلا، اعتاد بالحقيقة أن يقول إنه هو مَنْ لا يفهم في هذه الأمور".

"ههههه" ضحك ستيفينسن. كان ذلك هو الصوت الوحيد الذي ندّ من فمه طيلة تناولهم للغداء.

وضحك ياستراو أيضاً.

ولكن ساندرز رفعَ صوته، وواصل بحماوة: "بالمناسبة، لا يوجد أتفه من احتقارنا الأخلاقي البرجوازي للشيوعيّيْن بخصوص التضامن النسوي. لا يحتاج الشيوعيون لفرض ذلك. لقد فُرِضَ منذ زمن".

كان ما قيل قد بدا لدقّته، وكأنه اقتباس، فنظر ستيفينسن بشكٍّ إليه.

تنفّست يوهانه بتثاقل، وقالت بهدوء "نعم، ولكن هذا صحيح".

"لا يبدو أن هناك داعٍ لأُكمل" قال ساندرز بانتصار. "لا حاجة بالتأكيد للاسترسال بالحديث عن أعمدة الفضائح في الجريدة، والتي لا أعرفها بلا شكّ كما تعرفانها أنتُما زوجكِ وحضرتكِ".

"لا، لا يسلم الصحفي طبعاً من العقاب" أجاب ياستراو بسخرية.

ارتفعت جبهة يوهانه بتجاعيد غير محسوبة مثل مياه يسير التيّار فيها عكس الريح.

"ولكن .." قالت مرتبكة، "ولكنْ، لا، إن ما يريده الشيوعيون غير صائب. هذا ما أشعر به".

نهض ياستراو بالحال من مكانه وسأل: "أليس من الأفضل أن نشرب القهوة في الصالون؟

"كما تحبّ". نهض ستيفينسن باللحظة، وساعد أولوف في النزول من على الكرسي. كان من المضحك أن يكون الضيفان اللذان دعيا نفسَيْهما للإقامة مُسليَّيْن. كما تحرّك ساندرز بالحال، ليكون معيناً. صفّ الصحون فوق بعضها. ويوهانه كانت تضحك.

اصطدم كتف ياستراو بكتف ستيفينسن عند الباب ذي الدَّرفتَيْن، لأنهما أرادا الدخول معاً إلى الصالون.

"ما أكثر الآراء ها؟" قال ستيفينسن وهو يلوي جانب فمه بسخرية.

رفع ياستراو كتفَيْه لامبالياً.

"ولكنها دليل حكمة" أضاف، ولكي يعبّر عن استنكاره، رمى بنفسه على الأريكة.

"بوووم" صرخ أولوف الذي جاء متمايلاً وهو يتبع الكبيرَيْن. لم يتنبه إليه أحد، فركض مباشرة إلى أبيه وشدّ سترته، وهو ينظر إليه بعينَي طفل واسعَتَيْن. "صح بووم" انبرى قائلاً بشكل مُفاجِئ.

"صحيح، نعم، بوومم" أجاب ياستراو سارحاً.

"لا، ليس هكذا" اعترض أولوف غاضباً، ودبك بجزمته على الأرض. "لا، بابا" واستدار بسرعة راكضاً إلى المطبخ.

ولكنْ، بعد قليل، عاد ثانية مهرولاً.

"هذا أنتَ، أيّها الرجل الصغير، أنتَ الآخر لم تستطع احتمال مَنْ هم في المطبخ؟" قال ستيفينسن بلطف بصوته الغليظ.

"هو يحكي بصوت عال" قاطع أولوف لاهثاً.

سُمِعَ في الوقت ذاته صوت ساندرز من المطبخ.

"المرأة مستقلّة، بالرغم من كونها متزوّجة ... ليست أداة متعة ... نبيذ ونساء، لوثر، وجهات نظر برجوزاية كبرى".

"صحيح، اللعنة، إنه يحكي بصوت عال" ضحك ستيفينسن.

ولكن أولوف ظلّ مرابطاً عند قَدَم الأريكة بانطباع تيه في عينَيْه. انفرجت شَفَتَاه الرقيقتان، وكأنه يودّ قول شيء. لكنه لم يعرف لمَنْ، لمَنْ، كان تائهاً تماماً.

"من الصعب أن تكون رجلاً صغيراً" قال له ستيفينسن مواسياً، بشخرة ضحك غير واثق من دماثته.

أمّا ياستراو، فقد ابتسم بحزن؛ "هل تريد -الرجل- لتلعب معه؟" سأله وهو يتناول تمثال الرجل المنحوت.

تأمّله أولوف مُندهِشاً. اتّسعت عيناه بلا نهاية، ملأى بالضوء والدهشة لحنّيّة الكبار المفاجِئة.

عادت عينا الصّبيّ من جديد، عينا إنسان بإرادة ورغبة، وهو يقبل راكضاً بيَدَيْن مرفوعَتَيْن.

"ولكنْ، بحذر! كنْ لطيفاً معه".

كما لو توجّب عليه للحظة أن يقدّم تضحية كبيرة لولده، خشي بالفعل على الصنم، لئلا يقع على الأرض، وينكسر، ولكن الصّبيّ بدا تائهاً إلى حدّ كبير.

وتناول أولوف التمثال بكلتا يَدَيْه، وحمله بحذر إلى زاوية.

"الرجل" تمتم مأخوذاً به.

وقف ياستراو متأمّلاً إيّاه. علقت عينا الصغير الزرقاوان المتسائلتان لامعَتَيْن في رأسه. ثمّ قال فجأة، لنفسه؛

"لا أدري، ما إذا كان هذا خطأ، فهو غير مسموح له باللعب به."

"خطأ فادح" ضحك ستيفينسن.

نفض ياستراو رأسه استسلاماً.

وحضرت القهوة، وتمّ بها غسل النقاش في الصالون. علت هالة من اتّقاد يوهانه وساندرز. ساندرز بابتسامة لامعة كصحفي مكرّس كما بدا، ويوهانه بشَعْرها الأهوج، وخدَّيْها المتوهِّجَيْن، شَفَتَيْها المتحرِّكَتَيْن الرطبَتَيْن الوامضَتَيْن. وياستراو تمّ كنسه جانباً، في الخلفية، حيث وجد له أخيراً كرسياً. ولكنه من موقعه كان يمكنه مراقبة التمثال. ذلك كان مبعث راحة له، فقد كان خائفاً جدّاً بخصوصه.

"في الأمر خطأ ما، أليس كذلك أوله؟" ضحكت يوهانه، وأزاحت خصلة شَعْرها الذهبية جانباً من على جبهتها، "أن أحتمل سماع شيء كهذا هنا في بيتي، ولا يتملّكني حتّى الغضب، هههه".

عدّل ساندرز من هيأته بشكل ثوري على الكرسي.

وفجأة زأر ستيفينسن من الأريكة؛

"نعم نعم، تحيا الثورة".

"تعني الدمار" زمجر ساندرز.

"أنا أعني اللعنة الثورة" دمدم ستيفينسن.

"أجل، ولكنْ، ألا تسمع حضرتكَ، سيّد ساندرز، كم يبدو مضحكاً كل ما يدور حول الثورة؟"، قالت يوهانه.

"بلى، بفمه هو" جاءت بحدّة.

"لا بفمكم أيضاً" قاطعتْهُ يوهانه مبتسمة. "ألا يمكنكَ فهم ذلك؟ هنا تمشي الناس كل يوم عبر شارع الفيستربرو وشارع المشي، وتفكّر بأن الثورة يجب أن تقوم في هذه الشوارع".

"أنتِ على حقّ، يوهانه" علّق ياستراو في الخلف.

"أجل، نعرف هذا، لقد حصل في روسيا" زمجر ستيفينسن. "ولكن هذا لا يحصل في الدنمارك الرائعة، ولكنْ قَسَماً سيحصل".

"لا" قاطعه ياستراو، وهزّ رأسه بقنوط. "لا، هذا لا يمكن".

لم يعرف ما إذا كان يريد قول المزيد، ولكنه تابع، بالرغم من ذلك.

"لقد عشتُ ذلك، ورأيتُهُ. ثورة في الدنمارك من المحتّم ستغرق ... بالضحك".

"مهلكَ" قاطعه ساندرز.

"بلى، لقد رأيتُ ذلك. أمر سيِّء، لدرجة لا يستحقّ الحديث عنه. سخيف إلى درجة. أعرف ذلك، لأني كنتُ مساهماً في ذلك تحت لواء الأعلام الحمر ترللا ترللا في تلك الفترة من أيّام مارس (آذار) عندما طرد الملك حكومة الراديكاليّينْ(*)".

جلس قليلاً ينظر أمامه، ولكن الآخرين كانوا جميعاً قد أشاحوا النظر بعيداً عنه، وبلحظة، وجد كل شيء كوميديا. رجل عجوز يتحدّث عن ذكرياته! حتّى إنه نَسَخَ شخصية ستورم بيترسون(**) وواصل: "الخبير المعمّر! نعم نعم! كنتُ في حرب البوير التّوسّعية الثانية! كله هراء".

"أرى أنكَ تودّ قول شيء" عقّب ساندرز.

"أوه، اللعنة، لا أريد الحديث عن شيء. أنا شاركتُ، كما تعلم، بالتّقدّم صوب حلقات الشرطة، وإلى ساحة مبنى البرلمان أماليانبورغ، وهتفت تحيا الجمهورية! أمام القصر. ذلك كله هراء. وكان هناك رجل، تسلّق عمود الكهرباء، ينوي إلقاء خطاب الثورة. "رفاق! صاح، ونسي نفسه في غمرة إعجابه، فصفق بكلتا يَدَيْه، نسي أن يُمسِكَ بالعمود، وبهدوء، انزلق إلى أسفل بغمرة ضحك الثورة."

"آآ، كانت تلك الفترة مُجرّد حِيَل ولَعِب صبياني" أضاف ساندرز. "لهو في الشوارع".

---

*) إشارة إلى أزمة آذار التي حدثت في نهاية آذار 1920 عندما أقال الملك كريستيان العاشر (1947-1870) حكومة الراديكاليّينْ، وحقيقة خلفية الأزمة التي كادت أن تُسمّى ثورة أو انقلاباً هو الخلاف بين الأوساط (البرجوازية) مع الحكومة، بسبب سياستها الاقتصادية بعد الحرب. تظاهر الناس، واشتدّت المعارضة، يقودها الحزب الاشتراكي الديمقراطي (السوشيال ديمكرات) والحركة العمّاليّة، وانتهت الأزمة بالتسوية وإعلان انتخابات جديدة.

**) (Storm Peterson "Storm P" 1882-1949): رسّام للمجلات، شاعر وكاتب وممثّل

رفع ياستراو كتفَيْه.

"ممكن. لقد سمعتُ، بالمناسبة طلقة وحيدة فقط تمّ إطلاقها. ذخيرة فارغة، من قِبَل شرطي، كان قد تحمّس كما يبدو، أنا حضرتُ الاجتماعات الشعبية للمتظاهرين أيضاً في -ساحة الصَّدَفة-، تلك التي كانت أمام مبنى البلدية. ههههه!

كان الأمر مُسلّياً جدّاً. كان هناك رجل سكران قد ألقى خطبة. تأثير صوري! حشود معتمة. ضوء من أقواس المصابيح. بدا المنظر رائعاً جدّاً بالضوء وفعل الظلّ. دراما الثورة! لقد نَسَخَ مِراراً ستورم بيترسون، هاها! رجل سكران، دانتون(*)، ثمل جدّاً، كان يستمتع بشراب التفّاح! وفجأة صرخ من أعماقه؛ يسقط قانون الانتخابات(**). لا للقانون. كان كوبنهاجنياً، ولكن ثلثه من غرب جتلاند(***)، حين صرخ أوشك أن يسقط على وجهه بين أقدام المحتشدين، اضطرّوا أن يمدّدوه على مرتفع هناك، وقد جثا فوقه زوج من الرجال، بينما هم يصرخون؛ تحيا الثورة، مثل ستيفينسن هنا".

ضحك الآخرون، ولكن ياستراو تابع بنغمة مرارته تلك التي كانت تصعد كل لحظة بكوميديا ساخرة.

"بلى، كان برلمان الشارع، صورة الكوبنهاجنيّيْن! وأخيراً رموا السَّكران إلى أسفل، ولكنْ، اللعنة، فالناس لا تريد الإنصات إلا له. غرب جتلاندي الأصل، صاحوا. انهضْ، يا غرب جتلاندي، شاطر، يا إلهي، يا للغباء ذاك! وأذكر أيضاً أني افترقتُ عن صديق في أطراف الفيستربرو، رجل إعلان. كان الوقت متأخّراً، قلنا لبعضنا البعض نعم، لدينا في الغد إضراب عامّ. ونظرنا إلى مصابيح الشوارع. في الغد، ستُطفأ هذه المصابيح كلها. لم يكن هناك شعور مُملّ، ولكنْ، ما الذي حدث بعدها؟ لا شيء! نعم، صحيح، كانت هناك مسيرة يترأسها المجلس البلدي. إلى الملك! مرحباً مرحباً! والمجلات التي هدّدت بالإضراب .... إيه".

"نعم، -داوبلاذيت- يا أستاذ" قاطع ساندرز بكره.

"نعم" أجاب ياستراو بضجر، "في تلك الأيّام، مات الراديكاليون، ومع ذلك، ما زالوا يسألون. بالمناسبة، ما دخلكم أنتُم؟"

---

*) (George-Jacques D. 1759-94). محام فرنسي لعب دوراً في أثناء الثورة الفرنسية

**) إشارة إلى إعداد الحكومة لقانون انتخابات جديد، تعتمد فيه سياسة جديدة، لعَدّ أصوات الناخبين

***) نسبة إلى جزيرة شبه جتلاند (يولاند) التي تقع غرب الدنمارك

نهض من مكانه منفعلاً.

"أنا لا أؤمن بالثورة في هذا البلد" تابع بتوتّر. الدنماركيون لا يصلحون لذلك. أوه، لديّ، والله، رغبة بكتابة كتاب عن الخصال الوطنية الدنماركية، عن السذاجة الخادعة والبراءة الكاذبة وعدم المصداقية الشقراء."

"مهلكَ مهلكَ،" انبرت يوهانه قائلة حتّى ضحك كل من ساندرز وستيفينسن.

"إنه يقصدكِ" علّق ستيفينسن بغزلٍ فظّ، وغمزة بالعينَيْن، بلمعان مدهن متأتٍّ من نيّة غير صادقة. ولكن يوهانه تجاوزتْهُ عن عمد.

"ما هذا الذي تلعب به أولوف؟" قالت يوهانه.

"الرجل" جاءت كلمته من الزاوية.

"تعرف جيِّداً أن ...".

"لقد سمحت له بذلك" قاطعها ياستراو بهدوء.

نظرت يوهانه إليه نظرة جامدة، وهزّت رأسها، وكأنه كان رجلاً أحمقاً.

"كنتُ أظنّ ..." علّقت يوهانه.

"وأنا أيضاً ..." أجاب ياستراو بتهكّم.

علا حينها رنين الهاتف.

توجّه ياستراو نحوه، وتناوله؛ "معك ياستراو! ما الذي تقوله حضرتكَ؟ ولكنْ، بحقّ السماء، كيف لستيفاني أن يعلم بذلك؟ لقد كتبتُهُ البارحة، وأرسلتُهُ فوراً للتنضيد. لا، لا يمكنني ذلك. هو بحاجة إلى تلك الحركة. الحادية؟ هكذا إذنْ؟ هل يقصد المحرّر إيفرسن ذلك؟ صدقاً؟ إذنْ، دع، بحقّ الله إيفرسن يكتبها، رغم أني لا أعرف مقدار ما يفهمه إيفرسن بالأدب. نعم، سآتي حالاً لنتحدّث، نعم نعم، مع السلامة".

صَفَقَ السَّمَّاعة بغضب، وراح يسير جيئة وذهاباً بينما كان الآخرون يتابعونه بنظرهم.

"بحقّ الشيطان، كيف عرف إيفرسن ما كتبتُهُ في مراجعتي لكتاب ستيفاني؟ كتبتُها البارحة في الجريدة، وصعدتُ بها إلى قسم التنضيد. وها هو ستيفاني في مكتب إيفرسن، وقد عمل ضجّة".

"له حاسّة شمّ قوية" ضحك ستيفينسن.

"صحيح، أصلك عظيم" دمدم ياستراو، ولكنه حين نظر باللحظة إلى ستيفينسن، بدا خدّاه شاحبَيْن، وقد تجمّد وجهه. مطّ شَفَتَيْن مهدّدَتَيْن مثل شَفَتَي التمثال المنحوت. ولكن النظرة دارت متشتّتة. هل كان الذي جلس على الأريكة أمامه مجنوناً؟ بَحْلَقَ كل من يوهانه وساندرز به. حينها انتشر صمت مقيت. بحلقات شبحية أكبر وأكبر. ظلّ ياستراو هادئاً في مكانه.

ثمّ تجرّأ بصوت حذر لامُبالٍ قائلاً:

"لعلّه من الأفضل أن أذهب الآن، لأستفهم الوضع. وبإمكانكَ أنتَ أيضاً المجيء معي يا ستيفينسن، لتتسلّم مكافأة القصيدة".

"وماذا عن الشرطة؟" عارضتْهُ يوهانه قائلة.

"آآ، اليوم انتخابات، وأكيد ليس هناك من خطر" قال ساندرز.

"لعلّ من الأفضل أن يذهب كلانا. إمّا أن يفوز الاشتراكيون الديمقراطيون، ونحصل على عفو، أو ربّما أيضاً، وسيكون ذلك من المحزن أن يتمّ القبض علينا قبل الانتخابات. هل لنا أن نُقدّم شكرنا لاستضافتنا، مدام. نتمنّى، وما إلى ذلك، وكل ما يقال".

نهض من مكانه، وانحنى بنبالة.

"آه، لا شيء" اعترضت قائلة، وناولته يدها.

مدّ ستيفينسن يده باللحظة إلى علبة السجائر، وخمط خمسة سجائر.

وغادرا بعدها.

الفصل الخامس

هبّت الريح باردة، وقد رفع ياستراو ياقته إلى أعلى أذنَيْه. تملّكه ذلك القلق والإيقاع في دمه الذي يمدّه به كل من الهواء المسائي والأرصفة العريضة. أحمر صارخ، وأنابيب نيونات بلون أزرق غازي، اشتعلت مثل توقيع، كُتِبَ بِمَدّةٍ واحدة متوهّجة أعلى المبنى -سكالا-. لمعت مصابيح زرق كهربائية مثل قناديل صينية بين الأوراق: حديقة مرمرية. الأسماء بالأصفر. برز شريطُ جريدةٍ ضوئية حذاء السقف بعَتَمَة متّقدة، تزحف بعد كل حرف. ومن الأمام والخلف، صرخت مُكبّرات الصوت التابعة لسنترال الجريدة بنتائج الانتخابات عبر الشوارع، وملأت الفضاء بالأصوات. كان هناك متنافسون غير مَرئيّيْنْ بعلو البيوت، يدورون بين واجهات البيوت، ويصيحون، هكذا بدا الأمر.

وعلى ناصية الشارع، سارت حشود من الناس والسَّيَّارات ما بين الكتل المتزاحمة، تصرّ ناقلاتها الحركية، وتنطلق بدفعات متعاقبة مفاجئة مسرعة من شارع الفيستربروغيذه، وكأنها قد اجتازت مكاناً مُوحِلاً. ألقت المصابيح الأمامية بضوئها على صفحات الشوارع التي لمعت بالبنزين. كان يوماً من أيّام كوبنهاجن الصافية.

مشى ياستراو، بالرغم من ذلك قاطعاً الطريق ما بين الحشود على الرصيف وحجره وبلاطاته. ما حدث في البيت كان مَدعاة حرج. من المؤكّد أنهما قد تخلّصا من الاثنَيْنْ اللَّذَيْن دعيا نفسَيْهما. ولكنهما، هو ويوهانه، جلسا عند الطاولة مساء وحيدَيْن جدّاً.

ندم على المشادّة في الجريدة، بخصوص مراجعته لستيفاني، وما تبعها. كانت يوهانه بعيدة وغريبة. عصبية، الخطوط الأفقية على جبهتها. جبهتها البيضاء. بيضة. قامات أناس مظلمة خطفت عبره. لمع المساء مثل طلاء أسود. رأى جبهتها تضيء في زحمة الناس المحتشدة. بيضة بيضاء. قد رأى فكرته!

ولكن رغبة مُلحّة تملّكتْه وهو على الرصيف في أن يشقّ طريقه.

كان مُكبّر الصوت يصدر فوق رأسه أصواتاً غير واضحة، وأمامه لمعت زاوية المبنى الأحمر لـ -داوبلاذيت- بنوافذها المضاءة كلها.

بإمكانه أن يرى أن هناك الكثير من الناس احتشدوا في الجريدة. لمح ظلالاً غير واضحة عند النوافذ. كانوا ولا شكّ يدعمون مرفقهم على القضبان النحاسية للستائر المخرّمة، ويُبحلقون في حشد الناس في الأسفل. ولكن الغرفة في الزاوية مظلمة، وقد أضاءت الشّبّاك تلك اللوحة الضوئية التي كانت تتبدّل عليها نتائج الانتخابات. في اللحظة هذه، كانت فارغة ورمادية.

سمع فجأة ضحكة عالية، وهي تنطلق جانباً. "بصحّتكم". "نريد بيرة" فنظر ياستراو عالياً إلى النافذة في الزاوية، وحينها رأى ظلّ يد كبيرة مع ظلّ شيء كبير يتحرّكان أعلى يمين اللوحة الضوئية. سَكَنَ الظّلّ للحظة، مضبّب الحوافّ، ولكنْ، لا يمكن أن يخطئ المرء فيه، كان ظلّ زجاجة بيرة. ومضة، ثمّ اختفى. كانت اليد قد أُبعِدَتْ بفظاظة، وعادت اللوحة الضوئية خالية من جديد.

"لا، للأسف" ضحكات.

"إنهم بحاجة لبلع الحزن" تردّد ذلك من خلفه بضحك.

سأل ياستراو رجلاً بالصدفة في اللحظة التي زرع نفسه بينه وبين آخر بصفّه.

"هل موقف الراديكاليّيْن سيِّئ جدّاً؟"

"نعم، إلى حدّ بعيد! الاشتراكيون يفوزون!" وتحرّك باللحظة جانباً. "يبدو من الصعب أن نخترق الطريق هنا".

وأخيراً تمكّن ياستراو من الوصول إلى رصيف -داوبلاذيت- والتّنفّس بحُرّيّة. حينها اندفعت سيّارة أمامه، وتوقّفت عند المدخل. سيِّد طويل أنيق بمعطف فاتح اللون، رُفِعَتْ ياقته إلى الأذنَيْن، بالكاد يرى المرء أعلى تموّجات شَعْره الأبيض، قفز من السَّيَّارة، واختفى عبر الباب الدّوّار. ولكن المرء لا يحتاج إلا إلى لمحة من تلك القامة الحاسرة الرأس، ليعرف مَنْ كان. كان السيد ذا الشباب المستديم هـ. سي. ستيفاني.

أوقف ياستراو خطواته. تلك المراجعة الأدبية. ياه، لما حصل بشأنها من متاعب! حدَثَ ذلك في الظهيرة حين جاء مع ستيفينسن إلى الجريدة. وبّخه سكرتير التحرير! وبّخَ! نعم، وما كان هذا من طبعه. ولكنْ، من أين لستيفان، بحقّ السماء، أن يعلم بما جاء في مراجعته! لم تخرج عن حدود الجريدة، هو كتبها في غرفته، وصعد بها إلى فوق إلى قسم التنضيد.

لديه شكوكه. لم يعتقد بها، بالرغم من ذلك. لا! أمر وضيع! بلا معنى. ثمّ خطا إلى الداخل عبر الباب الدّوّار مستغرقاً بالتفكير.

"غير معقول، أنتَ هنا، يا جاز؟".

نظر ياستراو عالياً، فوجد الصحفي القصير عريض المنكبَيْن إيريكسن منتصف السّلّم يرفرف بمعطفه. كان يُدوِّر بإحدى ذراعَيْه إلى الخلف، ليُدخلها في كُمّ المعطف. "أوف، جنون، أوه"، تنهّد حتّى وصلت أنفاس ثقيلة من نبيذ البورت والبيرة إلى ياستراو، تلاها خفقٌ بذراع المعطف الفارغة. "دعني أمرّ! لا يمكن البقاء هناك في الأعلى، عملتُ فضيحة."

انشدّت ملامح وجهه الأسفع المنهك حتّى تبدّت تجاعيده وجروحه كلها على مرّ شبابه العنيف.

"أهو أنتَ مَنْ كان يحمل بيده زجاجة بيرة؟" سأل ياستراو.

"بلى" وراح يسعل في الوقت الذي هزّ رأسه جزعاً.

"المدينة بأكملها تعرف أنكَ تشرب".

"وثمّ ماذا؟ ضحك الصحفي بعينَيْن دامعَتَيْن وشعيرات دموية متفجّرة جرّاء نوبة السعال. "وأظنّ اللعنة أن الوقت مناسب لإعلان ذلك".

وأخيراً دخلت الذراع في كُمّ المعطف، واستقرّ المعطف تماماً على جسده الذي عدّله، دفع بصدره إلى الأمام، وحرّك يده؛ "ها نحن انتهينا".

"ههههه" وانحنى من الضحك ثانية، ولوّح بيده، كما لو أنه يقوم بتهوية المكان من الفضيحة.

"ولكنْ اسمعْ يا جاز" تابع بنغمة جادّة، "جيّد أني التقيتُكَ، بحثتُ عنكَ طيلة المساء، وما رأيكَ بزجاجة البيرة تلك؟ هل أعجبتْكَ الحركة؟"، وأمسك بيد ياستراو: "لستَ غاضباً مني لأنني حصلتُ على كتاب ستيفاني، أليس كذلك، يا جاز؟".

"كلا كلا" وأغلق ياستراو كلتا عينَيْه وحواسّه جميعها لتلك الأدخنة كلها من نبيذ البورت والبيرة.

"حقا، لستَ حزيناً، أليس كذلك؟" ظلّ إيريكسن يردّد وهو يعصر يده. "لأنكَ تفهم؟ أنتَ تفهم، وحقّ السماء، ولكنكَ لا تعرف ستيفاني؟ رجل رائع! بجوانبه كلها! صيدلاني في أورهوس، بإمكاني أن أُخبركَ الكثير عنه الذي لا تعرفه، وبالرغم من كونه كتَبَ كتاباً بائساً، وماذا في هذا؟ إن كان كذلك، حسناً، ولكنْ، بإمكاني أن أُحدِّثكَ الكثير الكثير عنه".

"هل انتخبتَ؟" سأل ياستراو بسخرية. "رائحتكَ تشي بذلك".

"أهلاً، نعم، انتخبتُ الخمّارة. النادل "سَمَرْ" حصل على علامة صح كبيرة".

"أعتقد أن عليّ أن أتسلّل إلى أعلى الآن".

"إلى أعلى؟" سأل إيريكسن بصوت مبحوح، وهو يشير إلى الطوابق العليا.

"نعم، إلى أعلى إلى قاعة المحاضرات لسماع نتائج الانتخابات. هل ستأتي معي؟"

"ففف!" غصّ بضحكة في يده المجوّفة. "لا، اعفني، فلقد خلقتُ جوّاً انتخابياً ممتازاً. هههه. باستخدام زجاجات البيرة! ما رأيكَ؟ بالمناسبة، الوضع لا يُحتَمَل فوق. لا تتخيّل! عندما ينتخبون المحافظين والاشتراكيّيْن الديمقراطيّيْن، يكون هناك احتفال وهتافات، أمّا إن كان هناك أحد من الراديكاليّيْن، فسيكون مقزّزاً و"اسحقوه" ... "وفجأة أمسك بياستراو من معطفه، جذبه إليه، ونفث بغيمة من نبيذ البورت بوجهه. "وستكون جريدة راديكالية! أوه، ذلك ما يجعلكَ مخموراً، وتعمل فضائح. أشعر بقشعريرة. لأنها اللعنة بالفعل جريدة راديكالية، أليس كذلك يا هذا؟" انفعل أكثر وأكثر وواصل؛ "بلى، سِيَّان عندي. ولكنْ، لا يعجبني الأمر، على الرغم من ذلك. بإمكانكَ الآن أن تصعد بنفسكَ وتسمع. ولكنْ .." قالها وهو يعصر يد ياستراو مجدّداً حتّى طقطقت أصابعه؛ "أنتَ لستَ غاضباً مني يا جاز، أليس كذلك؟".

"لا لا".

"أعلمُ أنه مجالكَ.." ثمّ حَضَنَه. "أنتَ، أيّها الصّبيّ الشقي، أنا أحبّكَ رغم أن لا شيء يُمتِعُ فيكَ، ولكنكَ زجاجة شَفَّافَة. ما قولكَ؟ آآآ، أنتَ زجاجة اليوم، باي باي".

"جيّد جيّد" وأفلَتَ نفسه من قبضته.

أصابت الصحفي إيريكسن نوبة سعال ثانية، وكان ياستراو يسمعها بينما هو يبتعد عنه بحذر، ويرتقي السّلّم.

لم يكن أحد ليتعرّف اليوم على دار -داوبلاذيت-. تنصفق الأبواب في الطوابق، وتُجلجل المصاعد من دون توقّف. كانت أجواء انتخابات قد احتلّت الدار، وقلبتْهُ رأساً على عقب. ازدحمت السلالم بأناس نادراً ما يتواجدون هنا، وعبر النوافذ إلى البهو، حيث وقف البارحة مع آرنه فولدوم ... آرنه فولدوم ... فكّر بمرارة، تعرّف على المشاهير واحداً بعد الآخر. وجهٌ ببشرةٍ سمراء، لممثّل معروف، ولحية بيضاء، تعود لمستكشفي القطب. ناقد فنّيّ بدا وكأنه يصهل.

مظهرٌ وقورٌ لسياسي راديكالي. ممثّلة بابتسامة مادونا الحَيية. كُتُبيٌّ يشبه خبزةً فرنسية. جلسوا على الكراسي هنا وهناك أو اتّكؤوا على الطاولة الكبيرة، حيث مدّ أحد الرّسّامين لفّةً ورقيةً، وبقلمه كان سيشرع برسم نتيجة الانتخابات، التي كان يتأمّلها العديد من المشاهير بابتسامة قلقة.

هل سيجرؤ ويدخل، ليكون بينهم؟ يشعر بنفسه وحيداً عندما يكون للجريدة أحداث كبرى. ولكنه انزلق بالرغم من ذلك فيما بينهم، وانحنى مُحيّياً، لم يجد حقيقة مكانا، وشَعَر بالخلاص حين وقعت عينه على سكرتير التحرير الذي وقف عند باب غرفته، وقد بدا كما لو أنه استقبل ضيوفاً غير متوقّعين. كان لديه وجه محاسب في البنك، ولكن تجاعيده كانت أعمق. عينَيْه ثقيلتان بسبب العمل الليلي. شيءٌ من تعب وقور، وأحد علاماته المُميّزة. تواصَلَ ياستراو معه عن بُعد. كان في ظهيرة اليوم قد تخاصَمَ معه، ولن يهدأ لياستراو بال قبل أن يمسح تلك الخلافات بينهما.

"ها، أوله ياستراو، هل قمتَ بانتخاب المناسب" خرجتْ منه بطيئة ملحّنة.

"لم أنتخب".

"أمركَ عجيب،، أوله ياستراو. أنتَ لا تُساير سياسة الجريدة".

لم يعرف ياستراو السبب في عدم النظر في عينَي سكرتير التحرير يوماً.

"هذا غير مقبول، يا أوله ياستراو" تابع. "وإلا لما كتبتَ تلك المراجعة عن ستيفاني بهذا الشكل".

"إنه يستحقّها" قال ياستراو باقتضاب.

"ولكنه أحد كتّاب المقالة لدينا، وهو بالمناسبة هنا الليلة. وكتابه لم يكن بهذه الدرجة من السوء كما جعلته. فولدوم يقول إن وصوفاته للطبيعة السريانية، لقصّة شجرة التين، وفق رأيه بالإمكان قياسها بما كتبه يوهانس يورجنسن(*)".

"لم أعلم أن فولدوم يقرأ الأدب الدنماركي" عارضه ياستراو بتهكّم.

"دعنا، اسمعْ، هناك شيء آخر تماماً. تعال هنا، للحظة"، وضع سكرتير التحرير يده على كتف ياستراو، وسحبه إلى داخل مكتبه.

---

*) (Johannes Joergensen 1866-1956): كاتب دنماركي معروف. من أهمّ شعراء الرمزية في الأدب الدنماركي. تحوّل إلى الكاثوليكية في العام 1896، ومنذ ذلك التاريخ، أخذ بوصف حياته ويقظته الدّينية، وصدرت في كتاب تحت عنوان "أسطورة حياتي"

"انظر" ثمّ سحب دُرْجاً للمخطوطات والبروفات المطبعية "حسناً، رئيس التحرير إيفرسن طالبَ فجأة بالبروفات كلها التي تعود للصفحة الثقافية، انظرْ هناك قصيدة، قمتَ أنتَ بإرسالها اليوم للنشر، ولقد دفعتَ مكافأة لصاحبها في الحسابات. القصيدة، أُخْبِرُكَ أن المحرّر إيفرسن لا يرى أنها جميلة فقط، بل، ولكنْ قل لي مَنْ هو هذا الـ ستيفان ستيفينسن؟".

سحب قصيدة ستيفينسن من الدُّرْج، وجلس يتأمّلها بحركات رأس صغيرة، وكأنه يقيّم صورة فوتوغرافية.

"هه، إنه، بالمناسبة، ابن ستيفاني" ضحك ياستراو.

أعاد سكرتير التحرير القصيدة مُتفاجِئاً، واستدار بوجهه نحوه.

"ولكنْ، مكتوب ستيفينسن".

"آآ، ذلك لأنه يكره أباه. لذا لا يريد أن يحمل اسمه".

ابتسم سكرتير التحرير.

"ولكنْ، لن يتمكّن قرّاؤنا من رؤية ذلك. بالطبع اسمه ستيفاني، وإلا لما كان من مصلحتنا نشر شِعْره في الجريدة".

"لا أدري إن كان سيجاريكَ في هذا" علّق ياستراو بتردّد.

"نعم، بالطبع. اسعَ أنتَ لذلك، وسننشر القصيدة في أحد الأيّام. بإمكاني نشرها في الجريدة، ولكنْ، عليكَ، بهذه الحال، تدبَّر أمر الاسم، اتّفقنا أوله ياستراو".

وأمسك بالقلم، وجرّ بيد ثابتة خطّاً على الاسم ستيفينسن، وكتب ستيفاني.

"ذلك يثير اهتمام المحرّر إيفرسن بالتأكيد" أضاف، وأحنى رأسه بودّ. "ولكنكَ لستَ على تواصل مع الجريدة، لا، ليس كما يجب، أوله ياستراو، ليس بعد. وكان عليكَ بالطبع أيضاً، أن تُصوِّت اليوم للراديكاليّيْن".

"وهل الجريدة راديكالية؟" سأل ياستراو بهزء.

لم يجبْهُ سكرتير التحرير. راح يُمسِّد عنواناً لمقالٍ كان على الطاولة أمامه وقال يُحدِّث نفسه؛ "ذلك بائس"، ففهم ياستراو أنها كانت إشارة لضرورة مغادرته المكتب.

ولكن المحرّر إيفرسن قد طالب بجميع البروفات المطبعية الخاصّة بصفحته الثقافية للمراجعة. أليست هذه إهانة؟ ألا يظهر هذا عدم ثقة به كمحرّر؟ لن يمضي الكثير قبل أن يهتزّ منصبه كمحرّر ثقافي؟ محض أديب مُدَّعٍ مثل ستيفاني، يهبُّ مسرعاً إلى العجوز في الغرفة في الزاوية حتّى ينهار أساسه.

توقّف حائراً في قاعة البهو بين الكثير من المشاهير الذين كان يصخبون. بدوا بالنسبة إليه وكأنهم يرتدون معاطف كبيرة، وتمنّى في أعماقه ألا يتوجّه أحدهم إليه. إن لم يكن سيصيب أوّلهم، فسينال من صديق الثاني أو يجرح تحيّز الثالث، وهذا ما يودّ توفيره لنفسه ... الإهانة، الإهانة، البروفات المطبعية لأجل المراجعة. كانت هناك صورة فوتوغرافية معلّقة على الجدار لبيورنسن. من المؤكّد أنه لم يكن غير فارق العصر الذي كان السبب في كونه لم يختلف معه.

"كم تبدو حقيقةً مُتعالياً سيِّد ياستراو" سمع الصوت اللحظة ذاتها. كان هذا الموظّف في قسم الاقتصاد والتجارة الأنيق أوتو كرويه الذي وقف أمامه فجأة. كان له مَلمح ما من الهنود الحمر بأنف الصقر ذلك، والشَّفَتَان الطويلتان الرقيقتان. الشَّعْر النِّيليّ وتلك الجبهة الواطئة التي يمكن لها أن تحمل تاجاً من الريش، ولكن جسده كان ضئيلاً.

"لا لا، لستُ كذلك" أجاب ياستراو بامتعاض مثل ولدٍ مُهان.

"لعلّكَ حزين، ليس إلا؟! وفي الحقيقة، لديكَ سبب لذلك، إن كنتَ تقارب وجهة نظر الراديكاليّيْن."

نظر ياستراو بتثاقل في عينَي الرجل الغامقَتَيْن الغامرَتَيْن، ولم تكن لديه رغبة بمبادلة الابتسامة بسخرية، بالرغم من أن ذلك يُصنَّف من ضمن التقاليد المستحسنة في داو بلاذيت.

"أنا لم أقمْ بالتصويت إطلاقاً".

"هكذا، إذنْ، تلك هي وجهة نظركَ. من الضروري أن يتبع المرء ما يؤمن به" أجاب أوتو كرويه. لم يفهم ياستراو سرّ دماثته غير المعهودة. "لقد صوّتُ للمحافظين" أضاف كرويه بصوت خفيض ممازح.

هزّ ياستراو رأسه مع ابتسامة صغيرة بمغزى، قد يشير إلى بعض من اللا أمل.

"أجل، غير معقول، ولكنْ، تعال معي" تابع كرويه. "بودّي أن أتحدّث معكَ. عليّ أوّلاً التّأكّد، إن كانت هناك رسائل لي في مكتبي".

ترك ياستراو لنفسه أن تنسحب معه مُندهِشاً. وقد رأى أيضاً باللحظة حامل شهادة دكتوراه معروفاً وهو يدسّ رأسه الحاسر من الباب، ويخطو إلى البهو. قد كان هناك أيضاً لسعة صغيرة في مراجعة أدبية تخصّه لبضعة أشهر خلت - شظية من خشبة تحت الإظفر، لذا كان من الأفضل له أن يسير مع كرويه بعيداً إلى التحرير، إلى قاعة العمود.

ولكنْ، ما الذي يريده كرويه منه؟ لم يتحادثا معاً إلا نادراً، وقد كانا رسميَّيْن في تعاملهما مع بعض على الدوام.

كانت قاعة العمود مثل القاعات الأخرى للتحرير بلون أصفر، لها اسمها الأتيكي تبعاً لقائم مُربَّع أو عمود في الوسط، حيث بُنيت طاولة ضخمة من حوله، كانت بالعادة تفيض بالصحف الكوبنهاجنية اليومية والجرائد المحلّيّة. على ذلك العمود، كُتِبَتْ كل أسماء الموظّفين الذين عملوا في -داوبلاذيت-. لمُدَّة خمسة وعشرين عاماً.

العمود ربّ التقاليد منتصف اليوم. يتلقّى بين الآونة والأخرى نكتة كأُضحيّة.

"انتظرني هنا لحظة" قال كرويه، واختفى في غرفته.

جلس ياستراو على حافّة خزانة صغيرة، وراح يتفحّص ملحوظات خاصّة على السّبّورة السوداء من خلفه. قلم حبر مُختفٍ. هكذا!. كلمة شكر من موظّف، تمّ الاحتفاء به عن قريب بمناسبة عيد ميلاده الخمسين، آه أصليّ لكَ. ومن ثمّ - هههه - بضع قصاصات من داوبلاذيت بخطوط مثخنة تحت السطور؛ مقال مطلعه أنا - تحتها خطّ أحمر - مزدحم بالأنوات - حمّام دم من العلامات الحُمر؛ ومقطع من مقالة أخرى بعقدة جملة فلسفية، لا يمكن حلّها؛ إعلانان من قِبَل الموظّفين حول أحكام تعسّفية متبادلة، بشأن العقوبات ضدّ أكبر الاعتداءات على صعيد الجريمة: الكتابة بدنماركية تعيسة.

ساد هدوء للحظة، ولكنْ، من فوقه، كان هناك دبك. فوق في قاعة المحاضرات، وصخبٌ خارجها مثل بحر من حشود الناس المتجمّعة. وبين الآونة والأخرى، يمرّ به موظّف خطفاً.

"هل صوَّتَ حضرتكَ للراديكاليّيْنْ" تسلّى ياستراو بالصياح. الجواب كان همهمة لا أهمّيّة لها. لم يكن هناك ما هو مثير في الانتخابات. فقط عندما برز وجه الصحفي المسؤول عن تقرير تغطية الانتخابات في البرلمان، حدَثَ هناك انفجار صامت. "أجل، لمَنْ سأُصوِّت، إن لم يكن لهم" أجاب بنغمة غاضبة.

"ها ها ها" ضحك ياستراو وتابع باللحظة مع كرويه الذي خرج من غرفته؛ "اسمعْ، سيِّد كرويه ،لقد وجدنا أخيراً راديكالياً حقيقياً".

لم يتوقّف الصحفي، ولكنه لم يستطع تجنّب سماع تعليق كرويه الساخر؛ "هو لا تنسَ الشبيبة الراديكالية كلها".

وجلس كرويه إلى جانب ياستراو على الخزانة الواطئة.

"بالمناسبة، قد تصوّرتُ حضرتكَ ساذجاً".

"ولِمَ هذا، يا ترى؟" سأل ياستراو مُتفاجِئاً.

"آآ، لا أدري" أجاب كرويه، وتحرّك براحة معتدلاً في جلسته.

"هل تودّ حضرتكَ بالمناسبة تدخين سيجار؟ تفضّلْ! ولكني أجد أن نقدكَ الأدبي يذهب بهذا الاتّجاه".

حملق بوجهه من الجانب.

"راديكالي؟ لا، هل تعرف حضرتكَ؟ لقد حصلتْ لي مشكلة مع مراجعة كتبتُها. كانت ملحدة كما قيل".

"حسناً، ألا ترى حضرتكَ بنفسكَ بأني كنتُ على حقّ. إنها كما تعلم الراديكالية بمفهومها الجيّد القديم، ضدّ الدِّين، ضدّ القومية، كنتُ أعنيها".

"تلك الراديكالية ماتت" أجاب ياستراو بألم.

ضرب كرويه كتف ياستراو مع ابتسامة.

"إننا متّفقان، إذنْ".

"كلا،" أجاب ياستراو، وحرّك جسده بعيداً قليلاً، مستغرباً ضربة الكتف. أصابه الشّكّ.

صمَتَ كل منهما للحظة بعد تلك التصريحات. قصّ كرويه طرف سيجاره باحتراس، وأشعله بالعناية ذاتها، وأطفأ عود الثقاب بطرف أصبَعَيْه.

"هل تتصوّر، بالمناسبة، أن اسم حضرتكَ سيظهر ذات يوم على العمود ذاك؟" سأل ورفس برشاقة قَدَمه تجاه عمود الأسماء. كانت يرتدي حذاء برّاقاً من الجِلْد اللّمّاع.

"لا، ولا اسمكَ أيضاً. ألم تلحظ؟ بالمناسبة، معظم الأسماء من الطّبّاعين أو الموظّفين المجهولين. هناك قلّة قليلة من الصحفيّينْ - من الناس الذين لديهم رأي" أضاف ياستراو بألم.

"لا يمكن لنا ألا نرى ذلك" أجاب كرويه مبتسماً. "ولكنكَ لا تظنّ أن اسم حضرتكَ إذاً سيكون من بينهم. حسناً، ولا أنا. أنا لن أكون كذلك من ضمن هؤلاء".

"سيكون في ذلك احتقار للجريدة أيضاً." كان على ياستراو أن يزيد من عدائيّته لهذا الرجل الصغير الأنيق الذي تحرّك قريباً منه كثيراً في جلسته.

"ولِمَ هذا؟".

"مقالاتكَ التجارية بالطبع، إنها كما تعلم محافظة، محافظة جدّاً".

"لا أعتقد بالمرّة" أجاب كرويه بسخرية. تقاربت شَفَتَاه، ولمع التّهكّم في أسنانه التي تطالبه أن يعضّ، ولكنه أخفى غرائزه بابتسامة، ثمّ تابع "تلك المقالات لم تُكتَب إلا على أساس الحسّ والإدراك، أليس هو هذا أيضاً ما ترتكز عليه في مقالاتكَ النقدية؟".

"بلى، ولكنْ، بإدراك أكثر حسّيّة من حضرتكَ".

"إذاً، ستنتهي بذلك، يا رجل، على ذلك العمود".

"كلا، إطلاقاً،" أجاب ياستراو باحتقار. ضحك باستهانة عالياً، ولكنه شعر باللحظة أن طاقته انتهت بأكملها.

بينما أمال كرويه برأسه، ونظر إلى فريسته بتودّد.

"أنا لا أفهم حضرتكَ تماماً." شدّ عليه مناكفاً. "لأنكَ لا تكتب حول شيء غير الفنّ، وفي هذا الحقل، فالملعب مفتوح. إنه حقيقةً تناول غير مسؤول من حضرتكَ".

"هكذا؟" أجاب ياستراو، يُحملِق فيه شارد الذهن. هذا الرجل الصغير اللطيف الذي صار لاذعاً، واقتحمه، ما الذي يكمن خلف ذلك يا ترى؟ ولكنْ، أليس له ذلك المَلْمَح المعوج للفم، من مرتدي الأقنعة، كما العديد من أولئك الذين يجلسون في قسم التحرير في الطابق العلوي، الأقنعة التي كان من المرعب أن يفطن المرء إليها؟! فرَكَ ياستراو وجهه براحة يده، ليمسح عنه هذا الانطباع.

بمرور الوقت، أصابه هذا الحسّ بالكاريكاتير بشَلَل. كان يشعر به. وقد رغب في أن يظلّ في هذا الجوّ.

"نعم، أعني .."، كم كان تافهاً ما قاله كرويه. بدت له قاعة العمود مثل ظلّ غير حقيقي ثانية، كما كانت قبلاً. استقرّت عينا كرويه متفحّصة فيه .. الجدران الصفر! لون متهالك! ألم تكن الجدران شَفَّافَةً؟ ألم ترفرف إلى الجانب مثل غلالة خفيفة، لو مرّت دقيقة حسب، دقيقة أخرى؟ أم تُراه قد دخّن الكثير من التبغ؟

اعتقد كرويه أنه قد أُهين.

"حسناً، لا تأخذني على مَحمل الجدّ كثيراً. أعني ما خصّ العامّ، كيف تنظر حضرتكَ إلى المُموّلين الكبار؟ أناس سعداء! بلى، لذا ففعلياً، ستنتهي حضرتكَ على عمود الأسماء".

نظرَ ياستراو تحت إلى صديريه الذي رُشَّ برماد السيجار. آه، ها هو يشعر ثانية باللا ثقة. رماد على الصديري مثل شيخ عجوز.

"ولا تظنّ أنني أحتقر الفنّ. ولكني لم أفهم يوماً علاقته بالجرائد" ظلّ كرويه يردّ بعدائية أكثر وأكثر، هجوماً من جوانب غير متوقّعة. ما الذي يريده؟

"علينا كما تعلم أن نستخدم الوسائط التي لدينا"، عارضه ياستراو، وحملق في فضاء الغرفة.

"نعم نعم، ابقوا هكذا لأجل أن تشبه الجريدة حياة روحية. نعم. ولكنْ، انظر الآن إلى داوبلاذيت هنا. لقد انقلبت من جريدة سياسية، إلى شأن غير سياسي. لا أُعوّل على هذا المساء. لأننا جميعاً رجال سياسة هذا المساء. ولكنْ، عداه، فالأمر لا يعدو سوى تجارة.

"حسناً، ولكنْ، تجارة لها رأي" علّق ياستراو لأجل أن يقول شيئاً. آراء! شيء ما غير محسوس جدّاً، مثل الآراء! ولكنْ، لِمَ صارت الناس ظلالاً أيضاً لما باعت آراءها؟ إننا ظلال، تتعاطى مع ظلال.

"لا " احتجّ الظّلّ كرويه. ألم يشعر إطلاقاً باستحالة تواصله مع ياستراو؟

"لا، تجارة حيث الناس تشتري آراء، لا يعرفون أنهم يملكونها مُسبَّقاً. أليس هذا أكثر دقّة؟".

"آه، سيصيبني الخبل من التفكير بهذا" انبرى ياستراو قائلاً. لم يعد باستطاعته تحمّل المزيد. هل كانت التدفئة المركزية التي خفّفت من دمه، فصار يستشرف الأمور؟ لم يكن يعرف. ولكنه يعرف أنه حين يرى كل شيء في هذا الظّلّ الذي سرعان ما ستذوب ألوانه وأشكاله سيُخيّل إليه أن الرفاق جميعهم في الطابق العلوي، جميعهم يتشابهون بنظراتهم، آ، الصحفيون! الصحفيون! رفاقه الظّلّيّون! لا، مهلكَ، باستثناء الصحفي بروون الذي كان يختال هناك بأصفره، بثيابه الفارقة بتخريماتها، وجزمة الفروسية.

"صوّتَ لِمَنْ يا بروون؟" صاح ياستراو.

"للمستقبل أصدقائي" أجاب بروون بحركة الناجي، ولكن عينَيْه لمعتا بشدّة، وهو يرى "كرويه" باللحظة عينها.

"هل كنتَ من بين السّتّة عشر شيوعياً الذين صوّتوا في ضاحية فانلوسه" علّق "كرويه" بعدائية.

"إنه لخبر مفرح. لم أكن أتوقّعه، يبدو هناك الكثير من العقلانيّيْن في فانلوسه".

ولكن كرويه، ومن دون أن يأبه لجوابه، سدّد سؤالاً آخر.

"لم لا تضعْ نجمتكَ السوفيتية هذا المساء؟ أم أنكَ خبّأتَها داخل معطفكَ؟".

"السماء ليست صافية في الدنمارك ... بعد" أجاب بروون بتعالٍ، ليُخفي انزعاجه، ثمّ استدار، ومضى.

"ولكنْ، سيحدث، صدِّقني!" قالها وهو يسير على مبعدة خطوات. وعندما ابتعد أكثر في البهو، استدار فجأة، وصاح: "وإن كان لديكَ المزيد من الأسئلة، ترغب بتوجيهها لي، يا سيِّد كرويه، فأُفضّل أن ترسلها إليّ في رسالة".

وأخيراً، اختفى ظهره بينما كانوا يتابعونه بنظرهم. كان يميل مع كل خطوة إلى الخلف.

"واهاً، يا للحسرة! هذا ما يسمّونه شغلاً مصفّى" تنهّد كرويه، واتّكأ إلى الجدار. "حتّى هذا الرأي، لدينا منه في مخازننا".

"واضح جدّاً أنكَ موظّف في الاقتصاد والتجارة"، أجابه ياستراو بتهكّم.

ولكن كرويه كان شبه مهتاج. وقد لمعت عيناه السوداوان بشدّة.

"لن تفلت من وضع نظرة اقتصادية على الأشياء سيِّد فنّان." قالها بحدّة. "إمّا أن تكون حضرتكَ أحمر، أو أن تكون حضرتكَ أسود. ليس هناك من ألوان أخرى. عمود الأسماء هناك هو للسخرية، عمود شاهد للألوان المختلطة".

أسداه ياستراو تلك الخدمة في أن يضحك لجوابه. ولكنْ، ماذا عن معركته الداخلية؟

الانتخابات هذا المساء. كانوا يدبكون فوقهم في الطابق العلوي، معرض فرمٍ، وضيوف

الجريدة الراديكالية كانوا يُهلّلون كلّما تمّ انتخاب أحدهم من الاشتراكيّيْن الديمقراطيّيْن. كان ضجيجهم عالياً خارج الغرفة. إنها انتخابات، ضجّت بالفرح، لتَغيّر الأسماء في النافذة عند الزاوية. ولِمَ لا يلهو أحدنا قليلاً بضَمِّ اليَدَيْن معاً، ولفّ الأصابع، لتُلقي ظلاً لصورة حصان، فيل، صقر، رجل أو زجاجة بيرة على لائحة الإعلان الضوئي.

"حضرتكَ تؤمن بالفنّ لأجل الفنّ(*) وحده؟" تابع كرويه، وهزّ ياستراو رأسه موافقاً بـ "نعم" خفيضة. "وذلك أسهل أيضاً لعدم خطورته". ما الذي يريد الوصول إليه؟. "إنه موقف رأسمالي عظيم. بالإمكان كتابة شِعْر متلألئ وروايات خرافية وأدب رحلات وأفلام رومانسية، ذلك كله وفق الموقف إيّاه. لِمَ لا تفعل ذلك إذاً؟ عظيم، موقف مراوغ للتّبنّي."

قلب ياستراو شَفَتَيْه استياء، وهزّ يَدَيْه. "لا تُسِئ فهمي، سيِّد ياستراو، برأيي الفنّ لأجل الفنّ موقف محافظ ممتاز". "محافظ؟" انبرى ياستراو مُتفاجِئاً، وقد صحا للحظة.

هزّ كرويه رأسه مؤكّداً "أجل، وغير خطير" وقد صارت ابتسامته تهجّميّة. "مهلكَ مهلكَ" عارض ياستراو مُنزعِجاً. "وما هي على العموم مواقف حضرتكَ النقدية الأخرى؟".

آه، ألا يمكنه أن يتوقّف. يكره ياستراو أن يُجبر على النقاش. كان بمقدروه ضرب هذا الرجل الصغير الأملس المحافظ الذي استخدم تبريرات شيوعية ضدّه. تابع كرويه: "أرجو ألا تُسِئ فهمي، سيِّد ياستراو".

آه، لا تُسِئ فهمي هنا، ولا تُسِئ فهمي هناك ..

"كفى بربّكَ" قال ياستراو معارضاً.

"النظرة المُجرّدة للفنّ!(**) أليس هو ما يُسمّونه"، حملت ابتسامة كرويه قُوّة أكبر، "ولكن ذلك ليس مبدأ. إنه وسيلة. مثل الفنّ للفنّ، وكناقد في جريدة يتأرجح بين الشأن السياسي والاقتصادي لا بدّ وأن يكون كذلك"، وبصوت حذر، تابع وكأنه، وببطء، يطعن ياستراو بخنجر في الصميم: "حضرتكَ لستَ ساذجاً، بالمناسبة، كما ظننت. إنه مبدأ انتهازي محترم. ولكن المشكلة أنكَ لا تستخدمه بشكل كاف".

(*) L`art pour l`art. مفهموم أو مبدأ جمالي أو ما يُسمّى الحركة البرناسية، ومؤسّسها الشاعر الفرنسي تيوفيل غوتيه الذي قام بصياغة فحوى المذهب في العام 1856 بأن الفنّ يجب يكون وحده كهدف، وألا يتعلّق بهدف سياسي أو اجتماعي أو أخلاقي وغيره.

(**) Disinterestedness إشارة إلى النظرة إلى الفنّ التي أشار إليها الفيلسوف إيمانويل كانت في كتابه "في نقد مَلَكَة الحكم" في العام 1790 بخصوص التّذوّق والمتعة الجمالية، لا ترتبط النظرة بأهداف عملية أو هواجس أخلاقية

قفز ياستراو غاضباً من على الخزانة الواطئة.

"أيّ شيطان أنتَ! ...".

"لا تُسِئ فهمي" قال كرويه بروية، ورفع يده مُهدّئاً."أفكّر بالاحتمالات، لا غير".

"هل تقصد حضرتكَ أني مزيّف".

"أعني أن حضرتكَ برجوزاي(*)، مثلي ومثل غيري من العقلانيّينْ. عدا أنهم لا يعرفون ذلك".

"حضرتكَ مجنون" قالها ياستراو بغضب. "برجوزايّ! أنا؟" لا أريد التّحدّث معكَ. ولكن العمل الفنّيّ يمكن أن يكون فنّاً، أعني، العمل يمكن أن يكون فنّاً، وإن كان عملاً محافظاً أو شيوعياً".

"نعم، من ناحية مهنية، ولكنه ليس مبدأ".

"وما شأني بالمبدأ؟"

قفز كرويه أيضاً من على الخزانة الواطئة.

"لا، هو تماماً ما أقصد، أنتَ لا يمكنكَ أن تتزحزح عن مبدئكَ اللامبدئي. وكأن حضرتكَ تودّ أن تسير بالاتّجاهات كلها مرّة واحدة".

توقّف ياستراو قليلاً، وأغلق عينَيْه. شعر بدوار. ابتسم متعباً.

"حسناً، أعتقد أن عليّ الذهاب الآن. لا أقوى على البقاء أكثر هنا."

"الحديث معكَ كان مُمتِعاً، سيِّد ياستراو".

"أشكركَ، وأُحبّ أن أؤكّد لكَ أن مواهبي محدودة".

"لا لا، أنا لا أراها بهذا الشكل".

وبمصافحة مهذّبة، اختفى كرويه في قسم التلغرام بينما شقّ ياستراو له طريقاً بين ضيوف الجريدة في البهو، المشاهير! هناك واحد فقط مَنْ ناداه، ولكنه لم يتوقّف. خرج إلى السّلّم ناوياً أن يختفي.

"أهلاً، ها أنتَ أخيراً".

---

*) Borgerlig مصطلح دنماركي اختلفت دلالاته على مرّ الزمن، وينطلق من الفكر التقليدي المحافظ للقِيَم التي يكون محورها العائلة والتعليم والضمان الماديّ، ويُطلَق عموماً على الطبقة المرفهة ماديّاً، والتي تعمل على تبنّي ما يحمي مصالحها دون التفكير بمصالح الآخرين. وسياسياً هو التّوجّه اليميني الليبرالي اليوم للأحزاب. والبرجوازية إجمالاً هو الأقرب لوصفها.

اصطدم بستيفينسن الذي وقف عند قاعدة السّلّم واضعاً يَدَيْه في جيبه وقلنسوته أسفل عنقه. كان يشبه عاطلاً عن العمل مؤرجحاً قَدَمَيْه.

"أودّ أن أدعوكَ لشراب. طالما عندي نقود الآن" وضحك.

نظر ياستراو إليه، وشعر فجأة بعدم رغبة بلقائه، كما حدث في المرّة الأولى.

"لا شهية عندي".

"معقول؟".

"لا، أودّ الذهاب إلى البيت".

"لا، مستحيل، لقد بحثتُ عنكَ، صعدتُ إلى فوق في البهو. وأشار برأسه إلى فوق. "آه، اضطررتُ للقاء الأصدقاء القدامى ... ويا لها من نظرة! كان العجوز جالساً يُنصتُ إلى نتائج الانتخابات. أفّ! اللعنة. طويل وجميل، وراح، كما تعلم، يتفحّص أظفاره الوردية، تدري، كان جالساً معه ذو الشَّعْر الأحمر."

"فولدوم".

"نعم، هو بعينه ذو الشَّعْر النحاسي. كم كانا معجَبَيْن بنفسَيْهما، وقد وقفتُ تماماً أمامهما، تدري، كي لا يمكن لوَليّ أمري أن يُخطئ رؤيتي. وهكذا أفسدتُ عليه مساءه".

كيف يتحدّث هكذا عن أبيه؟! لا، هناك لا بدّ من أمرٍ ما آخر. فولدم! ستيفاني! تحدّثا معاً! إذاً كان فولدوم هو الذي وشى به! فكّرَ بذلك. وشاية! ولَكنْ، لماذا؟ لماذا؟ وفولدوم هو بعينه مَنْ كان جالساً معه البارحة مستمتعاً بما كتبه في مراجعته الأدبية لمقال ستيفاني، وبالرغم من ذلك ... ...

"هلا نزلنا، لنحتسي شيئاً؟" قال ستيفينسن.

كان الجوّ أكثر عصفاً بشأن الانتخابات في بار-دس آرتيست- منه في داوبلاذيت. الرؤية عديمة في البار، بسبب كثافة ضباب التبغ الأزرق، طنين الأصوات الذي يتعالى إلى زئير ضحكات، وصوت الثلج الذي ينزل من خلاطات الكوكتيل بلا انقطاع.

"أربع كؤوس من فضلك" "باكاردي!".

"دوبونيه صغير"

"شامبانيا"

والميكروفون يطنّ في الخلف لا يزال، موسيقى كيتار هاواي، سكسافون، زيلوفون، وندب جوق السود، تخدير مستمرّ هادئ، يجعل للكحول والكوكتيل إيقاعاً. حالما يتوقّف الغرامافون ينطلق صوت جديد أبدي عبر المفرّغة، صوت يفرّغ الدماغ. كان البار أشبه برواقٍ احتفالي طويل. راح ياستراو وستيفينسن يحملقان بعدد لاحصر له من الوجوه بالرؤوس الحمر الصلع الملساء، جماجم بعشرين فِرشةٍ بيضاء، مشّطت فَرْق الشَّعْر. شَعْرٌ مسرّح إلى الخلف، وقد تلوّن بوقار بالرمادي حول الآذان. تسريحات ببقع صلع كبيرة أعلى الصدغَيْن. رجال ورجال. ورأس مدوّر وحيد، بشَعْر أشقر، وقصّة شَعْر متساوية الأطراف حتّى يخيّل للمرء أنها كانت قد رُكِّبَتْ على كرة. وقليل من تسريحات الشَعْر باللون الأسود المزرقّ، كانت تتحدّث عبر أنفها. ما عدا ذلك، فلم يكن هناك غير الرجال. أصوات ديكة مبحوحة وحادّة. وفي الخلفية، قرص الساعة الأبيض، ووجه لوندبوم الأحمر المدوّر الرؤوف. القمر والشمس في الجهة ذاتها من السماء.

"آه، كم هو رائع أن تتوقّف عن التفكير!" انبرى ياستراو قائلاً بشعور المتحرّر من كل شيء.

اهتزّ وجه الساقي لوندبوم الرؤوف مُقِرّاً بما قاله. ماذا؟ هل يعرفه من قبل؟

"طاب يومكَ، سيِّد ياستراو! سيِّد محرّر!" هزّ لوندبوم رأسه ثانية. واسمه؟ احتوتْهُ مشاعر دافئة مريحة، مشاعر بيتوتية. وهناك جلس كيير عند الطاولة المدوّرة بعينَيْه النعسانَتَيْن دائماً، وأيضاً -بي- الصغير، يا للسخف! لم يكن هنا سوى مرّة واحدة، ومع ذلك يبدو الجوّ بهيجاً!

وأخيراً عثرا على مكان لهما، وغرقا في الضجيج وسط تلك الكتلة من البشر، كبيرة وناعمة مثل لحاف. مدّد ستيفينسن ساقَيْه، وطلب ويسكي بفظاظة، وسرعان ما وُضِعَ قدحان أمامهما، متلألئان بالفقاعات، بصوت أجراس خافت.

"أوه، أنا غير قادر على التفكير هذا المساء" قال ياستراو، ومسّد بأصابعه شَعْره.

"ولِمَ عليك التفكير؟ المفروض أن نسترخي" قاطعه ستيفينسن بضحكة.

"ومع ذلك، أفكّر".

"وهل تظنّ أني لا أعرف ذلك. إنه الغرامافون بداخلكَ هو الذي يفكّر".

ولم يمرّ الكثير من الوقت قبل أن يعطي ياستراو تحليلاً سياسياً. "سيفوز الاشتراكيون الديموقراطيون كما سترى" ضحك ستيفينسن، وأجاب برتابة الكلمة ذات المقطع الواحد،

والتي لخّصت نظرته إلى القضية، كلمة خشنة، خراء، وضحك مجدّداً. ولكن عينَيْه كان لهما دوماً ذلك اللمعان الزجاجي الحادّ الذي يبعث قشعريرة في جسد ياستراو الذي تابع: "كما ترى، فهذه الانتخابات مضيعة للوقت". مطّ ستيفينسن شَفَتَيْه وقلَبَ وجهَه ليبدو مبتسماً من دون أن تتغيّر نظرة عينَيْه. وياستراو مواصلا: "لا تأثير لها بالمرّة. لأن البرلمان لن يحكم. إنه مُجرّد صمّام أمان إزاء مرض الشعب بالسلطة".

أووو، ووو، جاءت من غناء جوقة السود في الغرامافون. والأفكار ظلّت تتداعى من رأس ياستراو مثل شرائط ورقية طويلة متّصلة. والسود لازالوا يُغنّون أووو. "سنحصل على حكومة جديدة، ولكننا سنحتفظ بمديري الأقسام أعينهم. أووو، ووو، اللعنة، لن تحزر مَنْ سيحكم الدنمارك، ولكنْ، لن يكون البرلمان على أيّة حال".

"لا، والحمد لله" زمجر ستيفينسن الذي جلس وظهره إلى الجدار. بدا متشرّداً فارع الطول.

كان الساقي لوندبوم ينظر إليه بين الحين والحين بازدراء.

لم يطقْ ياستراو البقاء معه. لم يكن فيه ما يريح. لا شيء منسجماً فيه. جبهته عالية، أسنانه صغيرة جدّاً، وكثيرة، وأنفه ذو المسامات كالثقوب، لم يكن كذلك مناسباً لوجهه، تضخّم وكأنه يعود لولد مراهق.

ولكن تلك القصيدة العجيبة التي كُتِبَتْ من قِبَل ولد مُرتبك، تُشعِل النار. كان ينظر إليه على ضوء قصيدته.

"وألا ترى ذلك غريباً؟!" واصل ياستراو. "إن هذا كله الذي أفكّر به، تلك السياسة كلها التي أتخيّلها غير حقيقية، حتّى لعبكم مع الشرطة، أجل، طبعاً من المؤكّد أنكم ستحصلون على عفو، وأنا أظنّ أن الأكثر واقعية مكتوب في تلك القصيدة التي سلّمتني إيّاها، اسمعْ، وذلك، بالمناسبة، حقيقة، أودّ أن أسأل ...".

وهنا توقّف فجأة. شحب وجه ستيفينسن. تتبّع ياستراو نظرته، إلى هناك، عند المدخل حيث دفعت قامة طويلة الستارة الحمراء، وشقّت طريقها في الظهور، فخمةٌ بالمعطف الفاتح اللون والتاج المموّج من الشَّعْر الأبيض، نظرة عائمة غائمة، لون رمادي فاتح، ابتسامة حليقة ناعمة، كان هذا هو هـ.سي. ستيفاني ذا الشباب الدائم، ومن خلفه، فولدوم بوجهه الطباشيري، وقبّة بيتر السوداء على رأسه.

لم يشأ ياستراو أن يروه، فتعمّد إلى إخفاء نفسه. تقرّبا خلالها وتوقّفا عند ظهر ياستراو.

"ما هذا؟ لا مكان خال بالمرّة!" سمع ياستراو ما قاله ستيفاني.

وستيفينسن كان قد جلس ووجهه يقابلهما تماماً. كان لا بدّ من رؤيته من قبلهما، وهو جالس، وقد أمال برأسه إلى الجدار حتّى سرحت (الكاسكيت)، وكشفت عن شَعْره المنكوش. لِمَ أبقى (الكاسكيت) على رأسه في داخل البار؟ كان وجهه المتّكئ إلى الجدار مائلاً، فسقط الضوء مباشرة عليه. برز ذلك الغضب الغامض المرتسم دوماً حول شَفَتَيْه، صار فظّاً، ولمعت العينان الخضراوتان مثل الثلج.

باللحظة ذاتها، كان هناك أصبع قد نقرَ كتف ياستراو، ما جعله ينتفض، ويدير رأسه. كان وجه فولدوم الطباشيري الذي حيّاه.

"مرحباً أوله" وابتسم بأدبٍ قاتل، ثمّ أضاف "نستأذنكَ".

كانت نبرة صوته لطيفة ومُرحِّبة. وألقى من ثمّ نظرة على ستيفينسن، وزمّ شَفَتَيْه.

حيّاه هـ. سي. ستيفاني بسرحان. ولم يكن بوسع ياستراو غير ردّ التَّحيَّة بهزّة من رأسه وابتسامة. هل ابتسم بأدب؟ أم بدا مرتبكاً؟ هل فضحتْهُ ابتسامته؟ نزّ العَرَقُ من جبهته.

وسار السَّيِّدان العاليان بمعطَفَيْهما فاتحَي اللون في طريقهما لمغادرة المكان، ظهران طويلان فاتحان قيّمان. وقد بدا فولدوم مُتعالياً على الملأ وهو يسير.

اختفيا ببطء خلف الستارة الحمراء بحركةٍ مسرحية، أعطى الستارة دورها المَرجوّ.

تنفّس ستيفينسن ملء راحَتَيْه، بشكل ملحوظ، ولكن وجهه كان بشحوب الميّت وجفناه بيضاوَيْن من دون دم.

"يا أنتَ، اثنان ويسكي" أمَرَ بنفسه.

"هل لي بمساعدة السَّيِّد بخَلْع قُبَّعته؟" قال النادل الصغير بوقاحة.

"حسناً" أجاب ستيفينسن الذي تجاهل نبرة النادل، وخلع (الكاسكيت) بلامبالاة "كأسان من الويسكي".

وانحنى فجأة إلى الأمام بجدّيّة، وحملق بياستراو، تمعّن بعينَيْه، ثمّ قال بخشونة: "كفى، لا مزيد من السياسة. أريد الآن أن أستمتع!" ثمّ أكمل ومع حسرة: "اللعنة، أنا محتاج لذلك".

"عن ماذا سنتحدّث؟".

"بإمكانكَ أن تحكي لي قصّة رخيصة. أنا بحاجة لهكذا شيء" ولكن الصوت بدا غير حقيقي، يخفي من ورائه شيئاً.

نفض ياستراو رأسه.

"حسناً، أنا لديّ واحدة، أفضل قصّة في العالم" قال ستيفينسن. كان يريد أن يروي قصّة، والآن. قَلَبَ شَفَتَيْه. هل كان مُتهكِّماً أم مُتعالياً؟ كان من الممكن رؤية ذلك في عينَيْه، قد كان يخفي شيئاً. كان يراقب كل حركة من حركات وجه ياستراو.

"اسمع، كان هناك سيِّد التقى بطبيبه في الشارع. السَّيِّد كان مُتعالياً، يتفحّص أظفاره الوردية. "اسمع" قال للطبيب. "قد مرض ابني. لقد أصابه مرض ...". "آمل ألا يكون شيئاً خطيراً" قال الطبيب.

"لا، لا شيء غير، أنتَ تعرف الشباب، إنهم لا يعملون حساباً لشيء". "لا، يا أيّها العجوز، أنتَ على حقّ، لا تتحسّر على ذلك، ابعثْهُ لي. سنتدبّر الأمر بسهولة".

قصّ ستيفينسن القصّة بهدوء، وكأنها حقيقية. لا بدّ وأنه قد رواها مراراً. قال متابعاً؛ "ولكن هذا السَّيِّد النبيل نظر قليلاً إليه، إلى الطبيب، ثمّ قال؛ "حسناً، إذاً، سأفعل، إنها الخادمة، التي ..."، هاهاها! ضحك الطبيب، إذاً، ارسلْها لي مع الولد. أجل أجل، هؤلاء الشباب، هاهاها، ثمّ هزّ الطبيب رأسه الأشيب، ولكنْ، قال السَّيِّد الراقي وهو ينظر من جديد إلى أظفاره الوردية، الأمر الأسوأ من هذا هو أني ... والخادمة. تعرف من الصعب أن تترك الخِراف تذهب وحدها. فأطلق عندها الطبيب ضحكة مجلجلة، آه، أيّها المعزى العجوز، ومرض الأطفال هذا، آه، وفجأة توقّف السَّيِّد مفكّراً، وسأل الطبيب بقلق، وبشكل ظاهر؛ "وماذا عن زوجتكَ؟ أرجو ألا تكون...؟ هزّ الآخر رأسه علامة الإيجاب، "ما هذا الذي تقولهَ؟ قال الطبيب مرتعباً. "مع السلامة! عليّ الاسراع بالذهاب إلى البيت، فعليّ أيضاً ...".

صدرت ضحكة كبيرة رفاقية من ياستراو. ولكن ستيفينسن تمعّن به بعينَيْن متفحّصَتَيْن جدِّيَّتَيْن. فغَرَ فمه، وكأنه مصاب بجيوب أنفية.

"مضحكة، أليس كذلك؟" قالها تقريباً بغباء.

"بلى، هاهاها" ضحك ياستراو مشجّعاً.

"لا، صدقاً، برأيي أن هذه القصّة كوميدية، حقيقةً كوميدية، أليس كذلك؟".

"بلى بلى، قصّة ممتازة".

"نعم، أليس كذلك؟ أنا أرى ذلك أيضاً، هاهاها" ضحك ستيفينسن من دون نبرة في صوته.

صوّب ياستراو نظرته إليه. كان هناك شيء لم يفهمه. كانت نظرة ستيفينسن بعيدة، الوجه الفاغر الفم اختفى، والشَّفَتَان بدتا فَظَّتَيْن. ولم يكن هناك من شيء يدلّ على أنه هو ذاته قد استمتع بالقصّة. وفجأة سأل أيضاً بارتباك؛ "لا يمكن لأحد أن يُسيء فَهْم هذه القصّة. إنها كوميدية، أليس صحيحاً؟ لا يمكن أن نأخذها بجدّ؟"..

"هل أنتَ هكذا دوماً، دقيق جدّاً عندما تقصّ قصصاً رخيصة؟"، سأله ياستراو بسخرية.

"لا لا، " ابتسم ستيفينسن، "مُجرّد أشياء تخطر بالبال. ولكنْ، لنأخذ كأسَي ويسكي ثانية".

عبّ الشراب بجرعات كبيرة حتّى بدت تفّاحة آدم مع كل جرعة مثل قبضة يد.

ورأى ياستراو، بالمقابل، أن من واجبه كرفيق أن يأتي هو أيضاً بقصّة.

ولكن ستيفينسن ضحك بطريقة غريبة وباردة عندما سمعها.

تصاعد الضجيج من حولهما. صاح أحد الحاضرين. نشَبَ خلاف بين موظّف إعلانات ومحامٍ، واندفع النادل الصغير يدور بين الاثنَيْن بمساعدة عاملٍ آخر، بدا صبياً مثله. النُّدُل جميعهم في بار دس آرتيست بدوا وكأنهم أولاد قد كبروا للتّوّ.

"كأسا ويسكي" زأر ستيفينسن.

"من الأفضل أن نتوقّف" عارضه ياستراو. ولكن ستيفينسن نظر إليه شَزْرا.

"هل أنتَ معي أم لا؟".

شعر ياستراو بالتعب.

"اشربْ، ولا تفسدْ علينا الليلة" قَرْقَرَ ستيفينسن.

"بالفعل، أنتَ على حقّ". كان هناك سيِّد ضخم بوجه أحمر الوجه قد حطّ فجأة بينهما بجسده الهائل.

فَلَتَ قميص المناسبات المخطّط الأبيض من بين الصديري والبنطلون، وكأنه يودّ الخلاص منهما. "علينا ألا نُفسد الوقت، صحيح ما تقوله، هو بعينه. علينا ألا نكون أصلاً" سالت الكلمات

عبر شَفَتَيْه الغليظَتَيْن. "ما رأيكم بمشروب على حسابي، يا شباب؟ لا تكن مملاً، هذا صحيح" وهمّ بأن ينقر صدر ستيفينسن بإصبعه، ولكنه تعثّر اللحظة ذاتها.

"هلا انتبهتَ، أيّها الثور العجوز" صاح ستيفينسن وهو يضحك.

هُرع النادلان إلى السَّيِّد، ولكنه كان قد استعاد توازنه. "اسمي لارسن، ملابس داخلية نسائية" وبأنفاس الخمرة، ابتسم لهما بمكر. "مهنة خطرة، لا تصلح للشباب، لا تصلح لهذا البعبع الصغير" وقد حضن أحد النادلَيْن الصغيرَيْن وهو يطبطب على رأسه. "هيّا، اجلبْ لنا الشراب هنا" قال وكَنَسَ بظهر يده سطح الطاولة، فانقلبت الكؤوس، واندلق الويسكي.

"شراب، أجل، شراب، أيّها البعبع الصغير".

كان أخيراً قد جلس على الكرسي بجثّته الضخمة، وراح يُحلق بياستراو بعينَي سكران.

"أنتَ محصّل ضرائب. يمكنني رؤية ذلك، هه! ولكنكَ تبدو رجلاً طيّباً. أووه، كفاكَ سباحة هنا، أيّها البعبع". كان النادل مُنهمكاً بمَسْح الطاولة، وتجفيف ما سال عليها. "وأنتَ" استدار صوب ستيفينسن "لا أظنّ أنكَ مُحصّل ضرائب بالمرّة، هههه، أنتَ مَنْ ناداني بثور، آه ... ولكنْ، لحظة، أين الشراب؟".

ضحك ستيفينسن عالياً.

"هل تدعونا لسيجار أيضاً، أيّها الجدّ".

"مهلكَ مهلكَ، لا تكنْ طفيلياً، لا، لا، أيّها الشّابّ".

تحرّك ياستراو في مكانه، ثمّ قال؛

"أنا أستأذن، سأعود إلى البيت".

"ما هذا؟" اعترض ستيفينسن.

"صحيح، ما هذا؟" قال لارسن بائع الملابس الداخلية للنساء متفلسفاً، ثمّ همهم؛ "مَنْ قال بيتاً؟ نحن لا نذهب إلى بيوتنا إطلاقاً، إطلاقاً".

والتقطت عينا ياستراو حينها نظرة ستيفينسن العائمة، ولكنْ، الواعية.

"اسمعْ، مفتاحي مع بيرنهارد. هل يمكنني النوم على الأريكة عندكَ الليلة أيضاً".

هزّ ياستراو رأسه موافقاً.

الفصل السادس

دخلت يوهانه في اليوم التالي غاضبة إلى غرفة النوم.

"لا يمكن أن نُبقيه هنا أكثر. وقد فاز الاشتراكيون الديموقراطيون أيضاً. بهذا لا سبب لديه للخوف من شيء والبقاء هنا".

نظر ياستراو في المرآة بينما كان يحلق. كان وجهه متورّماً، وعيناه حمراوَيْن تحت جفنَيْه الثقيلَيْن.

"لا" تمتم ياستراو.

"ولكنْ، لا يمكنه ..." اعترضت يوهانه، وكادت أن تنفجر من الغضب.

"سيأتي أدولف لتناوُل الغداء معنا، ما الذي سيقوله؟".

"صحيح، اللعنة، تذكّرتُ. ولن يبارحنا طيلة بعد الظهر".

"أوف، هذا هو أنتَ. هكذا أنتَ دوماً. إنها عائلتي التي ستزورنا" قاطعتْهُ يوهانه. "لا يمكنني احتمال هذا أكثر من ذلك" واستدارت فجأة، وصفقت الباب خلفها.

شطف ياستراو وجهه ليزيل صابون الحلاقة، وجفّفه، ونظر مجدّداً في المرآة، ونفض رأسه. قد أسرفا بالشرب ليلة البارحة. الانتخابات. اشتريا الجريدة بطريقهما إلى البيت، وعَلِما بفوز الاشتراكيّيْن الديمقراطيّيْن! هللوا!. "أنتَ الآن حُرّ، يا ستيفينسن" ترنّم ياستراو.

عليه الآن أن يستكشف أمره.

"بابا، الرجل يشخر" صاح أولوف بعينَيْن متّسعَتَيْن، وركض نحوه حال دخوله غرفة الطعام. "يقول خووووو".

نحّى ياستراو الصّبيّ بلطف، ودخل الصالون.

كان ستيفينسن مستلقياً على الأريكة بملابسه كاملةً. وبوضع قبيح ملتوٍ حتّى يظنّ مَنْ يراه أن ساقَيْه وبطنه قد التحمَوا بشكل مشوّه بباقي جسده.

"هيّا، عليكَ النهوض" زأر ياستراو وهو يهزّه. ندّ صوت قرقرة شرّيرة منه، وانفتحت العينان ببطء. كانتا بلمعان صقيل خبيث.

"اسمعْ، حاول أن تبدو إنساناً، أنا بانتظار قدوم صهري."

أغلق ستيفينسن عينَيْه، وفتحهما، ونظر إليه.

"هل سيأتي صهركَ؟" قال بفم معوج.

"أجل".

"ما نوعه؟".

"سمسار في البورصة".

"هل يشرب؟".

ضحك ياستراو؛ نعم، لا مشكلة في ذلك عندما يكون مع الجمع المناسب".

"شكراً، يكفيني هذا".

"اسمعْ، عليكَ أن تحلق ذقنكَ، وتأخذ حمّاماً قبل مجيئه"، قال ياستراو بعجلة وعصبية، فبدا ما قاله أمراً.

"مهلاً مهلاً" نَعَر ستيفينسن، ومدّد ساقَيْه، من ثمّ، وتثاءب. "كم كانت ليلة البارحة ممتعة، ولكني لم أسكر كفاية" ورافقت كلماته تنهيدة من القلب. وقليلا قليلاً، أفلح ياستراو بإقناعه. كان عليه أن ينصب شباكاً له، أن يخدعه تقريباً، ليُدخله غرفة النوم. وكان عليه أن يضع الماء على النار بنفسه في المطبخ، لأن يوهانه كانت مشغولة بإعداد الغداء، والشيء الوحيد الذي سألت عنه كان "ألن يغادر؟" "لا، سيبقى ويتناول الغداء"، وكان على ياستراو أن يضع ماكنة الحلاقة ومعجون الأسنان في راحة يد ستيفينسن الضاحك.

"حلاقة إجبارية" ضحك ستيفينسن.

ولكن ياستراو ظلّ يُلحّ عليه، "هيّا، هاك الماء الحارّ، ضع الصابون على وجهكَ".

خلالها كانت تلك الخباثة اللامعة والمراوغة في نظرة ستيفينسن تُجبر ياسترِاو على التّوقّف. ومع ذلك، كان لديه شعور بضعف شخصية ستيفينسن العنيفة. "هاك ربطة العنق، ستيفان".

وهكذا انتهى الأمر بجلوس ستيفينسن على الأريكة حليق الذقن نظيفاً، ولكنْ، بوجهٍ ذابل ذاوٍ حين دخل الصهر أدولف سميث يورغينسن. سيِّد أنيق، بشَعْر ذهبي مبيّض مسرّح، وخَدَّيْن حمراوَيْن، من دون حواجب. قليلاً من الأبيض والأحمر مثل خنزيز صغير.

"مرحباً، أختي العزيزة"، وحضن يوهانه بقُوّة حتّى صلصلت سلسلتها الذهبية باصطدامها بسوار ساعته اليدوية، ثمّ طبع قبلة على خدّها. "ومرحباً، أيّها الولد، هلا سلّمتَ على خالكَ أدولف؟" تابع بينما كان يرفع أولوف عالياً. "وصِهري! مرحباً مرحباً، كيف تسير الأحوال؟ كما هي، أليس كذلك؟ أتصوّر ذلك. لا داع للشكوى".

قدّم ياستراو ستيفينسن لصهره. "يسعدني التّعرّف إليكَ، أعتقد أني سمعتُ اسم حضرتكَ من قبل. حضرتكَ شاعر، أليس كذلك؟".

"لاااا" دمدم ستيفينسن.

"لستَ كذلك؟ " سأل الصهر، وجلس، وفرك يَدَيْه الكبيرتَيْن الناعمَتَيْن، "هذا أفضل، لأني في الحقيقة ... سأقول لحضرتكَ، أنا لا أطيق هؤلاء الشعراء والمشاهير الذين ألتقيهم هنا في بيت أختي".

وقفت يوهانه في الخلف باهتة مهدّدة. والصهر حوّل الحديث بالحال.

"ولكنْ، أيّها الولد" استدار صوب أولوف الذي ركض مباشرة إلى ركبَتَيْه. "هل تعرف ماذا جلب لكَ خالو معه ؟ هل تحزر؟".

"إيييي" صاح أولوف، ووقف على أطراف أصابعه. "شيكوياته".

"شاطر، يا ابني، عندكَ أنف حسّاس، وليلعني الشيطان إن لم تكن قد ورثتَهُ عن خالكَ. ولكنْ، هناك أنواع عديدة من الشيكوياته. ما نوعها؟.

رفع العلبة عالياً، وكأنه يريد لأولوف أن يقفز، ليأخذها.

"سيجار".

"صحيح، يا ابني".

وناوله سيجارة الشوكولاته بهيبة.

وبدأ الغداء. أخذ الصهر سميث يورغنسن مكانه على الطاولة، وهيمن في جلسته. بدا بهيأته مبهرجاً، وهو يحمل بيده دورق الشراب الأخضر. كان يُوزّع الودّ لمَنْ حوله، مدهوناً بطبقة سميكة لامعة من الإعجاب بنفسه. جلست أخته في الجهة المقابلة من الطاولة منتصبة الظهر هي الأخرى. حضور الأخ قد أمدّها بالحماوة. كانت سيِّدة البيت. ولا بدّ ولو لمرّة أن تكون سعيدة. أمّا ياستراو بوجهه المرهق المُتهتّك، فقد تقوقع في كرسيه، سارحاً بين تعليق وتعليق، ينثال لطفه بدفعات صغيرة مثل بخار من أنبوب.

وكان ستيفينسن أخرساً غير مبالٍ، جالساً وحده على الأريكة عند طاولة القهوة. لم ينقصه غير جريدة، ليقرأها بينما كان يتناول طعامه، بقليل من الانتباه للآخرين.

"أنا لا يمكنني فهمكَ، يا صهري؟" شرع سميث يورغنسن بالقول.

"ما الذي لا تفهمه؟" سأل ياستراو. بخار غيمة من الودّ. اختفى بلحظة. وذاب هو! اختفى.

"حسناً كما ترى"، مدّ الصهر ذراعَيْه بحركة أنيقة، لكي تصعد حافّة الأكمام لأعلى. "لقد استجمعتُ قواي قبل فترة، لأقرأ أعمال صهري، أتدري؟ كانت أعمالاً شيّقة، ولكنْ، ما الجدوى منها؟ قل لي".

"ماذا تعني بـ ما الجدوى؟".

"هيّا، أنتَ تعرف جيِّداً، كما أنا أعرف، لن تحصل على مكانة بسببهم، مثلاً مثل غوته. ههههه، ممتع جدّاً أن يقرأ لكَ ممّنْ يعرفكَ؛ ولكنْ، الله يحفظكَ، ألستُ على حقّ، سيِّد ستيفينسن؟".

"بلى" هزّ رأسه موافقاً، وهو يمضغ لامبالياً قطعة من سمك الرنجة المخلّلة.

"ولو كنتَ تكسب مالاً جرّاء كتابتها، لكان الأمر مختلفاً" رفع الصهر صوته، "ولكنكَ لا تحصل على ذلك. كما ترى، فأنا لم أدرس وأقرأ بمقدار ما فعلتَ أنتَ. ليس عندي غير مصباحي هذا هنا" وضرب بإصبعه على جبهته. "وهو يُخبرني بأنكَ تتعامل مع الموضوع بالشكل الخاطئ. أنتَ لستَ رجل أعمال، ومن دون ذلك، لا فائدة. لن تحصل على شيء في حياتكَ، إن لم تكن كذلك".

ذاب ياستراو. اختفى.

"أعرف، ها أنتَ تبتسم، عزيزي أوله" قال الصهر، ووضع يده على كتف ياستراو، ثمّ نظر عميقاً في عينَيْه. "ولكن المال مهمّ، صح أم لا، أيّها العجوز؟".

هزّت يوهانه رأسها متفهّمة. وفجأة تحرّك ستيفينسن في مكانه. لقد زرع كوعَيْه بالطاولة، ودعم حنكه بيَدَيْه، وراح يُحلِقُ في سميث يورغنسن وكأنه ظاهرة.

شعر سميث يورغنسن بشيء من الخجل. برزت تجعيدة أفقية غائرة على جبهته مثل خدش أظفر بين الحاجبَيْن.

"أنا بنفسي قد فكّرتُ مراراً بأن أكتب" بدأ بالحديث ثانية، بنعومة. كانت عيناه مياهاً ضحلة لامعة. "لا شيء غير أن يكون لديكَ وقت لذلك". قالها بحسرة. "لأني أعرف ما يريده الناس. يريدون معرفة شيء عنكَ. يريدون معرفة شيء عن هذا الزمن العظيم الذي نعيش فيه، لأنه بالفعل عظيم". كان الصوت ينبعث بنغمة تصاعدية. "لم يكن الزمن عظيماً، كما هو الآن. لا عليكَ إلا أن تفكّر فقط بالاكتشافات. خذْ على سبيل المثال رجال الأعمال الكبار. أيّة عقول! أيّة إمكانيات! أيّة مخيّلة يملك هؤلاء الناس؟ فكّرْ مثلاً بـ "فورد" هو أيضاً فيلسوف، تفوُّق هؤلاء يحوّط كل شيء. لمعت عيناه "وما الذي تتصوّره يهمّ هؤلاء الناس: الشِّعْر، وحتّى الرواية؟! ما هو أكثر متعةً وتشويقاً هو ما يخلقونه بأنفسهم من هذا المصباح" وفعَلَ وكأنه يفكّر بفكرةٍ ما في رأسه ويسحبها منه. "ولكنهم العباقرة ذاتهم ما نريد أن نقرأ عنه" وكوّر يده إلى قبضة، سدّدها في الهواء تأكيداً لقوله، "نريد كتاباً عن هذا الكفاح الذي مرّوا به، الكفاح الذي يعيش عليه آلاف من البشر. اكتبْهُ، وسينهمر المال عليكَ".

كانت يوهانه جالسة تمُعن النظر بأخيها. كانت تتابع انتقالات حديثه مرّة بعينَيْن نقديَّتَيْن ضيقَتَيْن، ومرّة أخرى بنظرة واسعة، وكأنها كانت تخشى عليه أن يتعثّر في كلامه. حين نطق بأناقة وهيبة، وبحركة يَدَيْن مؤثّرة "وسينهمر المال عليكَ" نظرت سريعاً إلى الاثنَيْن الآخرَيْن. كان ستيفينسن جالساً لا يزال، وكوعَيْه على الطاولة بينما ارتسمت ابتسامة فاترة على وجه ياستراو، نصفها عدم ثقة، ونصفها الآخر هزء. بدا وجه كل منهما كدراً خلاف وجه أولوف المتورّد.

"صحيح، من الممكن أن تكون مُحقّاً بقولكَ" أجاب ياستراو بفتور. "ولكنْ، فكّرْ بكل ما يجب على الشاعر أن يكون عليه" كانت كلمات عشوائية.

"صحيح، طبيعي أن يكون الشاعر هذا كله" قاطعه سميث يورغنسن منتصراً. "ولكنكَ تخشى العمل. شأنكَ شأن الشعراء التنابلة كلهم. هنا مَكمن الخَلَل. اللعنة، أنتُم لا تعرفون ما يجري من

حولكم، أنتُم تستحقون، والله، هذا الفقر الذي تعيشون فيه. وما الذي تفيدكم به موهبتُكم؟! على الموهبة أن تخضع للإدارة. امنحني بعض الوقت لذلك، وسأقول لكَ ما يجب أن تكتب عنه. سأعطيكَ تعليماتي. وبذلك ستتمكّن بموهبتكَ من الجلوس على مؤخّرتكَ، والكتابة على الورق، وسأُراجعها بدوري، وأُصحّح الأشياء الخطأ كلها. نعم، لطالما فكّرتُ بجدّيّة بذلك".

نهض ستيفينسن باللحظة، من دون قول كلمة، وترك الصالة متوجّهاً إلى التواليت، عارفاً خريطة البيت.

تحوّلت ابتسامة الصهر إلى سخرية كوميدية، فقال فجأة:

"بربيّ، إنه لتصرُّف غير لائق. هكذا بينما نحن مجتمعون لتناول القهوة".

نفضت يوهانه رأسها اعتراضاً.

"قل لي ما خطبه حقيقة؟".

"سؤالكَ في محلّه" علّقت يوهانه بشيء من المرارة قبل أن يتمكّن ياستراو من الرّدّ: "كما ترى، فهو يقيم هنا".

"يا له من متسوّل!".

"إنه أحد أصدقائي" أجاب ياستراو ببطء، وكأنه كان متربّصاً.

"كلا، هو بلشفي، لا غير" قالت يوهانه بصوت عالٍ. "وبما إن الاشتراكيّيْن الديمقراطيّيْن قد فازوا، فلا داع لبقائه هنا أكثر من ذلك، قد أظهر لنا السَّيِّد ساندرز لطفه بمغادرته، أما هذا، فقد ظلّ مستلقياً على الأريكة صباح مساء، لا يمكن قلعه. لا يمكنني حتّى ترتيب أو فعل شيء هنا قبل استيقاظه".

"اشش اشش يوهانه، يمكنه سماعكِ".

"لا يهمّني".

"يهمّني أنا".

"اسمعا جيِّداً، اسمعا أختي العزيزة وصهري"، تدخّل الأخ أدولف هازّاً رأسه تأسُّفاً "بلا استياء الآن رجاء" وتابع بنبرة صوت بأقصى اللطف والتسوية: "هلا تناولنا القليل من شراب "بينيديكتينه"، لغسل القهوة به، القليل جدّاً منه."

ورسم بأصابعه حجم قدح صغير للشراب.

"لا، في الواقع، فقد قضوا عليه" قالت يوهانه قبل أن يقول ياستراو شيئاً.

وهنا دخل ستيفينسن سائراً ببطرٍ، ليجلس في مكانه.

"مع الأسف، الأسف الشديد" تحسّر الصهر، ورفع كتفَيْه قليلاً. "لا قبو لديكما للنبيذ! عليكَ أن تعالج ذلك بجدّيّةٍ يا صهري، تعال، إذاً، إلى بيتي. فهناك الكحول، البيت مملوء به، بالرغم من أني أقمتُ حفلاً قبل أيّام، حفلاً صغيراً للسادة الرجال. بالمناسبة، فقد بعث يواكيم تحيّة إليكِ، حبيبكِ القديم أيّام الشباب، أختي، عزيزتي".

اعتدلتْ يوهانه بجلستها، وجمّدتْ نظرتها للحظة.

قالت "شكراً".

"كان حاضراً. ويا إلهي، كم كانوا ثملين، جميعاً، ثمالة حتّى الموت، ومن بعدها، توجّهْنا إلى النادي الليلي، العصر الذهبي. هه هه، الله أعلم أين انتهى بهم المطاف. لم أرهم لاحقاً. استقللنا عند الصباح سيّارة، أنا ويواكيم إلى ألسينور. صباحُ أحد جميل. كان بارداً قليلاً في الحقيقة، والشكر لمعطفي الفرو، تناولنا غداء في فندق المحطّة، وعدنا ثانية، ومن ثمّ أخذتُ دوشاً، دوشاً بارداً. كان يجب أن تكون معنا، يا صهري. لقد فكّرتُ بذلك في الحقيقة. ولكنْ، أنت ويواكيم، آه، هه هه. وعلى أيّة حال، العرض قائم."

"يا لكَ من وحش محظوظ!" داعبه ياستراو بودّيّة. "لطالما حسدتُكَ على قبوكَ هذا".

"اجمع المال يا صهري. عجزتُ عن قول هذا لكَ. لديكَ الكثير من الفرص" ومدّ يده خلالها صوب جريدة -داوبلاذيت-. "بربيّ، لديكَ فرص، أنتَ موظّف بتعيين ثابت في مؤسّسة كبيرة مثل هذه" وضربَ براحة يده على الجريدة "ولكنْ، ما هذا الذي تكتبه؟ مراجعات! حسناً، ولكنْ، كيف! دعني أرَ".

فتح الجريدة. وما إن سمعه ستيفينسن وهو يتابع بنبرة تعليمية حتّى أبعد الكرسي عن الطاولة بدفعة لاإرادية، ونهض وسار متوجّهاً إلى النافذة، وقد قَلَبَ شَفَتَيْه تماماً.

"خذْ مثلاً هذه المراجعة لكتاب ستيفاني".

"هذه لم أكتبها أنا، آه، ولكنْ، دعني أرَ" انبرى ياستراو قائلاً.

اضطرّ الصهر لمناولته الجريدة. بدت معاني وجهه كَمَنْ أحسَّ بالمهانة، وهو يرفع حزام بنطلونه إلى أعلى. شعر أن سلسلة أفكاره قد انقطعت، وهذا ما جَرَحَه.

كان ستيفينسن قد تجمّد في مكانه بهيئة المُنصِت عند النافذة. وبميكانيكية تامّة، راح يدوّر غليونه بيَدَيْه.

"إنه لأمر عجيب، اللعنة" تمتم ياستراو عندما فتح الجريدة. أدار ستيفينسن رأسه.

"ما العجيب؟" سألت يوهانه.

"إنها حقّاً ليست مجاملة، كما توقّعت، إيريكسن، هو الذي كتب المراجعة، يقول عن ستيفاني "الفاتن المدلّل" تلك حقّاً سخرية".

شهق ستيفينسن بضحكة عند النافذة.

ولكن ياستراو أطرق ينظر أمامه، فاستغلّ الصهر سرحانه بخطف الجريدة ثانية. وشرع بالحال؛"ما كنتُ أودّ قوله، ما الذي يهمّنا في هذه الأمور كلها التي لا معنى لها، سواء كان فاتناً مدللاً أم لا؟".

"لا، لن تفرق. كل شيء لن يفرق. ربّما لو قال المبلّل كان ذلك أفضل" ضحك ستيفينسن عالياً، وضحك الآخرون. ضجّ أولوف، وركَلَ بجزمته قوائم الكرسي.

"ما أعنيه بالطبع بغير مهمّ هو يمكن أن يكون ..." كان الصهر مُنزعِجاً. "أعني أن هذا لا يهمّ الناس. المراجعات الأدبية بحدّ ذاتها جيِّدة برأيي، عندما تذكر فحوى الكتاب، وفيما لو كان جيِّداً أو سيِّئاً. ولكنكم تكتبون بشكل عميق ونخبوي لا رغبة حتّى لِقطّة في أن تقرأه. لو كانت هناك أفكار ما يمكن لنا أن نستفيد منها، لكنْ، حتّى هذه غير موجودة. لا أدري ما هي." قال بامتعاض.

ضحك كل من ياستراو وستيفينسن، ولكن يوهانه التي كانت تتمتّع بِأُذن حسّاسة، بدت قلقة بشأن أخيها. أنزلت أولوف من على كرسيه، وشرعت برفع المائدة. راحت تتعمّد إحداث ضجّة كبيرة بالأكواب.

"نعم، صحيح" قال الصهر الذي احمرّ وجهه انفعالاً. "نبض الزمن أعني، هذا الزمن المضطرب، لا وقت لنا جميعاً، نعم، مشغولون، والزمن مطارد إلى حدّ بعيد برأيي، أفكّر أن لا وقت لنا للتفكير، هذا هو ما أعنيه، والكثيرون يشاركونني بذلك".

نظر ستيفينسن إليه بضحكة مباشرة وقحة.

"... أجل، الكثيرون يتّفقون معي في أنها الجرائد التي من واجبها أن تفكّر".

"الجرائد تفكّر، هههه، عشنا وسمعنا" ضحك ستيفينسن.

"هل تسمح؟" قال الصهر غاضباً. بدا وكأنه سينفجر. "لدينا صحفيون مفكّرون حقّاً، فلاسفة صغار يأتون.." وهدأ، وصار ناعماً من جديد، بصوت ليّن تقريباً "يأتون بأفكار معقولة يومياً، كل يوم، وهم مَنْ نحتاج إليهم، يا أوله، وهذا ما قصدتُ أنكَ تصلح له، شيء مفيد، مفيد لنا نحن الذين لا وقت لدينا للتفكير، ومفيد لكَ. ستدفع لكَ مبالغ محترمة جدّاً، ثِقْ بذلك".

وبعد هذا التنفيس، عاد له هدوءه من جديد مبتسماً بتعالٍ.

"النقود رغم كل شيء حلوة، أيّها العجوز" أنهى كلامه، وهزّ رأسه مخاطباً ياستراو.

"لحظة أدولف، ألا عليكَ أن تنتبه للوقت" قالت يوهانه. "قلتَ شيئاً حول ضرورة مغادرتكَ في الساعة ما بين الواحدة والنصف أو الثانية".

"عليّ اللعنة، ذلك صحيح" صاح الصهر قائلاً، وقد سحب من جيبه ساعة مسطّحة ذهبية كبيرة، بغطاء لامع. لمعتْ مثل شمس. "جيّد أنكِ تنبّهتِ لذلك".

"ولكنْ، انتظر قليلاً" أضافت يوهانه، وهي تراه ينهض. "أنا وأولوف نودّ على أيّة حال الذهاب للتّنزّه قليلاً، بإمكاننا مرافقتكَ".

عَقَدَ الصهرُ حاجبَيْه وهَمْهَمَ: "ولكنْ، تَعَجَّلا".

وأخيراً، جهّزت يوهانه. تدلّت حقيبتها الجِلْدية بشراريبها الكاوبوي حتّى وركها. كانت عيناها لامعتَيْن بجسارة، وكأنها كانت تخطّط لهجوم. وقف أولوف إلى جانبها مرتدياً معطفاً سميكاً بُنّيّ اللون، وقد دفع بطنه إلى الأمام مثل تاجر خيول صغير. كان يرتدي قلنسوة بشكل الطربوش بُنّيَّة اللون قد غطّت أذنَيْه.

وجاء وقت المغادرة. ابتسم ياستراو بارتباك. لم يكن واثقاً من نفسه. وقبل أن يُغلق الباب، قالت يوهانه.

"ووداعاً سيِّد ستيفينسن" بصوت مؤدّب وحادّ. "من الأفضل، بالتأكيد، أن أُسلّم على حضرتكَ الآن، فمن غير الأكيد أنكَ ستكون هنا عندما أعود".

شابَ خَدَّي ستيفينسن القليل من الحمرة، وقد صفق قَدَمَيْه معاً، وانحنى لها مثل تلميذ صغير مؤدّب، ولكنه لم يأتِ بغير قول صدئ "وداعاً، سيِّدتي".

واختفوا خلف الباب.

عمّ الصمت لقليلٍ من الوقت. راح كل من ياستراو ستيفينسن يدخّنان غليونَيْهما.

أخيراً دمدم ستيفينسن: "لا يمكن إساءة فَهْمِ ما قيل".

عضّ ياستراو طرف غليونه، ولم يجب.

وبعد تنفّس عميق، قال ستيفينسن:

"وهذا الحصان المفكّر، فيلسوف بحقّ، يا إلهي".

"نعم، ما قاله لازال يدور برأسي،" قال ياستراو "ولكنْ، عليّ أن أستجمع قواي الآن، لأعمل قليلاً. مازلتُ مُجهَداً إثر البارحة".

ضحك ستيفينسن:: وأظنّ عليّ أن أختفي الآن".

"أوه، بإمكانكَ البقاء قليلاً. لن تعود يوهانه باللحظة".

وانتقلا إلى الصالون. تناول ياستراو كتاباً من ضبّة الكُتُب المخصّصة للمراجعة، وشرع يتصفّحه، بينما جلس ستيفينسن على الأريكة، وقد تناول ضبّة من أوراق الكتابة لياستراو، وما هي إلا لحظات حتّى شرع بالرسم والكتابة.

كان ياستراو موزّعاً. أفكاره متفرّقة مثل غيمة غبار. لا يمكن فَهْم هذا الهدوء الذي كان يرافق ستيفينسن في عمله. ألم يكن يعاني من خمار؟

كان يرسم ويرسم ويرسم بنشوة، وبنفضة واحدة، كتبَ، من ثمّ، سطراً، وربّما بيتاً كاملاً من الشّعْر. بينما كان على ياستراو أن يجتهد ليُنتج شيئاً. أن يُركّز على الكتاب الذي يتوجّب عليه مراجعته. آه، أن يتمكّن من إنتاج شيء ثانية! اهتمامه يتبدّد. مرَّ زمنٌ طويل مذ كَتَبَ هو نفسه كتاباً! الآن آن له أن يقرأ كُتُب الآخرين، ويكتب عنها. اليوم هناك دوماً فواتير في الطريق! فواتيرا! وحده ذلك الشعور بأن فاتورة ستدسّ عبر شقّ الرسائل بالباب، باللحظة الثانية. ألا تقصم هذه الظهر؟ وعلينا تسديدها! كي تكون مواطناً، عليكَ أن تُعاقَبَ!

ولكن ستيفينسن جلس هناك على الأريكة بقامته الهزيلة، لا فكرة لديه عن المكان الذي سيبيت فيه في اليوم التالي. كان يملك وقتاً ومكاناً، وكان بإمكانه أن يجلس ويكتب بالحال.

رنَّ الهاتف لحظتها.

هكذا الحال دائماً. هذا الجهاز المزروع منتصف صالتكَ، يدقّ كل لحظة، ويرنّ، وبثانية، تتمزّق الأحلام والأفكار كلها.

"هلو، نعم، ياستراو يكلّمكَ".

وكان صوت الصهر؛ "اسمعْ، أيّها العجوز، اعذرني، ولكنْ، إنها أختي مَنْ تزوّجتَ. ولقد أحسستُ، بل كنتُ أحسّ طوال الوقت وأنا عندكَ في البيت، أنتَ تعرف أن الإنسان لديه مجسّات، يمكن له أن يفهم، رغم أن ذلك لا يُقال بكلمات، هل تفهم؟".

"لا" أجاب ياستراو باقتضاب.

"بلى، بالتأكيد. كنتُ أودّ أن أتحدّث بجدّيّة معكَ، ولكني لم أتمكّن بذلك، بسبب ذلك الأخرق. لا بدّ وأنه لازال جالساً عندكَ. تأثيره سيِّئ عليكَ. لم تكن طبيعياً اليوم. ولقد تحدّثتُ مع يوهانه، وقد أخبرتْني تماماً بما قاله لي إحساسي منذ مُدَّة. البيتُ بيتٌ. لا يمكنكَ أن تأوي هكذا حيوانات ضارّة في بيتكَ. أنتَ مدين لزوجتكَ، أختي، أن تعير ذلك اهتماماً. وأنا أيضاً، أليس كذلك؟".

"بلى بلى، أنتَ على حقّ، على حقّ"، كان وجه ياستراو مكفهرّاً.

"أجل، هذا هو، رأيتُ أن من واجبي قوله لكَ رغم أني أصغر سنّاً منكما. هذا حديث بين الأصهار، صحيح، هه؟ ثمّ وربّما سيبدو هذا غير لائق، ولكنْ، ألا ترى أنكَ تُسرف كثيراً بالشرب؟ أنتَ رجل متزوّج، أنا غير متزوّج، وهذه هي أخت ...".

أغلقَ ياستراو السَّمَّاعة.

عاد الهاتف يرّن.

"اتركه" قال ياستراو لستيفينسن. "ليس هناك من أحد غير الحصان المفكّر".

وغرقا من جديد في مكانَيْهما.

ولكن ياستراو لم يستطع أن يتماسك. كانت هناك غشاوة أمامه على الصفحات الورقية في الكتاب الذي يقرأ فيه. كان الويسكي من ليلة البارحة. كان هناك شيء حَيّ قد اختبأ واستكان، وبلحظة تزاحم، موجة، ذابت إلى هلوسات. لا، كان من المستحيل أن يهدأ بجلسته. هناك أيضاً شيء من عصبية كامنة في جذعه، اضطرّته إلى النهوض، ذاهباً غادياً، هل يخرج ويستقلّ سيّارة؟ لا بدّ من أن يحدث شيء. ذلك الشعور الملحّ بالنبذ تحت ضوء النهار.

"لو تغيب الشمس حالاً." وأطلق حسرة.

"ولِمَ ذلك؟" سأل ستيفينسن. بدا أنه انتهى من كتابة نصّ شِعْرِيّ، لأنه شرع يُدندن بمقطوعة، قام بتأليفها بنفسه، صوتُ طبيعة، يقابل ايقاع المقاطع وطولها.

"الظلمة، نعم، مفعولها مهدّئ. هلا خرجنا بالمناسبة؟".

"بلى، دعنا نخرج، لا بدّ وأنها في طريقها للعودة الآن"، ضحك ستيفينسن. طوى الورقة التي كتب فيها الشِّعْر، ودسّها في جيبه.

بعد لحظة، كانا يتهاديان في سيرهما في ممرّ الفيستربرو مروراً بنصب الحُرّيّة أوبيليكس الذي أضاء مثل شيكولاته قديمة. كانت الشمس مشتعلة في ضباب الظهيرة فوق السقوف في الفيستربرو، وبالرغم من أن الشمس كانت عكس سير ياستراو وستيفينسن إلا أن الضوء الوامض أزعجهما بانعكاسه من زجاجات السَّيَّارات الأمامية ومقاود الدَّرَّاجات، عدا عن انهيار تيّار من الزجاج اللامع والنيكل صوبهما عند توقّف إشارة المرور، باستدارتهما في زاوية -فيفل-.

أكملا الطريق عبر شارع الفيستربروغيذه.

"أ لن تذهب إلى الجريدة؟" سأل ستيفينسن.

نظر ياستراو أعلى مبنى -داوبلاذيت- الأحمر، فلمح فولدوم في الطابق الأوّل، وقد لمعت الشمس في شَعْره الأحمر مثل معدن. بينما كادت طاقة الكائن الليلي الشاحب تختفي مثل شعلة تحت ضوء النهار.

"لا، وللأبد" أجاب ياستراو بشكل قاطع.

وتابعا سيرهما متهادِيَيْن صوب بار دس آرتيست.

وحين انفتحت لهما أخيراً في مدخل البار الستارة الداكنة الحمراء عن شبه الظلمة تلك، ولفّهما طنين الغرامامون الأبدي، شَعَرَا وكأنهما قد سقطا على رأسَيْهما في عالم آخر. لكن الساعة ذاتها أعلى البار قد أشارت إلى الوقت. ولكنه وقت آخر. مثل ساعة في فيلم. عقاربها للناس في الفلم، وليس المتفرّجين.

"إيه، قد نزلت الشمس" نفخ ياستراو، وجلس عند أقرب طاولة.

"ماذا نشرب؟" سأل ستيفينسن بفظاظة.

"مهلكَ، مهلكَ" قال ياستراو بحسرة. "علينا الآن أن نغرق أعمق وأعمق. هنا مساء دائم، والهواء كثيف بالغرامافون. لا يملك أحد هنا الوقت، ليشعر أن هناك شيئاً اسمه الفراغ. علينا الآن بهدوء تامّ، وببطء تامّ، أن نهلك".

عند البار، جلس حفل من السادة الأنيقين. رجال أعمال اعتادوا المجيء إلى البار حوالي الخامسة لتناول الشراب. ابتسم لوندبوم شاعراً بتشرّفه، لأنهم كانوا -أناساً جميلين-.

ولكن الطاولة المستديرة التي اعتاد كل من كيير و-بي- الصغير أن يجلسا عندها كانت فارغة متروكة.

راح ستيفينسن يحشو غليونه.

"أنتَ، أيّها النادل، اثنان كوكتيل، كما تعرف فيرموث فرنسي وإيطالي، نصف بنصف" طلب ياستراو.

انحنى النادل الصغير بابتسامة الأولاد المشرّدين.

"اللعنة، هل تُسمّي هذا هلاكاً؟" انبرى ستيفينسن قائلاً.

"قلتُ ببطء".

وغرقا كلاهما بالصمت.

ولكن ياستراو كان موجوعاً. لِمَ يجلس هنا مع هذا الكائن الصامت؟ رآه على ضوء قصيدته بالطبع. لم يفهمه. كان يأتي بتعليق ما، بدفعات، ويصمت بعدها مثل حجارة، ويصير مُستغلِقاً على الفَهْم غامضاً.

"هلا أريتَني قصيدتكَ الجديدة؟" سأل ياستراو.

"شأنٌ لا يخصّك".

لا يخصّني! لِمَ لجأ إلى هذا القول! لِمَ أستخدمه ستيفينسن؟

صَدعٌ في قناعِه الفظّ. هو يتعمّد اختيار الكلمات الفظّة عن قصد.

أُضيئت المصابيح في البار. حلّ المساء، مساءٌ أشْعَرَ ياستراو ببرودة مباركة. ها الشمس قد غابت. كلا، الستارة قد أُزيحت جانباً، فدخل ضوء السماء الأزرق. ومضة من زحمة المرور في

الخارج. الساعة السادسة. عاد الناس من عملهم. ولكنْ، الآن. أغلقت الستارة ثانية. نعم لقد غابت الشمس. حمداً لله. الأجواء باردة مثل شراب البيرة. كان لذلك فعل مخدّر.

"هل تفكّر بإصدار ديوان شِعْريّ؟".

"سأضطرّ لذلك. من دون شكّ، سيكون صندوق قمامة مِثالياً" أجاب ستيفينسن.

وغرقا بالصمت ثانية.

ولكن الصمت استنزف ياستراو. رجال الأعمال اختفوا خلف صيحاتهم العالية؛ "So long old chap". كانوا بريطانيّيْن أصليّيْن. وكل شيء كان قفراً.

"ها، يا لوندبوم، البار يبدو فارغاً"، علّق ياستراو مخاطباً الساقي السويدي البدين الذي اقتنص الفرصة لجولة مسائية في أنحاء البار حتّى الستارة الحمراء للمدخل.

"الأمر عادي حوالي الساعة السادسة. ولكنْ، لن يأتي الكثير هذا المساء. انتخابات البارحة تعرف" وأمال وجهه المدوّر الأحمر وطرَفَ عينَيْه السماويَّتَيْن برقّة، "سيرتاحون الليلة" قال.

توقّف الغرامافون. ولم يدرْ غير المروحة حتّى إن دخان التبغ قد شُفِطَ من البار.

ابتسم لوندبوم بأبوّة وابتهاج. بدا الأمر جلياً بعد ذلك في صعوبة إيجاد موضوع للتّحدّث عنه. كان يمكن سماع صوت الفراغ. صوت المروحة صار رمزياً. الفراغ! الفراغ! فجأة وقف صاحب القامة الخرقاء، أفضل صانع كوكتيل في الشمال الأوروبي وحيداً هناك في بارِهِ، وقد صارت ابتسامته محرجة.

"يبدو أن علينا الذهاب إلى المطعم، للحصول على شيء لنأكله" قال ياستراو بمرح، وهو ينهض من على كرسيه. كان هناك شيء في حرجِ تلك الابتسامة، خوفُ رجلٍ مريض كان عليه ألا ينفجر ربمّا. "نحن باقون هنا، لذا لن نقول مع السلامة".

انحنى لوندبوم بجسمه الضخم بخضوع. للحظة، فكّر ياستراو بضربه على كتفه مداعبةً، لولا وجود رجال الأعمال الذين لا يعرفهم. وربمّا لم يكن لوندبوم يقصد شيئاً بابتسامته المحرَجة تلك، على أيّة حال. وسار قاصداً المطعم، يتبعه ستيفينسن. بيانو وآلات وترية. في الموسيقى، هناك وَهْمٌ كبير. يظنّ المرء أنه عاش تجربة. يظنّ المرء أنه خَطا كبَطَلٍ داخل الفلم. الكَمان كان حزيناً مثل قَدَرٍ، لا يمكن تفاديه، ويظنّ أنه يسير على السّجّاد، وله إطلالة ذات أهمّيّة كبرى. ويرى نفسه في المرايا بكامل قامته، وهو يقطع بسيره الطريق عبر البار. أهمّيّة كبرى! ويلمح المرء غالباً وجهه، ليكون على يقين من وجوده.

عندما وجدا طاولة بالقرب من شجرة نخيل، كان على ياستراو التّوجّه إلى كابينة الهاتف للاتّصال بالبيت. لماذا؟ ولكنْ، لِمَ يكذب؟ لديه مقابلة. طيّار ألماني. شيء حول الطيران فوق القطب. قصّة مخترعة محترمة. كان في فندق كوزموبوليت اللحظة. عظيم. كان ذلك ضرورياً. لم يكن باستطاعته معرفة موعد عودته. نعم نعم، تأخّر بالاتّصال، ولكنْ، لم يكن بمقدوره، لا، لا يعرف متى يعود إلى البيت. سيتناول شيئاً في مكان ما. أجل أجل، وأخيراً انتهت المكالمة. كانت جبهته متعرّقة تماماً لوقوفه داخل الكابينة المغلقة.

عندما عاد إلى ضوء صالة المطعم، شعر بغشاوة على عينَيْه. هل كان نعِساً؟ شعور بالنأي عن المكان. ذلك بالتأكيد بسبب البارحة، آخر خمار، آخر خمار.

"لنتناول اثنَيْن بيرة" علّق عندما جلس عند طاولتهما. "ذلك سيغسل خمارنا".

"Salam alaikum" ردّد بوقار، وغمز بعينَيْه اللامعتَيْن.

وجلسا يتناولان الطعام والشراب لبضع ساعات. تحدّث ياستراو. وقد ساعده ذلك. ومنح الكمان نغماته، خافتة، مهيبة، خفيفة، حزينة، فرِحة، ثمّ بيزيكاتو(*).

كان ستيفينسن يلتهم طعامه، ويشرب بنهم، ولم يجبْ إلا بمخلّفات كلمات قصيرة وضحكات.

أمّا ياستراو، فقد استنزفتْهُ تلك المحاورة، وشعر بحاجة لطلب بعض الليكور(**) مع القهوة، وسيجار أيضاً، كي يعينه في مرافقة هذا الغموض الذي كان إلى جانبه. الغموض الذي طارده. وجد نفسه يُحلِق بوجه ستيفينسن. ولكنْ، من العَبَث أن تنفتح روحٌ من الحجر. هناك ذرقُ طيور أبيض فوقها بتصوّره.

عضّ سيجاره بعصبية. ومن دون أن يشعر، وجد كأس شرابه فارغاً. كان بهذا أسرَعَ من ستيفينسن في الشراب.

"هيّا، أرني القصيدة التي كتبتَها اليوم" قالها مُنزعِجاً نصف سكران.

"ولا كلمة، ولكني سأسمح لكَ بدعوتي لقَدَح من الويسكي في البار. لا أطيق البقاء هنا أكثر بين ظلّ أصص الزهور ورشف الليكور".

"أنتَ متسوّل محترف".

---

*) النقر بالأصبع على الوتر

**) Liquor مشروب كحولي مقطّر بطريقة خاصّة

نهضا، وعبرا المطعم متوجِّهَيْن إلى البار. ومن جديد، شُدِه لوجهه الذي لمحه في المرايا التي لا عَدّ لها. يدا ستيفينسن في جيبَيْه بمشية البَحّار. في المرايا. هنا وهناك. وياستراو ببطن الصحفي الصغيرة وكاحله غير المستقرّ بخطوته وهو يحطّ قَدَمَهُ على الأرض. زوج غريب. اصطدما ببعضهما مثل عاشقَيْن، فارقهما الإحساس بالواقع.

كان البار دس آرتيست خالياً. وقد تنبّأ لوندبوم بما هو صح. الناس تودّ أن تستريح الليلة.

لم يكن هناك إلا ضيف واحد.

جلس عند إحدى الطاولات قريباً من البار، وراح يُحدِّق بمَلَل في كأس نبيذ البورت. كان هو الصحفي إيريكسن.

"أهذا أنتَ، يا جاز؟" نطق، ورفع رأسه المحتقن بالدم والقلق. "هوَ أنتَ، وحقّ الرّبّ، جاز، اللعنة، هو أنتَ، جاز. تعال، اجلسْ. أنا أدعوكَ لكأس. للجميع هنا، ولهذا الشّابّ الذي معكَ. تعالا، اجلسا بحقّ الشيطان. أنا سكران حسب، كالعادة".

جلسا عنده.

"ما اسمه؟" سأل إيريكسن بنظرة غائمة، وهو يشير إلى ستيفينسن.

"ستيفينسن".

"ماذا، ستيفاني؟".

اعترت كلاهما هزّة.

"كلا، ستيفينسن".

"هه، أنا مجنون. هل ترغبان بنبيذ البورت أيضاً؟ هلو، أيّها القبطان، لوندوم، أين الصّبيّ خادم الكنيسة، ليجلب لنا كأسَيْن، للسَّيِّدَيْن الغريبَيْن هنا".

انحنى له لوندبوم الذي كان يقف خلف نضد البار، وابتسم قائلاً:

"بالحال، سيِّد إيريكسن".

"أووه، كم تبدو بائسة عبارة بالحال سيِّد إيريكسن بالحال" قال مقلّداً، ومال برأسه إلى الطاولة. كان قد تقوقع مثل حيوان، ودسّ وجهه المجعّد في أنف ياستراو. "الأمر بائس، اعلمْ أن الأمر شديد البؤس، قريباً جدًّاً. سيِّد إيريكسن، حضرتكَ تحتاج إلى تاكسي. أنا سكران، إذنْ،

وليس معي المزيد من النقود. رووح جشعة، رووح جششششعة" ورفع يده بقبضة مهدّدة، كانت ترتعش من الغضب.

وفجأة فرغ من غضبه، وركس في مكانه، وقد تهدّلت ثيابه. بدا مثل كيس منفوخ، انثقب فجأة.

"أنا حزين جدّاً اليوم".

"إنه، اللعنة، فَجَائِعِيّ جدّاً، هلا انتقلنا لمحلّ آخر" قال ستيفينسن.

" فَجَائِعِيّ" اعتدل الصحفي إيريكسن في جلسته. امتلأ الكيس ثانية. انشدّ الجاكيت والصديري. " فَجَائِعِيّ، هل تعرف ما الذي تعنيه الكلمة؟ ولكنكَ، جاز، أنتَ تفهم. أنتَ صحفيّ للنخاع. آخ، أنا غاضب جدّاً، يمكن أن أتفرقع من غضبي. الأغبياء في قسم التنضيد. لِمَ قاموا بتعيين مُصحِّحي لغة في الجريدة؟ يظنّ الناس أنني غبي. إني الفاتن المدلّل! يا جاز، هل قرأتَ المراجعة؟".

"بلى بلى".

جمدت نظرة ستيفينسن.

حضَرَ نبيذ البورت على الطاولة.

"قل، ما خطب الفاتن المدلّل، إذاً؟" سأل ياستراو.

حدّق إيريكسن بعينَيْن شكّاكَتَيْن.

"صِدْقاً، جاز، ما الذي فكّرتَ به حين قرأتَها؟"

رفع ياستراو كتفَيْه، وقال "ما كتبته هو الصحيح".

"لا هذا تماماً ما هو غير صحيح" ورفع سبّابة مرتجفة، وحرّكها تهديداً قرب أنف ياستراو " ستيفاني رجل نزيه. وكان مكتوباً؛ الفاتن المجادِل، هذا ما كان مكتوباً في مسوّدتي. يا إلهي، أحتاج إلى الكثير من النبيذ لغَسْل هذا الخطأ الطباعي. ما الذي سيظنّه القرّاء بي؟".

ومن جديد، ركس في مكانه، وفرغ من طاقته، وتهدّلت ثيابه على جسده. ولكن ياستراو وستيفينسن انفجرا بضحكة عالية.

"حسناً، اضحكا" تابع مُتقرفِصاً في كرسيه، تملأ التجاعيد والثنيات الصديري الذي عليه كما جبهته. "ولكنه لا يستحقّ ذلك، إنه رجل محترم"، "لا، بربّكَ؟" قال ستيفينسن.

دفع الصحفي إيريكسن صدره، ونفخ، رفع رأسه مثل قائد: "أعرفه أكثر من الباقين. لأني كنتُ في البحر، ركبتُ البحر، وأعرف الكثير من البحّارة من الذين جاؤوا إلى أورهوس، والذين قام هو بزرقهم الأبر مجّاناً، وغير ذلك".

جلس ستيفينسن غير مبالٍ، يداه في جيبَيْه، وساقاه ممدّتان إلى الأمام.

"معقول؟ لم أسمع بذلك" علّق ستيفينسن، من دون اهتمام.

"لا، هناك الكثير الذي لا تعرفه".

"للأسف، فهو والدي". فتح إيريكسن عينَيْه على وسعهما. "صحيح؟" وتابع بحماسة مباغتة مثل قفزة واحدة، وبحرقة: "ولكنكَ تفهمني، بالتأكيد، يا جاز، أليس كذلك؟ اللعنة على إبليس. أنا أكتب (مجادِل)، وهم فوق في القسم يُنضّدونها (مُدلّل). خرب كل شيء. كل شغلي" وخبّأ وجهه الحزين بين يَدَيْه الكبيرتَيْن، وراح يهزّ جسده إلى الأمام، وإلى الخلف. "الفاتن المُدلّل، الفاتن المُدلّل، أيّ هراء هذا!" قال مُتذمّراً.

اتّكأ ستيفينسن إلى الخلف عندما مرّ به النادل شبه الصّبيّ "اسمعْ، أرنولد، نريد المزيد من نبيذ البورت".

أنزل إيريكسن يَدَيْه من على وجهه، وفتح عينَيْه التعبتَيْن ناظراً نحوه: "أجل".

باللحظة عينها، انطلقت موسيقى جاز صارخة عالية من الغرامافون، جعلت ياستراو يفزّ. انشدّت أصابعه وعضلاته كلها. "أنتَ على حقّ، أحسنتَ يا لوندبوم، لنُقِم حفلة، فالمكان فارغ جدّاً".

نهض وراح يسير بحركات رقص خرقاء إلى البار، ليأكل بضع حبّات لوز مُملّحة. "لا شغل اليوم في البار" علّق وهو يتأرجح على الكرسي العالي على إيقاع الجاز.

هزّ لوندبوم رأسه مُتحسِّفاً، ودفع بطاسٍ، يحتوي زيتوناً إلى ياستراو.

كان ياستراو يُلوِّح بيده، موسيقى، موسيقى، أكل الزيتونات على الإيقاع، طلب كأساً صغيرة، ليشرب على الإيقاع أيضاً، رغم أن كأس البورت مايزال على الطاولة. وقد أنعش الجاز الأجواء كَحَدَث. قد حدث شيء. قفز مرّة واحدة من على الكرسي ثانية، وراح يراقص الكرسي. توقّف

عند الطاولة، حيث جلس ستيفينسن وإيريكسن. رأساهما اقتربا من بعضهما. إيريكسن كان صاغياً جدّاً، كما بدا من تعابير وجهه خلف شبكة التجاعيد الحائرة، اختفت، ثمّ عادت ثانية مثل قمر خلف غيمة. وجه ستيفينسن القاسي علاه التركيز. وبرغم الغشاوة التي غطّتْ عينَيْه، بسبب الكحول، وَمَضَ خبثٌ مخجلٌ خلف ذلك الغشاء اللامع.

"ولكنْ، يقول السَّيِّد الراقي، ينظر إلى أظفاره ثانية، هناك الأسوأ من ذلك، لأننا أنا والخادمة كنّا على علاقة ...".

"ها ها" زأر ياستراو وهو يرفع الكرسي، ويؤرجح قوائمة الطويلة صوبهما؛ "إنها القصّة الطريفة الوحيدة لستيفينسن".

وفجأة أنزل الكرسي إلى الأرض، واختفى في فناء الفندق. لا مزاج له لسماع تلك القصّة من جديد. لم يكن ستيفينسن متعدّد المواهب.

في ظلمة الفناء، كان يُسمَع صوت الكمان والبيانو قادماً من المطعم والغرامافون من البار ممزوجاً بصوت صلصة الصحون والسكاكين من المطبخ. ولقد ضاعف الإسمنت وواجهة الفناء من الصوت الذي كان يصل عبر البوق ضجيجاً مُربِكاً، وهو يمرّ عبر أنبوب التهوية للفناء عالياً في سماء ونجوم مساءٍ ربيعيّ. كانت لحظة ذات معنى. توسّعٌ بالروح. وطوابق الفندق كلها، النوافذ كلها، أقدار الفندق كلها التي كانت تُمعن النظر أمامها في الجدار العازل للحريق. بناية غريبة. لا أحد بحاجة لأن يتركها.

ودخل ثانية بعدها، ليقابله لحن جازيّ جديد. شعر بالرغبة في الرقص ثانية.

"علينا أن نحتفل في هذا البار الخالي" صرخ ثانية.

"إششش" حذّره لوندبوم.

"ولكنْ، إن لم يكن هناك طبيب في القصّة، هل ستكون طريفة؟" سأل ستيفينسن بعناد، وانحنى صوب إيريكسن الذي بدا وكأنه قد شعر بالمَلَل.

"هل تتحوّل إلى فيلسوف هكذا دائماً عندما تكون وضيعاً، هه؟" سأله إيريكسن بحنق.

"سألتُ فيما لو كانت القصّة ستكون بالمتعة ذاتها؟"..

"نعم، بالطبع".

"ولكنْ، ماذا لو لم تنتقل العدوى إلى الزوجة؟"

"يا إلهي، لتذهب إلى الجحيم. حضرتكَ تُزعجني" قاطعه إيريكسن، وهمّ بالنهوض. ولكن ستيفينسن أجبره على الجلوس بقُوّة "إن لم تنتقل العدوى إلى الزوجة؟" كَرّر السؤال بفظاظة "هل ستكون طريفة؟".

"نعم، سأموت من الضحك، لننته. أريد أن أرقص الجاز مع جاز".

ووقف فجأة بيد مرفوعة منتصف البار. راقصة إسبانية. ودار الغرامافون، وأزّ. جاز! جاز! ووقف أوله ياستراو منتصب القامة مقابل إيريكسن. الصدر مرفوع. الأذرع خالية العضلات. العيون بارقة. راقصة إسبانية! وبدأت مقطوعة راقصة من تأليف هذَيْن الرجلَيْن في ذلك البار الخالي من البشر، رقص احتفالي، نصر، لم يتوقّف إلا بتغيير الأسطوانة.

حينها تسلّل شيء من السوداوية للحظة إلى البار.

ركست قامة إيريكسن، تهدّل صدره، وتجعّد الصديري، وأطلق حسرة قائلاً: "الفاتن المُدلّل! أليس ذلك كافياً، لأن نسكر؟".

وبدأت موسيقى جاز جديدة.

لم يلحظْ أحد حينها أن ستيفينسن طلب زجاجة نبيذ، وأفرغها خلال خمس دقائق، ولم يذكر كذلك كلّ من الرجلَيْن كيف انتهى الرقص.

كان -بي- الصغير جالساً يبتسم. ولكنْ، اللعنة، من أين جاء. "عشتَ، مايسترو" قال مُحيّياً. الحتمي كيير ظهَرَ أيضاً. السكران الأبدي. راح يضرب الإيقاع بكلتا يَدَيْه، ويدندن نشيداً بهدوء:

"مباركة، مباركة كل روح، يملؤها السلام".

كان يعرف ذلك. أم لعلّه كان حُلْماً؟ ذلك ما لا يعلمه أو يتذكّره.

راقصة إسبانية!

الفصل السابع

وجد ياستراو نفسه فجأة في السرير مستيقظاً.

كان يُحدِّق في السقف بنظرة غريبة مرتعبة. ولكنه سرعان ما اطمأنّ. كان هذا هو سقف غرفة النوم في بيته. الشبّاك مفتوح، وهناك صوتُ ضَربِ سجّاد في الفناء. كانت يوهانه قد استيقظت. سرير أولوف الحديدي كان أيضاً فارغاً. وهناك أيضاً ملابس قد عُلّقتْ بعناية، الجاكيت، الصديري، الأمر مُخجِل تقريباً. ولم يكن يرتدي بيجامته، فانيلا داخلية قصيرة من الصوف فقط.

آه، مرّة ثانية! لِمَ مرّة ثانية؟ بالكاد تعرّف على نفسه. لِمَ شَرب؟ لا، لمْ يشرب. مُجرّد زلة لبضعة أيّام، ليس إلا.

ولكنْ، ما هذا الصمت الذي ساد الشَّقَّة؟! لا صوت. وكأن الأبواب كلها أُغلقَت، الأبواب الأربعة عشر كلها في هذه الشَّقَّة، والتي توزّعت فيها الغرف بشكل غير أليف. كان الصمت مصدر ألم له! وصوت ضَرْب السّجّاد في الفناء جعل غرفة النوم مهجورة وغريبة عليه مثل غرفةٍ في فندق. ولكنْ، كم كان ذلك مؤلماً! قبضة أمسكت بقلبه، وعصرته. شيء مرعب أشعره بالتهديد، كان يتربّص له في الصالة. كان ذات يوم قد رسم تخطيطاً لخريطة الغرف في الشَّقَّة، ولكنها بدت مخيفة، حيوان بشع يرعى، فرس النهر يغمر الماء خطمه، أو شيء أو شكل ما يجلب النحس.

أين صارت يوهانه؟ هل غادرت؟ وكيف وصل هو إلى البيت؟ هل كان هناك من حادث؟ هل دخل في عراك مع أحد؟ نظر إلى يَدَيْه، رفع قليلاً كُمّ الفانيلا، وتفحّص ذراعَيْه. لا، لم يكن هناك من علامة. قد رقص مع إيريكسن. تذكّر ذلك. تذكّر تلك الصالة في البار وفرش الأرضية من المشمّع الأحمر، مع الخشب الماهوغاني والنحاس وتلك الربكة الملوّنة البارقة من الزجاجات على الرّفّ. البراميل البيضاوية الخشبية الثلاثة عند الجدار.

كان مكتوباً على إحداها "boal"(*). تذكّر ذلك بوضوح. وماذا بعد ذلك؟ بلى، كان ستيفينسن

(*) نوع من النبيذ يُقدّم مع الحلويات والفواكه، على الأخصّ في جنوب فرنسا

موجوداً. كيير. -بي- الصغير. لا أحد عداهم. ولكنْ، اعتاد -عاملوداوبلاذيت- المجيء إلى البار حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً. هل رأوه؟ هل توجّه هو إليهم في قسم التحرير، ليتشمّس، وليستعرض ثمالته، كما اعتاد إيريكسن أن يفعل كل مساء. ياه! ما هذا الصمت؟ هل ذهبت يوهانه؟

قفز من السرير منتصباً، حيوانياً. كان جسده حيوياً وسريعاً بشكل غير طبيعي. ارتدى بعُجالة بنطلونه ليتوجّه إلى المطبخ، ويشرب الماء. كان عطشاً. كم كان غريباً! كان عليه أن يفتح الباب الذي يؤدّي إلى الممرّ القصير، وعليه، من ثمّ، فتح الباب المؤدّي إلى المطبخ. هناك وجد يوهانه جالسة على الكرسي.

كانت، ولا شكّ قد أغلقت الأبواب ببطء وإحكام، لأنها تودّ التّحدّث معه. وقد أغلقت فمها بإحكام الآن. كانت تحدِّق بعينَيْن متعبَتَيْن سهرانَتَيْن، وقد شبكت يَدَيْهَا في حضنها، كما في صورة "البنت المنبوذة" أو "المخدوعة" في مجلّة العائلة. تقطّع قلبه ألماً.

كانت تلعب دوراً كوميدياً أيضاً.

"أين أولوف؟" سألها وهو ينظر من حولهما بحَيْرَة.

"طلبتُ من زوجة حارس البناية أن تأخذه في نزهة ..." أجابت مُحرّكة شَفَتَيْها بميكانيكية، عدا ذلك، فقد جلست، وكأنها قد تجمّدت، لم تحرِّك عينَيْها "ليلعب مع ابنتهم الصغيرة".

لم يكن على جسد أوله ياستراو غير الفانيلا والبنطلون. كان حافياً. ولذا كان ذلك الشعور بالإذلال.

"أرجوكِ، يوهانه، أرجوكِ" تشكىّ فجأة وهو ينفض رأسه. رمقتْهُ بنظرة مُفاجِئة متعالية.

وركض هو، وألقى بنفسه مرّة واحدة عند ركبَتَيْها، وضع رأسه في حضنها، وهزّه "أرجوكِ، يوهانه! أنا لا أعرف ما بي. لا أفهمه. هذا ليس أنا، أنتِ تعرفين، أليس كذلك؟ آه، ذلك يخيفني" كان يودّ أن يبكي. بلى، كان يودّ، يودّ. من شأن ذلك أن يعتقَه. انقلب وجهه، سحب نَفَسَاً جرّة واحدة. ولكن ذلك لم يكن حقيقياً. قد شعر بشيء جامد فيه. "ياه، يوهانه، أنتِ تعرفين حربي مع نفسي. هناك شيء ما يترصّدني. أنتِ تعرفين ولا شكّ" وأطلق حسرة. نزلت بضع دمعات على خَدَّيْه. كان يشعر بالخَطَّيْن الرطبَيْن وهما ينزلان على خَدَّيْه. ولكنها لم تخفّف عنه. ما كان يخفّف عنه هو هدهدة رأسه في حضنها حدّ تخديره. لعْبُ دور الطفل يروّح عنه. "أرجوكِ، أرجوكِ. ياه، ألا تفهمين؟ سأجنّ جرّاء ذلك".

نهض فجأة، ووقف عند باب المطبخ مُتَّكِئاً برأسه إلى الإطار. دهمتْهُ أوجاع غير مفهومة. كانت مسرحية كوميدية. لعَبَ دور أولوف. جزءٌ من التعذيب الذاتي. لقد شقّ ذلك الحزن، وحوّله إلى ألم. ضرَبَ بجبهته الإطار، ودبكَ مثل ولد صغير. أولوف! أولوف!

"آه، يوهانه، لِمَ أنا هكذا؟".

نهضت يوهانه من مكانها.

"كفْ عن الدلع" قالتها بطريقة مُهينة. "بإمكانه أن يسمعنا".

"أهو، هو! هل ستيفيسن هنا؟" استدار ياستراو. "إنه هو، هو السبب في كل ما حصل" ابتسمت يوهانه بفتور.

"بلى، إنه هو، بسببه" ضحكت ضحكة قصيرة مهينة.

"لا تخدع نفسك بذلك" بدا صوتها ساخراً بشكل عجيب.

نظر ياستراو إليها برعب.

"ألا تصدِّقينني، ألا تصدِّقينني، يوهانه؟".

"لاااا" جاءت باحتقار.

"حسناً، سأريكِ بنفسي" قاطعها بحدّة. "لن أسمح له بأن يبقى في البيت، ولا للحظة واحدة. سأذهب لأُوقِظَه".

"إنه صاحٍ" علّقت يوهانه بهزء. "ولقد صببتُ له القهوة" وانحنت، ثمّ أطلقت ضحكة مُفاجِئة قصيرة. "إنه يجلس هناك، ويقرأ جريدة الصباح، بالتأكيد، هههه".

"ماذا تقولين؟" قاطعها ياستراو. "ولا للحظة بعد الآن" وهرول بقَدَمَيْن حافيَتَيْن إلى الصالة.

جلس ستيفينسن داخل الصالة، برأس منفوخ، وعينَيْن صغيرتَيْن خبيثتَيْن. لقد جلس على الكرسي الروكوكو، وأشعل له غليوناً.

"لا أريدكَ هنا في البيت بعد الآن" كان ستيفينسن قد ارتدى كامل ملابسه. أخرج الغليون من فمه بهدوء، ونظر إلى ياستراو من أعلى إلى أسفل. فانيلا صوفية، بنطلون، قَدَمَان حافيَتَان. الفانيلا قد أبرزت بطنَ الصحفي مثل انتفاخة سخيفة.

"ما بكَ تُبحلِق وتُبحلِق؟" تابع ياسترِاو بفظاظة. "هذا يكفي. هذه شقَّتي، بيتي وأنا لا أريد أن أُفسده. لأن .. لأن ...".

نهض ستيفينسن بحركة، وكأنه يهمّ بنطحه. ولكن ياستراو استجمع طاقته المتوتّرة كلها، وأمعن النظر مباشرة في عينَيْه اللامعَتَيْن، في قلب ذلك اللمعان الزجاجي القاسي.

"ستغادر الآن، يا ستيفينسن، هل فهمتَ؟".

فتح ستيفينسن فمه، وأطلق ضحكة، من دون صوت مثل حصان.

"أيّها الجبان" قال، وأدار ظهر يده اليمنى بوجهه، كما لو أنه ينوي إدارة رأسه جانباً.

"امشِ، اطلعْ" وقد خطا ياستراو قريباً منه.

انحنى ستيفينسن إلى الأمام، وحملق بعينَيْه بخبث.

"انتبهْ لأصابع قَدَمَيْكَ الحامضَتَيْن، وإلا دُستُ عليهما، وسحقتُهما".

وخطف الجريدة فجأة من على الكرسي، وصرخ:

"قل لي أوّلاً كيف تحوّل اسمي إلى ستيفاني أسفل قصيدتي هنا في الجريدة؟".

تلقّف ياستراو أنفاسه.

"تلك ... تلك ..."تأتأ.

"نعم. تلك وضاعة، حركة حقيرة، حيلة صحفية. اسم أبي. شكراً جزيلاً، لتذهب إلى الجحيم".

وطوّح بالجريدة، وألقاها على الأرض، دفع ياستراو جانباً، وخرج إلى المدخل.

"لقد نسيتُ ذلك" صاح ياستراو. بدا وكأنه اعتذار، انتقالة متذمّرة مُفاجِئة.

"كذب! كذبة صحفية خسيسة!".

وانصفق باب المدخل بشكل عنيف، صَلْصَلَتْ له النوافذ.

جلس ياستراو على الأريكة مُتّكِئاً برأسه على يَدَيْه هازّاً جسده إلى الأمام والخلف.

هكذا يكون النصر! هكذا انتصر على ستيفينسن، لدرجة أنه مدين له باعتذار. خسيس! ولكنها كانت هفوة. كانت ... كانت ...

لم يكن هناك شكّ حول مَنْ كان المندحر. رفع ياستراو يَدَيْه من على وجهه ثانية، وحملق في الطاولة أمامه، حرّك التمثال، مُحاوِلاً أن يضع الأشياء في مكانها. غامت الأشياء. اكتشف فجأة مسوّدة ستيفينسن برسوماته لِقدَم المرأة، وخرطوم الفيل. كَتَبَ "Diminuendo(*)" على إحدى المسوّدات بحروف كبيرة، ورَسَمَ أغصان شجر الزان، تخلّلت التفافات الحرف الأوّل، وتحتها كتب القصيدة.

كانت القصيدة إيّاها التي تلهّف إلى قراءتها بالأمس.

ولكنه لم يجرؤ. لا يريد أن يقرأها. فماذا لو كانت القصيدة جيّدة؟ ستكون هزيمة جديدة أخرى.

"لقد كنتَ عنيفاً جدّاً، يا أوله". كانت يوهانه تقف عند الباب. نظر إليها. شيء من القسوة حول فمها.

"ما الذي تقصدينه؟" قال بانزعاج.

"كان بإمكانكَ أن تجد طريقة أخرى للقيام بذلك، ولكنْ، ليس بهذه الطريقة، لا، لا، لم يكن أبي ليفعل ذلك، ولا أدولف".

نهض ياستراو بانفعال؛ "إن خلعتُ القُبّعة كان خطأ، وإن اعتمرتُها كان خطأ، ما الذي كنتِ تريدين منّي فعله، بحقّ الشيطان؟ أردتِ أن يخرج، وهذا أيضاً خطأ".

كان يسير رواحاً مجيئاً حافي القَدَمَيْن وهو يشعر بالمهانة لارتدائه الفانيلا الصوفية والبنطلون. انبرى صائحاً بشكل هستيري: "لا، لا يمكنني احتمال هذا. سأجنّ، سأجنّ".

"مهلكَ مهلكَ، من فضلكَ، لا تكرِّر المشهد الذي حصل في المطبخ ثانية".

ندّ عن صوتها البنّوتيّ سخرية خفيفة.

نظر إليها ياستراو زامّاً شَفَتَيْه بعينَيْن مُحدِّقَتَيْن. ظلّ بوقفته هكذا لدقيقة. كان له وجه متهتّك قد أمعن في شرِّه ما جعل عينَيْها تتّسعان خوفاً، عينان زرقاوان، سماويّتان، وحلقتا جفنَيْن ورديّتان. قالت بهدوء بعدها:

"لنتناول الغداء الآن".

أومأ ياستراو برأسه، وراح صامتاً إلى غرفة النوم، ليحلق ذقنه. قام بذلك من دون مرآة، حلاقة

---

*) عنوان لقصيدة في الأصل للمؤلّف توم كريستنسن، وهو مصطلح موسيقي، المقصود به الخفوت التدريجي للصوت، واختفاؤه

بائسة، ولكنه لم يشأ أن يرى وجهه. كان الشّرّ يملؤه، ولا شكّ. سمع يوهانه، وهي تنزل درجات السّلّم. ستذهب إلى المدينة ربمّا. شرع يصفّر. لا بأس برَفْع المعنويات قليلاً.

عندما عادت يوهانه، بدت وكأنها قد فكّرت بشيء. كان بإمكان ياستراو أن يرى تغيّراً في الانطباع الذي بدا على وجهها. لقد حصل شيء.

عند طاولة الغداء تبيّن الأمر.

"أوله، كيف يمكن أن نكون مَدينين للبقّال، بستّ زجاجات من كارلسبيرغ".

"ماذا؟".

"زوجة البقّال قالت إن السَّيِّد الذي يعتمر (الكاسكيت) قد أخذ ستّ زجاجات بيرة لنا. قال بالحرف إلى بيت ياستراو".

نظر ياستراو إليها مُتفاجِئاً.

"متى فعلها؟ "سأل بتردّد.

"قبل قليل، قبل عشرين دقيقة".

أومأ ياستراو برأسه. وضع يَدَيْه على الطاولة، وقال: "غير ممكن ...".

"ألا تُصدِّق ...؟".

"بلى، بالطبع".

"هذه سرقة".

"صحيح" حرّك كتفَيْه مستهجناً، "قولي انتقاماً أو ما شئتِ".

"يا أوله، شيء مثل هذا لا يفعله إلا الحيوان".

"على مهلكِ".

"قلْ لي ماذا تُسمّي هذا؟ هل يمكنكَ فعل شيء مثل هذا؟".

ابتسم ياستراو: "لا، لا أظنّ ذلك. ولكنْ ..." انفرجت شَفَتَاه عن ابتسامة كبيرة، بانت عبرها أسنانه. "بإمكاني أن أفهمه".

"آخ، نعم، فأنتَ تتفهّم كل شيء" وأومأت برأسها.

"نعم، لدرجة أني طردتُهُ من البيت" شابَ زهوَ انتصاره شيءٌ من عدم الثقة. شعر بالسخرية.

"فعلت بكل تأكيد".

"هل سمعتِ كل ما دار؟"

"كلا، البداية فقط، واكتفيتُ بعدها. أغلقتُ أذنيّ، لأني اعتقدتُ أنكما ستشتبكان بعراك. يمكن أن يصدر أيّ شيء عن هكذا بشر".

رشقها ياستراو بابتسامة من القلب. لم تشعر بهزيمته. مدّ يده، حيث يدها، وضغطها برفق.

"فهمت الآن. أنتَ لم تكن عنيفاً، يا أوله" وارتسمت تلك الابتسامة المحدّدة حول شَفَتَيْها التي يعشقها. تُشعره بشيء من الاستهزاء مع جاذبية خطرة. لم يجدها أبداً، ولكنْ، ها هي الآن ثانية، الابتسامة. وعليه الآن أيضاً أن يؤمن من جديد بحسّ السخرية العميق، العميق لديها.

"يوهانه" ناداها بحُبّ.

"نعم" أجابتْ، وأحنتْ رأسها مبتسمة. "ماذا؟".

"آه، لا شيء، ومع ذلك، أشياء كثيرة جدّاً، كثيرة، نعم، كل شيء" أجابها برقّة، وبدفعة واحدة، قال: "أنا سعيد جدّاً".

"جيّد جدّاً" أجابتْهُ.

"وكل شيء هنا على أحسن مايرام الآن، أين أولوف؟ ألن يأتي؟".

هزّت رأسها "بلى، لأننا بدأنا الأكل أبكرَ ممّا اعتدنا".

عندما نهضت تبعها بنظره. قامتها التي لم تمتلئ بعد، ولكنه أحسّ بتدويراتها اللّيّنة من تحت فستانها الأصفر، والتي لم يكن يجرؤ على النظر إليها حين تكون عارية، ولكن يَدَيْه تتحسّسها، وتُشكّلها، وتخلقها ليلاً. ليال كانت قليلة جدّاً. لأنها كانت خجولة. امرأة تغمض عينَيْها. امرأة تدع شَعْرها الأشقر يغطّي وجهها. مختبئة دوماً عندما يقتربان من بعضهما. ألم يستولِ هو عليها إطلاقاً؟

نهض، وتبعها، أراد أن يضع يده على كتفها، يُمسِّد خدّها، يقبّلها.

"أنتَ مضطرب جدّاً، يا أوله".

"إنه الخمار" ابتسم بسخرية.

"ليته، إذاً، يصيبكَ دوماً. إن كان هكذا، سأُحبُّكَ لأجله" وصار فمها مثيراً.

"أنتِ جميلة".

"لا ترى ذلك دائماً".

"لي رأسٌ وارمٌ. وعينان قبيحتان، أليس كذلك؟" قالها، وصار فجأة حزيناً.

"لا يهمّني ذلك، طالما أنتَ ودود هكذا الآن" ضحكت. حينها أثار أولوف ضجّة بدخوله.

"أين الرجل الغريبُ؟" سأل عند الباب منفوخاً بمعطف تاجر الخيل البُنّيّ.

"قد راحَ، إششش، راح".

"حو حو ماما، الرجل الغريب إشش راح".

رفعه ياستراو من ذراعَيْه، ورقص معه. شاعري. الشاعرية بعينها. شاعرية الخُمار، اقتحمتْه بخبث. لا، الشاعرية لا يمكن أن تستمرّ، إن لم يحدث شيء.

شاعرية الخُمار. علا شيء من احتقار الذات وجه ياستراو. ولكنه ضمّ الولد إلى صدره، أخفى وجهه بمعطف الولد، أخفى نفسه للحظة.

"عندي خُمار اليوم، يا يوهانه" قالها باحتفالية، وهو ينزل الولد.

"أعلم، بلى" قالت وهي تعقد حاجبَيْها، وكأنها تجده اليوم مستحيلاً.

"لهذا السبب، لن أستطيع فعل شيء اليوم، أريد أن نخرج ونحتفل، أن نستأجر سيّارة، وأنتِ معي، وأولوف سيكون معنا".

"حسناً، ولكنْ، لا إمكانية لدينا لذلك. الضريبة وفاتورة الإضاءة ...".

"أوه، دعكِ من هذا. سأتّصل الآن بشأن سيّارة".

"عليّ غسل الصحون أوّلاً".

"غسل الصحون! أنا لا أفهم، هكذا الأمر دائماً" اعترض مُنزعِجاً. "غسل الصحون، وغسل الصحون، أظنّ أن ذلك هو ما يُفسد عليكنّ متعتكنّ بالحياة، أيّتها النسوة".

"اكتشاف ذلك أخذ منكَ وقتاً طويلاً" قالتها يوهانه بوجه كوميدي حزين.

"سأتّصل الآن لحجز سيّارة. الخمار السعيد لا يحصل عندي كل يوم كما اليوم، يوهانه، إنه الربيع، اللعنة "ودبك على الأرض بانشراح. "وأنتَ، أولوف، أنتَ تريد الخروج معنا في السَّيَّارة؟ صحيح أولوف؟".

"بلى بلى بابا، نسوق سيّارة، نسوق سيّارة" صرخ أولوف، وقد أصابتْهُ فجأة عدوى أبيه بالمرح، وراح يدور ويغنّي جذلاً بين أمّه وأبيه "نسوق سيّارة، نسوق سيّارة".

"أنتُما حقّاً مجنونان، كلاكما" قالت يوهانه. ولم تزدْ على ذلك، إذ سمعتْ ياستراو وهو يتّصل، ويحجز سيّارة صغيرة قائلاً "نعم، بالحال، بالحال".

غطاء للرقبة، وعلى الرأس، وغادروا. وعندما جلسوا أخيراً في تلك السَّيَّارة الصغيرة الواطئة، كان هناك شعور، وكأن الوقت أدركهم، فلم يرتدوا معاطفهم.

"آه، فظيع ما تركتُهُ من صحون في المطبخ" ضحكت يوهانه.

أولوف الصغير جلس ما بينهما، يدفع إلى الجانبَيْن حتّى وجد أخيراً موضعاً مناسباً، حيث استقرّ مثل دبّ قطنيّ بقَدَمَيْن ممدَّتَيْن إلى الأمام، وذراعَيْن متعاكسَتَيْن صوب الركبَتَيْن. "هكذا" قال أخيراً مع تنهيدة استمتاع عميقة.

عبرت بهم السَّيَّارة ممرّ فيستربرو وتمثال الحُرّيّة، وبعدها منطقة -وايلدويست-، التي كانت مجموعة أسواق شعبية، وأكشاك خشبية. أسرعت السَّيَّارة عابرة الجسور، استدارات إجبارية، بشكل منحنيات، بمحاذاة خطوط السّكّة الحديد تحت الأرض، مروراً بجانب من مجمعات المباني والشقق وتلك الواجهة الحمقاء لسينما مسرح القصر.

كان ياستراو يستخفّ بكل ما يمرّ به، إلى هذا الحدّ، كان مبتهجاً! بدت له كوبنهاجن لحظتها ذات تلافيف، بشكل ملحوظ جدّاً.

"لا، غريب، لو شَعَر الناس بالسُّكْر في هكذا مدينة" اندفع قائلاً. "أم أنها تبدو ربّما هكذا، لأننا جميعاً سُكارى. تاريخ الدنمارك كله سكران، ذات الأنف الأحمر، بلد الأجداد".

تغيّر مزاج ياستراو الذي شمله الهدوء، وهم يعبرون شارع فاريماسغيذه. حفيف أشجار متنزّه أورستيد التي مرّوا بها باللمعان الذهبي لأوراقها اليانعة، الأغصان التي امتدّت عبر الأسيجة الحديدية، الرصيف والناس الذين ومضوا بالضوء والظّلّ.

"إنه الربيع، يوهانه" قال ياستراو. لم يكن بوسعه أن يصمت. "قد باغتنا ثانية. ألم تلحظي أن براعم الأشجار تتفتّح من خلف ظهورنا، وما إن نستدير بالصدفْة حتّى نراها وقد اخضرّت؟"

هزّت يوهانه رأسها. نظر إليها فجأة مُتفاجِئاً. بدت سيِّدة، مدام ... طقمها الأزرق، شَعْرها الأشقر. كم بدت ناضجة! الهناء والراحة داخل السَّيَّارة، التي رغم تهالكها، فقد منحتْها رقياً وامتلاءً. هي بحاجة للشعور بالسعادة بين آونة وأخرى! وابتسم بمرارة.

كانت جميلة وعادية برأيه.

"كم تبدين رائعة اليوم" قال لها.

أدارت له وجهها بابتسامة اكتفاء صغيرة.

"أنا أيضاً بمزاج حسن اليوم" علّقت، ومدّت يدها له بحُبّ، ما جعل أولوف جالساً خلف قضبان من الأيادي.

(تأرجحي تأرجحي، أجمل الوردات ستسقط، غنّت إبنة حارس البناية، إنها تعرف الكثير، قال أولوف. وقد اتّكأ على الأرجوحة).

"في رأيي، أنتَ لم تكن عنيفاً جدَّاً عندما طلبتَ منه المغادرة" تابعت يوهانه بلين. "قد كان روحكَ الشّرّيرة، يا أوله، كنتُ بالكاد أعرفكَ" وضغطت على يده.

كان الربيع.

استداروا نحو شارع فريديريكسبيرغيذه، ومنه إلى جسر الملكة لويسه. البحيرات ساطعة واسعة مفتوحة.

"انظري، يوهانه، انظري الأشجار التي تفتّحت براعمها على الجانب الثاني من البحيرة. أليس هذا مُمتعاً؟ متعتي كل عام أن أُفاجِئ هذه الأشجار".

نظروا إلى البحيرات بحوافّها الحجرية التي حوّطتها، والأشجار بمحاذاة الضفاف، والشوارع والبيوت خلفها. كم بدا المشهد حميمياً، بتأثير تلك الأشجار العالية والبيوت ذات الأربعة طوابق! كم هو رائع أن تقيم حيث تطلّ على ذلك كله من شبّاكك. عشّ حقيقي. كأنكَ طير. الله، طيرٌ بشريّ.

أضاء على سطح البحيرة لون أصفر تحت الشمس، لونٌ كان قد أحبّه عندما كان صغيراً،

بضعة بيوت في منطقة الأوستربرو القَصيَّة، بنايات عند الزوايا في شارع ويليموسغيذه. كان اللون رائعاً جدًّاً وحالماً. هكذا لون لا غيره يجب أن ينير الأفق.

مرّوا فوق الجسر في منطقة النورابرو المزدحمة بالبشر، استداروا ثانية عبر شارع فيليذفاين حتّى دخلوا شارع نورا أليه الطويل أوّل الضاحية بأشجاره الكثيفة. إسفلت تحت القمم الخضر. حين ينحنون ويتطلّعون من فوق كتف السائق، كان الشارع المشجّر الطويل يبدو مثل منظار، أخضر فاتح في جوانبه إلى الداخل، وفي ذلك الثقب المدوّر في العمق بعيداً جدًّاً، كانت بضعة بيوت وعربات تِرام أصفر تمرّ.

"التِّرامات التي لدينا هي من أجمل التِّرامات في العالم، هل فكّرتِ في هذا؟".

"ولكني حتّى لم أسافر" علّقت يوهانه بشيء من الحزن.

"ولكنها فعلاً كذلك، التِّرامات التي لدينا، الشرطة، سعاة البريد الذين لدينا، صناديق البريد، إنها الأفضل، الأرقى، كوبنهاجن القديمة. أحبّهم".

"أنتَ اليوم شخص آخر تماماً".

"هل أتعبتكِ؟".

"لا لا لا" أجابت بنعومة "إطلاقاً".

بعدها عبروا حواجز سكك القطار، وخلّفوا كوبنهاجن وراءهم. ظهرت تلك الشوارع العريضة الطويلة والفيلات والحدائق. فجأة بانت الحقول الشاسعة المنفتحة على الأفق. مزرعة يتيمة، أحد أجنحتها ملاصق للرصيف المبلّط، سقف من القشّ وإسفلت، ومن جديد العديد من الفيلات.

"يااااه" صاح أولوف، وهو يتأمّل ما أمامه كالحالم جامداً في مكانه.

استدارت السَّيَّارة عند دوّار فيمفاين، ومنه إلى شارع يسبيرغ أليه بالأشجار العالية المعروفة. جذوع منتصبة. شارع القصر المشجّر القديم.

بانت بعدها بيوت من طراز المُدُن الصغيرة التي بدت وكأنها تدفع الأشجار إلى مجرى تصريف المياه.

ثمّ عبروا جسر السكة الحديدية الحديث، قوس إسمنتي ضخم، ومنه إلى غابة شارلوتنلوند.

"هلا توقّفنا قليلاً، لنمدّد سيقاننا؟" سأل ياستراو.

أومأت يوهانه برأسها موافقة.

دقّ ياستراو بعملة الخمس أورات على الزجاجة، ليُنبّه السائق. توقّفت السَّيَّارة. طلب من السائق الانتظار عند -فلوبابيرت- لأنهم قد يتأخّرون. ومشوا بعدها مع أولوف بينهما. كان يسير وهو ينقل النظر بين والدَيْه، شعر ياستراو بدوار، دوار الربيع، ولمنظر تلك العينَيْن الزرقاوَيْن المشعَّتَيْن. انعكست السماء في بقع ماء المطر، هكذا هو الجوّ دوماً في الربيع، سماء صافية ضاوية. وكأنه كان يسير على حافّات تلك البقع المائية التي كانت منيرة من بعيد.

ومن وجه الولد المدوّر الضاوي، انزلقت عينا ياستراو إلى الأمّ، لأعلى الذراع، إلى الكتفَيْن الناعمَيْن والرقبة البيضاء الممتلئة الباهرة، ومن صيوان أذنها الوردي الذي قرصه هواء الربيع الحادّ، صعدت نظرة الإعجاب إلى الشَّعْر الأشقر تحت القُبَّعة. كان يعلوها طيف ضوئي، جعل من الصعب النظر مباشرة إليها.

لم تتفتّح أوراق قمم الأشجار كلها بعد. وفي تلك الغيوم البُنّيّة المحمرّة والرمادية الكثيفة من الأفنان الخضر، كان للأوراق اليانعة ضباب أخضر غريب. ألا تبدو مثل دروع؟ الأخضر كان مُهيمناً. لِمَ يعني الربيع تحديداً النقاء؟ جدارٌ رطب، غابةُ ربيع. كان على ياستراو أن يُلفِت انتباه يوهانه إلى تطاير أفكاره. قال "من الممتع أن أذهب إلى أن الربيع ليس بهذا المقدار من الجمال الذي نتخيّله".

"آخ، هل ستفقد مزاجكَ الرائق ثانية يا أوله؟" أجابتْه يوهانه بتوجّس.

"لا، لا، يوهانه، ولكنْ، هناك شيئاً من الخديعة في الربيع، عليّ أن أكتشفه".

ضحك مُناكِفاً إيّاها.

اكتفتْ يوهانه بهزّ رأسها بين الحين والآخر، والنظر إلى ما بين جذوع الأشجار. ومثل غيوم صيفية بيض، لاحت زهور الأنيمون الربيعية في قاع الغابة. ولأن الأشجار تحديداً لم تُورِق بعد، ولأن ضوء الشمس تحديداً يسقط حُرّاً من بين الأغصان، فالقاع في الغابة يكون نضراً مفتوحاً، الضوء لا يكون مُعتِماً، من دون غموض كاتدرائي، ولكنْ، نقاء منقطع يعمّ السهول. وزهور الأنيمون حُرّة، لا تقبل بسقف. لا شيء لتُخفيه. زهور منطلقة واضحة مثل فوط المطبخ البيض.

"أولوف، هل ترى تلك الزهور؟ إنها زهور الأنيمون"، كان يُعلّم ابنه، وقد قطف له واحدة.

"بابا، هذه وهذه، هذه أنيمون صفراء" صاح أولوف، وهو يشير إليها.

"صحيح، أنيمونة صفراء" علّمه ثانية بوضوح طريقة لفظها."أنيمونة ...".

زمّ أولوف شَفَتَيْه وعقد حاجبَيْه غضباً، ولم يملك ياستراو إلا أن يضحك.

كانت التحويلات في رأس الطفل حادّة، ما جعلها مُضحِكَة. لم يشأ الطفل، ولا شكّ، أن يُعلّمه أحد. وقفز ياستراو وقطف أيضاً الصفراء.

"ها عندكَ واحدة بيضاء، وأخرى صفراء، يا أولوف، لا أكثر، لن نسطو على الغابة كلها. بالمناسبة، أنا لم أرَ أنيمونة زرقاء" أضاف مُوجّهاً كلامه إلى يوهانه.

وتابعوا سيرهم بهدوء. كان ممرّ المشاة في الغابة على شكل قوس، أحاط بإسطبل قصر شارلوتنلوند، واستدار مستقيماً صوب شارع ستراندفاي. وبدفعة واحدة، تمكّنوا من رؤية ما بعد الغابة، هناك حيث الضِّفّة الرملية المُصطنَعَة الصغيرة، -فلوبابيرت- وزرقة الماء وقلعة المديلغروند.

جفّف ياستراو جبهته. كان مُتعرّقاً، ومردّ ذلك إفراطه بالشرب ليلة البارحة. وهياج مشاعره؟ بلى، كان يعرف ذلك. كان ممكناً أن تكون سَكْرَتُهُ تعيسة. سعيدة؟ ولكنْ، إن كانوا سعداء، فيجب أن يعيشوا حدثاً مُبهِجاً كل لحظة!

"الآن وقت القهوة"، قال وهو يتوقّف عند مطعم -أوفر ستالن-. كانت السقيفة الزجاجية الأمامية للمطعم خالية، وبسبب الوحشة، فقد احدودبت منصّة العزف.

تناولوا القهوة في الهواء الطلق. مفرش الطاولة كان مثبتاً بقرّاصات حديدية، لئلا يُطيّره الهواء العالي من البحر.

"لمَ لا تكون هكذا دائماً، يا أوله، كي أحتمل بقائي معكَ؟!" علّقت يوهانه برقّة، وعقدتْ جبهتها المقوَّسة الخفيضة.

"لو كانت الثمالات كلها هكذا، كنتُ شربتُ حتّى الموت، ولكن ما حدث في الظهيرة، تلك النوبة".

"آه، المهمّ أنه خرج" قالت مُتنهّدة.

"أنَه - موْ - ن صفراء، أنَه - موْ - ن بيضاء" سمعا أولوف يردّد فجأة بلفظ تأكيدي، وهو يضع الزهرات على الطاولة.

همّ ياستراو بالضحك.

"لا، أوله، أرجوكَ" قاطعتهُ يوهانه مُتضرّعة، فَلزِمَ ياستراو الصمت.

وانحنى رأس الطفل الأجعد الشَّعْر على الأزهار.

"أنَه – موْ - ن" كرّر الولد لنفسه. ولمّا شعر بأنه مُراقَب وجَّهَ نظرةً ساطعة إلى الأب "اسمها أنيموو - ن" قالها بحدّة.

واستردّ الزهرتَيْن بشعور مَنْ أُهين، المرّة بعد الأخرى.

كان طريق العودة طوال شارع ستراندفاي بالمقدار ذاته من السعادة. ثمّة ثبات في مزاج ياستراو. وارتسمت على وجه يوهانه ابتسامة خفيفة مسالمة، وإن اختفت أحياناً، كان يتخلّف لها ظلّ ساطع حول شَفَتَيْهَا. وأولوف كان جالساً مُمسِكاً بقبضةٍ قوية من أصابعه على ساقَي زهرَتَي الأنيمون اللَّتَيْن كانتا على وشك الانغلاق، وقد تدلّى رأساهما.

هكذا وصلوا إلى شَقَّتهم ثانية.

أنعشتْهُم النزهة. وبردت ملابسهم لهواء الربيع الطازج الذي انتشر في غرف الشَّقَّة أيضاً، بما في ذلك الأنيمونات شبه الذابلة التي كانت على طاولة اللعب لأولوف، حلّ الربيع، الربيع.

راح ياستراو يغنّي. كان بحاجة لوصفة ضدّ خمار الليلة الفائتة، ولا شكّ، زجاجة أو ثلاث زجاجات من البيرة قبل العشاء. شرع يقرأ، وكان مُستوعِباً لما يقرأ. كان ربّما أقرب اليوم إلى الشعور بالامتنان كقارئ، أكثر من الشهور الأخيرة كلها التي مرّت.

"عظيم! من النادر أن أكون قادراً على الكتابة عندما أكون سهراناً ليلة ما قبلها" وضحك عندما مرّت يوهانه عبر الصالون "كل ما كَتَبَهُ الكُتّاب في رأيي اليوم جيّد، وهذا لا يمكن أن يكون صحيحاً".

وكأن السعادة قد وجدت طريقها، وومضت في إضاءة الغرف ذاتها. كانت منسوجة مثل خيوط ذهب في قماش الستائر. وعندما تناولوا العشاء، كان وهج المغيب رقيقاً ناعماً فوق سقف الجيران في الجهة المقابلة.

شرع يروح ويجيء، ليطلّ من النافذة. وعندما نظر إلى يوهانه، اكتشف فيها الضوء البهيج عينه. كان يرى وجهها جديداً. كل شيء اقترن بالضوء لديه. لم يكن وجهها جافّاً وخابياً كما وجوه الباقين التي تُثير المَلَل. كان جمالها كاملاً، ألم يكن كذلك؟ عندما مرّت به، كان شيء من عبق طازج قد وصله من ثوبها.

كلا، لن تتلاشى تلك السعادة. بقي جالساً عندها في غرفة الطعام، حيث جلست تُطرِّز، وبذا، فقد أدرك أنها كانت مرتخية. وقد وُضِعَ أولوف أيضاً في سريره. كان كل شيء بيتوتياً، ما جعله يبتسم بحنان وتهكّم، وقد نهض لعدّة مرّات خلال المساء، ليمرّ بها، ينحني ليُقبِّل شَعْرها. ومثل النساء كلهنّ، جعلتها مداعباته أجمل وأكثر تواضعاً. أجل كانت مُلْكَهُ.

سهرا حتّى وقت متأخّر. أُوقِدَ الشمع. جلس كل منهما على جانب من الطاولة، وكلّما نظر أعلى الكتاب، التقت عيناه كل مرّة بنظرتها الهادئة التي كانت أشدّ زرقة من أي وقت، وقد استقرّت عليه طوال الوقت. كم كان سعيداً بذلك. كاد يظنّ أنه ذاته جميل.

هل كانت الساعة الحادية عشرة؟ بل قاربت الثانية عشرة.

حينها دقّ جرس الهاتف.

"آه، أرجو ألا تكون من الجريدة؟" قالت مُتنهّدة، وتركت للقطعة المطرّزة أن تسقط في حضنها، إكليل من زهور الفيولا الثلاثية الألوان على خلفية صفراء.

توجّه إلى الهاتف، ورفع السَّمَّاعة.

"ياستراو معكَ".

"أهذا هو أنتَ، يا ياستراو؟ معكَ فيجيليا راتيس[*]. هل بإمكانكَ الحضور الآن للجريدة. هناك أمر يدعو للاهتمام، نودّ أن نُطلعكَ عليه".

هو صوت فولدوم، بطيء وحزين. شمل ياستراو شعور بالعجز. ذلك التآمر كله عليه بسبب مراجعته الادبية لكتاب ستيفاني! الآن عليه أن يتماسك، ويصفّي حسابه، ولكنْ ...

"حقّاً؟" سأل بعصبية. "ولكنْ، أليس من الممكن إخباري الآن عبر الهاتف؟".

"بلى، ربمّا، ولكنْ، لن تحصل على شيء. إنها رسالة من العجوز إلى هـ. سي. ستيفاني.

كان بإمكانه أن يُميّز تعاطفاً مزيّفاً في صوته، شفقةً مصفّاة بطيئة، قد عذّبت الضحية.

"ألا بمقدوركَ حقّاً أن تقرأها لي الآن" انبرى ياستراو قائلاً بانزعاج. "في طريقي للذهاب إلى النوم".

---

*) Vigilia ratis وتعني باللاتينية الجرذ اليقظ، وهي اسم مجموعة المناوبة الليلية لموظّفي الجريدة

"لا، يا أوله، لأنها شظايا، ليس إلا، التقطها كوندرسن بيده الطويلة المرنة من سلّة مهملات العجوز، ونحن بحاجة إلى خبير".

كان ياستراو يسمع ضحكات الجرذ اليقظ في الخلف.

"هيّا، يا فولدوم ...".

"أنتَ لا تبدو مهتمّاً؟" جاءت قوية.

"بلى بلى ..".

سمع الطّقّة. فولدوم قد أغلق الهاتف.

ظلّ ياستراو واقفاً مكانه منتصف الصالون المظلم. بمقدوره الآن أن يشعر كم كان مرهقاً اليومَيْن الأخيرَيْن. فَكّاه ارتجفا انفعالاً. لمعت الظلمة. صوت فولدوم لصق أذنه، ضاغطاً مثل شوكة. قال ليوهانه التي جلست في غرفة الطعام المضاءة: "عليّ الذهاب، يا يوهانه إلى هناك".

"مَن اتّصل؟".

"المناوبة الليلية".

"آه، ولكنْ، لا داعي لركضكَ من أجلهم".

"بلى، لقد وجدوا رسالة في سلّة المهملات عند مكتب العجوز، ويجب أن أراها، يا يوهانه. يجب. ممكن أن تكون بغاية الأهمّيّة". خطا عبر الباب إليها، وفجأة علا صوته شاكياً بانفعال. "لا يمكن لأحد أن يشعر بالأمان في هذه الجريدة. أشعر بإحساس ما في ظهري، وكأن هناك أحد يسير من خلفي على الدوام حاملاً خنجراً. سيصيبني ذلك بتخثّر في النخاع(*). لا، يجب أن أذهب لأرى فحوى تلك الرسالة".

رفعت رأسها، ونظرت إليه. "إنهم يمزحون معكَ" علّقت بصوت حزين. ولكنْ، عندما رأت ارتباكه، أضافت بحسرة: "ولكنْ، ربمّا من الأفضل لكَ أن تذهب إذاً". ونهضت من مكانها. "عدْ إلى البيت بسرعة، يا أوله، ليس مثل الليالي الأخيرة، حسناً؟ أنتَ محتاج أن تنام. ألا ترى كم أنتَ عصبيّ، وترتجف؟ عدْ بسرعة، أرجوكَ".

كانت عيناها دامعَتَيْن.

---

*) tabes dorsalis التهاب مزمن، بسبب مرض السِّفْلِس في الماضي

تناول ياستراو قُبَّعته ومعطفه، ووعد بأن يعود في الحال.

يُوقِظه الشارع دوماً. يُحفِّزه هذا الهواء الليلي البارد، والمرور والأضواء. ولكن قلبه خفق بشدّة. عليه أن يجلس، وينظر إلى وجه فولدوم، القناع المستغلق الأبيض. شغله المرور، طابور من الناس المتدافعة مثل سرب بطٍّ عبر شارع استيدغيذه، وحتّى محطّة القطار الرئيسة، على الجهة ذاتها من الرصيف. انطلق أحد القطارات الليلية، لمع في شارع ريفينتلوسغيذه خيطٌ طويل رفيع مُشعّ من المصابيح الكهربائية لخمارة الكوخ الخشبي، مثل حديقة مضاءة. كان نصف راكض نصف ماشٍ بطريقة مضحكة مثل معلّم منهَكٍ يدخل الصّفّ متأخّراً عن الدوام. فولدوم! عليه الآن أن يتحدّث بشكل صريح مع فولدوم، أن يرميه بالتهمة مباشرة. ما هذه الخدعة الوسخة؟ أثاره شارع فيستربروغيذه. روّاد المسرح الذين سارعوا إلى ركوب السَّيَّارات. لمحات من أناس بزينة المساء، أعناق عارية وفرو ومجوهرات برّاقة، صدور بقمصان بيض، قُبَّعات عالية عند مدخل مطعم -فيول-. لا بدّ وأنها الساعة الثانية عشرة. الناس في عجلة. بضعة شباب يتصارخون. رجل فقير على حافّة الرصيف، غامض وتعيس. نساء بطيئات بمشية متعرّجة سدّت الطريق قليلاً. نظرة ناعسة ومُثمِّنة. ساقا امرأة بيضاء بجوارب حريرية، وقوام مشدود مقابل الواجهات المعتمة.

لا، الوقت قد حان. سيقولها بصراحة لفولدوم. ولكن ذلك يتطلّب قلباً جامداً. بلى، لديه هذا القلب. برود؟ الهواء كان بارداً. الطريق انعكس مثل طلاء لمّاع. كان البنزين شديد اللمعان، حين حفّ ضوء مصابيح التِّرام وهو يعبر بهم. نعم، ذلك كله له تأثير مُحفِّز. توهّجت لافتة -سكالا- الحمراء، وتلاشت مصابيح مطعم -ستاديل- الزُّرق. وعالياً في سماء منتصف الليل السوداء، برزت العيون الصفر مَغشيّة لساعة مبنى البلدية.

كان شارع فيستربروغيذه الليلي يفعل فعله مع ياستراو دوماً، مثل أخذ حمّام منعش، ولكنه حين قطع الساحة، تضاءلت شجاعته وطاقته. كان مُقبِلاً على نِزال قُوّة، لا تُقهَر. كان المبنى في الزاوية، -داوبلاذيت- بالجريدة الضوئية الوامضة مثل رباط ناري على طول السقف، ببرق الإعلان الضوئي تحت عند الشارع الجانبي الأدهم، حيث كان في العمارة ذاتها دار سينما، نسيها الناس، في الزاوية من اسم -داوبلاذيت- بالحروف اللاتينية الحُمر العقلانية مثل روح الجريدة عندما تلتزم جانب الوضوح.

فولدوم أطلق على هذا المبنى اسم بيته.

عندما صعد ياستراو إلى البهو، كان هناك ثلاثة من المناوبين قد جلسوا عند الطاولة الخضراء سوية مع آرنه فولدوم. اللّبّاد الأخضر على الطاولة والجدران المَطلِيّة بالأصفر أضفتْ

عليهم صفة رسمية، فبدوا وكأنهم قُضاة، برغم ملابس الصحفيّيْن الخشنة البالية، بسبب السفر والتّسكّع، الجاكيتات الفضفاضة المتورّمة من المخطوطات في جيوبها الداخلية، المُبقّعة من أقلام الحبر غير المحكمة، بطريقة أخرى، زيّ مُوحّد. كان فولدوم الوحيد الأنيق بينهم. ولكنه كان مُنضمّاً إلى مجموعة المناوبة الليلية -الجرذ اليقظ- على سبيل المزاح. لأن الثلاثة الآخرين كانوا صارمين بجدّيّتهم في المؤسّسة.

أمّا قسم التحرير، فقد كان مقفراً. وفي داخل سكرتارية التحرير، كان هناك مصباح زيتيّ مُوقَد، ولا شكّ، لكنه كان صاعداً في طريقه إلى قسم التنضيد، ولم ينزل قبل إتمام الجريدة. مكتب رئيس التحرير في الزاوية، كان مظلماً. كان المحرّر إيفرسن قد غادر. السعال والدمدمة غير المفهومة صدرت فقط من غرفة العاملين في قسم الرياضة فقط.

"إنه إيريكسن كالعادة" علّق فولدوم.

"ثملاً؟".

أومأ فولدوم برأسه موافقاً، وتابع بطريقة لاذعة: "كنتَ سهراناً معه بالتأكيد ليلة البارحة. لوندبوم قال إنه اضطرّ إلى رميكم خارج البار أخيراً".

"ولكنْ، لم تكن هناك خسائر، صح؟" سأل ياستراو بحَرَج. ها هو يخسر مُسبَّقاً أمامه. لن يكون هناك تصفية حسابات.

"كلا، لم يكن هناك شيء. بضعة أقداح تكسّرت، لا غير" قال فولدوم مواسياً بتعالٍ.

نظر ياستراو إليه بتوجّس.

"ولكن موضوعنا هو الرسالة" قال كوندرسن ذو اليَدَيْن الرشيقَتَيْن، والنّظّارة ذات الإطار السميك والزجاج السميك، وشارب أسود فوق شَفَتَيْن أفريقيَّتَيْن حمراوَيْن مزرقَّتَيْن. "بالتأكيد، ستحلّها، اسمكَ مذكور فيها".

ودفع بحذر بضع قصاصات من رسالة ممزّقة على اللّبّاد الأخضر. كانت القصاصات قد صُفّت إلى بعضها، ولكن الرسالة لم تكن كاملة.

"ولِمَ لم تجد القصاصات كلها؟! غباء منكَ" علّق روستروب. كان له شَعْرٌ مثل قشٍّ معفّن، شبه الشيطان، بسبب البثرة الكبيرة مثل قرن وسط جبهته. كان واجبه كمناوب كل ليلة عند الثانية عشرة حين يغادر إيفرسن مكتبه أن يقوم بتفتيش أدراج طاولة رئيس التحرير وقراءة كل ما تقع عليه عيناه.

"لم يكن هناك غير هذه" اعتذر الثالث من بين المناوبين، هويسغورد ذو الشَّعْر الأشيب الذي كان عمره سبعة وعشرين عاماً. عندما يكون نشطاً جدَّاً لا يكتفي فقط بطاولة المحرّر، بل كل ما يفيض من سطحها، كان من حصّته، ولم يكن هذا بالقليل. رسائل من موظّفيه القدماء والجدد، رسائل المشتركين في الجريدة وأصدقاء الجريدة، نقد وشكاوى ومديح والتّعدّي.

كانت الرسائل كلها تُقرأ بصوت عالٍ في المناوبات الليلية. "لقد ساعدتُهُ بإيجادها" أضاف.

"لو كنتُ وفّرتُ عليكَ هذا العناء، يا هويسكورد" علّق فولدوم بسخرية. "سلّة المهملات، في الحقيقة، تلزمها أصابع طويلة رشيقة كالتي لدى كوندرسن."

شعَرَ كوندرسن بالزهو للمديح. ككل الموظّفين اليافعين كان هو الآخر معجباً بخباثة فولدوم الشاعرية.

انحنى ياستراو خلال ذلك على قصاصات الرسالة، ليقرأ

زيز ستيفاني
شكر حضرتك لـ .....
يا لـ.. عمقها وإنسانيّتها
جدَّاً. لا أفهم كيف
...، ولكن النقد بمفهومي
ولكن هناك شخ
ابن لا أعرف. ذلك
لا مزيد من القصائد..
برأيي قبيح، محمول سطحي
راو، محرّري الأدبي
..، إنه شابّ بحقّ
مبدأ الجريدة أن ...
.. يعني

كان الهدوء يعمّ قسم التحرير. جماعة الجرذ اليقظ حملقوا مع فولدوم بانشداد إلى ياستراو، وتبادلوا النظرات.

ومن غرفة الرياضة، سعَلَ إيريكسن، وهَمْهَمَ مثل حيوان.

"هل فهمتَها؟" سأل فولدوم.

عدّل ياستراو رأسه، ولكنه لم يقوَ على النظر إلى أيٍّ منهم. كانوا يشبهون المحقّقين، بل أسوأ، من محاكم التفتيش بجلستهم عند الطاولة الخضراء، يرصدون مناطق توجُّعه.

"نعم، لا يمكن حلّ لغزها" علّق كوندرسن. بدا كاذباً.

"لا؟" سأله ياستراو محاولاً أن ينظر طويلاً بعينَيه رغم أن كل شيء كان قد رقص وومض أمامه. "بلى، مكتوب إن العجوز كان سعيداً بكتاب ستيفاني، وإن ابن ستيفاني لن ينشر المزيد من القصائد، وإنني سرعان ما يُرمى بي كناقد في هذه الجريدة الملعونة".

"برافو، قراءة ممتازة" صاح فولدوم. "ولكن آخر الرسالة كان ترجمة حُرّة جدّاً منكَ" وضع يده على كتفه "لم يذكر غير أنكَ شابّ فحسب".

نهض ياستراو، وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة ليتخلّص من طبطبة الظهر هذه.

"عفواً لحظة" وتوجّه إلى المرحاض خلف القاعة.

لكنه تسلّل دفعة واحدة، فتح الباب بحذر، واندفع إلى السّلّم الخلفي للتحرير، ومنه إلى الشارع.

لم يستطع أن يخفي هزيمته بشكل آخر. كان عليه أن يهرب.

عندما همّ بدَسّ المفتاح في الباب عند المدخل، فتحت له يوهانه من الداخل.

"ها أنتَ قد عدتَ" قالت بحنان.

"طبعاً".

أغمضتْ عينَيْها، وتركتْ له أن يُقبِّلها.

الجزء الثاني
هو ذا الإنسان!

الفصل الأوّل

كان أيّار، وقد مرّ عام.

في يوم هبوب ريح قوي وشمس مشرقة، جاء أوله ياستراو ماشياً صوب ساحة البلدية. كان يحمل تحت ذراعه طرداً ملفوفاً بورق خفيف مجعّد بطريقة عفوية.

ماجت أشجار شارع فيستربروغيذه الباريسسية بحِمْل الورق المذهّب لأغصانها الطويلة، ومثل بالونات نفخ الهواء الفساتين القصيرة للنساء المسرعات، والتي عادت من ثمّ، لتُغطّي الأرداف والأفخاذ.

التقى في طريقه آرنه فولدوم الطويل خارج مطعم -المظلّة- عند أشجار اللبلاب والغار، كان متبختراً في سيره، هيكلاً عظمياً أنيقاً مُتروّياً بوجهٍ أبيض تحت القُبّعة الجامدة شَبَه قبّة -سانت بيتر-.

"في طريقكَ إلى الجريدة، يا ياستراو؟" سأل بسخرية مهذّبة.

"نعم، أستجمع قواي لذلك".

"سيكون مناسباً، إذاً، أن تدعوني لتناول زجاجة بيرة خلال ذلك".

أومأ إلى رصيف مطعم المظلّة برأسه. دخلا باستدارة من حول اللبلاب، وجلسا عند طاولة، كان مفرشها مرفرفاً.

"كنتُ في الأساس في الطريق إلى لقاء الأب غارهامر" علّق فولدوم، ووضع بأناة كتاباً على الطاولة، كي لا تُطيّر الريح مفرش الطاولة.

"لِمَ تتردّد هكذا كثيراً على الكاثولوكيّينْ؟"

"لأحافظ على حسّ الأبدية لديّ. البشر، لِمَنْ هُمْ مَنْ مثلي يعيشون في نُزُل بحاجة لذلك. تمرين فكري نوعاً ما".

"مَنْ يتصوّر أنكَ تفتقد ذلك!".

"لا؟" رفع فولدوم رأسه بمرح. "هلا أخبرتَني، إذنْ، أين يمكن لي أن أحصل عليه؟ في المكتبة؟ لا! قد تُفتّننا جميعاً من شدّة المعرفة".

ولكنْ، صدقاً لا شيء غير الروايات البوليسية ما يثيرنا إلى تلك الدرجة، آه، كان يجب أن تكون معنا عندما صدرت -الملاكم الصادح- لترى بعينكَ، الكبار لا يتذكّرون أن مثل هذا الهرج كان منذ أيّام مسرحيات إبسن. أمّا الجريدة؟ إيه، لا أدري إن كنتَ تُسمّي العمل فيها تمريناً فكرياً. مذ انتقل كرويه إلى جريدة -دنمارك- لم يعد هناك تقريباً من أحد يمكن التّحدّث معه. بلى، أنتَ، ولكنْ، عدا ذلك .." أضاف فولدوم بطريقة مهذّبة.

"كرويه! حقيقة لم أتحدّث معه سوى مرّة واحدة." أجاب ياستراو مبتسماً.

"آآآ، عندما كان يتصيّد ناخبين، نعم، ولكنكَ كنتَ مرحاً بدورانكَ حولهم، لكي ترى عدد الموظّفين من المحافظين بيننا في الجريدة الذين كان ينوي ضمّهم إلى جناحه".

"هاها، لم يجد إلا هويسكورد وميكيل الصغير".

"نعم، وأنا أيضاً" قاطعه فولدوم، "ولكني بقيتُ".

لحظتها وُضِعَ أمامهما على الطاولة كأسا بيرة ضخمتان. نفخت الريح بالزبد حتّى وصل الرذاذ وجه فولدوم.

"من الأفضل أن نُوقِف هذه الفورة" قال وقد أمسك بثبات الكأس الذي تطلّب قُوّة يدٍ لحمله.

"بالمناسبة، سنلتقي به يوم الخميس" تابع فولدوم بعد أن مَسَحَ وجهه من الرغوة.

"مَنْ؟".

"كرويه".

"الخميس؟"

"نعم، ألن تأتي لزيارة أويفند أنتَ أيضاً؟ هو الذي أخبرني".

نظر ياستراو إلى فولدوم مُتفاجِئاً.

"بلى، ولكنْ ...".

"بلى بلى، سنأتي أنا وكرويه. وستكون مناسبة جميلة أن أحظى برؤية زوجتكَ الجميلة أخيراً".

"آمل ألا يخيب أملكَ، إنها في رحلة مع أخيها بالسّيّارة، وقد تطول. أنا رجل أرمل هذه الأيّام."

"أنتَ تلعب هذا الدور كثيراً جدّاً في رأيي" قالها فولدوم بحدّة.

رفع ياستراو الكأس إلى فمه. كان بحجم كافٍ، لكي يخفي وجهه من خلفه. وعندما أعاده ثانية إلى الطاولة، أجابه: "لا، أنتَ مخطئ. نادراً جدّاً ما أفعلها".

"أنتم الأزواج!" تناول فولدوم سيجارة، ودقّ طرفها على الطاولة قبل أن يُشعلها. تطاير الشَّرَر منها. "هل ترغب بسيجارة؟".

هزّ ياستراو رأسه نفياً.

"للسيجارة أمر سلبي واحد، هو أن أطراف الأصابع تصير بلون بُنّيّ" علّق فولدوم وهو يتفحّص أصابعه.

"ما الكتاب هذا الذي معكَ، بالمناسبة ؟" سأل ياستراو.

"آ، إنها مُجرّد هدية للأب غارهامر. بعض من كتابات بول هلغيسن(*). عثرتُ عليه عند بائع الكُتُب المستعملة. وما الذي عندكَ هناك؟"

ابتسم ياستراو بتواضع. "مُجرّد لوحة. لا مانع لديّ إن وددتَ رؤيتها." أزاح بحذر الورق عنها.

كانت لوحة لفتاة شابّة، بشَعْر أسود ثقيل. بلوزة مخطّطة. بسيطة جدّاً. دبّوس زينة مثبّت على الصدر. هذا هو كل ما عليها. مظهرٌ يبدو فقيراً، ولكنْ، هناك قُوّة غامضة في العينَيْن الغامقتَيْن، وفي عَظْمَة الأنف العريضة، ومرارة ما حول فمّ تلك الشّابّة.

صرّ فولدوم عينَيْه بحِرَفيّة، وزمّ شَفَتَيْه.

"هل هي قريبة لكَ؟"

نعم، إنها أمّي. عدتُ للتّوّ من أخي غير الشقيق، وقد سطوتُ عليها".

أعاد فولدوم اللوحة بأناة إلى مكانها. "إنها لوحة جميلة" قال بمهارة وهدوء، وبانتقالة غير محسوسة تقريباً إلى الحميمية: "هل ماتت؟".

---

*) (Pual Helgesen 1485-1534): عالم لاهوت كاثوليكي، كان له دور مركزي في الإصلاحات في الدنمارك. كان متأثراً بأفكار لوثر الإصلاحية ولكنه انقلب ضدّ علمه وفكره وتطبيقاته

"منذ سنوات عديدة".

"هل تتذكّرها؟".

"قد لمحتُها بالكاد الآن. كان عمري ثلاث سنوات عندما ماتت".

لم يقل فولدوم شيئاً لمُدَّة طويلة. كانت له طريقته الخاصّة بالجلوس بوضع جامد والتفكير، فيبدو شبيهاً برجل من رجال فلورنسا.

"أمر سيِّئ" قال أخيراً.

"ماذا؟" سأل ياستراو الذي لفّ اللوحة ثانية بعناية. خشي أن تُتلف هكذا على الطاولة بين كأسَي البيرة.

نظر فولدوم إليه. رافقت ابتسامته بعض سخرية.

"أعني أن الأمّ يجب أن تعيش طويلاً، لكي نكتشف أنها امرأة حسب، وإلا فسيكون الأمر صعباً باقي الحياة".

"لم أفهمْكَ تماماً".

ضحك فولدوم "أتخيّلكَ شهوانياً مُوقّراً، أليس صحيحاً، يا أوله؟".

"هكذا، إذنْ؟" قال مُعترِضاً.

"متعبّد العذراء. فارس الأخوات الراهبات. بينما أنظر إلى البلشفي، صديقكَ، لا أظنّه بريّ من متعبّدي العذراء. يمكن رؤية ذلك واضحاً على تلك البنت الصغيرة التي معه".

رفع ياستراو نظره، فلمح قامة ستيفان ستيفينسن الطويلة الهزيلة. كان يمشي كعادته ويداه في جيبَي بنطلونه. رفرف كل من الجاكيت والبنطلون تحت الريح. كانت جزمته قد تشقّق جِلْدها، ومن الواضح أنه لم يصبغْها منذ زمن طويل. لم يلحظْ ستيفينسن شيئاً.

من خلفه، كانت امرأة. من عادته أيضاً ألا يتحدّث معها، ولكنه يجرّها معه حسب من مكان لآخر. لم يتبيّن ياستراو وجهها، لأن الريح قد حرّكت خصلات من شَعْرها فغطّت عينَيْها. ألقتْ برأسها إلى الوراء وجمعت شَعْرها من على جبهتها، حاولت أن تدسّه تحت القُبَّعة، ولكنها لم تُفلح. كان ذيل الحصان أسوداً، كما ظنّ ياستراو.

رأى جسدها الذي تقمّط بفعل الريح بالفستان البُنّيّ والقطعة الفاتحة البالية من فوقه، كان قصيراً ممتلئاً، يكاد مرّة يعجز عن المضي في المشي، بسبب عصفة ريح مُفاجِئة، ومرّة يتقدّم بقَدَم صلبة.

تمعّن فولدوم بها بعينَيْن مرصوصَتَيْن. قال معلّقاً:

"هل تعقل أن طفلةً مثل هذه تقبل بهذا؟".

ابتسم ياستراو لقوام المرأة. كان للقطعة العليا حزام، قد تدلّى طويلاً على فخذَيْها بنهايَتَيْه، فبدت من الخلف عريضة بشكل مضحك.

"ماذا قلتَ؟" قال بمداراة. "ولكنها ليست جميلة".

"بنت ثقيلة، ولكنْ، لا بأس بساقَيْها".

استهجن ياستراو ذلك بينما اختفى ستيفينسن مع البنت داخل المقهى.

"سيطلب قهوة وقطعة خبز لها، وزجاجة بيرة له " قال فولدوم متفلسفاً. "ما قولكَ بكأسَي بيرة أخرَيَيْن. لديّ كرونة واحدة، أساهم بها نقداً".

أومأ ياستراو برأسه سارحاً. لم يرَ ستيفينسن مذ طَرَدَهُ من البيت. استدعى بدفعة واحدة تلك الأيّام التي كانت مقدّمة لشعوره بالشّكّ الكبير والقلق. كان حينها مايزال مسؤول المُراجعات الأدبية لـ -داوبلاذيت- ولكنْ، كم امتدّ ذلك؟ لم يكن في حياته قد عاش مثل هذا الكَمّ من المجادلات مع شعراء مغبونين، كما في هذا الخريف. لقد شعروا بأن منصبه مهدّد. التقط المناوبون الليليون رسائلَ من سلّة المهملات، رسائل من مُتقدّمين في السّنّ، شعراء مُهمّين، ألقوا عتبهم بلطف على المحرّر إيفرسن، بسبب سماحه لشابّ في مقتبل العمر، ليكتب مراجعات الكُتُب الأدبية. ياه، كانت هي تلك الأيّام بداية الـ ..

أدار ياستراو ظهره ببطء للريح. ذلك أمدّه دوماً بالقُوّة. بينما كان فولدوم بوجه الريح.

"فولدوم" قال ياستراو بلطف ونظرة راصدة "لِمَ حقيقةً لعبتَ معي تلك اللعبة حول مراجعتي لكتاب ستيفاني حينها، تضرّرتُ كثيراً بسبب ذلك؟".

نظر فولدوم إليه مُتفاجِئاً، وكانت الريح أيضاً في وجهه. انقلب وجهه تماماً.

"يا عزيزي أوله، ألا تفهم؟ هل اعتقدتَ حقّاً إن بإمكاني أن أضرَّكَ. ولِمَ أفعل ذلك؟ إن أردتُ أن أكتبَ مراجعات عن الأدب الدنماركي، فلِمَ ..." وحرّك يده بلياقة مُحتجّاً.

نظر ياستراو مباشرة في عينَيْه لثانية قصيرة.

"أنا لم أفهم إطلاقاً".

"ولكنْ، يا أوله" قال فولدوم بلطف. "لِمَ لمْ تحدِّثني حول ذلك حينها؟ هل قضيتَ عاماً بأكمله معذِّباً نفسكَ بتصوُّركَ هذا؟ يا لكَ من شكّاك كبير! ولكنْ، صِدقاً، لا أظنّ أنكَ تحبّني؟".

كان في نظرةِ فولدوم إدراك ساخر لقوله.

"كلا، ونعم" أجاب ياستراو بخجل.

"اسمعْ، أوله، أنا أفهمكَ جيِّداً. ولكنْ، لنستمتع قليلاً بما ستخبرني: ما الذي لا يعجبكَ فيّ؟"

كان ياستراو يُفضِّل تجنُّب هذا. استهجن بحركة من كتفَيْه السؤال.

"هكذا ...".

"رمقه فولدوم بنظرة مشاكسة.

"هل تفضَّل عليّ ذاك البلشفي، الذي رأيناه قبل قليل؟".

"كلا، ونعم".

"مفهوم، فذوقكَ كان دائماً منحرفاً" عارضه فولدوم قائلاً، ووضع يده على كتفه. "أرجو أن تعدني ألا تكون سريع البديهة، وتقول لهذا أنتَ تحبّني. وها هي البيرة قد جاءت على يد النادل رَقْم واحد، ما الذي نريده أكثر من هذا؟ ألا تراه منظراً رائعاً، النظر إلى سيِّديْن كبيرَيْن رائعَيْن مع كأسَي بيرة، وفي مواجهة الريح؟ لاحظْ هذا الشَّعْر الأبيض".

"بيرة!" قالها ياستراو بعنف، وهو يفكّر بستيفينسن.

بعد أن رفعا الكأسَيْن، وأخذا رشفة عميقة، جلس فولدوم، وراح يُحدِّق طويلاً بالكأس. قال أخيراً:

"عليكَ أن تكون أكثر تطلّباً وتمييزاً لمَنْ تختار مرافقتهم يا أوله".

"ما الذي تريد قوله؟" جاءت مثل فرقعة من ياستراو.

"أقصد ذاك الشّابّ، ستيفاني" وأومأ فولدوم برأسه صوب المقهى.

"إيّاه! قد طردتُهُ من بيتي منذ زمن طويل" قالها ياستراو، ولكنه شعَرَ الوقت ذاته أنه قد خيّب أملَ صديقٍ به. لِمَ يعتمل بداخله هذا الشعور بتأنيب الضمير تجاه هذا الستيفينسن؟

"إذنْ، قد عرفتَ أنه مجرم".

"مجرم؟ ليس أكثر منكَ ومنّي".

رفع فولدوم كلتا يَدَيْه الكبيرتَيْن الشاحبتَيْن مُعلِناً عن براءته.

"لا، أنا على الأقلّ لم أنقل عدواي إلى امرأة. ولا أدري عنكَ".

"ما الذي تقوله؟ هل فعل ستيفينسن ...".

"نعم" وقد زمّ شَفَتَيْه.

"كيف علمتَ بذلك؟"

"من الأب ذاته".

لم يجبْ ياستراو. خطر بباله شيء، له علاقة بما قاله فولدوم.

"إنه العجوز ستيفاني بعينه هو مَنْ أخبرني" تابع فولدوم. "كان متسامحاً جدّاً معه، بالمناسبة، تعرف كم هو محزنٌ لأب. قال لي بنفسه، حين يضطرّ الأب بنفسه إلى الاعتراف بأن ابنه مجرم، فحضرتكَ، بالتأكيد، تفهم" وساد بعدها صمت ناطق جدّاً.

"لا أعتقد أن ما أخبركَ به صحيح" احتجّ ياستراو بصوت خفيض أقرب منه إلى الحزين.

"عندما يقول الأب ذلك؟ الخادمة في بيتهم هي التي دفعت الثمن. وقد هربت مذهولة، تعيسة ومريضة. مآلها وأين انتهت، لا أحد يعرف. ولا شكّ أن حياتها انتهت. فتاة خادمة في بيت أغنياء. أنت تعرف لا أسهل على الإبن من أن يُغرّر بهكذا فأرة بيت، عليهنّ دائماً أن يكنّ عيّنات تجارب. لكنْ، يا لها من وضاعة! كان للتّوّ قد أنهى الثانوية. أوف ..."، قَلَبَ وجهه، وعبّ البيرة، لتغسل انزعاجه.

"وهلْ عَلِمَ ...؟"

"آه، لم تكن تلك هي المرّة الوحيدة. كانت هناك سلسلة من الخروقات الوضيعة من قِبَله عندما كان في بيتهم في أورهوس. إنه حيوان".

عقد فولدوم حاجبَيْه، وهزّ رأسه.

"لم أكن أعرف أنكَ أخلاقي".

"كلا، لستُ كذلك، ولكنْ، هناك شيء لا يمكن أن تجد له تسمية غير الحيوانية. لا بدّ هناك من قِيَم".

مطّ ياستراو شَفَتَهُ ازدراء.

"هلا شربنا ما تبقّى، يا أوله، عليّ الذهاب إلى الأب غارهامر، لأجل هذا الكتاب. هل ترغب بمرافقتي؟ نحن ولا شكّ بحاجة إلى استنشاق هواء أكثر نقاء؟".

أومأ ياستراو برأسه موافقاً، ونادى على النادل. راح فولدوم مفتعلاً حركةَ مَنْ يفتّش في جيب الصديري عن الكرونة النحاسية. ابتسم ياستراو، وهزّ رأسه.

" الشكر كله للمشروب" نهض فولدوم، وانحنى بلياقة وأدب.

بعد أن دفع ياستراو الحساب، نهضا، وراحا يسيران في شارع فيستربروغيذه مع الريح، والشمس في أعينهم.

"ألم تكن في طريقكَ إلى الجريدة؟" سأل فولدوم، وانحنى إلى الأمام بزاوية، وهو يُبقي يده قابضة على قُبَّعته بثبات.

"بلى" قال ياستراو الذي أدار وجهه، بسبب أشعّة الشمس. "ولكن الكُتُب لن تهرب منّي. بإمكاني دوماً الذهاب لجلبها. وفي هذا الوقت اعتاد العجوز أن يكون في مكتبه، وأنا لم أعد أطيق رؤية وجهه. لو كان قد وجد بديلاً، ليضعه محلّي، لكنتُ قد تبخّرتُ باللحظة".

"تتصوّر ذلك؟".

"طبعاً، متأكّد تماماً. لم أعد جديداً، والجريدة بحاجة إلى تنويع. آه، لو كان لي إمكانية مادّيّة، لرميتُ القذارة كلها بوجهه مباشرة".

"ستكون، من دون شكّ، الأذكى" علّق فولدوم بهدوء وباختراق، وكأن الفكرة من دون شعور، ستحتلّ عقل ياستراو. "أربع، خمس سنوات، أليست فترة طويلة مذ بدأتَ العمل؟ ولكن ذلك طبيعي أيضاً. هل مكث مَنْ شغل الوظيفة قبلكَ فترة أطول؟".

"آه، ذلك بسبب البَلَه، هذا اللاأمان والقلق" قالها بغضب. "وعليكَ أن تبقى هادئاً، ناقداً غير متحيّز لحزب، وغير مرتش، ولكَ أعداء من الأطراف كلها. ذلك أسوأ من الوقوع بحُبٍّ بَغيٍّ".

وصلا شارع ستينوسغيذه.

"هل ترى ذلك الإعلان عن محلّ غسل الريش هناك؟" قال فولدوم بغموض، وأشار عالياً إلى نافذة في الطابق الأوّل من عمارة في الزاوية. خلف زجاج النافذة كان الريش يسبح ويلفّ بلا انقطاع حتّى بدا كل شيء أشبه بضباب كوني. "له أهمّيّة أكبر للكهنة هناك، أكثر ممّا تتصوّر. إنه الاكتشاف العلمي العالمي، كما يقولون ويضحكون بعدها. يجب أن تلتقيهم. إنهم مثل الصبيان عندما يكتشفون شيئاً من هذا القبيل. ولكني لا أظنّكَ تعرف شيئاً عن المزاج الكاثوليكي. إنه ظريف جدًّاً".

الانطباع الذي تشكّل عن شارع ستينوسغيذه كان مُربِكاً حتّى وصلا كنيسة -قلب المسيح- ببرجها والبوّابة المقوّسة المُدبَّبة. صار الشارع بعدها أكثر استيعاباً. وفيه انحشرت الكنيسة الحمراء مع صَفٍّ من البيوت السَّكَنية، البيوت الحمر التي تشبه بيوت الأديرة، بيوت القساوسة، ثمّ المدرسة إلى اليسار، وسكن خاصّ إلى اليمين، كانت العدوى قد انتقلت إليه، ولا شكّ من الكاثوليكية، فمثلت أمامهما قمّة مُستدَقّة عشوائياً. مَلمح القوس المُدبَّب في العِمارة يُنبئ عن امتداد المَلمح الورع على طول هذا الجانب من الشارع. أمّا المباني البروتستانتية على الجانب الآخر من الشارع، فبدت كأنها شَفَق.

فولدوم العارف طريقه صعدَ السّلّم الحجري لمبنى القسّ الأحمر، ودقّ الباب، وعبر النافذة، رأى كل منهما بوّاباً فقيراً برقبة مَحنية، وعيون كلب يهرول صوب الباب، ليفتحه.

ما إن سأل فولدوم بابتسامة طيّبة عن الأب غارهامر، حتّى أدخلهما البوّاب، هو وياستراو إلى حجرة الاستقبال. وسرعان ما أصابت الخيبة ياستراو.

وما الذي كان يتوقّعه؟ ربّما شيئاً مختلفاً تماماً، مثلاً جدران كلسية عارية، قطع أثاث زاهد. ولكنْ، ليس تلك الطاولة المستديرة، ولا الإناء الوردي للبطاقات الشخصية بحافّته المذهّبة. ولا المِشْجَب العمودي القبيح المشؤوم الذي انتصب في زاوية، وكأنه في بار. كان أسوأ ذوق على الإطلاق، قديم ورخيص، مُملّ للأرواح القلقة العطشى التي تحلم بنوافذ كنيسة، وعطر بخور.

شعر ياستراو بالضِّيق وهو جالس. أحسّ أنه في حيّز غريب عليه. ظلّ يُمعن النظر في البيوت المعتمة على الجانب الآخر من الشارع بحنينٍ، البيوت الدنيوية اليومية بمحلاتها، بينما راح فولدوم يعبث بالبطاقات الشخصية في الإناء، من دون حرج، متناولاً بطاقات، ليقرأ ما كُتِب فيها.

"يا له من مكان فظيع! ألا تظنّ معي ذلك؟" قالها لياستراو بازدراء.

حينها انفتح الباب، وبرز الأب غارهامر ببدلة سوداء يسوعية طويلة، وحزام عريض أسود، خجولاً، يميل جسده بمشيته قليلاً إلى الجانب، حتّى واجههما تماماً، فلبسَ وجهَ السلطة وابتسم. كان له رأس صغير، ووجه رجل من جنوب أوروبا داكن البشرة، حتّى ابتسامة فمه ذي الشَّفَتَيْن الطويلَتَيْن كانت مُلفِتة جدّاً. ابتسَمَ مثل مضيفةِ استقبال في نُزُل، بودٍّ ودهاء مُبقِياً رأسه مَحنيّاً بتواضع.

انحنى فولدوم له مثل ابن، وقامَ بتقديم صديقه إليه، المحرّر أوله ياستراو، فعلّق الأب غارهامر بالحال، بلكنة ألمانية واضحة، أنه قرأ مقالاته جيِّداً.

"لا نتّفق في الآراء" قالها بنغمة سخرية بعض الشيء ولكن اللكنة قد حوّلتْها إلى غُنُج. "ولكنْ، تفضّلْ، اجلسْ حضرتكَ، وقلْ لي ما الذي تريده منّي؟" انبرى قائلاً، وجلب كرسيه بحركة امرأة في زيارة. ابتسامته العريضة سطعت من أبٍ، يتقبّل الاعتراف.

"وددتُ حقيقةً أن أهدي حضرتَكَ شيئاً صغيراً قد وجدتُهُ، هدية صغيرة تُمثِّل، رغم أن ذلك قد يبدو مستحيلاً، اعترافات بول هلغيسن، أنتَ تعرفه، الكاثوليكي الدنماركي من عصر الإصلاحات" أجاب فولدوم، ووضع كتاباً قاتماً مهلهلاً على الطاولة.

"هذا لطف كبير منكَ" قال القسّ، وفتح الكتاب مجاملة "ما كان يجب أن تفعل ذلك، سيِّد فولدوم، هذا كثير صِدقاً. قلبكَ طيّب".

أحنى فولدوم بأدب قامته التي تشبه هيكلاً عظمياً "يسرّني أن أقرأه"، تابع الأب "وسيُسّر الآخرون في المكتبة، سيكون بالطبع من ضمن مكتبتنا".

ورفع الأب عينَيْه سريعاً من على الكتاب، وحملق بياستراو مستغرباً. كانت عيناه مُتسائلَتَيْن.

رفع فولدوم من ساقَي بنطلونه قليلاً، وقال "نعم .." كان قد لمح نظرة القسّ، فتابع "لقد جلبتُ صديقي معي، لكي يرى البيت الدافئ الذي تقيم فيه. يمكن لرجل تقدّمي مثله أن يستفيد من ذلك، بمرور الوقت".

اعتدل الأب غارهامر فجأة بجلسته.

"هل تؤمن بالتّقدّم؟" سأل متهيّئاً باللحظة.

"نعم، أعتقد ذلك" أجاب ياستراو متهرّباً، وقد رأى باللحظة ذاتها كيف صار فولدوم أطول بقامته، ينظر إليه من علٍ بعطف. شعَرَ وكأنه قد تمّ التّخلّي عنه.

"إذاً، حضرتكَ تؤمن أن الوقت حان لبداية نظام عالمي؟" قالها الأب بسرعة ووضوح. ولم يبتسم هذه المرّة. كان ينتظر ردّة فعل خصمه اللامعة.

"أنا لم أهتمّ بخَلْق ونشوء العالم يوماً" قالها ياستراو، وضحك. كان فولدوم محايداً ساكتاً في مكانه.

"ولكن حضرتكَ مُضطرّ لذلك، سيِّد ياستراو، إن كنتَ تؤمن بالتّقدّم" قالها الأب بانفعال مُتحمّساً للنقاش.

نظر إليه ياستراو مُستفسراً.

"بلى، ستضطرّ حضرتكَ لذلك" تابعَ الأب مسرعاً، "لأن نظام العالم لو كان بلا نهاية، لكان كل شيء قد وُلِدَ الآن، ولكُنّا الآن نعيش الكمال الأمثل. وأنا لا أعتقد أننا كذلك" أنهى كلامه بتهكّم، فابتسم فولدوم مؤكّداً معرفته بذلك.

تقلّص ياستراو.

"أوه، التّقدّم مشكلة سطحية" أجاب ببعض انزعاج. "لا تهمّني كثيراً. أنا أؤمن بالتغيير فقط".

"وليس بالهوية؟" سأله غارهامر مُفتعِلاً المُفاجَأة.

"حسناً، هناك شيء من نظرية نيتشه حول العَوْد الأبدي" قاطعهما فولدوم بقوله دافعاً بذلك ياستراو جانباً، وكأن الموضوع أكبر من أن يستوعبه.

"نعم، إنه الجحيم" اعترف الأب غارهامر، واستدار بكرسيه ثانية مثل سيِّدة صوب ياستراو.

"إذاً، فالتّقدّم لا يهمّكَ، سيِّد ياستراو، حدِّثْنا ما الذي يهمّ حضرتكَ، إذنْ؟"

كانت طريقة التفكير غير واقعية إطلاقاً. وكأن اللاواقع قد انتشر من حوله. صارت البيوت على الجانب الآخر من الشارع جَمْعَ غيومِ مطرٍ. الطاولة المستديرة، إناء البطاقات والمِشْجَب القاتم، كل شيء يعوم بشكل عجيب مثل أثاث قد وُضِعَ على ناصية الشارع، بأمر مصادرة أموال من قِبَل حاجب الملك، وقد جلس هناك كلّ من فولدوم والأب غارهامر على تلك الكراسي في الناصية. فجأة توضّح لياستراو كم كان كلاهما أنثوياً، فولدوم الطويل العنيد الذي لا يمكن أن يكونه غير ذوي الشَّعْر الأحمر، والأب وجشعه لخَلْق مشاكل جديدة سود صغيرة ميّتة، وهو يعضّ باستمرار شَفَتَيْه الطويلتَيْن. ولكنْ، مَنْ هو أكثرَ فظاظة وعناداً من العجائز العوانس؟

"أنا غير مهتمّ بشيء عدا نفسي" أجاب ياستراو بحذر مُتجنّباً ابتسامة فولدوم الباردة. "وأعني اهتمامي بعلم النفس، وما هو في قاع الروح، ومهتمّ جدًّاً أيضاً بكيفية بناء عالم حقيقي، إيجاد الحقيقة".

بينما كان ياستراو يحاول ببطء وعُسر أن يشقّ طريقه في الحديث، طرأ تبدّل على الأب غارهامر. بدا أكثر لطفاً. كان يهزّ رأسه بأُبوَّة، وكأنه كان يحاول أن يُعينه، ليُكملَ ما يودّ قوله.

"أجل، صحيح، إنها مشكلة صعبة" قالها بتوقّف بعد كل كلمة. أضفَتْ لهجته أهمّيّة على كل ما قاله، ولكنه ظلّ مبتسماً، شبه مُشجّعٍ له مع شيء من استهانة.

"ولكنْ، لدى حضرتكَ ولا شكّ العلم كاهتمام، سيِّد ياستراو".

"طبعاً طبعاً" ابتسم ياستراو بريبة، وتلك الابتسامة أشعلتْ ومضةَ تفهُّمٍ لدى الأب الذي عاد، وأومأ برأسه مُشجِّعاً له، وهو يتابع "أليس كذلك؟ بلى، كما أرى أن لديكَ المنطق أيضاً".

ابتسم ياستراو ثانية. تذكّر معاناته التي لا تُقهَر مع المنطق وعلاقته بالفلسفة. لم يحتقر شيئاً أكثر من ذلك، عدا الأخلاق ربّما.

"حضرتكَ مهتمّ بالمنطق، أليس كذلك؟".

"بلى، طبعاً، وإلا صرنا أغبياء".

لم يحاول فولدوم أن يُخفي تثاؤباً متغطرساً، ولكن الأب غارهامر هزّ رأسه تجاوباً مثل مدرّسٍ، وتابع ببطء واهتمام "حضرتكَ، ولا شكّ، تبني مفهومكَ على أساس بديهيات تقبلها، لأن العلاقة تُظهِر أن البديهيات، ولا شكّ، صحيحة، نعم، ذلك صحيح. ذلك ما نؤمن به نحن أيضاً. إنه إقرار بطبيعة الأشياء".

نظر ياستراو إليه بابتسامة صغيرة محترزة.

"والآن، ستملي علينا بالدوغماتيات، أيّها الأب غارهامر، أنا متأكّد، متأكّد".

"ولكنْ، أليس الأمر ببساطة ذاته. نحن نقبل الدوغماتيات، لأننا نفهمها، كما لو كانت قوانين الطبيعة، لا أكثر. نحن نقبلها، لأننا، بالمقارنة، نرى أنها ولا بدّ صحيحة، نحن لا نريد أن نكون أغبياء، هل تفهم حضرتكَ، أعني أغبياء أخلاقيّيْن، لأن هذا في رأيي، يمكن أن نُطلقه على الآثمين".

ظلّت ابتسامة الأب سمحة طوال الوقت.

"ولكنْ، ماذا لو لم أقرّ أنا بالمنطق؟" اعترض ياستراو.

"بهذه الحالة، ستكون غبياً".

الكلمة الأخيرة كان لها جاذبية غريبة، وقد أمال الأب رأسه مازحاً، وبقلنسوته السوداء تلك، بدا شَبَهَ خالة عجوز طيّبة، جعل كل من فولدوم وياستراو يضحكان.

"نعم، هذه المشاكل يمكن أن تكون مضحكة" قالها القسّ غارهامر لنفسه، وهو يجول بنظره بينهما مثل طفل. كان مُتفاجِئاً من نفسه، لأنه قال نكتة، وسعيداً بمقدار سعادة ياستراو، لو كان قد أتى باستنتاج منطقيٍ كهذا".

"ولكنه المنطق هو المشكلة" علّق ياستراو بعد ذلك.

"ليس منطقي، يا سيِّد ياستراو. لستُ غبياً" أجاب غارهامر، وضحك ثانية. ثمّ نفض رأسه، وكرّر"لا، لستُ غبياً. هاهاها".

"أعني أننا فخورون جدَّاً بقوانين لعبة الشطرنج التي نُسمّيها منطقاً" قال ياستراو معترضاً. لم يمكنه أن يبقي على إعجابه مثل الأب بشأن تلك المشاكل، التي يمكن أن تكون مضحكة إلى هذا الحدّ.

ولكن غارهامر ظلّ يضحك "نعم، هاهاها، هذا ما تقصده حضرتكَ، أنتَ تقصد أنكَ غبيّ". لهجتُهُ جعلت الكلمة "غبي" ثخينة مدوّرة ووديعة. "هاهاها، ولكنْ، أليس ذلك غريباً،" تابع ملتفتاً إلى فولدوم بجدّيّة دفعة واحدة؛

"إن ذلك هو ما يجعل الأمر صعباً، بالنسبة إلينا. يصعب على الكاثوليكية الفوز برضا المرأة. لأن الكاثوليكية منطقية جدَّاً. والمنطق لا تريده المرأة، أليس ذلك غريباً؟".

ابتسم فولدوم "ونحن في الدنمارك، نظنّ أن الكاثوليكية ليست سوى ذهب ولبان ببخور "المرّ"(*)".

"صحيح، وذلك خطأ كبير" قال الأب.

كانا يتحدّثان كاثنَيْن من العارفين، وذلك ما جعل ياستراو يشعر بامتهان.

لكنه اعتدل في جلسته حين لمح عينَي فولدوم تسطعان، وهو يهمّ قائلاً "اسمعْ، أيّها الأب

---

*) الهدايا التي قُدّمت إلى يسوع الطفل عند ولادته من قِبَل الحكماء الثلاثة من الشرق، أو كما أطلق عليهم المجوس الذين كانوا يجيدون التنجيم والسِّحْر وتفسير الأحلام

غارهامر، هناك شيء كان بودّي مراراً أن أسأل حضرتكَ بشأنه" قالها فولدوم بابتسامة صغيرة "هل ارتكب المسيح يوماً خطيئة؟"

"لا لا لا" أجاب الأب مُرتعِباً. شعر ياستراو بخَدَّيْه يسخنان. هل يودّ فولدوم الآن تعذيبه ثانية؟ كان كتاب ستيفاني ذلك الذي يشير إليه. ولكنْ، لماذا؟ لماذا؟ لِمَ يمزّق سيقان الحشرات؟

"أفكّر بقصّة شجرة التين" تابع فولدوم من دون رحمة. "ألم يكن ذلك نَزَقاً؟"

نظر ياستراو إليه حزيناً مستفهماً!

"ولكن الشجرة لم تحمل ثمراً، كما تعلم" أجاب الأب.

"كان بالإمكان ذلك، لو تمّ الاعتناء بها".

"لا" جاءت جازمة.

"كل شيء ممكن" عارضه فولدوم قائلاً بابتسامة خبيثة على وجهه.

لم يرَ الأب ابتسامته، ولم يكن ليفهمها.

"بلى، ربمّا، ولكن زمن الشجرة انتهى. وهل ستُسمّي فصل الله للخراف عن المعاز يوم القيامة بنزق؟".

لكن فولدوم استمرّ بالقول "ولكن قصّة شجرة التين هذه تجعل الأمر يبدو وكأنها كانت نزوة من قِبَل المسيح".

"ولكنها لم تكن نزوة" أجاب غارهامر. "كانت حكاية رمزية. اعتاد المسيح أن يروي حكايا رمزية ذات مغزى أخلاقي. ولكنه هنا كان قد قام بنفسه بالدور"(*).

ابتسم فولدوم برضا.

"إنه كتاب لـ هـ. سي. ستيفاني الذي جعلني أفكّر بتلك القصّة" قال فولدوم معتذراً.

"آه، ذلك الكتاب،" قال الأب رافعاً يده.

"إنه كتاب سيِّئ، سيِّئ جدّاً حقّاً، ما كان يجب عليكَ أن تمدحه، يا سيِّد ياستراو" أضاف فجأة متوجِّهاً إليه.

---

*) machte ein gleichnis قام بتأكيدها بالألمانية

"لم يكن، اللعنة، أنا مَنْ كتَبَ المقال" أجاب ياستراو بانفعال، ولكن وجهه احمرّ فجأة، "عذراً، أيّها الأب، عذراً".

"كان أسلوباً عامّيّاً، أليس كذلك؟" أجاب غارهامر بلطف. "ولكني أعتذر جدّاً، لأن عليّ الانصراف الآن. لديّ التزامات".

نهض، وصافح كلاً منهما.

"وشكراً. شكراً جزيلاً للكتاب، وشكراً جزيلاً للزيارة. أرجو أن تُشرّفاني ثانية بأقرب وقت".

قطع كل من ياستراو وفولدوم من جديد طريق فيستربروغيذه مشياً. كان كل منهما صامتاً. كان ياستراو ينظر إلى بلاطات الشارع، ويشعر أن فولدوم يراقبه بانتصار خفي.

أراد الاستدارة عند تمثال الحُرّيّة، ليتوجّه إلى شقّته الفارغة. لم تكن لديه رغبة بالتّوجّه إلى الجريدة، لم تكن لديه رغبة في شيء.

"هل ستذهب إلى البيت؟"

أومأ ياستراو برأسه.

"لمَ لا؟ أنتَ محظوظ، بإمكانكَ ذلك، لديكَ بيت، بينما الآخر سيتعيّن عليه الذهاب إلى النُزُل" تابع فولدوم بمَلَل قاتل، وفجأة راح يقلّب الكرونة التي كانت في يده بداية مشوارهما.

"هل لي أن أستدين منكَ كرونَتَيْن، لأتمكّن من شراء وجبة خفيفة وزجاجة بيرة؟".

رفع الكرونة أمام ضوء الشمس بكآبة ساخرة، فلمعت لمعاناً مثيراً للشفقة.

"بإمكاني تسديد مبلغ البخشيش".

"ليس لديّ أصغر من خمسة كرونات للأسف" قال ياستراو بامتعاض.

"حسناً، لا مشكلة".

وعندما حصل فولدوم على النقود، اختفى منتصب الظهر مَرِناً في توجّهه صوب ساحة البلدية، قُبَّعة قائمة أعلى من حشد البشر.

... وظلّت قبّة سانت بيتر بادية للعيان لفترة طويلة.

الفصل الثاني

حبس ياستراو نفسه طيلة اليوم في شَقَّته المقفرة. لم يجب على المكالمات الهاتفية مهما علا صوت رنينها. لا شيء ممكن أن يقتحمه ويزعجه.

ولكنْ، كم بدا الأمر عجيباً. طالما كان يكتب، سواء في النقد أو الكتابات الصحفية الأخرى، لم يكن يشعر بفراغ الصالات والغرف. ينهي وجبة، وينحّي ضبّةً جانباً، ولكنه وحالما يسحب مخطوطة رواية، كان قد بدأها منذ أكثر من عام، ولم يتسنّ له الوقت في الأسابيع السّتّة الأخيرة حتّى يقتحمه الفراغ بالحال. سَفَرُ زوجته مع أخيها في رحلة إلى شمال شيلاند في السَّيَّارة لم يكن يعني هدوءاً، ولا رعاية والديّ زوجته لابنه خلالها. كان ذلك يعني بالنسبة إليه موتاً. وبدلاً من أن يعمل، أشعَلَ غليونه، وراح يجول في الغرف الفارغة في الشَّقَّة، لتكون آهلة به بينما كان يُدخّن، ويدندن. استهلاك ذاتي للأحلام، الأفكار، للعدوانية، للقلق، للانتصار والمصالح.

ما إن عاد أخيراً إلى مكتبه حتّى شرع الظلام يحلّ. ازرقّتْ جدران البنايات الكئيبة في الفناء عبر نافذته في مكتبه. كان عليه أن ينهض، ليُوقِد الضوء الكهربائي. ولكنه أجّل ذلك لدقائق، بضع دقائق معتمة طويلة.

ومن دون حماسة، أخذ يقلّب صفحات مخطوطة الرواية. اكتسبت الأوراق في المغيب نغمة مخضوضرة. كان للحبر لون قاتم عتيق. راح يفحص بخجل كل اللا انتظام في الحروف التي خطّها منذ شهور.

انزلقت ورقة من بين كومة الأوراق، قصيدة كُتِبَت بخطّ يد غريبة. قصيدة كان ستيفان ستيفينسن قد كتبها بوقتها، وقد نُسيتْ. ستيفان ستيفينسن. رآه بالأمس برفقة بنت صغيرة عند مطعم -المظلّة-.

قرأ التالي؛

ديمينواندو(*)

مللتُ من عناقكِ، متعب وسعيد

هل أعيش فقط من أجل قبلةٍ على فمكِ؟
أتحسّس شَفَتَكِ تتوهُ بالأنفاس
القبلات بلا شكل في إغفاءة

مللتُ قبلتَكِ، هل لي أن أداعب المنحنيات
الصدر، الوركَيْن المشدودَيْن بين يَدَيّ؟
أصنع من العَتَمَة مزهريةَ ضوء
مُغبّشٌ جسدُكِ خفيفٌ مثل أنفاسكِ

مللتُ من مُداعبةٍ، كم أحسّها موجعة!
يا لهدوء العشق الذي نَحَتَ جسدكِ؟
أراه، وجهكِ الذي تقلّب بين الوسائد
محمولاً من الشَّعْر مثل عشب بَحْرِيّ بعد عاصفة

مللتُ من النظر إليكِ، الإحساس بكِ، وعشقكِ
هل لي أن أغادر سريركِ وهدوءكِ؟
أجولُ بين الغرف أتلمّس الأشياء
أتحسّسكِ هنا في مسكنِك الهادئ

آنا ماريا، أنتِ تعيشين في الأشياء
آنا ماريا، كم ساكنة أنتِ دافئة
آنا ماريا، أنا أنشدُ الآن بعضاً من برودةٍ
آنا ماريا، عند سدّة النافذة

Diminuendo (*

عند المغيب، طافت الكلمات على ضبّة الورق المخضوضر حتّى شَعَرَ ياستراو بعينَيْه، وهما ثقلان. فركَهما، وبحركةٍ تعبةٍ، وضعَ القصيدة جانباً. ودّ التّوقّف عن التفكير بستيفان ستيفينسن.

كم كانت السماء زرقاء فوق السقوف والمداخن المظلّلة! لونٌ كثيف مفعم بالروحي! ولكنْ، لا، لمْ يستطع التّوقّف عن التفكير بالقصيدة. كيف قرَأَها ستيفان، يا ترى؟ كيف التَحَمَ صوتُه الخشن المزدري بتلك الكلمات؟ هناك ولا شكّ شعراء لا يقرؤون شِعْرهم بصوت عال إطلاقاً، يكتفون بمَدّ ورقةٍ بخطّ اليد، نوعٌ غريب أخرس ذو نظرة متمرّدة ووجه متجهّم. كان ياستراو يعرف تلك الوجوه حقّ المعرفة. ولكنْ، هل كان ستيفان كذلك؟

كان من المستحيل إبعاد صورته عن ياستراو هذا المساء، الفتى الطويل الكادح الذي يزيحَ جوانب سترته إلى الجانبَيْن، لكي يزرعَ يَدَيْه في جيبَي بنطلونه. وفجأة كانت هناك، وبلحظة كلمة مطبوعة. كانت مطبوعة. أين؟ في الهواء، في الذاكرة؟ كان بإمكانه أن يقرأها. مرض مُعْدٍ! كان بإمكانه أن يرى كل حرف فيها. تصرخ بالرعب والوحشية. ألهذا السبب يراه ياستراو طوال الوقت بوضوح أمامه؟ واضحاً بوضوح صورةِ مجرمٍ، الصورة الجانبية له، للوجه، صورة تفضح كل شيء وصولاً للجمجمة.

حينها دقّ على باب المدخل.

فزّ ياستراو في مكانه. كان ذلك مرعباً، في المغيب، وقد أخذ قلبه بالخفقان.

نهض من مكانه ببطء، ومشى إلى المدخل الذي كان معتماً تماماً. لم يلحّ إلا ضوء مضبّب أبيض، وظلُّ قامةٍ عبر الزجاج المعتم.

فتحَ وهو يحاول أن يستنشق هواء. كانت قامة طويلة مَحنية، ويَدَيْن مدسوسَتَيْن في جيبَي البنطلون.

"أمر عجيب، والله" صاح ياستراو بصوته المبحوح، لم يكن يرى بوضوح وسط العَتَمَة. "أهو أنتَ، ستيفان؟".

"نعم، زوجتكَ غير موجودة، لذا تجرّأتُ، وجئتُ" قال ستيفينسن بهمس غريب.

"تفضّلْ، ادخل".

نسي ياستراو أنه كان قد طرده من بيته وقتها، ولكن الخطوات المتسلّلة الطويلة لستيفان أيقظت ذكريات هاربة منه.

"هل تصوّرتَ أني سأطردكَ؟".

"لا أحد يعرف ما يمكن أن يحصل" أجاب ستيفينسن بحذر. تصرّف تقريباً كمتشرّد داخل شَقَّة راقية، كان يتصرّف بحذر وغرابة.

"هل أجرؤ أن أجلس؟" سأل وهو يقف إلى جانب كرسي الروكوكو.

"بلى، بلى" ضحك ياستراو.

تأفّف ستيفينسن وهو يجلس. "هل لي بسيجارة؟"..

"لديّ ما هو أفضل، سيجار".

"لا، لن ينفع مع بطنٍ خاوية" دمدَمَ ستيفينسن، وقد لاح ظلّ ابتسامة على وجهه الرمادي.

"ألم تأكل اليوم؟".

"لا، لم آكل لأيّام".

"ولكنني رأيتُكَ بالأمس عند -المظلّة-".

"مُغامرات" قالها وهو يضحك بصوت خافت."ومازال طعم القهوة وقطعة المعجّنات بفمي. أنا أتغذّى على التّجشّؤ".

جلس ياستراو على الأريكة منحنياً إلى الأمام يراقبه. هيئةٌ لها وجه، وكأنه انقسم قسمَيْن، نصف مظلم صوب الغرفة، ونصف مضاء باتّجاه الظّلّ الضعيف المتبقّي من ضوء النهار عبر النافذة.

"لا مشكلة في تدخين سيجار" علّق ياستراو من دون اهتمام، ودفع بعلبة السيجار والثقاب تجاهه.

"حسناً" ضحك ستيفينسن. كان في ضحكته شيء من غباء، وعندما أشعل السيجار، سقط الوهج الأحمر من طرفه على وجهه الذي كان يشبه وجهَ مهرّجٍ اهتزّ لضحكةٍ، من دون معنى.

بعد لحظة، غلّفَت غيمةٌ من الدخان الأبيض الوجه بأكمله.

ظلّ ياستراو جالساً، يمُعن النظر في مكانه نصف المظلم. كم بدا ستيفينسن رثّ الهيئة! كانت ملابسه مجعّدة، وكأنه لم يغيّرها لأيّام، وقد تجعّدت وانكمشت حتّى أعلى العنق، والصدر صار مهدّداً بأن ينخسف وينحني إلى الأمام.

"كم يثير هذا السيجار الحكّة فيّ" تأوّه ستيفينسن، وتقوقع بينما كان يضحك كالأبله. "عشتُ هكذا جائعاً هذا الشتاء، ومعي فوق هذا هذه، آنا ماريا"، وسَعَلَ.

"آنا ماريا، مَنْ هي؟" سأل ياستراو من دون أن يُحرِّك عضلة في وجهه.

"آآآ، مُجرّد خادمة حقيرة كانت تعمل عندنا" أجاب ستيفينسن وقد قلب شَفَتَيْه. "أسكن معها، هه، بشكل أو بآخر. ولكنْ على الطريقة الأفلاطونية" وضحك "لا حُبّ، ولا طعام. لتعلم أنها مريضة، لذا لا أقترب منها".

سرتْ رعشة في بدن ياستراو، وقفز مرّة واحدة، وتوجّه صوبه.

"أنتَ مَنْ يبدو حقيراً" قالها بلطف، وبنغمة تحاوُر.

"اسكتْ" أجابه ستيفينسن، ولكنْ بحدّة أقلّ من المتوقّع، وضحك ثانية شبه خَجِل.

"صحيح، أنا حقير. أنا جائع، وفي الغد، سيرمون بنا على الرصيف. لا أملك فلساً، آه، وضعي تعس للغاية. تكتب للأهل كي تحصل على نقود، ونصائح من الأمّ طوال الشتاء كي تسير أمورك. ولكنْ، ليس بعد الآن، تدهوَرَ الوضع، لن أحصلَ على فلس واحد منهم! مُجرّد رسائل، من الأب، تطفح بالأخلاقيات، عليّ الآن أن أشدّ حيلي، وأتماسك، وإلخ إلخ إلخ .... لن يمكنني احتمال المزيد، اللعنة، ليس منه" كان يهزّ رأسه ضاحكاً "ولكنْ، لِمَ تقف هنا، وتُحملِق بي؟".

"أفكّر بأن لديّ سْمور بغوذ(*) في المطبخ" علّق ياستراو بنظرة لامعة.

"ماذا قلتَ؟ آآآ، ..." ورفع ستيفينسن يَدَيْه مُتضرّعاً.

"قصدتُ في الظهيرة محلّ سمور بغوذ في شارع فيستربروغيذه، كما تعرف، هناك عند تمثال الحُرّيّة" تابع ياستراو.

"نعم نعم، ولكنكَ؟ هل لي..؟".

"طعمها واحد، لن يختلف سواء كانت شريحة خنزير أم سمك، لذا لم يكن عندي مزاج لأكلها".

"هل تتعمّد إيلامي؟" صرخ ستيفينسن، واعتدل في وقفته.

---

*) الساندويتش الدنماركي التقليدي المفتوح، وهو عادة عبارة عن قطعة خبز أسود مدهونة بالزبدة مع شرائح رقيقة من اللحمة أو الدجاج أو السمك مزيّنة بقطعة خضراوات مختلفة أو مخلّلات

لم يجبْهُ ياستراو، وبقي واقفاً في مكانه، وتمعّن بوجهه بالتعبير اللامع ذاته على وجهه.

"أجل، ربمّا هو ما أريد فعله" انبرى قائلاً فجأة، وقد استفاق. "سأذهب إلى المطبخ، لآتيكَ بها".

تابعه ستيفيسن بنظره، كما لو أنه لم يفهم شيئاً.

جاء ياستراو بعد قليل بصحن، احتوى بضع قطع من الساندويتش، وضعه على الطاولة مع زجاجة بيرة.

"لا رغبة لي بإيقاد ضوء" علّق بعدها.

لم يجبْهُ ستيفينسن. أسرع بسحب الكرسي، وضع السيجار المحترق بلا اهتمام على طرف الطاولة، وشرع بتناول الطعام. كان ياستراو يسمع مضغه للطعام، ويرى الذراعَيْن القاتمَتَيْن واليَدَيْن المضيئتَيْن قليلاً، وهما يتحرّكان، أمّا وجهه، فقد لاح مثل بقعة بيضوية مضاءة بعينَيْن وامضَتَيْن، لأن الصالة كانت معتمة جدّاً.

انتصب الجدار بين النافذَتَيْن مثل عمود أسود عريض مقابل ذلك الفضاء الواسع المرفرف الذي انفتح عبر الزجاج. كان هناك ضوء، ولا شكّ، خلف الستارة المُسدلَة في الشُّقَّة المقابلة له، بهيج وسرّيّ. أمّا عالياً فوق السقف، فقد كان هناك وهج مشتعل أحمر فوق الغيم وبحركة مفاجئة داخلية، كما لو كان الشفق القطبي يظهر ويختفي يضعف ويقوى، يضعف ويقوى عندما تنطفئ أضواء الدعاية في فيستربرو أو تشتعل.

"أرجو أن تعذرني" قالها ياستراو بلطف. كان جالساً عند الطاولة مُتَّكِئاً على مرفقَيْه، يتابع حركات ستيفينسن المعتمة.

"لماذا؟" أجابه ستيفينسن والطعام في فمه. كان هناك انتظار وترقب لردّ فعله.

"لأني ... آلمتُكَ".

"هكذا، لا غير؟" ضحك ستيفينسن وتابع المضغ. "تصوّرتُ اعتذاركَ سيكون بخصوص نشركَ لقصيدتي باسم ستيفاني، لأن ذلك كان حقّاً خراء".

"لم يكن لي ذنب في ذلك" قالها ياستراو بلطف.

"لا ذنب لكَ فيه؟" قالها وقد مطّ شَفَتَيْه، وشرب من الزجاجة. "قذارة منكَ، وسأجعلكَ تدفع ثمنها".

"أرى عبر صوتكَ أنكَ شبعتَ تقريباً" ردَّ عليه ياستراو فجأة بفظاظة.

كركر ستيفينسن بضحكه "وطالما عليكَ الكثير الذي يجب أن تعتذر لي عنه، هلا أعرتَني بعض النقود"، قال وهو يضحك.

"مهلكَ، لا تنسَ أني طردتُكَ من هذا البيت آخر مرّة".

كانا جالسَيْن وسط الظلمة مقابل بعضهما. لم يكن بمقدورهما رؤية تعبير وجهَي بعضهما. وكأنهما كان يتعاركان بأقنعة على وجهَيْهما.

"بلى، أذكر، ولكن زوجتكَ ليست موجودة هذا المساء".

"من أين علمتَ بذلك؟"

"سمعتُ ذلك في -المظلّة-، هه، جررتُ آنا ماريا معي، لأقرأ لها قائمة الطعام للمطعم، كي تشعرَ بالشبع تلك المومس، وعندها سمعتُ صوتكَ خلف صناديق الزرع. كنتُ جالساً معه، ذي الشَّعْر الأحمر. بالمناسبة، فلقد حصل من العجوز على 200 كرونة، هه".

"ما الذي تقوله؟"

"هذا ما حصل. لعَبَها جيِّداً، هناك سمعتُ أن زوجتكَ ليست في البيت، هل تظنّ أني كنتُ سأجرؤ على المجيء؟ لا. مستحيل".

"كم تريد؟".

"أربعين كرونة".

"هل جننتَ؟".

"نعم".

راح ياستراو يتحسّس طريقه إلى علبة السيجار، عثر على واحدة، وأشعلها.

"هل ستعطيني إيّاها؟" سأل ستيفينسن متفحّصاً.

"كلااا" طلعت منه ممطوطة. إذاً، ناولني سيجاراً، بإمكاني الآن أن أُدخّنه".

مدّ ياستراو يده بالسيجار في الظلمة حتّى اصطدمت بيد ستيفينسن. حين اشتعل عود الثقاب، رأى ياستراو الصحن فارغاً.

"حسناً" قال ستيفينسن. جمر السيجار الأحمر والوهج حول الفم والأنف كان الشيء الوحيد المَرئي. "إذاً، سترميني من البيت في الغد. هكذا تسير الأمور، وأنا، اللعنة، لن تفرق معي، ولكنْ، تلك المسكينة آنا ماريا".

التزم ياستراو الصمت، واتّكأ في جلسته على الأريكة. مرض مُعدٍ! لقد رأى الكلمة بحروف مطبوعة. وستيفينس كان يمجّ السيجار بصوت عال.

"بإمكانكَ، بالمناسبة، الحصول على الأربعين كرونة" قال ياستراو فجأة، ثمّ نفث غيمة تبغ. تموّجت الغيمة متوهّجة من جمر السيجار.

العرض بدا مهيناً تماماً.

"شكراً. هاتها إذنْ، لأذهب" قالها ستيفينسن باحتقار. استدار بجلسته بكسل إلى الجانب الآخر.

"لا، يمكنكَ أن تبقى. بما أنكَ قد أفسدتَ ليلتي".

"وهل تظنّ أني أُحبّ أن أجلس هنا في الظلمة، لنتحدّث عن الروح ...؟".

"سأعطيكَ أربعين كرونة لذلك".

"تعطيني؟ هههه، لا! سأستلفها منكَ".

"لا فرق".

"جيّد، ما نوع الروح التي سنتحدّث عنها؟" سأل وهو يميل بجسده إلى الخلف مُستعرِضاً صبره.

بقي ياستراو ساكناً في مكانه. كان مشدوداً ومتوتّراً، وكل عضلة فيه قد تقلّصت من دون أن يُغيِّر من جلسته، بينما كان يُمعِنُ النظر في قامة الظلمة المُربَّعة التي كانت تشعّ بالعدائية.

"لقد نسيتُ قصيدة هنا آخر مرّة" قالها بلين، وكأنه كان يودّ التّسلّل إليه، ليرميه بشيء روحاني مثل خرقة مُبلّلة بوجهه.

"وهل تريدها أيضاً للنشر في الجريدة؟" قالها ستيفينسن بخبث.

ضحك ياستراو "لا، شكراً، لا حاجة لذلك، هل تكتب الكثير من هذا النوع؟ أتصوّر ذلك، صحيح؟" قالها مشحوذة.

"لعلّكَ تودّ مساعدتي بطَبْع ديوان شِعْرِيّ؟".

"محتمل".

"هه، لطف منكَ والله، حقيقة" وضحك. "وهل تتصوّر أني أودّ أن أكون شاعراً، وأعيش من سَكّ نصوص للأغاني تحت الطلب مثلكم أنتم؟ هه؟ هل تتصوّر أني أودّ أن أجد لي مكاناً في تاريخ الأدب؟"

"ربمّا، مَنْ يدري؟!" أجابه ياستراو.

اهتزّ بدن ستيفيسن. "لا، يا أستاذ، لا أريد شيئاً من حياة النخبة المثقّفين. ليست لي، انتهى. يكفي أن ترى أبي!".

ضحك ياستراو ضحكة قصيرة. ولكن ستيفينسن تابع. هل كان دفاعاً أم هجوماً؟ تدفّقت الكلمات من فمه مثلِ الصخر. كان هناك احتدام عدائي بصوته المبحوح المتطرّف والكلمات تتدافع من فمه.

"نعم، أنتَ تعرفه بعض الشيء. إنه لطيف، أليس كذلك؟ آه، دمّر كل شيء هذا الوحش. الكلمات الجميلة كلها كانت في فمه القذر، كما لو كان في بالوعة. اللعنة، لا يمكنني غسلها تماماً. إنها موادّ نجسة تلك التي نشتغل بها، اللغة كلها قد تدنّست على يد آبائنا. هل سمعتَ يوماً العجوز وهو يقتبس بيتاً شِعْرياً؟ يلعن الشيطان، كم هو مُقزِّز. علينا أن نجد لغة جديدة كاملة لكل منّا".

"وهو ما نقوم به أيضاً" اعترضه ياستراو بالقول.

"ماذا؟" قال ستيفينسن هازئاً. "حقّاً؟ كلا، أنتم تستولون بعبثٍ عليها كاملة من الشيوخ، هذا ما تفعلونه. ولكنْ، ليس أنا، لا. أكره هذا الاحتيال كله الذي تُسمّونه كلمات. اللغة روث فضلات. انتهى. كان على الإنسان ألا يُقحِمَ نفسه فيها. كان عليه ألا يتعلّم نطقها. هذا هو ما دمّر حياتنا".

كان ياستراو يمُعن النظر بتلك الكتلة من الظلمة التي كانت من دون وجه، شيء أسود يتطاير وحركة ذراع.

"ما الذي تريد فعله، إذاً؟" سأله.

"أن أعيش. لا شيء سوى أن أعيش، مثل حيوان، من دون كلمات".

"وهل تفعل ذلك الآن؟" جاء الرّدّ مناكفةً.

"لا، ما الذي تظنّه، تلك هي المشكلة" أجاب ستيفينسن. كان شكلاً غريباً من الألفة، شكلاً عدوانياً.

"اللعنة، أنا مربوط بقيد من الكلمات مثلكم، ولكني، يلعن الشيطان، أُقسم سأُفجّره، وإن كلّفني ارتكاب جريمة أخرى. جريمة! ويلي، الكلمة ثانية. ولكن الكلمات تقطع الطريق على المطلق، إنها تفعل ذلك، تلك الكلمات الغبية. ونحن لا نبغي غير أن نحيا. ولكي تحيا يعني أن تفكّر؟ أليس كذلك؟ أو لتقل شيئاً؟ كلمات؟ الأدقّ أنها كأن تقود سيّارة بسرعة مئة وعشرين كيلومتر بالساعة، فلِمَ تفكّر؟ أو تتعاركَ، أو تغتصب بنتاً؟".

"هل هو هذا ما تريده؟" سأله ياستراو بضحكة هادئة. لم يشأ أن يعطي ستيفينسن الحقّ بما قاله. أبداً! بل إنه شعر برغبة في إغاظته، وابتسم بسخرية.

"نعم" قالها ستيفينسن، وضحك أيضاً.

"إذاً، عليكَ أن تحاذر من دخولكَ السجن أو تتورّط في دين ما" انزلقت من فم ياستراو بمكر.

"دين؟ إطلاقاً" أجاب ستيفينسن بحدّة، وتحرّك بعنف في مكانه مثل صخرة توشك تتفلّت من منحدر مظلم ليلاً.

"لا، لن يكون ذلك خياراً مريحاً" قال ياستراو فجأة بتعالٍ. "لقد قمتُ بالأمس بزيارة رجل يسوعي في شارع ستينوسغيذه، كانت ورقة الأبدية مدسوسةً في كُمّ بدلته مثل اللاعب الأخير الذي يقول كلمته في لعبة الورق -أومبر-. ولكنْ، هل تظنّ أنه قد فكّر بمعنى الأبدية؟ لم يفعل شيئاً غير أن يُؤمّل نفسه في أن يلعب مع خصم جيّد، كان يأمل بورقة جيّدة كي يفوز. لقد خيّبت أمله لحسن الحظّ، فليس لي باع في لعب الورق".

"ولكني أحبّ لعب الورق" احتجّ ستيفينسن.

"هل يمكنكَ حقّاً أن تسحب الورقة الرابحة؟"

"طبعاً، إن ناسبني ذلك، على أيّة حال، تماماً مثل قصيدة."

نهض ياستراو من مكانه مُنزعِجاً.

"أوه، لا أريد سماع المزيد" قالها بخشونة، ومن دون مراعاة، كما لو أن ستيفينسن ذاته الذي قالها.

"حسناً، هذا جيّد جدًّاً، هذا يعني أن بإمكاني الحصول الآن على الأربعين كرونة" علّق ستيفينسن، وهو ينهض من مكانه أيضاً. ولكنهما وعندما وقفا في الظلمة مقابل بعضهما، شعر كل منهما بالعداوة الغريبة المفرطة تزداد تركيزاً. شعرا وكأنهما شرّيران يسيران جنباً إلى جنب في رصيف واحد. لن يتفاجآ أن جاء أحدهما على دَفْع الآخر بكتفه.

حينها أشعل ياستراو الضوء. غشي الضوء أعينهما، ما جعلهما يفركانها. لقد فركا أيضاً بعضاً من الاحتدام، فتبدّد. لم يفهما حقيقةً سبب هذا الجوّ المشحون الذي هيمن عليهما في الظلمة، العداوة الأميبية غير المبرّرة، والتي جاهدت، لتأخذ لها شكلاً.

"تفضّل" قال ياستراو، والتقط أربع ورقات من محفظته.

تناولها ستيفينسن بصمت، جعّدها كيفما اتّفق، ودسّها في جيب صديريته.

"هل نذهب إذاً؟" سأله ياستراو.

ولم يكدا أن يريا وجه بعضهما حين اشتعل الضوء حتّى قام ياستراو بإطفائه قبل أن يغادرا.

وعندما نزلا إلى الشارع، لم يستطيعا أن يتجنّبا بعضهما. لم يجد ياستراو له عذراً، وقد خطر بباله أن يقطع شارع إستيدغيذه المملّ، من أجل أن يتخلّص من ضيفه.

انقادَ مدفوعاً بعادة قديمة نحو ساحة البلدية. وقد نحا ستيفينسن نحوه من دون تفكير. صعود درجات السّلّم إلى الساحة مقابل محطّة القطار الرئيسة، عبور الحاجز محاذاة الساحة المفتوحة، توجّها إلى شارع فيستربروغيذه.

لم ينطق أحدهما بكلمة.

كان مساء ربيعياً لطيفاً. بدت قبّة السماء سوداء، انتشرت فيها النجوم فوق ممرّ فيستربرو، والمناطق حول سكّة الحديد القديمة بمحلاتها العشوائية الخفيضة. كانت قبّة ممتدّة واسعة مثل سماء ريفية، ودعّامتاها بناية بانتوبيدان والمجمع السَّكَني في شارع ريفينتلوسغيذه مثل مرتفعَيْن قاتمَيْن. في هذا الفضاء العميق، كان كلاهما يستنشق أنفاساً عميقة من عطر سماوي بارد مبهّر بالبنزين والعطور، وروائح المارّة النتنة الحامضة مضافاً إليها مايبثّه الحديد في الأجواء والدخان والمحروقات المنطلقة من المحطّة تحت الأرضية، إنه انتشاءٌ خفيف من شراب سامٍّ، ربيع المدينة الكبيرة هذا.

فجأة توقّف ستيفينسن أمام مدخل سرّيّ يقف خادم عند بابه. لمَعَ بوذا مُذهّباً بشكل غريب في نافذة ضيّقة، وبصوت مليء بالحكمة، قال ستيفينسن: "لا ضير ببعض من الشراب".

واستدار ياستراو معه، ودخلا قاعة عجيبة صغيرة جدّاً بطراز آسيوي.

وخلف البار نصف الدائري، كان هناك مذبح، انتظمت فيه زجاجات، وعدد من تماثيل بوذا القبيحة بعيون من أضواء كهربائية ملوّنة لامعة. وفي هذا العالم الألوهي الفظّ شكّل نحتٌ لامرأةٍ عاريةٍ وردية بصدرها، وما إلى ذلك مركزَ الجذبِ في البار. وخلف البار ذاته وقف الساقي برأسه المدوّر الوردي، وابتسامته البوذية العائمة بينما كان يتناقش مع الكاهنات المبهرجات التي استراحت نهودهنّ على النضد وغيرها من المُشهِّيات التي تدلّت من حافّات مقاعد كراسي البار. كان هناك غرامافون يموء بهدوء في الزاوية، المكان يفوح برائحة الأثاث المغبرّ. يشعر المرء وكأنه قد أُلقِيَ في علبةٍ مع باقي الخرق العتيقة والحُلي المركونة.

وسرعان ما حدثت قلقلة بين اثنَيْن من الكاهنات. بضع نظرات قاتمة نارية! كأس ويسكي فارغ مرفوع إلى فم المرأة الأحمر كإشارةٍ لعطش صامت، إيماءةُ غواية. فستانٌ انحسرَ بعيداً جدّاً عن الركبة، إلى ما فوق النقطة الحرجة، إلى ما بعد حدود الجورب اللحمي بينما كانت صاحبته تدور برشاقة على الكرسي العالي! إيماءةُ غوايةٍ من جديد. ومن دون ضجّة، جَلَسَ كلٌّ من ياستراو وستيفينسن على مرتفع عند طاولة مثمّنة الأضلاع. طرازٌ شرقي بحت.

عندما طلبا كأسي ويسكي، كان الغرض قد توضّح، وهو يشير إلى أن مجيئهما كان من أجل الشرب، لا غير. وسرعان ما أعطت الكاهنات ظهورهنّ لهما. انغلقت السلسلة. صفٌّ من ظهور النسوة اللدنة، أوراك متمايلة أو جذوع متورّمة، حجبت رؤية ابتسامة الساقي الوردية.

لازالت هناك عدم رغبة في الحديث لدى ياستراو وستيفينسن. تركا لنفسَيْهما أن يتهدهدا بالغرامافون والهواء المخنوق للبار. والويسكي في الكأسَيْن ذي الزجاج السميك، كان مُسكّناً لكلَيْهما، وقد شرع المحيط يأخذ شكلاً معيّناً.

"كم هي مملّة الحياة!" قال أحدهم بصوت سكران. "نحن بحاجة إلى حرب عالمية جديدة، اللعنة".

ضحكة صارخة، ولكنْ، خجولة صدرت من النساء. وبعمق قيل من قِبَل رجل في الخلف "سمعنا".

"البنات يتمتّعنَ بالحياة، طار الشراب" هرّج الرجل الذي كان مخموراً، وأوشك على السقوط من على الكرسي.

غرق المونولوج، واختفى وسط الضجيج. أصوات شرقية من المقصورات طوال الجدار. صَلْصَلَة. أنخاب. صرخات قصيرة. سادة وسيّدات، أرابيسك في تلاحمهم، إلى درجة التناغم في أوضاعهم مع طراز البار.

وبلحظة، تعرّف ياستراو على الرجل صاحب الشَّعْر الخفيف الذي عمل فَرْقَاً أنيقاً غرافيكياً في شَعْر رأسه الذي تُشبه جمجمته جمجمة دمية، مع خطّ ابتسامة مهذّبة على وجه طفولي.

-بي- الصغير.

ما الذي كان في يد -بي- الصغير وهو يُلوِّح به؟ كان شيئاً يشبه منشور سفريات، يتصفّحه ويضحك مرتبكاً، وهو يهزّ رأسه. مدّ رجلٌ ضخم بأنف أزرق كبير يده، ليرى المنشور.

"أعرضُ عليكَ ثلاثمئة! ثلاثمئة!" ورفع هذا الرجل الضخم ثلاثة أصابع، وكأنه يؤدّي القَسَم.

اختفى المزاد الصغير خلف ظهر نادل، كان يرتدي بدلة سوداء.

"سيصير الشراب فاتراً" قال ستيفينسن.

استجمع ياستراو أفكاره وأحنى رأسه له.

"جيّد أني طلعتُ من جحركَ هناك" تابع ستيفينسن، وقرّب الكأس من فمه.

"كان بإمكانكَ أن تبقى بعيداً" قالها ياستراو مبتسماً، وحيّاه بكأسه. "ولكنْ، هل تُفضِّل هذا على حديثنا عن الروحي".

"دعنا، لا نعدْ إلى الحديث إيّاه من جديد، كي لا نثور على بعضنا" همهم ستيفينسن.

اتّكأ ياستراو إلى الخلف مُحملِقاً في وجهه المتجهّم القاسي وشَعْره الأشقر المنكوش. بلى، يبدو فظّاً غليظاً، ولو لم يكن برفقة ياستراو، لما سُمِحَ له بالدخول.

"اسمع" قالها دفعة واحدة. ولكنه توقّف. كان الأمر عجيباً، فلقد سأله فولدوم السؤال ذاته بالأمس. عجيب!

"نعم، ماذا؟" قال ستيفينسن.

"لماذا ...؟ أعني لماذا تكرهني؟".

كان الأمر سخيفاً. عاطفياً. هل هو بحاجة إلى مَنْ يتعاطف معه؟ رأى وجه فولدوم الحادّ أمامه. الفم العقيم.

"أجل، لِمَ تكرهني؟" كرّر ياستراو.

اكتسبت عينا ستيفينسن فجأة ذلك اللمعان الزجاجي، وتجمّدت شَفَتَاه بتعبير غضبٍ غير مفهوم، واندفعتا إلى الخارج بتمرّد.

"لأنني كنتُ أظنّكَ متمرّداً حقيقياً. ولكنْ، لا تدعنا الآن نتحدّث عن ذلك" توسّل وركَسَ في مكانه.

"لا، دعنا نتحدّث الآن عن ذلك، الآن" قال ياستراو بلطف. كان يودّ أن يقهره. "كنتَ تظنّ أني متمرّد حقيقي".

"نعم" اعتدل ستيفينسن في جلسته. "نحن بحاجة لذلك. لم يكن لدينا يوماً شيء حقيقي مثل هذا. وظهر لي أنكَ برجوازيّ سمين، له حياة عائلية وكذا ...".

"ولكني لم أكن إنساناً سيّئاً عندما احتجتَ إلى النقود" تابع ياستراو مستمرّاً بلطفه.

"بلى، ولِمَ لا؟ لما يكون هناك احتياج عاطفيّ ما لدى البرجوازيّينْ لدَعْم الفنّ، فلندعهم يضخّون النقود، ولكنْ، دعنا نكفّ عن هذا الحديث الآن".

من جديد، كان الصوت متوسّلاً، وقد رفع كأسه، يُحيّي ياستراو، لكي يبدّد التركيز عليه.

"ما لكَ لا تشرب؟" قالها بصوت زفاقي.

شرب ياستراو من كأسه.

"ثلاثمئة وخمسة وعشرون، هذا عرضي" سُمِعَ من بْعيد. "ولن أزيد فلساً واحداً بعد ذلك".

"اقبلْها، يا -بي- الصغير!" قالت امرأة. "آآآ، افعلْها لأجلي، لا تسافر، آه، يا -بي- الصغير".

"ما الذي ينوون فعله؟" سأل ستيفينسن وهو يشير برأسه صوب -بي- الصغير.

"لا أدري".

"اسمعْ، علينا بكأس صغيرة أخرى، على حسابي".

"أنتَ؟" سأل ياستراو مُتفاجِئاً. "ولكنكَ لا تملك نقوداً".

"لا، لا" ضحك ستيفينسن، وأخرج الأربعة ورقات المجعّدة من جيبه، ورماها على الطاولة. "لقد قتلتُ برجوزاياً غبياً لأجلها، هههه".

"وماذا عن آنا ماريا؟"

"لا شأن لي بها".

"ولكنكَ ستكون مَرمياً على الرصيف في الغد".

"بإمكاني السَّكَن عند ساندرز".

عقد ياستراو حاجبَيْه بينما تابع ستيفينسن "ساندرز، لا بأس به. إن كان لديه نقود، فالآخر الذي معه أيضاً. وبالإمكان الإقامة عنده. لم يُغلِق بابه يوماً. ذات مرّة، كنّا خمسة، نمنا جميعاً في غرفته الضَّيِّقة، أقمنا وعشنا لمُدَّة أسبوع فيها. إنه الشيوعي الوحيد الحقيقي في هذه البلاد. بصحّته! أيُّها النادل، المزيد من الويسكي هنا! هكذا أجل، مثل ساندرز".

"وآنا ماريا؟ هل ستأخذها معكَ في غرفته؟".

"وما أدراني؟ اللعنة، لا شأن لي بها".

في اللحظة ذاتها، انطلق الهتاف في البار كله. قفزت البنات من على الكراسي، وتدافعت. وعَصَرَ الساقي رجل البار ذو القميص الأبيض جسده محاولاً الخروج للانضمام إلى الحفل. نهض سادة وسيّدات من مكاناتهم.

"ثلاثمئة وخمسون. ثلاثمئة وخمسون، يا -بي- الصغير. هللوا".

ومن فوق رؤوس الرّوّاد، ظَهَرَ وجه -بي- الصغير الشاحب. انحنى مبتسماً لجميع الجهات وسط هتافاتهم.

"آه، يا -بي- الصغير" صرختْ إحدى السَّيِّدات. "إذاً، فلن تسافر، ياه".

بحركة صامتة من ذراعه، طوّح -بي- الصغير بالأوراق النقدية في الهواء.

"كأس على حسابي للموجودين كلهم "صاح بصوتٍ رضيع. كان من الصعب على واحدٍ من الناس مثل -بي- الصغير أن يقف بطوله مع هذا الإعجاب كله، وغبطة الناس التي جرفتْهُ. "على حسابي، للجميع" وكأنه يزغرد.

"صفقة جيِّدة" صاح أحدهم على التاجر ذي الأنف الأزرق.

"هكذا الصفقات" شخَرَ التاجر. "لديّ ابن من الممكن أن يحتاج السفر إلى كندا".

"ما الذي حصل؟" سأل ياستراو الساقي، فابتسم له ابتسامة بوذية رطبة.

"آ، -بي- الصغير باعَ بطاقة سفره إلى كندا، هذا كل ما حصل في الأمر. كان سيستقلّ القطار قبل ساعة".

عمّ الهدوء في البار. عاد الرّوّاد إلى أماكنهم من جديد. وغادر التاجر بالحال.

بينما دار -بي- الصغير بين الرّوّاد يتلقّى التهاني بابتسامة صغيرة جامدة، ارتسمت على شَفَتَيْه الناشفَتَيْن من الدم. راح السادة يضربون كتفَيْه، والنساء يُقبّلونه على خَدَّيْه وفمه حتّى انكمش، وداخ. داروا به مثل مانيكان حتّى انتهى عند طاولة ياستراو، وهو مازال محتفظاً بابتسامته.

"ماذا؟ هل أنتَ هنا، أيّها المايسترو؟".

حضنه ياستراو بحُبّ بعدوى الإعجاب من حوله.

"قرّرتَ أن تبقى يا -بي- الصغير! تصوّر، هل رأيتَ، يا ستيفينسن؟ لن يسافر، سيبقى هنا".

"نعم، سأبقى" أجاب -بي- الصغير مستغرباً نوبة الفرح لدى ياستراو. "ليس لديهم ساعة في هذا البار، لذا، فاتني القطار للأسف. ولكنْ، ها أنا، أيّها الأستاذ، أجلس هنا مع سيِّدة شابّة جذّابة. سأكون سعيداً جدّاً، إن انتقلتُم إلى طاولتي".

كان من السهل إقناع ياستراو بينما جرجر ستيفينسن قَدَمَيْه يتبعهما. كان وجهه جامداً.

آنسة صغيرة، لها فمٌ بشكل القلب تُدعى كايا. أذعَرَتْها ملابس ستيفينسن الرّثّة الوسخة. ولكنْ، هناك الرجل البيضوي سيِّد ديترديزنج بصوته الناعم هو مَنْ لجأتْ إليه محتمية به. الآنسة بوبي ذات الوجه المشتعل والصدر العامر كانت تميل مرّة صوب -بي- الصغير، ومرّة أخرى صوب قدح الكوكتيل الذي سبح صفار بيضة وسط سائله الكثيف بشكل غير مريح. "إنه يشبه الإجهاض" علّق ستيفينسن، وسُمِحَ له بالشرب بسلام بعيداً عن إزعاج النساء له.

كانت الكؤوس مازالت تتبدّل. والفواتير الرطبة تراكمت على الطاولة. -بي- الصغير يبتسم للجميع، وينقل الأوراق النقدية إلى يده اليسرى في كل مرّة، يريد أن يحتسي الشراب، ويعيدها إلى اليد اليمنى من جديد عندما يأخذ استراحة. بدا وكأنه يودّ النوم في الفراش مع نقوده.

"جميل أني بقيتُ" كان يردّد بين الحين والآخر.

وأحبّ السَّيِّد ديترديزنج، في ظلّ ثراء الآراء أن يعطي رأيه بالأدب، وقد احتسى بضعة كؤوس من الشراب.

تناول ستيفينسن كأساً، كان أمامه على الطاولة، وأفرغه في فمه إشارة منه، ليُثبت وجوده بينهم، ليس إلا.

ولكن الجمع كان متحركاً مثل غيومٍ. وسرعان ما حضر بعض السادة، أناس مرحون أخذوا يغنّون. وسرعان ما حضرت بضع سيّدات، مِلْن بأجسادهنّ صوب -بي- الصغير الذي تاهت ابتسامته الطفولية أكثر وأكثر في وجهه ومعانيه المتقلّبة. طفح المكان بالناس الذين اقتربوا من بعضهم أكثر وأكثر.

كان ياستراو يستنشق عطر القرب البشري بأنفاس عميقة شاعراً بالسعادة. أصابع امرأة راحت تعزف بنقرات بيانو على فخذَيْه. آه، لم يكن هناك من فراغ. حياة! حياة! لامَسَ حريرُ صدرِ امرأةٍ أنفَه، ودخل وسط عينَيْه، وأغلقهما. آه، الامتلاء. الامتلاء. الأبدية هي في ما هو ممتلئ. والقرب الإنساني! القرب الإنساني! هو الشيء الوحيد الذي يستحقّ أن نحيا لأجله.

كان ستيفينسن يجلس ويشرب وحيداً وسط الجمع. سالت قطرات العَرَق من على جبهته العالية الشاحبة غير الطبيعية.

"لِمَ تكرهني؟" انبرى قائلاً وهو يدقّ كأسه بكأس ستيفينسن.

حرّك ستيفينسن يده مُنزعِجاً.

"ولكنْ، لماذا؟ لماذا؟" كرّر ياستراو.

"لا أحد هنا يكره الآخر" قال -بي- الصغير واعظاً بصوت أبوي، ولكنه طفولي.

"ولِمَ على الإنسان أن يكره؟" أعانه البيضوي سيِّد ديتردينج.

وتحوّل القرب الإنساني إلى موجٍ، إلى بحرٍ، إلى عنصر، كان من الطبيعي فيه أن يحضن الناس بعضهم. صداقة. آه، شعور حيواني! ويسكي! ويسكي. اغمسْ نفسكَ بالويسكي، وآمِنْ بأصدقائكَ، بلا حدود. التفَتْ ذراعُ ياستراو وهو جالس حول كتف -بي- الصغير. جلسوا على الكراسي العالية مُولين ظهورهم للنضد عند البار، وراحوا يُحملِقون بالنساء اللواتي كنّ يرقصنَ، كما لو أنهم كانوا تحت تأثير تنويم مغناطيسي. آه، يا سافو(*)، السيقان بلونها اللحمي والأحذية الأنيقة، الكعوب بخطوات رقصها، إلى الداخل، إلى الخارج، زوايا حادّة، زوايا منفرجة، وعدد لا محدود من القامات على أطراف الأصابع من دون توقّف.

---

*) Sapfo 610-570 ق.م. شاعرة عُرفت بأشعار الحُبّ التي تغنّت بجمال المرأة..

والبنتان الصغيرتان كانتا تتلاعبان بطرف لسانَيْهما الأحمرَيْن، يدوران حول الشفاه المصبوغة، وهما تومئان لبعضهما البعض.

"كم رائع أن أبقى هنا!" قال -بي- الصغير.

لم يكن -بي- الصغير المهذّب هو الذي التصق به، بل كانت البنتان الناعمتان غير المستقرَّتَيْن. ليست اللتان رقصتا من قبل. كانتا أخرَيَيْن، وقد تحرّكتا بوركَيْن أنثويَّيْن، صدرَيْن أنثويَّيْن، أيادٍ ورُكب.

"الله، الواحد يشعر بإنسانيّته بينكم" قال ياستراو، وحضنهما.

"بل، إنسان وأكثر".

ولكنْ، ما لَها لم تركعْ، تلك المرأة هناك، كايا، ولَمْ تدهن قدَمَهُ، من قارورة المرمر(*) من عطر الناردين أو أيّ رائحة جميلة أخرى؟ لِمَ هذا التبذير؟ وجفّفتْهُ بشَعْرها الطويل. آه، شَعْرها الطويل. ههههه. لا! شَعْرها القصير، تسريحة شَعْرها القصيرة بأطرافه المتساوية البتر.

دفء أنثوي. دفء إنسانوي. الإنسان صديق الإنسان حين يضغط امرأة إلى صدره. أليس كذلك؟ ابن ... البشرية.

بنات. نساء. الكثير يجب أن يُغْفَر. لقد أحبّ كثيراً(**).

الويسكي دائماً وأبداً!

وقف في مكان شبه مظلم. سيِّئ الاضاءة. في تواليت تحت في قبو. غَسَل يَدَيْه. لِمَ كانت يداه دائماً وكأنه قد زحف على الأرض في التراب؟ وحينها لاحظ وجهه في المرآة، بديناً، شاحباً، متورّماً، بشفاهٍ قرمزية، والشَّعْر الغامق اللون التصق على جبهته.

إنسان! انظر، هو ذا الإنسان! وجهكَ المنغولي الملعون! Ecce homo(***)

مزعج ... هذا الـ homo، قالها وهو يمطّ شَفَتَيْه!

---

*) إنجيل لوقا يتحدّث عن امرأة أخطأت، لذا ركعت عند قَدَم المسيح، بلّتْ قدمي المسيح بدموعها ومسحتهما بشعر رأسها ودهنت بزيتٍ من قارورة من المرمر قدمه وقد غفر لها المسيح خطيئتها

**) الاقتباسان الأخيران من الإنجيل- لوقا

***) مقولة لاتينية تعني انظر، هو ذا الإنسان، وتعود إلى الوالي بونتيوس بيلاتس في فلسطين الذي ترك الأمر لرحمة الجهلاء حين سلّم المسيح للعسكر،، فأهانوه، وسخروا منه أمام اليهود بوضع إكليل من الشوك على رأسه، وضربه على رأسه، ما جعل الدم يسيل منه. وقد استُخْدِمَ ذلك رمزاً لحمل المسيح لعنة الشوك والألم التي كانت منزلة على البشر. وقد تكرّر وصف هذا المشهد في لوحات الفَنّ المسيحي منذ العصور الوسطى.

الفصل الثالث

"اسمعْ، هناك رجل أنيق إلى جانبنا، إنه رجل دِين".

الصوت كان أكثر خشونة من باقي الأصوات المرتبكة الأخرى. ذهبت بعض غيوم الأحلام والذاكرة الغائمة بعيداً. بعدها جلس ياستراو يقظاً في الظلمة. كتفاه تؤلمانه، وقد اعوجّت قَدَمُهُ، وكأنه سقط عليها، وبقي ماكثاً في مكانه. لازَمَه شعورٌ غريب مسطّح وقاسٍ في المنطقة حول أذنه وخَدّه. حاول أن يعتدل في جلسته، فاكتشف أنه مازال مرتدياً ثيابه. وكأنها كانت مفتوحة في الظهر، كما لو أن هناك تيّار هواء يهبّ في الداخل. ولكنْ، أين هو؟

تخت خشبي. مخدّة الرأس قطعة خشبية مائلة مغطّاة بشرشف شمعي. شعر بأن شيئاً فوق جسده، وكأنه كان غطاء حصان.

"هل أنتَ صاحٍ، يا رجل الدِّين؟" سمع الصوت ثانية. جاء من جهة ثانية عبر الجدار.

دمدمَ ياستراو، وتحسّس طريقه بيَدَيْه، سرعان ما اصطدمت بالأرضية التي كانت حجراً.

"نُزُلٌ جميل هنا، أليس كذلك؟ ولكنه غالٍ، نار. حسناً، ما الذي فعلتُهُ؟"

صدَرَ صوت ياستراو مثل زمجرة.

"حسناً، لا تتكبّر علينا. كنتَ سَكْراناً، وأنا أيضاً، ولكنْ، ما بكَ؟ وبما أنكَ لم تضرب شرطياً، فلا يهمّ".

"آآآآه"تنهّد شخص آخر من خلف الجدار.

"أنتَ حقيقةً قد وقعتَ في مشكلة، ولكنْ، لِمَ فعلتَهَا؟".

"آخ، أنفي" تباكى أحدهم.

"ههههه، هل وجدتَهُ؟" سأل الثرثار منهم.

"بلى، بلى، ولكني لا أرى له شكلاً، لو كان باستطاعتي أن أرى إن كان ينزف؟".

"آآآ ها ها".

"اضحك، اضحك، آخ، آخ، ظهري، آه، لم يتركوا شبراً في جسمي خالياً من الضرب" تنهّد.

"ولِمَ لمْ تتوقّف، إذاً، بدلاً عن هذا كله؟ الله يلعنكَ، ضربتَ شرطياً! سيُكلّفكَ ذلك الكثير، اسأله ذلك الكاهن" زمجر الأوّل.

"لستُ قسّاً، اللعنة" صاح ياستراو مُنزعِجاً وهو ينهض. لم يعرف أين كان. تسلّل خطٌّ نحيف من الضوء عبر الشّبّاك المحكَم بالقضبان عند مُتّكئ التخت الخشبي.

"ما الذي تكونه، إذاً؟ قضيتَ نومتكَ وأنتَ تتحدّث عن المسيح. فكّرتُ لا أحد يفعل ذلك غير القساوسة، اللعنة. ظننتُ أن بيننا رجلاً ورعاً هنا، نُنصتُ إليه، ونتخيّل كيف ينام القساوسة! وأنتَ أبو الأنف المطّاطي، هل سمعتَ؟ هذا الرجل خلف الجدار ليس قسّاً، ولكنْ، مَنْ يكون إذاً؟ يبدو تقيًّا".

شعر ياستراو باحمرار وجهه وسط الظلمة، حماوة منفّرة في خَدَّيْه. كان مُلقىً في الحجز، يُهلوِسُ في نومه حول المسيح. تقوقع في مكانه ثانية. لا يريد التفكير بشيء. ولكنْ، ما يعني هذا كله؟ أين كان؟ .. ومَنْ؟ وما الذي حصل؟ آه، إنه ستيفينسن. الليلة الماضية. -بي- الصغير. هل كان يتكلّم عن المسيح في نومه؟ شَعَرَ بنفور. كان في بار مع فتاتَيْن بين ذراعَيْه، وذلك الشعور الرطب الفاتر تجاه الفتيات، بوصفه إنساناً. شعورٌ بالتّقزّز. المسيح ما بين البغايا. هكذا، إذاً، قد تسرّب تفكير وإيمان الطفل فيه عبر هذا الطريق. إنه طريق مُطيّن، فاض بالمُسْكِرات والفُحش، وفوقها ذلك التيّار البليد من السينتمينتالية والإنسانية والمسيحية. انظر، هو ذا الإنسان! Ecce Homo

ولكنه لم يستطع النوم. كان جسده قذراً. وملابسه قد تجعّدت على جسده. وقد أوجعتْهُ مثانته حدّ الألم. هل يسأل؟.

"هل من أحد هناك" صاح صوب الجدار. "أين يمكن أن أُفرِّغ مثانتي؟".

"ها ها، يا له من مُتعلّم، هل سمعتَهُ؟ بلى، يا أنتَ، هناك ثقب في الأرض، بإمكانكَ أن تبول فيه".

نهض ياستراو من مكانه، وتحسّس الطريق وسط الظلمة بقَدَمَيْه. أين؟ أين؟ شعر باللحظة بخيط من الهواء، سرح البنطلون قليلاً، فأمسك به، ورفعه، فانحسر القميص تحت الصديري. ماذا حصلْ؟ الصديري. كان مُزرَّراً بشكل خاطئ! وحمّالات بنطلونه! أينها؟ أين الحمّالات؟

وكأنه القَدَر، أدرك ياستراو، يا لهذه المصيبة. أين صارت الحمّالات؟ لا بدّ وأنه كان غائب الوعي طوال الوقت، لأن البنطلون قد سرح ما إن وقف!

لقد أخذوا الحمّالات جميعها، لئلا يشنق أحدهم نفسه. نعم، كان قد سمع ذلك من قبل. ولكنه لم يفكّر قبلاً بما كان يعنيه ذلك. أخذوا رباط الرقبة أيضاً. والجيوب فارغة. لا سكّين. لا أدوات قاطعة. الشريان! أشياء لا معقولة قد حدثت.

انكمش ياستراو، وارتجف، وهو ينتهي من إفراغ مثانته. ها هو يقف وقميصه قد انجرّ إلى الخلف، والبنطلون يسرح. كان من الصعب عليه أن يتماسك! مجعّد من الأعلى إلى الأسفل، ومُلقى في صندوق قمامة.

"ها؟ قد ارتحتَ الآن، صحيح؟".

لم يجبْ ياستراو.

"على الأقلّ، تقول شكراً أم ماذا؟".

ولكن ياستراو لم يجبْ. كان يفكّر بالحمّالات، وكيف أن أحدهم قد تجرّأ وأخذ الحمّالات، وتلمّسه، وتركه وحيداً، ببنطلونه السارح هذا. سرتْ رعشة في بدنه. عار، سخْط، غضبٌ بشعور العاجز. وظلّ بنطلونه يسرح ويسرح.

حرّك قَدَمَيْه بحذر. وصل السرير الخشبي، مسافة خطوة واحدة حسب. هوى بجسمه عليه. من الصعب الارتجاف على سطح هذا التخت القاسي. ومن المستحيل الاختفاء تحت الشرشف المشمّع أو تحت -غطاء الحصان- القصير. هل عليه أن يخلع حذاءه؟ كان يودّ مُجرّد الاستلقاء لحفظ البنطلون في مكانه! آه، ليختفي، ينام.

على الجانب خلف الجدار، كان هناك مَنْ يتكلّم. هل يُصادقهم؟ هل يتفوّه بكلمات فجّة، بالمستوى نفسه؟ سيكون ذلك رائعاً! الشعور بالمسيحية مع فتاتَيْن بين ذراعَيْكَ، الشعور المقدّس بالرفاق في مكان للحجز في السجن. قذارة!

لاح ضوء أحمر باللحظة، وصَلْصَلَت ضبّة مفاتيح. رفع رأسه. يبدو أن الضوء قادم من السّلّم. كان بإمكانه أن يراه عبر القضبان. قضبان الباب. كما لو كان في قفص. كان بالإمكان التّفرّج عليهم مثل حيوانات.

"آه، هلا أعطيتَني قطرة ماء" تنهّد هذا المحبوس خلف الجدار إلى جانبه.

"بلى، انتظرْ" صدرت دمدمة.

خلالها اندسّ مفتاح في باب القضبان، وانفتح، والرجل الذي كان يحمل الفانوس اقترب. غشي ضوء حادّ بصرَ ياستراو، فعصَرَ عينَيْه. لم يُمَيِّز سوى حدود ضخمة لظلّ قامة.

"كيف الحال؟ هل نمتَ؟".

"آخ" ونهض ياستراو بدَعْم من عكسيه مثل أحد المحكومين في الجحيم(*). تذكّر صورةَ المسيح في ملكوت الموت. آه، المسيح! لِمَ كان كل شيء يطوف في الدنس؟

"تعبنا معكَ، لم يكن بالإمكان جعلكَ تنطق، ما اسمكَ، ولا كلمة. ولكنْ، علينا الاتّصال بدائرة التسجيل قبل أن يُسمَح لكَ بالخروج، هل فهمتَ؟".

أدلى ياستراو بالمعلومات الضرورية.

"ولكنْ، اسمع حضرتكَ، ما الذي فعلتَهُ؟".

"لا أعلم، لا شيء حتّى الآن، ولكن ذاك الذي في الداخل، جارك، وأشار الظّلّ من خلف الفانوس صوب الجدار، عقابه سيكون وخيماً. إنها الكحول، الكحول، أنا لا أفهم لِمَ لا تشرب الناس باعتدال؟".

ضرب بقَدَمه الأرض مُنزعِجاً حتّى إن الفانوس اهتزّ. كان مُربَّع الضوء الساقط منه في فضاء الزنزانة من حوله في حركة متأرجحة. ثمّ أكمل مزمجراً "غباء".

وجرّ قَدَمَيْه خارجاً ثانية، وهو يطقطق بكوب من الصفيح داخلاً الزنزانة المجاورة.

"يا لطيف" سمعه ياستراو يُطلقها بنغمة احتقار صريحة في صوته. "هل تتخيّل ما ستقوله أمّكَ لو رأتْكَ الآن؟".

"هاها، بهذا الخطم؟! لا، لن تتعرّف عليه".

"لو سمحتَ، لم يسألكَ أحد، لتتدخّل".

"لا، لا أحد، العياذ بالله".

وانصفق الباب ذو القضبان، والفانوس الأحمر صعد درجات السّلّم.

حين انقفل الباب، وابتعد صوت صَلْصَلَة سلسلة المفاتيح، شعر ياستراو بالإحباط. إنه

---

*) اقتباس من الكوميديا الإلهية لدانتي الفصل الأوّل

سجن. باللحظة، شعر بحالة من الغضب غير المفهوم يجتاح جسده. كان سجيناً. وحيداً. خذله الجميع. ستيفينسن. الآخرون. النادل. الساقي. خذلوه. وإلا لما أُلقي به هنا. كان جبناً منهم. ولكنْ، مهلاً لربّما كان قد غادرهم. لربّما لم يعرفوا عن أمره شيئاً. ولكن هذا مع ذلك جبنٌ منهم. عليه الانتقام. وفجأة تشكّلت لديه قناعة تامّة أن الشرطة قد مارست العنف معه. صح؟ وإلا لما شَعَرَ بذلك السخط والاستياء يتصاعد بداخله. لقد كانوا أغبياء. كان يعرفهم، تلك الحيوانات البدينة. لطالما شاهد تعاملهم الحقير الرخيص مع رجل سِكّير! وتلك الطريقة التي يقبضون فيها على الجاني. هيّا، امشِ! نعم، يعرفها، لقد شهَدَ ذلك كثيراً. وبتلك الطريقة كانوا قد تعاملوا معه أيضاً. لكنه لا يتذكّر كل شيء بدقّة للأسف. بدقّة! كيف تصرّفوا معه؟ آه، ذلك يُشعره بغضب ساطع. ظلمة! ظلمة! لا يتذكّر. ولكنْ، هكذا كانوا، ويجب فضحهم. يرفض أن يغادر حجرة التوقيف، سيرفض، يرفض، يرفض، يرفض أن يُطلَق سراحه، لن يُفلتوا هكذا من العقاب. سيبقى هنا. معانداً. فضيحة. تحقيق. لغو في الصحف. من قبيل لم يكن الوضع على ما يرام داخل السجن. ولكنْ، ماذا بالضبط؟ فقد كان مستلقياً براحة على السرير الخشبي. الأمر صحّيّ، والمرء يُشرّف بذلك.

كان محبوساً، وبذلك فقد شعر كما لو أن دماغه كان مشدوداً، تمّ ربطه بحلقةٍ بإحكام.

هل عليه النهوض والدبك داخل الزنزانة؟ مارش السجن، أليس هذا ما يُسمّونه؟

رأى حينها الجدار بلونه الرمادي. هل طلعت الشمس؟ كانت هناك كتابة مبهجة ناعمة بقلم رصاص:

-بيتر بويسين يُحيّي الأولاد السعداء كلهم - وبعيداً عنها، كان هناك تعليق بشعور أعمق: سكران على الدوام، سكران على الدوام.

كانت الكتابات مثل أشعّة شمس على تلك الجدران العارية. مثل ابتسامة رجل سمين. آه، اهدأ، اهدأ، لا عليكَ إلا أن تهدأ! لا تنسَ أنها مُجرّد كوميديا. - بيتر بويسين يُحيّي الأولاد السعداء كلهم -!

نظر ياستراو بعطف إلى المكتوب على الجدار.

- بيتر بويسين يُحيّي الأولاد السعداء كلهم -! وكأنها أهزوجة. رنين هادئ. صيحة غريقة ربمّا. سكران على الدوام. سكران على الدوام! لا، لعلّه لم يفهم. لربّما كان تعبيراً عن غبطة، ولربّما توبة! ولكنْ، كأن المكتوب أُغنيّة، ويا له من جدار لطيف يغنّي!

عادت الخشخشة عند الباب ذي القضبان ثانية. ولم يكن هناك من فانوس. آه، قد طلع النهار. لِمَ كان يفكّر بشاعرية؟ طلوع النهار!

"بإمكانكَ الذهاب" قيل له.

وصوت جاءه من الزنزانة المجاورة: "أيّها الخنزير المحظوظ".

نهض ياستراو فَرِحاً، فسرح بنطلونه إلى الأسفل. لقد نسي أمره. دسّ يَدَيْه في الجيبَيْن، ليُبقيه في مكانه. هيأتُهُ كانت سيئة، مثل متشرّد سِكّير. صعد السّلّم الحجري نصف المظلم، ودخل قاعة فارغة كبيرة. كانت بعض الشبابيك تطلّ على فناء أصفر رمادي. ضوء صباح حزين.

جلس خلف الشّبّاك سيِّد مُلتحٍ بزيّ شرطي، يراجع ورقةً مطبوعة.

"السَّيِّد المحرّر أوله ياستراو".

وقف ياستراو أمام الشّبّاك ذليلاً. بنطلونه سيسرح من جديد. شعر بأنه مذنب، لأنهم أخذوا الحمّالات منه، وكان جاهزاً، ليتمّ تصويره، جانب الوجه، ثمّ الوجه، ألبوم المجرمين، الأوصاف، لأنه كان من دون ربطة عنق.

"أشياؤكَ خلف الحاجز. بإمكانكَ الانصراف".

"ولكنْ، ولكنْ ..." لم يكن باستطاعة ياستراو السؤال.

"لا لا، لا شيء، مخالفة بسيطة للقانون، لا شيء، بإمكانكَ دفع الاثنَي عشر كرونة في مكتب الغرامات يوم الاثنَيْن. لا غير، لا شيء".

لم يكن بوسعه أن يحدّد إن كانت خيبة أم عزاء خلف التكرار الذي استمرّ في "لا شيء لا شيء". كانت لحيته لطيفة، ولكن نظرته كانت فارغة مثل فراغ القاعة التي لم يكن فيها سوى شبّاك، منضدة للكتابة، ولوائح الشرطة على الحيطان. صباحٌ حزين، كما يجب.

مشى ياستراو خلف الحاجز، ووجد حمّالات البنطلون وقُبَّعته اللّيّنة، وساعته وقلم الحبر ومحفظة نقوده داخل القُبَّعة، وبعض الرسائل وبعض العملات الهنغارية التي احتفظ بها، لتجلب له الحظّ. نقوده كانت في مظروف مُغلَق، كُتِبَ عليه بالحبر ثلاثة كرونات، وسبع عشرة أورا. هل هذا كل ما تبقّى حقّاً؟ كم كان لديه يا ترى عندما غادر بيته مع ستيفينسن؟ لم تجد الشرطة غير ثلاثة كرونات، وسبع عشرة أورا. عجيب!

كان غريباً أن يرى محتويات جيوبه أمامه. إنه شيء مخجل. وكأنها روح أو بوح حسّيّ، قد نُفِضَ في القُبَّعة. تناول على عجلة العملات الهنغارية، ووضعها في جيب الصديري الأيسر، النقود في الأيمن، قلم الحبر في جيب الجاكيت الأيسر، الساعة في الأيمن، هكذا الروح تكون في أمان، قد وزّع الدواخل، كما يجب. حينها رفع قُبَّعته قليلاً تحيّة لضابط الشرطة، ومشى عبر القاعة، ونزل بضع درجات إلى الأسفل عبر السّلّم. وقف عند بوّابة ضخمة، وشعر بدوار وتشوّش حين واجهه تيّار الهواء. لم يعرف إن كان عليه التّوجّه يميناً أم يساراً. اكتشف مبانٍ إلى اليمين بمدخلٍ مُؤطَّرٍ، قد تعرّف عليها ثانية رغم إطارها الغريب الذي لاح له في البدء. انسحب عبرها في ذلك الصباح المبكّر باعتيادية، وكأنه كان يغادر مبنى القضاء الضخم كل يوم.

سطَعَ ضوءُ الشمس ذهبياً، ولكن المباني مازالت رصاصية اللون. بعد لحظة، وصل شارع المشي. بدا له أن هناك شيئاً ما خطأ في المباني هذا الصباح. لم تكن في مكانها. كان يعرفها حقّ المعرفة تحت الضوء طوال اليوم بتغيره. الساعة السادسة صباحاً عندما تشعّ ساحة البلدية بوهجها الأبيض عند نهاية شارع فريديريكسبيرغيذه المظلمة، الساعة الثانية عشرة عندما تنتصب الشمس، وتغطّي الشارع والعاملين في المكاتب حاسري الرأس المسرعين إلى المقهى ساعة استراحة الغداء والعاملات في المحلات الحاسرات الرأس، وهنّ يركضنَ لقضاء شؤونهنّ في المدينة. الساعة الرابعة عندما تكون وجوه المتنزّهين في شارع فيستيربروغيذه بمواجهة أشعّة الشمس أو حين تضرب ظهورهم مثل ريح مداعبة. الساعة السادسة، حيث يشحب الضوء، وسرب الدَّرَّاجات الهوائية يكون في أقصاه، الجميع مُتوجِّه إلى منزله، إلى العائلة، صباحاً ومساء يقرأ ياستراو الساعة عبر إيقاع الناس، ولمعان الضوء. ولكنْ، في الساعة الثامنة صباحاً، وهو ما كانت عليه، بدا له الحال غريباً. لم يعرف ضوء ما قبل الظهر والظلال مُلقاة بشكل خاطئ. مرّ الموظّفون بدرّاجاتهم. كان وقت الزحام الصباحي. نظر إلى الوجوه الصاحية، والتي مازالت مُقفَلَة. تطارده الدَّرَّاجات الواحدة تلو الأخرى. بدت كأنها أشكال أشجار أو قامات غائمة في فلم، لم تتفاعل بعد مع الواقع الحَيّ.

لم تدبّ الحياة فيها بعد. كم بدا العالم رمادياً، برغم شمس الصباح الذهبية، وبرق الدَّرَّاجات الأزرق الفضّيّ الذي يخطف في الأجواء. ولكن هذا الضوء الساطع كان شبحياً. من الممكن أن يكون بعض الرمادي في هذا الذهبي، بما أنه قضى ليلته مُعربِداً. كان تأثير الضوء عليه مَرَضياً.

ألقى التَّحيَّة على رجل من البرلمان، مرّ به، كان حيوياً، من راكبي الدَّرَّاجات الرماديّيْن بوجوههم المتمرّنة. حيّاه بأدب وسرحان. قناع يحيي قناعاً. ولكنْ، لعلّه المبيت المريع في التوقيف،

الإحساس بالدونية الذي رسخ بداخل ياستراو، ما جعله يشعر بذهبية الصباح تلطّخ الناس بالرمادية، كما لو كانوا شيئاً غير حقيقي، أرضاً قفراً.

ما الذي يعرفه الناس عنه؟ هل يعرفون من أين أتى؟ وما الذي يعرفه عنهم؟ كانوا جميعاً أقنعة، هناك ستار بلوحات بيوت، محلات، لوحات إعلانات، وأرصفة، مشاة وراكبو درّاجات، تمّ سحبهم جميعاً من الواقع.

عندما وصل شقَّته الخالية، شعر بالبدء بالراحة. ها هي الأبواب مُقفَلَة. لا أحد سيدخل. غرف الشَّقَّة وصالاتها كانت أقنعة كبيرة، لبسها بمواجهة الحياة. يوهانه ستأتي في الغد. كان ذلك لحسن حظّه. سيتمكّن بذلك من النوم. لا يجب أن يتقابل وجهان الآن. ولكن صورة أمّه في الإطار الماهوغني، المرأة الشَّابَّة وصورة ابنها في الإطار الذهبي، الشَّعْر المبلل الذي مُسِّدَ بطريقة مضحكة على جبهة الولد. كانا على الرّفّ، كلاهما، يُحملِقان فيه. وجهان من المستحيل أن يعرف ماذا كان بمقدورهما أن يريا. كان عليه أن يديرهما، فللحظةٍ بديا فيها أكثر حقيقية من زوجته الغائبة.

زوجته! كان بإمكانه النوم طويلاً قبل وصول زوجته. بإمكانه أن يضع مسافة بينه وبين كل شيء. حقيقة كان يشعر بآثار السرير الخشبي على جسده، مطبوعة على كامل جسده بقسوته. والحقيقة، فالإحساس الغريب ظلّ يتملّكه، وكأنه مازال من دون حمّالات. راح يخبّ في المكان.

ويا له من صوت لو انصفق باب في هذه الشَّقَّة الخالية! لم يكن هناك شيء ليلتهمه في غرفة الطعام. لم يكن هناك سوى قهوة في العلبة. وكيف يتمّ تحضير القهوة؟ آآ، عليه بغسل كيس فلتر القهوة، وما إلى ذلك. لا، لا طاقة لديه على ذلك.

هناك بعض من الزبدة ملفوفة بالورق، من غير شكل، ذائبة بسبب بقائها تحت الشمس، وهناك قِطَع من الخبز الأسود اليابسة مع نثارها في الصحن. وسكّين قد استعملها للزبدة بالأمس مازالت على طاولة المطبخ، وبضعة صحون وسخة، بقشور البيض مع بقايا سمك الرنجة، لا لا، كم بدت له تلك الأجسام الميّتة صارخة! بعناد، برزت أمامه، بالاضطراب وبالفوضى، وبعناد عليه أن يحاربها، بعناد عليه أن يقمعها، ولم يكن ذلك بمقدوره، لم يكن بإمكانه أن يستجمع شجاعته، ليقرّر فيما لو كانت هذه الحرب هي أيضاً تستحقّ العناء.

تناول قطعة خبز يابسة، وراح يمضغها. كان الأمر سخيفاً. في شقَّة ذات أربع غرف خالية، كان الرجل يقرض كسرة خبز. هل كان ذلك عُزوفاً؟ لا، ولكنه العالم، كان من غير الممكن الانتصار عليه.

اذهبْ إلى الفراش! داخل غرفة النوم كان الضوء باهراً. أشعّة شمس ما قبل الظهر. لم يكن

هناك تدرّج لوني لظلالٍ مساومةٍ ما على الفراش غير المرتّب، الشراشف المجعّدة، المخدّات بطبع رأسه لليلتَيْن. لم يكن هناك من مساومة. ولا في الفناء الخلفي للعمارة تحت. كان السجّاد يُضْرَب، وكل ضربة كانت تتأرجح رواحاً مجيئاً بين واجهات الفناء بصعودها عالياً. كانت الحياة في ما قبل الظهيرة هذه صعبة وواضحة، واضحة جدّاً درجة أن ترى قَدَرَكَ المحتّم ما إن تنظر في المرآة.

هل يحلق ذقنه؟ لا، المرآة! Ecce Homo! لا! ولكنه رمى بملابسه كلها التي عليه، وترك للإسفنجة الرطبة الباردة أن تنزلق على جسده. شعر بالحال بابتعاده قليلاً عن قاعة التوقيف. كان في طريقه لشطف جسده منها.

تقوقع في سريره عارياً. رغم أنه كان معفوساً، فقد روّح عنه. دخل تحت اللحاف، ليحجز عنه الشمس الساطعة التي أصابتْه في روحه اليوم. الضوء الصارخ في مستشفى! وغاب تماماً.

عميقاً في الظلمة، شعر بالحال بشيء يُومِض، وكأن تفكيره العصبي كَمنَ في جفنَيْه. هل كان في كوخ ينظر إلى انعكاسات الضوء التي كان الموج يلقيها عالياً عبر كوة صوب السقف؟ نعم، هذا ما كان تحت جفنَيْه المغلَقَيْن. ولم تكن خطوط بيض متموّجةً، لا تني تضربه، بل كانت ذهبية برونزية. وقد طافت أزهارٌ غير معروفة على سطح الماء من حوله. بلا انقطاع. انتابه قلق حتّى إنه جاء على حَكّ أسفل رقبته.

تعرّقت حتّى يَدَيْه. شعر فعلياً بذلك، وقد مسح العَرَقَ من على جبينه، ليتأكّد. السّبّابة كانت كما لو أنها غطّت في ماء لزج. ازداد الأمر سوءاً. تعرّق وتعرّق، واشتدّ الألم في ظهره، والذي اضطرّه إلى التّقلّب على البطن والظهر. هل كان مستلقياً على مصطبة تعذيب؟ من المستحيل أن يهدأ جسمه. شعر بأنه سرعان ما سيُغمى عليه. شيء ما أحكم قبضته حول رقبته. من المستحيل أن يستلقي بهدوء هنا.

نهض باللحظة التي تلتْها من السرير، ووقف على الأرض عارياً تماماً. وبالطبع، نسي أن يُغلق الستارة، وكانت هناك بالطبع زوجة فتية في نافذة مطبخ الشّقّة المقابلة. حسناً، كان ذلك شأنها.

- بيتر بويسين يُحيّي الأولاد السعداء جميعهم - بيتر بويسين يُحيّي الفتيات السعيدات جميعهنّ. ابتسامة عريضة من رجل بدين. هكذا يجب أن تُعاش الحياة.

عاد لملابسه! هل يحلق ذقنه؟ لا، سيقصد الحلاق لهذا الشأن. ثلاثة كرونات وسبع عشرة أورا! كان بحاجة إلى مُقدَّم مبلغ. ترطّبت المنشفة وهو يجفّف جبينه.

القليل من البيرة الآن!

وجد نفسه في اللحظة التالية جالساً في حانة حقيرة، لم يعتد على ارتيادها من قبل. جلس عند طاولة صغيرة مُربَّعة قرب النافذة، ليتمكّن من متابعة الزقاق عبر الستائر الشَّفَّافَة. في كل مرّة تمرّ فيها امرأة تحت ضوء الشمس كان ينتابه شعور بعصبية شديدة. كان يرصدها، وهل كان لديها قوام جميل، ساقان متّسقتان؟ وينقلب حاله، ويشعر بجنون، ويحسّ بشَفَتَيْه وهما يتهدّلان، وهل كانت مشيتها رشيقة، مُجرّد شيء ما سخيف، ليشعر بالارتياح.

وعليه بذلك أن يشرب. ليشعر بهدوء ما. ربمّا كان مُجرّد وهم، لأن العَرَقَ جفّ من على جبينه عندما شرب البيرة؟ وعند البار، كان النادل ذو القميص الأبيض يُهدّئ نفسه بالطريقة ذاتها.

كان عالماً فارغاً. طاولة البليارد، لوحة كُتب عليها بالطبشور بضعة أرقام. صفّ من عِصِي البليارد، وعاء البصق، رملٌ على الأرض، ذلك كله يشكّل كواليس لما بعد العرض، بلا حياة ولا معنى.

وفجأة وقعت عين النادل على الأرقام، في اللوحة، فراح، ومسحها.

"آه، تلك القحبة" دمدم. وهذا كل ما حصل.

قرّر ياستراو فجأة المغادرة وعدم محادثة هذا النادل ذي الوجه البنفسجي الذي أظهرت شَفَتُهُ السفلى الضخمة رغبة بالحديث مفصّلاً عن تلك المرأة.

نهض ياستراو، دفع الحساب، ومضى.

في الشارع، وكأن تلك الغلالة قد اختفت. لم يكن ينظر الآن إلى النساء عبر ستارة شَفَّافَة. وبالرغم من ذلك، كان مُجْبراً، كان يُجبَر على تأمّل سيقانهنّ، تمرّ به خيالات عابرة، يقلّبها في رأسه. وكأنها حالة مرضية، لم يُنكر وجودها. كان رصده من خلف الستائر قلقاً، ولكنه الآن قد فَقَدَ السيطرة على نفسه رغم أن الجميع يمكن أن يراه. لمَحَ ساقَ امرأة من مسافة بعيدة، بعيداً في الفرع الجانبي ربمّا. توقّف ثمّ استدار فجأة وتبعها. هنا في وضح النهار! وفي خطوط متعرّجة عبر الأزقّة. كان الأمر لا يُطاق، أشبه بكابوس، ومن دون ضبابية الحلم، ولا شَفَقَه.

لم يعرف كم من الوقت أمضى وهو يدور في الشوارع في منطقة الفيستربرو. كما لو لم يكن بمقدوره الخروج من ذلك. مرّت العديد من النساء عبر الشارع، كنّ يقصدنَهُ، ولم يكن هناك مجال لسوء الفهم. منهنّ مَنْ حملت وعاء القشطة في يدها أو لفافة بالمعجّنات. وكان هناك نساء أخريات، بلى، يمكن أن يكون مُخطِئاً. كنّ سيّدات صغيرات. خادمات بيوت يحملنَ سلالاً

أو وعاء قشطة. تركيبة عالم بأهداف مختلفة. بينما كان مايزال يضمّ الليل بين ثناياه، ويشعر بأنه مهووس بذا الاشتياق إلى الليل منتصف النهار القاسي.

كان جزء من هذا الواقع حلماً. وإلا لماذا صارت هذه البنايات العالية الرمادية ذات معنى بالنسبة إليه؟ كان لجدرانها مسامات مَحشوّة بالمادّة الرمادية ذاتها في خلفية الأحلام. كان ينظر إليها من الأعلى إلى الأسفل. فندق رخيص. فندق رخيص، لذلك مفعول السِّحْر، تلك الكلمة التي تقترن حروفها بالحلم حال الاستيقاظ. الستائر، السيراميك، كل شيء كان رمزياً. كان بإمكانه أن يجرّ نفسه بعيداً عن تلك المنطقة المشهورة بالغرف المفروشة للإيجار. لا، البيرة لم تُعِنه بالقضاء على اضطرابه. هل سيكون الأمر مختلفاً مع الويسكي الملعون؟

صعدت حماوة مثيرة في جسده. ساقا امرأة بيضاوان داخل بوّابة! اضطرّ للتّوقّف. لا، أعبرهما! هذا جنون. عَبَرَهُما. عَبَرَهُما. الرجل المستذئب ينطلق في وضح النهار.

انزلق التِّرام، يُصدر صريفه بهدوء، أصفرٌ مُنهَكٌ. ومضت أشعّة الشمس على نوافذه الكبيرة بركّابه المحشروين ظَهْراً إلى ظَهْر. ولكنه لم يصل هذا العالم. هذا العالم كان واضحاً مثل صورة منعكسة على سطح الماء، وهو لم يتمكّن من الدخول إليه. الناس مسرعة في انطلاقها. وفي عودته إلى العالم الآخر الذي تصوّر أنه جاء منه، وجده قد تصحّر، وفرغ. دخل من جديد إلى حانة أخرى، فوجدها خالية، هم بصدد القيام بالتنظيف. تمشّى قاصداً باراً، بار -أورينت(*)- أو ما إلى ذلك، وكانت غلطة. التزويق والفوانيس الملوّنة والنُّدُل الذين بدوا مزيّفين، وقد علاهم الغبار. فرك النادل عينَيْه النعسَتَيْن، وتثاءب بطريقة غير لائقة. كل شيء كان سطحياً.

ومع ذلك، كان يودّ البقاء في الفيستربرو. كان عليه، في الحقيقة، أن يسير بإيقاع مغاير لإيقاع ناس اليوم. آلمتْهُ قَدَمَاه، بسبب عدم هجوعه. ولكنْ، حسبه ألا ينسحب إلى الزقاق الفرعي الثاني مرّة ثانية، لأنه قد لمح من جديد الساقَيْن الحريريَّتَيْن الطويلَتَيْن بعيداً على الرصيف أو على الجهة المقابلة من الشارع، أَمَلٌ بلونِ لحمي، لوّح له من بعيد، حيث ساحة هالمتورف. حسبه ألا ...

عندما تغيب الشمس، سيعمّ الهدوء، هو يعلم ذلك. سيشفيه. ولِلَّيل مفعولٌ مُبرِّد. ولكنْ، لازال هناك العديد من الساعات، ليحين، ساعات عديدة للشمس، وعليه أن يجول ليقطعها، مدفوعاً باضطرابه، ولا استقراره، اللااستقرار. يتساءل إن كان هذا ما يؤدّي إلى ارتكاب أحدهم لجريمة؟ هل هذا هو تأنيب ضمير؟ ولكنْ، لا تأنيب ضمير لديه. كان شعوراً فيزياوياً، مَرَدُّهُ ذلك الويسكي كله الذي دخل جسده. ولكنْ، اللعنة، وكأن الروح هي العلّة.

---

*) (1904-2004) كان محلاً معروفاً للدعارة.

دخل ياستراو ليُحلّق في محلّ لا على التعيين، اندفع في الكرسي، ولكنه تجنّب النظر أمامه في المرآة. Ecce homo ! حين مال جسده إلى الخلف، ليتّكئ بظهره على الكرسي، شعر مجدّداً بفراغ ودوار في ثقب جمجمته الكبير. عليه، بالرغم من ذلك، أن يلزم الهدوء. مستحيل تقريباً. أخذ القلب يخفق بشدّة. واجتاحتْهُ تلك الخيالات المرعبة، مجموعة من الرجال المحدثين يرتكبون عملاً إرهابياً عصابياً. كان منظر سكّين الحلاق الطويلة التي لصفت تحت ضوء الشمس خطيراً. والحركة الخفيفة لشَفَة الحلاق الرقيقة، وهو يرفعها جانباً خلال ذلك بثّت الرعب فيه. لحسن الحظّ أن المهمّة انتهت بسلام.

قصد ياستراو بعدها -داوبلاذيت- واستلم مبلغاً مقدّماً، قدره مئة وخمسون كرونة. كان رجلاً شاباً بشعر أسود، قد فتح سجلّ الحسابات، وألقى نظرة جانبية إلى حسابه. "أنتَ أيضاً ستبدأ بهذا الطريق؟" علّق بصوت حزين. ورفع ياستراو من صوته أوكتافاً نائحاً حتّى شعر بالخزي من النغمة الغريبة التي صدرت منه، ولكنه استلم المبلغ.

من جديد كان في شقّته الخالية. وصل إليه في البريد فاتورة التأمين للحريق. كان بإمكانه التّوجّه مباشرة لتسديدها بالحال، وبذلك ينتهي منها.

وقف للحظات وضبّة الفواتير في يده. تصفّحها كما لو يتصفّح كتاباً، وفجأة وضع ورقة المئة كرونة في الدُّرْج، وصفقه بقُوّة، وعاد، واستدار بالباقي من فئة العشرة كرونات، ليغادر البيت، وينزل السّلّم.

مكاتب شركات التأمين وضوء الشمس الحادّ عبر النوافذ الكبيرة، زجاج، زجاج، زجاج. لمعان الطابعات. صالونات الحلاقات التي شعّت تحت الشمس مثل هالات. والصفحات البيض اللّمّاعة لسجلات الحسابات التي رقص وهج الضوء عليها مثل نار سائلة مزرقّة. وذلك الألق المشعّ للأرضية المَطليّة بالشمع. سطوح صقيلة صلبة. فضاء معقّد، كما لو كان داخل كابينة مرايا. وحركة إبحار في كل شيء، يمكن فقط الإحساس بها، الشعور بها، ولا رؤيتها. شعر بينما كان يدفع البوليصة أن جزءاً من ذاته كان يتخبّط، ويتلمّس بُعْداً جديداً.

كم دار رأسه!

هل يتوجّه إلى بار دس آرتيست أم إلى محلّ آخر، حيث الشفق المرتخي الساعة الرابعة عصراً؟ الشمس غربت. البوّاب يغلق الباب بعد دخول الزبون. حركة المرور اليومية بعيدة وغير حقيقية مثل ضجيج في الكواليس خلف ستارة مُسدلَة. اختلف الإيقاع.

يعزف الغرامافون موسيقى -فوكسروت(*)- بطيئة هادئة. تصلصل الأقداح. الثلج يتكسّر في خلاط الكوكتيل. برودة. أزيز المراوح وأناس مرتخية.

عرف بذلك أنه يودّ البقاء هنا لعشر ساعات.

لا، كان عاقلاً، ذهب إلى مطعم لا يقدّم الكحول، ليتناول الطعام. كان المطعم بالطبع في فناء خلفي، يشبه قاعات الجمعيات في الريف، بأعمدة وشرفة. وهنا لا يدور حوار بين الموجودين. هنا تُقرأ الجرائد. والناس تبدو صالحة راشدة. شباب شغولون بعقول بسيطة وعيون صاحية صافية، أنوف شاحبة وبدلات عمل زرق، قُصّرت أكمامها. فتيات شابّات بشعر ملموم بحبّاسة شعر أو مفروق من الوسط. فتيات مثابرات، لهنّ آراؤهنّ، بأحذية ثقيلة، سيّدات بسلاسل ساعات طويلة، وشَعْر لحية ناتئ على الذقن. نظّارات من غير أذرع. مبادئ أخلاقية عالية في الأجواء. لا شمس. لا انعكاس من المرآة. لا ذهبية للألوان. رمادية فقط، ضوء ناصع.

هل ينتظر حتّى تغيب الشمس؟

قرأ الجرائد جميعها. شرب أكثر من اللازم تقريباً من البيرة المعفاة من الضريبة، أكثر من اللائق في هكذا مكان. لقد كان يكرع شرابه. وعندما طلب زجاجة أخرى في أثناء تناوله لطعامه، ابتسم للنادلة، وكأن تواجده في المكان هذا نكتة، ولكنها لم تفهم ذلك.

أفلح في البقاء طويلاً مع ذلك قبل أن يغادر لحسن حظّه. فلو غادر، كان سيلتقي في الشارع بأحد المعارف، وإن التقى بأحد المعارف، فسيلتقي بدوره ببضعة كؤوس شراب مجّاناً. كانوا يدورون في الشوارع، ويقدّمون دعواتهم.

عندما غادر أخيراً، كانت مباني فسيتربروغيذه ازرقّت تحت الغروب.

أليس بمقدوره الآن الذهاب إلى البيت، وإقفال الستائر، والاستلقاء من أجل النوم. كانت قَدَمَاه مُتعَبَتَيْن جدّاً، وجسده مُنهَكاً. كان يجرّ ساقَيْه الواحدة بعد الأخرى، وركبتاه قد تنثيان. ولكن ضوء الغروب كان في عيون النساء، وقد خَفَتَ صوت حركة السير، وتبدّد في الهواء. كان هناك فضاء ورنين. وضحكة خفيفة تصادّت من فوج البشر باعثة البهجة فيه.

مرّ بإمرأة ترتدي طقماً بُنِّيّاً. وقف ساكناً عند حافّة الرصيف. ساقا المرأة البضّتان كانتا مُتّسقَتَيْن. خطوة حذو خطوة. كان قوامها منتصباً، هل كانت تتعمّد إثارته؟

(*) Foxtrot موسيقى رقصة أمركية حيوية لزوج من الراقصين 4/4 الدبلك، ثمّ الخطو. ابتُدعت أواخر العام 1913 في أمريكا قبل الحرب العالمية الأولى

استدار عائداً، ومرّ قريباً منها. لم تكد العيون تلتقي، ولكنه شعر بشيء، لا يمكن تجنّبه. كان حتمياً. وهي المقصودة. لم يشأ أن يخبّ أبعد بخطواته. وإلا، آه، لقد عرف ذلك. سيتعب من المشوار، يُحملِق في النساء، يريد، لا يريد، يسير ويسير حتّى يكاد يتهالك. ولكنْ، هي، يريدها هي. حيّاها. ثمّ سار ببطء في الشارع إلى زاوية منه. عند الزاوية، كانت قد اقتربت جانباً لصقه. نظر إليها. جسدها منتصب. وجهها عريض غير محتشم، ولكن عينَيْها الغامقَتَيْن عميقتان.

"أهلاً" قالت بهدوء.

"ما سعركِ؟" سألها وهو ينظر مباشرة أمامه. تابعا سيرهما معاً جنباً إلى جنب، وكأنهما يعرفان بعضهما البعض. خطوتها على إيقاع خطوته، وهي تجيب بهدوء "عشرة".

هزّ رأسه موافقاً، وتابعا السير بسرعة أكبر.

ليس بمقدوره الآن أن ينسحب. سيكون الأمر سخيفاً. كانت تسير إلى جانبه، بإيقاع ثابت. كما لو كان الموضوع مفروغاً منه. كان سرعتهما قَدَرَاً محتوماً بتصوّره. الشهيق المحبوس ذاته، الذي يشبه النظر إلى عقرب الثواني، وهو يتحرّك، فيدرك المرء ما تعنيه في النهاية كل حركة. تبادلا بضع كلمات بخصوص الطقس. عدا ذلك، ساد صمت غريب وجفاف بينهما.

"هل سنمشي طويلاً؟"

"كلا، إنه على مقربة، أنا أقيم عند أختي".

لِمَ على النساء أن يُطوِّقنَ أنفسهنّ بهالة من الحياة العائلية؟ ما قالتْه هو من ضمن المقولات التقليدية التي يردّدها الناس. لربّما كانت هذه من مُثُلهم العليا.

ابتسم، ونظر فجأة إليها. عليه التّعرّف على وجهها. كان شَعْرها أسوداً، وعَظْمَتَا خَدَّيْها تحت العينَيْن بارزَتَيْن. الفم كان كبيراً، مبتذلاً إلى حدّ ما. فكّر أنه كان قد رأها من قبل.

"أعتقد أني أعرف حضرتكَ، من هيأتكَ" قالت له باللحظة.

"أنا؟ لا؟" لستُ من هذه المنطقة." أجابها من دون اكتراث، ثمّ توقّفا عند مبنى قديم بسُلّم حجري، ومدخل إلى القبو. في الطابق الأرضي من المبنى، كان هناك محلّ بيع طوابع، وعندما كان ولداً صغيراً، كان يقف على أطراف أصابعه، ليتمكّن من النظر في الواجهة إلى الطوابع الجميلة من البوسنة والهرسك، وهو يخشى خلالها الوقوع في فتحة القبو. كان يجوب في الذكريات في هذه المنطقة! للأسف.

"هيّا" وسبقتْهُ في المشي.

تأمّل ظَهْرها وهي تصعد درجات السّلّم. مظهرها يجب أن يُثيره. شعر بحماوة في وجهه. كان مستثاراً، بلى، ولكنْ، في الوقت عينه، غير مكترث، على شفا الحزن. لها عنق أبيض ممتلئ، كان قد رآه، ولا بدّ، من قبل.

كانت تسكن في إحدى شقق كوبنهاجن القديمة، الغرف الضَّيِّقة والسقف الواطئ. على لوحة الباب كان مكتوباً -إي. كوبف، خرّيج صيدلة-. بدا الأمر لغزاً. فيما عدا ذلك، فكل شيء كان واضحاً في الداخل. أريكة بشكل مائل في الزاوية، والستائر وورق الجدران كلها بنقشات صغيرة وستائر شَفَّافَة مُسدَلَة على النوافذ. وهناك لوحة معلّقة على الجدار، فيها سيِّدة، ترتدي فستاناً ذي قصّة إمباير، وسيّد يرتاح معها تحت شجرة، سعيدَيْن في أحضان الطبيعة. والإطار كان بيضوياً مذهّباً كالعادة. بيضوياً!

"كما ترى، أنا أقيم هنا" قالت الشَّابَّة وهي تُحرِّك وركَيْها.

"مكان مريح" أجاب ياستراو، وهو يجول النظر في أنحاء الغرفة. لقد مسّتْهُ اللوحة ذات الإطار البيضوي. لكنها قاطعتْهُ حينها.

"هل نقول خمسة عشر، وسأنزع لكَ كل شيء؟".

جملة محترفات جاهزة يعرفها.

أومأ برأسه موافقاً.

حين نضّت عنها ملابسها، اكتشف عقداً من حجر الكهرب حول عنقها. لونه الأصفر البارد على جِلْدها الناشف الذي اكتسب وهجاً من الذهبي تحت ضوء الغروب عبر الستائر الشَّفَّافَة. بدا جِلْدها طاهراً. لم تشأ أن تنزع العقد، ولم يعارضها ياستراو، لأن العقد سيضفي عليها مسحة من الجمال، وهو كان دوماً ينشد الجمال، قليلاً، القليل منه، على أيّة حال، ما يوزاي الخمسة عشر كرونة. وجد جسدها جميلاً، وابتسم بإعجاب وانفعال.

"يا ربّي، يا رجل، أنتَ خجول. هذا ما لم أتصوّره" وضحكت وهي تلوي أذنه.

الفصل الرابع

اليوم تصل يوهانه وهم مَدعوون عند أويفند كرو مساء، بملابس سهرة كاملة. دعوة متأخّرة لهذا العام، قبل حلول الصيف تقريباً.

لم يكن ياستراو قادراً على التفكير في أبعد من ذلك. ستأتي يوهانه! كان وحيداً لفترة طويلة. كان من المستحيل التفكير بما هو أبعد من الساعة العاشرة والنصف. سيكون حينها جالساً عند الدكتور إي. رامبوش، أجل، وعندها ...

مشى بخطوات نشيطة طوال شارع المشي، مستقيم الظهر منتصب القامة، ولكنْ، بحرارة في الرأس. من الغريب أن يأتي على التفكير بالمشهد الذي حصل مع فولدوم في بار دس آرتيست. تذكّر معاني وجهها السلافية، العريض وغير المحتشم. ذلك ما تذكّره. كيف كان ذلك؟ بلى، لقد جاء ذلك الرجل الفقير القصير بالجاكيت الضَّيِّق، وقطع طريقه في البار حاملاً سلّة الزهور في ذراعه، وفي يده ثلاث وردات جورية، بلون أحمر فاتح.

"كيف تصوّرتَ أن بإمكانكَ بيع زهور هنا، فكما ترى، ليس هناك من سيِّدات في البار؟" وكأنه كان يسمع صوت فولدوم الحادّ وهو يقول جملته هنا وسط زحمة الرصيف عند مطعم -برنينا-. رنّت كل كلمة مثل الحديد، رغم أن الحادث قد مضى عليه أكثر من عام.

فستان أسود، عنق عريض أبيض، ممتلئ، على أيّة حال. بلى، كانت هي. كانت هي. ما الذي كان فولدوم قد أطلقه عليها؟ ... سوداء؟ ... سوداء؟ انطلق ياستراو مسرعاً بخطواته عابراً إلى الجانب الثاني من الشارع تحت أشجار الزيزفون عند كنيسة الروح القُدُس.

"هل تعرف ما هو أسوأ من جرح مغطّى بالبودرة؟" جرح تمّت تغطيته بالبودرة. ألم يكن هذا هو تعليق فولدوم؟ تراءى له أنه كان يسمع الكلمات ورنينها، ويتذكّر عدم ارتياحه جسدياً حينها. آه، ليته تمكّن من الحصول على معاينة لدى دكتور رامبوش اليوم. كانت هي، إنها هي ذاتها .... السوداء؟ ماذا ... إيفا السوداء؟ أم ...؟ كانت هي.

وفجأة تملّكه الرعب ثانية حتّى صعب عليه التّنفّس. أخذ يلهث تحت الشمس. يا لروعة الطقس! بقع الشمس على البلاطات. ذرق الطيور الأبيض الذي يشبه قطرات كلس. أشعّة الشمس! ولكن ذلك مؤلم! وفي المساء، عليه أن يرتدي طقم السهرة، ويحاور هذا وذاك. معاقرة الخمرة والتوقيف، البنات والدكتور والغرامة، ذلك كله سيتمّ إخفاؤه خلف صدر القميص الأبيض. Ecce Homo !

الشارع الفرعي لسَكَن الدكتور رامبوش كان مَخفياً. تطلّع ياستراو إلى ما حوله بحذر قبل أن يدخل عبر الباب المُطلّ على الشارع. من الغريب أن نوافذ المباني المقابلة كانت جميعاً باهتة. بينما الخلفية كانت صفّاً من مكاتب كوبنهاجنية تُثير الإعجاب، والتي أدارت ظهرها له بأدب، فلم يلمحه أحد، وهو يتسلّل إلى الداخل.

يا لحسن حظّه! كان هناك وقت للمعاينة، كُتب على اللائحة -الباب مفتوح-.

لم يكن هناك في غرفة الانتظار البُنّيّة البائسة غير رجل، أحرقتْهُ الشمس، كان يتصفّح بعَينَيْن سارحة مجلّة -يوميات العائلة-. كان له وشم مَرساة على إحدى يَدَيْه.

حاول ياستراو قَدْرَ المستطاع ألا يُظهِر اهتماماً به. "مرحباً" تحشرجت في كل من حَنْجَرَتَيْهما. كأنها نخرة خنزير. بعدها توجّه ياستراو لتعليق قُبَّعته على مِشْجَب القُبّعات. كان مِشجَباً قبيحاً منتصباً في الزاوية من الغرفة، يشبه ما يُوضَع في الحانات، انتصب في الزاوية، كما في غرفة الزوّار في شارع ستينوسغيذه. آه، كان هذا الشيء الضخم، الوحش، لا محالة في كل الأمكنة التي تلجأ فيه الناس لطلب المساعدة. كان يشبه آلة تعذيب قديمة، عجلة تستند على وتد!

هناك دوماً حُكم ما بانتظار صدوره. حُكم مُتوعّد، وبقسوة العصور الوسطى البربرية. ما جدوى الإنسانية الحديثة؟ لا شيء، لا شيء. الناس تجلس عند طاولات حقيرة في كل مكان بانتظار حُكم، يصدر بحقّها أو وحي ينزل عليها، ولا شيء غير إناء البطاقات الشخصية أو الأعداد القديمة من مجلّة يوميات العائلة، كسلوى وعزاء للعيون، بينما هم ينتظرون وينتظرون.

انفتح الباب، وأطلّ منه الطبيب بصدريّته البيضاء. سطعت الشمس في الغرفة من خلفه، وللحظة، لاح ضوء بخطّ مائل في غرفة الانتظار شبه المظلمة. نهض البحّار، ودخل، لأجل ماذا؟ حلّت الظلمة من جديد. وماذا عن ياستراو؟ لأجل ماذا سيدخل غرفة الطبيب بعد قليل؟ لا شيء يمكن تحديده الآن. ولكن الوقاية، الوقاية لحسن الحظّ. كم كلّفت الحماقات من المال الكثير؟ كلّما أنفقتَ عشرة كرونات جرَت وراءها أخرى.

وانفتح الباب ثانية. كانت عينا البحّار حمراوَيْن حين عبر غرفة الانتظار، والآن جاء دور ياستراو.

كان رجلا متورّداً، هذا الدكتور رامبوش. بدا نظيفاً بصدريته البيضاء أحمر الخَدَّيْن وحاجباه بلونهما الفاتح جعلاه يبدو رجلاً محتالاً.

"وحضرتكَ؟" سأله، ورفع يَدَيْه المغسولَتَيْن أمام الشمس التي اخترقت النافذة. "ما الخدمة التي بإمكاني تقديمها لكَ؟" وكأنه سؤال رجل أعمال، وكان له ذلك المفعول المهدّئ بالحال لياستراو. صارت المسألة بمجملها ببساطة غير شخصية، شأن مهني سرعان ما ينتهي.

"ااا، مُجرّد حماقة ارتكبتُها".

"المعتاد نعم نعم، قل لي منذ متى؟"

"آا، بالأمس".

"حسناً، أتيتَ حضرتكَ إذاً بالوقت المناسب. سنزيل البلاشفة(*) لا مشكلة. هل لي لطفاً أن أطلب منكَ التّفضّل والجلوس هناك على سرير المسرّات."

وأشار بحركة من يده، يدعوه للدخول إلى غرفة صغيرة، حيث كان هناك سرير فَحْص من الزجاج.

"حقيقة كان غباء منّي" قال ياستراو وهو يستلقي.

"بالطبع" قال الطبيب وهو يلفّ قطنة حول عود رفيع.

شعر ياستراو بألم مُمضٍ لبرهة.

"الأفضل دائماً أن تعالج الحرقة بالحال" علّق الطبيب مبتسماً. "لم يحدث أن عاد إليّ مريض ثانية مشتكياً من العلاج".

كل شيء كان واضحاً وضوح الشمس، وروتينياً.

أشعّة الشمس وصدرية الطبيب البيضاء، البيضاء جدّاً درجة انعكاس التّدرّج الأصفر والأزرق من بياضها، رافقتا ياستراو الطريق إلى غرفة الانتظار المظلمة، تخيّل تيّار الضوء وهو يدفعه خارجاً. لقد نسي تماماً المِشجَب الذي كان يشبه أداة تعذيب، تناول القُبَّعة، وخرج ضاحكاً تقريباً.

---

*) استعارة كانت تُستخدَم لمرض السِّفلِس

- بيتر بويسين يُحيّي الأولاد السعداء كلهم -

غمرت الشمس أوراق أشجار الدَّرْدَار في ساحة الملك، وقد بدت المباني بعيدة خفيفة بألوان جَليّة. كان الوقت مازال في الضحى. هواء عليل على الرصيف، صفاء في النوافذ اللامعة. كم شعر براحة! بين الحين والحين تطارده آلام حارقة. يُعدّل من قامته في سيره مبتسماً. إنما يحدث كل شيء لأجل الضحك منه. - بيتر بويسين يُحيّي ...! أليس هكذا تؤخذ الحياة، ابتسامة مسروقة لرجل بدين؟!

ولكنْ، مَنْ يتخيّل أنه كان مُلقى في الحجز، يتحدّث عن المسيح في نومه! كان قد مرّ وقت طويل جدًّاً. تحت أشعّة هذه الشمس، شعر أن الوقت الذي مرّ طويلاً، نقطة معتمة في ماضيه. ولكنْ، لم شَرَع المسيح يمزح معه؟ هل كانت زيارة شارع ستينوسغيذه خلف ذلك؟ لا، لا يمكن أن يكون الرجل القصير الداكن البشرة الذي يلعب بالأفكار، كما لو أنه يلعب بسكّين، محض عرض سيرك سكولاستي(*). هل طبع ذلك أثراً عميقاً في نفسه؟ لا، وألف لا. وربمّا أيضاً! هل كان ذلك الأب الأسمر مثل ظلّ ماكث خلف أفكاره؟ من الغريب أن كل شيء يسكن أرواحنا، من دون أن نشعر بذلك. لا شيء يتمّ نسيانه، لا شيء. ولكن بيتر بويسين يُحيّي ...

مشى ياستراو منتشياً بمزاج رائق، مخترقاً شارع المشي، عارجاً في طريق مختصر عبر أزقّة فرعية حتّى وصل الجريدة داخلاً عبر بوّابة إلى سلّم خلفي.

وفجأة أدرك أن لارغبة لديه في هذا المكان. شعر بروح آخر فيه، أكثر بلادة وقسوة. اللحظي، الفعلي، الواقع كان خاطفاً.

كان الظلام يعمّ قاعة العمود والبهو. بعد هذا اليوم المشمس في الخارج، بدا الوقت في الداخل غروباً. باب مكتب رئيس التحرير وحده الذي كان مُوارِباً، مع خطّ أصفر طويل من الضوء. كان أحدهم يسعل في الداخل.

توجّه ياستراو إلى المكتب، وما إن انحنى ليُمسك بالكُتُب المركونة له جانباً للمراجعة حتّى انفتح الباب تماماً، وبرزت قامة المحرّر إيفرسن العالية المَحنية إلى الأمام.

"ياستراو بعينه" قالها دفعة واحدة، وهو ينظر إلى كاتب المراجعات الأدبية الذي يعمل في جريدته بذهن مستغرق بعيداً. "تصوّرتُ أنكَ مسافر، في المغرب".

مال ياستراو بجسمه على سطح المكتب خجلاً، أحسّ بشي ما خلف التعليق الحاذق.

---

*) مذهب فلسفي يعود إلى القرون الوسطى في أوروبا، يفسّر المسيحية على أساس نظام منطقي علمي صارم

"كلا، سيّدي المحرّر، ليس عندي أدنى فكرة عمّا قلتَهُ" أجاب بتهذيب.

"صحيح؟ ظننتُ فعلاً ذلك" قال وهو يمطّ الكلمات، وينظر إلى ما حوله، من دون هدف. كان أشبه بشبح في ظلمة مدفن، وفي الخارج، كانت الشمس ساطعة.

"تصوّرتُكَ في مكان ما جنوباً، حيث السود، لم نركَ هنا في الجريدة البتّة".

فهم ياستراو الأمر. كان عليه أن يكون غير مَرئي. ذلك إشارة لا مجال لسوء الفهم فيها، في كونه من المغضوب عليهم.

"من المستحيل طبع صفحة الأدب" اعترض مُنزعِجاً. "هذا هو الأسبوع الثالث، والموادّ تجمع الغبار في قسم التنضيد".

توقّف لوهلة، وخزة ألم.

"أكثر من ثلاثة أسابيع، هل هذا معقول؟" سأل المحرّر مُظهِراً اهتماماً واهياً، وهو يُمسِّد شاربَيْه. "هذه فترة طويلة، وفكّر سيكون لدينا أيضاً ملحق الراديو كل أسبوع، كل أسبوع" كرّر بصوت حالم. "الناس تريد ذلك" ولاحت فجأة ابتسامة من خلف الشارب المَرخي، واشتعلت العينان قليلاً. "حتّى مدير الأعمال للجريدة مهتمّ بذلك. هو من المستمعين، ههههه، موجة في الأثير حسب، لتجعله مجنوناً".

ظلّ واقفاً مُطرِقاً برأسه. قامته المَحنيّة كانت تهتزّ من الضحك.

"ههههه، يظنّ أن الإعلانات ستنهال علينا عن طريق الملائكة".

ثمّ نظر إلى ياستراو بانطباع فلسفي ساذج في عينَيْه الرماديَّتَيْن الشائخَتَيْن.

"ولكنْ، هناك مستقبل لذلك".

وبهزّة، عدّل من قامته.

"على العموم، جَهِّز الصفحة الأدبية، ورحلة سعيدة إلى المغرب".

واختفى ببطء في غرفته في الزاوية ثانية، ولكن أثره بقي لفترة طويلة محسوساً في فضاء الغرفة شبة المظلمة. ترك رائحته مثل حيوان مفترس معلّقة في الهواء، تسديدٌ خطر. لم يكن من السهل تبديدها. حمل ياستراو الكُتُب تحت إبطه بمرارة. أوشك وقته أن ينتهي في هذه

الجريدة. ذلك كان المغزى. كان يعرف ذلك لأكثر من عام. لماذا هذا التمطيط البطيء، تحت التعذيب؟ وعَبَرَ الباب الدوّار مُغادِراً الجريدة.

ألن يستلم قرار فصله من هذه الجريدة؟ القضية معلّقة لأكثر من عام الآن. في الخريف الماضي، تمّ تدبّر تمشية الأمور، في موسم الكُتُب المزدحم، وكان يأمل، وإن كان الأمل ضعيفاً، في أن تكون له قاعدة ثابتة تحت قَدَمَيْه، ولكنْ، بعد رأس السنة، ساء الوضع مجدّداً، المقالات التي عامت لأشهر من دون أن تُنشَر، -معلّقة على المسمار- كما يُقال، أفكار تتسرّب، ومواعيد تتبخّر.

فكّر في الدخول إلى حانة الكوخ الخشبي لتناول الغداء مع قليل من الشراب. لكنه تذكّر أن عليه التوفير الآن. اشترى بضع بيضات، وخبزاً أسود، وقليلاً من الزبدة من البقالة في المبنى، حيث يسكن، وصعد إلى شقّته بالغداء البائس.

ها هو يجلس هنا. أمر عجيب أن تملأ الصحون والسكاكين والشوكات طاولة الطعام، من دون أن تكون هناك امرأة لتُرتّب ذلك. وبرغم محاولاته كلها لضبط مفرش الطاولة، كان يبدو وكأنه حلّ مُؤقّت.

الشبّاك كان مفتوحاً، والشمس قد شعّت على نوافذ الجارة المقابلة عبر الشارع بستائرها المُسدَلَة أبداً. ستائر مُسدَلَة. امرأة عارية بعقد من الكهرب. على يوهانه أن تعود في الحال. كل شيء سيكون على مايرام، ما إن يرى وجهها، ويشعر بأنه لم يفضح نفسه. لم يعرف فيما لو كان قوياً بما يكفي. وسيأتي أولوف في الغد، وذلك جميل، لأن طاولة لعبه عند النافذة تزدحم باللعب الميكانيكية بلا معنى، بطّته ذات العجلات، وعلبة مملوءة بالمشابك، من الممكن أن تكون خطرة في النهاية. أشياء ميّتة معبّرة! من الممكن أن تتحوّل إلى دِيْن، إن بقيت في مكانها هكذا طويلاً، من دون ملامسة، درجة أن تصير رموزاً وتعاويذ. في الزاوية، كان هناك أيضاً ضبّة عيدان الـ-الفاستالاون-(*) التي بدت كبيرة وخطرة. ذلك كله كان يُشعِرُه بالخجل. جيّد أن أولوف سيصل في الغد، ليُلقي بكل شيء هنا أرضاً.

سمع ياستراو عبر النافذة المفتوحة صوت ضربة. باب سيّارة ينصفق. تردّد صوت حادّ واضح في شارعهم المقفر "مع السلامة، إذنْ، يا أختي". كان ذلك هو صوت صهره ... فكّر ياستراو مزدرياً، ومن دون أن يتحرّك من مكانه. ومن ثمّ، سمع صوتاً آخر، مُتمهّلاً رقيقاً "مع السلامة، مدام، وشكراً للجولة".

---

*) fastelavn كرنفال يقع بين الشتاء والربيع، يُحتفل به في دول الشمال للخصب وطرد الأرواح الشرّيرة، يجري الاحتفال به على الأغلب مع الأطفال، يعمل الأطفال ضبّة العيدان بأنفسهم، وتكون في العادة باقة مزيّنة بصور وشرائط.

فارَ دم ياستراو. كان ذلك ... بلى لقد ميَّز هذا الصوت المُتملّق الذي يلتفّ حول الأذن، ويدغدغ المسامع. يواكيم ميكيلسن! حبيب الصبا. لم تُخبره بشأن مرافقته لهم في رحلتهم إلى البيت الصيفي لأخيها في تيسفيلا. لم تقلْ شيئاً.

وضع السّكّين والشوكة بهدوء جانباً. ظلّ مُحملِقاً ومُحملِقاً في الستائر البيض المُسدَلَة للجارة المقابلة، صارت مثل شعلة تحت ضوء النهار، ومن دون أن يشعر، التهبت في رأسه. صارت أفكاره هو ذاته.

"ها أنتَ جالس وحدكَ!" قالت يوهانه بصوت طازج، وخَدَّيْن مُحمرَّيْن. كانت ترتدي قُبَّعة، تشبه غطاء رأس ضيّق، اختفى الشَّعْر والأذنَيْن تحته حتّى بدا وجهها عارٍ. عيناها دامعتان بسبب الريح وجولة السَّيَّارة. الإحمرار وما يشبه الأرنب كان بارزاً بشدّة فيها.

تنشق ياستراو كل الهواء الطلق الذي هبّ من ملابسها. برودة للحظات.

"وكيف كان حالكَ؟" تابعتْ وهي ترفع القُبَّعة، ليَبرز شَعْرها مثل ضباب مذهّب نافر.

"آآ، لا بأس".

كانت تتكلّم ببرود وسرحان. لم يكن التعبير في عينَيْها قد استقرّ بعد في البيت.

"الغبار يغطّي كل شيء، يبدو البيت مُوحِشاً" قالت وهي تنظر بغربة لما حولها بينما جلس ياستراو يراقبها. "البيت بحاجة إلى تنظيف وترتيب فعلاً، أكيد" وتثاءبت ومَطَّطَت ذراعَيْها عالياً، "وعدنا إلى قواعدنا، والوتيرة ذاتها من جديد".

"هل تشعرّين بالملل، وقد وصلتِ للتّوّ؟" قال ياستراو بمرارة.

استدارت باللحظة نحوه. تلك البلوزة لصق الجسد والشَّعْر المنكوش، أمازونية بحقّ.

"هل ستبدأ بالاعتراض" قالتها بنغمة مبتذلَة، وشدّ تهكُّمي في الحنك الممتلئ.

"هل كان المكان مُوحِشاً هناك؟" سألها مُترصّداً.

"لا، كان معنا الغرامافون عندما ننزل إلى البحر، لم نشعر بالمَلَل إطلاقاً".

شعور بألم خفيف حادّ اكتسحه.

"آه، أنتَ غير محتمل، ولا تُسهّل علينا الأمور الآن، ولكنْ، سأذهب، لأتصل بأولوف، لستُ بالأمّ الساهية".

هل كانت تمُثّل دوراً؟ هل دار الاثنان قريبان من بعضهما في الغرفة، وهما يرتديان قناعاً؟ أقنعة؟ ألم يتمكّنا من الانفلات من بعضهما البعض؟ لم تذكر ميكيلسن، ولو بحرف.

"أولوف يودّ التّحدّث مع أبيه" صاحت في الداخل في الهاتف. نهض من مكانه متكاسلاً، ودخل.

"هلو أولوف" قال بلطف في سمّاعة الهاتف.

وهو يسمع صوت الولد الحادّ الصافي على الجانب الآخر اعترتْهُ قشعريرة.

"هلو بابا، أين كُنتُما أنتَ وماما كل هذا الوقت؟".

"نحن ... نحن في البيت هنا" أجابه وهو يشعر بشعاع شمس رفيع في قبو مظلم رطب.

"لحظة، دعني أحكي معه" قاطعتْهُ يوهانه بحيوية، وأخذت السَّمَّاعة. كانتِ هناك فقاعات مرحة فيها، ولكن ياستراو لم يدرك ما دار.

عاد إلى غرفة الطعام، وجلس في مكانه ثانية. وهناك في الجهة المقابلة، كانت الستائر البيض مشتعلة. ألقت بوهج مُتّقد بداخل الصالة جهة الشمال المظلمة.

ستائر مُسدَلَة. بنت عارية بعقد من الكهرب. ولكنْ، لم يعد هناك من شيء واقعيّ. صوت الصّبيّ في الهاتف. كان أيضاً غير واقعي. هناك ألم حارق، صغير، لسعة.

واصلت يوهانه حديثها في الداخل. إنها ولا بدّ أمّ زوجته التي كانت تتحدّث على الهاتف. ما الذي تحدّثا بشأنه؟ الشؤون المنزلية في البيت الصيفي؟ المنظر المُطلّ على البحر. ماء البحر الذي مازال بارداً. ولكنها لم تذكر اسم يواكيم ميكيلسن. زاد كَدَرُهُ أكثر وأكثر.

وأخيراً انتهت من مكالمتها، ودخلت مجدّداً، نضّت عنها بلورتها، وألقتْها على طاولة اللعب.

"بالمناسبة، فلقد تلقّيتُ زيارة غير متوقّعة" قال ياستراو.

"حقّاً، جميل، مَنْ زاركَ؟".

"ستيفينسن".

"مَنْ؟".

"ستيفينسن، الشيوعي، ستيفينسن".

"هذا الذي طردتَهُ من البيت؟" قاطعتْهُ يوهانه مُحتدّة.

"بلى".

"يا لكَ من مُتراخٍ، كنتَ بالتأكيد سكراناً، إذاً" بصوت أكثر علواً.

"مهلكِ مهلكِ".

"ذلك ما تريده، هل تظنّ أني لا أعرف. هذا الولد له تأثير سيِّئ عليكَ. ذلك ما لاحظتُهُ جيِّداً تلك المرّة. هل أنتَ رجل، أن تدع مثل هذا ليغويكَ؟".

راحت تذرع الغرفة رواحاً مجيئاً حانقة.

"لقد سكرتَ ثانية، يا أوله، الأفضل لكَ أن تعترف".

"لا، اللعنة" أجابها بعصبية.

"هو روحكَ الشّرّيرة".

"هراء".

فجأة نهض من مكانه مقاطعاً "بدلاً من هذه الاتّهامات اللامعقولة كلها ضدّي، الأجدى أن تفكّري في ذهابنا الليلة لحفل كروك".

لِمَ لَمْ يذكر شيئاً عن ميكيلسن؟ لِمَ تجنّب ذلك، وازداد نقمة أكثر وأكثر. غيظ دافئ.

"وبالمناسبة، أَسَرَّكِ بأن علينا الترشيد من الآن؟! لقد تصادمتُ مع المحرّر إيفرسن. هل ترين كم استمتعتُ هنا وحدي بينما كنتِ تسرحين على الساحل، سمعتِ؟".

صارت خطواتها أسرع وأسرع، تأتي وتروح، وكل كلمة منه كانت تزيد من سرعتها، كل شيء كان يبعث حركة سريعة فيها، التقطت مناديل التقديم التي ملأت الطاولة، ضربت بها الباب بغضب، الجدار، الكراسي، بينما كانت تدور في البيت، مازالت تدور، أسرع وأسرع من دون قول كلمة واحدة.

"هل سمعتِ؟ سأستلم قرار الطرد قريباً" صرخ.

"لا أشكّ بذلك في الحقيقة" قالتها بقسوة بهزّة من رأسها، ودخلت المطبخ.

بينما جلس ياستراو في غرفة المعيشة، وراح يفتح صفحات الكُتُب الجديدة التي يتوجّب عليه مراجعتها. تناثر ندف من الورق على بنطلونه. كان يفضّل مغادرة البيت، لكنه شعر بأن

ذلك لن يكون معقولاً، فعليه أن يعود بعد ذلك مجدّداً. يتوجّب عليهما تلبية دعوة كروك. لن يمكنهما التّخلّف هذه المرّة. حضورهما واجب. حضورهما واجب. عليه أن يرتدي طقم الاحتفال، بالرغم من شعوره بالرثاثة.

هل كان تأنيباً للضمير؟ أم شعوراً بالوسخ، ذلك ما شعر به؟ لم يكن تأنيباً للضمير، ولكنْ، خوفاً من التّحرّك بحُرّيّة، أن يكون الذي كان، أن يصرخ للجهات الأربع، ذلك كان أكثر ما يعذّبه؟.

ذلك الألم الخفيف الوسخ!

بينما عليه أن يرتدي ثياب سهرة كاملة لحضور الحفل.

الساعات مرّت، ودخلت يوهانه، ونظرت في دُرْج النقود.

"بالمناسبة، لقد سدّدتُ بوليصة التأمين".

"ألم يكن بالوسع الانتظار؟".

لم يجبْها.

ولكنْ، عندما دقّت الساعة السادسة، تصاعدت العصبية. عليهما الآن أن يتهيّأ لحضور الحفل. والصمت بينهما تمّ كسره بطُرُق مختلفة. "أين أزرار الياقة؟" و"هل تظنّ حذائي بلون الشمبانيا الأنسب مع بدلتي هذه؟"، "أيّة بدلة؟".

الأسئلة كانت سريعة، والأجوبة لم تكن كلها لطيفة بينما يهرع كل منهما من غرفة إلى غرفة، يتأمّلان في المرآة، يسرّحان شَعْرهما، يُفرِّشان ثيابهما. ولكن كل شيء كان غير حقيقي تحت وهج تلك الشمس القوية التي غطّت سقف الجيران في الجهة المقابلة. كانت مجزرة حقّاً أن يرتديا ثياب السهرة الكاملة في وضح النهار. شعر بأنه يشبه نادلاً. كان سيركاً حقيقياً أن يرى يوهانه في بدلة سوداء بدوائر ذهبية لامعة، جِلْد الثعبان كما يُطلق عليه ياستراو.

"ما رأيكَ بالفستان، يا أوله، هل يناسبني؟".

"روعة. برق ورعد".

ولكنه لم يقل لها إنها بدت مثيرة أكثر قليلاً ممّا يجب. هل كانت جميلة؟ هل هو الفستان؟ أم ما كان يدور بخَلَدِهَا الذي جعل الفستان يبدو مثيراً؟ تدويرات مشدودة، صدر طافح، ساقان غاية في الاتّساق. كل شيء فيها كان خطراً. جامحة بشكل غريب.

"رائع" كرّرها وهو يشعر فجأة بالحَرَج. كانت هنالك سلطة، لم يكن هو سيّدها، أنوثة، رغبة حسّيّة، لم تكن مروَّضة. لِمَ يبدو ما بينهما كئيباً؟

يظنّ أنه لا يزال غير مجرِّب، وهي كانت ناضجة.

وبعد لحظة، كانا يجلسان في سيّارة تقطع الطريق عبر شارع فيستربروغيذه. شعر ياستراو بالحال بالعَرَق على جبينه.

"من غير المعقول أن يقيموا هذا الحفل في هذا التوقيت من السنة" علّق وهو ينظر خارجاً إلى أشعّة الشمس التي تبرق على الدَّرّاجات التي لا تُحصى.

"إنه على العموم ذنبكَ، لقد أجّل الموعد مرّة بعد مرّة لأجلكَ" قالت يوهانه.

"صحيح، ولكني لا أحتمل الشمس مع هذه الثياب".

"أنتَ حسّاس دوماً".

"بدأتُ أتصبّب عَرَقاً".

رُكنت السَّيَّارة أمام فيلا في حَيّ فريديريكسبيرغ، الأصحّ أمام مبنى كبير قبيح وضخم، بالنسبة إلى حديقته، بضع أشجار كستناء تنشر ظلالها التي جعلت العشب تحتها يذوي في تلك الأرض العفنة.

وقف سيِّد قصير القامة في استقبال الضيوف عند باب الحديقة للفيلا، بكامل أناقته، وعيناه ترمشان من خلف نظّارته الصغيرة.

"ها أنتُما أخيراً، أخيراً، نجحنا أخيراً في سحبكَ من حضن العائلة، ولكنْ، بالطبع، لديكَ مَدام حتّى البحّار يتحوّل إلى رجل بيتوتي بسببها، هذه حقيقة، هه مَن الذي كان يتصوّر أن يحصل لكَ هذا، أيّها الأبله الثوري العتيد، تفضّلوا. مازال شراب آينشتاين لم يُصَبّ بعد، ولكنْ، هناك كوكتيل مثلّج، بارد كالثلج، مُصغّر للأسكيمو، هههه، ها هي سيّارة أخرى، قد وصلت، المزيد من الضيوف، الله يعلم مَنْ يكونون؟"

رصّ السَّيِّد عينَيْه، وانحنى إلى الأمام، وجرّ أنفه الذئبي المُدبَّب بعض الهواء.

"مساء الخير كروك، وشكراً لدعوتكَ".

توجّه الرجل متوسّط القامة بملابس احتفالية، ومعطف صيفي مفتوح من السَّيَّارة الثانية نحوهم. نظرته كانت خدرة متعالية، والخدر تماهى مع البياض.

جاءت سيِّدة قصيرة من خلفه، ترتدي قفطاناً مسائياً، قد غطّى أعلى عنقها. وقفت متململة، وكأنها كانت تودّ طوال الوقت أن تخفي أنفها المُدبَّب.

قَدَّمَا نفسَيْهما. كان القاضي أسموسن وحرمه.

"هيّا، تفضّلوا، دعونا ندخل" قال كروك. "نشبه فريقاً متحشّداً، وإن بقينا هنا، فهناك خطر اتّهامنا بالشغب، أليس كذلك، أيّها القاضي؟".

فزّ ياستراو في مكانه، ونظر إلى القاضي بنرفزة. هل يعرف شيئاً؟ ولكن القاضي جفّف فمه بمنديله.

"محتاج لويسكي، عزيزي كروك. لم أذقْ ولو قطرة منذ الأمس".

"آه، كم تُحبّ أن تتباهى بتعاطيكَ للمشروب دوماً، يا أسموس" اعترضتْهُ مدامه قائلة وهي ترفع أنفها صوب يوهانه. "في الحقيقة، ليس لدينا قطرة مشروب في البيت، فقط عندما يكون لدينا ضيوف بالطبع".

"اللعنة، إنه كذب، أيّتها الشقية" وضحك القاضي بصوت مبحوح. "أنا أهوى السُّكْر وكروك في الواقع قد أخذ رذيلتي بعين الاعتبار، أعرفه جيِّداً".

وعبروا باب الحديقة إلى داخل البيت.

"أنا لعلمكَ أُحبّ المشروبات الكحولية" وهو يتابع الحديث مع ياستراو، وقد أخذه من ذراعه بنَفَس لاهث.

كان كروك المحامي في المحكمة العليا يقيم في الطابق الأوّل. ومدام الكائن البليد بتسريحة شَعْر مادونا، صافحت بيدها الرخوة الضيوف بحُبّ.

مرآة في مدخل البيت. لربّما على المرء أن يتأمّل نفسه فيها. Ecce Homo! وقد عدّل ياستراو من صدر قميصه، ونظر إلى وجهه الأصفر الذي بدا معروفاً إليه. كان يعرف ما يخفيه.

احتشد الآخرون من حوله عند المرآة. أمشاط، نفخات بودرة، أقلام أحمر شفاه، تدافعت جميعها نحو رفّ المرآة.

وأخيراً قرّروا الدخول. الشمس أغشتْ أبصارهم، وهم يفتحون الباب بعد أن غادروا المدخل المظلم. لمعت الأرفف الخفيضة من الخشب الماهوغني طوال الجدران. كان البيانو المفتوح

في الظّلّ، وقد اتّكأ عليه فولدوم بظَهْره المتأرجح، كان يرتدي بدلة السهرة الرجالية باللون الطباشيري، يتحدّث مع أخت المدام ذات التسريحة المادونية، التي كانت جالسة على كرسي البيانو.

وهناك رجل وسيم بنظرة حالكة، وجرح مُحمرّ على خَدّه، كأنه قد هبّ من مكانه على الكرسي، ليُحملِق بفردة حذائه اللَّمَّاعة.

صرّ فولدوم عينَيْه بتقدير، لمح ياستراو بشيء من القلق، وتفحّص بعينَيْه يوهانه قبل أن يُحيّيها.

"أعتقد أن الجميع قد حضر" قال كروك وهو يفرك يَدَيْه. "ينقصنا كرويه فقط. والانتظار مفيد لنا، وكلّما ازدَدْنا جوعاً، كان ذلك أفضل، رائع. تعال هنا، ياستراو، عليكَ أن ترى النسخة التي حصلتُ عليها للتّوّ من أعمال أفلاطون."

"يا له من متبجّح هذا الرجل!" قالها فولدوم بصوت عالٍ.

"إنه حسود" أسرّه.

"لا، كروك، كيف تظنّ ذلك؟! أنا لا أجمع الكُتُب التي أقرؤها فقط" واستدار بوسامة صوب السَّيِّدة ثانية. "إنها حقيقة عادة سيّئة لديّ، يحدث أن أكون أحياناً كسولاً جدَّاً، آنستي، ولكني أقرأ كثيراً."

انزلقت كلماته فوق رأس السَّيِّدة، وهو ينظر باستغراب إلى تسريحتها.

"حضرتكِ تشبهين هيلينا" علّق مباشرة، وكأنه يلقي الكلمات في فَرْق شَعْرها.

"مَنْ؟" سألتْهُ بحركة مُفاجِئة واحمرار.

لم يسمع ياستراو باقي المحادثة. وقف متثاقلاً خجولاً، يقلّب الصفحات في جزء من نسخة أفلاطون الألمانية، التي بدت لامعة بيضاء، لم تمسسْها يد بعد.

"أنا أقرؤه لدى -ريكلام-(*) علّق كروك بحماسة، ولكنْ، تمّت مقاطعته في تلك اللحظة.

"يا كروك، خيالات الأكل تجتاحني" قالها الرجل النحيف ذو الجرح المحمرّ على الخَدّ. كان هو السكرتير آونر رابِن في محكمة المدينة.

---

*) Recalm دار نشر ألمانية كانت تطبع منذ العام 1867كُتُب الأدب والفلسفة والعلمية بنسخ رخيصة

"وأنا أيضاً" أجابه كروك. "لنستعِض بالكوكتيل مُؤقَّتاً، كرويه لا بدّ في طريقه إلينا الآن". واختفى في غرفة الطعام.

"أجل، هكذا، عليكَ بالكحول" ضحك القاضي ببُحّة "نحن الحقوقيّيْن مُصابون بعطش دائم".

عند النافذة، التقت النسوة في مجاميع. وقد رسمت الشمس طَوْقاً ضوئياً حول فساتين السهرة، وهالة مضببة حول تسريحاتهنّ وأذرعهنّ العارية. كان هناك الكثير من العري. السَّيِّدات كنّ يشبهنَ الصبايا بما اقتضتْهُ الموضة. التصقت الفساتين بأجسادهنّ، ولم تغطّ غير المسافة من الصدر إلى الركبة. فساتين طيّعة لامعة، التصقت بأجسادهنّ بخطوط بسيطة مثل فساتين دمى من الورق، مُربَّعة مع فتحة للرقبة والذراعَيْن.

"لو كان بمقدورنا فقط تفريق هذا الجمال" علّق كروك الذي دخل ثانية. "مَنْ بمقدوره ذلك؟ ماذا عنكَ، يا ياستراو، أنتَ سيِّد النساء، من دون منازع."

ابتسم ياستراو بتعب.

"أنا لا أطيق أن يجتمع النسوة في زمر، فولدوم، هل بإمكانكَ ذلك؟ ولكنْ، مهلاً، ها هو الرجل الذي سيقوم بالمهمّة."

لحظتها انفتح الباب، وبرزت سيِّدة شابّة بعينَيْن رماديَّتَيْن قلقَتَيْن. كانت ترتدي فستاناً من الحرير بلون رمادي، لون قلق وامض. أعشت الشمس بصرها، فأغلقت عينَيْها.

كانت في المقدّمة، ولكنْ، بتواضع صار عادة واستسلاماً لديها، تَنَحَّتْ جانباً، ليمرّ زوجها القصير كرويه بشَعْره الأسود المزرقّ، اللون الغامق اللامع والابتسامة العريضة التي كشفت عن أسنانه البيض.

"مساء الخير جميعاً". كل شيء انتعش. شعّت طاقة غريبة وامضة من قامته.

"والآن آن أوان الكوكتيل" صاح كروك.

وقف الجميع. كانت هناك حركة عادية، تنقّل الضيوف فيما بينهم. دخلت الخادمة التي ارتدت بدلة سوداء بياقة بيضاء وصدرية بيضاء، تحمل صينية الكوكتيل ذي اللون الذهبي الرصاصيّ.

"كيف حالكَ؟" سأل فولدوم ياستراو الذي وقف قريباً جدّاً منه.

ألم حارق.

ابتسم ياستراو، من دون قرار.

"حجر الجحيم"(*) همس فجأة. نظر إليه فولدوم للحظة. انفتح منخراه على وسعَيْهما، انثنى وهو يطلق ضحكة عالية.

ارتجّ كأس الكوكتيل بيده. ولكن ياستراو شعر بندم في اللحظة التي تلتها لطيبة قلبه وانفتاحه، لأن فولدوم كان ينظر إلى يوهانه نظرة غائمة مُعرّية.

"تفضّلوا الآن لسفرة الطعام" صاح كروك.

---

*) Lapisاللابيس، وهنا إشارة إلى نترات الفضّة التي كانت تُستخدم لتعقيم الجروح والعلاج.

الفصل الخامس

امتدّ المساء طويلاً.

تمّ ترتيب غرفة الطعام. كان الغرامافون على الأرض في الزاوية وسط ركام من الأسطوانات مع صوت جاز حسّاس شجيّ منطلق منها. لم يغادر بهدوء وحميمية سوى ثنائي واحد، القائم رابِن والسَّيِّدة أخت كروك الصغرى.

الباقون اجتمعوا في الصالة، حيث البيانو الصامت. كانت الطاولة مكتظّة بالأقداح والزجاجات، قناني الصودا الكبيرة، زجاجات الويسكي المُربَّعة الشكل، نبيذ البورت والماديرا للسَّيِّدات. جلس القاضي أسموسن مُحمرّ الوجه على الأريكة، وقد ألقى ذراعه حول كروك ضاحكاً.

"لا أظنّ أننا نحتسي الشراب. نخبكَ" ضجّ قائلاً.

واقتربت السَّيِّدات أسموسن، السَّيِّدة كرويه والسّيّدة كروك من بعضهنّ مثل ثلاثي سرّيّ، ليتحدّثنَ بحماسة عن فندق سكوتروب البحري. كنّ للحظة بمأمن من الأنيق واللّمّاح كرويه الذي انضمّ إلى ياستراو.

"ما أخبارك، أيّها العجوز؟" علّق مبتسماً، وطبطب على ركبة ياستراو. "هل مازلتَ راديكالياً؟".

"لستُ مهتمّاً بالسياسة".

"إذاً، لازلتَ غير مؤذٍ، كما أنتَ على الدوام؟".

لم يكن ياستراو بمزاج للدخول في نقاش عمره أكثر من سنة. منذ ذلك الوقت، وذكراه مثل شظية نابتة فيه. كان يلمح بين الحين والآخر فولدوم، وهو يتحدّث مع يوهانه في زاوية خافتة الضوء. بدت له مستمتعة. تميل بجسدها بين الحين والحين إلى الأمام ضاحكة، وهي تنفض شَعرها الأشقر. لا بدّ وأن فولدوم كان مرحاً معها، وقريباً. كان يجلس مُتّكِئاً إلى الوراء بينما استقرّت ذراعه بارتياح على طول ظَهْر الكرسي الذي جلست عليه يوهانه.

تحرّك ياستراو قلقاً في مكانه. ولكنْ، لِمَ كان صادقاً واضحاً مع فولدوم؟

"موقفي واضح وصادق" قال مُوجّهاً كلامه صوب كرويه. شاب صوتَه امتعاضٌ. ولكنْ، ألم يكن ذلك مَردّه نظرة فولدوم الخبيرة لصدر يوهانه؟ هناك حيث العَتَمَة بدا وكأن كل شيء كان عائماً. حدود جسد يواكيم ميكيلسن ماجت، وتداخلت بحدود قامة فولدوم رغم أن الاثنَيْن لا يشبهان بعضهما بالمرّة.

"أرجو ألا تُسِئ فهمي" أجاب كرويه بابتسامة عريضة. "هذا ليس عدم إخلاص، ولكن العمى، هو ما اتّهمكَ به، وهذا رأيي حتّى لو لم أكن مع -داوبلاذيت-".

"ولكنْ، حضرتكَ مع "ال-داوبلاذيت- وهذا يعني أنكَ محسوب على جبهة الأكابر مثلي".

"آه، أنتَ تُحاجج تماماً مثل شيوعي" أجابه ياستراو بانفعال، واحتسى جرعة كبيرة من الويسكي.

فجأة قنص ومضة غير مطمئنّة من عينَي يوهانه في الزاوية المعتمة. لقد وضع فولدوم يده على كتفها. بلى، رأى ياستراو ذلك جدّيّاً. ويوهانه؟ لقد قنصت نظرته إليها، فتحرّكت في مكانها على الكرسي فجأة حتّى سرحت يد فولدوم مرتخية للأسفل.

"تعالوا، ارقصوا، لمَ أنتم جالسون؟" صاح صوت عند الباب. كانت تلك أخت السَّيِّدة الحيوية بتسريحة مادونا. وقامة رابِن تتحرّك من خلفها في الغرفة المعتمة التي تقع بين الصالة التي اجتمع فيها الضيوف وغرفة الطعام المضاءة.

انتقلت يوهانه بعيداً عن فولدوم. ولكنْ، هل كانت ستفعل ذلك إذا ... إذا ...

"آه" أجابت السَّيِّدة كرويه، وعدّلت شَعْرها الأشيب. "إنهم يشربون ويتحدّثون في السياسة".

"حقّاً؟" انطلقت ضحكة القاضي ابتهاجاً بأقصى ما يستطيع. "نحن نشرب، ولا شكّ، ولكني أشكّ أننا نشرب".

"هذه فلسفة" أجاب فولدوم.

"أجل، ها ها".

"حسناً، لنرفع نخباً، بصحّة الجميع" صاح المضيف القصير بصوت عالٍ حتّى ليظنّ المرء أنه رجل عريض المنكَبَيْن.

رفع الجميع كؤوسهم، ولكن الذكرى المرّة راودت ياستراو من جديد. من جديد! لم يكن مسموحاً له أن ينسى.

"آآ، أيّها القاضي" كانت من جديد تلك أخت السَّيِّدة مَنْ تحدّث. "نسيتُ تماماً أن أشكرَكَ في المرّة الأخيرة".

"صحيح فعلاً" قالت السَّيِّدة كروك بتأكيد.

"هه هه نعم" ضحك أسموسن. "هل رأيتُم كم هو ممتع عملنا في المحكمة؟".

"في المحكمة؟ هل مسموح الدخول هناك؟" سألت السَّيِّدة كرويه وهي ترمش بعينَيْها الرصاصيَّتَيْن. "يبدو الأمر حقّاً مُمتِعاً!".

"بلى" وضحك القاضي حتّى اهتزّت بطنه المنفوخة من خلف الصديري بلون الصدف الرمادي. "هل تعلم ما الذي استوقف السَّيِّدات، ليتفرّجنَ عليه سيِّد كرويه؟"..

ارتجف ياستراو في مكانه.

"لا، قلْ ماذا؟" سأل كرويه، واعتدل بأدب، بوقفته.

"غرفة التوقيف".

لحظة صمت.

حينها أطلق فولدوم ضحكة عالية من الزاوية، أثارت استغراب الباقين.

عصر ياستراو الكأس بيده، وضحك ضحكات قصيرة مبتورة.

"غرفة التوقيف" كرّر القاضي ببطء بشعور من الزهو والانتصار.

"ولكنْ، للأسف، لم يكن هناك من سجناء في الداخل" قالتها مثل شكوى امرأة واهية. كانت تلك هي السَّيِّدة كروك ذات التسريحة المادونية.

"يا لكِ من امرأة شرسة، أيّتها السَّيِّدة الصغيرة" علّق فولدوم مُداعِباً وهو يقترب. "وحش صغير حزين من الضواري" وأغرقت الضحكة كلماته التي انزلقت منه.

لم يكن ياستراو يتابع ما حوله. كان مَحموماً عصبياً من الانعطافة التي طرأت على الحديث. أخفى نفسه بالشرب.

"حيوان ضار" قالت السَّيِّدة كروك بامتعاض وتذمّر، وبقليل من الإحساس بالملاطفة. "ولكنْ، ليس هناك من شيء للفرجة، طالما ليس هناك من أحمق سِكّير مسجون".

"مسجون، إنها كلمة كبيرة" علّق كروك.

"حسناً، لنقل موقوفاً".

ضحك الحقوقيون الثلاثة الذين تواجدوا بين الجمع. وابتسم فولدوم متفهّماً.

"ولكنْ، كيف تقولين هذا، يا أنّا؟" قالت الأخت التي لم تشعر بجهلها التنويع في اللغة الحقوقية الدنماركية. "لم يكن منظّر الغرفة المعتمة الصغيرة مريحاً، وتلكما المصطبتان والجدران العارية المُوحِشة".

ارتسمت التجاعيد الأربعة على جبهتها لتعاطفها.

"عذركم، ولكننا، للأسف، لم نُعلّق اللوحات الفنِّيَّة بعد" أجاب رابِن بتهكّم وهو يطلّ برأسه من الصالة المعتمة.

ضحكة كبيرة. نقل ياستراو كرسيه بحذر بعيداً عن الآخرين.

"سيحصل" زأر القاضي، وقد احمرّ وجهه بشدّة. "سيحصل، بتطبيقنا الإنساني للعدالة. كنْ على ثقة من ذلك".

"مع أسِرَّة بحشيات وثيرة" قال فولدوم مُدعَّماً.

"مع خَدَم من الجنس الناعم" قالها ضاحكاً، وهو ينظر من حوله للجهات كلها بنظره القاصر.

"نعم، نحن نعاملهم في الحقيقة جيِّداً" أمسك القاضي بالحديث مجدّداً. كان مِهَنِيّاً مُحترفاً. "إنها إقامة محض للنقاهة".

هكذا كانوا يفكّرون بينما كان السَّيِّد أوله ياستراو جالساً ببدلته السوداء وقميصه الأبيض.

"ومع ذلك، أودّ لو أرى يوماً أحدهم وهو مُلقىً في الداخل، فعلاً" قالت السَّيِّدة كروك وكأنها تغنّي، ودفعت بكتفها للأمام بطريقة شهوانية.

"هكذا إذاً" تنهّد القاضي بهزل وضحك رابِن. "لن ينقصني غير دعوة هذا المحفل لتفتيش التوقيف في حالة توفّر حيوان لدينا في القفص، أذكّركم".

نهض ياستراو من مكانه، من دون صوت. شعر فجأة بنفسه رجلاً متنكّراً بين الجمع. حزيناً مثل مغفّل، توقّف عن معاقرة الخمر في كرنفال. هل ظنّ أنه ينتمي إلى هذه المجموعة؟ لمَ

ظلّت ذكرى الأحمَقَيْن اللّذَيْن كانا مُستلقيَيْن في الغرفة التي إلى جانبه في السجن حميمية ومريحة؟ هل ينتمي إليهم هناك، العيش في القاع من الحياة؟ هل ينوي تدمير نفسه؟ نعم، إنه يودّ ذلك، بلى يودّ ذلك، يتوجّب عليه ... شعر بصحّة فجأة، بتحرّر في الفكرة. ذلك سيدعه يكشف عن نفسه، كما هو، كما يليق به.

"الرجل مسؤول عن كلمته" صرخت السَّيِّدة كرويه بجذل وهيستيريا.

"عند وعدي، ولكنْ، في هذه الحالة إليّ بعناوين جميع ضيوفي وأرقام هواتفهم" ضحك أسموسن. "سكرتيري العزيز رابِن، عليكَ بالكتابة".

ومن بين الضحكات، حمل رابِن نفسه إلى الطاولة، وجلس مفتعلاً التدوين في مفكّرة جيبه. الكل كان نشواناً، والكل احتشد من حوله. ودسّت يوهانه رأسها من فوق كتف رابِن للتّأكّد بدقّة من صحّة العناوين.

حملق ياستراو بها. وببطء، شعر بالغضب، وهو يتصاعد بداخله. هي أيضاً كانت ترتدي قناعاً. بلى، كانت مقنّعة! ولكنها كانت أفضل منه بوضعها للقناع. هو، هو ببدلته السوداء وقميصه الأبيض، ولربّما بجراثيم المرض في جسمه، خيوط سامّة تتكاثر مرّة واحدة مثل شعب بعُمر ألف عام. ولكنْ، بالرغم من ذلك، كان إنساناً حسناً مثلهم، بغضّ النظر عن وجهه الشاحب المرعوب بغتة، وتلك القشعريرة، كان من اللاعدالة أن يكون هو الوحيد الذي يشعر برثاثته، وبالأحوال كلها هو وحيد.

وبغضب يمدّه بشعور بالعدل، صبّ له من جديد ويسكي مع الصودا.

"ضعف الضعف هه؟" ضحك كرويه.

هزّ ياستراو رأسه بهلع، وأبعد الكأس بعيداً عن فمه.

في الوقت ذاته، شقّ صوت أسموسن المبحوح ضجيج الأصوات بقوله: "ولكنْ، أَنصِتُوا، سيِّداتي سادتي، ما الذي سنفعله، إن كان لدينا حيوان محترف خلف القضبان، هه؟ ها ها".

"لا، فالناس المحترمة لا تدخل هناك" قالت أخت السَّيِّدة كروك بسذاجة. تسريحة مادونا ناسبتْها هنا إلى أبعد حدّ.

"أليس كذلك؟" أجاب القاضي.

موجة جديدة من الضحك الماكر، وانطلقوا يقاطعون بعضهم في الحديث.

"ما رأي حضرتكَ بدكتور هارين؟" سأل رابِن بسخرية.

"والمهندس إيفان غرامر" قال كروك ليهزمه.

"النائب العام تينجسليف" قال فولدوم منتصراً عليه بهدوء وحدّة.

هل هذا هو الواقع فعلاً؟ احتسى ياستراو كأسه، وابتسم باللحظة. - بيتر بويسين يُحيّي الأولاد السعداء كلهم -.

"البروفيسور غيبرهاردت" صرخ كروك بعينَيْن شاحبَتَيْن، ترمشان من خلف نظّارته الصغيرة.

"لا لا، أنا أعترض" قاطعه كرويه منفعلاً، ونهض من مكانه.

"لا، هذه ليست إحدى رذائله".

نظر إلى النساء اللواتي هتفنَ وهلّلنَ من حوله.

"مهلاً، صحيح، كان موظّفاً بالفعل في جريدة "دنمارك"، نسيتُ ذلك تماماً،" وضحك كروك من الأعماق.

"اعتراضي ليس لهذا السبب" صاح كرويه وهو يُلوِّح بيده عالياً. "لقد قاطعَنا، وسافر إلى برلين".

"ماذا لديه؟" قاطعه فولدوم سائلاً بفضول. لمع ذلك بشدّة في عينَيْه الرصاصيَّتَيْن.

هزّ كرويه رأسه.

"ولكنْ، الجامعة؟ ماذا عنها؟ ماذا عنها؟" تأتأ كروك مُرتبِكاً.

"لا يريد المواصلة في التدريس في علوم التجارة".

"يا له من موضوع مثير بحقّ!" انبرى أسموسن قائلاً.

أمعن الجميع النظر في كرويه الذي عضّ شَفَتَهُ مبتسماً.

"ولكنْ ... الموضوع من المُفترَض ألا يكون قد أعلن عنه بعد" قالها بحذر، وسحب ساعة من جيبه. "الوقت الآن متأخّر، ليصدر الخبر في الجرائد الأخرى، لذا لا يهمّ. سننشر الخبر في الغد" وابتسم مُتخفّفاً من عبء.

"من الفضيحة أيضاً أن يظلّ هذا البلشفي محتلاً كرسي البروفيسورية في هذا البلد" قال كرويه بازدراء. "كرسي البروفيسورية" قيلت بمهابة عظيمة.

"ولكنه من المحافظين" أضاف كرويه.

"إنه الشيطان بعينه" ضحك أسموسن.

"ولكنْ، لِمَ لَمْ يشأ ...؟" ولم يُكمل كروك كلامه.

"مثل هذه الأشياء ممكن أن تحصل في هذه الأيّام أيضاً" قاطعه كرويه مبتسماً، وهو يرفع كتفَيْه. "أن ترمي الناس عنها كل شيء، وترفض الاستمرار".

في هذه اللحظة، وضع ياستراو كأس الويسكي على الطاولة بضربة قوية، الأمر الذي جعل العديد من الضيوف يُحملِقون فيه.

لمعت عيناه، بسبب الكحول.

"نعم" قال بصوت غليظ.

"قد ثمل ياستراو" همس فولدوم بأذن رابِن، وأومأ رابِن برأسه مؤكّداً علمه بذلك.

عقدت يوهانه حاجبَيْها.

عضّ ياستراو عقب السيجار بعنف حتّى تفلّش. كانت نظرة عينَيْه ناقمة بعيدة.

وفجأة ترك المحفل، وانسحب إلى الغرفة المظلمة. بلى، قد احتسى من الشراب الكثير. ومضت الظلمة أمام عينَيْه. عليه أن يهدأ. جلس عند النافذة أمام الشارع الخالي والمصابيح الليلية.

بروفيسور يوليوس غيبرهاردت! كان يعرفه من خلال صوره في الجرائد، كان له وجه داهية وصارم الوقت ذاته، بقَصّة شَعْره ذلك المنكوش، والخصلات من خلف أذنَيْه، وأذنيَ الياقة المعقوفتَيْن والفيونكة المعوجّة. بروفيسور. أحد أعضاء الهيئة الإدارية. مختصّ في قوانين الأسهم. رجل صعب للغاية، وقد عجز رجال المالية في تثبيت حالته الصّحّيّة كمجنون. وها هو أخيراً تعب وألقى كل شيء وراءه، الوظيفة والمنصب.

ألا يُسمّى هذا تدميراً ذاتياً للنفس أيضاً؟

"كأنكَ مستغرق في حلم؟" قالها كروك حين ظهر ضاحكاً في الظلمة. "يا له من مساء جميل! أليس كذلك؟" وفرك يَدَيْه مُستمتعاً. "هيّا، سنتناول بعضاً من الساندويتش والبيرة والسنابس"(*)

"فيما يخصّ البروفيسور غيبرهاردت ..." قال ياستراو الذي لم يستطع أن يُبعد الموضوع عن فكره. والظلمة ما انفكّت وامضة. "غيبرهاردت ..." كرّر.

"هل رأيتَ، يا إلهي، أيّ خلاص؟ ولكنْ، عليّ الإسراع إلى المطبخ، للمضيّف واجباته".

أيّ خلاص! هكذا هي المسألة إذاً. صرّ ياستراو عينَيْه. أيّ خلاص! واحد من القلّة من الرجال الذي وقف ضدّ الرأسمالية والانحلال السياسي. لا يأتي منه غير المتاعب. راح، ويا إلهي، أيّ خلاص!

ذكرى صغيرة أليمة هاجت من جديد مثل شيطان يهمس في أذنه. ولكنها الآن لم تعد تعني طيشاً. صارت تعني شيئاً ثورياً. لقد خُلِق من خامة مختلفة عن باقي هذا المحفل. وأفكار تشكّلت بفوضوية فيه كصيغة للتّمرّد على هذا النفاق والرياء كلَيْهما. اعتدل في وقفته.

تلك المعاناة الصغيرة المطهّرة كانت علامة تميّز. كان أكثر إخلاصاً وأمانة من ...

توجّه الضيوف إلى طاولة تقديم -السمور بغوذ-، يتحادثون ويلغطون. ولكن عينَي ياستراو كانتا مرصوصَتَيْن ناقمَتَيْن. كان صمته مُلفِتاً للنظر، ويوهانه كانت تنظر إليه بقلق مرّات عديدة.

كان هناك خبز أسود مع سمك الرنجة، وكان هناك مشروب السنابس أيضاً. لربمّا أعانه ذلك قليلاً.

لم يكن الحديث هادئاً. هناك مقدار من اللا توازن. وإثر تناول الضيوف السنابس، بدا الارتخاء على الوجوه مرّة واحدة. بلى، بعد الويسكي، كان السنابس معيناً. شفاه متدلّية، عيون لامعة، وآراء جامحة.

ولكنْ، ما الذي تحدّثوا عنه؟ بروفيسور غيبرهاردت. الكل كان متحمّساً من أجل التعبير عن رأيه.

وبالرغم من ذلك، بدا الأمر من دون سيطرة عندما دسّ ياستراو بضع كلمات استفزازية.

"اللعنة، ليست هناك حُرّيّة تعبير في هذا البلد!".

---

*) نوع من المشروبات الكحولية لدول الشمال، بشكل عامّ، وفي الدنمارك هو نوع من البراندي المبهّر، هناك أنواع مختلفة يتمّ تحضيرها عن طريق تخمير الجوز أو اللوز أو من مختلف أنواع العنبيات مع إضافة الكحول إليها.

كان صوته، لا مغزى كلامه الذي لم يكن له محلّ بينهم. كشَفَ عن تطرّف لديه غير متوقّع، شعور غريب عليهم. ومن جديد، جلس فولدوم لصق يوهانه.

"لا، عليّ اللعنة، إن كانت لدينا" كرّر ياستراو القول بغضب، وكأن أحداً ما قد عارضه. ولم يكن هناك مَنْ عارضه. لم يفعلوا شيئاً غير تجنُّبه. حرّك كرويه الكرسي بعيداً، وهو ينظر إليه من الجانب مُتفحّصاً.

"آه، دعونا لا نتحدّث في السياسة من جديد" انبرت السَّيِّدة كروك شاكية.

"لا، علينا الذهاب إلى البيت والنوم، أليس كذلك؟ يمكنني أن أرى ذلك في عينَيْكِ، سيِّدتي" علّق القاضي أسموسن. لم يكن قد مسّ السنابس.

"أليس مبكّراً؟" طلعت بتلقائية من فم كرويه.

"يا لكَ من رجل لا يتعب، يا أوتو" أضافت زوجته بابتسامة يائسة من عينَيْها الرماديَّتَيْنْ.

"وليس للجميع هنا قُوَّتكَ البدنية، أيّها السَّيِّد المحرّر" قالها القاضي مُتنهِّداً.

"وأنتَ لديكَ في الغد قضية مهمّة جديدة، لا تنسَ" حذّرتْهُ زوجته، وهي ترفع أنفها.

"صحيح" قيلت بخفوت.

وعندما انصرف الضيوف أخيراً مغادرين، ونزلوا إلى الرصيف الخالي تحت وهج ضوء المصباح المزرقّ، وحين همّوا للدخول إلى سيّاراتهم، لمعت في بال كرويه فجأة فكرة، ورمشت عيناه.

"ما قولكم لو توجّهنا الآن إلى نادي العصر الذهبي؟" مقترحاً بحماسة.

المضيف والمضيفة وقفا عند باب الحديقة.

"لا يملّ ولا يكلّ" صاح المضيف، وقد خنق تثاؤبه. "أرجو أن تعفوني هذ المرّة، ولكنْ، في المرّات القادمة، المرّات القادمة سأكون مستعدّاً".

وقف ياستراو مُتَّكِئاً على إحدى السَّيَّارات هازّاً رأسه بوهن.

"وأنتِ سترافقيننا، أليس كذلك، سيِّدتي؟" قال فولدوم مُلاطِفاً يوهانه.

رمت يوهانه نظرة خفية إلى زوجها، إلى هيأته المُنهَكَة، وهو يقف هناك، وأجابت: "لا، أوله سيذهب إلى البيت".

وصافح الجمع بعضهم البعض. وجلس أوله ياستراو فجأة على المقعد داخل السَّيَّارة. رفع قُبَّعته مُودِّعاً. وجلست يوهانه إلى جانبه، وحيّت برأسها القامات في الظلمة.

"أوله سيذهب إلى البيت" كرّر ياستراو بينه وبين نفسه. "أوله سيذهب إلى البيت" وانطلقت السَّيَّارة بهم.

"ما الذي قصدتِيهِ فعلاً بقولكِ؟" سألها بفظاظة.

"عليكَ الذهاب إلى البيت والنوم" أجابت بتعب، وركست في مكانها بمعطفها المسائي.

"أنا؟ أنام؟ أنا سكران" قالها بدهاء.

"اسكتْ، سيسمعنا السائق" قالت بصوت خفيض، همساً على الأكثر.

"الله، كم أنتِ كريمة!"

"ما قصدكَ؟" سألت وهي تعتدل في جلستها برَفْع جسدها.

"أن تتنازلي عن رفقة فولدوم، من أجل أن تعودي بزوجكِ السكران، لينام".

صاغ جملته بنغمةٍ متّزنة لإهانتها، حادّة جدّاً، وحصيفة وقاسية، لا تترك مجالاً للشّكّ بثمالته. كانت عيناه ضيِّقَتَيْن منغوليَّتَيْن وسط وجهه الأصفر المُنهَك.

نظرت يوهانه إليه بهلع. "هل جننتَ، قلْ لي؟".

"رأيتُ ما رأيتُ" قالها وهو يحني رأسه صوبها. "وسمعتُ ما سمعتُ".

"ما هذه الألغاز، أوف، ولا تنفخ أنفاسكَ بوجهي".

"سمعتُ ما سمعتُ" أجاب ياستراو، وعاد برأسه إلى مكانه، ولكنْ، فجأة تملّكه الجنون. "سمعتُ ما سمعتُ، أجل، لقد سمعتُ صوت يواكيم ميكيلسن اليوم. لا تظنّي أن بإمكانكِ خداعي، لقد سمعتُ، سمعتُ ..." حاول أن يلتقط أنفاسه. خفق القلب وآلمه.

"لا، لن يمكنني تحمُّل المزيد. لا أريد". شدّت يوهانه طَرَفَيْ معطفها على جسدها، كي لا يمسّه. صار هناك فراغ ما بينهما، وكان بإمكانه أن يشعر بجمودها في مكانها. لم ينظر إليها.

ولكن اللحظة قد جاءت، "لِمَ أدرتَ وجوه الصور في البيت جميعها؟"سألته بخشونة.

ولقد رأى اللحظة أمامه، كيف كان هائماً بسبب إسرافه بالشرب والويسكي في جسده حين

أخذ يذرع البيت جيئة وذهاباً، وفجأة شعر بالعذاب من هذَيْن الوجهَيْن، في الصورتَيْن أمامه، صورة أمّه وصورة ابنه، اللذان ولّدا لديه شعوراً بأنهما قادران على سبر غوره، ولذا قام بإدارة قفا الصورتَيْن في مواجهته.

وذلك ما لحظته يوهانه.

جلست يوهانه في الزاوية، شاحبة مثل جثّة، ومنيعة عليه. وياستراو قد شعر بعجزه، فغلبه اليأس، بسبب ذلك. لا بدّ من فعل شيء، ولكنْ، أن يقول شيئاً ذلك، ما لم يكن بمقدوره فعله.

قام حينها بإحناء قامته إلى الأمام، دقّ على نافذة السَّيَّارة بعصبية معطياً إشارة للسائق بالتّوقّف.

"ما الذي تريده؟ هل أنت مجنون؟" قالت يوهانه مرتبكة.

زلقت السَّيَّارة لمسافة قصيرة قبل أن تتوقّف. كان ياستراو خلالها قد فتح باب السَّيَّارة والهواء هبّ بداخلها. بقفزة واحدة، كان ياستراو قد وقف على الرصيف.

لم يفهم السائق الموقف، فأوقد الضوء بداخل السَّيَّارة. وجلست يوهانه من دون قطرة دم في وجهها خرساء داخل معطفها المسائي الأسود. لم تصدر منها أدنى حركة، تقلّبت في مكانها مثل تمثال، بسبب توقّف السَّيَّارة المُفاجِئ، وفقدانها لتوازنها.

أخذت شَفَتَا ياستراو ترتجفان. تمنّى لو لم يأتِ على تلك الحماقة. كان يريد العودة إلى السَّيَّارة من جديد. ولكن هذا الخرس المنتصر عليه كان يجب أن يُقهَر. كان يجب، كان يجب أن ينتصر. نصرٌ أحمق. ما الذي فكّر به السائق؟ وأمسك بجيبه.

أخرج مفاتيحه، وألقى بها إلى داخل السَّيَّارة، ثمّ تناول محفظة نقوده، ورماها إلى داخل السَّيَّارة. من دون توديعها. مشهد أخرس جامح. ويوهانه كانت جالسة تحت الضوء المنطفئ تُبحلِق إلى الأمام مثل محتضر.

.ومن دون كلمة، استدار ياستراو، وراح يمشي صوب شارع فيستربروغيذه الليلي. وهج مصابيح الأقواس، والطُّرُق العريضة اللاصفة، القامات المعتمة عند زوايا الشارع، الساق البيضاء اللامعة، نساء، والسماء السوداء المُزرقّة إلى فوق أعلى السقوف. شعر بالشارع امتداداً لروحه، كتأكيد على حدوث قرار، مثل هدوء غير معقول غريب. ومن خلفه، سمع السَّيَّارة تُزمجر، وتنطلق. لا بدّ وأن تكون هي. لم تكن هناك من سيَّارات أخرى في الشارع لحظتها. لم يشأ أن يلتفت إلى

الوراء. كان يودّ المواصلة إلى الأمام، والسّيّارة تدنو منه، وتسير بمحاذاته، وتتوقف. وبذا سيتحدّثان معاً، لا بدّ وأن يحصل ذلك.

لكن صرير السَّيَّارة ابتعد، وابتعد، واقتضى عليه أن يستدير، أن يستدير، ويرى.

ظَهْرُ السَّيَّارة له. عينُ قطّة حمراء مثل نقطة، استدارت بعدها السَّيَّارة عند ساحة الفيستربرو، واختفت.

أطبق الليل عليه. ومن جديد، شعر بهذا الهدوء غير المفهوم في داخله، موجة من برودة روحية، وكأنه كان قد عرف طيلة حياته أن الحياة يجب أن تجري بهذا الشكل. والذي حصل بعدها هو من ضمن الجزئيات. ما حصل في الأيّام الأخيرة هو من ضمن الجزئيات، الصور التي على السطح، والتي بحدّ ذاتها لا معنى لها، لكنْ، بالعلاقة مع الأشياء الأخرى، كانت تعني، ... تعني ماذا؟.

هل خانَ؟ خانَ؟ يصعب تذكّر ذلك. هل كانت تجربة؟ مُجرّد صورة؟ والحبس؟ مُجرّد صورة.
- بيتر بويسين يُحيّي ... مُجرّد صوت.

لكن أولوف؟ "أين كُنتُما أنتَ وماما كل هذا الوقت؟" صوت طفل رفيع عبر الهاتف، شكل غير حقيقي للواقع، صوت ابنه الحَيّ ذاب مع الأصوات التي اختفت. مُجرّد صوت. فهو لن يرى أولوف منذ هذه اللحظة.

"أين كُنتُما أنتَ وماما كل هذا الوقت؟".

الهدف المحدَّد، نادي العصر الذهبي أمدّه بهدوء، استعاد بروده من جديد، لفحتْهُ موجة من الهواء الليلي، فتطاير معطفه الذي كشف عن القميص الأبيض اللامع الذي أغواه، وهو يسير صوب شارع فريديريكسبيرغ أليه المشجّر المظلم.

أحسّ به ليلاً معتماً خلف الضوء القوي من حول الكشك عند تقاطع فيرندام.

توقّفت امرأة، ولكنه واصل غير آبه بمعطفه الذي يخبط من حوله، وكأنه متوجّه في خطّ سيرٍ يعرفه، نحو شارع فريديريكسبيرغيذه وأبعد، بالأشجار اليافعة النحيفة التي انتصبت بشكل مضحك، كأنها غصينات، أعلى وأعلى ! كم كان الطريق مُمتِعاً، جميلاً مثل ليلة مضاءة حين يجرفُ وهجُ أضواء مصابيح السَّيَّارة العَتَمَة عنها بسرعة حثيثة. طويل. أبدي. هناك عالم من الفضاءات، عدا متنزّه فريديريكسبيرغ الأسود وبيوت البوّابين الصفر المحيطة بالقصر، سماء رحبة ونجوم وطبيعة نقية وانفتاح.

وفي الداخل، من خلف حديقة المبنى -لوري- لمع بابٌ، باب صغير، لا اعتبار له، لمبنى منخفض من مباني الضواحي، ووحده طابور السَّيَّارات الطويل طوال حافَّة الرصيف مَنْ أفشى بمكان النادي الليلي.

نظر البوّاب عند الباب بشكّ عبر زجاج النافذة حين هزّ ياستراو مقبض الباب، ولكن وجه الصحفي المعروف كان مبعث اطمئنان. وبعد أن أظهر بطاقة العضوية انزلق إلى الداخل مخترقا صفّاً من النظرات اللطيفة والمتسائلة. هل كان سكراناً؟ هل قدّروا بلطف وضعه؟ ألقى التَّحيَّة بأخوية.

وباللحظة، سمع الساكسفون يشكو منطلقاً من الداخل في صالة الرقص. بإمكانه الآن إيقاف هروبه المضطرب براحة وهدوء، وذلك الضِّيق الذي يشعر به طوال الوقت في قلبه كأنه اختفى باللحظة. صوت طبيعي، صرخة ونحيب، ربّما نواح من البعيد، ربّما حيوان وامرأة قريبة منه. الآن بإمكانه أن يستسلم للحزن، وأن يشعر بالهدوء، فليس هناك من ألم ممض قوي مثل ألم الساكسفون.

وقف مدعوماً بنغمات الجاز عند باب صالة الرقص. آلة البانجو قسمت أحزانه كلها في إيقاعات ثابتة. تشابك. ذلك الإبداع السوداوي تصادى في الفضاء. بيانو من دون دوّاسة. راحت عيناه تستكشف المكان، وتدور بين الراقصين في الصالة. بدا شعراء العصر الذهبي للبلد معتمين بتعليقهم على الجدران الفاتحة اللون، وكأنهم داخل ميداليات بيضاوية ضخمة. خلال ذلك، وقعت عيناه على رابِن الطويل القاتم الذي واصل هنا رقصه الحميمي بخطواته الواسعة، وهو يتثنّى مع أخت السَّيِّدة كروك، المتغنّجة ذات التسريحة المادونية، وقد مالت إلى صدره بالقميص الأبيض.

سمع أحدهم وهو يصيح؛ "هلو، يا صهري".

تطلّع مُرتبِكاً للأسفل جانباً، فرأى صهره الممتلئ أحمر الوجه أدولف سميث-يورغنسن، فكٌ مفتوح يجلس إلى جانب المعماري الأشقر الوسيم يواكيم ميكيلسن مع الفتاة ذات العينَيْن الزرقاوَيْن الحزينتَيْن والفم المقوّس الناعم. حملقت العينان الزرقاوتان به بعمق وَهْمي. باللحظة، رفع ميكيلسن ذراعه التي دارت حول ظهر الفتاة التي ترتدي الوردي، ونهض من مكانه، وبحفاوة بارزة.

"سعيد بلقائكَ" قال بصوت أجشّ، بدا كما لو كان بمرافقة الموسيقى.

سرعان ما شعر ياستراو بثقله مقابل هذه المخلوقة الرشيقة. ابتسم بلطف وسرحان، كما كان يفعل على الدوام مع كل شيء يحمل جمالاً.

"لدينا فيضان من الشمبانيا هنا" جعجع الصهر.

"آه، كم هو لطيف صهركَ" ماءت البنت التي ترتدي البُنّيّ، وألقت برأسها على كتف أدولف برفق. بعينَي طفل مُدوَّرَتَيْن رصاصيَّتَيْن وخَدَّيْن مُتورِّدَيْن مُمتلئَيْن، نظرت إلى ياستراو، وقالت "كم هو لطيف! لِمَ لمْ تخبرني أبداً بأن لكَ صهراً؟".

"صهر، آه" ضحك أدولف. "المكان كما ترين يضجّ بالأصهار".

لاحت ابتسامة خاطفة على شَفَتَي ميكيلسن، دبقة بعض الشيء، برأي ياستراو، وأطلقت كلّ من البنتَيْن الطفلَتَيْن ضحكات هستيرية.

"ولكنه حلو جدّاً" تابعت التي ترتدي البُنّيّ. "تعال، واجلسْ هنا، أم ماذا؟"

جلس ياستراو وهو مُحرَج بعدم شعوره بلطافته.

"ابحث عن جماعتي" علّق قائلاً.

"أين يوهانه؟" سأل الصهر. "آه، دعنا منها الآن بالمناسبة، من النادر أن نكون معاً، قضينا وقتا مُمتِعاً معاً، أليست لطيفة، تلك الشَّابَّة، اسمها غونهيلد؟".

تصوّر ياستراو أن عليه أن يوضح أن يوهانه كانت مُتعَبَة، وذهبت إلى البيت.

"عليها اللعنة، دعنا" قال الصهر مُنهِياً الحديث. "الأيّام الأخيرة التي قضيتَها معها كافية. التغيير مهمّ، أليس كذلك، يا يواكيم؟"وانحنى بجسمه صوب غونهيلد ضاحكاً، "وهذا صهر جميل آخر أيضاً، كلهم كما يبدو أصهار".

كانت عيناه ملتصقَتَيْن والخَدَّان مشتعلَيْن.

المسافة التي قطعها مشياً على قَدَمَيْه في الهواء الطلق قد جعلت ذهنه يصفو كما يبدو، فقد اكتشف حقيقة الموضوع. وبالمقابل، اكتشف أن يواكيم لم يتناول كحولاً، ولم يكن مُنشغلاً بشيء سوى بالبنت التي ترتدي الوردي.

"نحن أصهار جميعاً".

في اللحظة ذاتها، تلقّى ياستراو ضربة قوية في ساقه، جعلتْهُ يصيح.

"ما الذي دهاكَ، يا صهري؟" سأله أدولف، وبحلق بياستراو مُستفهِماً.

"هناك مَنْ رَفَسَنِي".

"ماذا؟ أحدهم رَفَسَكَ؟ هل ترفسين، أيّتها المحتالة الصغيرة غونهيلد؟ هذا عيب، اهدئي اهدئي".

اعترضت غونهيلد.

"يالكِ من بنت لعينة!" قال ميكيلسن بصوت خفيض. كان يتحدّث مع صاحبة الوردي. "حين أودّ تقبيلكِ، تُغمضين عينَيْكِ، لا تدرين كم تجعلينني أجنّ لهذا!".

تُغمض عينَيْها؟ تُغمض عينَيْها؟ هل كان كابوساً؟ يوهانه! يوهانه! هي تغمض عينَيْها دوماً. كان ذلك هو الجانب الخجل فيها والقوي، كان سرّها كامرأة، وقد أُلقي ذلك على بنتٍ بالصدْفة. آلتا ساكسفون تبكيان، وتنوحان. والآلات كلها انضمّت إليها. آلة التوبا نفخت الوعي بأبعاد الفضاء من حولهم، بعيداً. امتلأت الصالة بنغمة كثيفة حادّة. اختفى كل شيء، بعيداً.

وُضِعَتْ كأس شمبانيا أمام ياستراو، وقد مدّ يَدَيْه نحوه، كما لو كان مخدّراً.

الكلمات كلها كان لها معنيان تلك الليلة. كان مُحاطاً بملاحظات شيطانية. جعلتْهُ يجنّ. جنون الاضطهاد. هكذا يجب أن يكون جنون الاضطهاد. كل شيء كان له مغزى آخر مُتربّص. كل كلمة، وإن كانت صغيرة، كانت محسوبة من قِبَل الشيطان. تُغمض العينَيْن! تُغمض العينَيْن! سرٌّ إيروتيكي عميق، تمّ الإفشاء به.

"ها أنتَ تجلس هنا!" قامة ترتدي الأسود والأبيض اتّكأت بمحبّة على كتفه، بوزنها كله، أثقلتْهُ، وأوقفتْهُ. كان هو كرويه.

"لقد بحثتُ عنكَ. يوهانه مضت إلى البيت".

"جيّد أنكَ أتيتَ، جيّد أنكَ أتيتَ" غنّى كرويه عبر أنفه وهو يتأرجح قليلاً. كانت نظرته محتقنة. "ولكنْ، يا لها من امرأة رائعة، تلك التي تجالسها".

"حضرتكَ، حضرتكَ تسطو على شلّتنا" تملّك أدولف الغضب، ورفع رأسه بحماقة.

"ويا له من رجل وسيم مَنْ تجالسه".

قام ياستراو بتقديم كرويه، وذابت جلبة أدولف في ابتسامة ذليلة منه، وقد أثمَلَه الشرب.

"ولكنْ، هيّا، تعالوا كلكم" غنّى كرويه مُواصِلاً. "نحن كُثُرٌ جدّاً، شِلَّة أكثر من روعة، وجيش من النساء. تعالوا كلكم. يا ياستراو، عليكَ بجَلْبهم إلينا، سأنسى لأنِّي ثملٌ، والله وحده الذي يعلم كم أعشق النساء".

"إنه لشرف كبير لي أيها السيد المحرر" ولم يقل أدولف أكثر من ذلك لأن كرويه قد أخذ المرأة ذات الفستان البُنّي من تحت ذراعها.

جلست الشِّلَّة بعيداً في داخل صالة صغيرة عند البار، اختلطت مع غرباء وشخصيات تثير الشّكّ. السَّيِّدة كرويه كانت تحادث كلاً من فولدوم الشاحب تحت شَعْره الأحمر اللّمّاع، وأيضاً سيِّداً غير معروف، يشبه كيساً ورقياً أحمر منفوخاً مربوطاً من فمه الصغير المكرمش الشافط. كم كانت تلك السَّيِّدة كرويه صاخبةِ ومنفعلة، تارة تفوق بإثارتها الفتيات الصغيرات المصطفات مثل عصافير الحبّ طوال المقبض النحاسي للبار، وتارة سيِّدة صارمة. أغلب الظّنّ أنها لا تعلم شيئاً عن حوم زوجها حول النساء.

الجرح الذي كان في وجه رابِن قد اشتعل، علامة خطر على الخَدّ، وتلك المادونا الفتية مستلقية على كتفه.

كان هناك أيضاً حشد من الصحفيّيْن، الممثّلين، رجال الأعمال والمهندمين الأنيقين والصبايا. لم يلتقط ياستراو الأسماء تماماً.

كان هناك سيِّد بشعر أملس أشيب الصدغَيْن. "نحن حقّاً كُثُرٌ" صاح كرويه مُبتهِجاً، وجرّ معه ياستراو من تحت ذراعه.

"أين القاضي؟" سأل ياستراو.

ابتسم رابِن بمكر.

"تصوّرتُ أنه يهوى الكحول" تابع ياستراو.

"مُجرّد كلام" أجاب رابِن. "قول من دون فعل".

"آه، ليتَني كذلك" دندن كرويه. "مع النساء أيضاً. أجل، يا زوجتي، علينا أن نكتفي بالقول فقط".

ردّت السَّيِّدة كرويه عليه بإطلاق ضحكة عالية جدًّاً.

وسحب كرويه معه ياستراو إلى البار "أمامكم اثنان من السادة العطاشى".

ودسّا برأسَيْهما بين صفّ عصافير الحبّ. شَعَرَ ياستراو بالأكتاف والتسريحات. كان يعوم وسط الجمال الأنثوي، يشعر به كنعومة مجنّحة بأركانه كلها، مدّ ذراعه، ليتناول كأس الويسكي المتلألئ المُتعرّق على النضد، في ظلّ ابتسامة كرويه العريضة الوحشية. شعَّ الجوّ بحماوة كثيفة. هل كانت تعود إلى كرويه؟ هذا الصحفي الأنيق المتعجرف!

"بصحّتكَ".

اختفت الرزانة، وبانت القُوّة من خلف قناع كرويه الرسمي، ولكن النظرة كانت مُحتقنة مثل نظرة حيوان.

"هل حقّاً تجلسون عند البار لترتشفوا عصيراً، أيّها المساكين" قال كرويه بتودّد. "عليكم بكوكتيل الـ-بلو مون- و-الشيطان الأحمر- والنساء البيض جميعاً، هل سمعتَ، أيّها الساقي. يا زوجتي، أيّتها الزوجة! هل ترين؟ أنا لا أُنفق الكثير من المال" صاح من مكانه في الخلف.

"يا له من شخص طيّب، هذا المحرّر!" كان أدولف الذي فتح فكّه الكبير مباشرة بوجه ياستراو، وقد بان نابه الذهبي من عمق فمه.

أومأ ياستراو برأسه. عنق امرأة. الجِلْد الناعم ما تحت الأذن المحمرّة. احتضنت نغمات الجاز كل شيء من حوله.

أَفْلَحَ في إخراج رأسه من داخل بحر المشاعر والنشوة، ليقول "نعم، يا صهري".

وسُمِعَت إثرها ضحكة غبية.

"نحن جميعاً أصهار هنا".

تطلّع بالحال صوب الباب. كان هناك الجميل ميكيلسن، المعماري الذي كان يساعد المرأة التي رافقتْهُ بارتداء معطفها. أمّا معطفه، فكان على ذراعه.

"إنه ذو نزعة استهلاكية كبيرة" هَمَسَ أدولف بشَفَتَيْه الرطبَتَيْن قريباً من وجه ياستراو. "ولكنْ، ما هَمّ، نحن جميعاً أصهار هنا". كل شيء كان لصق بعضه. لَفَحَ العطرُ وجهَه كما لو كان يداً.

"آه، لو كنّا نكتفي بالقول فقط" ضحك كرويه، واختفى بين امرأتَيْن. إحداهما كان لها نظرة زرقاء عفيفة. خُيِّلَ إلى ياستراو أنه كان يلتقيها في كل مرّة، يحضر المكان هنا.

علَتْ جلبة وهتافات. لحنٌ جازيّ، تمّ عزفه مجدّداً وفق الطلب.

توجّه ياستراو للرقص، مناورة صعبة. اصطدمت قَدَمَاه عدّة مرّات بالآخرين، شعر بزحمة المكان، فانسحب جانباً، وضحكت السَّيِّدة التي راقصها، تلك التي كانت تملك عينَي طفلة.

عند إحدى الطاولات، جلست سيِّدتان وحيدتان مع ابتسامَتَيْن عريضَتَيْن. يتحدّثان مع سيِّد ثمل، كان يتأرجح في مكانه.

"يا له من مساء بائس لكما". كان ذلك هو صوت كرويه الذي يتكلّم عبر أنفه.

"هل أرى ياستراو؟".

"بلى، وها أنتَ هنا".

"أنتَ وأنا لا نحتمل رؤية هؤلاء السَّيِّدات الوحيدات كلهنّ طوال الجدار، يجلسنَ، وليس لهنّ مدخول ماديّ، وأنا مَنْ سيتولىّ المهمّة، من أجل أن يُحصّلنَ اللعنة على ويسكي. تعرف؟ ليس باستطاعتي أن أُحبّهنّ جميعاً هذا المساء، ولكنْ، يجب أن يقدّم الويسكي إليهنّ، جميعهنّ، يجب أن يفرحنَ، أيّها الناس".

قاطعه ياستراو، وحضنه "هل لديك الشعور ذاته؟".

"نعم، هكذا أشعر" أجاب كرويه، وقد زاغ بصره. ولكن عينَيْه وقعتا باللحظة ذاتها على امرأة وحيدة في طاولة أخرى. بدا منظر مفرش الطاولة وكوب القهوة الوحيد كئيباً.

"ركود اقتصادي" دمدم، وتوجّه إليها. تبعه ياستراو مُخلصاً للمهمّة حتّى الموت، رغم غموض الموقف.

"هذه الطاولة بحاجة أيضاً إلى ويسكي، أليس كذلك، آنستي؟" سألها كرويه.

جلس الاثنان عند طاولتها. كان ثدياها عامرَيْن، مَزهوّة بنفسها، وتجنّبت أن تبتسم.

"هل تشعر الشعور ذاته كرويه؟ هل ترى المسيح ما بين البغايا؟" تفجّرت الكلمات من ياستراو.

"لا تكن ملحداً".

"لستُ ملحداً." وضرب ياستراو بيده بقُوّة على الطاولة حتّى صَلْصَلَت الكؤوس. لقد نسي أمر المرأة ذات الثديَيْن العامرَيْن.

"ولكنْ، هكذا أشعر، لا أستطيع أن أنسى المسيح مع البغايا. كلّما أسرفتُ بالشرب، اقترب منّي، إنه يقوم بداخلي وسط هذا الهَدْم والخراب كلَيْهما هنا بداخلي".

"يجب أن تخجل فعلاً من نفسكَ" قالت المرأة بسخط.

"ليتنا نكتفي بقول ذلك حسب" قال كرويه بابتسامة مُتفهّمة دافئة. تدلّت خصلات شَعْره الأسود على عينَيْه. نظرة منطفئة.

الفصل السادس

جاء نادل أرعن على ضرب صدغ ياستراو بحافّة الصينية التي يحملها. تصاعد لديه شعور بأنه في كهف أحمر. الزينة الورقية أربكت فضاء الصالة وهدّدت بالنزول مثل غيمة مُثقَلَة بالمطر. انخفضت في الوقت ذاته الأصوات فجأة، ضعفت، وغرقت. رشقٌ حزينٌ متواصلٌ ملأ ذلك الفراغ. كان المطر يهطل في ضوء ذلك الصباح الرمادي في الخارج. بدا المبنى في الجانب الآخر من الشارع معتماً، بسبب المطر.

عبّ ياستراو كأساً كبيرة من البيرة المرّة في جوفه.

وجهان صارا قريبَيْن منه. كان يجالسهما. شابّ أشقر ذو ذقن مُربَّع، وقُبَّعة كاوبوي، وسيِّد بشعر داكن وخَدَّيْن مُزرقَّيْن وابتسامة متلاشية. كان ذو الشَّعْر الداكن يرسم بقلم الرصاص على مفرش الطاولة.

"اللعنة، لا بركة في هذه البيرة" قال الكاوبوي، وهو ينظر في قَعْر كأسه الفارغ.

نظر ياستراو من حوله بارتباك، متعباً ثملاً، وقد دارت الكحول في دمه لأربع وعشرين ساعة، ماء عفن، ولكنه أخيراً أدرك شيئاً وسط ضبابه. إنها خدمة أوّل الصباح، بلى، هي بعينها. وأمامه انعكست بيضة مَقلية بالبيرة على صحن مسطّح. إذاً، هناك مَنْ دَلَقَ كأس بيرة على الطاولة، بللت كل شيء.

"ستدفع لنا دورة أخرى على حسابكَ، أليس كذلك؟".

"أجل، يا أصدقائي" قالها ياستراو، وقد امتزجت المودّة وضبابيّته معاً، وصارا واحداً.

"أيّها النادل، جولة أخرى هنا، المزيد من البيرة" وهو يضع يَدَيْه بأُبوّة على كتفَيْهما. بدا جسده ثقيلاً، يوشك على الوقوع على وجهه.

ذو الشَّعْر الداكن أومأ برأسه للتوكيد.

"لأني أُحبّكما، أنتُما الاثنان، لعلمكما" تابع ياستراو "وجهاكما، وَجْها أناس حقيقيّيْن".

"معلوم!" أجاب الكاوبوي.

"صدِّقني" حَما صوت ياستراو، وبُحّ. خامره بعض الشّكّ، ولكن العناد لازمه، من أجل توضيح موقفه، فقد كان جالساً بين قوّادَيْن، قوّادَيْن اثنَيْن! ظنّ أن بإمكانه أن يرى الموقف بأكمله مثل صورة. وقد تمدّد طولاً وعرضاً. طاولة. أبوي وكريم، طائفٌ وغارقٌ وسط هذا كله، وهذان القوّادان على الجانبَيْن منه، قوّادان تحديداً، لقد عمَّدهما كقوّادَيْن، وإلا لما بدت الصورة إنسانية حقيقةً، وإلا لما كان لها هذا العمق، والصورة الإنجيلية التقليدية التي ودّ طبعها في لاوعيه. وبإنسانية مرتبكة، قال: "لأنكما أناس، أنتُما تعيشان الحياة التي فُرِضتْ عليكما، أنتُما تتبعان ما تقوله لكما طبيعتكما".

"بالتأكيد" قالها الكاوبوي باللغة الأمريكية.

"لديكما وجهان، أنتُما الاثنان، وجها ماكرَيْن، محتالَيْن نذلَيْن".

"مهلكَ مهلكَ" ضحك ذو الشَّعْر الداكن.

"أنتُما لا تعرفان كم أُحبّكما، أنتُما الاثنان، لأنكما بشر".

"هذا واقع بمشكلة حقّاً" قالها الكاوبوي ببطء.

"المسيح أراد ...".

"أهلاً أهلاً" صاح ذو الشَّعْر الداكن، وضحك "ها، جاءت البيرة، هلاّ صَمَتَّ، وأغلقتَ فمكَ الآن، وشربتَ".

ركس ياستراو في مكانه على الكرسي حزيناً. شبه طقّة صدرت من صدره حين انفتح القميص، وصعد إلى أعلى، وكأن له ثديَيْن.

"أنتُما لا تفهماني" قالها بنوح.

"بلى، أنتَ سكران" ضحك ذو الشَّعْر الداكن، وعضّ قلمه.

"أنتُما بغاية الصراحة" دمدم ياستراو، وعاد ليُحملِق بالبيض المَقلي العائم أمامه.

أومأ الكاوبوي لصديقه. نهضا، وغادرا بضحكة.

انطلقت بعدها ضحكة مجلجلة من الخلف في الصالة، فاستدار ياستراو، واعتدل بجلسته.

"ألن تأكلَ البيضة المَقلية، سيّدي؟" سأله النادل. "وإليكَ الفاتورة".

انصاع ياستراو بميكانيكية. حاول بحذر أن يتوازن بتناوله البيضة، وإيصالها إلى فمه. الصفار كان يقطّر على بدلته.

"هذه هي الفاتورة، سيّدي" كرّر النادل.

أمسك ياستراو بجيوبه. كانت فارغة. نهض بصعوبة، وتفحّص معطفه. آه، تذكّرتُ. في السَّيَّارة، لدى يوهانه! محفظة نقوده، بكل ما فيها. والآن، عليه الذهاب إلى البيت. إلى البيت، حيث يوهانه. و... أولوف. عليه ... كان النادل واقفاً مايزال منتظراً، مهيناً بقربه ذلك.

"ليس لديّ نقود، اللعنة" دندن ياستراو، وتجشّأ.

"وأنا أنصحكَ بالدفع" قيلت بفظاظة.

"ولكن السَّيِّدَيْن الآخرَيْن ...".

"لقد غادرا، وأنتَ مَنْ طلبَ، أيّها السَّيِّد".

"حسناً حسناً، أنا مَنْ طلبتُ، اتركني بسلام الآن" قالها مُمتعِضاً بتعب، وعاد في كرسيه إلى بيضه المستعصي.

"ولكنْ، ماذا عن هذه الفاتورة، سيّدي".

"دعني أفكّر" همهم ياستراو، وحشا فمه بالبيض.

اختفى النادل، وقد بدا أن أوردة رقبته أوشكت أن تنفجر.

لوهلة، راح ياستراو يأكل وهو يعارك سكّينه وشوكته. إلى جانبه، جلس سيِّدان، يرتديان ملابس حفل، وقد علا ضجيجهما مع بنتَيْن، وقد كان هناك اشتباك أصوات من خلف بضعة جدران قاطعة في الصالة، بذاءة مبحوحة، فتاة سويدية كانت تهذر حول علب الكبريت، ومن ثمّ، ضحكة أنثوية صدئة.

ولكنهم صمتوا، وقد اقتحم صوت رشق المطر، وتوغّل عميقاً في الصالة.

وماذا عن الفاتورة؟ سحبها ياستراو إليه، وبظلّ الضوء الكئيب للنهار، والمصابيح الكهربائية، كما لو كان النهار والضوء يوشكان على التلاشي في دخان التبغ المعتم الشبحي، تهجّا ياستراو الفاتورة، ودقّق الحساب. سبعة وعشرون كرونة، وخمس أورات. للبيرة والبيض المَقلي.

"ها؟ هل ستدفع؟" قالها النادل بعنجهية.

نظر إليه ياستراو بمكر نعسان.

"هاتف؟" سأل ياستراو مُنهَكاً. كان يودّ الاتّصال بكرويه، ولكنه يودّ .. ولكنْ، أيكون كرويه قد استيقظ الآن؟ مبكّراً!

تماسك، واعتدل بهزّة منه مُترنِّحاً إلى الهاتف.

"نعم، هذا أنا، ياستراو معكَ".

"مَنْ؟ ماذا؟ ياستراو؟ يا إلهي، ألم تعد إلى البيت بعد؟" صوت كرويه كان طازجاً بطزاجة الصباح. "أسمع ضجيجاً من خلفكَ؟".

"ليس لديّ، ليس معي نقود" أجابه ياستراو بحزن. وبصعوبة كوميدية، وكآبة، جعله في الصورة.

ضحك كرويه حتّى خشخش خطّ الهاتف، ووعده بالمجيء.

"ها هي النقود، ستأتي في الحال" قالها ياستراو، وهو يتّكئ على النادل.

"هات لي بيرة، قنّينة أخرى".

"بسرور" قال له النادل بخفّة، وانفجر فجأة بضحكة مكبوتة.

جاءت البيرة تتأرجح بعد قليل، نصفها ماء. فرغت الصالة شيئاً فشيئاً بتقدّم النهار. انطلقت التِّرامات في الخارج ذهاباً وإياباً. والمظلات وَقَتِ الناس من المطر، واستدارت في الطُرُقات، وسال المطر خيوطاً على الزجاج من الخارج.

كلّما انفتح الباب، هبَّ تيّار من هواء رطب إلى داخل المقهى. فكّر ياستراو في أن يقف عند الباب للحظة، ليتبرّد بالمطر، ولكنه، وعندما ارتدى معطفه، هُرع إليه النادل راكضاً، وهو يشّك بأمره.

"هل ستذهب؟".

"لا، وددتُ فقط أن أتبرّد".

"لا، لا تفعل ذلك، ستمرض".

جلس ياستراو بيأس مرتدياً معطفه، وقد بدا وكأنه قد سقط بداخله.

كان من الصعب التفكير بشيء. صارت الأفكار جيلاتينية. وقد أوشكت الصالة أن تفرغ تماماً من الرّوّاد.

"هكذا إذاً، ها أنتَ مازلتَ هنا، هههه" كان هذا هو كرويه الذي دخل مسرعاً.

"ومازلتَ ببدلتكَ السوداء والقميص الأبيض! يا إلهي، منظركَ مُريع. أيّها النادل، هات لي بيرة".

كان كرويه حيوياً وطازجاً، عيناه مازالتا مُحمرّتين جرّاء سَكْرة اللبارحة.

"لقد تهتَ عنّا، يا ويلي، ولكني مشغول، زوجتي الطّبّاعة تنتظرني في البيت. أنتَ تعلم بخصوص كتابي حول الصناعة الدنماركية. دعنا ندفع الفاتورة، ونغادر إلى بيوتنا".

"لا أريد الذهاب إلى البيت" زمجر ياستراو، وانطوى على نفسه مُعانِداً.

"ماذا؟" أجابه كرويه بهزّة مُفاجِئة من جسده، وابتسامة عريضة.

"تعال معي إذاً، بإمكانكَ الاستلقاء على الأريكة عندي".

"لا" جاءت الكلمة متمرّدة.

"حسناً، ماذا ستفعل؟ ليس بإمكانكَ البقاء هنا. وعليكَ النوم قليلاً، يا رجل. لا يمكنكَ التّسكّع وضح النهار في المدينة، بوضعكَ هذا، وببدلة السهرة هذه، هههه، دعني أرَ".

أزاح معطف ياستراو جانباً.

"بلى، أنتَ سلطان عظيم، بالنسبة إليّ. قميص مفتوق الصدر. بصمات أصابع. نكاد نرى جريمة بشعة. هههه. هناك مَنْ كتب بقلم الرصاص شيئاً على قميصكَ، ولكنْ، ما هو؟ ماذا كَتَبَ؟ هههه. مكتوب شكراً للبيرة. لا لا، علينا أن نخفيكَ عن الأنظار. أُفضّل أن أُلقي بكَ في فندق".

حاول ياستراو أن ينظر إلى الأسفل، ولكن القميص المفتوق الصدر اعترض نظره، فَرَكَ بيده المكان.

"ماذا، ماذا قلتَ؟".

وأخيراً تمكّن كرويه من رَمْيه داخل السَّيَّارة. رَشْقُ المطر كان قوياً.

"أين قُبّعتكَ؟".

لا جواب.

ركس ياستراو تماماً في مكانه داخل السَّيَّارة.

ولكنْ، ما الذي حصل بعدها؟ رَشْقُ المطر ثانية. ناصية الطريق، حيث كانت قطرات المطر تتقافز مثل مصابيح المستنقعات البيض(*) وباب فندق لمّاع، بضعة وجوه تعتمر قُبّعات زيّ الخدمة من خلف الزجاج، ومصعد يُصرّ.

تذكّر شيئاً من قبيل الجلوس على حافّة السرير، الارتماء إلى الخلف، وضرب الجدار بالعنق، لأن غبياً حاول أن يسحبه من حذائه، وشيئاً من قبيل محاولة لخنقه، الخلاص، ربطة العنق والقميص على الرأس، فرقعة، ومن ثمّ، ضحكة، وستارة تنغلق أخيراً، بصوت عال.

كم مرّ من الوقت؟

شعر حال يقظته بقشعريرة تخترق جسده. كان في الفراش، وليس عليه سوى ملابسه الداخلية الصوفية. ورقُ جدرانٍ رماديّ مكتظٌ بالزهور. سقفٌ أبيض بشكل غريب، وكأنها غرفة الخزن في البيت. ومن خلف الستارة الداكنة المُنسدلة، كان المطر مايزال يهطل. ياه، يا للصوت الأبدي! الصوت الذي ظلّ يسمعه لوقت طويل مثل موسيقى منذرة، كمنجات نحسة. مطر. مطر.

لِمَ كان صوت المطر، وكأن له معنى؟ كان يرشق في الفناء الخلفي. كان يهمي في المزاريب، ويغنّي في المجاري. ولكن الصوت كان يعني شيئاً، شيئاً محدّداً.

نهض دفعة واحدة من السرير، ليتقفّى الرمز المشؤوم. شعر بدوار منتصف الغرفة بفانيلته القصيرة. كان هناك تيّار هواء في الغرفة. تجمّدت فخذاه العاريتان من البرد. عليه أن يرفع الستارة، ليقفل النافذة التي ظلّ قفلها يخرخش طوال الوقت.

بانت السماء الممطرة سوداء، وهو يرفع الستارة، السقوف منقوعة بالماء، وجدران الفناء بالنوافذ المغلقة، والستائر بدت متشابهة تماماً كما لو كان زياً موحّداً. كان من الواضح أنه فندق. وقد تعرّف أيضاً إلى الفناء، إذ إن بار دس آرتيست كان في الطابق الأرضي. إذاً، أنا هنا!

أغلق النافذة، واستدار. ولكنْ، كيف؟ هناك على الكرسي كان قميصه الأبيض بصدره المفتوق

---

*) من الغيبيات والحكايات الشعبية، حيث كان الناس يظنّون أن مخلوقات تحمل مصابيح في الغابات، وحيث المسطّحات المائية، لتُوقع بالبشر في مصيدتها. وتفسير الظاهرة هو أن غازات تتصاعد، وتعكس بذلك ضوءاً شحيحاً.

وسخاً. وماذا كان مكتوباً بقلم الرصاص؟ - شكراً للبيرة! أخذ يفكّر وهو يفرك شَعْر رأسه، وقد تذكّر صورة غائمة، شعور إنجيلي خائب جدّاً يقول له إن عليه ألا يمتعض إطلاقاً، شعر بأنه قد ضُحِكَ عليه. جَفَلَ. - شكراً للبيرة!

جال النظر فيما حوله بشعور من الارتباك والذّل. القميص والصديري الأبيض تمّ تعليقهما على ظَهْر الكرسي، وكأنهما يسخران من كسيح مشوّه. كانا وسخَيْن ومُبقَّعَيْن، وقد ساحت قطرة صفار البيض على صدر القميص مع بودرة بيضاء على الكتف وشَعْر امرأة. حاول عبثا مسح البقع. شَعَرَ أن ذلك قد كدّره نفسياً. والبنطلون كان مُعلَّقاً على قفل الباب، مفتوح الساقَيْن، ذابلَيْن فارغَيْن بلا خجل. الجزمة والجوارب مبعثرة على أرضية الغرفة المسحوقة. هذه كلها هي أشلاؤه. شعر بالبرد وتدهور وضعه. بدلة السهرة صارت بدلة معتوه مع ما كُتب على القميص، وكأنها كانت على لوح. - شكراً للبيرة! جملة حكمت عليه أن يكون جسداً مقطّعاً، جزء مرعب منه على الكرسي، والآخر على الأرض. ولكنه فجأة فكّر بهذه الأشلاء كقطعة واحدة، وذلك كان بالنسبة إليه أكثر رعباً. هكذا كان يبدو للآخرين، هكذا. معتوه حداثي ببدلة سوداء وصديري أبيض، تمّ فضحه وإهانته. وعليه الآن أن يرتدي هذه البدلة المهينة من جديد، يتوجّب عليه ذلك. عليه الذهاب إلى البيت. وهذه البدلة من دون الأشياء الباقية كلها كانت الأكثر والأشدّ إهانة له.

أليس من الأفضل له أن يزحف إلى السرير، وينام مجدّداً، أن يقرض نفسه بنفسه، فقد كان التفكير بذلك أمرا لا يُطاق؟! ولكنْ، كيف سيعود بهذه الثياب إلى البيت. يجفل ويشعر بالهوان للفكرة. ويوهانه. آه، يوهانه. لقد انتصرت تماماً. لقد رأى قامتها تستقيم وتنتصب، العينان الزرقاوان ابيضّتا من احتقاره. ولكنْ، لا بدّ وأن ينتصر عليها. بمُجرّد ما ينتهي من هذا. ولكنْ، أبهذه الثياب؟! أبهذا النقش على صدره؟! - شكراً للبيرة! آه، يوهانه، زوجكِ سِكّير. لِمَ يتجاوز أقصى الحدود حين يشرب! هو في العادة رجل هادئ متفكّر ومثابر في عمله. أَلم يكن كذلك؟ ظروف عمله كانت مستحيلة. بلى، بالتأكيد. لا يمكن لأحد أن يكون صريحاً تماماً حين يتوجّب عليه كسب النقود. ألم يكن صادقاً، في مراجعاته؟ بلى بلى، ولقد حصل على أعداء بذلك. لِمَ تنامى لديه شعور بتأنيب الضمير إذاً؟! فذلك هو ما حصل بالفعل. كان بمثابة عقاب ضربه في الصميم. وذلك الحال أصابه حين شرع في العمل في -داوبلاذيت- آه كم تمنّى لو علم من ربّه الذنب الذي ارتكبه. كان صريحاً، صادقاً جدّاً، ولكنْ، لِمَ ظلّ راكداً في مكانه، مُجدباً، لماذا؟

وتحوّل بعد ذلك إلى سِكّير. بلى، لقد كان سِكّيراً. لِمَ لا نقولها بصراحة دفعة واحدة؟! لقد تحوّل إلى ذلك وسط ارتباكهِ كله. عندما يكونُ ثملاً لا يشعر بأنه أجدب، النشوة كانت بخار الشِّعْر الذي يكتبه، وبذلك يتجنّب العقاب، ولكنْ، العقاب؟ العقاب بسبب ماذا؟ لقد استغفلوه

بالوقت عينه. أجل، معتوه معاصر معروف في مقاهي كوبنهاجن جميعها، معتوه مُحتقَر بملابس سهرة وسخة. آه، ودَّ لو يصرخ. هو، الناقد ياستراو، المحكمة العليا لروح مجتمع كوبنهاجن من المثقّفين. لم يكن يودّ شيئاً غير أن يكون إنساناً، ولكنه انشطر إلى قسمَيْن، قناعَيْن.

آه، يوهانه! ليت بالإمكان تجاوُز الأمر. كان سيُهرع إلى البيت، ويدلف بوحشية وتهوُّر، هو متأكّد من ذلك، سيُباغتها، ويأخذها إليه، وينفجر بالبكاء. أجل أجل، كان سكّيراً، بإمكانه أن يقول ذلك، أن يعترف بذلك، يقرّ ويندم. يندم! اللعنة على الشيطان! ولكنْ، أجل كان سيبكي، يصرخ ويقطع أنفاسها! كم هو واثق من نفسه؟! هل أخذ حساب كل شيء؟ كلا كلا. كان يودّ لو يُمرِّغ رأسه في حضنها.

أجل كان خائفاً، خائفا جدّاً. غيوراً! يواكيم وفولدوم. لقد كان لديه سبب للشرب. هراء. إنه مُجرّد حجّة، لأنه ارتكب حماقة قبلها، الخيانة التي أوشك أن ينساها. يودّ لو يتمرّغ في حضنها، يودّ أن يقوم بذلك، أن يركع على ركبَتَيْه، يرمي بنفسه على الأرض، إلى هذا الحدّ، ببدلة السهرة، بهذه البدلة المهينة، آه. - شكراً للبيرة!

ولكنْ، لو كان أولوف قد عاد إلى البيت. "أين كُنتُما أنتَ وماما كل هذا الوقت؟"، آه، لو كان الآن يقف منتصف الغرفة بعينَيْه المُدوَّرَتَيْن الهلعَتَيْن. ولكنْ، ماذا سيعني ذلك؟ لو كانت يوهانه تجلس هناك بانتصاب عنقها ذاك. هل سيكون ذلك مستحيلاً؟ لِمَ يجنّ حينها، ويصير شخصاً لا يُطاق عندما يشرب؟ لقد غيّر شخصيّته. الويسكي يُغيّر الشخصية. لن يَمسسه بعد الآن. لا يريد.

أليس هذا صحيحاً؟!.

واستلقى على ظهره في السرير.

صحيح جدّاً.

ولكنْ، ما الذي سيجعله مُلزماً؟ أيّ وعد وقَسَم؟.

بالله؟

مدّ ذراعه لفانيلته الداخلية ذات الكُمّ القصير، ثلاثة أصابع في الهواء، ذلك يعني الأب والابن والروح القُدُس، وماذا لو لم يكن مؤمناً! لا، لا يمكنه أن يقسم بذلك. تلك هي حركة مسرحية، لطالما أضحكته. لا يمكنه القسم بهذا. ولكنْ، ما الذي سيُقسم به، إذنْ؟ أيّة صيغة قَسَم أو يمين؟

ضع أصبعك على عينكِ، وادع الشيطان يضرب!

تقلّب في الفراش قلقاً. لِمَ تأتيه هذه القفشات الفكاهية في عزّ جدّيّته؟ لن يمسّ الويسكي بعد الآن. ولكنْ، بأيّ قَسَم؟ لو كان الرّبّ حقيقة، كما هو حقيقة، لو لو، أين راح كل ما يمكن أن يخشاه ويُقسم به؟.

ذراعه كانت ممتدّة عالياً مترنّحة. ولكن كفّه كانت مبسوطة تماماً. إنها تحيّة الفاشيّين.

قَسَم، قَسَم، قَسَم!.

هل يُقسم بيوهانه؟ هل يُحبّها؟ هل تراها تركتْهُ بعد مشهد التاكسي الأخير؟.

هل يُقسم بأولوف؟ إنه يجبن. ذلك سيكون في غاية السينتمنتالية. ها هو مُستلق في فراشه في الفندق مرتدياً فانيلته ذات الكُمَّيْن القصيرَيْن، وأدّى تحيّة فاشية، ولكنه لم يستطع أن يقولها، أُقسم بابني، بابني، مثل دمع الكحول. لم يكن هناك من قَسَمٍ يخشاه بما يكفي. الكلمات كلها تلاشت في فضاء الغرفة.

ضمّ يده في قبضة، ذراعه ممتدّة عارية، ويده مقبوضة. ذلك يُذكّره بنصب تذكاري حربي فرنسي، كان قد رآه في جريدة، وأثار ضحكه. الحركات كلها أفسدها الفنّ السَّيِّئ. ولكنه يودّ أن يحلف، يودّ أن يحلف، يجب.

"حقيقي جدًّا" صاح، وتوقّف. الصيحة بدت جنوناً هنا في غرفة الفندق. وماذا لو كانت الخادمة في الفندق قد مرّت بالغرفة، وسمعتْهُ؟!

"أمر حقيقي جدًّا" قال بصوت طبيعي، وباللحظة، تشكّلت صيغة اليمين كلمة كلمة.

"بقدر خوفي الحقيقي جدًّا من الإصابة بالسِّفْلِس، لن أقرب من الويسكي بعد الآن".

بدا وكأنه كان يتحدّث مع أحد ما، ليس بصوت عالٍ احتفالي، بل كان هادئاً. لا شيء سوى ملاحظة جانبية.

نهض من مكانه، وقد تقوّى. عليه الآن أن يستحمّ، ويرتدي ملابسه. لقد أدّى القَسَم. والمستقبل بدا واضحاً له.

من المرعب أن يدخل جسده الآن في بدلة المعتوهين هذه من جديد. تناول ملابسه قطعة قطعة، قلّبها، وأدارها بأطراف أصابعه، باشمئزاز. كانت قطعة من الماضي لا تزال ملتصقة به. عليه الذهاب إلى البيت. شعر كم كان متنرفزاً. خفق قلبه لمُجرّد فكرة ارتدائها. البيت. البيت. حينها لحظ ورقة صغيرة على الطاولة.

(اتّصلتُ بزوجتكَ، وأخبرتُها بأنكَ ستبيتُ في الفندق. ستجد عند موظّف الفندق ثلاثين كرونة، لتسدّد حسابكَ، الأكل وغيره. ستكون مديناً لي إجمالاً بخمسة وسبعين كرونه).

توقّف خفقان قلب ياستراو باللحظة. شعر بانفراج. علمت يوهانه بمكان تواجده. لعلّها تظنّ بأنه مايزال نائماً. لذا لا داع للاتّصال بها الآن أو الذهاب إلى البيت. بإمكانه الانتظار، يتأخّر، أن يزجي الوقت. بذلك ستظنّ أنه نائم بالتأكيد، لأنه بحاجة، ولا شكّ، للنوم.

تفحّص وجهه أمام المرآة الصغيرة عند المغسلة. كانت التجاعيد كبيرة عميقة تحت عينَيْه. الخَدّان كانا منفوخَيْن. الشيء عينه دوماً. Esse homo. وجه المجرم هذا! لا يظنّ هناك حاجة إلى حلاقة ذقنه، لأنه قام بذلك ظهيرة الأمس مباشرة قبل توجّههما إلى حفل كروك. قليل من الماء البارد على الوجه، ثمّ القميص الأبيض الملعون. شكراً للبيرة! لاحظها مقلوبة أمامه في المرآة، لذا لم يكن الأمر مرعباً بالمرّة. ولكنْ، ما كان مكتوباً رغم ذلك هو - شكراً للبيرة!

هناك على العموم المعطف الذي سيغطّي القميص المجعّد الوسخ والكتابة. القُبَّعة؟ لا، القُبَّعة! اختفت. أين؟ هزّ رأسه، ولكنه لم يتذكّر شيئاً.

كانت هناك قامة غريبة قد تسلّلت عبر سلّم الفندق، يلفّها معطف، كان قد زُرِّر حتّى العنق مع رأسٍ حاسر.

ابتسم له موظّف الفندق من خلف شاربه القصير، وناوله الثلاثين كرونة. وقف ياستراو منتصف البهو للحظات محتاراً في وجهته، لم يعرف فيما لو كان عليه التّوجّه إلى المطعم لتناوُل الغداء أم يدخل عبر الباب إلى اليسار إلى بار دس آرتيست.

كان البار أكثر عَتَمَة، كما كان بإمكانه أن يبقى مرتدياً المعطف، كما لو أنه مشغول، وعليه الإسراع والذهاب مجدّداً. وبإمكانه أيضاً أن يرى من خلال الساعة أمامه الوقت حينها.

انتصر المعقول.

الستائر كانت مُغلَقة بداخل البار، والضوء الكهربائي قد تمّ إيقاده لطرد ضوء النهار الكئيب. والغرامافون طغى على صوت رَشْق المطر على الرصيف في الخارج.

مشى ياستراو وهو مُرتدٍ معطفه عبر الصالة. لم يكن هناك إلا القليل من روّاد ما بعد الظهر.

"هه، أما زلتَ هنا، لم تسافر بعد يا مايسترو؟!" كان هذا هو السَّيِّد بي الصغير الذي مدّ رأس الطير بشَعْراته الخفيفة من عمق كرسيه. لقد جلس كالعادة عند طاولة دائرية عند

جهاز الحاسبة. وكيير كان أيضاً هناك، عريضاً أحمر الوجه برأس ثقيل، بدا سارحاً بأفكاره، لأنه كان يُحلِق بوهن في كأس الكوكتيل أمامه، وهو ينفخ، حتّى إن شَفَتَيْه الرطبَتَيْن كانتا تُصدران صوت برررر خافتاً.

"أسافر؟!" "أنا؟!" سأل ياستراو، وقد توقّف يخامره الشّكّ. فكّر بالحال بقاعة الحجز في السجن، فقد كانا معاً تلك الليلة. وفي اللحظة عينها، صدر صوت من جهة أخرى. "ها أنتَ، طاب يومكَ، سيِّد ياستراو، ولكنْ، ألم يسافر السَّيِّد المحرّر بعد؟".

كانت هذه هي لُكْنَة لوندبوم السويدي. ابتسم بتهذّب له، بوجهه الشيطاني الأحمر وعينَيْه المُبلَّلَتَيْن الحزينَتَيْن تحت ساعة البار الشاحبة.

نظر ياستراو من حوله بتوجّس، وابتسم بلطف. أحاطتْهُ الغرابة من كل جانب. هل يمكن أن تكون تلك الإشارات كلها تلميحات إلى إقامته في الحجز؟.

"بلى، إلى كندا" واصل لوندبوم. "هذا ما تصوّرناه".

"ما هذا اللغو الفارغ؟" أجابه ياستراو وهو يتنفّس براحة، وضحك.

"ألستَ أنتَ مَن اشترى البطاقات منّي؟!" علّق بي الصغير محتاراً، وبسبب ذهوله، خلا وجهه من أيّ تعبير.

"ما هذا الذي تقوله؟" كرّر ياستراو، وضرب بيده على سطح الطاولة. شدَّ معطفه من الجانبَيْن، بعناية إلى جسده.

ندّت فجأة حركة من كيير هذا الثقيل الغائب عن الوعي. "مَنْ حضرتكَ؟" سأل كما لو أنه كان يتحدّث في نومه، وبحلق في ياستراو بعينَيْن غائمَتَيْن. "هل حضرتكَ من الذين يستحقّون الجلوس عند طاولتي؟!".

وسرعان ما رَكَسَ في مقعده من جديد.

"أخشى أن تكون أحدهم، ممّنْ لا يستحقّون ذلك" دمدم وكأنه يوشك على النوم ثانية.

أومأ لوندبوم من خلف النضد إلى النادل الصغير.

"ألم تكن أنت مَنْ باعه بطاقات كندا؟" سأله -بي- الصغير ثانية بعد أن لمعت عيناه مثل الزجاج مُستفهِماً.

ظلّ ياستراو يهزّ رأسه. ولكنْ، أخيراً بدا الأمر وكأن -بي- الصغير قد أدرك ما حدث. ابتسم بفرح، ووخز ياستراو في ذراعه بسبّابته.

"حسناً" انبرى قائلاً وهو يتفحّصه. "كان هناك، إذاً، أحد آخر غيركَ مَن اشترى البطاقات منّي" بدا وكأنه قد حلّ لغزاً غامضاً. "ويا للحظّ! فقد أخبرتُ القاصي والداني بأنكَ قد سافرتَ، هههه".

إلى المغرب؟! فكّر ياستراو بقفزة واحدة. راح يتحسّس شاربه غير المَرئي تحت أنفه، المغرب! هذا ما قاله المحرّر إيفرسن. يا للشائعات! كيف تنتشر هكذا بسرعة رهيبة.

وجاء، في الوقت عينه، النادل الصغير مباشرة. يرافقه نادل آخر من المطعم ضخم مفتول العضلات، وتوجّها نحو كرسي كيير.

"هيّا، عليكَ الصعود إلى غرفتكَ، سيِّد كيير".

رفع كيير رأسه الثقيل، وكأنه يعود لشيخ طاعن في السّنّ، وللحظة قصيرة، بدا جاهزاً تماماً، وقد هزّ لهم رأسه. رفعه النادلان من على الكرسي، كما لو كان كائناً مشلولاً. تقلّب بين أيديهم، وبحلق فيما حوله بعينَيْه قصيرَتَي النظر. فجأة اشتعل ضوء أبيض في عينَيْه، انتفخ خدّاه، وكأنه يختنق، وترنّحت كتلة جسده صوب اليسار، وكادت أن تسحق النادل الصغير تحتها.

هبّ ياستراو من مكانه منتظراً بعينَيْن مرصوصَتَيْن موتاً متوقّعاً.

"عصاي" لهَثَ كيير شبه مَغمي عليه. مدّ الصغير الذي مازال يسنده ذراعه إلى مقبض، عُلّقت عليه العصا.

وقبض كيير عليها بيأس غير واعٍ، وقد تورّمت يده السمينة وهو يمسكها. ثبّتها على الأرض جيِّداً، وعدّل، من ثمّ جثّته، وراح يعرج بثلاث أرجل. تبعه النادلان حذرَيْن على الجانبَيْن، ليُمسكا به عند الضرورة، واختفى موكب المعاق.

"هه، كيير دقيق جدًّا" علّق بي الصغير بصوت ساخر.

"الساعةُ الآن الرابعة والنصف".

لوندبوم السمين تنهّد من خلف نضده: "أعرف أعرف، ولكنْ، للأسف، لأنه إنسان طيّب".

عينا السمكة الحزينتان، وكأنهما أوشكتا على أن تُقلعا من رأسه.

"هل كان كيير ثملاً قبل الآن؟" سأل ياستراو الذي اصفرّ وجهه، بسبب خفقان قلبه.

"آآآ، ولكنه سيأتي مساء ثانية هنا" أجاب بي الصغير الذي كان غير مبالٍ، وهو يحرّك يده الشاحبة. "هكذا هو كل يوم، بانتظام، مثل الساعة، ولكن كوكتيل لوندبوم قوي أيضاً، جِنْ وأبسينث. بالمناسبة، هل تودّ شرب كأس معي؟".

نظر ياستراو إليه مُحرَجاً، "لا، شكراً، لن أشرب بعد اليوم، لا مزيد من الويسكي" أضاف وهو مستغرب من نفسه، فماذا حصل؟ صيغة القَسَم لم تشمل غير الويسكي، لقد كان بها شرخ، والشرخ انفتح، من دون صوت، وقد كبر وكبر. ولكن القصد كان يشمل ذلك المشروبات الكحولية كلها. القصد، القصد، أجل. لكنْ، لا بدّ وأن القصد قد فَقَدَ قُوّته. القَسَم كان كلمة، كلمة صوتية سِحْريّة، وكل ما هو خالٍ من الكلمات لن تُصيبه اللعنة. تلك هي الحذلقة التي تكمن في قُوّة السِّحْر.

"هذا ليس ويسكي مايسترو، لا شيء غير الجِنْ والأبسنث" ضحك -بي-الصغير.

"لا، يا هذا، لا، على الأخصّ بعد أن رأينا كيير ...".

"صحيح بما يخصّه، وهو كما تعرف يشرب، وهذا شيء آخر تماماً" أجاب -بي- الصغير مُمتعِضاً. "ولكنْ، هلا طلبنا الكوكتيل الآن؟ لنجرّب لعبة العيدان، لنرَ مَنْ سيدفع أنا أم أنتَ على العموم".

تناول بضعة عيدان ثقاب من حاويتها، وناول ياستراو ثلاثة منها.

"ولكني أريد أن أتناول شيئاً من الطعام الآن" اعترض ياستراو.

"وهذا ما أحتاجه أنا أيضاً، يا مايسترو، هلا لعبنا لنرَ مَنْ سيدفع لقطعَتَي لحم؟".

اعترض ياستراو بوهن. سمع النادل الصغير خلالها حديثهما، فهُرع إليهما بقائمة الطعام.

"هل أساعد السَّيِّد ياستراو بخَلْع معطفه؟" سأل النادل الوقت ذاته، وانحنى تجاه كتف ياستراو.

"لا" انطلقت بانفعال منه.

"ماذا، يا مايسترو؟" قال بي الصغير مستغرباً، ولكنه صاح فجأة: "ههه، مازلتُ ببدلة السهرة، ههه. هذه هي قصّتكَ إذنْ؟ أنتَ الآن فعلاً بحاجة إلى كوكتيل لوندبوم".

انكمش ياستراو إثر نظرة بي الصغير إليه. وكأن يافطة قد عُلّقت على صدره. شكراً للبيرة. رمقه بزاوية عينه بوجه مقلوب، وقد غطس أكثر وأكثر داخل معطفه.

بعد لحظات، كان كأسا الكوكتيل الأخضر أمامهما.

"بصحّتكَ".

يا له من جبان! كم كان من السهل التحايل على القَسَم! هل كان عن وعي؟ هل حسبها جيِّداً؟ ولكن كل شيء فَلَتَ بسهولة مع الألم والمهانة، نسي القميص المجعّد، بدلة السهرة المهينة القذرة. ارتاح، وخفّ الشّدّ. لا مشكلة في الساعة القادمة، حينها سيتّصل بالبيت.

"ولكنْ، لن أشرب الويسكي" أسرّ بي الصغير بذلك.

ابتسم بي الصغير، ومدّ يده مقبوضة صوبه، وبالخفية، سارع ياستراو بوضع عود ثقاب بيده، وجهز.

"ما عدد العيدان؟" سأل بي الصغير.

"ثلاثة".

"واحد".

وفتح كل منهما راحة يده، في الوقت نفسه. كان في يد -بي- الصغير عودان، وفي يد ياستراو عود واحد.

"أنتَ مَنْ سيدفع" ضحك -بي- الصغير جذلاً، ودفع بالفواتير صوبه.

ومن ثمّ، لعبا بخصوص دَفْع الشطائر. كان اللعب أسهل بكثير من الكلام. "ستّة أربعة، هههه، ها أنا قد غششتُكَ مرّة أخرى، يا مايسترو هلا ذقنا الكوكتيل؟ انظر، إنه يشبه المحيط الأطلسي في رأيي، بالرغم من، أوف، إنه يُذكّرني بكندا" واهتزّ -بي- الصغير مرتعداً بجاكيته الأسود.

الأجواء كانت جميلة. الغرامافون يطنّ، والمراوح تُصرّ، والبهجة قد عَلَتْ. دخل بعض روّاد البار، وجلسوا فوق الكراسي العالية عند البار. ظهور عريضة، ودهون حول الورك. "كيف الأحوال لوندبوم؟" كان هؤلاء أصحاب التأمين الذين يأتون دوماً عند الساعة الخامسة. أناس لطفاء. "هلو تشارلي"، "لا بأس، أيّها العجوز"، "هل كنتَ تتيه وتهيم مع البنات؟"، "لا، أنا بتولي، أشرب فقط" ولحق ذلك بضحكة رنّانة.

أجل، الجوّ كان خلاباً. الأسطوانات تتبدّل بسرعة في الغرامافون، وها قد جاءت الشطائر، وعليهما اللعب بجدّيّة الآن حول شراب السنابس.

اتّكأ ياستراو بظَهْره على الكرسي مستمتعاً بصَمَمِهِ تجاه حالته العائمة. اللمعان اللاصف

للانسجام بين النحاس والزجاج والخشب الصقيل المدهون. يشبه سطح البحر حين يسكن، وفجأة ينقلب الجوّ عاصفاً فوق تلك السطوح الصقيلة، ويهدأ فجأة باللحظة. بلحظة، يشعر بحاجته إلى الراحة، بحاجته لأن يترك كل شيء يتسرّب منه، وفي اللحظة التي تليها يتحرّك، يصير عدوّاً، صديقاً، وبلحظة أخرى، ينسى من جديد. كانت الأصوات من دون تردّد، التفاعل من دون صدى. أُلغيت تبعات الأمور. لقد تمّ رفعه إلى عالم آخر، حيث أغاني الغرامافون الأمريكية هي خامة الحياة الحَيّة. "سأغنّي لحناً ..."(*) .

"هنا أفضل من كندا" علّق -بي- الصغير، وهو مستمتع.

"هل تظنّ ذلك؟" سأل ياستراو، وصرّ عينَيْه، لأن الأمر قد توضّح تماماً بالنسبة إليه، هو يحتقر هذا الكونت الهزيل، هذا الصرصار القمِيء. كان يجلس إلى جانبه فقط، لعدم جرأته الاتّصال بالبيت. هذا كل ما في الأمر. لا بدّ له وأن يجلس إلى جانب أحد. ولكنْ، هل بمقدوره أن يردّ له الصاع صاعَيْن؟

"أوف، بلى" وارتعد جسد -بي- الصغير مجدّداً. "لأن هناك في كندا، يقال، يفرضون على الناس العملَ، هكذا، ذلك ما سمعه العجوز، وهل تريدني أن أرحّل من أجل ذلك؟ لا".

"لا لا لا".

"ولكنْ، أحمدُ الرب إن الأمور لم تسرْ كما كان مخطّطاً لها، هل تذكر حنيني إلى الوطن تلك الليلة؟ هه؟ غمرني ما إن استدارت السَّيَّارة، وعبرت نصب الحُرّيّة. هذه الأمور محزنة جدّاً، جدّاً، هلا طلبنا كأساً آخر من السنابس"؟.

"حسناً، لنفعل".

"هل نلعب بخصوصه؟".

"لا لا، أُفضّل أن أدفع. ولكنْ، عليّ أوّلاً الاتّصال بزوجتي".

"ههههه" ضحك -بي- الصغير. "الواجب يستدعي كما يقولون؟".

"نعم، وهو كذلك، أيّها القزم" انبرى ياستراو قائلاً بحدّة، وهو يتّكئ بعنف على الطاولة، ما أذعر -بي- الصغير. "إنه هذا الواجب، الواجب اللعين، ولا تضحك، انتظر حتّى تتزوّج! لن يكن بإمكانكَ الجلوس هنا بعد ذلك، واللعب بِعيدان الثقاب، ليشتروا لكَ شراباً، لا، سيجرّونكَ من أذنَيْكَ إلى البيت، يا ابني".

---

*) I'll sing a little tune أُغنيّة أُمريكية

"هل هذا ما وصلتَ إليه؟" سأل -بي- الصغير مدقّقاً. كان عليه الجواب والوخز بالمِثْل. بدت تلكما العينان الزجاجيّتان قلقَتَيْن.

"أنا؟ لا" وتوقّف ياستراو حينها للحظة، كما لو أنه لم يدرِ فيما لو كان زوجاً تعيساً أم لا. أدار رأسه يميناً يساراً. "لا لا، ولكنْ، رغم كل شيء، ليس صحيحاً، لا".

وشعر بلطفه وهو يتدفّق من داخله. صار قريباً منه، وكأنه ودّ لو يداعب -بي- الصغير ويكسب ودّه. وعاد الاطمئنان في عينَي صاحب رأس الطير، واستسلم بصبر له.

"إنها امرأة جميلة" واصل ياستراو تحت ضغط حاجته للوثوق بأحد. "ولكن الزواج، كما تعرف، إنه لا يخدم الأطفال، وهو مُضرّ للكبار أيضاً. كان يمكن أن تكون رائعة، هذه التي في البيت الآن، لو لم تكن قد تزوّجتْني. هذه هي المسألة. هكذا هو الأمر الواقع. هي تريد أن تدير البيت، أن تكون أنيقة، أن تحتفي بها كامرأة، هل تفهم؟ أن تقيم الحفلات، وأنا، ماذا أريد؟ في الأحوال كلها، ذلك كله لا يعنيني، لا. ولهذا، نعم، إنها اللعنة حقيقة، غالباً ما أقبض على نفسي مُتمنّياً أن يتشظّى كل شيء، أن يتكسَّر كل شيء، الآن، وليس غداً، قبل أن أصبح غبياً تماماً".

تحدَّث بانفعال. تجمَّع اللعاب في زوايا فمه. أمسك من دون أن يفكّر بقنّينة السنابس وصبّ له كأساً، كأسَيْن، ثلاثاً، شربها جميعاً.

"هلا شربنا الويسكي، يا مايسترو، لنبلع به الزواج؟ "علّق -بي- الصغير بنظرة انتصار، ولكنه، باللحظة، نظر بعيداً عن الطاولة محدّقاً أمامه.

اجتاح ياستراو شعور مزعج، فاستدار فجأة بكرسيه، لإحساسه أن أحداً ما يقف خلفه.

كان بيرنهارد ساندرز، منتصب القامة داكناً مثل ظلّ في معطفه المطري الأنيق من السنة الماضية، ولكنْ، هذه المرّة كان مجعَّداً ومُبلَّلاً.

"كنتُ متأكّداً أنه صوتكَ" قال ساندرز، وقد ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجهه، أضاء انعكاسٌ لوجه لينين المشهور على مُحيّاه الغجري الداكن. نظر ياستراو إليه مُرغَماً.

"عادة لا أرتاد الأماكن الراقية كهذه" يقولها، ليعتذر باستخفاف. "لكن ستيفينسن حصل اليوم على نقود من أهله، كما قال، وودّ، بدافع سخطه العادل، أن يدعوني إلى كأس".

وابتسم بترفُّع.

"ستيفينسن، هل هو هنا؟" تفحّص ياستراو ساندرز بريبة. ما السبب في ابتسامته؟ هل تنصّت إلى الحوار الذي دار قبل قليل؟ أم أنه قد علم، ولا شكّ، بشأن اعتقاله؟ ستيفينسن قد أخبره بذلك، لا بدّ وأن يكون قد علم بذلك، فقد كان تلك الليلة معه.

"-بي- الصغير" قال ياستراو. "أنتَ تذكره، ولا شكّ، أنا ... "كلا" قاطعه -بي- الصغير بتلقائية، وقد عقَدَ أنفه، كما لو كان قد اشتمّ رائحة مُنفّرة.

"ولكنْ، المعذرة للحظة، أريد التّحدّث معه"، قال ياستراو، فمدّ -بي- الصغير يده بحركة نبيلة.

ونهض ياستراو مُترنِّحاً، ورافق ساندرز إلى الجهة الثانية من الصالة. عليه أن يعرف ما يتذكّره ستيفينسن من تلك الليلة.

هناك في زاويةٍ، جَلَسَ ستيفينسن. كان مُتّكِئاً بعنقه إلى الجدار، بوجهه البارز العظام و(الكاسكيت) التي ارتفعت من على رأسه. كانت سترته غامقة اللون، بسبب المطر.

"واه" تنهّد ياستراو، وهو يجلس "كما ترى، سهران في المدينة".

عدّل ستيفينسن رأسه بجدّيّة. لمعت شبه ابتسامة في عينَيْه الزجاجيَّتَيْن القاسيَتَيْن عندما رأى ما يرتديه ياستراو.

"هه، هل ترتدي روب دي شامبر؟" وضحك.

جمَدَ ياستراو في مكانه، ولكنه أحكم ياقة المعطف حول عنقه، لئلا يريا قميص السهرة الأبيض.

"هل ترغب بشراب معنا؟" واصل ستيفينسن، وقد وضع الجريدة جانباً. لمح ياستراو صورة البروفيسور غيبرهاردت، وقد برزت أمامه في الجريدة، فجعلتْهُ يشعر بقلق غريب.

"هكذا، إذنْ، ساندرز يشرب أيضاً معنا" حاول أن يخفي خجله حتّى بدا ما قاله، وكأنه سخرية.

"لستُ عبداً للشرب" أجابه ساندرز بوقار "وليس لديّ سبب لتجنُّبه، شخصياً".

"هكذا إذاً" النغمة ذاتها.

"لا، ليس هكذا إذاً" واصل ساندرز منفعلاً. "شيء آخر أن المنع من ناحية اجتماعية هو الإجراء الوحيد الصحيح، وعندما تأتي الثورة والنظام المجتمعي الجديد، سأبذل جهدي، من أجل إدخال هذا القرار، اقتراحه بالطبع".

"بالطبع" تشدّق ستيفينسن بقوله.

انزعج ساندرز. "على الأقلّ، أنا لا أُسرف بالشرب، وأترنّح بين بارات المدينة، وأتحدّث بصوت عالٍ عن علاقتي الخاصّة" قالها بلحنه المستخفّ، وقد توهّجت عيناه الداكنتان مثل جمر.

اعتدل ياستراو بجلسته.

"وما شأنكَ بذلك؟".

"نعم، أنتَ على حقّ، بالضبط" أجابه ساندرز بطريقة واعظة. "ولكني لا أستطيع أن أتجنّب السماع، وأنتَ جالس في بار مُثرثِراً بذلك، وإن شئتَ أن تسمع رأيي، فأنا أجد ذلك وضاعة منكَ".

"ماذا؟" شعر ياستراو بدوار. لم يكن مُدرِكاً تماماً لما حدث.

"نعم، إنها طريقة رخيصة أن تُعاملَ زوجتكَ بهذه الطريقة" قالها بازدراء. تقرفص ستيفينسن مستمتعاً بما يدور.

"هل دعوتماني إلى هنا، من أجل أن تُجرِّحاني؟"حاول ياستراو أن يتلقط حبّة هواء.

"نحن لم ندعكَ إلى شيء" أجاب ساندرز.

"إذاً، لا داع لبقائي".

"تشرّفنا" قال ساندرز، وقد نهض، وانحنى له بسخرية.

شحب وجهه، بسبب المرارة التي اجتاحته، ومع ذلك، فقد تعمّد بلحظة يقظة قصيرة أن يقلب الكرسي بصوت عالٍ جدّاً، وهو ينهض ويعود إلى -بي- الصغير.

هرع النادل الصغير مفزوعاً، ولكنه هدأ بسرعة.

فتح -بي- الصغير ذراعَيْه مُرحِّباً بسعادة بياستراو.

"علينا بمزيد من الشراب الآن" قالها ياستراو مُتنهِّداً. عيناه كانتا ضيِّقَتَيْن مثل خَطَّيْن.

"هل نلعب بشأن مَنْ يدفع؟" وسرعان ما شرعا بلعبة العِيْدَان.

ولكن ياستراو كان يخسر طوال الوقت. كان موزّعاً جدّاً. تصعد الحرارة في رأسه بين الحين والحين. كيف لهذا الساندرز أن يجرؤ هكذا؟! الرجل الأخلاقي الموتور. ما شأنه؟.

"صفر".

"اثنان".

"هههه، صفر. هيّا، مَن يلعبْ؟". ولكنْ، يتحتّم عليه الآن الاتّصال بزوجته. الله أعلم بما تفكّر به يوهانه الآن. هل راحت تنتظره طوال اليوم؟ عليه الاتّصال. عليه الاتّصال. صوته أجشّ ثخين، ولا شكّ. ستكتشف يوهانه بالحال أنه ثمل. لن يكون من الحكمة أن يتّصل الآن. وها هو العقل ينتصر.

"واحد".

"صفر".

"أحسنتَ، ها أنتَ تفوز أخيراً يا مايسترو" والعقل منتصر. انقضت الساعة تلو الأخرى، وانتقلا لاحقاً إلى المطعم، وتناولا العشاء الذي لعبا أيضاً لعبة عِيْدان الثقاب، بشأن دَفْع حسابه.

كانت الأضواء ساطعة جدًّاً. فيض من مفارش الطاولة البيض التي غشت الأعين، فيض من الوجوه الصاحية المشرقة، والنظرات الصافية، إضاءة شديدة جدًّاً مثل ثلج وتحت الشمس. ورغم أنهما كانا قد انزويا منعزلَيْن في زاوية، كان الكل يُحملِق بياستراو الذي رفض نزع معطفه.

لم يخفت هذا كله إلا بعد أن عادا إلى البار ثانية، بألوانه المعتمة البُنِّيَّة والحمر، وطاولاته المنخفضة، وروتينية إيقاع الغرامافون وسط البشر الضَّاجَّة فيه. هنا سيشربان كأس الويسكي الأخير معاً لهذا المساء.

مدّ طعام العشاء ياستراو بالطاقة. شعر بأنه مستعدّ وشجاع هذه اللحظة. الآن عليه أن يتصرّف. شرب ما تبقّى في الكأس، ونهض. أوقف الغرامافون، وتناول سمَّاعة الهاتف. خفق قلبه بشدّة. أدرك فجأة ما اعتراه. إنه لم يكن مستعدّاً تماماً، ولكنْ، ها هو يتّصل. عليه أن يفعل شيئاً، وإلا يفوت الوقت.

كانت على الطرف الآخر.

"مَنْ معي، أوله؟" صوت استخفاف وتعب.

"نعم" أجاب مبحوحاً.

"كيف يمكنكَ فعل ذلك؟" بإمكانه أن يراها، وقد اشرأبّ رأسها.

"ماذا، ما ...".

"أعرف كل شيء".

"ماذا؟ ماذا..؟" أخذ ياستراو يشحن نفسه، لينفعل، ولكنه كان يقف في صالة البار، وبإمكان الكل سماعه.

"كفى، دعكَ، لا شيء" قالت له بأنفة وحزن الوقت ذاته. "نتحدّث عن ذلك في يوم آخر، سأذهب إلى أهلي هذا المساء".

"هل تريدين..؟" وتوقّف.

من خلفه، انطلقت صيحة عالية.

"هل أنتَ في البار؟ ولكنْ، ما علينا، أريد الانفصال" جاء الرّدّ في الهاتف.

وأولوف! الولد، الولد. أراد ياستراو أن يسأل. ولكن صوته انحبس في حَنْجَرَتِهِ، وهو يُحلِق في الدخان الذي يملأ الصالة وتلك القامات الصاخبة كلها.

وتعالت التحايا والتهليلات فجأة من كل صوب في الصالة، كيير الخالد قد جاء، وقد بدا أصغر عشر سنوات من عمره بعد قيلولته. فرك ذقنه الحليق، وابتسم.

رفع الرّوّاد أيديهم مُحيِّيْن. أمّا الساقي لوندبوم، فقد أومأ له برأسه فرحاً بمرآه ثانية، بينما كان يخضّ خلاط الكوكتيل الفضّيّ بين يَدَيْه، وقد علا صوت تكسُّر قِطَع الثلج، والبهجة قد عمّت الأجواء.

"إذاً، مع السلامة" قال ياستراو، ولم يسألها عن أولوف، لأن صوته كما لو كان قد صدئ، بسبب خلطة الثمالة والحزن.

"مع السلامة" ونهض وهو يُومِئ للنادل الصغير. بإمكانه أن يدير الغرامافون الآن.

الفصل السابع

كان النهار جميلاً بعد يوم مُمطِر مع الشمس التي أشرقت، وقد استنشقت البيوت في شارع ريفينتلوسغيذه برودة منعشة.

توقّف ياستراو عند الزاوية في شارع استيدغيذه، يتأمّل شبابيك شقَّته في الطابق الرابع. عكس الزجاج السماء الحالمة البريئة، ولكن الحيطان من حولها كانت مازالت منكوبة مظلمة، بسبب المطر من الأمس. كانت واجهات جدران الشمال مُدلهمّة، وشبابيكها القديمة المُتهتّكة هي التي سطعت بالزرقة والريبة.

تجمّد ياستراو من البرد.

لم يشأ أن يبقى واقفاً هنا، بملابس السهرة القديمة لليلَتَيْن منذ الحفل. ربطة العنق التي تهدّلت حول رقبته، والقميص المجعّد والكتابة عليه، قد أخفى ذلك كله تحت المعطف. لا يريد أن يلفت انتباه أحد لوقوفه حاسر الرأس مُحملِقاً في الأعلى. ولكن ذلك الزجاج بتلك الزرقة السماوية، ما الذي، يا ترى، قد حصل من خلفه؟ مَنْ ذا الذي كان في البيت، وحكى ليوهانه عنه؟ مَن؟ وما الذي أخبرها به؟ كان صوتها مُنهَكاً جدًّاً، حزيناً جدًّاً، ومُتعالٍ بنغمته عبر الهاتف ليلة الأمس. بدا صوتها مختلفاً، لا يشبهها. كاد أن يكون من الصعب أن يتعرّف عليه.

بدا عبور البوّابة غريباً، بالنسبة إليه. الجدران الصفر صارت بلحظة ذات أهمّيّة قصوى، تاريخية، ومدخل السّلّم اكتسب صدأ أخضر، لحياة كانت موجودة من قبل. حتّى الثقب الذي كان في زجاج النافذة، والذي كان الهواء يلعب بحُرّيّته عبره صيفاً وشتاء، تعدّى كونه إشارة على الإهمال والتقصير، لقد صار مَلمَحاً مُميّزاً للبناية، غمّازة شقّيّة لوجه العمارة.

بينما صعد ياستراو بطيئاً درجات السّلّم، كان يصفّر بلحن جازي من بار دس آرتيست، ولكنْ، بإيقاع يشبه حاله، لأنه كان قد سمعه يكرّ ويدور في أذنَيْه طوال ساعات، وقد عرف جيِّداً أن اللحن سوف لن يُمحَى من رأسه طيلة حياته وأبداً، أبداً سيعني الطلاق، انتهاء حياته. سمعها طيلة المساء في الأمس، حتّى صعوده إلى غرفة الفندق، لينام. ولن ينسى ذلك اللحن أبداً.

حين وقف عند باب المدخل، تذكّر فجأة أنه لا يملك مفاتيحه. لقد رماهم إلى يوهانه في السَّيَّارة ذات يوم في الماضي البعيد، البعيد. كان يواصل التصفير بهدوء. لحن الأُغنيّة(*) أتساءل، أتساءل، مازال يدور في رأسه. سكنتْهُ الأغنيّة. صارت قَدَرَهُ الجاري، أتساءل، أتساءل ... وبهدوء، بإيقاع مع اللحن ومع القَدَر، انحنى على عتبة الباب، ورفع المداسة، ووجد المفتاح تحت الباب. كانت يوهانه قد فكّرت، واحتاطت لكل شيء.

مرأى الشَّقَّة، الغرف والأثاث الذي عاش ما بينه لسنوات، كاد أن يقطع أنفاسه. وهناك كان الكرسيان من طراز الروكوكو المشؤومان بالقماشة الصفراء. وهناك على الطاولة، كان تمثاله الأسود، لربّما كان هو مَنْ جلب النحس إليه. مَنْ يدري بما التصق بقطعة الخشب هذه عبر السنين؟ ربّما من روح منخطفة لأفريقي أسود، مارست سِحْرها عليه. وهناك الهاتف اللاصف، أكثر إزعاجاً ورعباً من كل شيء في الصالة. عبره كان قد سمع صوت ابنه لآخر مرّة في تلك الحياة. "أين كُنتُما أنتَ وماما طوال هذا الوقت" ومن ثمّ، أصوات بقبقة، وكأن أولوف كان قد غرق، واختفى. كان قد اختفى! آه، تلك الهواتف. والأمس! صوت يوهانه عبر الهاتف، الكلمات الحاسمة، ومن ثمّ، اختفت هي أيضاً. صدى معدني للأصوات، وقائع غير حقيقية، واختفوا، الناس الحقيقيون اختفوا، فما الجدوى أنه يقابلهم مرّة أخرى، ويتحدّث معهم، لقد اختفوا ما بين الناس الذين نلتقي بهم بالصدْفة. ذلك أفظع من الموت، إنه الحزن حين ليس بمقدور المرء أن يبكي أو يرتدي ثوب الحِدَاد بسببه. ذلك سيُفَسَّر كضعف هيستيري. ليس مسموحاً للمرء أن يستسلم لهذا الحزن، فذلك خطأ.

ثقلت خطواته أكثر وأكثر بتجواله بين الغرف. ترك ليده أن تداعب الطاولات والكراسي، طاولة لعب أولوف عند النافذة، وضبّة عِيْدان -الفاستالاون- المفضّضة التي غطّاها التراب في الزاوية، كانت تقريباً بحجم أولوف، كما يتذكّر. منذ زمن بعيد، كان يستمتع جدّاً بقياس قامته، منذ زمن بعيد. أراد أن يمُسِّد كل شيء، وبصوت اختنق بالبكاء، دمدم بشيء، توضّح"وداعاً لأشيائنا الغالية كلها"، بهمس وبُحّة، كرّر وكرّر ما قاله حتّى جفّ ريقه. "وداعاً لأشيائنا الغالية كلها".

رغم أنه سيبقى مقيماً ما بينهم، كان ذلك بمثابة وداع إلى الأبد، لأنه كان يعرف، لقد شعر بأنه سرعان ما سيكون إنساناً غير الذي كان عليه. ولن تتعرّف عليه الأشياء بعد ذلك. ترى هل سيكون لطيفاً معها ثانية؟ الممتلكات الأرضية. لم تكن سوى ذلك. أشياء، مهجورة، تتسرّب وتتكسّر، والتي على المرء خاصّة ألا يتعلّق بها. كانت ممتلكات أرضية، ممتلكات أرضية.

---

*) I wonder I wonder where my baby tonight. الثنائي1925 Gus Khan and walter Donaldson

جلس عند طرف الطاولة وحيداً، بشقَّته ذات الأربع غرف. لم ينضّ عنه معطفه بعد. ألا يحتفظ المرء به حين يجلس في مكان خرب أو متحف متداعٍ؟.

وتحت الشمس لمعت الستائر البيض المُسدَلَة في الشَّقَّة أمامه عبر الشارع، وهيّجت الحنين فيه. شعر أنه يقيم في صالة معتمة جهة الشمال، كهفٌ بمدخلٍ، يستدير بوجهته نحو الضوء المنعكس.

ارتطمت يده بالجرائد التي جاء بها معه في جيبه. سحبها، وقد جعلتْهُ يفكّر قليلاً. -داوبلاذيت- عدد الأمس، صفحة الأدب قد نُشِرت أخيراً. وكان من المُفترَض أن يسرّه ذلك. من المُفترَض أن يشعر بالحدث كهبوط رحمة عليه، ولكن الوقت قد تأخّر الآن. وجريدة -دنمارك- قد عملت الأمس مقابلة مع البروفيسور يوليوس غيبرهاردت، مع صورة له، العينان البيضاويّتان القلقتان، البثور على جِلْد وجهه، شعره المنكوش، وكأنه كان ينتف به طوال الوقت، وذلك الجواب الذي لا أساس له، والذي ردّ به على المحاور؛ "أحياناً يثير هذا العالم اشمئزازي، لكوني مساهماً في تطوّره المُشوّه، وهذا الشعور قد استفحل بي تماماً، وهو ما دفعنْي للانسحاب".

غابت الكلمات تماماً في خضمّ ذلك الهدوء الشاحب الشّفّاف، وانعكس الضوء الساطع من الستائر المُسدَلَة للشَّقَّة مقابل شقَّته. روح ياستراو!

لا لا، يُسائل نفسه، ما الذي استخلصه، وكان يدور في أعماق نفسه، بسبب كلمات عشوائية من قِبَل رجل غريب، يعرفه؟.

دفع الكرسي إلى الوراء بعيداً عن الطاولة، ونهض. يجب أن يحدث هناك تغيير. لا يمكنه أن يظلّ جالساً هنا يحلم، أن يدع الأفكار غير المحسوبة تجتاحه. ولكنْ، مَنْ ذا الذي أخبر يوهانه؟ وماذا؟ لم يكن بمقدوره التّعرّف على صوتها. لم تكن هكذا من قبل. ولكنْ، ألم تكن تتحدّث معه، كما لو كان هناك شخص معها خلال ذلك؟.

لقد جلس أحد ما هنا. هنا في تلك الغرف. دارت مكالمتهما الحاسمة الأخيرة، بينما كان هناك آخرون هنا. هو في البار، وهي، هي ...؟!.

جال في البيت. يدور ويدور. كان هناك الكثير من الغرف، كثير جدّاً. توالت الأفكار مضطربة، طرأت إيعازات وأفكار مُفاجِئة، من دون رابط. مَنْ؟ مَنْ؟ وماذا؟ لغزٌ حقّاً، وكأنها جريمة. كان التفكير بذلك مرعباً، من المرعب التفكير باحتمالية أن يكون هناك شخص ما مجهول قد جلس هنا في الصالة. ولكن ذلك ليس احتمالاً. لقد تأكّد الآن من ذلك. وإلا لما كانت قد تحدّثت

معه عبر الهاتف وهي تستعرض ببطء المعاناة التي تمرّ بها. كانت تفعل ذلك فقط عندما يكون هناك مُتفرّجون.

في غرفة النوم المشمسة توقّف فجأة عند سرير أولوف الحديدي الفارغ. كانت الوسادة واللحاف صغيرَيْن جدّاً، وبلحظة، لم يحتمل ذلك كله. اعتصره قلبه، وجعله يجثو على ركبَتَيْه، وينحني، ويخفي وجهه في لحاف الطفل على السرير. لم يكن له حول في ذلك. ودّ أن يبكي، ولكن ما صدر منه كان محض نشيج جافّ. لِمَ ركع على ركبَتَيْه هنا؟ وكأنه أمسك نفسه بوضع سخيف.

نهض بهمّة من مكانه، رمى بمعطفه فوق السرير المزدوج المسرّح. كانت شراشف السرير قد صُفِّفت. وحتّى أرضية الغرفة كانت ممسوحة. لقد قامت بتأدية واجباتها المنزلية إلى الأخير. تخلّص، من ثمّ، من بدلته، قميصه الأبيض المجعّد، ربطة عنقه. شعر أن ذلك ساعده قليلاً، ها هي ملابسه بتلك الإهانة الممسوحة - شكراً للبيرة. ها هو الآن رجل حُرّ.

هدّأت ملابسه العادية اليومية من روعه. استقرّ جسده بين ثناياها المعتادة، واستعدلت روحه. دسّ بدلة المعتوه كيفما اتّفق داخل الدُّرْج. عدّها الآن من الماضي.

يريد الآن أن يباشر عمله. يتوجّب عليه كتابة مراجعات للصفحة الأدبية القادمة. ولكنه حين عاد إلى الصالة ثانية، راح يجول من دون استقرار. من أين يأتيه الهدوء والعمل في مكتبه الضَّيِّق المزدحم، وكأنه المدخل؟ عدا منظره المطلّ على الجدار الإسمنتي الأصفر، والذي برز مثل صفحة جبل إلى اليمين من النافذة، منظر يقبض قلبه، ويكسره. كل شيء هنا أجدب قاس.

لا هدوء في مكان، لا راحة.

ولكنه راح فجأة ينقل الأثاث في غرفة المعيشة، ويرتّب المكان. عندما يسحب القاطع البُنّيّ إلى غرفة الطعام، ويغلق باب المكتب، سيشعر بأن هذه الغرفة مُؤهَّلة للعيش. يغلب الهدوء على اللونَيْن البُنّيّ والأصفر، والسقف بدا مُربَّعاً هادئاً، كل شيء استقرّ، وهدأ. وبحركة حاسمة، شاء أن يلتقط الصورتَيْن الفوتوغرافيَّتَيْن، صورة أمّه وصورة ابنه، ولكنه توقّف برجفة مؤلمة سرَتْ فيه. كانتا ما تزالان بوجهَيْهما إلى الحائط. كتهمة من الأيّام الغابرة عندما اضطرّه شعوره بالذنب، فأدارهما، لأنه لم يجرؤ أن ينظر في عينَيْهما.

الماضي كان مثل لطخات، انتشرت في كل مكان من حوله. صعب عليه ترتيب المكان. لم يستطع احتمال وضعه. لم يكن هناك غير الغرامافون في غرفة الطعام. يفترض أن يمدّه ذلك ببعض السلوى. يفتقد أغاني الجاز، الواحدة تلو الأخرى، السنتمنتالية والسخرية، كلاهما

بإيقاع متوالٍ راقص. هل توجد طريقة أخرى لقتل الحزن، إذ لا بدّ من قتله، لا بدّ من تجاوزه سريعاً. أتساءل.

I wonder I wonder

أدار الأسطوانة في الغرامافون، وشرع يرتجل الرقص، رقص مُبتَكَر خاصّ به فقط. راح يرقص حزنه وشعوره بالحياة التي كانت تُنذِر بالانفجار. الخطوات مُرتبِكَة، تعود لرقصة الخطوة الواحدة، الزّر الأسود وتشارلستون(*).

حزن. حزن.

شعر أنه قد جنّ، وقد استسلم من دون سيطرة على نفسه لحركاته المرتجلة، الحادّة، ومن دون معنى. وانطلق، من ثمّ، الساكسفون، بصوت عميق شاكٍ، أطلق فيه المكبّل كله.

وصرخ ياستراو.

تردّد للصرخة صدى. توقّف مُتفاجِئاً. اللحن الجازي كان مستمرّاً، والأسطوانة السوداء كانت تدور لامبالية. كان هناك شيء شيطاني، بشأن هذه الحركة الميكانيكية، هذا التفريغ الميكانيكي للحزن.

رنّ جرس الباب باللحظة، فأوقف الغرامافون.

مَنْ عساه يكون؟ خفق قلبه بعنف، وشعر بالخجل، لأنه قد صرخ. هل سمعه أحد؟ هل يفتح الباب؟ كانت عالية جدّاً تلك الصرخة. وقد أنهكتْهُ، ومازالت.

عندما رنّ ثانية، قرّر أن يفتح. كان صهره عند الباب، مهذّب ومُلتزِم. قُبَّعة مدوّرة بإطار مستدير ضيِّق، وعصا تبختر لمّاعة، وقد وقف من خلفه شابّ صغير، بوجه معوجّ، حتّى شاربه بدا وكأن الريح كانت تعصف به دوماً من جهة اليمين.

"هل معكَ غرباء في الداخل؟" سأل صهره. "أظنّ أني سمعتُ الغرامافون."

هزّ ياستراو رأسه نفياً.

"هكذا إذاً، لعلّها محاولة لكي تبدّد عنكَ الأفكار الكئيبة، أليس كذلك؟ ولكنْ، على العموم، مُجرّد تعليق، لا معنى له. ولكنْ، هلا سمحتَ لي بالدخول؟ جئتُ بحمّال معي، لكي ينقل سرير الولد.

---

*) رقصات أمريكية

انحنى ياستراو مُرحِّباً به، والصهر خطا بقَدَمه باستعراض إلى الداخل. نظر إلى ما حوله، وكأنه بصدد المساومة، بشأن الأثاث، وقد شعّ وجهه الأحمر الخنزيري تعالياً.

"انتظر هنا" قال للحمّال. "للحظة فقط".

اندفع إلى غرفة الطعام، وضع عصاه وقفّازَيْه على الطاولة، وجلب له كرسياً من طرف الطاولة.

"حسناً، علينا التّحدّث بعملية الآن" قالها بتنهيدة قصيرة.

حرّك ياستراو كتفَيْه مستهجناً، وجلس بوضع، يمكنه من مراقبة الحمّال في الصالة.

"ياه" تنهّد الصهر، وبحلق أمامه. كانه مايزال مُعتمِراً قُبَّعته. "هكذا تسير الأمور على العموم، ولكنْ، كان لا بدّ لها من أن تسوء، كان بإمكاني أن أرى ذلك بنصف عين.

"حقّاً؟" قالها ياستراو مُنزعِجاً.

"طبعاً، لم يكن ذلك صعباً. ويا صهري العزيز، فأنت تجيد الترقيع، ولم تبخلْ على نفسكَ بقطعة لحم بين الحين والحين، صحيح؟" صرّ إحدى عينَيْه. "ولكنْ، دعنا، أنا آخر مَنْ يحقّ لي لومكَ".

"آه، كفى، اسكتْ" اعترض ياستراو. "إن كنتَ تريد أن تسمع رأيي الصريح، فأنا حقيقة لا أعرف ما الداعي لترك يوهانه البيت؟"

لمح بشكل غائم وجه الحمّال اللحظة ذاتها، وهو يُقلّب التمثال المنحوت أمامه.

"ألا تفهم؟ ولكنكَ جلستَ في بار، ورحتَ تشتكي من زواجكَ بأعلى صوت، وهذا ما لا تقبله منكَ، وهو أمر مفهوم جدّاً. المدينة كلها تتحدّث بذلك".

تحرّك ياستراو على الكرسي في مكانه.

"من أين علمتْ بذلك؟ مَن الذي أخبرها بذلك؟ ما الذي ...؟".

اتّكأ الصهر إلى الخلف على ظهر الكرسي، وأدخل يَدَيْه في جيبَيْه.

"بحقّ الشيطان، من أين لي أن أعرف؟" أجابه.

"جاءت في الأمس بصحبة رجل، غاية في التّهذّب، ولكنه شابّ فقير، هذا ما فهمتُهُ من الماما. ولكنْ، ما علينا! يوهانه لا تريد الآن أكثر من ذلك. قالت إنها لن تقنع بدور الخادمة عندكَ بعد الآن، ولن تتراجع عن كلامها. هل أقدّم لكَ سيجاراً؟".

شحب وجه ياستراو. ظلّ مُبحلِقاً. هَمّ الحمّال بالجلوس بحذر على أحد الكراسي الروكوكو، لم تعتد مؤخّرته في الجلوس على الرخاء. ولكن هذا المنظر الغريب بقي محفوراً في ذاكرة ياستراو، ولقد تذكّره لاحقاً، لأنه في هذه اللحظة بدا مُربَكاً، بالنسبة إليه. لا أحد غير ساندرز، ولكنْ، لا، شيوعي ورفيق، لا، لا، لا. وتناول، وهو سارح، السيجار المقدّم إليه.

"لندخل بالجانب العملي، كيف تريد أن يتقسّم الأثاث بينكما؟" سأل الصهر وهو يلتقط دفتر الملاحظات من جيبه.

"كان والداكَ، كما تعرف، هما اللذان ساعدانا في ذلك".

"أجل، هذا ما فكّرتُ به أنا أيضاً".

ابتسم ياستراو بتعب. "الكُتُب والطاولة التي أكتب عليها، كرسي وأريكة هو كل ما أحتاجه في هذا العالم".

"حسناً، فليكن" علّق الصهر، وصفع دفتر الملاحظات على الطاولة أمامه. "بالمناسبة، ما الذي حصل؟ هل قرأتَ عن البروفيسور؟ يا له من راديكالي أحمق. لا يمكنكَ أن تتخيّل كم ضحكنا عليه في البورصة".

لم تكن عند ياستراو الرغبة لمناقشة هذا الموضوع.

"هلا انتهينا من الجانب العملي أوّلاً؟" قال وهو يدسّ السيجار غير المشعول في فمه.

"تحتاج إلى نار؟ أم ماذا؟ تفضّلْ" علّق الصهر بتأدّب، وقَدَحَ عود الثقاب. "يأبى أن يشتعل، بلى بلى، ها هو اشتعل. إذاً، ليس لديك اعتراض على بقاء أختي في بيت والدها ووالدتها؟".

قالها بصوت عالٍ بشكل مُلفِت جدّاً ما جعل ياستراو ينظر إلى الحمّال الذي كان يتنصّت في الصالة.

"كلا" أجابه ياستراو بلطف. "لا أظنّكَ قد استأجرتَ الحمّال، ليكون شاهداً، صحيح؟".

"لا لا لا،" صاح الصهر وقد احمرّ خَدّاه الممتلئان المُتدلّيان.

"كيف تفكّر هكذا؟".

"اطمئنّ، ستحصل على اتّفاقنا هذا مكتوباً ومُوقّعاً" أجابه ياستراو، وسحب بوليصة تأمين، وأوراقاً أخرى من جيبه.

"دعْ ذلك لي، سأهتمّ بها" قاطعه الصهر، والتقط الأوراق بسرعة البرق منه.

"لا".

وضرب ياستراو بيده بقُوّة على الأوراق.

"ولكنْ، الأثاث ...".

"الكُتُب. ستحصل على إثبات خطّيّ بأن يوهانه لم تهرب من بيتها، وهو، بالحقيقة، ما حصل" قال ياستراو.

"لقد أعلمتكَ بذلك عبر الهاتف".

"هكذا، ومَنْ شهد ذلك؟"

"كان هناك شهود".

"إذاً، إذاً، كان هناك أحد ما جالساً حين هاتفتُها" قاطعه ياستراو بغضب.

"نعم".

"وأنتَ تعرف مَنْ هو؟".

"نعم".

"مَنْ هو، إذنْ؟ مَنْ هو؟".

"لا يهمّ" أجابه صهره، وقد ومضت عيناه الزرقاوان العائمتان بشدّة.

"حسناً، دعني أكتب هذا الإثبات الخطّي" قالها ياستراو مُتنهِّداً، وتناول قلم الحبر من جيبه.

"نكون، إذاً، وصلنا إلى موضوع النفقة" قالها الصهر بخشونة.

"أليس من الأفضل أن نترك ذلك للمحامي؟ وإلا سندخل في معارك".

فتح الصهر يده بطريقة أنيقة مهذّبة، برز خلالها حزام ساعته اليدوية لمّاعاً "متّفق معكَ تماماً" قالها وهو يتنفّس ملء رئَتَيْه.

أعطى بعد ذلك أوامره إلى الحمّال. راح ياستراو يمجّ السيجار بينما كانا يعالجان نقل سرير أولوف الحديدي.

"رائع أن نشهد تشييعنا أيضاً، اللعنة" قالها مبتسماً لصهره.

"ماذا قلتَ؟".

لم يشأ ياستراو تكرار ما قاله، وواصل مجّ السيجار.

"إذنْ، سأتركك الآن، وأنصرف" تابع الصهر بتأدّب، وأبرز له أسنانه.

"سنلتقي بالتأكيد بين الحين والحين، في حقول الصيد الأبدية، هههه، وهناك لن يعوزنا أبداً كأس شراب" وضرب على كتف ياستراو الذي نظر بابتسامة حزينة إلى العدّاء الوسيم السمسار في البورصة الذي كان يصغره سنّاً بأعوام.

"هل أرافقكَ إلى الباب؟".

وضحك كلاهما مجاملة، ولكنْ فجأة صار الموقف جدّيّاً عند المدخل، لأن الباب كان مفتوحاً، وقد وقف ستيفان ستيفينسن عند العتبة واضعاً يَدَيْه في جيبَيْه. ومن خلفه، وقفت شابّة بملابس رثّة جدّاً.

"عليّ في الحقيقة أن أستعجل" علّق الصهر بابتسامة جافّة. حيّاه بعجلة، وكأنه لم يتعرّف إلى ستيفيسن.

"مع السلامة، نلتقي. نلتقي".

وسرعان ما اختفى الصهر.

"حسناً، زاركَ صهرك، إذاً" تشدّق ضاحكاً. "مرحباً، هل لي أن أقدّم لكَ الآنسة ينسن، وهذا هو السَّيِّد ياستراو، وما إلى ذلك، ونحن الاثنان نودّ التّحدّث معكَ بأمر".

نظر ياستراو إلى عينَي الفتاة الهلعَتَيْن. اتّسعت القزحية الزرقاء حتّى ابيضّ مركزها، ولذا كانت نظرتها غريبة. حليبية إلى حدّ ما!

"نعم، تفضّلا".

"هل تعرف، يا ياستراو.." وشرع يتحدّث بالحال. كانت الآنسة ينسن تخبّ ذليلة وراءه. "ياستراو، أنا وآنا ماريا نودّ تأجير غرفَتَيْن منكَ، فما الذي ستفعله بحقّ الشيطان، وأنتَ وحيد بهذا كله؟".

ورسم بـ (كاسكيته) حجم الفضاء لهذه الشَّقَّة من حولهم.

"أنتَ تعرف، إذاً ...؟".

خطا ياستراو خطوة إلى الوراء، وقد توضّح الأمر، متكشّفاً بضوء، قد برق في رأسه.

"أعرف، بالطبع، ولكنْ، ما الذي يمكنني فعله لساندرز؟ إنه مريض أحمق بأخلاق شيوعية فاشلة، حاولتُ أن أمنعه، ولكنه كان نبيلاً جدًّاً، كان من واجبه، إلخ إلخ، وزوجتكَ، كما قال إن زوجتكَ إنسانة رائعة. لا يجب أن تعيش حياتها بكذبة وتراللا ...".

"ستيفان، ليس صحيحاً أن تحقّر بيرنهارد ساندرز بهذه الطريقة" قالت آنا ماريا بلهجة شرق جتلاتند الملحّنة.

"ها أنتَ ترى، النساء يرون فيه إنساناً نبيلاً".

"لقد ساعدنا" دافعت آنا ماريا بحماس، وقبضت يَدَيْها الصغيرتَيْن.

ولكن ياستراو لم يكن مُنصِتاً.

ظلّ واقفاً يُحلِق بالقامَتَيْن الرَّثَّتَيْن. إنه الشباب بعينه جاء لملاقاته، وقد شعر بأنه الآن على قَدَم المساواة معهما.

للحظة، ظنّ أنه، ومن دون وعي، كان يقاومه كهدف.

بعدها اكتسحتْهُ فجأة قشعريرة لهاجسه، بشأن قَدَره البائس.

الجزء الثالث
إلى الأبد

الفصل الأوّل

مزّق ياستراو الوثيقة قطعة قطعة، وجعل القصاصات البيض تتطاير في الهواء. طارت عبر المشبك الحديدي لل-تيفولي(*)-، ونزلت مثل أوراق زينة على الشجيرات الخضر.

ولكنْ، ماذا لو كان هناك أحد ما فضولي، وأراد أن يجمع القصاصات معاً؟! وماذا في ذلك؟! لقد تمّ رؤية المحرّر ياستراو بحالة سُكْر شديدة في شارع فريديريكسبيرغيذه مُزعِجاً المارّة. هل لها معنى أكثر من ذلك؟ ألم تكن من قبيل مشاعر الحياء البرجوازية القديمة ما قام به، أن ينسف تلك الوثيقة الرائعة، ويعهد بها إلى شجيرات التيفولي المغبرّة؟ كان عليه أن يخفيها. ولكنْ، يا إلهي، لم تكن الورقة غير إثباتِ تسديد ما ترتّب عليه. خمسة عشرة كرونة لمخالفة القواعد والنظام في الأماكن العامّة. كان بالإمكان ضمّها إلى ورقة الإثبات الأخرى التي تؤكّد تسديده خمسة وسبعين كرونة إلى كرويه. ثمل، ولكنْ، محترم! محرّر لطيف! ولكنْ، أحمق بحقّ!

تمشّى بهدوء إلى جسر تيتيان. كان المشهد واسعاً أمامه حين يقدم من جهة مبنى البريد الأحمر. منظر السكك الحديدية المزدحمة المعتمة. القطارات، أبراج المراقبة، الجسور الحديدية الطويلة، كلها تزيّنت بسببنا. وهناك الرافعات في البعيد والبحر، والريح والشمس المشرقة التي انحصرت هنا.

شعر بأنه لم يعد شاباً. فلطالما وقف هنا وهو طالب، يتأمّل المشهد. هذا ما يُطلق عليه الحنين. لطالما وقف أيضاً على الجهة الثانية من الجسر، ينظر إلى أرصفة المحطّة الرئيسة للقطارات، إلى عربات القطارات، وهي تمرّ تحت قَدَمَيْه. كان هناك وقت محدّد آخر المساء، ينطلق فيه قطار أكسبريس برلين. لقد نسي الساعة الآن، كان جزءاً من تشكيلة روحه في ذلك الزمان، الوقوف هنا على الجسر، وتلك الريح الليلية ووهج المصابيح مراقباً انطلاق القطار. الشباب! ذكريات الشباب استدعت هذا كله. وقف يفكّر بمقاطع شِعْرية طويلة، لم تستقرّ، ولم يُكملها حتّى اليوم.

---

*) حدائق التيفولي هي مدينة الملاهي وهي موقع له مكانة تاريخية حيث تم افتتاحه في العام 1843 ويعتبر من أهم المعالم السياحية في العاصمة كوبنهاجن

حالات دمار، وهمود عشتُها
الذكريات تطاردني، كرسائل لم أردّ عليها

ولكنْ، الآن.

مرّ به باللحظة ذاتها رجل بطين بنظّارة ذات إطار كبير، نزلت إلى نصف عَظْمَة أنفه. بدا مُرتبِكاً قلقاً بنظراته الشاردة. ابنه ذو الأربع سنوات، ولدٌ يرتدي طربوشاً، غطّى أذنَيْه جيِّداً، بدا وجهه مثل كرة منفوخة. تملّص من يد أبيه، وكان من الواضح أن القلق تملّك الأب، لأن الولد ركض إلى منتصف الشارع.

"تعال هنا، يا موينس".

"لا، بابا. يدكَ رطبة، وحارّة".

اهتزّ بدن ياستراو فجأة. هل أصابتْهُ عدوى ستيفينسن الممسوس بحركات كتفَيْه المفاجئة؟ رماهما بنظرة خوف، كان للطفل مشكلة في طريقة مَشيه، وجزمته! بهذا القياس. جواربه المتهدّلة. لا لا. على ياستراو أن ينظر بعيداً ثانية. صوب القطارات وأبراج المراقبة، وإلى الميناء في البعيد.

سرعان ما سيمرّان به. شعر ببرودة في جذعه. بلى، إنهما يقتربان. وعليه بذلك أن ينظر إلى الولد ثانية. كان الجسد المدوّر ذاته بمشيته الجليلة بالساقَيْن غير المستقرَّيْن. البطن البارزة. قامة منتصبة وعنق مشرئب!

يخزه الألم في كل مرّة يمرّ به طفلٌ. يا لكثرة آلامه! الأطفال! أسرعا وهما يعبرانه على الرصيف، وكان أثر ذلك في روحه مثل شمس حمراء غائمة من خلف قضبان سياج.

من الأفضل له التفكير بشقّته ذات الأربع غرف الفارغة في استيدغاذة، وهي في طريقها إلى التداعي. كانت كبيرة جدّاً عليه. وماذا عن القاطنَيْن فيها اللّذَيْن فرضا نفسَيْهما عليه، ستيفان ستيفينسن! هل أحبّه حقّاً؟ نعم، ولا. كان إنساناً، في لحظة، ارتبطا ببعض بالطريق ذاته الذي سلكاه، لا غير، وكانا أيضاً منسجمَيْن. وماذا عن آنا ماريا المرتابة؟.

عبر ياستراو فجأة، وبنشاط الشارع، ومنه عبر الجسر إلى رصيف مائل، ومنه إلى المحطّة. وكأن غيمة قد غطّت الشمس، هكذا كان الحيّ هنا حوالي شارع ريفينتلوسغيذه واستيدغيذه، زاوية بارزة وسط كوبنهاكن. فتحات وممرّات سرّيّة وبوّابات، أدوار أرضية، دكن لونها من الرطوبة، ستائر نوافذ راقية ومحترمة لبيوت البغاء مموّهة.

كانت هناك شجرة خضراء في شارع بداء، وكأنه غارٌ عميق. انحصرت جذور الشجرة بين حجر الرصيف، وعلى تاجها، ضجّت العصافير بزقزقتها. كان في العادة، يخصّ هذا الشارع بابتسامة حزينة، ولكنْ، لم يمرّ بذهنه اليوم غير ومضة خضراء في البعيد وسط ماء كدر.

لأن كل شيء كان جنوناً. لأن ستيفينسن جاء ببنت صغيرة معه البارحة إلى البيت. هل كان يقصد إيلام آنا ماريا؟ لقد سمع ياستراو كل شيء. كان قد عاد نصف ساعة قبل موعده، نصف خدر، بسبب الويسكي والتبغ، مُترنِّحاً، ولكنه صاحٍ. وحدث ما حدث. كانت آنا ماريا مستلقية، تبكي بصوت خافت، خافت. لا يظنّ أن ستيفينسن قد سمع شيئاً، أو لعلّه لم يشأ أن يسمع، مُنشغلاً كعادته ببنت أخرى. صوت بكاء امرأة مفجوعة تواصَلَ من دون انقطاع، وغرفٌ اكتسبت هيئة بيت للأشباح، في ظلّ الليلة المضيئة، صدى النشيج المكتوم وراء الشفاه المسدودة صار مسموعاً، أعلى وأعلى، صوت أجوف بتردّده جَعَلَ جسدها يهتزّ حتّى صرّت الأريكة التي كانت نائمة عليها، صوت موجع حادّ، انتهى بقذف ياستراو لحذائه على الباب ذي الدَّرفَتَيْنْ تحت موجة غضب، وترجّاها أن تسكت.

كلا، لن يسمح بذلك. لن يقبل إقامتهما في منزله بعد الآن. ولكنْ، إن طردهما الآن ستبدو غرف البيت بفضائها إلى ما لا نهاية، وسيدور في البيت وحيداً في الغرف الأربع وغرفة الخادمة والمطبخ والمدخلَيْنْ، فضاءٌ يلي فضاءً، أبواب تطلّ على غرف، وفراغ يلي فراغ، وسينتكس، هو يعرف ذلك. في الغرف الفارغة هناك أرواح. هراء. بلى هناك أرواح بالفعل. أبواب تنفتح لحالها. مقابض تدور بهدوء من قِبَل أياد غير مَرئية، وفجأة يرى الباب مُشرّعاً. الشقق الخالية تتوالد، تتوالد. والمرء يرى نفسه أخيراً، جسدياً، جالساً على كرسي. آه، مرحباً ياستراو. والابتسامة الخجلة ذاتها.

ولكنه لن يقبل بذلك.

ركض صاعداً السّلّم. مازال ذلك الثقب في زجاج النافذة المطلّة على الفناء. عليه أن يكتب شكوى إلى حارس البناية؟ منذ سنة ونصف، وهذا الثقب يعبّ الهواء.

دخل الشَّقَّة بعجلة. كان ستيفينسن مستلقياً على الأريكة، يُدخِّن غليونه. قد اتّفقا، بالمناسبة، على أن تكون هذه الغرفة تخصّ ياستراو. سقفها مُربَّع مريح والألوان، الأصفر والبُنّيّ، ألوان لطيفة مهدّئة للأعصاب مثل جوّ مُمطِر هادئ.

"لمَ دخلتَ هنا؟" سأل ياستراو مهتاجاً.

أخرج ستيفينسن غليونه من فمه، وتثاءب.كان وجهه شاحباً.

"يا له من مزاجٍ مزاجُكَ هذا! أنا، على العموم، جائع".

"هل تقصد أن عليّ إطعامكَ أيضاً؟".

"لا، ولكن آنا ماريا، المرأة الهستيرية هناك في الداخل، هي جائعة أيضاً، ولا أظنّ أنكَ تنوي البلع وحدكَ".

ألقى ياستراو بنفسه على أحد الكراسي، مُحملِقاً بالأرض، واستجمع نفسه.

"أ لا يكفيكَ سقفٌ فوق رأسكَ، تريد طعاماً أيضاً" قالها بهدوء، وبقصد." لا يوجد في البيت شيء، ولا حتّى قطعة خبز يابسة في غرفة المؤن"، قالها وكأنها صفعة.

"بمقدورها شراء شيء".

"مَنْ؟".

"تلك التي في الداخل، بدلاً من الاستلقاء والنحيب. لتنفعَنا بشيء، اللعنة" أجابه بعنف.

"أنتَ نذل".

قالها ياستراو، من دون تفكير. اعتدل في جلسته. عليه الآن الرّدّ بالمثل. عيناه لم تعودا تستطيعان التّحرّك بعيداً عن فم ستيفينسن الجامد العنيف. أشبه ما يكون بنداء. لا تودّ عيناه أن تنتقل لتنظرَ إلى بياض عينَيْه الزجاجَتَيْن، نظرة حادّة، لم يفهمها أبداً. لذا لم يستطع أن يهاجمه. لا يودّ أن يُحملِق بعيداً، ثمّ يُسدّد إليه لكمة مباغتة. لا.

ولكن فم ستيفينسن ارتخى قليلاً باللحظة وهو يقول "ممكن أن تكون على حقّ" قالها بنعومة.

حملق ياستراو بالغبار، على مفرش الطاولة التي تجعّد بثنيات عشوائية من حول تمثال الرجل الأسود المنحوت وجهاز الهاتف، وتحت ضغط شعور بأنه يعيش وسط الدمار، انحنى بجذعه مستسلماً. لم يملك إلا أن يبتسم، إذ في خضمّ هذا الجنوح المشترك يحتاج الكل، بالطبع، إلى تناوُل لقمة.

"سأتحدّث معها بشأن ذلك" قالها برقّة، وفي رقّته، استيقظ وهج ضوءٍ متغلغل في عمق هذا التداعي.

ألم تكن حركة يد المسيح ممدودة محتضنة حانية؟

كانت آنا ماريا مستلقية على الأريكة التي سحبوها إلى غرفة الطعام من أجلها. كان الأثاث من خشب البلّوط الفاتح اللون هدية من أهل زوجته، تمّ دَفْعه صوب النافذة والترتيب القديم والمتناظر، حيث كانت قطعة الأثاث البوفيه متوسّطة الحائط مثل مذبح والثريا منتصف السقف، تحوّل ذلك كله إلى نظام كركبة مُربِكَة مثل فراغ آينشتاين.

أدارت آنا ماريا ظهرها بكسل، ونفخت بدخان السيجارة اتّجاه مفرش الأريكة.

"اسمعي، يا آنسة ينسن" بدأ ياستراو كلامه.

"آنسة ينسن" ردّدت وهي تضحك، ووجهها تجاه المفرش. ارتعش ظَهْرها الممتلئ.

"بلى، وماذا تريدين أن أناديكِ، إذاً؟"قالها شبه معتذر، وبخجل.

لم تجب آنا ماريا. غيمة بيضاء من دخان السيجارة تكثّف على الحائط.

"حسناً، أرجوكِ مساعدتنا في إعداد بعض الطعام. لأننا جائعون".

"أرجوكِ؟" استدارت فجأة نحوه، وقد اتّسعت عيناها دهشة. "أرجوكِ؟" وتردّد صوت ضحكتها الأورهوسي(*) عالياً.

نهضت بالحال من مكانها، وهي تتعكّز بمرفقَيْها على ركبَتَيْها، وهزّت جسدها. صوّبت عينَيْها تجاه ياستراو، جامدَتَيْن بعض الشيء. كان هناك شيء وحشي، يعلوهما.

"هل ترجوني حقّاً؟"

"نعم، وما عساي أن أفعل غير هذا؟" قالها ياستراو بابتسامة متردّدة، لأنها كانت تنظر إليه، كما لو كانت تهمّ بنَطْح جبهة رأسه. ومدّ يده بحركة محتضنة حانية استرضاء ومصالحة.

"آنسة ينسن" كرّرت، وانعكس حينها ظلّ ابتسامته على وجهها. "ليت اسم عائلتي كان أجمل من هذا، لأنكَ تلفظه بطريقة جميلة جدّاً" ومسّدت شَعْرها بعيداً عن جبهتها. كما لو أنها استيقظت ونهضت مباشرة متوجّهة، وهي تقول "آه، أنتُما الاثنان المسكينان، دعني أرَ ما يمكن أن أفعل".

قامتها بدت أكثر اعتدالاً، وهي تمشي ذاهبة إلى المطبخ.

جلس ياستراو مُؤقّتاً، يتفحّص مشطاً كبيراً، كان مَرمياً على الطاولة.

(*) Århus المدينة التي جاءت منها

لم يفهمها.

عندما ظهرت آنا ماريا من جديد، ندّت عنه حركة استفهام، محتضنة حانية. ولكنْ، لِمَ محتضنة حانية؟ وبلحظة، تحوّل جسدها، فبدت بدينة مثل خادمة، تهدّل جسدها، صار صدرها وجذعها أكثر خشونة. كان بإمكانه أن يرى بوجهها انعكاساً، يعلن عن مجيء ستيفينسن ووقوفه من خلفه.

"ليس هناك من أثر لطعام في المطبخ" قالت وهي تنظر إليه، كما لو أنها لا تريد أن ترى سواه.

أمسك ياستراو بجيب بنطلونه، واستلّ ضبّة نقود ورقية، مسّدهم بعناية على الطاولة قبل أن يناولها إيّاهم.

"كيف جعلتَها تقبل بذلك؟" سأل ستيفينسن عندما اختفت خطواتها سريعاً عبر السّلّم إلى الشارع. "ليس لديها مزاج لفعل أيّ شيء، لا شيء غير الالتصاق بأحد ما، يا لثقلها! وكأنكَ انتشلتَها للتّوّ من الماء، ملابس مبلّلة، وكل شيء فيها ثقيل".

"لا أدري. ولكنْ، هلا وضعنا مفرشاً على الطاولة. إنها طاولة زوجتي" قال ياستراو. كانت ابتسامته مازالت متردّدة من دون معنى. ظلّت هكذا قلقة، وكأنها مشدودة بحبل.

"إليكَ بالجريدة" وألقى بها ستيفينسن إلى ياستراو، فقام بتفريقها وفرشها على سطح الطاولة. فزّ ياستراو فجأة، كان هو العدد القديم من -دنمارك- الذي احتوى على مقابلة البروفيسور يوليوس غيبرهاردت. راح يمُسِّد بيده الموضع، وكأنه حمل معنى ما.

"فكرة جيِّدة، والله، خصوصاً وإني لا أُحبّ أن أستخدم مفارش للطاولة، المفارش هي من ضمن الممتلكات الأرضية، وهي، بالتالي، تعود إلى زوجتي".

"نعم، أكثر تسلية" دمدم ستيفينسن، وجلس، بالحال، وهو يزرع كوعَيْه على الجريدة. "أخبرني فعلاً كيف جعلتَها تطيعكَ؟"

"أنتَ خنزير بتعاملكَ معها".

زمّ ستيفينسن شَفَتَيْه حول طرف الغليون.

"ولكنْ، دعنا لا نتحدّث في هذا الموضوع، ونديرالغرامافون الآن، وإلا سنتعارك" واصل ياستراو.

أومأ ستيفينسن بالكاد برأسه موافقاً.

أدار ياستراو الغرامافون، ووضع أسطوانة مسحوقة لخماسي الجاز -ذا ريفليرز-(*) .

كان صوتاً مشروخاً في البداية، ولكنْ، سرعان ما ارتفعت الأصوات بالدندنة والنحيب، بالتقليد، وما يشبه المواء بلا معنى. تارة تنساب الأصوات بغناء اللازمة العاطفية، بشفاه كبيرة رقيقة ذابت حُبّاً، وتارة يستبدلون بها الهارموني. صار الصوت فوق إنساني وحديدي بجودته. الرئات عليها أن تكون بقُوّة آلات النفخ. حلّت من بعدها أصوات أخرى. النغمات رفرفت عالياً، ثمّ انكسرت فجأة. كل شيء تمّ ببراعة، تفتّق عن جمال، يأخذ المرء على محمل الجدّ، بشرط أن يتحمّل مسؤوليّته.

هزّت الإيقاعات جسد ياستراو. كان راقصاً فاشلاً، للأسف، وإلا لكان سعيداً، ولكن الأقدام تحرّكت بخطوات ثقيلة، بإيقاع الشارلستون. مُجرّد محاولة منه، ليكون سعيداً.

كان ستيفينسن جالساً، ينظر إلى الغرفة الثانية، بابتسامة ساخرة.

"ما الذي يُضحككَ؟" سأل ياستراو عندما توقّفت الأسطوانة.

"لا، أضحك على صور قِدّيسَيْكَ هناك".

"أي قِدّ ...".

توقّف ياستراو فجأة. كانت الصورتان اللتان تعودان للأمّ والابن قد وُضعتا على الطاولة من قِبَله داخل الغرفة الثانية. شعر بأنه انفضح. هل رصده ستيفينسن؟ كان يمارس نوعاً من طقس دِيني مع هاتَيْن الصورتَيْن عندما يكون وحيداً في البيت معهما، يؤدّي إشارات سرّيّة عندما يمرّ بهما.

"كانت شابّة جميلة، أمّكَ" انبرى ستيفينسن قائلاً.

تحرّك ياستراو في مكانه بانزعاج.

"اللعنة، إنها، على أيّة حال، امرأة مسنّة الآن" قال ستيفينسن.

"لقد ماتت".

"حسناً، ولكنها كانت كذلك" علّق باستخفاف. "يا له من جذر صعب هذا الذي تستخدمه في مصطلحاتكَ!".

(*) The Revellers خماسي الجاز يعزف موسيقى جاز أمريكية، انتشرت في أمريكا وأوروبا على الأخصّ في العشرينيات والثلاثينات

أجابه ياستراو حين أدار أسطوانة جاز حادّ النغمات.

"هذا مزاج تدميري!" قال ليجدا شيئاً آخر، يتحدّثان عنه.

"صحيح، الهراء متوفّر ما فيه الكفاية، ولكنها موسيقى تعدّل المزاج".

راحت الأسطوانات تتبدّل، الواحدة بعد الأخرى. حتّى صعد الدم إلى رأسَيْهما. جلس ستيفينسن، من دون حراك، يعضّ غليونه. تفلت، من وجهه الجامد ضحكة طربة بين الحين والحين، يُقلّب وجهه في كل مرّة، يُصدر صوتاً نشازاً في الغرفة.

"منطق جميل".

بينما كان ياستراو، بالمقابل، يرتجل الرقصات. وكالعادة لم يُفلح. كان يفشل بأداء الخطوات المنفعلة، واحدة بعد الأخرى. يرتبك إيقاع قَدَمَيْه. كان يشعر بذلك. إنه يشبه رجلاً آليّاً تماماً. في خياله، كان يرى نفسه مرّة راقصاً وسيماً، ومرّة سميناً زيادة. رقصة الكيك(*) وخطواته تأرجحت بين الفَلَتَان والخجل. أداؤه الأسوأ من نوعه، لأن شيئاً ما في ذهنه لم يكن بالإمكان تحريره. في لحظات كهذه، كان يعتقد أنه صاحب القَدَمَيْن الخفيفَتَيْن والروح الراقصة داخل جسد منفّر أخرق، ولذلك يشعر بنوع من الحزن والازدواجية التي عليه تجاوزها، يصمّ أذنَيْه عن سماعها، يصمّها بالثمالة.

سقطت عينه على ضبّة عِيْدان الفاستالاون لابنه أولوف. كانت تستهزئ به، لأنه فَقَدَ ابنه. كل شيء تجمّع إلى صرخة. الصرخة! حينها دخلت آنا ماريا وهي تحمل سلّة مملوءة بقناني البيرة والعلب. وبخطوات راقصة والغرامافون مازال يصرخ، تقدّم نحوها، وأمسك بزوج قناني، ليرقص معهما على إيقاع الموسيقى.

"الله، يا بورنونفيل!"(**) صاح ستيفينسن. "صورة مع البيرة. هاتِ لنا واحدة في الحال".

جلس ياستراو، وهو يلتقط أنفاسه.

"من الصعب الانتظار لحين وصول البيرة، هه؟" قال كما لو كانت تعزية.

وحالما توقّفت الأسطوانة، هُرع ياستراو بالحال من جديد، ليستبدل بها واحدة بأخرى.

"نحتاج لتوظيف مبدّل أسطوانات بتعيين ثابت." واصل ستيفينسن. حين تمّ غلي البيض،

(*) Cake-walking gentelman رقصة شعبية أفرو أمريكية انتشرت بين مَنْ كانوا عبيداً في الولايات الجنوبية في القرن التاسع عشر حينها، وكان مَنْ يفوز يحصل على (كيكة).

(**) Bornonville August 1805-79: راقص باليه ومُدرّب ومُصمّم رقصات دنماركي مشهور

وحضرت وجبة الغداء المتأخّرة على الطاولة عهد إلى آنا ماريا بمهمّة تبديل الأسطوانة. يجب أن تدور، من دون توقّف. غير مسموح للصمت بإزعاجهم في أثناء تناوُلهم الطعام.

ولكنها ارتبكت جدّاً، نظرة عينَيْها غير مستقرّة، وقد احمرّت بشرتها مع شحوب مَرَضي. تحسّست البيضة. أصابعها القصيرة بأظافيرها الخشنة أمسكت بالملعقة، بشكل خاطئ.

توقّفت الأسطوانة، وتخلّف صوت صرير متباين متذبذب.

"الغرامافون" صاح ستيفينسن بحدّة، وقد صرّ عينَيْه.

"حاضر حاضر" أجابتْهُ مرتبكة بنغمة الجتلانديّيْن، ونهضت من مكانها. اضطرّ ياستراو أن يُمسك بالبيضة والحامل لها، إذ أوشكت أن تقلبهما، وقد جاء على لمس يدها العارية الناعمة، وحينها أدرك الأمر، أقوى من كل مرّة قبلها. إنها كانت مريضة، ولا يمكن مَسّها. لم يمسك نفسه عن النظر إلى جسدها الصغير الصارم داخل البدلة الرَّثّة التي ضمّها حزام جِلْدي، نزل إلى وركها. كان جسدها شهياً ممتلئاً، حتّى شَفَتَيْها المكتنزتَيْن اللّتَيْن لوّنتْهُما. عدا ذلك، فلم تكن تستخدم مكياجاً لوجهها. ولكن هذا المخلوق الممتلئ لم يكن بالإمكان لمسه.

مسّد الجريدة. كان بحاجة إلى مداعبة شيء ما، بحاجة إلى أن يكون رقيقاً مع شيء ما. وابتدأ دوران لحن جازي جديد.

قال ياستراو وهو ينظر إلى ساعته "حسناً، عليّ القيام بعمل ما، على العموم".

"البيرة أوّلاً" قال ستيفينسن. كانت هناك أربع قناني لكل واحد منهما على الطاولة.

وضع ستيفينسن القنّينة على فمه رغم أن الأقداح كانت موضوعة على الطاولة عند صحنه. "نسيتُ أن عليكَ أن تعمل" وجفّف فمه"أنتَ موظّف بتعيين ثابت. ناقد برجوازي محترم من طراز خاصّ، اللعنة عليّ، كيف لي أن أنسى ذلك؟!".

"لو لم أكن، لما أكلنا" أجابه ياستراو.

أومأت آنا ماريا برأسها بشكل عملي. وواصل ستيفينسن الشرب من جديد.

"قل لي، كم ستبقى بتصوُّرِكَ في عملكَ قبل أن يرموا بكَ خارجاً؟" سأل ستيفينسن، وهو يضع القنّينة بضربة على الطاولة.

لمعت عينا آنا ماريا بومضة قلق. والغرامافون كان يصرخ بآلات النفخ بأعلى صوت.

لم يجب ياستراو. كانت له تلك النظرة المجهدة الغائمة.

"أنتَ تدري، لا يمكن للأمور أن تستمرّ هكذا" تابع ستيفينسن، وهو يُحلِق بوجهه بنظرة ساطعة غير طبيعية.

"لا، سأتزحلق بعيداً عن "البَرْجَزة" قالها ياستراو مُلَحِّنة. حمل الجاز كلماته. "ها أنا أخيراً أقترب من الشباب. سرعان ما سأكون على قَدَم المساواة معكَ". وأومأ برأسه صوب ستيفيسن. "أنا أقترب منكما، بالفعل" واصل "لأني أودّ أن أعرف ما الذي يكمن في داخلكما. ما هو الشباب؟ ما هو المستقبل؟ أريد أن أكون على قَدَم المساواة معكما".

حمل الجاز كلماته. شعر بأنهما صادقان. قَدَرُهُ، القَدَرُ الكبير في حياته. أحسّ بالبيرة، وهي تدور برأسه. الحُرِّيّة، هو ما كان يبحث عنه، الروح الخالدة. ولهذا حصل هذا كله. أُدرك ذلك الآن. الجاز أخبره بذلك.

"لِمَ تريد التّحدّث عن ذلك، يا ستيفان؟ ها أنتَ ترى أن السَّيِّد ياستراو لا يحبّ ذلك" قالت آنا ماريا معترضة.

"اهتمّي بشغلكِ، يا بنت، نسيتِ أن تُديريه، ألا تسمعيه يعول".

فزّ ياستراو لصوت ستيفينسن العنيف. ومضت أفكاره في رأسه، البنت لا وَليّ أمر لديها، ليُدافع عنها، ولكنها كانت قد نهضت من مكانها.

راح يتأمّل شكل رأسها. ودّ لو يُطبطب عليها. مثل حيوان مريض، لا يمكن مساعدته.

تلقّى فجأة، بالمقابل، نظرة غاضبة من ستيفينسن. "هل قرأتَ مقابلة البروفيسور غيبرهاردت؟" سأل ياستراو بعدها.

"لا أعرفه".

ابتسم ياستراو بتعالٍ، وراح يؤشّر بظفره بعناية على بضعة أسطر.

"ولكنْ، ماذا قال؟".

أخذ ياستراو يقرأ بصوت عالٍ "أحياناً يثير هذا العالم اشمئزازي، لكوني مساهماً في تطوّره المشوّه، وهذا الشعور قد استفحل بي تماماً، وهو ما دفعني للانسحاب".

رفع ستيفينسن رأسهَ بابتسامة انتصار، وسأل مباشرة "هل ستترك "داوبلاذيت؟".

"مستحيل، مَنْ قال هذا؟ قرأتُ لكَ شيئاً من الممكن أن يفيدكَ؟".

ندَّت عن ستيفينسن هزّة الكتف إيّاها، وضحك فجأة ضحكته المصطنعة تلك. "أنتَ تُدمّر نفسكَ، وما إلى ذلك، وعدا ذلك، فكل ما تقوله لغو فارغ".

"لا لا" صاحت آنا ماريا مندفعة.

"بلى بلى" قال ياستراو مُقلِّداً صوتها بنغمة حزينة رقيقة.

"ممتاز! تصوّرتُ أنكَ لا ترى شيئاً" ضحك ستيفينسن.

"آنسة، آنسة آنا ماريا" قال ياستراو، من دون رغبة بالردّ على ستيفينسن. "الأسطوانة توقّفت ثانية" فأومات برأسها إليه.

"آنسة آنا ماريا" كرّرت بهدوء محاولة تقليد لحن ما قاله. ولم تجر قَدَمَيْهَا في خطواتها. أدارات الغرامافون، وكأن المهمّة منحتْها متعة.

وواصل ستيفينسن بنظرته ذاتها الساطعة التي يوجّهها إلى ياستراو "وإلا لما تقبّلتَ أن نفرض أنفسنا عليكَ، بإمكاني أن أشتمّ رائحة تلك الأمور" وتناول قنّينة البيرة "بصحّتكَ". تعاكس عنقا القنّينَتَيْن، ورَنّا باصطدامهما ببعض. "حالما ساندرز ..".

"لا أريد أن أسمع عنه" قاطعه ياستراو بانفعال.

تمتم ستيفينسن "وماذا في هذا؟ حصل ما حصل، وإن كان له ذنب في انقلاب العربة، ثمّ ماذا؟ مصيرها ستنقلب".

كانت الآلة الموسيقية تعزف لحناً كئيباً، يقطع نياط القلب في الأسطوانة التي تبدّلت. ارتعد جسد ياستراو لذلك اللحن العاصف. صوتٌ قَدَريٌّ محتومٌ.

"ولكنْ، حالما قصّ القصّة، أقصد ساندرز، تلك القصّة التي ابتدعها، وجدتني حاضراً" وطفحت ابتسامة خبث على شَفَتَيْه. "رأيتكَ وأنتَ تطوف في هذه الشَّقَّة الواسعة. خراب متروك. الفخامة المتداعية. ولم يكن باستطاعتي مقاومة هذا، فوجدتني أمامكَ مع هذه البنت".

زمّتْ آنا ماريا شَفَتَيْهَا، يصاحب عينَيْهَا رعبٌ طوال الوقت، وهي تتابع ستيفينسن مُواصِلاً كلامه، وكأنه يخطب "ومضت الأمور كما ترى، لم ترمنا في الشارع، ها نحن نجلس معكَ هنا. بمقدوري أن أشتمّ الرائحة حين تكون الأمور بطريقها إلى التردّي". كان بإمكان ياستراو أن يميّز صوت شابّ فَتيّ، لم يكبر بعد.

"لقد رأيتُ كل شيء كصورة، قصّة أو قصيدة أو ما تشاء، لا أدري. هكذا أرى الأشياء، وهو يساعدني برؤية الأشياء منطقياً".

"أرى أنكَ مهتمّ بالمنطق أيضاً؟" سأله ياستراو ساخراً.

"لستُ غبيّاً كما تتصوّر".

نظر ياستراو إليه. كان قد سمع هذا الرّدّ، وذلك النقاش من قبل. مستحيل، تلك الغرفة المظلمة ناحية الشمال، الواجهة التي تغمرها أشعّة الشمس في الجهة المقابلة، وما بعد الظهيرة هذا الميّت، هذان المخلوقان، موسيقى الغرامافون، المتواصلة، قناني البيرة على الطاولة، وفيض من أغطية القناني، لا، لم يمرّ طوال عمره بشيء مثل هذا من قبل. بدا المحيط له فجأة من البلاستيك، شيء محفور لن يُمحَى. هذان الوجهان. هذا الطالب المتضوّر جوعاً، المتطرّف. ستيفينسن كان ... كان طالباً، لا شيء غير ذلك.

طالب مجنون، وهذه الخادمة التي لم تكن تعرف ما الذي تفعله بجسدها، ولا بروحها!

ومن جديد، جلس ياستراو عند طرف الطاولة ضامّاً يَدَيْه، وكأنه يريد كسر خبز العشاء الأخير. إيموس(*). بهذا الوضع، تفهّم كل شيء بتصوّره، ووثق بضوء في داخله.

ولكن ستيفينسن واصل: "صورة، أرى هذه الشّقّة دائماً، وكأنها تتأرجح في الهواء" وأخذ جرعة من القنّينة.

"ما إن أدخل حتّى يرتفع كل شيء. الشّقّة، الغرف تُبحر، وكأنها سفينة طائرة، وهو ما أراه الآن أيضاً. خاصّة مع الجاز، هه. والآن داهمتْني فكرة أن كل شيء عائم، يطفو فوق، عالياً، عالياً فوق هذا الوسخ كله، ونحن مسافرون، نعم، نحن مسافرون، ما الذي أقوله، دع كل شيء يمرّ حسب، دع هذه الأبدية تسيطر علينا. ولكنْ ...".

انحنى ياستراو إلى الأمام، وهو يُحملِق بوجه ستيفينسن الشاحب المنهوك، وجبهته العالية المزعجة، العينَيْن اللاصفَتَيْن والفم الميكانيكي. إنه مجنون، ولا شكّ. الشتاء الأخير قد طبع آثاره عليه، ولكن أفكاره والصورة التي تحدّث عنها كانت أقوى تأثيراً عليه من وجهه الجامد.

"بلى، أنا أفهم" أجاب ياستراو، عندما نظر ستيفينسن إليه قلقاً. "هناك دوماً شعور بالأبدية، في كل ما هو في طريقه إلى التداعي".

(*) Emaus لوقا 24،13-35 وفقاً للقصّ أن اثنَين من تلاميذ المسيح توجّها في عيد الفصح إلى المدينة إيموس عندما رافقهما المسيح بعد قيامه. لم يتعرّفا عليه حينها، ولكنْ، لاحقاً في المساء، عندما باركهما كسر الخبز فتح لهما أعينهم.

"نعم".

التزم ستيفينسن الصمت. راح يُحملِق بقنّينة البيرة، وكأنه عرّاف.

في الوقت عينه، توقّف الجاز. وللحظة، كان الجميع متسمّراً في مكانه. تأمّل ياستراو أن تحدث حركة ما، ولكن آنا ماريا لم تتحرّك من مكانها.

فجأة التقط ستيفينسن قنّينة البيرة، وألقى بها صوب آنا ماريا.

مسّت القنّينة رأس آنا ماريا بعبورها، وتكسّرت باصطدامها بالبوفيه.

"كم مرّة أُعيدها عليكَ، أن تنتبهي إلى الغرامافون يا بنت".

فاضت عيناها بالدمع. والصور تحرّكت أمام عينَي ياستراو. لم يرَ غير ظلال الستائر المُسدَلَة في العمارة المقابلة.

"كونكَ نقلتَ عدواكَ إليها، لا يعني أن تُسيءَ معاملتها".

سَمِعَ الكلمات. قد قيلت، وسُمعت بوضوح في أرجاء الصالة. كان صوته. ولكنها وكأنها صدرت من على مبعدة عن فمه. كأنها وُلدت من الهواء.

تجمّد ستيفينسن في مكانه. الجِلْد من حول عَظْمَتَي خَدَّيْه كان أبيض مثل الطباشير، وكأن قناع الموت قد نُزع عنه هذه اللحظة.

نهضت آنا ماريا من مكانها. نظرت إلى ياستراو بعينَيْن متّقدَتَيْن. كانت تحاول أن تستنشق هواء، وذلك بدا واضحاً من خلال وضع جسدها. الحزام رفع ثوبها إلى أعلى، فانتفخ مثل قميص رجل، يرتدي حزاماً.

"وعلينا أن نطيع ونقبل بذلك، وعلينا أن نسمح لرجل لا نعرفه أن يتصدّق علينا. ونحن فقراء، يهبوننا الطعام، ولذا يجب أن ندعهم يدوسون علينا، لا لا لا " أخذتْ تلهث. سرحَ شعرها نازلاً على إحدى عينَيْها. اشتعلت حمرة قوية، وانتشرت على رقبتها وخَدَّيْها، ما جعل لون الجِلْد الميّت المريض حول عينَيْها يبرز أكثر. ولكن عينَيْها كانتا خاليَتَيْن من الهلع، كبيرَتَيْن مفتوحَتَيْن مثل عينَي بقرة. كان كيانها كله محض هجوم جامح، لا يمكن السيطرة عليه، قفزة عمياء بنظرة السائر في نومه مشرّع العينَيْن.

نهض ياستراو مستاء، وقد حاول أن يضع يَدَيْه على كتفَيْها، ليُهدِّئها، ولكنها أفلتت نفسها منه. تحت جِلْد ذراعَيْها العاريَتَيْن، ظهر مُؤشّر لعضلات رجولية.

"ابعدْ عنّي! ساعِدْني ستيفان، اِحمِني" صرخت منفجرة، بلا إحساس.

"أووه، جنون، كل شيء" قال متشدّقاً بكلامه. استعاد وجهه لونه ثانية "أديري الغرامافون".

نظرت آنا ماريا بسرعة إليه. باستدارة رأس نشطة وحركة يد، مسّدت شَعْرها إلى الخلف. الوجه الذي عاد قلقاً، والفم المرتجف، صارا أكثر حدّة، درجة أن كل ما قالتْهُ بدا تهوّراً. يكاد يكون شخصياً.

"آه، لا قدرة لي على التفكير" تنهّدت، وهي تقترب بوجهها من ياستراو. شعر وكأن جسدها سيسقط عليه. "عطلَ كل شيء فيّ"، كانت تُحملِق مباشرة في عينَيْه، وقد عاد الرعب الآن إلى نظرتها، اتّسعت الحَدَقَتَان الحليبيَّتان، وغامت تعابير وجهها.

"لا أدري. أنا غبية، أنا غبية، غبية" وفجأة أمسكت برأسه بكلتا يَدَيْهَا.

"ولكنْ، حضرتكَ طيّب" قالت وهي تهزّ رأسها بجدّيّة. "حضرتكَ إنسان طيّب. هل تظنّ أني مريضة؟ لستُ مريضة إلى هذه الدرجة، لا لا، إن كان هذا، سأموت خزياً من ذلك، ولن أبقى دقيقة واحدة بعد الآن هنا، صح؟ لا يمكنني ذلك".

"أديري الغرامافون أوّلاً" كرّر ستيفينسن مُنزعِجاً.

جلس ياستراو مُنهكاً على الأريكة.

"ما الذي تفكّر به؟" سأل ياستراو ستسفينسن، من دون تركيز. كان الأخير جالساً يحشو غليونه.

"أفكّر بمنطق".

"هه".

لمعت عينا ستيفينسن.

"أفكّر كالتالي، إن كنتُ أنا مثل أحدهم ... لنقل لصّاً، بلى، ماذا في ذلك؟ نحن نعوم نحو الأبدية، أليس كذلك؟ ندع كل شيء يحصل ويمرّ، نحن أرواح لا نهائية مطلقة، أليس كذلك؟".

وحملق طويلاً.

"ولكنْ، في هذه الحالة، علينا أن ندخل عالم الإجرام، وسيكون ما أنوي فعله بشأنها قد حصل، ولن يعني ذلك شيئاً".

"هل ما تقوله صحيح؟ هل ارتكبتَ شيئاً ...؟".

لم يقل ياستراو المزيد، لأن آنا ماريا ركضتْ صوب الأريكة، وألقت بجسدها منفجرة بنوبة بكاء عنيفة.

"اتركها لي" قالها ستيفيسن، ونهض مُكرَهاً.

ترك ياستراو الشَّقَّة، ونزل السّلّم حاسر الرأس، وقد دسّ يَدَيْه في جيبيه متوجّهاً إلى ساحة البلدية.

الفصل الثاني

.

مشى ياستراو حاسر الرأس صوب بناية الـ -داوبلاذيت- الحمراء. وكانت خالية أيضاً. بإمكانه أن يرى ذلك من خلال النوافذ. لقد غرقت في المحيط أيضاً خلال ليلة واحدة، وصارت غير حقيقية. هو نفسه انجرف، من دون حول ولا قُوّة، وكأنه كان غريقاً.

مازالت يداه في جيبَيْه، والغليون بين أسنانه، وهو يطوف ماشياً أمام التِّرامات والسَّيَّارات متوجّهاً إلى باب الـ "داولاذيت" الدّوّار. شعر بارتخاء، حيث الأحداث كلها صارت إلى ما يشبه المسرحية، الناس كلهم يرتدون الأقنعة. كان حُرّاً بشكل غريب، وكأن أحداً آخر كان يتّخذ القرارات بدلاً عنه.

صعد إلى قسم التحرير، طلّ إلى الداخل، وأدّى التَّحيَّة لسكرتيرة التحرير، ثمّ قال بضع كلمات رقيقة للسَّيِّدة التي كانت لديها خفارة. فجأة لم يعرف لِمَ صعدَ إلى هنا!

تمشّى إلى قاعة العمود.

وفي داخل مكتب صغير، جلس هناك إيريكسن، وكأنه في صندوق، يشرب القهوة بحيوية لافتة، بينما كان يكتب مقالاً.

لِمَ لا يميل ياستراو على إطار باب مكتبه، ويُحيّيه؟

"مرحباً، أهو أنتَ، يا جاز؟" ضحك إيريكسن، ودلق بعض القهوة خلالها على مخطوطته. "إيه، يا للحظّ! هذه الحوادث تقترن بالقهوة لا غير" وأمسك بنشّافة الحبر، وضغط على القطرات. "أتلفت الورق النظيف، لِمَ بحقّ الشيطان تقف وتُبحلِق بي عند الباب" ثمّ رمى بنشّافة الحبر على الأرض، وهو يواصل "لتُرينا فخامتكَ" وسعل ضاحكاً فجأة.

"فداء لكَ، جاز، هلا أغلقتَ الباب؟".

وما إن أغلق ياستراو الباب حتّى رفع إيريكسن بابتسامة الثقة المتبادلة كأس نبيذ البورت من مكانه المَخفي خلف ضبّة كُتُب دليل الهاتف، وتنحنح.

"لا حصّة لكَ، ياه" وأفرغ الكأس في جعبته، وأخفاه بحذر ثانية. "هذه الأشياء لا تحصل إطلاقاً في أثناء ساعات العمل" أضاف، وبغضب متصاعد قال "أقسم، لا تحصل إطلاقاً" واستدار، من ثمّ، بمعقده مستاء "من المؤكّد أنكَ لا تُصدِّقني".

"بلى بلى" أجاب ياستراو للتهدئة، وهو يجلس.

ومن دون تمهيد، عاد إيريكسن لطيفاً ثانية. أمال برأسه جانباً، وغمز بعينَيْه المُثلّثتَيْن. كان هناك ارتباك ما في حاجبَيْه ما يشبه حاجبَي كلب.

"اعذرني، لأني لم أُقدّم لكَ، ولكنْ، نفسي أوّلاً كما تعرف، أليس كذلك؟ أنتَ تعرف ذلك، نعم، أنتَ تفهم، يا جاز، أليس كذلك؟ أنتَ نفسكَ سِكّير".

"هل أنا سِكّير؟" قاطعه ياستراو، "حسناً، ربّما".

"لا، لا، لا" اعترض إيريكسن شبه مستاء، ورفع يَدَيْه عالياً، وهزّ أصبعه صوب ياستراو مثل يهودي قانط. "أنتَ سِكّير، كنْ صريحاً، يا جاز. إنها أفضل طريقة للانحدار، أمانةً! هل تتصوّر أننا لا نعرف أنكَ سِكّير. نحن في الجريدة هنا، نعرف كل شيء. جريدة إخبارية من الطراز الأوّل. نحن نعرف منذ زمن طويل. نعرف كل شيء. ولا ينفعكَ أن تُنكر. ونحن نعرف أن زوجتكَ قد تركتْك. وأنتُما ستتطلّقان. أيّها العربيد. أنتَ تعلم تمام العلم كيف يُعامَل الذين يُنكرون أفعالهم هنا في هذه الجريدة. طبعاً برصانة، ولكن أسماءهم تظهر بخطّ ناعم على ظهر الجريدة في عمودي "هنا وهناك" وهو العمود الأغبى في الجريدة كلها، فلا أحد يقرؤه، ولا يجب أن يُقرَأ أصلاً من قِبَل أحد، هل تفهم؟ لهذا السبب هو موجود. أنتَ سِكّير، وذلك مطبوع بحروف كبيرة، سِكّير".

وضرب بقبضة يده سطح مكتبه، فَصَلْصَلَ كوب قهوته. وكأس نبيذه، وشت به من خلف ضبّة كُتُب دليل الهاتف برنّة خفيفة.

"سِكّير" وجلس لبُرْهَة، ليلتقط أنفاسه، بينما كان ياستراو يُحلِق فيه. سمع صوته مبحوحاً صدئاً، وتنهّد بعدها، وأضاف بمَكْر "أجل ...، ولكن الحياة قد تركت بصماتها عليّ أنا أيضاً، هههه".

"هل هذه ميزة؟" سأله ياستراو مُستفهِماً.

"بالطبع، ماذا تظنّ " ضحك إيريكسن." وإلا لكنتُ أنهيتُ خدماتي منذ زمن طويل، ولكن الحياة تركت بصماتها عليّ، هو ما قاله العجوز في مكتب الزاوية، هههه، عندي زوجة في المستشفى. كنتُ رجلاً غنياً، خلال الحرب، حينها لم يكن بالإمكان تجنُّب ذلك، وصرتُ متسوّلاً

بعد الحرب، حينها كان أيضاً من غير الممكن تجنّب ذلك. وكمتسوّل دخلتُ هنا إلى الجريدة بمقالتي الأولى، ممكن أن تكون أنتَ الرجل الذي يأتي من الشارع، قال لي العجوز. هههه، طوال عمره يجلس منتظراً الرجل القادم من الشارع، وأنا كنتُ القادم الأخير من الشارع، وهو لا يتركني أنسى ذلك أبداً، قبل أن يأتي أحد من بعدي. أليست هذه هي الحقيقة؟".

شعّت الزاويتان الحادّتان لعينَيْه المحمرَّتَيْن بحظّه السعيد. وبحركة من يده، وكأنما ليكنس ياستراو بعيداً "بينما أنتَ، أنتَ جئتَ من الجامعة، والعجوز لا يحبّهم، يقول ليس بمقدورهم الكتابة. هههه. أنتَ، بإمكانكَ، في الحقيقة، الكتابة، ولكن هذا استثناء، وهو لا يفهم كيف! أمّا حياتكَ الخاصّة؟ اللّهمّ، احفظنا، شيء من البهارات ربّما لا يضرّ، ولكن الطلاق؟ لن يمكنكَ أن تقول شيئاً، لأنه لن يتفهّم ذلك. هناك ما يكفي من الفتيات، وكلهنّ جيّدات، على اختلافهنّ، طويلة، سمينة، لماذا، إذنْ، الطلاق؟ وهذا رأيي أيضاً".

ثمّ أضاف بعد توقّف "وفوق ذلك، فأنتَ تشرب أيّها الخنزير".

كان ياستراو أخرساً تماماً، يهزّ رأسه. ولكنْ، لِمَ كان بحاجة إلى سماع شلال الكلمات المضطربة من إيريكسن؟ كان مُنصِتاً خلالها، مُنصِتاً إلى أُمنيّة، كأنها في طريقها للتّحقّق.

"ولكنْ، سحقاً، يا جاز، لا عليكَ، وللجحيم" قالها مُواصِلاً، وهو ينهض من مكانه، ويضع يده على كتف ياستراو، وينحني عليه، ويهمس في أذنه بصوت مبحوح مع أنفاس حادّة من نبيذ البورت التي انزلقت على وجه ياستراو.

"سحقاً لكل شيء، يا جاز، لا عليكَ، وللجحيم. ما عليكَ إلا أن تُنظِّم حياتكَ. إنهم يتذمّرون في الجريدة بشأنكَ، عليكَ أن تنتظم بعملكَ، أن تأتي كل يوم للجريدة، أن تكتب الهراء المطلوب منكَ، وحين تدقّ الساعة السادسة أغلقْ محلّكَ. هذا ما أفعله أنا. حين تدقّ الساعة السادسة، نكون انتهينا، حادثة في محطّة قطار فيجرسليف، لا تهمّني بشَعْرة، هذا جوابي. ثلاثون قد ماتوا، فأُجيبهم، كان عليهم أن يموتوا قبل السادسة. أجلس في بار "سمر" مستمتعاً بقنّينة نبيذ. وليس في بار "دس آرتيست"، وذلك الغرامافون، لا. أتصرّف مثل راقصة إسبانية، وللجحيم بكل شيء، إلى الجحيم. بذلك أكون في غاية السعادة، وقد أتعارك. -سَمَرْ- هو المكان الأجمل. وفي تمام التاسعة، أطلب كالعادة نصف قنّينة أخرى. في تمام العاشرة، يكون لا وجود لي. في تمام الحادية عشرة، تضعني -سمر- في التاكسي إلى البيت. وفي صباح اليوم التالي، أكون مستعدّاً لأداء عملي".

ثمّ عدّل من قامته، وأحنى صدره، وقال بنغمة خطابية "الحياة، ولا شكّ، قد تركت آثارها عليّ". "ولكني أُلبّي مطالبي كسِكّير على التوقيت. بيَدٍ من حديد. أنا سِكّير بعد السادسة، بينما أنتَ، أنتَ تتسكّع اليوم كله، من دون عمل. وأنتَ تعرف أني أحبّكَ، يا للشيطان، أنا أحبّكَ جدّاً" وأمسك بيد ياستراو، وضغطها. "أنصحكَ، لا تشربْ طالما الشمس مشرقة على فيستربروغيذه إلا بمقدار كأس صغير".

ورفع يده اليسرى بطريقة درامية "لا أكثر" واحمرّ وجهه، وهو يؤكّد "لا أكثر من كأس صغيييير".

وفي اللحظة، ازرقّ الوجه الأحمر. أفلت يده، وفجأة ضغط بكلتا يَدَيْه على صدره، وانحنى تحت ضغط نوبة سعال قوية.

"اذهبْ، لا عليكَ، واتركْني" قالها وهو يئنّ، وقد التوى جسده مُلوِّحاً له بيده. انفجر بالسعال من جديد، وقد تقافزت كلماته، وجسمه الضئيل يهتزّ بأكمله.

نهض ياستراو من مكانه، يهمّ أن يسأله إن كان يريد ماء، ولكن إيريكسن اعتدل في جلسته، وجهه أزرق وأحمر، وقد تدحرجت الدموع من عينَيْه، واستمرّ السعال حدّ البصاق. نوبة جديدة، فقال "اذهبْ، بحقّ الشيطان، واتركْني الآن، لديّ ما يجب إتمامه".

غادر ياستراو بعد أن أغلق الباب من خلفه. مع ذلك، اخترق صوت سعاله الأجوف الباب، صوت إنسان قد تُرك لحاله.

غمر البهوَ ضوءُ الشمس مُتسلِّلاً من مكتبَيْن خاليَيْن، كان باباهما مُشرَّعَيْن. ولكن الظلمة كانت هناك في الزاوية في داخل المكتب الزاوية، ولا شكّ أن المحرِّر إيفرسن في الداخل.

باللحظة، اصطدم بسكرتير التحرير. "هل لديكَ وقت، سيِّد أوله ياستراو؟" سأله تاركاً لنظرته الغامقة تستقرّ بأدب على وجهه.

"لا، للأسف، أنا جدّ مشغول" أجابه ياستراو بحَرَج تلميذ مدرسة.

كان من المستحيل لهذَيْن الكائنَيْن أن يفهما بعضهما. شعر ياستراو بضآلته. كان بالإمكان أن يتعالى عليه.

واصل سكرتير التحرير "من الضروري أن أتحدّث معكَ، فمن غير الممكن أن تسير الأمور بهذا الشكل طويلاً".

"بأيّ شكل؟" سأله ياستراو مُدَّعياً عدم فَهْمه لما يشير إليه.

"أنتَ تضيّع فرصكَ هنا، وحضرتكَ تعرف ذلك جيّداً. ليس عملكَ، ولكن حضرتكَ منفصل عن الجريدة، أنتَ لا تُقاسمنا القَدَرَ هنا، يا أوله ياستراو، ونحن بإمكاننا أن نجعل منكَ رجلاً كبيراً، كما تعلم، ولكنْ، يظهر أنكَ لا ترغب بذلك".

"بـ.. بلى" أجابه ياستراو وهو يمطّ الكلمة.

هزّ سكرتير التحرير رأسه حزناً بطريقة مناكفة. "على العموم، من الضروري أن أتحدّث معكَ بجدّيّة في اليومَيْن القادمَيْن يا أوله ياستراو. لا تنسَ هذا، اتّفقنا؟" ختم كلامه بطريقة رجل أعمال. تبادلا الابتسامة. كلاهما أدرك بلحظة أن الموضوع ميئوس منه.

"نعم، نعم" أجاب ياستراو بطريقة مُغنّاة، لم توحِ بالثقة، وغادر بعدها المكان.

رجل كبير! ذلك أبعد ما يكون عن أحلامه.

ما علاقة هذا بالروح الأبدية، الروح من خلف المعنى، الإنسان؟

أن تكتب كل يوم مقالاً عن الحياة الثقافية! هل تكون بهذا الرجل الكبير؟ أن تدخل في تواطؤات هيئة التحرير، وتسعى لمعرفة مصالح دور النشر، أن تعرف الحياة الخاصّة للشخصيات الدنماركية البارزة والأصدقاء والأعداء، وتعرف أين تكمن خيوط الترابط بين هؤلاء كلهم، هو ذا الرجل الكبير!

"الغثيان لهذا المنحى الأعوج لتطوّر العالم" قال وهو ينزل درجات السّلّم. كان يُحدّث نفسه بصوت عالٍ، وكأنه قد قرأ اقتباساً!

وقف حاسر الرأس على الرصيف خارج الـ -داوبلاذيت-، رأى الشمس تسطع على الدّرّاجات الهوائية، التّرامات والسّيّارات، سطوح مرايا كبيرة لامعة تمرّ عبر سديم الشمس، شروق قامات البشر المنحنية، نساء ورَبْلَة السيقان المُقوّسة. تذكّر فجأة الظلمة خارج باب مكتب الزاوية للمُحرّر إيفرسن.

"سأنسحبُ، وأسلكُ طريقاً خاصّاً بي" كان ذلك هو الآخر اقتباساً!

هل يعود ليصعد ثانية، ويقتحم مكتب الزاوية، عبر ذلك الفضاء الواسع وشلال الشمس، ليتحدّث مع الظّلّ المَحني طويل الساقَيْن الذي سيطرف بعينَيْه بكسل، بسبب انهمار ضوء الشمس، الشمس، الشمس. سيتحدّث إليه، ويُودّعه، الآن، بالحال، ويمضي، من دون رجعة.

أخذ يحشو غليونه، بينما كان واقفاً على الرصيف. لعبت الريح بشَعْره. مرّت به سيّارة زرقاء. أحسّ بذراع امرأة قد لوّح له، فأومأ وهو موزّع، وابتسم كأنما عبر حجاب. مَنْ كانت؟ لا يعرف.

رفع طفله إلى داخل التِّرام. ولد صغير. كلا، كانت بنتاً صغيرة. لا بدّ وأن تكون بنتاً صغيرة! لا وخزات ألم، دعْ كل شيء يمرّ تحت ضوء الشمس. حيّاه صحفي مُصوِّر فوتوغرافي. أشجار الكستناء الرفيعة طوال جانبَي الشارع لمعت بأوراقها الخضر، وأزهارها الحمر.

انتهى من حشو غليونه.

هل يضعه في جيبه، ويصعد مباشرة إلى قسم التحرير، ليُنهي كل شيء؟ إلى الأعلى عبر السّلّم، داخلاً إلى الغرفة في الزاوية! ولكن ذلك غير ممكن، على أيّة حال، أن يأتي مُسرعاً حاسر الرأس مباشرة من الشارع، وبشَعْرٍ لعب الهواء به، وبيَدَيْن مدسوسَتَيْن في جيبَي بنطلونه، ليستقيل. سيسعل العجوز من الضحك عليه، ويبصق في سلّة المهملات، ويصفّر جذلاً. كان ذلك شأناً خطيراً بعقد وثلاثة أشهر للاستقالة. على المرء أن يعتمر قُبَّعة من أجل أن يلقيها على المكتب، ويشرع بعدها بالتفاوض.

عليه أن يعود إلى البيت، من أجل القُبَّعة. ذلك من شأنه أن يدعم قراره. وإلا لربّما ينسى كل شيء، ما إن يصل.

مشى بهدوء مُتوجِّهاً عبر شارع فيستربروغيذه، وعبر المحطّة الرئيسة إلى استيدغيذه. وإن استقال، ماذا عن المستقبل؟ لا أحد يعرف. انتشى لقَدَره، وراح يُصفّر.

عندما صعد إلى شقَّته، ران الصمت فيها، بشكل غريب. راح يدور وهو يصفّر وسط المدخل شبه المظلم. هل عليه أن يختار القُبَّعة اللّيّنة؟ أم (الكاسكيت)؟ صمت غريب. القُبَّعة اللّيّنة بالطبع. وعصا التّنزّه. العصا فكرة جيِّدة. بالإمكان التّعكّز عليها، وهي تمنح أيضاً ذلك الانطباع بأنه من الموثوق بهم. ولكنْ، لمَ هذا الصمت؟ هل ذهب كلّ من آنا ماريا وستيفينسن؟ ابتسم، واعتمر قُبَّعته اللّيّنة.

واصل الصفير، وهو يدخل غرفة المعيشة. قام بحركته السّرّيّة بميكانيكية، طقسه الخاصّ، أمام الصورَتَيْن على الطاولة. لقد ابتدعها بنفسه، الأصحّ فقد جاءت كفكرة خاطفة. اليد اليسرى مائلة على الصدر. يمكن لذلك أن يحميه دوماً من الخطر. ولكن ذلك الانعكاس الحزين لضوء النهار عبر الشبابيك التي لم يتمّ تنظيفها لزمن طويل، جعلته يهدأ بالحال، من دون أن يشعر. تغيّر فجائي بالطقس! توقّف عن الصفير.

حينها سمع نبر آنا ماريا "ياه، لن تضبط أبداً" وتلاها صوت ضربة على الطاولة.

فتح الباب على غرفة الطعام. وبالحال، اشتمّ رائحة غريبة، شيئاً ما ناعماً ومخدّراً وسط هذا الجوّ من الفوضى والغبار.

كانت هناك بضع وردات من الجوري على الطاولة.

"ماذا؟" وقف في مكانه فاغر الفم.

كانت آنا ماريا جالسة تلعب "السوليتير" بورق اللعب، بينما استلقى ستيفينسن على الأريكة، وقد وضع يَدَيْه تحت رأسه.

"شاعرية" قال ستيفينسن باستهزاء.

"أجل، ما أمر الوردات تلك؟".

هزّت آنا ماريا رأسها، وقالت ززززز! إشارة لجنون ستيفينسن العابر.

"تماماً" أجاب ستيفينسن. ثم أردف "لحظة، هل لديكَ تبغ؟ ليس بإمكاني التفكير".

"ولكنْ، ماذا عن هذه الزهور؟".

"أأأووه" ردّ ستيفينسن ممتعضا. "صرتُ حالما، ولكن عقاب ذلك جاء مباشرة، ضربة على الرأس، لقد التقيتُ بالعجوز، أبي تحت عند باب العمارة، ما الذي يتصيّده هنا؟"

قاطعتْهُ آنا ماريا مرتبكة، وهي تقفز من الكرسي "أبوكَ! أبوكَ؟ لِمَ لمْ تقلْ لي شيئاً عن ذلك، يا ستيفان؟ آه، هل سيأتي هنا؟ لا، لا، لن أستطيع احتمال ذلك. لماذا؟ لماذا؟ لا، لا يمكنني البقاء هنا، أنا، أنا..".

تعكّز ياستراو على العصا، وراح يُحملِق بها، من دون أن يفهم الموقف. لِمَ هذا الهلع في عينَيْها، وقد عكّر صفو الوهج في نظرتها، وانتقل بتلك الرهبة إلى زوايا فمها؟ لماذا؟

"كدنا نتّفق، أن تسير الأمور بشكل جيّد، ولكنها لن تكون كذلك أبداً" وجلست، وكأنها توشك على أن تسقط على الأرض. حضنت رأسها بذراعَيْها، فتهدّل شَعْرها، وغطّى رأسها.

"أبداً، أبداً، لن تسير الأمور بشكل جيّد أبداً. سأجنّ، سأجنّ، سأجنّ".

"كفى آنا ماريا" قالها ستيفينسن مستاء، ونهض بكسل. "هو لم يرَني. كان، ولا شكّ يبحث عن فتاة ما هنا في المنطقة، وهذا ما هو فالح به".

باللحظة، رفعت آنا ماريا رأسها، وصرخت، صرخت، ولا بدّ من أن صوتها قد وصل أسماع كل مَنْ في البناية. "وستضربني، ستضربني الآن" صار وجهها وحشياً مشتعلاً، وفحّتْ " ولكنْ، ولكنْ، أنا سأ ..."، والشَّفَتان الرقيقتان برزتا قاسيَتَيْن، ونزلتا فجأة، وارتختا، الفم والذقن كانا عجينة ليّنة، وبثلاث نغمات طويلة، صاحت "لا، لا، لا"، غرق صوتها بذلّة تضرّعاً "لا تضربْني، ستيفان، لا ضرب. لا ضرب. أيّ شيء آخر ولكنْ، لا تضرب. أريد أن أجدَ لي حلاً، أريد أن أتركَكَ".

نفض ياستراو رأسه خجلاً. ما الذي يحصل في شَقَّته؟ شيء فظيع ومُبهَم. تفاصيل حياة خاصّة لصقه، بمقدوره أن يشمّ رائحتها. حياته هو، شؤونه هو قد اختفت. تلك التي شهدتْها هذه الغرف، ماذا كانت؟ بضع كلمات عبر الهاتف؛ "أين كُنتُما أنتَ وماما طوال هذا الوقت؟" وصوت امرأة متعبة، وكل شيء راح بعدها، والآن هذان الغريبان اللذان يصرخان. عليه ألا ينسى ...

"كان العجوز، بالمناسبة، حزيناً، فقد كان يرتدي قُبَّعة الحداد العالية" وضحك ستيفينسن.

كان ياستراو مايزال مُعتمِراً قُبَّعته اللّيّنة. عليه ألا ينسى، ألا ينسى. عليه أن يقصد المحرّر إيفرسن في الجريدة، وقلّص قبضة يده، وهو مُمسِك بالعصا. قال لهما بصوت محايد مباشر؛ "عليكما بالخروج والتّنزّه قليلاً، عَامِلا بعضكما بشكل حسن".

كلمات رقيقة! مثل كلمات المسيح عيسى! ارتسمت مسحة غباء على فمه. ابتسم ستيفينسن باستخفاف مع رمشة قصيرة حادّة. اعتدلت آنا ماريا في جلستها، وألقت برأسها إلى الوراء "لن أطلع من بابِ البيت".

خاف ياستراو من نظرة عينَيْها.

"لا، بالطبع" أجاب ستيفينسن.

"ولا أنتَ، ولا أنتَ. ابقَ، وقابلْه" انبرت آنا ماريا قائلة، وألقت بجسدها على الطاولة. كانت تسحب أنفاسها بشكل هستيري، نبرة صوتها خطيرة، وكأنها على حافّة انهيار من جديد، وأجهشت بالبكاء.

"هلا، هلا نسينا ذلك؟" قال ياستراو مُحاوِلاً مصالحتهما. ابن البشرية بقُبَّعته اللّيّنة وعصا التّنزّه! "سآتي بقنّينة البورت، وسننسى ذلك".

كان في طريقه للمغادرة. عليه أن يتذكّر ذلك، إن توجّب عليه البقاء في وظيفته كمراجع رئيس لجريدة الـ -داوبلاذيت-.

"ننسى، ننسى، ننسى" غنّت آنا ماريا، وجلست بتراخٍ على الكرسي. اندهش ياستراو لرؤية وجهها. الأمزجة والتعابير اجتمعت كلها معاً، وذقنها اختفى بشكل مزعج في رقبتها الممتلئة.

"أنتِ، ولا بدّ، مجنونة، آنا ماريا" قال ستيفينسن. "لن يستطيع الوالد العجوز أن يمسّني بشيء، ولا أنتِ" قالها حانقاً مع ضحكة استخفاف.

فتحت آنا ماريا عينَيْها على وسعهما دفعة واحدة، وهي تُحملِق بستيفينسن بخوف ساطع، لا قرار له.

"ستيفان، ستيفان" اشتكت، من ثمّ، بحذر "أنا لم أقصد ذلك".

كان ستيفينسن لطيفاً، بشكل غريب. أدرك ياستراو فجأة قصّة الورود. رائحة مصالحة وتعويض في غمار هذا التداعي القاسي.

"سأذهب، لأقتني قنّينة بورت" كرّر ياستراو من جديد مع قُبَّعته اللّيِّنة. كان سعيداً بعثوره على العقار المناسب. الصَّمَم حسب! الصَّمَم حسب! العقل المفكّر مرضٌ مُوجِع.

"حسناً، اذهبْ، فأنا، على أيّة حال، عاجز عن التفكير بشيء الآن" قال ستيفينسن.

"تفكير، أنتَ؟" من جديد ومضة الاستهانة تلك.

"بلى، أنا على وشك التفكير بفكرة ضرورية، على وشك" وجمد وجه ستسفينسن ثانية، جبهته العالية بشكل غير طبيعي بدت، وكأنه سينطحها بالحائط، واكتسبت عيناه تلك النظرة الزجاجية الباردة.

نزل ياستراو، وعبر الشارع إلى دكّان التبغ والكحول، واشترى ثلاث قناني من البورت، وتذكّر أنهم يحتاجون إلى تبغ أيضاً.

عندما عاد من دون اهتمام وانسلّ عبر بوّابة المبنى ثانية، كان بمواجهته حارس البناية ذو الشَّعْر الأحمر. ضحك بمَكْر. كان أصغر سنّاً من ياستراو.

"الأمور مرتّبة" قالها وهو يغمز بعينه الزرقاء البريئة.

"هل تودّ الصعود معي؟" سأله ياستراو، وقد واتتْهُ الفكرة مُفاجِئة.

"شكراً للدعوة" قال وهو ينظر إلى هيأته ضاحكاً، فقد كان مرتدياً بدلة العمل الزرقاء الواسعة. "لستُ من الذين يقولون لا. أبداً. هل لي أن أحمل عنكَ هذا، لقد وُلدتُ من أجل ذلك".

وبلحظة، انطلق يحفّ ببدلته صاعداً السّلّم خفيفاً راقصاً بقَدَمَيْن مُسطَّحَتَيْن.

"مزاجي يعتدل" يقولها في كل طابق يصعدانه "ياه، كم اعتَدَلَ!".

ولكنه توقّف عند مدخل باب الشَّقَّة مُتفكِّراً.

"ولكنْ، ما الذي ستقوله المدام زوجة حضرتكَ؟".

"لقد غادرتْ" أجابه ياستراو وهو يرفع كتفَيْه. "لن تأتي ثانية. تطلّقْنا، اللعنة".

فغر حارس البناية فاه.

"هكذا إذاً، والولد الصغير أيضاً؟ ولكنْ، هكذا تسير الأمور أحياناً، هو كذلك حقيقةً، وما الذي يمكن قوله، والمتعة الوحيدة هي ما يصنعها أحدنا لنفسه؟ ولكنكَ، بحقِّ الشيطان، لن تشرب تلك القناني الثلاث وحدكَ، هل ستفعل ذلك؟ أنتَ لست مجنوناً إلى هذه الدرجة يا سيِّد ياستراو، صحيح؟ هل لديكَ ضيوفٍ ربّما؟".

"نعم، نعم، تفضّلْ، ادخلْ".

دخل الحارس خَجِلاً بخطوات حذرة. كان يخبّ ببدلته مثل دبّ. وضع، من ثمّ، القناني باستحياء، وقال "اسمي إيدوين ياكوبسن، حارس البناية هنا".

جفّفت آنا ماريا دموعها. كانت تبكي. وحين حيّت الحارس، انحنت له.

ضرب ستيفينسن سطح الطاولة بيده، وأرعد ذاكراً اسمه، وقد كاد أن يقلب الورود.

"حسناً، تفضّلْ، واجلسْ، أيّها الحارس" قال ياستراو.

"ههههه" رمى الحارس بنفسه على الكرسي فرحاً "وبينما كان أحدهم واقفاً عند باب العمارة يفكّر بقَدَح مشروبٍ، يعرف أنه بعيد المنال، ولا يجرؤ حتّى على الحلم به، فإذا به يأتيه مُترنِّحاً لبابِ بيته، ثلاث قناني، ترالا لللا".

لم يشاركهم ستيفينسن الحديث. عندما فتحت القناني، تناول واحدة، وضعها أمامه. كان وجهه مُغلَقاً، وعيناه دامعَتَيْن.

أمّا آنا ماريا، فقد كانت ربّة بيت، جاءت بالكؤوس الخضر.

"ياه، لديكَ غرامافون، سيِّد ياستراو" صاح الحارس، وضحك بخبث. "صحيح، فأنا حقيقةً

أسمعه بعض الأحيان منتصف الليل". وكأن عليه أن يقول شيئاً، فلقد أمسك بكأس البورت بيده. "ولكنْ، لا مشكلة، سيِّد ياستراو، بصحّتكَ! يُشعركَ ذلك بالحيوية، وأنتَ في فراشكَ، ولا إمكانية لديّ حالياً لمزيد من الأطفال، لذا، أوعدني حضرتكَ أن تُدير الموسيقى بين فترات متباعدة، مرّة واحدة بين فترة وأخرى. آآآ آسف، آنسة، لم أنتبه ...".

"لا مشكلة نهائياً" أجابتْهُ آنا ماريا، بالحال.

وابتسم هو بخجل.

"ولكنْ، هلا سمعنا أُغنيّة؟"

ذهب ياستراو نحو الغرامافون، وأداره.

"يا ويلي، ما هذه الطريقة؟" صاح حارس البناية مستغرباً. "أهكذا يعبّون؟"

استدار ياستراو، ليرى ستيفينسن، وقد وضع إحدى قناني البورت على فمه، يترع ما فيها بجرعة طويلة. برزت تفّاحة آدم مثل قبضة يد في عنقه فوق ياقته الناعمة.

"يا له من شرّيب!"وضحك الحارس. "لقد رأيتُ الكثير، نعم، حقيقةً، ولكنْ، هكذا شرّيب لم أرَ في حياتي إلا في ريجا، أحدهم شرَبَ، وسقط بعدها على وجهه، لم يكن إنساناً، بل كان روسياً".

لم يكن ستيفينسن مهتمّاً. بعد جرعة كبيرة، أعاد القنّينة بتثاقل إلى مكانها.

"هههه، يا لكَ من شرّيب سِكِّير" وضحك الحارس ثانية، وهو يضرب على فخذ بدلته الزرقاء.

نظر ستيفينسن إليه بزاوية عينه مع ابتسامة متحفّظة جامدة، ولكنه لم يقل شيئاً.

"ستيفان" صاحت آنا ماريا. كانت تريد أن تتدخّل، ولكنها عزفت فجأة عن ذلك، وهزّت رأسها. "لا، لن ينفع" وأطلقت حسرة، ثمّ أتتْ على ما تبقّى في كأسها.

وحده ياستراو الذي كان مُتحمِّساً، فأزاح القُبَّعة إلى الوراء، وأدار الغرامافون. عليه ألا ينسى. لم تكن بعض النغمات في موسيقى الجاز منسجمة. ولكن الإيقاع استقرّ بعدها. لقد استحوذت عليه. لا تنسَ. عليه أن يتذكّر تقديم استقالته للجريدة. آه، نجمة المساء(*).

سطح وهج شمس ما بعد الظهر عبر النوافذ الوسخة.

"هل ترقص الآنسة؟" سأل حارس البناية الذي نهض بأناقة ساحباً قَدَمَيْه.

---

*) Evening star أُغنيّة أمريكية بلحن جازي مشهور

دفعت آنا ماريا شَعْرها بعيداً عن جبهتها، ونفخت "بكل سرور، هل صار الجوّ حارّاً جدّاً هنا؟ أم أنه النبيذ؟".

"لا يجب شرب البورت تحت أشعّة الشمس أبداً" قال لها حارس البناية كخبير، وهو يضحك، وقاد آنا ماريا بعدها وهو يخبّ ببدلته الزرقاء بخطوات رقص نشيطة على أرضية الصالة. ركب طيّعة ليّنة.

"وأنا الذي ظننتُ أني لن أحصل على شيء اليوم سوى كرات اللحم" قال الحارس يحاورها "أقصد من المفروض اليوم أن أتناول كرات اللحم في البيت الساعة السادسة، كما هو متّفق، ولكن الأمر انتهى بشيء مختلف!".

انتشر الجاز في فضاء الصالة. تحرّك ياستراو بخطوات فاشلة، وراح يضرب بعصاه على إيقاع الجاز. كان مُوشِكاً على المغادرة، ولكن ستيفينسن وضع القنّينة في فمه من جديد، وألقى برقبته إلى الوراء.

"أيّها الشّرّيب السّكّير" وأطلق الحارس ضحكته المخنوقة، وتوقّف عن الخبب.

"الرقص يُسبِّب العطش".

كان دمه من تحت جِلْده المحروق بالشمس يغلي.

وضع ياستراو أسطوانة جديدة. سمع آنا ماريا تئنّ "وها أنا أشعر بذلك أيضاً".

وقف الحارس إلى جانب ياستراو، وسأل بهدوء غامزاً "هل ستبقى في هذه الشَّقَّة؟ أم ستنتقل؟".

"بلى، سأنتقل، لقد كتبتُ إلى المالك".

"وهذا الأثاث الفخم كله، هل ستبيعه؟"وقد اشتدّ بريق عينَيْه البريئتَيْن.الأثاث! لم يكن بمقدور ياستراو التفكير. كان ذلك غير واقعي. كانوا جميعاً في شقَّة تعوم في السماء، سفينة نوح بأشلاء وحطام من ماضيه وكحول، وراقصون لا يعرفهم.

"مملكتي ليست من هذا العالم(*)" أجابه ياستراو.

"ههههه" ضحك الحارس بصِدْق. "وأنا أيضاً لا أؤمن كذلك بالرّبّ".

---

*) كلمات المسيح إلى بونتيوس بيلاتوس عندما ظهر لليهود، عند الصلب Joh18,36

لم يجبه ياستراو. شعر بنفسه مُحلِّقاً. وهناك كان ستيفينسن يجلس مُنحنياً في مكانه على الكرسي.

"نخبكم" صاح ياستراو. "لا أظنّ أننا نشرب فعلاً".

نظرت آنا ماريا إليه بعينَيْن واهنَتَيْن، ونفضت رأسها "أنا أسكر بسرعة" قالت بحسرة، وقبضت على الكأس بروح حزينة.

"يا له من غرامافون رائع" قال الحارس وهو يُطبطب عليه. "والأسطوانات رائعة. من المؤسف أنكَ لن تحصل على ما تستحقّه، إن بعتَها. كلا، يا سيِّد ياستراو" أتمّ كلمته بصوت حزين.

"هل نسيتَني تماماً، أيّها الحارس؟" صاحت آنا ماريا.

"كلا، أبداً" ردّ الحارس بحركة درامية، وهو يفتح ذراعَيْه ببدلة العمل الفضفاضة. "يا لها من امرأة جميلة!" ضحك لياستراو، وهو يأخذ وضع الدّبّ المستعدّ لاحتضان كل شيء عندما رأى آنا ماريا تهمّ بإلقاء نفسها بين ذراعَيْه.

وضع ياستراو العصا جانباً، ليتمكّن من شرب كأسه.

"ههههه" ضحك ستيفينسن بتفاهة. اهتزّ جسمه الطويل النحيل. "حارس عمارة أحمر، ببدلة عمل زرقاء، ههههه".

دمدم، وتناول، من ثمّ، القنّينة بحركة خرقاء.

أسطوانة جاز جديد! ساكسفون جديد! اللاوعي ارتفع في الغيوم القاتمة تجاوباً مع النغمات العميقة. انفردت آلة بصفيرها، وقد غسلت الموسيقى تماماً، وانتهى إلى إيقاع نقي حزين، من دون روح.

"يا له من غرامافون رائع!" كان ذاك هو حارس البناية الذي وقف ثانية إلى جانبه. "في الحقيقة، لطالما تمنّيتُ الحصول على غرامافون، بسعر زهيد، نعم، حقيقةً" قالها بحسرة صغيرة.

"إذاً، لا بدّ وأن تحصل عليه ذات يوم، يا سيِّد ياكوبسن" قالها ياستراو، وهو يضربه على كتفه.

أسطوانة جاز أخرى من جديد! أُغنيّة للسود! لازمة! دوو دوو دي دووا! ووب - لي! أُحبّك جدّاً!

"أوه، أوله" كانت تلك آنا ماريا التي تعلّقت فجأة برقبته، وضغطت بثديَيْها الثقيلَيْن على

صدره. مالت برأسها إلى الوراء، وهي تُحدِّق فيه بعينَيْن هائمَتَيْن وفم سائب. "أنتَ لا تظنّ أني سيِّئة، أليس كذلك؟ هل تظنّ أني مريضة؟ هل تظنّ ذلك؟ آه، يمكنني بسهولة أن أقع بحبّكَ".

وبلحظة، نظرت بتركيز إليه في عينَيْها.

"ههه، أليس ذلك مُمتِعاً، لِمَ لا تضحك؟ بإمكاني أن أُحبّكَ؟" قالت بصوت حادّ. ثمّ دفعتْهُ عنها بقُوّة، ووقفت تتمايل قليلاً بمكانها.

"يا حارس البناية، لم لا تُغويني؟".

"لا لا، دعينا ننتظر قليلاً، يا آنسة"أجابها، وغمز لياستراو.

ترنّحت آنا ماريا. كانت شاحبة الوجه، وتعثّرت وهي تهمّ بالجلوس على الكرسي. باللحظة عينها، انقلب قَدَح على الطاولة. وامتدّت يد ستيفينسن الطويلة عبر الطاولة نحو قنّينة آخرى.

"الجلسة ستطيب" علّق ياستراو. شعر بحزن مؤلم. شعر أنه لم يكن يشرب. كانت هناك حركة في الصالة، وكأن سورة من الضوء دارت فوق أسطح الأثاث.

"آه، لستُ بخير" أَنّتْ آنا ماريا فجأة واتّكأت على الكرسي. "آه، هنا، هنا تحت الصدر تماماً".

"عليكِ بأن تستلقي على الأريكة، يا آنسة" قال لها حارس البناية. "سأتولّى ذلك" وأومأ إلى ياستراو "هاتِ لي وعاء".

أسرع ياستراو إلى المطبخ، توقّف فجأة عند حوض الغسيل، وبدأ يصفّر لحناً. كان نشازاً. وودّ أن يقفل راجعاً، لكنه تذكّر الوعاء! الوعاء. تناول ذاك الذي كان تحت الحوض، ورمى بخرقة ناشفة على طاولة المطبخ. كانت جامدة مثل قطعة خشب.

في الصالة، استلقت آنا ماريا شاحبة على الأريكة، وقد تدلّت شَفَتَاهَا، وتراخى وجهها.

"لا، لا أستطيع التّقيّؤ" صاحت بحارس البناية الذي تولّى العناية بها.

"حاولي، حاولي، عزيزتي" قالها بلطف، ووضع الوعاء عند رأس الأريكة "دسِّي أصبعكِ ببلعومكِ، آنستي الصغيرة، هيّا، سترين كم هو سهل".

نهض ستيفينسن لحظتها، أصفر الوجه، وعينان مُحملقتان، أمسك بكلتا يَدَيْه بالورد في المزهرية، جمعه كله بيده، ورفعه مثل رأس لهانة بيضاء، وراح صوب الأريكة. كانت سيقان الورد

تقطر ماء. "حبيبتي" كان يهذي، ورمى الورد عليها. "حب ... بيب .." كان يودّ أن يركع على قَدَمَيْه عند الأريكة، ولكنه تداعى، وسقط. ندّت عنه شهقة وكأنه سينفجر بالنحيب .. بعدها أُغميَ عليه.

"يا له من شرّيب سِكّير" صاح حارس البناية، ودفعه بقَدَمه جانباً مُستنكِراً. لم يتمالك من مَسْك نفسه عن الضحك. "هه هه هه، لا متعة للرجل غير تلك التي يصنعها بنفسه. سيِّد ياستراو، هلا ساعدتَني بجَرّه إلى الأريكة الثانية.

تمايل ياستراو، وهما يحملان ستيفينسن. والقُبَّعة اللّيّنة كانت ماتزال على رأسه.

الفصل الثالث

حلّ الظلام في الفناء. استلقى ياستراو على غطاء السرير مُحملِقاً بمُربَّع السقف الباهت الذي كان يتأرجح بغرابة. كل شيء كان يتأرجح. ستيفينسن على حقّ. كانوا على ظَهْر سفينة تُبحر إلى الأبدية، بداخل اللاحدود. تيّار الهواء الذي يأتي من نافذة غرفة النوم كان بارداً.

بداخل الأبدية؟ هل يعني ذلك أن تشرب حدّ التّخدّر التّامّ؟ بلى بلى، كان هناك شيء ديني يخصّ الشرب حدّ فقدان الحواسّ جميعها. اختفى الشعور بالفراغ كله. ملؤوا فضاء الصالة بالضجيج، الهذيان، بالأنا الثملة، الفضاء بأكمله.

والأمر سيكون بالنهاية محموداً، لو أنه استطاع النوم فقط. لم يمكنه ذلك. بداخل غرفة الطعام، تنام آنا ماريا سعيدة بلا وعي. وبداخل غرفة المعيشة، ينام ستيفينسن، وكأنه قد ضُرِب على رأسه بهراوة. هو الآخر سعيد. وفي الشَّقَّة فوقهم، كان هناك صوت كيتار متواصل. ولا شكّ أن حارس البناية قد هضم كرات اللحم، وتخلّص من صداع رأسه ومابعد الخمار، بواسطة الحلم بغرامافون رخيص.

كان يبحث عن سرقة رخيصة، الثعلب الأحمر!.

ضرّ ياستراو عينَيْه بشراسة. غير معقول!.

لا أنقاض هنا في الشَّقَّة للنهب، رغم أن الشَّقَّة ذات الأربع غرف كانت تبعد مع الريح والموج بأثاثها الجميل على ظَهْر السفينة. آه، لغو فارغ. لربّما كان شكّ في غير محلّه. لقد كان شابّاً مؤدّباً جدّاً، هذا الوغد الأحمر. حارس عمارة مثالي. كان يستوعب أشكال المشاكل كلها التي يمكن أن تحدث في العمارة. ومهما بلغت شدّتها. ألم يعزف الكيتار؟ ألم يدبك على إيقاعه؟ بحّار، خبير على ظهر هذه السفينة الهرمة التي تُبحر صوب الأبدية.

أجل أجل. إمّا الاستماع إلى الموسيقى أو الثمالة. صارت الحياة أبدية جدّاً. إجازة نزول!

لكن وضعه هذا لا يُطاق. مستيقظ. ليس صاحياً، ولا ثملاً. لزوجةٌ في أعماقه، بسبب شربِ

راكدٍ عتيق. يجب أن يتبخّر. تُضايقه الأفكار العملية. عليه أن يتذكّر أن يقدّم استقالته، تذكّر ذلك. تلك مسألة كان قد أجّلها، لأنه أصرّ على أن يرتدي قُبَّعة.

القُبَّعة مُعلّقة على عمود السرير.

ولكنْ، لماذا؟ بلى، يجب أن يقدّم استقالته. كان ذلك بمثابة تقشير طبقة بأكملها من الآراء عنه. لا يريد أن يكون مرتبطاً بعقد لوظيفة إنتاج آراء. الأبديون، أليس هذا هو ما ينشده؟ يريد أن يكون إنساناً أبدياً، إنساناً منتمياً لطقس خاصّ أو مجموعة خاصّة. آه، لتخرس! من جديد، جعلتْهُ الموسيقى الناعمة يكذب على نفسه في شفق هذا المساء الصيفي. كم كانت السماء زرقاء جميلة فوق السقف الأسود، الفيوليت الأزرق المدهش، المداخن السود بخطوطها الحادّة، مثل سفينة حربية في ريدن(*) ...!.

في يوم ما، ستصير قصيدة، في يوم ما، إن عاد الشِّعْر، ليكون له معنى أساسي، بالنسبة إليه ثانية. حالياً، فالشِّعْر هو محض كذب. وذلك ما يراه ستيفينسن أيضاً.

مثل سفينة حربية في ريدن ...
الرحلة صوب المستحيل ...

كل شيء كان كذباً، شَفَّافاً مثل الفكرة.

الأفكار؟ خذ ساندرز، الغبي! المبادئ؟ لِمَ توجّه ساندرز من البار مباشرة إلى يوهانه واغتابه؟ يفترض أن مبادئه هي التي دفعتْهُ إلى القيام بذلك، أليس كذلك؟.

ألم يكن فِعلاً دنيئاً سوقياً أن ينقل ما يقوله أحدهم حين يكون ثملاً في بار، حين يقال ما يقال بين الرفاق والأخوة بحضرة الشراب؟! كل مَنْ يجلس عند البار، ويشرب على امتداد الحاجز النحاسي هو عضو في ذلك المحفل الماسوني المتآخي.

بإمكانه الابتعاد عن البارات. ولكنْ، ماذا عن تلك الاستراحة التي يمنحها إيّاه؟! إنها الراحة والمغامرة معاً. لِمَ لا يشعر بالهدوء إلا عندما يتّكئ بجسمه على البار؟ البيت! آه، صار جحيماً! الولد، الابن! أخذوه بعيداً، بسبب ما ثَرثَرَ به ذلك الشيوعي الواشي، ليس إلا ... ما دخله بالموضوع؟ هل كان يعشق يوهانه؟ آه، ذلك المعتم، صوت ساندرز الدبسي.

---

*) Rheden إشارة إلى معركة في ريدن بتاريخ 1801-4-2 حيث الدنمارك - النرويج دحرت عسكرياً من قِبَل القُوّة البحرية البريطانية

كما لو كان يسمع حجحه الآن. مقرف. متحدّث لبق. ولكنه يودّ أن يسمعهم. يودّ أن يسمعهم الآن. يجب أن يحدث شيء ما. وافرض أن ساندرز انخرط بالبكاء، وصعد صوته بنغمة معيّنة، حلوة، ومن ثمّ، تهدّج. تلك قمّة الحلاوة! اقشعرّ بدن ياستراو.

يجب أن يسمعه. يجب أن يكون لديه ذكرى تهدّج صوته، يكره ذلك، يكره ..

يعرف ستيفينسن أين يقيم ساندرز.

قفز ياستراو من السرير، ودخل إلى الصالة المعتمة. الضباب الكثيف المتصاعد من أضواء الإعلانات في الفيستربرو ألقى بوهج خفيف داخل الشّقّة عبر النوافذ، ومكّنه بذلك من لمح قِطَع الأثاث. كانت آنا ماريا نائمة على الأريكة وسط الظلمة. أنفاسها تملأ الصالة بصمت عميق مثل ارتطام الموج بالساحل.

تعثّر في طريقه ببعض القناني التي كانت على الأرض. لم تصحُ. أحسّ دفعةً واحدة بشعور رقيق تجاهها، كما لو كان أمام طفل نائم. لا يجب أن يُوقِظَها أحد، تلك الطفلة الصغيرة المريضة.

"ماذا هناك؟" كان ذلك هو ستيفينسن الذي صحا في غرفة المعيشة.

"أنتَ تعرف عنوان سكن ساندرز" همس ياستراو منفعلاً.

"ما الذي تريده منه، بحقّ الشيطان؟" دمدم ستيفينسن، ثملاً نعساناً، يفرك عينَيْه. كان ياستراو يقف عند الباب ذي الدَّرفَتَيْن.

"أريد أن أنتقم منه".

"لا، أنتَ لا تقصد ما تقول، صح؟" قاطعه ستيفينسن مُتفاجِئاً، وهو يقفز مرّة واحدة إلى الأرض، ثمّ وقف وهو يتمايل.

"أنا مازلتُ سكراناً" أكّد له.

"هل ستذهب معي ستيفينسن؟".

"أأجل".

نزلا السّلّم مُهرولَيْن. فاتهما أن يضغطا زرّ مصباح السّلّم الأتوماتيكي، ليُضيء المكان لثوانٍ.

"مازلتُ سكراناً" تمتم ستيفينسن وهو في ذهول، وتوقّف لاهثاً عند البوّابة. اتّكأ على الحائط، ومسح جبهته.

"انتظر لحظة" قال مُتنهِّداً. "آ، تذكّرتُ، كنتَ تريد أن تقصد بيرنهارد لتضربَه. صحيح تذكّرتُ. آه، ولكنْ، أريد أوّلاً أن أشرب بعض البيرة ...".

"ذلك ما تُفضِّله، وسنجلس، وننسى كل شيء" أجاب ياستراو بحنق وعصبية.

"لاااا، لن أنسى. سنذهب، لنضرب بيرنهارد. ما بكَ؟".

ودفع ستيفينسن الحائط بظَهْره، ليعتدل " ولكنْ، عليّ أوّلاً أن أشرب البيرة، وإلا لن أتذكّر مكان سَكَنه".

ضحكة سارحة بعدها، حرّكت وجهه كله.

انحشرا في خمّارة صغيرة في استيذغيذة. وبهيبةٍ، وقف بعض من العمّال الذين كانوا يرتدون قمصاناً بأكمام مخطّطة زرق حول طاولة بليارد، وهم مُنهمِكُون بتأمّلهم. جاءهم نادل بوجه بنفسجي، وقميص أبيض.

تذكّر ياستراو أن هذا النادل قد شتم يوماً إحداهنّ مُطلِقاً عليها لفظ؛ قحبة. مرّ زمن طويل منذ ذلك الحين.

نظر النادل إليهما بتفحّص لوهلة؛ لماذا؟ قرّر أخيراً أن يخدمهما.

باللحظة، اصطدم نظر ياستراو بوجه ستيفينسن. كانت عيناه شديدَتيَ الاحمرار، وفي زاويتَيْها تجمّعت قطرة دم. شَعْره الأشعث قد نزل على جبهته.

"شكلكَ مريع" قال ياستراو.

"وهل تظنّ أن شكلكَ يبدو أفضل" وضحك ستيفينسن. "مهلبية بشراب الروم، ومُدافٌ بها".

لم يرغب ياستراو بالنظر إلى المرآة. أدرك بالحال صِدْقَ ما قاله ستيفينسن. كان وجهه مُتعرّقاً. الخدود مُتهدّلة ثقيلة. شعور بالارتجاج!

جلسا عند طاولة صغيرة عند النافذة. قال ستيفينسن بصوت مبحوح "قلْ لي، أنتَ جادّ حقّاً بما يخصّ بيرنهارد؟".

"طبعاً" جرّها ياستراو بصعوبة.

ذات يوم مشمس، وقد ظهرت النساء على الرصيف. أجل، كان جالساً تحديداً على هذه الطاولة.

"طبعاً، أريد أن أعرف منه ..".

"هكذا إذاً، تودّ أن تعرف فقط" قالها ستيفينسن، وهو يلوي فمه باستخفاف، وعبّ كأس البيرة في جوفه. "لا أكثر من ذلك. ولكنْ، دعني، اللعنة، أقلْ لكَ شيئاً، لقد فعلها من أجل أن يعدّ المجتمع، ويجعله ناضجاً للثورة البروليتارية. كل زواج برجوازي يسوء وضعه، وفي طريقه إلى الجحيم هو دليل جديد على الحقيقة الأبدية للشيوعيّيْن، وذلك الكلام الفارغ كله. هل هو هذا ما تودّ سماعه؟".

زمّ ياستراو شَفَتَيْه غضباً.

"أريد أن أراه، هذا الحيوان".

"ومِن بعدها؟".

"لا أدري. ولكني أريده هنا أمامي، أن أراه يتلوّى ألماً، ربّما هو شيوعي صحيح، ولكنْ، رفيق ...".

"ثمّ ماذا؟" قالها ستيفينسن، وقد لاح الوميض الزجاجي بعينَيْه المحتقنَتَيْن بالدم.

"ماذا أفعل، إذاً، لا أدري؟" قالها ياستراو، وهو يلتقط أنفاسه.

"الفعل المنطقي الوحيد هو ضربه ..".

"آه، أنتَ ومنطقكَ ..".

"اللعنة، لأنه لا يليق بكَ أن تُكلّمه، لحظة، هل تدري؟" لوى ستيفينسن فمه، وهو ينطق الكلمة تُكلّمه، ثمّ حسَّن لفظه."أن تحاوره، ما قولكَ؟" "ذلك سيكون أفضل".

"هيّا انتهِ من شربكَ، لنغادر" قاطعه ياستراو، وقد نفد صبره، ثمّ نهض من على الكرسي.

أسرعا في طريقهما عبر شارع أبل كاثريناسغيذه المظلم، قطعا شارع الفيستربروغيذه المضاء والمزدحم، الشريان الناري، واختفيا في شارع ستينوسغيذه المعتم. إلى اليمين، انتصبت الكنيسة الكاثوليكية عالياً بجدرانها القاتمة وسط الظلام.

كانت إحدى صالات الاستقبال مضاءة، كما بان عبر الشّبّاك المُقوّس.

"انظرْ، إنهم يتحدّثون عن المنطق في الداخل، الشيء الأثير لديكَ" علّق ياستراو بحنق، وهما يعبران. لم يجبْهُ ستيفينسن، وتابع مشيه السريع، وقد دسّ يَدَيْه في جيبَي بنطلونه.

"أوشكنا على الوصول" همهم.

في الزاوية عند شارع فودروف فاي، كان هناك خليط من مبانٍ خفيضة، بيت صيفي معفّن، يشبه منصّة موسيقية متهالكة، ألواح خشبية، ممشى وعر يؤدّي إلى مبنى بأربعة طوابق، والذي لم يكن له علاقة بكل ما حوله. انتصبت على الحافّة وحيدة، وكأنه كان تحسّباً لبناء المزيد من البنايات العالية هنا. خلف البناية، كانت هناك حديقة بمساحة ممرّ صغير، انحصرت بين البناية ومنحدر مائل.

كانت أحد تلك المناطق الفوضوية وغير المخطّط لها التي لا عدّ لها، والتي تحيط بمركز كوبنهاجن.

ركض ستيفينسن، وسبق ياستراو بصعوده السّلّم، وحين وصل العليّة، دفع الباب من دون أن يطرقه. سقط ضوء أخضر مروّع على بئر السّلّم، وهبّ تيّار دخان تبغ كثيف معه، وكأنه بخار طالع من مصبغة. بدا شاحباً جدّاً تحت هذا الضوء الغريب. وصوت الهمهمة تلك التي كان بالإمكان سماعها من الطابق الأرضي ارتفعت إلى الدّويّ.

كان هناك أناس في الداخل.

هل كان ياستراو يتوقّع مقابلة ساندرز وحده؟ هل حَلم بأن يراه جاثماً أمامه في غرفة في العليّة، بجدارنها العارية، ومنظرها الأجدب، وكأنها مكان جريمة؟ لقد نسي أن بيرنهارد ساندرز لم يكن يوماً وحيداً.

لم يتوقّف ستيفينسن، وتبعه ياستراو .. وقف كلاهما داخل غرفة صغيرة، تشبه إحدى الجحور في موسكو المكتظّة بالسّكّان. لا أحد هنا وحده.

التفّ بضعة شباب حول بعضهم واندسوا محشروين على أريكتين مثل أفعى داخل جحر. وسادات على الأرض. وأناس أيضا. طلاب شباب وعمال بشعر مسرّح إلى الوراء وياقات بايرونية(*) بنظافة مشكوك بها.

فتيات صغيرات بقصّة شَعْر مبتورة، وقوام يعكس اعتداداً بالنفس، واستخفافاً بالعالم. أعقاب سجاير في كل مكان. أكواب شاي على الأرض، على الرفوف، مدسوسة بين الكُتُب. صور لهياكل حديدية، جمال حديث، وصورة ضخمة للينين، الرأس الكبير الصلد ذو الابتسامة التّهكّميّة.

---

*) نسبة إلى الشاعر الانجليزي لورد بايرون 1824-1788 وهي ياقة منتصبة ومطوية في حافتيها

نهض ساندرز، القامة الوحيدة الواقفة من بين الكتلة المُتحرِّكة المحتشدة بالبشر، حركة أفراخ صغيرة. الوهج المنطلق من المصباح ذي المظلّة الخضراء على الطاولة الواطئة، يُلقي بظلّ عملاق على الجدار حتّى انحنى رأس المظلّة، بزاوية على السقف.

"ما الذي تريده؟" سأل ساندرز بسلطوية. لقد وقف على قاعدة من البشر.

"التّحدّث معكَ" أجاب ستيفينسن وهو يكظم غيظاً، وقد مدّ رأسه الشاحب إلى الأمام. الرؤوس الكثيرة رُفعت جميعها إلى أعلى، واضحة تحت الضوء الأخضر. الفضول. احتقار ملقن.

"دخلتُما، ونحن في اجتماع خاصّ بالتحرير، هل هناك شيء يخصّ الـ "التّحرّك" أم مسألة خاصّة؟ أتصوّر أنها خاصّة، أليس كذلك؟" أنهى ساندرز قوله بسخرية، وبابتسامة لينينة مضاعفة، وامتدّ منها إلى الجمع، أضعاف أضعافها، ابتسامة جمعية تهكّميّة، وحتّى ابتسامة الفتيات الصغيرات بقصّة الشَّعْر المبتورة كانت تهكّميّة.

"أجل، إنها مسألة خاصّة" قال ياستراو بهدوء. اكتسحه الشعور بالمشاركة الجماعية.

صوّب ساندرز عينَيْه الغامقَتَيْن الفائرَتَيْن، وهو يشير بيده إلى المجموعة كأُسرة تحرير. والظّلّ على الجدار، أظهر حركته، وكأنها تشمل الكون.

"كما ترى، يا أوله، نحن لسنا وحدنا" قال وواصل بحسٍّ ساحر "إلا إذا كنتَ تودّ مناقشة مسألتكَ الخاصّة أمام المجموعة".

"وأنتَ لستَ من الذين يستغلّون ما يقوله سَكْران في بار لتذهب إلى بيته وتشي به لدى زوجته. هل تُسمّي هذا روحاً رفاقية؟" سأله ياستراو، وقد اعترتْهُ موجة غضب فجائية. ضوء المستشفى الأخضر قد أصاب عمق روحه. شعر بأنه مَعمِيّ من الغضب، في ذلك الانعكاس الغامر للضوء.

"أوه، هل علينا الاستماع إلى هذا؟" قاطعتْهُ عاملة شابّة على الأرض، وقد نهضت مُتّكِئة على مرفقَيْها "ما لنا وهذه الرطانة؟! هل نرميهما خارجاً؟".

حدث نوع من البلبلة بين الجمع. كان بمقدور ياستراو أن يرى العَتَمَة والعينَيْن البارزتَيْن عبر الضوء الوامض الذي كان لا يزال يتراقص أمام عينَيْه.

"لا، لا" اعترض ساندرز مُحذِّراً بحركة من يده. كان ظلّه يشبه تمثالاً لبطل بَحْرِي. "إنه المحرّر ياستراو، وقد كان له فضل عليّ ذات يوم، ولا أنساه".

"ارمهم خارجاً" صاح البعض.

"مَنْ ذا الذي ترمونه خارجاً؟" قالها ستيفينسن، وقد امتدّت ذراعه الطويلة، لتُمسك بطالب ذي قبّعة بارونية. بحركة جانبية مباغتة، تمكّن الطالب من التّملّص من قبضته. راحت ذراعا ستيفينسن تتحرّكان بعدائية من حوله. تزحزح الحشد، وصرخت إحدى الفتيات، وهي تمُسك برأسها "أوه". صَلْصَلَت بعض الأكواب.

ولكن ياستراو استردّ هدوءه.

"كفى ستيفينسن".

صاح ساندرز "لعلّ من الأفضل أن نذهب إلى مكان، ونتحدّث فيما بيننا للحظة".

"وأنتُم واصلوا العمل. سأعود بالحال".

نظر جانباً إلى أعضاء المجموعة، وأخذ ياستراو من تحت ذراعه، وقاده إلى الممرّ خارج الغرفة. وتبعهما ستيفينسن مثل ذليل.

"لِمَ بحقّ السماء فعلتَ ما فعلتَ؟" سأل ياستراو، وهما ينزلان درجات السّلّم المظلم. ورغم أنه أفلت يده بهدوء من قبضة ساندرز، ظلّ يشعر بضغطها على ذراعه.

"ماذا تقول؟ آآ، تقصد لِمَ قصدتُ بيتكَ، وأخبرتُ زوجتكَ؟" ضحك ساندرز بتأثّر. "هل عليّ حقّاً أن أدافع عن ذلك؟".

"أنتَ تسبّبتَ بضرر كبير لي، بشكل مباشر".

"أووه" زمجر ستيفينسن من خلفهما. "هلا خرجتُما إلى الشارع، وتبادلتما اللكمات بدلاً من هذا؟!".

"عندكَ حقّ فعلاً" قال ياستراو فجأة، واستدار نحو ساندرز.

نظرا بعينَي بعضهما البعض وسط ظلمة السّلّم.

"لا مانع عندي، ولكنْ، ما الذي سينفعكَ؟" قال له ساندرز بصوت دلّ على هزّة يأس من كتفَيْه.

وأدرك ياستراو ذلك أيضاً. ما الذي سيجنيه لو تعاركا بالأيدي؟.

وتابع ساندرز كلامه "من وجهة نظري، فأنا لا أفهم إطلاقاً ما الذي تريده منّي، لا شيء، ما الذي تلومني عليه؟ اثنان كلاهما عزيز عليّ يستهلكان بعضهما بزيجة بائسة، وأنا، ما الذي بوسعي قوله، من الحماقة أن أقف أمامكَ لأشرح لكَ هذا، أن أقول لكَ إن زوجتكَ لا تستحقّ أن تجهل الأمر، هذه هي الحقيقة".

"ها قد بدأنا" دمدم ستيفينسن مُنزعِجاً. "ألم أقلْ لكم ...".

اتّكأ ياستراو على درابزين السّلّم، ونزل عتبة واحدة من دون قرار.

تناهت إلى السماع صوت همهمة من العليّة.

"ولكنْ، ما شأنكَ أنتَ بنا؟" سأله بصوت حزين.

"الزواج ..." شرع ساندرز يزيّن كلامه.

"أوه، خَلِّصنا من نظريّاتكَ، يا أخي" قاطعه ياستراو مُتضايِقاً.

جلس ستيفينسن على السّلّم مُطلِقاً حسرة عميقة.

"ما الذي تريدني أن أفعله؟" سأل ساندرز ساخراً.

"هل نطلع إلى الشارع، ونتعارك؟".

"هذه ليست نظرية" قاطعه ياستراو حانقاً، وهو يحاول أن ينظر في عينَيْه. لم يرَ غير وميض أسود داخل ممرّ السّلّم. "إنها طبيعتكَ الوسخة التي كانت سبباً في كل ما حصل. ما إن تشمّ رائحة امرأة حتّى يصيبكَ مرض".

ضحك ستيفينسن مؤيِّداً.

"وماذا بعد؟" سأل ساندرز بسخرية ملحّنة.

"إلى أين تريد الوصول بهذا، يا أوله؟ أعترف، وبكل سرور، أني مريض. بالمناسبة، فهذه كلمة قوية، ولكنْ، ثمّ ماذا، يا أوله؟ أنا أعترف بذلك. ولكنْ، عليكَ، بالمقابل، أن تعترف بأن زواجكَ كان فاشلاً".

"هل كان كذلك؟" توقّف ياستراو، وقاطعه "ولكنْ، ماشأنكَ بنا؟".

"وما شأن كل الذين كانوا في البار؟" قال ساندرز مُتضايِقاً. "ولكننا سندور في حلقة يا أوله،

ولا أنا ولا أنتَ لدينا وقت لذلك. زواجكَ كان فاشلاً، هذا هو كل ما وددتُ قوله، ولأن الزواج هو شكل بائس للحياة المشتركة".

وانحنى صوب ياستراو. كانا يقفان على عتبة السّلّم، يتناقشان، وكأنهما في مشهد عصري. جلس فوق رأسَيْهما ستيفينسن محدودب الظهر مُتقرفِصاً، فلم يكن المكان على السّلّم مناسباً للجلوس، وأخذ يتثاءب بصوت عال.

"اسمعني، يا أوله، هو ذا ما عنيتُهُ. لأكن مريضاً أو أيّ شيء ثان راقٍ. ما همّني؟ ودع هؤلاء في العليّة يكونون" ورمى برأسه "مجموعة مغفّلين، وهم كذلك. ولكنْ، هل ترى كم أن الأمر سِيَّان عموماً. لأننا، في النهاية، نحن مَنْ سينتصر. يجب أن ننتصر. هذا ما يقوله العقل، وبمقدور أيّ غبيّ أن يرى عندما تقع عيناه على ذلك. لينين كان مُجرّد آلة، كما قال، وأنا ربمّا أكون آلة سيِّئة، حقيرة، ولكني أساهم مع الباقين في العمل في الطريق ذاته. هل تفهم يا أوله، لِمَ لا أستطيع أن أتعامل بجدّيّة مع موضوع زواجكَ. لا يمكنني ذلك، يا أوله. وذلك واحد من مليون عارض، يثبت أننا على حقّ، بلى بلى، ومسألة ولدكَ الذي فَقَدْتَهُ، بلى أنا أفهم ذلك جيِّداً. ولكني المريض الذي كسر شيئاً، كان مكسوراً بالأصل، وأرجو ألا تكون لديك شكوك، بكوني قد أحببتُ زوجتكَ، صحيح؟".

"ليتكَ كنتَ كذلك" أجابه ياستراو بتعب. نزل عتبة أخرى في السّلّم، لأنه كان يودّ أن ينصرف. نزل ستيفينسن أيضاً عتبة أخرى. كان يتبعهما وهو جالس. وأضاف ياستراو "لكنتُ فهمتُكَ بشكل أفضل".

ضحك ساندرز باستخفاف.

"نعم، بالطبع، كنتَ ستفهم دراما حُبّ برجوازية ورجل غاو شيطان، ولكنْ، أنْ تفهم أنّ شيئاً راح وانقضى، لا".

"لا، أنا لا أفهم شيئاً" أجاب ياستراو بغلاظة.

"ولكنْ، لو كنتُ أعلم أن للمسألة تلك التبعات، هل تفهم؟ أن ...".

"لا، لا أفهم".

جاء صوت ساندرز مُتذمّراً "يا أوله" ثمّ ارتفع، وكأنه اقترب من البكاء، فأصاخ ياستراو السمع، أنصتَ وأنصتَ في عمق الظلمة. استطاع أن يرى الممشى المعتم عبر النافذة بانعكاس ضوء وظلّ ضوء الشارع.

"يا أوله، هل نحن..؟" وتهدّج صوته "لم نعد أصدقاء؟".

"نعم".

استدار ساندرز باللحظة، وصعد السّلّم. صوت الخطوات، كأنها ثقيلة محسوبة. وتزايدت، من ثمّ، سرعتها. اقترب من مجموعة قسم التحرير. فكّر بما يمكن الآن سماعه، لم يفكّر بشيء آخر. هدرت الأصوات، ما إن انفتح الباب، ومن ثمّ، انخفضت ثانية.

"كان بمقدورنا توفير ذلك كله" قال ستيفينسن، وهو ينهض من على عتبة السّلّم الصلبة، ومدّد ساقَيْه.

"هل ازددتَ علماً الآن؟"واصل ستيفينسن، وقد برز وجهه الكئيب تحت وهج الضوء حين توقّفا عند زاوية شارع غاميل كونجفاي. لقد صحا تماماً.

"ولا شكّ، بالتأكيد" أجاب ياستراو، وهو يُحملِق بالشارع. كان هناك قرار ما قد حسمه من دون صوت. ليس من العدالة، ليس من اللاعدالة، ولكنه ضروري وواضح. حصل بشكل هادئ جدًّاً، كما في طفولته حين كان يضع باندفاع علامة في كتالوك الكُتُب المستعملة على الكتاب الذي يتحرّق لاقتنائه، وفجأة تختفي تلك الرغبة من دون أدنى شعور بشيء. كان قد وضع علامة على ساندرز، ولكنْ، سرعان ما بردت الرغبة المستعرة بالانتقام. لا غشاوة ساخنة. لا نوبات غضب انفعالية غير محسوبة. شعر ياستراو براحة.

كان ستيفينسن يخبّ إلى جانبه بخطوات بحّار سريعة عريضة، وقد نزلت (الكاسكيت) على جانب جبهته. ثمّ دمدم "لم يكن ذلك من المنطق بشيء".

"يا أنتَ ومنطقكَ! هلا ذهبتَ إلى شارع ستينوسغيذه؟ فكرة! لنمرّ ونرَ، إن كان مايزال هناك ضوء في الصالة".

قالها ياستراو جذلاً. الفرحة والشعور بتحرّره صعدا في رأسه. مساء صيفي مضاء. التمعت المصابيح في الشارع.

استدارا، ودخلا شارع ستينوسغيذه، وتوقّفا على الرصيف عند الكنيسة الكاثوليكية. مدّ ياستراو قامته وقفز، لينظر عبر النافذة إلى داخل الصالة المضاءة. لعلّه الأب غارهامر يجلس في الداخل؟ لم يتأكّد من شيء. كان هناك يسوعي، يجلس معطياً ظَهْره للنافذة، ولكن النافذة كانت عالية جدًّاً، وبسبب ستارة الدانتيلا أيضاً التي تسدّ الطريق على فضول المارّة.

"هل رأيتَ؟ هناك منطقٌ يتحدّثون عنه في الداخل".

"كم مرّة ستعيد عليّ ذلك" قالها مُعترِضاً، وهو يحشو غليونه. "ولكنْ، أيّ منطق تقصد؟".

"منطق الأبدية، ستيفينسن، قل لي هل تؤمن بأن نظام العالم صار له لاحقاً وقت أبدي، هه، ستيفينسن؟" قالها ياستراو مناكفة. "أم أن نظام العالم كان دوماً أبدياً؟ ما قولكَ، ستيفينسن؟ أنتَ مهتمٌ بالمنطق، لا بدّ وأن هذا الأمر يثير اهتمامكَ!".

أشعل ستيفينسن غليونه بعناية.

"ولكن هذا ليس منطقاً" زمجر من خلف طرف غليونه. "سؤال غبيّ، لا رغبة لي بالإجابة عنه".

ضحك ياستراو.

"هل تعتقد ذلك؟ اسمع، إن لم تؤمن بنظام عالمي أبدي، لا بداية له، ستضطرّ بذلك إلى الإيمان بأن هذا العالم الذي نعيش فيه مثالي".

"إيه، إلى الجحيم، أنتَ وهو".

"أو التكرار الأبدي، الشيء ذاته يتكرّر مرّة بعد مرّة بعد مرّة. صح، ستيفينسن؟ وتخيّل ذلك مثيراً حقّاً، إن كل شيء يكرّر نفسه للأبد، أنكَ أنتَ وأنا ماريا تسكنان في شَقَّتي في استذغيذة".

أخرج ستيفينسن غليونه ببطء من فمه.

"هل جننتَ؟".

"لا، ستيفينسن، اسمعْ، دعني أُكملْ، اسمعْ، نظام عالم من دون بداية يعني مروره بكل احتماليات التغيير، أليس كذلك؟".

"أوووه".

"ومن بين الاحتمالات الأبدية هو التكرار، وإن كان هناك احتمال واحد للتكرار، فلا بدّ من أن هناك احتمالاً، لما لا نهاية من التكرار، وإلا لما كان نظام العالم أبدي. ويا ليل، يا عين، يا ستيفينسن، ولتُسمّه منطقاً أو صندوق موسيقى، ما تختاره لن يفرقَ معي".

ضحك ياستراو من أعماقه، بينما جمد ستيفينسن في مكانه.

"وبعدها؟".

"هل تعتقد أننا نعيش في عالم مثالي؟".

"هه هه".

"لا لا، لا يمكنكَ حلّها بهذا الشكل، ستيفينسن. إمّا هذا أو أن تؤمن بتكرار أبدي".

"اللعنة على إبليسكَ".

"أجل، كما ترى. وإن لم تقنع بأحد الخيارَيْن، فعليكَ أن تؤمن بأن نظام العالم كانت له بداية مع الوقت".

"وبعد ذلك؟".

"وبهذا نكون قد وصلنا إلى الخالق، نحن نؤمن، جميعاً نؤمن بالله، يا عين، يا ليل".

لم يجبْهُ ستيفينسن. كان يُحدِّق طويلاً في النافذة المضاءة لصالة الكنيسة، وتلك الكنيسة المعتمة المسدودة. نفث في هواء المساء سحابة بيضاء من الدخان، بينما كان يفكّر.

"حسناً، هلا عدنا إلى البيت لننام، أيّها المنطقي العتيد؟" وضحك ياستراو.

أومأ ستيفيسن برأسه بخرس، وراحا يمشيان عبر شارع فيستربروغيذه. كان ياستراو ينظر إلى النساء. كان مزاجه صاف ورائقاً مثل الماء. "انظر؟" قال ملاعباً إيّاه حين تنزلق من أمامهما إحداهنّ بهدوء، تتهادى في ذلك المساء اللطيف مثيرة جوّاً من الحسّيّة والعطر من حولهما.

توقّفا عند ممرّ الفيستربرو في زاوية من الرصيف العريض الذي يمتدّ باستعراض طوال شارع هيلكولاندسغيذه. تمثال الحُرّيّة ينهض أسود على الإسفلت اللامع، حيث يعوم انعكاس الأضواء والمصابيح المُقوّسة. وبعيداً صوب السماء الزرقاء الصيفية كان قرصا ساعة مبنى البلدية الذهبيّان مُستديرَيْن منظورياً، وكأنهما أحولان.

علّق ياستراو بتنهيدة؛ "لديّ رغبة جامحة في أن أتمدّد وأتوسّع، أن أنغمس بلذائذ شرب بلا نهاية". شعَرَ بمنظر ساحة البلدية بالمباني القليلة العالية مثل بلوكات غير منتظمة في فضاء هذا الليل، مع انعكاس ضوء مصابيح السَّيَّارات، بمطاردة على الإسفلت، والناس المزدحمة المعتمة على الأرصفة مثل اشتياق مؤذٍ.

ثم قال؛"لا،لا، دعنا نذهب إلى البيت، وننمْ. عليّ أن أنام جيِّداً، لأصحوَ في الغد، وأُكلّم المحرّر إيفرسن."

"حول ماذا؟" سأله ستيفيسن.

"حول الجريدة" أجاب ياستراو مُتجنِّباً الشرح. لا يريد أن يكون مثاراً للضحك، مادام لم يقدّم استقالته بعد.

وذهبا بمحاذاة شارع هيلكولاندسغيذه إلى البيت، بشعور بقُوّة شخصيَّتَيْهما.

"بالمناسبة، اسمعْ، هناك مقهى بمكائن قهوة أتوماتيكية في شارع المشي" قال ستيفينسن.

"إنها مُغلَقة الآن. لا يمكننا الدخول، وإن شئنا".

"لا لا، لم تعد بالمناسبة هناك. حلّ مكانها محلّ أحذية" أجاب ستيفينسن مُنزعِجاً. "كنتُ أقصدها دائماً عندما كنتُ طالباً"،

"آها، ذكريات الشباب".

"لا، ما الذي تقوله؟ عندما تجلس في مكان معيّن في ذلك المقهى عند النافذة، هناك مرآة خلف ظَهْرِكَ، وأخرى أمامكَ، اللعنة، كان يجب أن يُغيّروا نظامها، عندما تنظر إلى وجهكَ في المرآة، سترى ما لا نهاية من الصور المعكوسة من المرآة بداخل بعضها، ستيفينسن من الأمام، وستيفينسن في الخلف، اللعنة على الشيطان، ما معناه الأبدي كما ترى؟! وذلك ما كنتُ أفكّر فيه من زمن طويل".

"هه، هل هناك يسوعيّ يضايقكَ؟" ضحك ياستراو، وقد وقف وهو يؤرجح بهَزَلٍ إحدى قَدَمَيْه عند حافّة الرصيف. أرجو أن يكون بذلك تعزية لنفسكَ، إذاً، ففي السنوات الأخيرة، أصبح الوقت بُعداً، ههhe، اليسوعيون أنفسهم أضاعوا البوصلة، لم يعودوا قادرين على فهم شيء البتّة".

راح ستيفينسن يمشي، وهو يمصّ غليونه.

"كما سترى، فإن التكرار يظهر ثانية، حتّى في كل ما اكتشف من جديد".

وفجأة بصق بغضب على الرصيف.

الفصل الرابع

كانا جالسَيْن لتناول الغداء على الطاولة، ياستراو وستيفينسن مقابل بعضهما. والغرامافون يعزف الجاز.

"وضعنا الماديّ سرعان ماسيتدهور" علّق ياستراو، وكسر قشرة بيضة، وهو سارح بالتفكير.

"لأنكَ لم تكتبْ ولاحرفاً واحداً" أجابه ستيفينسن.

"هل صرتَ واعظاً؟".

جلس ستيفينسن مُحملِقاً به، بابتسامة صامتة. جاءت حينها آنا ماريا بالقهوة. أبدلت الأسطوانة في الغرامافون. وجهها كان وارِماً، وكأنها قد بكت طويلاً. كانت تبدو مُتهالِكَة وبائسة.

ابتسم ياستراو لها، ولكن ابتسامتها كانت مُرتبِكَة وحزينة، وسرعان ما عادت إلى المطبخ ثانية، لتُخفي نفسها.

كرع ستيفينسن القهوة، ولم يقل شيئاً.

وراح كلاهما يحشو غليونه.

ولكنْ، إلى متى سيدوم هذا الحال؟ كان بمقدور ستيفينسن أن يظلّ ساكناً في مكانه من دون حركة، لساعات، من دون أن يعمل شيئاً. لقد كان مسموحاً له بذلك، وإلا لبقيت الغرف خالية، وفي الشَّقَّة الفارغة كان الجنون مُتربِّصاً، في الفراغ، سيكون الانتكاس مُوجِعاً. وطالما تواجدَ بشرٌ فبالإمكان تسكين هذا الانتكاس حسب. مُسكّن شأنه شأن الجاز من أسطوانات الغرامافون المسحوقة المبحوحة. ولكن هذا الكائن الذي يضع يده تحت خَدّه، ويتدلّى الغليون من فمه، بتلك الياقة القذرة، هذا الازدراء الحقير، إن لم يتحسحس هذا الكائن في مكانه، ويكون كائناً مُتحرِّكاً، إنساناً، سيقتحمه الفراغ ثانية، وسيتحوّل إلى شيء، لا يمكن أن يسيطر عليه، ويحتويه، وبذا ستندلع العدائية فيه.

"أراكَ جالساً بمكانكَ مُحملِقاً، ما الذي تفكّر به؟" سأله ياستراو بامتعاض وعصبية.

"كنتُ على وشك أن أفكّر بفكرة".

جوابه التقريبي يُزعج ياستراو.

"على وشك، هل هو جواب؟".

"بالطبع، ثِق، أنا أفكّر بالمواطن الذي يرتدي قُبَّعة منتصبة".

"كم أنتَ مضحك" قال ياستراو. لِمَ كان هناك شيء من عدم الأمان في عينَي ستيفينسن فجأة؟.

"لا، اللعنة" قال بتردّد "ولكنْ، تصوّر أن بالإمكان رفع غطاء جمجمة رأس إنسان، مثل قُبَّعة منتصبة، ومن ثمّ، النظر إلى الأفكار في داخلها. هه، يا له من عالم. لقد سمعتُ مرّة أن الأفكار هي الواقع. هه!".

كان ياستراو مُنصِتاً. كانت هناك بُحّة في صوت ستيفينسن، كما لو كان ينوي مُسارَرَته.

"ولِمَ لا؟ ممكن".

"لاا، لمَ لا؟" ضحك ستيفينسن بصوت خافت. "أنا أفكّر بالعجوز والدي، الصيدلاني المحترم في مدينته أورهوس. عندما لا يستطيع النوم، هذا العجوز الوحش، فما يفعله هو أن يستلقي ويفكّر كيف من الممكن أن تَرتكب جريمة من دون أن يُكتَشَف أمركَ. ذلك فظيع، أليس كذلك؟ حياة النخبة البرجوازية المثقّفة، صحيح؟".

كان يُحاوره وياستراو، يُحدِّق في وجهه. كان في فمه من الأسنان الكثير بشكل بشع. لم يكن فم إنسان. ولكنْ، لِمَ نطق؟ كان هناك، ولا شكّ، شيء ما، يودّ محوه، مُحاوِلاً تجنُّبه.

"ما الذي تريد قوله؟" سأل ياستراو بعصبية، لكي يُبقيه في الموضوع.

عَلاَ شَفَتَيْ ستيفينسن الجامدَتَينْ ظلّ ابتسامة، ونهض، من ثمّ، بحركة الصعاليك الغريبة تلك، من دون صوت.

كان ياستراو يراقبه، ثمّ توجّه إلى الباب، ليُنصت إلى ما يحدث في المطبخ.

توقّف الغرامافون. غسلت آنا ماريا الصحون، كان بالإمكان سماع ذلك.

ابتسم ستيفينسن بمَكْر. تبعه ياستراو بعينَيْه. لم يشعر بتعاطف معه، ولكنه كان مأخوذاً بتلك الحركة الغامضة. ما الذي دفع بابن البرجوازية الأورهوسية، لكي يعيش حياة التّطفّل عالةً على الغير؟ لم يكن ياستراو يعرف السبب، مُجرّد حدس. ولم يكن هذا الشّابّ خالياً من وصمة ما، في النهاية. كان بالإمكان رؤية ذلك. لم يكن إنساناً نظيفاً.

توجّه ستيفينسن إلى الأريكة التي اعتادت آنا ماريا الاستلقاء عليها.

"هل رأيتَ هذا؟" همَسَ بخبث، وهو يرفع غطاء الأريكة. كانت هناك بقعة محترقة.

هزّ ياستراو كتفَيْه مُستهجِناً "وماذا في ذلك؟".

"إنها كلبة، تنام، وتدخّن، وترمي السيجارة، من دون أن تنتبه إلى جمرها! تظنّ أن من البرحوازية مُراعاة ذلك!".

ضحك ستيفينسن، ولكن ياستراو نظر إليه مُستفهِماً. لِمَ كان كلامه غير مترابط؟ ذلك الوجه بارز العَظْمَتَيْن الشاحب لم يكن مريحاً. وجبهته برزت عارية غير طبيعية.

"الله أعلم إن كان من شأن ذلك توسعة الروح؟ أليس هذا ما أسميته؟ أن تقترف جريمة" واصل ستيفينسن حالماً، "إن كان مفعولها توسعة الروح أم أن مفعول الإجرام تماماً كمفعول الكحول، عندما تشرب كأساً، ستطمع بالمزيد، وها نحن نعود من جديد إلى المعاودة، التكرار الملعون هذا. لماذا لم أسأل مجرماً عن ذلك؟".

"ما هذه الهلوسة؟" قاطعه ياستراو قلقاً.

"كلاا" همسٍ له ستيفينسن بمَكْر واضعاً سبّابته على فمه، وبحركة من حركات الصعاليك تلك. "ولكنْ، إن خنقها أحدهم، وأشعل النار في الأريكة، في هذا كله. في الأحوال كلها، فهي تشرب حدّ الثمالة، وتدخّن، وترمي جمر السجائر، فلِمَ الخوف؟ مَن الذي سيُثبت ذلك؟ ومن ثمّ، تأنيب الضمير بعدها ..." رفع صوته وومضت عيناه. "اللعنة، أودّ أن أرى كيف سيكون تأنيب الضمير. إن كان ذلك الشعور سيكون عالقاً باليَدَيْن ..." ومدّ يَدَيْه الكبيرتَيْن وضمّهما بقبضَتَيْن أمامه "يظلّ يشعر برقبتها هكذا بين يَدَيْه أو يرى صورتها أمامه، هلوسات، أو ربّما لا يقدر على رؤية مكان الجريمة، الأثاث، الأشياء الميّتة، أو ...".

شعر ياسترو بحركته المبتورة، وكلّما زادت، صارت مُخيفة أكثر، لأنها تكسر وضعه الجامد غير المُتحرّك الصامت. صعب عليه أن يُصدِّق هذا الصوت الهامس، وذلك الرأس المهتزّ ..

"لا وقت لي على العموم لهذه الخيالات" علّق ياستراو ونهض من مكانه، كما لو كان يودّ نفض انطباعاته بعيداً عن رأسه.

"خيالات، لا، أنا بحقّ الجحيم أتكلّم بجدّيّة معكَ" أجابه ستيفينسن. بدا ياستراو غير مُصدِّق. قاطعه ستيفينسن، وأمسك به من ذراعه بقُوّة. "ألا تفهم؟ كنتُ أظنّ ذلك، للأسف. ليس حينما أفكّر منطقياً وبدقّة، فأنتَ لا تعتقد أني كذلك، أعرف ذلك، أو أن الأمر لا يهمّكَ بقَيْد شَعْرة. ولكنْ، في هذا، أن أفكّر بحقائق معيّنة محدّدة، أن أضع الواحدة فوق الأخرى وبعدها، نعم، ولكنْ، نعم ،أن أنتهي دائماً إلى نقطة ضعيفة".

"اسمعْ، يا ستيفان ..." قال ياستراو. أدرك أن ستيفينسن مُحطّمٌ وهو يُحملِق به.

ولكن ستيفينسن واصل "نقطة ضعيفة وبعدها لا بدّ وأن يحدث شيء ما يدفعني، أقول لكَ، شيء لا رحمة فيه، لا تعرف لماذا، ولكنْ، هناك منطق، ولا بدّ لهذا، منطق ما مسعور، وعلي أن أجد حلاً، يجب أن أجد حلاً في الأبدية".

"في ماذا؟" سأل ياستراو قلقاً، وهو يُلقي نظرة عبر الباب إلى المطبخ.

"هي أجل، هو ذا الأمر".

"مازلتُ غير فاهم ..".

"هل عندكَ فضول بخصوص ذلك" قالها بحنق.

وحينها لم يحتمل ياستراو. "اسمعْ، ستيفان، لا وقتَ عندي لهذا. عليّ الذهاب إلى الجريدة. وأنت،َ لا تبق هنا. لن أسمح لكَ".

"لا" بدت مبحوحة مباغتة.

"تعال معي".

وقفا في المدخل، وقد حاول ياستراو خلالها أن يكون هادئاً. القُبّعة اللّيّنة. لقد دخل في الجدية الآن. عصا التّنزّه. ابتسم ابتسامة خفيفة. عليه اليوم التّحدّث مع المحرّر إيفرسن.

"اسمع" انبرى ستيفينسن قائلاً، وهو واقف عند الباب، يهمّ بنزول السّلّم، وقد قبض على ذراع ياستراو، وراح يهزّها بقُوّة: "أنا أُحبّكَ ... أنا، وحقّ الشيطان، أُحبّكَ، ولكنْ، إن لم تفهمني، فلن يفهمني أحد، هذا ما أشعر به".

"وما هو هذا الذي يجب أن أفهمه؟" سأل ياستراو بحذر. وقد كان لديه حدس ما.

"لا، لن تفهم. أنتَ من الطبقة المحترمة الراقية، شأنكَ شأن الآخرين، ولا يهمّكَ غير أن تضحك منّي، أو أن تكون عاطفياً".

وقف هادئاً على السّلّم.

"لأني وضيع، وضيع جدًّا" تفجّرت الكلمات فجأة منه.

ونزل من على السّلّم، من دون أن ينتظر ياستراو.

"لا أرغب بمرافقتكَ" قالها من دون تغليف عندما وصلا البوّابة. هزّ ياستراو عصاه بسخرية.

ولكن ستيفينسن كان حينها في طريقه عبر استيذغيذه. من الوراء، بدا، وكأنه من شقاوات ناحية الميناء(*).

كان هناك شيء مُحرّض ومُزعِج في شخصية هذا البروليتاري. كان يمارسها بعض فنّاني ما بعد الحرب. كانت تلك هي الموضة.

ولكنْ، بالنسبة إلى ستيفينسن، كانت، ولا شكّ، أكثر من تقليد مصطنع. كان تمرّداً شاملاً. ولكنه كان، في الوقت نفسه، بمثابة استعراض.

وهل كان كذلك حقّاً؟ ألمّ القلق بياستراو. إن كان ستيفينسن جادّاً، فهناك كلام عن جريمة، وهي تنام بداخله. ولكن ذلك كان تهريجاً، تهريجاً، وضرب ياستراو بعصاه على البلاطات، بينما كان ماشياً صوب شارع فيستربروغيذه.

ألم يُفرَض عليه حشر الآخرين أنفسهم في حياته الخاصّة ومشاكله، كما فعل ستيفينسن؟ إن كان هو مَنْ أصاب آنا ماريا بالعدوى أم هي التي أصابتْهُ، كان ذلك هو جذر المشكلة، ياستراو يعلم بذلك. ولكنْ، ألم يكن الأمر سِيَّان؟ في الأحوال كلها، فقد كان ستيفينسن مثالاً للوضاعة، وذلك ما لم يكن بمقدوره احتماله. هذه الحالة المتوقّعة لشخص بطريقه إلى الانهيار.

راح ياستراو يصفّر. منظر المصاطب يشرح الصدر تحت الأشجار الخضر طوال شارع فيستربروغيذه. كان هناك بضعة زبائن خارج مطعم فيفل. أجمل ما في فترة ما بعد الظهر لم تحنْ بعد.

(*) Nyhavn هذا الحَيّ، وهو اليوم من أهم معالم كوبنهاجن السياحية، كان محطّة لتجمّع مختلف شرائح المجتمع، على الأخصّ البحّارة الذين تزدحم بهم صفوف من الخمّارات والبارات في فترة العشرينيات.

لم تكن فكرة استقالته جديدة بالمرّة. لقد طرأت بباله في اليوم ذاته الذي تسلّم فيه منصب مدير مراجعين في جريدة -داوبلاذيت-. وربّما كان قد قالها لأحد موظّفيه. "متى، يا تُرى، سينغرس الخنجر في ظَهْري؟". يظنّ أنه هو الذي صاغ تلك الكلمات. ألم يكن هناك أيضاً حديث عن رجل في الثلاثين من عمره، وفي منصب متقدّم، سوف لن يبقى أكثر من أربع سنوات في مكانه عادة؟ ألم يدلِ هو بنفسه بهذا التعليق يوماً بهدوء ويأس؟ بالتأكيد. "كيف فكّرتُ أني سأسلم من طعنة خنجر في الظَّهْر بين الكتفَيْن" بل إنه كان قد أخبر فولدوم مرّة بذلك. ولم يقم فولدوم بطمأنته، بل على العكس. "هناك شيوخ يقومون بتحريضنا ضدّ بعضنا" هذا ما قاله له. تلك الأربع أو الخمس سنوات! ذلك الشعور باللا أمان!

توقّف ياستراو فجأة. كل شيء قد بدا جميلاً بداخل -تيفولي-. عصافير على الممرّات الإسفلتية.

ولكنْ، هذه الفكرة! أن تعلم أنكَ ترى الأمور بوضوح لِمَنْ القُوّة. مَنْ قال هذا اللغو الفارغ؟ ألم يكن هو وعيه تحديداً الذي جعله قلقاً وأجدباً كشاعر؟ خلال أربع سنوات، لم يكتب شيئاً. ألم يكن وعيه هذا بأنهم سيجعلونه الضحية، تماماً كما فعلوا بكل مَنْ كانوا قبله، والذين قاموا بحَفْر الحفرة من تحته، لتقويضه بدورهم بالتّدريج. تخيّل أن المرء كان يعرف تاريخ موته. ولكنْ، كان له، على أيّة حال، زوجة وطفل. ذات يوم. كان عليه أن يفكّر بالقادم.

ألم يكن ربّما ذلك الشعور باللامان هو السبب في انجرافه الآن؟ ألم يكن ربّما هو السبب في إدمانه؟لأنه كان مُدمناً، أليس كذلك؟ وابتسم ابتسامته ذاتها حين ركب ذات يوم في الأفعوانية في تيفولي. هناك أسباب إلى ما لانهاية، نعم نعم. ولكن أحد الأسباب كان أيضاً أن طعم الويسكي كان لذيذاً.

كل شيء لم يكن على درجة من الأهمّيّة. لقد اتّخذ قراره الآن. كيف توصّل إلى هذا القرار لا يتذكّر. لقد اقتحم فجأة حرشاً، ووجد نفسه على منحدر، يطلّ على البحر. هل كانت رومانسية زائفة؟ هانس كريستيان أندرسن؛ الجرس(*). ولكنْ، هل شعر هو بذلك؟ إنه يشعر بهذا الآن. حرفياً، وباختصار، ستكون القصّة كالتالي؛ - راح يصفّر عابراً ساحة البلدية تحت أشعّة شمس رائعة، (تعال، يا أيّار، أيّها الرقيق الطيّب)، ثمّ صعد إلى الجريدة، وقدّم استقالته - هل كان متأكّداً من قراره؟ نعم، كان بإمكانه أن يقدّم عشرين سبباً.

---

*) الجرس حكاية خرافية، كتبها هانس كريستيان أندرسن عام 1845. تدور باختصار حول مدينة كبيرة سحر أهلها بصوت جرس يدقّ كل مساء عند المغيب. ذات يوم قرّر ولدان شابّان ابن الملك وولد فقير أن يتقفّيا أثر هذا الصوت الرومانسي العظيم في الغابة، والقصّة تختتم باتّحاد الطبيعة مع الدِّين، والشِّعر باتّحاد رومانسي، كما يراه أندرسن.

ولكنْ، كان بإمكانه الآن أيضاً في هذه اللحظة، في تمام الساعة الثانية وعشرة دقائق وفي هذه الزاوية من الشارع عند باب مقهى -المظلّة- أن يُغيّر رأيه، ويظلّ رئيس المحررين الأدبيين في الجريدة.

كيف لهذه الشمس أن تشعّ في مقود الدَّرَّاجة المَطليّة بالنيكل!

مشى يصفّر فرحاً وحزناً الوقت ذاته، أجل حُزناً أيضاً عبر ساحة البلدية. بدت المباني جميعها جميلة وجليلة. كم كان المكان بالغ الجمال! ذلك اللون الأحمر للطابوق، مبنى البلدية، فندق بالاس، بريستول! شجر الكستناء الأحمر! شعر بالساحة مثل بيته. شعر بنفسه مرتاحاً، ككائن معروف، يقطع الطريق هنا يومياً، كائن كوبنهاجني! هنا يسير ياستراو، اللعنة.

هل عليه أن يُودّعه أيضاً؟ لا، ليس اليوم. ولكنْ، قريباً. بعد سنوات، سيعود ثانية، لينظر إليه بعين غريبة.

صار مبنى -داوبلاذيت- في الزاوية قريباً إلى نفسه. حتّى حروفها المُعلّقة على الزاوية. كانت حروفاً واضحة خشنة. قد نظر إليها ذات يوم بخشوع. واليوم بدا شكلها، بالنسبة إليه، كذكرى، من اليوم. شعر بذلك، وهو ينظر إليها.

والباب الدّوّار. السّلّم والدرابزين الصقيل اللّمّاع والنافذة، وما تطلّ عليه في الفناء المُبلّط المحتشد دوماً بالدَّرَّاجات. كلها ذكريات وامضة في رأسه.

راح يصفّر بصوت خفيض. يودّ لِلّحن أن يُعينه على امتصاص تلك المناظر كلها لآخر مرّة. وبهدوء، دخل قسم التحرير. يوم اعتيادي تماماً. كان باب المحرّر إيفرسن مفتوحاً لضوء الشمس، وهو موجود، إذاً، في الداخل.

وها هو يجلس هناك في غرفته تحت أشعّة الشمس بظَهْره المَلحَميّ الطويل، وهو مُنكفِئ على مكتبه، بودّه لو يحضنه بذراعَيْه المجيدَتَيْن، بالمخطوطات والوثائق، يهمس بصوت مبحوح لسطح المكتب. هكذا كان يبدو المشهد. لأنه كان يُمسك بسمّاعة الهاتف بيده المُستقرّة على السطح، وهو مرتكز بشكل أعوج بجذعه على الطاولة، بينما هو يستمع أو يسعل بضع كلمات في قمع السَّمّاعة. ظلّ جمجمته الضخمة النفيسة كان حادّاً أمام الضوء. وقد بدا شارباه المُتدلّيان، وكأنهما يقطران من شَفَتهِ العليا.

وقف ياستراو عند الباب، وتنحنح. ذراع المحرّر بيده الكبيرة ارتفعت مثل رأس أفعى من الكتلة الضخمة للجسد، ولوّحت آمرة بالتزام الصمت.

عندما انتهت المكالمة، برز وجهه أخيراً بأكمله، وانسحبت الأعضاء مشدودة إلى الجسد الذي ركس في الكرسي، وصار بارتفاع طبيعي من جديد، وعادت الذراعان والساقان لوضعهم اللائق.

"هه! مَنْ أرى؟! إنه ياستراو، محرّري الأدبي هنا" انبرى قائلاً بخوف كوميدي. كانت عيناه مُطفَأَتَيْن. "أرجو ألا يكون قد حدث شيء، ويا لها من أناقة وهَيبة! كما لو حضرتكَ بعثة بأكملها في زيارة".

وضع ياستراو قُبَّعته على المكتب، جلس على مهل، وتعكّز على عصاه.

"هل أنتَ غاضب؟" سأله المحرّر مازحاً.

"أبداً، على العكس، ولكني جئتُ لأقدّم استقالتي".

قالها بوضوح.

مال المحرّر بجذعه إلى الأمام على مكتبه، ليحتوي بعينَيْه الحالة عن قرب. مسّد شاربه الكَثّ المُتدلّي بيده، وقد اكتسب وجهه انطباعاً، وكان الماء قد انقطع للتّو.

"هكذا إذاً!" همهم بعد صمت قصير. "أنا مُتفاجِئ. أليست المسألة نوعاً ما مُفاجِئة. أعني، بالنسبة إلى حضرتكَ؟".

"في الحقيقة، لا" أجاب ياستراو. شعر بأن القرار كان قديماً. لقد اتّخذه في اللحظة منذ خمس سنوات مضت، يوم مباشرته العمل هنا.

"هل هناك مَنْ أغضبكَ؟".

"كلا".

"النقود؟"

"كلا".

"أعترف أنكَ فاجأتَني" وأحنى المحرّر جمجمته الضخمة، وحكّ رقبته. "لديكَ ثلاثة شهور صيفية طويلة، حيث لن يتعيّن عليكَ عمل الكثير" أضاف بأمل.

"أجل، وهو ما أفكّر به. هذه الثلاثة أشهر كإشعار للاستقالة".

كان ياستراو جامداً في مكانه، ولكن داخله يهتزّ.

تحرّك المحرّر إيفرسن في مكانه على الكرسي ببطء. تضايق لأن عليه التفكير في هذه المسألة أيضاً.

"ولكن الصيف طويل" قالها دفعة واحدة، وتمسّك بشعور المتخفّف من وطأة الأمر، لأنه وجد منفذاً له. "يمكن أن يحدث الكثير خلالها".

"لا، لا فائدة".

"لا؟".

"كلا، خلال هذه الفترة، وحتّى أيلول، سأتدهور، بعدها سيأتي موسم الخريف وكل تلك الكُتُب، ... لا لا" هزّ ياستراو رأسه، وهو يهجس ذلك كله.

"عجيب!" قال المحرّر إيفرسن بوهن.

"أُفضّل أن أتوقّف الآن، كي لا أُدمّر عملي الذي أنجزتُهُ بشيء سيِّئ. ما أنجزتُهُ، أشعر بقناعتي به، والدفاع عنه" قالها مسرعاً.

"أجل، نعم" أجاب المحرّر بأدب. كانت هناك بقع غامقة تحت عينَيْه، تظهر حين يكون متأثّراً، وهو يُلقي خطبة، ولم يكن ياستراو يثقُ تمام الثقة بهم. ومع ذلك، بدا وكأن عينَيْه لمعتا، دموع؟

"أجل، عملُ حضرتكَ منحكَ مصداقية كبيرة" قالها المحرّر ببطء، وبسرحان بصوته ذلك الممطوط الذي كان بإمكان الجميع تقليده في التحرير. بدا صادقاً جدًّاً حتّى إن عينَي ياستراو ازدادتا لمعاناً.

"ماذا لو منحتُكَ إجازة لمُدَّة سنة" قالها بلطف.

اعتدل ياستراو بجلسته. لقد سمع إشاعات بخصوص نيّة المحرّر إيفرسن الاستقالة خلال نصف عام، وقد دعم ذلك قراره.

"لا، لا أظنّ أن ذلك سينفع".

"ذلك عجيب حقّاً. تريد حضرتكَ أن تغادر، ومَنْ سأضع محلّكَ الآن؟".

"لا أدري، لا فكرة لديّ".

"ستسدي إليّ خدمة كبيرة، إن ساعدتَني، واقترحتَ شخصاً ما؟" قالها المحرّر بجدّيّة.

"لا أظنّ أن بإمكاني أن أقرّر مَنْ يخلفني في الوظيفة، لا أعتقد" قالها بحسم.

"أرجوكَ" قالها المحرّر متعباً، وقد استقرّت عيناه على وجه ياستراو بلطف، وقد ازدادت البقع تحت عينَيْه المطفَأتَيْن قتامة، شيء ما فيهما كان إنسانياً بشكل واضح. "ليت حضرتكَ تقرّر كل شيء. ما الذي تريده حضرتكَ أكثر من هذا، سنحاول أن نُلبّي ما تطلّب قدر الإمكان" ولوّح بيَدَيْه بحركة سخرية حزينة "وفوق هذا، ستُسدي إليّ خدمة كبيرة".

ابتسم ياستراو.

"ليس بمقدوري أن أُعيّن شخصاً آخر محليّ في الوظيفة، وأعود، من ثمّ، لأرميه خارجاً، إن خطر ببالي أن أعود طبيعياً مرّة ثانية".

مسّد المحرّر من جديد ذقنه.

"ولكني لن أندم، إن فعلتَ ذلك، هه هه" وارتسم على وجهه العجوز مكر مضحك.

"أرجو أن تفكّر بذلك، ومن ثمّ، هه هه، مَنْ يدري لربّما ستبقى حضرتكَ هنا؟ هلا اتّفقنا على ذلك؟".

بدا راضياً جدّاً. أبقى القرار في منطقة اللايقين، وذلك يناسبه أكثر بكثير.

تماسك ياستراو بلحظة، وقال "لا، حتّى أيلول سأكون قد ضعتُ".

"كيف يمكنكَ قول هذا؟" شدق فم المحرّر معبّراً عن عدم فهمه.

"ذلك سيكون بالفعل مُحرِناً جدّاً؟".

"هذا شيء عليّ خوضه" قالها ياستراو ملحّنة. "عندها لن أكون صالحاً لشيء".

كان موقف ياستراو خال من المسؤولية. وضع ساقاً على ساق، فلم يعد هناك داع من استخدام عصا التبختر.

"بالنسبة إليّ، فهذا ما يحزنني حقيقة، أن أشهد ذلك" أجاب المحرّر بوهن في صوته. "كنتُ أظنّ كما تعلم أنكَ في طريقكَ إلى الصعود، وليس النزول".

عقد ياستراو حاجبَيْه.

"بلى، أسمع أنكَ تتردّد كثيراً على الكاثوليكيّيْن في شارع ستينوسغيذه".

"لا، هذا غير صحيح" قال ياستراو بشكل قطعي.

"غريب" قالها المحرّر سارحاً. "ألم يكن حضرتكَ؟ لا بدّ وأن يكون شخصاً آخر، إذاً. أجلس هنا مثل أب مستمعاً للكل، يبدو أننا عندما نشيخ، نخلط بين الكل معاً. اعتقدتُ أنه أنتَ، وكنتُ سأتفهّم ذلك، أفضل بكثير ممّا تقوله لي الآن، كونكَ ستكون قد تدهورت وضِعْتَ لأيلول، كما لو يقول أحدهم أنا ذاهب إلى كراكما(*) يوم الخميس. هه هه".

كان ياستراو جالساً يُحملِق فيه.

"هل سمعتَ، بالمناسبة، الفلاحون يريدون الآن تغيير الاسم إلى كرايمه، لأنهم يلفظونها هكذا، هه هه".

وابتسم، وهو يهزّ رأسه.

"كرايمه" ردّد مع نفسه بابتسامة عريضة.

ثمّ نهض مُحدودَب الظَّهْر صوب المنضدة الأخرى، فتح الدُّرْج، وتناول ضبّة ورق.

"حضرتكَ تريد أن تُقدِّم استقالة" دمدم تجاه المنضدة. "ذلك يؤسفني حقّاً. يُحزنني كثيراً".

وفجأة غاب عن باله أمر الورق، ومشى بخطوات بطيئة صوب النافذة في الزاوية التي كانت تُطلّ على الساحة المزدحمة المشمسة.

"يا لهذا الجمال اليوم" تلك القامة الطويلة المَحنية، وقفت عند النافذة، واليدان في الجيبَيْن. "بالمناسبة، هكذا هو دوماً هنا، تعال، عليكَ أن تراه بنفسكَ، ياستراو!".

نهض ياستراو من مكانه. كان يعلم أنه لامتياز كبير حين يودّ رئيس التحرير مشاركة أحد موظّفيه المنظر الذي يطلّ عليه مكتبه. الوقوف هكذا عند النافذة إلى جانبه، كان بمثابة الوقوف في شرفة مع أهمّ رجال الدولة للتّحيّة.

"كم أُحبّ المنظر هذا!" أكمل المحرّر إيفرسن ببطء وحرارة، وهو غارق في مونولوج. وقف ياستراو إلى جانبه "أنا لا أملّ من هذا المشهد. أقف كثيراً هنا، وأفكّر، الولد الفقير، هاك انظر، انظر إلى ذاك في تلك الزاوية، البائع الذي يجرّ العربة بيده، أفكّر أنه لربّما سيجلس يوماً في مكاني. انظر، إنه ينظر إلى الأعلى، تجاهنا، أجل، الآن هو أنا الذي يجلس هنا. وسيذكر هو ذلك ربّما في يوم ما."

(*) Kregome/krejme أبرشية قرية في شمال شيلاند

بدا التّأثّر في صوته رغم أن ذلك كان يضيع خلف حسّ السخرية لديه. شعر ياستراو خلالها أن الكلمات كانت مهمّة جدّاً، وذات معنى حين ألقى المحرّر بذراعه على كتفه، واتّكأ بجسده العَظْمِيّ الكبير عليه. هل كان إنساناً هذا الذي فتح قلبه؟

كانت لحظة غريبة غير موثوق منها. سيتذكّر ياستراو دوماً هذه الساحة التي امتدّت أمامه مسطّحاً مائلاً رئيفاً مِبْيَضّاً مثل بحر، يطلاّن من منحدر عليه. يودّ أن يسجّل في ذاكرته هذا الشريط الداكن من تيّار الحشود المارّة من فيستربرو إلى شارع المشي، تلك الحركة الدائمة، تلك الأضواء، النساء المشرقات. اندمج باللحظة جسم المحرّر الضخم المحني بعينَيْه المطفَأتَيْن مع الساحة الحَيّة أمامهما في صورة واحدة، ألا وهي الصحافة، الصورة الأكثر نطقاً وحياة من كل شيء، إنما كان يعلوها التعب والخيبة.

"نعم، كنتُ أنا ذاك الولد. وها أنا الآن واقف هنا. ولكنْ، إلى متى؟ هذا ما أفكّر فيه كثيراً.

شابَ صوت المحرّر إيفرسن شيءٌ من السذاجة وهو يتفلسف. توالت الأفكار المكرّرة الواحدة تلو الأخرى بحركات مُفاجِئة منه. عندما تجتاحه العاطفة يشبه جمهوره من القرّاء.

"الموت! أجل، الإنسان يشيخ كما تعرف ياستراو" ونظر تحت إليه. أنتَ لا بدّ وأن تكون حضرتكَ شابّاً يافعاً، لتتّخذ قراراً بأن تضيّع نفسكَ تماماً، مهما كلّف الأمر. هههه، حضرتكَ لا تفكّر كثيراً بالموت، إذاً؟ مَنْ هو بجانبكَ يفكّر، بالمقابل، بذلك، بشكل مستمرّ. بالمناسبة، ذلك مع الوقت، يصبح أمراً مضحكاً بعض الشيء (وضحك ضحكة مكتومة، وقد تحرّر أخيراً من عاطفيّته)، وأضاف، رغم أنه محزن. بالأمس زارني هـ. سي. ستيفاني، أنتَ تعرفه، مرتدياً ثياب الحِدَاد والقُبَّعة الوبرية، زوجته كانت نرويجية، وهناك يطلقون على القُبَّعة العالية بالقُبَّعة الوبرية."

تجمّد جسم ياستراو تحت ثقل جسم المحرّر إيفرسن. ألن ينتهي وداعه لتلك السنوات الخمس من حياته بسلام؟ ألم يُلقِ وجود ستيفينسن بظلاله على حياته؟ كان بمقدروه أن يحدس ما حدث.

ولكن المحرّر تابع، مرتاحاً لطرفة، أعتقتْهُ من أفكاره الحزينة.

"كنتُ أعرفها في الحقيقة حقّ المعرفة. سيِّدة ضخمة. حضرتكم تبدو حسن الهندام بالقُبَّعة الوبرية، قالت لي ذات مرّة حين حضرنا مراسيم تشييع كبير. يقولون قُبَّعة وبرية في النرويج.

ولكنْ، بالأمس، جاء السَّيِّد ستيفاني، كان مضطرباً جدَّاً، زوجته ماتت، كان يحمل رمادها معه في جفنة، وضعها في حقيبته هنا في البهو.

بحلق طويلاً في الفضاء الأزرق أمامه.

"لقد بكى في الحقيقة فوق الحقيبة".

ماتت والدة ستيفينسن. رأى ياستراو وجهها مثل ظلّ كبير أسود بحدود بارزة. ماالسبب الآن، كي تُلقي الأمّ بظلّها عليه هنا في لحظة واضحة كهذه؟ ألن يسمح لياستراو أن يعيش حياته هو؟ عليه الآن أن يقدّم استقالته، وألا يفكّر بشيء آخر.

"هه، نعم، الأمر طريف، على الأخصّ، حين تكون على معرفة بستيفاني عن قرب، مقاومته ضعيفة في كل مرّة تقع عينه على تنّورة، وقد قيل إنها كانت غيورة، سيِّدة نرويجية ضخمة، وفوق ذلك غيورة، ولكنها في حقيبته الآن، تمام. وقد بكى. لقد تألّمتُ لحاله."

تململ ياستراو في مكانه.

"ستذهب حضرتكَ؟" سأل المحرّر. "إذاً، نحن الآن متّفقان في كونكَ ستفكّر، وتراجع الأمر مرّة أخرى. حضرتكَ عجول جدَّاً.

نظر ياستراو إليه. لقد ارتسمت ابتسامة الولد من تحت شاربَيْه.

"لا، أودّ تقديم استقالتي اليوم".

انحنى جسم المحرّر أكثر، وبانت تلك البقع الداكنة من تحت عينَيْه ثانية.

"لقد كنتُ شخصاً محترماً دائماً، في رأيي، من الغباء أن تضيع وتهدم نفسكَ، وتنحدر بقرار. أليس من الأفضل بهذه الحالة أن تسافر، ثمّ تعود وتصير رجلاً كبيراً؟ ولكنه لشرف منكَ أنكَ تُفضِّل أن تغادر على البقاء هنا، وكتابة شيء بائس، لدينا ما يكفي منه. هه".

ابتسم ياستراو بخجل. وقد لمعت عيناه.

"عليّ الآن أن أُودّعكَ" قال. "هل ستذهب الآن؟ بظنّي، نحن لا نحتاج إلى توديع رسمي الآن. أمامنا ثلاثة أشهر، لكي نتصافح. مع السلامة إذاً" ولوّح بيده بدعابة.

انحنى ياستراو له، وتوجّه صوب الباب.

"آه، أخيراً" انبرى صحفي قائلاً، وقد كان جالساً في البهو ينتظر. كان هو غوندرسون ذو النّظّارة السوداء والشَّفَتَيْن الضخمَتَيْن. "يا لها من محادثة طويلة مع وحيد القرن! كيف هو مزاجه اليوم؟".

"رائع" ضحك ياستراو. "لقد وقفنا أمام النافذة في الزاوية والدموع في عيوننا".

"عظيم، لأدخل إليه إذاً".

ودقّ غوندرسون على بابه المفتوح.

تابع ياستراو خلالها سيره، فهو لا يودّ التّحدّث مع أحد. ملأه شعور بحصانته، وبهدوء، واصل سيره صوب الباب.

طافت ابتسامة صغيرة على شَفَتَيْه. وداعاً، وداعاً. وهو ينزل درجات السّلّم، شعّت بداخله فجأة قناعة مذهلة، أن بمقدروه منذ الآن أن يترك لنفسه، وبهدوء أن ينحطّ، وينحدر. ويضيع نفسه. وداعاً وداعاً.

ماتت والدة ستيفينسن. هل عليه أن يُخبره بذلك؟ لا، لماذا؟ كل شيء يمضي بانسيابية الآن، إلى أين؟ إلى الأعلى أم الأسفل؟ حدثت دفعة كبيرة في ذلك.

وحين وقف على الرصيف، شعر بمساس الحاجة، لكي يكافئ نفسه. وهي تستحقّها. تماماً! واستدار، بالطبع، إلى اليمين، وقصد بار دس آرتسيست. كان المكان مظلماً وفارغاً في الداخل، إذ إن الساعة لم تتعدّ الثالثة بعد.

انغلق الستار الأحمر من خلفه بحفيف خافت، وحجز الشمس خارج المكان. تسرّبت ساعات النهار دفعة واحدة، وغابت الشمس. لمعت في البعيد صفوف الزجاجات والأقداح والبار النحاسي، وكأنه مختبر كيميائي غامض.

فتح النادل الصغير باب مدخل البار من جهة الفناء إلى الجانب قليلاً، وقد تكوّر جسمه وهو واقف من شدّة الضحك.

"تعال، حضرتكَ، سيِّد ياستراو، لترى، السَّيِّد كيير سيقلع ضرسه".

على ياستراو أن يُلقي نظرة على الفناء الإسفلتي. كان هناك سيِّد ضخم، بملابس أنيقة، بدلة

رجالية خضراء رصاصية، كان السَّيِّد يتصرَّف بشكل غريب، ويرقص وحده، مثل دمى الخيوط، وقد عطّلت حركة إحدى القَدَمَيْن إلى الجانب.

"ماذا يستخدم، يا أرنولد؟".

"كمّاشة للقلع، بالطبع. عثرنا على واحدة قديمة صدئة".

رأى ياستراو كيير العجوز، وهو يُلقي برأسه إلى الخلف، وكأنه كان ينظر بيأس إلى المُربَّع الصغير من السماء الزرقاء، ونطّ بضع نطّات على قَدَم واحدة.

ضحك ياستراو والنادل. فجأة استدار كيير، ولوّح بالكمّاشة في يده منتصراً.

"وجدتُها!" قال وقد تفصّد العَرَق من جبينه حين دخل.

"هل رأيتَ بحياتكَ شبيهاً لهذا السّنّ؟".

كان يحمل برصاً أسود مُدمّماً بثلاثة جذور معقوفة.

"ولِمَ لمْ تذهب إلى طبيب الأسنان؟"

"لاااا" قال كيير بهلع مؤشّراً بيده، "لم أقصدهم يوماً طول حياتي، ولو كنتُ قصدتُهم، لما كنتُ قد عثرتُ على الدرب إلى هنا ثانية أبداً. لستُ رحّالاً".

جلس عند الطاولة المدوّرة، وهو مُمسك بالسِّنِّ، يتأمّله بحركة فلسفية.

"هل تودّ رؤيته، يا جاز؟".

ومدّ ذراعه بالسِّنِّ صوب ياستراو.

"ألا تراه؟ إنه يشبه محاميّي".

ادّعى ياستراو بحركته العمى، وهزّ رأسه.

"ذلك لأنكَ لم تحتسِ كوكتيل لوندبوم بعد،... يا أرنولد، هاتِ لنا اثنَيْن منه".

تنهّد، وحملق بعينَيْه الزرقاوَيْن الغائمَتَيْن في ياستراو.

"لِمَ تبدُ سعيداً وأحمقاً اليوم؟".

"آه، لقد ناضلتُ من أجل أن أنال حقّي في الانحدار إلى الحضيض، الانحطاط، النزول إلى القاع، وقد نلتُهُ اليوم".

اهتزّ جسد كيير بأكمله، وهو يكتم ضحكته.

"ما هذا اللغو الفارغ؟" قالها ضاحكاً،"من سابع المستحيلات، يا جاز، أن تنزل إلى القاع، لأن المرء يموت قبل أن يصله، إنه بمقدار صعوبة الوصول نفسه إلى كندا. لقد باع -بي- الصغير بطاقته ثانية، وهو عالقٌ في مدينة إيسبيرغ".

وسحب كيير مظروفاً أزرق من جيبه.

"اسمعني، يطلب استدانة مبلغ منّي، ومن لوندبوم، لكي يتمكّن من العودة إلى كوبنهاجن. أظنّنا سنفعل ذلك، قد اشتاق لنا، كما يبدو، يا للمسكين".

الفصل الخامس

ثمِل كيير الخالد، وتورّم وجهه، ولم يبقَ ما يمكن التّعرّف عليه من أثرٍ غير الفلق في ذقنه. كان يدفع بين الحين والآخر السّنّ المسوّس على الطاولة المدوّرة، ويدمدم بشيء، يخصّ محاميه. كان ياستراو صامتاً. صعد كوكتيل لوندبوم في رأسه، ولكنه كان يشعر بارتياح كبير في تواجده في البار، في هذا الغروب. لم يشعر بأنه صاحٍ، عدا اللحظات التي كان باب البار يندفع إلى الجانب، ووميض من الشمس الغاربة، وزحمة الشارع يدخلان إلى الصالة المظلمة مثل مصباح بروجكتر.

"أووووه" زمجر كيير المتقرفص في مكانه، وهو يهزّ رأسه. زاغتْ نظراته، والحَدَقَتَان لا تتبعانها، وبدافع تلك الأنانية التي تصيب الثملين عادة، بدا ياستراو نحيساً فجأة للتّقلّبات التي تجري على الطاولة. نهض من مكانه بشيء من الازدراء، ومشى ببطء في البار بحثاً عن معارف، يمكن أن يكونوا قد وصلوا.

"هالو، سيِّد ياستراو" انبرى صوت رجل.

"هالو، سيِّد ياستراو" رنّ صوت امرأة حين اصطدم بصره بنظرةٍ رصاصية مضيئة، نظرةُ عينَيْن تعبَتَيْن فضوليَّتَيْن لامرأة ذات خبرة.

كانت السَّيِّدة كرويه بمرافقة السَّيِّد رابِن الجسور، وقد جاءا لتناوُل شرابٍ مُشهٍّ للمساء.

"هلا أسعدتنا، وقبلت دعوتنا، لتناوُل مشروب معنا على الطاولة" سأله رابِن مُرحِّباً وقد نهض. لحِظَ ياستراو أن الجرح على خَدِّه كان يناسبه.

"ولِمَ لا؟ شكراً" قال ياستراو مطلقاً حسرة للمزح، واتّكأ بأدبٍ على ظَهْر الكرسي. "على أن يكون خفيفاً" قالها وهو يرفع حاجبَيْه. "وإلا أخشى أن تكون العواقب وخيمة".

تألّقت قامة السَّيِّدة كرويه وسط البار شبه المظلم. شَعْرها الأشقر الرمادي، عيناها الرصاصيَّتان، وفستان السهرة الذي كانت ترتديه، ذلك كله، كان بلون واحد. ساطعة بشدّة! وحده صباحُ بحرٍ هائجٍ بذلك السطوع، حيث الموج مثل فضّة متجمّدة، والشمس متبدّدة في كتلةِ غيومٍ رماديةٍ مضيئة.

"لا بدّ وأنكَ تعيش حياة صعبة، سيِّد ياستراو" قالت، وانحنت تجاهه مُظهِرَة اهتماماً به.

"شيء من الفوضى ربمّا" أجابها وهو يجلس. لا يعتقد أنها كانت شابّة، ولكنْ، لِمَ كانتْ عيناها العميقتان تشعّان هكذا؟.

"يقال إنكَ تشرب كثيراً" تابعت هي بمباشرة.

"ويقال إني كاثوليكي" أجابها.

"لا، لا أظنّ ذلك" وضحكتْ. "ولكني لا أفهم كيف تجد حضرتكَ الوقت، لتبثّ هذه الإشاعات كلها من حولكَ باستمرار، لا بدّ أن تكون رجلاً من عصر النهضة. وعلى حضرتكَ أيضاً قراءة تلك الكُتُب كلها، وكتابة مراجعات لها، بالمناسبة، فأنا أقرأ مراجعاتِكَ باهتمام كبير".

"أنا، اللعنة، لا" اعترضها رابِن بقوله بشكلٍ جافّ. هل كانت المصارعة قد بدأت؟.

"ألا تقرؤها؟ إنها رائعة. مراجعاته هي أوّل ما أتابعه حين أفتح جريدة -داوبلاذيت- في الصباح".

أحسّ ياستراو بأن الكلفة مرفوعة بينها وبين رابِن. والنظرة العميقة وكل حركات يَدَيْها المندفعة نحوه لربمّا كانت، إذاً، محض دلع، لتشعلَ غيرةَ رابِن. ولكن ياستراو لم يستطع الكفّ عن النظر طويلاً في عينَيْها الرصاصيَّتَيْن. شعر بأن عَظْمَتَي ركبَتَيْها من تحت فستانها الحريري الرصاصي كانتا صغيرَتَيْن بارزَتَيْن.

"المراجعات تكون عموماً شخصية، ومتأرجحة" قال رابِن بترفّع.

"وهل تظنّ أنّ مادّة الحقوق أكثر موضوعية؟" ردّ ياستراو الضربة إليه وهو يغمز، وضحكت السَّيِّدة كرويه.

كان بالإمكان رؤية تقدّمها في السّنّ حين تضحك عبر رقبتها أيضاً.

"في قاموسي الخاصّ، فكلمة موضوعي تعني مُملّ" زقزقت. "وأنتم الرجال حين تشرعون في التّحدّث بموضوعية، أشكر ربّي وخالقي أني امرأة".

"وما الذي يحتجْنَه حين يكون لهنّ قلبٌ وجمال؟!" أجاب رابِن بتفكّه.

"هل تشاركه الرأي، سيِّد ياستراو؟" سألتْه على الفور.

باللحظة، حضرتْ كؤوس شراب الدوبونيه على الطاولة.

"أنا لا أفهم في النساء، لا شيء غير ضعفي أمامهنّ" قالها ياستراو، ليتسلّى، وهو ينظر عميقاً في عينَيْها. كانت تعرف بأنه في طريقه إلى الطلاق، آآآ، هذا هو، إذنْ! لذا كان هذا كله الذي بينهما، وابتسم ابتسامة، ظهرت أسنانه خلالها.

"هل رأيتَ، يا سيِّد رابِن، أخيراً وجدنا رجلاً ذكياً" وضحكتْ. "ولكن حضرتكَ ناقد أيضاً"، كانت تتعمّد تلك الضحكة مثل شابّة صغيرة.

"كنتُ أظنّ، بالمناسبة، أن النقّاد أكثر حزماً ودراية بطبيعتهم" تابعت مناكفتها، وهي تؤرجح قَدَمَهَا.

"وذلك ما أنا عليه كذلك" وضحك الثلاثة.

"أنا أُكِنّ احتراماً كبيراً للنقّاد حقيقةً"، كانت تعبث، ذلك ما شعر به ياستراو. "ولا أفهم كيف بإمكانهم معرفة فيما لو كان ما يقولونه هو الصّحّ بشأن كتابٍ ما".

قهقه رابِن. "بالمناسبة، لا بدّ وأن يكون المنصب كبيراً، والراتب محترماً، في اعتقادي"، علّق بِنِيَّةٍ حسنة، واعتدل في جلسته، وهو ينظر بعينَيْه الداكنَتَيْن صوب ياستراو.

شعر ياستراو برغبةٍ في اللعب، كما لو أن انتقالة قد حصلت في حياته.

"نعم، عال العال" قال ومدّد ساقَيْه. "أعيش من دون هموم، ولديّ إمكانية لدفع ثلاث كؤوس دوبونيه".

"ولكنها وظيفة، تخلق أعداء" قالت السَّيِّدة كرويه.

"وكيف تتصوّرين أني استطعتُ مواصلة حياتي؟" شعر ياستراو وكأنه كان فنّاناً بارعاً، لا تهمّه اللعبة أيّاً كانت، حسبه أن يلعبها. "هل هناك من شيء أكثر حِدّيّة من ذلك،" وتابع "أكاد أُقسم أن اللغة الدنماركية لا تكون بأحسن أحوالها إطلاقاً إلا حين يُجلَد الكُتّاب جَلْداً، يكاد القارئ يسمع صوت السياط في هكذا مقالات، ألم تلحظ ذلك؟".

"بلى، السلطة شيء عظيم" أجابه رابِن بحسرة.

"نعم، السلطة شيء رائع" ضحك ياستراو منتصراً.

لم يشعر بحجم منصبه ومسؤوليّته قبل الآن. ملأتْهُ الفكرة بالسعادة. شعر برغبة بالتباهي، وهو يُحدِّق بعينَي السَّيِّدة كرويه اللعوبتَيْن المتربِّصَتَيْن.

"لم أعرف أنكَ متعطّش للدماء" قالتْ له.

"تعطُّشٌ للدماء، سيِّدتي" وشَنِفَ شَفَتَهُ مثل ذئب "الوحشية تُحرِّض المخيّلة، التّعطّش للدم يَشحذُ اللغة، دائماً، خُذي، على سبيل المثال، مراجعات الناقد المادحة ومراجعاته الذّامّة، وَضَعيهِما جنباً إلى جنب، سترين أن الذّامّة هي القوية. مضبوطة قواعدياً، وهي تمور كذلك، مُحبَكَة، صقيلة، صور مباغتة، جديدة وهائلة ببشاعتها. مَنْ ذا الذي قال إن الشّرّ لا يُبدع؟ بينما تجدين المراجعات المادحة دوماً مثل خِرقة، كتابة مهلهلة، نتنة." وضحك.

"صحيح، السلطة! ولا شكّ عظيمة" قالها رابِن وهو يفرك يَدَيْه.

مالت السَّيِّدة كرويه بجسدها إلى الأمام صوب ياستراو، ووضعت يدها على ذراعه.

"لا أظنّ أنكَ تقصد ما تقوله، ولا كلمة منه".

"ولِمَ لا؟" سألها بسخرية. "ما السبب بظنِّكِ وراء بقائي في الوظيفة عاماً بعد، وبراتب منتظم؟ هل تعتقدين أن ذلك من أجل أن أكون معشوقاً من قِبَل هؤلاء الذين أمدحهم؟ هه هه، الشعراء يرون أن ذلك معقول جدًّاً مثلاً، ولكنْ، إن مدحتُ زميلاً لهم أصير جباناً. لا، أنا باق حقيقةً، لأن المعارك الضارية شيء جيّد. أنا أُحبّ سماع -سكريب- يغنّي[*]. هو هذا، وإن استقلتُ في يوم ما أو تمّ طردي، وهو ما آمل أن يحدث بعد أمدٍ طويل، فأنا أريد لإسمي أن يُثبَّتَ على عمود الأسماء في الجريدة، حضرتكِ تعرفين ذلك العمود، أليس كذلك، سيِّدتي؟ ولكني أعرف بأني سأظلّ أحنّ إلى ذلك الصوت، صوت السوط في اللغة؛ إنه سكريب الذي يصيح!".

"أنتم لستُم مثاليّيْن حقيقة" اعترضه رابِن بابتسامة مزدرية خفيفة.

ولكن ياستراو واصل اللعب.

"هناك نقّاد يدورون ويجولون طوال اليوم، ويُصفّرون مثل أولاد مدارس صغار عندما يكون هناك سجال. عندكَ حقّ، هناك الكثير من المتعة والانتشاء وإرضاء الغرور في ذلك".

اتّكأ بظَهْره إلى الوراء على الكرسي، وأظهر أسنانه ثانية، كان يتململ بداخله. كان بإمكانه أن يغنّي الكلمات كلها التي قالها، لَمْ يقرب أيٌّ منها من الحقيقة في شيء. ولكن السَّيِّدة كرويه كانت ماتزال منحنية بجذعها إلى الأمام تجاهه مُبحلِقة فيه، ولم يستطع هو أن يتجنّب هذه النظرات. ما الذي تريده؟.

---

*) اسم السيف المُفضّل لدى الملك فيرموند الذي كان حاداً جدّاً يقطع من دون أثر على نصله

"لا أعتقد أنكَ تعني ذلك؟" قالت له بشَفَتَيْن مزمومَتَيْن.

"ألا تعتقدين؟" جاءت ملحّنة.

في تلك الأثناء، سمع صوت خطوات غير منتظمة، وعصا تخطّ على الأرض، وصوت هامس "هل بإمكانكَ المشي؟". فرّت سيِّدة كرويه في مكانها. ترنّحت القامة العريضة في الخلفية من البار. بدا المشهد وكأنه مشادّة.

"ماذا حدث؟" قالت بنَفَس منقطع.

اقتربت حينها القامة والذراعان على كتفَي النادلَيْن الصغيرَيْن من الجانبَيْن. كان هو الخالد كيير بعينه. ثمل حدّ العمى. كان سينطح الحائط، لولا مَنْ قادوه. مرّ الموكب ببُطء وبحذر من أمامهم.

"مَنْ كان هذا العجوز؟" سألت السَّيِّدة كرويه، وقد تقرفصت من البرد.

"عجوز؟" ضحك ياستراو. "إنه لم يتجاوز الخامسة والأربعين".

ونظر إلى ساعة البار، وابتسم "بلى، تماماً، الساعة كانت الرابعة والنصف تماماً".

"أوه، لا أستطيع نسيان ذلك، مازلتُ أرتجف" قالت السَّيِّدة كرويه وهي تنفض رأسها.

ضحك رابِن.

"لا، لا تضحكْ هكذا" قالت بعصبية، ونظرت فجأة إلى ياستراو نظرة حادّة، حانقة تقريباً.

"هل تصير هكذا أحياناً، سيِّد ياستراو؟".

ابتسم ياستراو.

"لا أظنّ، أنا غير مُلتزِم بنظام بطبيعتي مثل كيير".

ضرب رابِن بيده على فخذه.

"مثل كيير" ردّدت السَّيِّدة كرويه. بدا الرعب في عينَيْها، تغيَّر سريع في اللون الرصاصي المشرق. "هل تعرفه حضرتكَ؟".

مال ياستراو نحوها مازحاً، وبحميمية، قال لها "إنه من أقرب أصدقائي" قال لها.

هزّت رأسها، وقالت "غريب، كيف ينظر الرجال إلى مثل هذه الأمور؟ لم أسترجع هدوئي بعد. هلا غادرنا؟ بلى، دعونا نذهب، أليس كذلك؟ البار مظلم جدًّاً."

على الرصيف الذي أضاءتهُ الشمس، مشت السَّيِّدة كرويه، وهي تتأبّط ذراعَيْهما مُندسّة بينهما.

"حين تشرق الشمس ننسى" وضحكت "عجيب لأني في العادة أُحبّ هذا البار، وأشعر أنه مكان حميمي".

"كان عليكِ أن تحتسي كوكتيلاً" علّق رابِن بِتَعَالٍ.

غمز ياستراو، كان يشعر بالكحول في دمه. المواصلات من حوله كان كتلة صلدة متحرّكة. الأفكار والكلمات كانت واحدة، الحياة محض شلال. وابتسم لنفسه.

"اسمع، بالمناسبة، صحيح ما قلتَهُ" قالت السَّيِّدة كرويه وهي تضغط ذراعه.

"لقد كتبتَ مؤخّراً عن كتاب إيرلندي حديث، صح؟ أعتقد عن الأوديسة".

"كان فولدوم مَنْ كتب ذلك المقال."أجاب ياستراو."كان جويس، يوليسيس".

"هل تعرفها؟".

"لا، ولكنها عندي".

"عندكَ؟ هل بإمكاني استعارتها؟" سألتْهُ بحماسة.

نظر إليها بانطباع تهكّمي.

"هل لديكِ قُوّة عضلية؟" سألها ممازِحاً وهو ينظر إلى قامتها الرفيعة.

"سؤال مثير".

"ليس هذا، ولكن الكتاب سميك وضخم وصعب المواصلة فيه، ومشهور، يحتاج إلى عضلات لقراءته."

"هل يمكنني استعارته؟".

"نعم، بالطبع، سيِّدتي".

"ياه، ها هي جريدتكَ،" علّق رابِن. كانوا قد توقّفوا أسفل مبنى جريدة الـ -داوبلاذيت-. "أعتقد أننا نستأذن، لنغادر".

لا يدري ياسترواو إن كان ذلك هو حضّ، لكي يختفي، ولكنه آثر أن يفهمه بهذا المعنى. "نعم، عليّ أن أصعد إلى الجريدة". "عليّ أن أصعد".

ودّعهما، ومن جديد، استقرّت عينا السَّيِّدة كرويه غارقة فيه وباحثة. ما الذي تريده تلك النظرة؟ آه، يا إلهي! هل كان مهتمّاً بها؟ وعلى الرغم من ذلك، لم يستطع منع نفسه من الانقياد إلى تلك النظرة المُشعّة الخبيرة. كان عليه أن يُحدِّق في عينَيْها، يبتسم، يُغيِّم بصره، ولكنْ، فقط لثانية خاطفة.

انتزع نفسه من عندها، وادّعى دخوله إلى الجريدة عبر الباب الدّوّار.

استدار مع الباب، وخرج ثانية، وقد كانت السَّيِّدة كرويه ورابِن قد اختفيا. كانت ماتزال ماثلة أمام عينَيْه. هل كان شَبَقاً؟ رابِن؟ ولكنْ، انسَ ذلك. دع الباب يدور، وبعيداً عن هذا كله. وداعاً.

ها هو يقف مرتفعاً بعلو دَرَجَتَيْن من الشارع، وبإمكانه الآن أن يتحدّر ويُدمِّر نفسه بِحُرِّيّة تامّة. كان وعيه بذلك يجعله يشعر بتوسُّع مداه. ليس هناك من شيء مؤلم في هذه اللحظة، فقط لأنه سلّم نفسه إلى قَدَره.

عليه الآن الذهاب إلى البيت. البيت؟ ارتسمت ابتسامة متعرّقة صغيرة على شَفَتَيْه بينما كان يتسكّع على الرصيف. هل كان بيتاً؟ بضع غرف آوتْهُ، وهو أوى مَنْ؟ ستيفينسن! آنا ماريا!

أشرقت فتاة جميلة عند بوّابة مبنى سكالا. جميلة جدّاً، منتصبة القامة. هل يستدير ليُقنِعَها؟ آه، وتلك الكلمات السخيفة التي عليه أن يردّدها! كان بمقدوره الشعور بأنه عاش في زهد. اشتعلت صورة الفتاة وسط الشارع.

انظرْ إليها ثانية. ضحك في عينَي فَتَاتَيْن، وقال "احم"! هذا الكلام المعسول وما يتبعه من لغو إلى آخره. لكنه مضى في طريقه، لم يستغلّ ذلك رغم كونه حُرّاً الآن في الانحطاط والنزول إلى القاع.

سمكة في ماء مُفضَّض بالشمس. المباني وخطوطها الحادّة والمرور. مكان ما في دماغه لمع بالكوكتيل.

في تلك الأثناء، ترجّلت امرأة بثياب سود من التِّرام.

ماتت والدة ستيفينسن. شيء حادّ من جديد. يحوط قدر ستيفينسن شيء من التّخشّب والقساوة، شيء لا يمكن، ولا يقتضي تطريته.

ضمّ ياستراو شَفَتَيْه. لِم عليه الانشغال بقَدْر الآخرين؟ كان أمرا حسناً، وفعلاً خيرياً أن يستمع ذات مساء إلى إنسان يتواصل معه، يستنشق الحرارة والحميمية. كان انتشاء. ولكن ستيفينسن لم يتواصل معه. كان متعجرفاً بانغلاقه مثل لغز. ههههه، لغز؟ هو؟ لا، ليس سوى أُحجيّة كلمات متقاطعة مزعجة، وبالنهاية، يتمّ حلّها. وان كان ستيفينسن الآن يجلس مع آنا ماريا في البيت، ....، سيكون هناك من جديد مشهد مسرحي. لِمَ اختارا تحديداً شقّته، لتكون مسرحاً لهما. لا لا، عليه الإسراع في إنهاء الوضع معهما. لم يعد من الممكن احتماله.

شعر بالوحدة في ظلّ شارع ريفينتلوسغيذه، تخاطف بين السَّيَّارات، مشى متعرّجاً على الرصيف، كما لو كانت رغبته أكبر بالعبور إلى الجانب الآخر. كان يريد، بالطبع، أن يكون وحيداً، بلا أمل، إن، ... نعم، كان هو هذا. عليه أن يُبقي هذَيْن المخلوقَيْن يدوران من حوله، وإلا فلا حياة له، لا حياة يعيش من أجلها، ههههه، يا إلهي، ألا يمكنه الاستغناء عنهما؟ ذلك مضحك جدًّاً. ستيفينسن؟ آآآ، ربمّا، ولكنْ، آنا ماريا! إنها مريضة، مريضة. حُبٌّ؟ منحنيات جسدها اللّيّنة. امرأة. شيء ما يدور من حولكَ، ويداعبكَ .... ربمّا يكمن ذلك هنا، ربمّا، شيء ما له انطباع الخائف في نظرته، و ...

شيء لا يمكن مسّه.

ها هي. أمّه تُوفّيت مبكّراً. مثال المرأة المقدّسة.

فكرة! أو تقريباً فكرة، حلّ!

عند البوّابة، وقف حارس البناية أحمر الشَّعْر "لديّ مشترٍ للغرامافون الذي لديكَ".

"ولكني لا أنوي بيعه" أجابه ياستراو بتهكّم.

"أعتقد ..".

"لا، لا" غنّى ياستراو جوابه ممازِحاً إيّاه، ومشى غير مهموم، ليصعد السّلّم. فكرة ما كانت قد تسرّبت، وراحت.

كانت آنا ماريا وحيدة في البيت.

شيء ما له نظرة مرتعبة. كانت جالسة تخيط فستاناً ... شيء لا يمكن مَسّه.

"هل لديك فستانان؟" سألها ياستراو ضاحكاً، وجلس مقابلها. "لم أكن أعتقد ذلك".

نظرت إليه مرعوبة.

"أين ستيفينسن؟" سألته.

"لا أعرف".

"هل تخاصمتُما؟"

"لا، للأسف".

وضعت الفستان في حضنها، وبَحْلَقَتْ فيه.

"ألا تحبّ ستيفان؟".

لم يجب ياستراو أوّل الأمر. نظر في عينَيْها المبيضَّتَيْن مازحاً، ولكنْ، بحساسية. لمَ توسّعت الحَدَقَتَان حتّى صار اللون حليبياً؟ وجه أنثوي ضعيف، وكأن تشكّله لم يكتمل بعد. كم كان من السهل إيلامها! والدة ستيفينسن قد ماتت. ألم يكن هذا كما لو تلعب بسكّين؟.

"هل تحبّه؟" سألته فجأة.

انتشر احمرار دفعة واحدة على رقبتها، والجزء الأسفل من خَدَّيْها، وكأن جِلْدَها قد احترق. زمَّت شَفَتَيْها، ثمّ أرختْهُما. لا شيء متماسك فيها. تُوشك أن تبكي.

"كيف يمكنني أن أعلم" أجابت. اللُّكْنَة الأورهسية بدت حزينة جدًّاً، ويائسة.

ابتسم ياستراو بلُطف لها. لم يكن يجرؤ على فعل شيء آخر.

"لا، ليس من السهل ذلك".

"بلى، ألا يجب أن نعلم؟ ولكني لا أعلم، لا أعلم".

لمعت دمعة في عينَيْها.

استدار ياستراوا بنظره خجلاً إلى سطح الطاولة. كان مُترباً. بالإمكان الرسم عليه بالأصبع.

"أنا سعيد اليوم" قالها من دون مقدّمات. "هل تودّين الذهاب معي إلى تيفولي؟".

ونظر إليها ثانية. هو نفسه ظنّ ابتسامته تافهة.

"ولكنْ، ليس لديّ فستان لأرتديه" قالت مرتبكة.

"لديكَ اثنان".

"لا تمزحْ معي هكذا" توسّلتْ إليه. "وحضرتكَ ترافق خادمة، في تيفولي".

"ولكنها ليست المرّة الأولى التي أخرج فيها مع خادمة" ضحك، وجعلها تضحك.

"أنا الآن في هذه اللحظة سعيد" واصل، ليُقنعها "وستخرجين معي الآن قبل أن أُغيّر قراري".

"ولكنْ ... ستيفان؟".

رفع ياستراو حاجبَيْه ساخراً.

"هل سيغار؟".

"آه، كل شيء".

ضحك ياستراو. "صحيح، لعلّه أدقّ ما يُميّز حالته الذهنية، كل شيء".

بدت آنا ماريا غير مستوعبة لما قال إطلاقاً.

"عليّ، إذنْ، أن أذهب وأُجهّز نفسي" قالت له.

عندما نزلا درجات السّلّم معاً، نظر إليها ياستراو، وابتسم. الجاكيت والفستان كانا حائلَيِ اللون رثَّيْن، وكعبا الحذاء على وشك الاعوجاج. في جيدها، كان هناك قلادة وردية، دكن لونها لقِدمِها. فكّر أن عليه أن يتأبّط ذراعها، لأنه ندم على ابتسامته تلك.

"أتمنّى ألا يكون هناك ثقب في جوربكِ" قالها بغبطة غريبة، وضحك.

سحبت ذراعها منه بنرفزة.

"أرجوكَ، لا".

ولكنه واصل ضحكه. "وإلا وقعتُ في حُبّ حضرتكِ".

"لن أذهب معكَ" قالتْها بسرعة وفظاظة.

"ما هذا الكلام؟".

"أنتَ لا تنوي غير جعلي أضحوكة" قالتْها بخوف.

وضع حينها ياستراو يَدَيْه على كتفَيْها، أدارها إليه بقُوّة، ونظر عميقاً في عينَيْها.

"هل أبدو شخصاً ينوي الضحك عليكِ؟" سألها بحدّة، فأزاحت عينَيْها بعيداً عنه.

"لا، لا" زفرت أنفاساً حارّة. باللحظة، لمعت الخبرة في عينَيْها، فرفعت رأسها بحركة جسورة إليه. "تبدو وكأن حضرتكَ تودّ تقبيلي".

عندها قبّلها ياستراو برقّة. كانت قد أمالت برأسها إلى الوراء متوقّعة منه قبلة حارّة.

كان مُجرّد مرور خفيف عابر بين الشفاه، شيء غير ملزم.

شيء لا يمكن مَسّه.

"إذاً؟" قالت آنا ماريا.

ظلّ ياستراو واقفاً في مكانه، يتأمّلها برقّة. مَسَّدَ حاجبها الأيسر فجأة راسماً قوساً.

"أيّتها الطفلة الصغيرة، لنذهب" قالها ببطء.

كانت قامة آنا ماريا أكثر انتصاباً، وهي تسير إلى جانبه في الشارع.

"لستَ سوى ولد كبير سمين" قالتْها ضاحكة، وهي تنظر إلى الأسفل لأطراف أصابع قَدَمَيْهَا.

كانت تيفولي مغمورة بآخر أشعّة للشمس، إسفلت شديد البياض بين الأشجار الخضر، الجذوع مغبرّة رصاصية، وقد علا الممرّات حرارة صيفية سديم خفيض، هواء جاف مُكهرَب.

"ها هي تيفولي" انبرت آنا ماريا قائلة. وتنشّقت الهواء عميقاً. وإثر المفاجأة رنّ صوتها بلحنه الأورهسي. وقد تذكّر ياستراو أنها في الأحوال كلها بنت ريفية صغيرة، وقد لا تكون زارت هذا المكان من قبل. لربمّا سمعت حسب عن المكان عندما كانت طفلة.

"هل زرتِ تيفولي من قبل؟"

"لا، أبداً" وانطلقت في اللّغو. نعم، فقد كانت مغامرة كبيرة، بالنسبة إليها. والدها مَنْ حكى لها عن المكان، وَصَفَهُ لها بشكل رائع عندما كان جندياً. الله يعلم كيف بدا والدها؟ لم يجرؤ على سؤالها عن مهنته. عاملاً؟ وابتسم مُتعاطِفاً ثانية. ثقب في جوربها! ذلك التعاطف المُتّقد الخطر ملأ كيانه بالحلاوة مجدّداً، ومن السهل تحوّله إلى إيروتيك.

هل يعمل لها فسحة، لترى تيفولي كلها؟ كان هناك المسرح الصيفي الذي بُني على الطراز الإغريقي. بهلوانيان بالأسود والأبيض بمؤخّرَتَيْن مشدودَتَيْن وعضلات سيقان بارزة، يقلبان بالهواء صوب الذهبي والأزرق في السماء. هل يقفان هادئَيْن، ليُحدِّقا مع المتفرّجين؟ أدّت التَّحيَّة لبروفيسور شابّ من الجامعة الذي تأمّلَ آنا ماريا بعينَيْه الزرقاوَيْن البنفسجيَّتَيْن من خلف نظّارته. أجل، في الأمر لغز؟ ابتسم ياستراو، ووقف برقّة لصق آنا ماريا التي كانت تحدِّق بالبهلوانَيْن.

كان المتفرّجون محتشدين. انظر! انظر! برز وجه من السماء، كان أزرق دموياً، وكأنه يكاد ينفجر. كان يقبض بين أسنانه على أداة، تنتهي بعجلة فضّيّة لامعة وحلقات، وفي الحلقات، يعمل رجلان وامرأتان الحركة البهلوانية "عشّ السنونو"(*) بينما العجلات كانت تدور.

كانت آنا ماريا مندهشة ومتأثّرة.

إضاءة الحديقة كانت أيضاً جديدة بتصوّر ياستراو، أم انها قديمة من عمر الولد في صغره. انطلقا يتمشّيان ثانية. انظر إلى هناك، مسرح البانتومايم بستارة ذيل الطاووس. قطعا الدرب باستدارته المعتادة حذو الممرّات الإسفلتية بين المتنزّهين. وهناك كان البهو الموسيقي بالطراز المورسكي. يتهادى المرء بالعادة في مشيته داخل هذه الحديقة، تهاد ذو دندنة. وهناك البرج الصيني.

لم تشحب المباني بعد في الغروب ما بين الأشجار. كانت تبدو واضحة المعالم، تقليد صريح تحت وهج الغروب الأحمر، وما كان جميلاً ومثيراً هو أنها لم تكن حقيقة تحديداً. لمعت الأفعوانية من طبيعة الألب بألوانها. لم تكن الجبال جبال الألب وتلك الفوانيس الملوّنة في محيط الزهور حذو البحيرة المُعلّقة بأسلاك حديدية صدئة، ولم تتحوّل بعد إلى ورود نارية.

الأقواس المضاءة الكبيرة التي تسنّمت الممرّات، وكأن أوراقها قد تفتّحت بين ذُرى الأشجار، تشبه لعبة الكروكيه للأطفال الكبار أكثر من أيّ شيء آخر.

"أنتِ لم تري ابني" قال ياستراو.

"لا".

"لا".

---

*) عشّ السنونو جزء من الحركات البهلوانية، تكون في التّعلّق بالأرجوحة البهلوانية، بواسطة الركب، ومسك الأقدام بالأيدي للأربعة في المجموعة.

"ولكنْ، لننسَ ذلك" قاطعها ياستراو، وقد شعر لحظتها بنفسه موزّعاً مُتهكِّماً. "لقد راح في مكالمة هاتفية" قالها بدعابة. "كل شيء قد راح، ولكني، بالمناسبة، سعيد جدّاً اليوم. عليّ حقّاً أن أتذكّر ذلك".

"حقّاً؟" سألتْهُ آنا ماريا. شعرت بأن عليها أن تقول شيئاً.

"نعم، صِدْقاً، لقد ارتكبتُ أكبر حماقة في حياتي اليوم، واحدة من أكبر الحماقات".

"هل يسعد المرء جرّاء ذلك؟"

"نعم".

دخلا كابينة المرايا، ينظران إلى وجهَيْهما المشوَّهَيْن بين أشكالها المختلفة. صارا سمينَيْن، مدوَّرَيْن، وضحكا، استطالا، ونحفا، جذعان طويلان، وسيقان كسيقان غُرير العسل القصيرة، وأخيراً تنفّسا ملء رئَتَيْهما لمظهرَيْهما الطبيعيَّيْن، ومحوهما لصورهما المشوّهة. في الحقيقة، فقد بدت آنا ماريا بنتاً لطيفة في المرآة، ربّما خرقاء بعض الشيء، كما لم يحالفها الحظّ في ذقنها الدقيق، ولو لم تكن مريضة وباهتة الجِلْد حسب، لو كان لها حمرة على خَدَّيْها مثل البائعة في محلّ الألبان، لو كان هذا حسب، لكان من السعادة أن يتمشّى معها. وضع ياستراو يده على كتفها، وأدارها بعيداً عن المرآة، لمح وجهه للحظة في المرآة، البنطلون فاتح اللون بالمُربَّعات الصغيرة والجاكيت الأسود، مزيج من عازف جاز أسود، وطبّاخ بَحْرِي في إجازة، ثقيل بعض الشيء، هذا هو مارآه، وهو ما يكفي.

هكذا بدا كل منهما، على أيّة حال.

"ولكني في مزاج ممتاز" قال ياستراو برقّة.

هبطت الظلمة في الحديقة. أُضيئت السماء المسائية بالزرقة بين ذُرى الأشجار السود. رائحة أزهار الفيولا في الأجواء. وأُضيئت المصابيح الكهربائية في المطاعم والمباني الأخرى.

كان صوت أزيز قوي، ينطلق من الحشود، كما لو كان في غابة عند الغروب. الأحذية اللّمّاعة والعيون البرّاقة سطعت في الظلمة. واقتربت آنا ماريا كثيراً منه في مشيها إلى جانبه.

ولكنْ، لِمَ صار الآن أبوياً، وأخذها تحت ذراعه؟ كانت برودة عَتَمَة قمم الأشجار مردّ ذلك. كان ربّما أيضاً هو ذلك التصادم بين الألحان المنطلقة من مختلف الفِرَق الموسيقية الذي انساب مثل طنين حشرات في الأجواء هذا المساء. كان أيضاً، ولا شكّ، هو دمدمة الناس، وكل ما هو

مشوّش وحَيّ، التناغم بين الضوء والظّلّ، أجل، كان ولا شكّ، الناس أيضاً سبباً لذلك. لقد فعل ما يفعله الآخرون.

تاها داخل هضبة صغيرة اصطناعية في الحديقة، بكهوف وجحور، تصاميم من طراز الروكوكو البائسة وهندسة الحدائق، ولكن الضوء كان خافتاً من الأحمر والأخضر داخل الجحور، أحواض كبيرة بأسماك سابحة، وأناس وقفت ساكنة مندهشة أمامها بظلال شاحبة من اللونَيْن الأحمر والأخضر في وجوهها مثل وجوه الفقراء الكئيبة أمام زجاج المحلات.

"هناك أسماك" قالت آنا ماريا بطفولية، وجرّت ياستراو أمام أحد الأحواض.

دفعة أسماك كبيرة حمر تابعت بعضها، تنتف الطعام بأفواهها الناعمة، من خلفها، كانت هناك أفواج من أسماك الفرخ المخطّطة، حشد من أذيال أسماك وزعانف متحرّكة، بينما صعدت الفقاعات إلى أعلى عبر الأعشاب الخضر في الماء المضاء. ثعبان الماء الطويل بجسمه اللاصف يمرّ في الحوض مثل ساق نبات.

ما هي إلا لحظات حتّى وقف ياستراو مُنوّماً مغناطيسياً كسائر المتفرّجين من قِبَل الأسماك وحركاتها الزلقة.

سرت رعدة مُفاجِئة في جسده. كان هناك وسط الحوض سمكة بلون اللؤلؤ الرمادي ساكنة من دون حركة، بوضع مائل، وقد دفنت برأسها المنقاري في الرمل. شعّت منها قُوّة مُرعبة مُلفِتة. كانت مُدرِكَة لقُوّتها.

ولا يمكن فهم السبب في عدم رؤيتها من الوهلة الأولى. كانت في المركز، مُرعِبة، رابطة الجأش. وحين حرّكت عينَها، بومضة سريعة، سرت انتفاضة كهربائية فيها.

كانت تلك سمكة البيك.

"لمَ لا أستطيع نسيانها أبداً؟" قال ياستراو، ومشيا.

في مطعم "ديوان 2" كانت المصابيح متّقدة في صفّ العرائش الممتدّة الموصولة إلى المطعم. عرائش ولبلاب مرفرف احتفالي، معمار ذو طراز رومانسي رقيق.

"سأطلب لنا سرطان البحر، وعليكِ أن تباركي لي غبائي هذا اليوم" قال ياستراو بانشراح، وهو يركل الأرض بقَدَمه جانباً.

"الناس لا تتمنّى مباركة مثل هذا الشيء" أجابته بجدّيّة.

"بلى، يفعلون، وعلى الناس أن تضحّي للآلهة بفعل غبيّ، على الأقلّ مرّة بالسنة".

وجلسا عند إحدى الطاولات، طبق سرطان البحر بحجم كبير، ونبيذ أبيض بينهما. نسيم مسائي عليل يحرِّك اللبلاب خفيفاً، والموسيقى في البعيد مثل طنين سرب من البقّ، بين الحين والحين مثل صوت حشرة وحيدة رفيع مهتزٌ بالقرب من آذانهم. صوت بغاية الجمال.

كان لآنا ماريا نظرة السائر في نومه، تُحملِق ضائعة عبر ياستراو.

"لا أفهم ..." قالت بعجز، ولم تستطع المواصلة، وكأنها لم تصحُ بعد.

داعب ياستراو يدها القصيرة التي كانت على الشرشف. كانت نظرتها تجول متفحّصة، وكأنها في طريقها، لكي تصحو.

"هل تُصدِّق، أنا تعيسة جدًّاً .. و .." تحرّك حاجبها. "ولكني لا أشعر بهذا الآن ...، كيف يمكن هذا؟"

"ذلك لأنكِ معي" أجابها ياستراو مازحاً.

أجبرت آنا ماريا نفسها على الابتسام، ومسحت جبينها.

"هلا شربنا الآن؟" اقترح عليها ياستراو.

"بلى بلى، مبروك لحضرتكَ ذلك الشيء الهراء" قالت وهي تتأمّله. عيناها كانتا قلقَتَيْن، مرّة حاضرة قريبة، ومرّة بعيدة.

"لا، فقط للحماقة" ضحك ياستراو.

"بلى، حماقة، هي فعلاً كذلك، ولكني غبية جدًّاً، أنا ..." وفجأة انفجرت بضحكة عالية بعض الشيء، فنظرت إلى ما حولها مفزوعة، وانكمشت.

رفع ياستراو كأسه الساطع بالنبيذ، وابتسم. كانت يدها مبيضّة إلى جانب سرطان البحر بلونه الأحمر. ولكنْ، عليه ألا يفكّر هكذا؟ بشكل جمالي وتعالٍ! إنها ليست سوى امرأة صغيرة من لحم ودم. آثمة. من أين أتتْهُ هذه الكلمة؟ لبلاب، هواء عليل وانتشاء! ولكنْ، هذه الكلمة!

حيّاها بكأسه. وردّت التَّحيَّة عليه بربكة.

أمسكت بعدها بالكأس بتماسك، من دون تمايل، من عظمة من حولها، من دون ساق زهرة.

وتشتّت ثانية.

"أنا الآن معكَ" قالت فجأة بينما مازالت تعبره بنظرها إلى البعيد، إلى جوانب سقائف اللبلاب، إلى الفضاء. "لماذا عليّ، إذنْ، أن أتذكّر طوال الوقت أني لا أحبّكَ".

"مهلاً مهلاً مهلاً" قالها ياسترا و بموسيقية، ولكنْ، بابتسامة حنينة.

كانت عيناها منفتحَتَيْن على وسعهما.

"لا" قالت "ولكنْ ..".

ونظرت إليه لثانية في عينَيْه، لقاء قلق، مزيج من الضوء والروح، باختلاج ورجفة مثل أشعّة زوج من بروجكترات، تحاول أن تستقرّ على بعضها.

"كان لديّ صديقة. اسمها آغنس "وواصلت وهي تحرّك نظرتها "كانت مخطوبة لرجل شابّ. ولكنها ... خانتْهُ ... مع أبيه". تناولتْ بعضاً من سرطان البحر. "عندما تكون مع الأب تحبّه، وعندما تكون مع الابن تحبّه" قالتْها بسرعة، ولكنها توقّفت للحظة، وحاولت ببطء القول "وكانت تظنّ، ...،لا ...، ما قالتْهُ لي، إنها كانت فعلاً تحبّ خطيبها في البداية".

نظر ياستراو إلى الشرشف، ليتحاشى عينَيْها.

"هل هذا صحيح؟" قالتْها بموضوعية مُستفسِرة.

"لا بدّ وأن يكون صحيحاً، طالما أنها أخبرتكِ بذلك".

لم يجرؤ على النظر إليها. لقد شعر بتيّار جارف من العاطفة.

"لا، ما أقوله كلام فارغ. أنا لا أفهم شيئاً كذلك" علّقت بحزن.

تناول ياستراو قطعة من الخبز الفرنسي.

"أنتِ ..." ولم يقل المزيد، لأنه لحظ كيف كانت الخبزة تتفتّت بين أصابعه ...، لقد كسر الخبزة. وسرعان ما وضعها جانباً، وكأنه قد احترق. لقد كسر الخبز! لقد كسر قطعة الخبز! ذلك الإيماء الورع حين يحتسي الكحول مع النساء! هذا المسيح الذي يقيم في دمه!

لا، لا.

صرّ عينَيْه، ونظر إلى آنا ماريا فجأة، حدّق بها، وكأنها كانت السبب في هذا. لا!

لا. نظرتْ إليه. ذاب الخوف في عينَيْها قليلاً قليلاً، ولمعتا. لم يكن بمقدورها أن ترفع عينَيْها عنه. كانت عاجزة، متروكة، انفتح فمها، وتراخى حَنَكُهَا.

"هل تعرفين أن والدة ستيفينسن توفّيت؟".

جاءت مثل ضربة سكّين. لا مسيح هنا! لا رأفة بامرأة خاطئة، ماريا المجدلية! عليه أن يعرف كيف يغسل نفسه، يصون نفسه.

للحظة، رأى الأبيض. في لمعان سكّين! وسمع رنين كلماته تتصادى في الفضاء، وتصير حقيقة. هل تعرفين أن والدة ستيفينسن ماتت؟

ندم باللحظة التالية، وقد آلمه ذلك، زمّ شَفَتَيْه، وحبس أنفاسه، كما لو أن ذلك بوسعه أن يمنع الكلمات من الوصول إليها، ولكنه أدرك المحتوم حين سقطت الشوكة من يدها. وترك ليَدَيْه أن تسقط على الطاولة، وهو ينظر إليها يائساً.

"آه، لا" تنهّد.

جمدت آنا ماريا بمكانها. انتشرت حمرة قاتمة من فوق قلادتها الوردية. بدت شَفَتَاهَا مُبلَّلَتَيْن مُتهدِّلَتَيْن تحت وهج مصباح الحديقة.

همست "أنتَ، إذنْ، تعلم كل شيء".

"نعم".

"وتعلم أني مريضة؟".

"نعم".

كانت على وشك أن تبكي.

"هل تعتقد أن من الممكن أن أُشفى؟ آه، حضرتكَ تعلم. تعلم الكثير. ولكنْ، أن يحدث ذلك. أن يصيب هانس كريستيان هذا المرض المقرف."

"هانس كريستيان!"قالها ياستراو مُستفسِراً. لم يكن فضولياً. كان كئيباً حسب. لِمَ انطلق السؤال الآن من فمه، وكأن الأمر يعنيه! لا عليها أن تجيبه. بدا متضرّعاً أمامها، ولكنها كانت مُسبَّقاً قد تهاوت في تيّار من الكلمات المشتّتة والمشاعر، ومثل السائر في النوم تجاوزت الحدّ؛

"نعم، سيِّد ستيفاني، وأنا، وستيفان. آه ما الذي كان بإمكاني فعله؟ لقد جئتُ من عائلة

حقيرة، وصار لي مكان عند الصيدلاني المحترم. السَّيِّدة ستيفاني، أوه، هل ماتت حقّاً؟ لم تكن حياتها سهلة. كانت حازمة، ولكنها عادلة. نعم، كانت عادلة، كانت تدور دائماً بجزمة ثقيلة طويلة ذات رباط. كانت هي التي قنصت هانس كريستيان. من النوع الذي ينال رغبته دائماً".

"لا عليكِ أن تخبريني بكل شيء" قال ياستراو مُستهجِناً.

"بلى، فما الذي تظنّه عنّي؟ وأنا أيضاً لستُ سوى بنت صغيرة غبية. كان ستيفان طالباً. كان مُتعجرفاً، كما هو الآن تماماً، ولكن بشرته لم تكن رصاصية، ولم يكن وسخاً وجافّاً، كما الآن. لا، ولم أكن قد وقعتُ في حُبّه، لكنه كان طالباً، ابن الصيدلاني الغني ستيفاني، وقد جاءني ذات مساء، وكنّا وحيدَيْن في البيت. ما الذي ستظنّه عنّي؟ حضرتكَ رجل طيّب جدّاً ...".

"لستُ كذلك" قالها، وهو يدير كأسه.

"بلى، هكذا أنتَ، وإلا لما قبلتَ أن تأوينا في بيتكَ. لم أكن أُحبّه، لذا لم يكن تصرّفي صحيحاً. ولم أكن أعشق هانس كريستيان كذلك، إطلاقاً. ولكنه قدّم لي شراباً، وذلك شيء له حسابه. ولكنْ، بالنسبة إلى ستيفان، فلم أشرب يومها معه غير شاي المساء".

ضحك ياستراو. "نعم" قال "ذلك يجعل الأمر أشدّ سوءاً".

"لا لا" بدت مفزوعة منه. "لا تضحكْ عليّ. والسَّيِّدة قد ماتت أيضاً. أنا في غاية التعاسة الآن".

"أليس من الأفضل أن نطلب قهوة الآن؟" اقترح ياستراو.

ولكنها انبرت قائلة باندفاع أكبر من قبل "ولكنْ، مارأيكَ الآن بي؟". لمعت عيناها. "كنتُ قد عرفتُ ستيفان لمُدَّة شهر ... أجل شهر فقط، وجاء ذلك المساء، جاء السَّيِّد بالمشروب، كان مشروباً فاخراً، راقياً، يشوب لونه اخضرار، لا أذكر اسمه، بالحقيقة، لم يكن مذاقه طيّباً، في رأيي، ولكني شربتُهُ بالرغم من ذلك، لأن ذلك بدا طقساً احتفالياً. وحدث ما حدث. ولكني لم أقدر أن أفعل شيئاً، ولم أجرؤ أن أُخبر ستيفان بما صار. لم أجرؤ، آه، كنتُ أعاني، لم يعلما بذلك، ولم أكن أجرؤ على النظر في عينَي السَّيِّدة، والسَّيِّد كان يجلس عند طاولة العشاء، ويرمقني، ويرمق ستيفان في الوقت نفسه، بدخوله وخروجه، كان يعرف كل شيء، ونظرته تلك! لِمَ فعلها؟".

رفع ياستراو كتفَيْه مُحرجاً، بينما راحت آنا ماريا تحدِّق بشرشف الطاولة.

"ولكنْ، هل تفهم حضرتكَ؟" ظلّت كما لو أنها تتحدّث في نومها بعينَيْن تتّسعان. انعكاس غير مريح لاصفرار بياض الشرشف في وجهَيْهما. "هل تفهم حضرتكَ أني قد أحببتُ ستيفان بعد ذلك؟. لم يكن لديّ خيار ثان. كنتُ أخدعه، مع أبيه، هل كان بوسعي أن أفعل شيئاً آخر؟".

بحلقت فيه، وأضافت بعجلة "لغو فارغ، أعرف، أليس كذلك؟".

"لا، لم يكن كذلك" أجاب ياستراو بتوكيد.

"وبعدها، ...، لا لا، لا أقدر" وفركت يَدَيْهَا. "هل تطالب حضرتكَ امرأة بأن تُفصح عن ذلك؟".

ونظرت إليه بعينَيْن وامضَتَيْن، ولكن ياستراو هزّ رأسه مبتسماً.

"أظنّ سأدفع الحساب، لنغادر" قال لها بهدوء.

لكنها تابعت بحماسة "ولكنْ، بعد ذلك، وقع هذا المرض، المرض المُقرِف. السَّيِّد كان في كوبنهاجن، وعندما عاد، آه، لا، هل تظنّ حضرتكَ؟ لا، هل تشفى المرأة؟ بما يخصّ الرجل شيء آخر، لا مشكلة، ولكنْ، المرأة؟".

"هل زرتِ الطبيب؟".

"آه، لا شيء يمكن أن يساعدني، لا أدري إن كنتُ مريضة أم لا. لا أدري شيئاً. لا حقّ لي بالعيش كالآخرين. ما الذي جنيتُهُ؟ هل كان شيئاً فادحاً؟ هل كان؟ أجل كان .. كان خطأ، ولكنْ ...".

وباللحظة، دفعت الصحون والكؤوس جانباً، وأخفت رأسها بين ذراعَيْها، وراحت تنتحب.

نهض ياستراو من مكانه دفعة واحدة، وأمسك بيَدَيْهَا.

"لا تقلْ لستيفان إن والدته توفّيت، وإلا سيضربني، ويعذّبني من جديد ..." زمّت شَفَتَيْهَا، كانت تفتح فمها وتُغلقه مثل سمكة.

"ولمَ أنتِ باقية مع ستيفان؟".

"إنه هو، لا ...، إنه، هو يظنّ أن ذلك من واجبه" صرخت بالكلمات الأخيرة. "لقد سرّحوني من العمل عندهم ... بالحال ...، رغم أن السَّيِّد هو مَنْ كان، ثمّ أنا، ثمّ ستيفان، لقد طردوني، هكذا بنت ساقطة، وهل أنا غير ذلك؟".

نهضت من مكانها، مسّدت شَعْرها المنسدل على جبهتها، وتثنّت بجذعها بانفعال وإثارة.

"هل أنا شيء آخر؟ هل أنا شيء آخر؟ أريد الذهاب إلى حلبة الرقص، لأرقص، أريد أن أستمتع، أريد أن أثمل تماماً، أريد أن ...".

مدّت ذراعَيْها، وارتمت بين ذراعَي ياستراو.

"وأنتَ سترقص معي طوال الليل. أنتَ جميل، جميل جدًّا. يجب أن ترقص معي ... ولكني مريضة".

وأخفت وجهها، وهي تنتحب في صدره.

ورفرف اللبلاب باحتفال من حولهما.

الفصل السادس

جلس ياستراو عند أحد طَرَفيَ الطاولة، ينظر طويلاً عبر النوافذ التي لم يتمّ تنظيفها من وقت لآخر. خطوط طويلة من ماء المطر ارتسمت مثل طحالب على الزجاج، وبين الحين والحين، يلمع ضوء ملوّن في أشكال النوافذ المتّسخة.

انعكاس يشبه ذاك من الكهرب، فكّر ياستراو، وحلم بستائر الجارة المُسدَلَة أمامه عبر الشارع، ولكنه أيقن بأن اللون تحت انعكاس الضوء لم يكن له علاقة بالكهرب إطلاقاً. انعكاس من الكهرب؟ من أين جاءه ذلك؟.

ولكنه شعر بتحرّره. ذهبت آنا ماريا إلى المطبخ، لتسلقَ البيض. كل شيء كان هادئاً في هذه الشّقّة المظلمة. كان ستيفينسن قد اختفى، ومايزال.

كم بدا المكان متداعياً ومُترباً. نهض من مكانه. هل عليه كَنْسه ومَسْحه؟ ضبّة عِيْدان الرزّ لل -فاستالاون- بالصور المُفضّضة في أعلاها! يجب أن يرميها. ولكنْ، لا يمكنه ذلك. ليس بعد. كانت هناك أوجاع، لا يمكن اجتثاثها ... بعد. عليه يوماً ما أن يقلعها. دسّ يَدَيْه في جيبَيْه، واستدار بكعبه، ودخل غرفة المعيشة. أولوف! لا، يجب أن تبقى في مكانها في الزاوية، باقة عِيْدان الرزّ، سيكون لديه على الأقلّ حزن مخزون في الزاوية ثابت وملوّن. حزن. باقة عِيْدان الرزّ الاحتفالية.

بإمكانه أن يمسح الأثاث. تناول منديلاً، ومسح إطار الصورتَيْن الفوتوغرافيَّتَيْن، الأمّ والابن. زفر بأنفاسه على الزجاج، وراح يُلمّعهما، وأعادهما أخيراً إلى مكانَيْهما. حركة يَدَيْن غريبة، إشارة رمزية، كان يقوم بها كلّما مرّ من أمام الصورتَيْن، لئلا يجلبا النحس إليه.

ثمّ جلس قليلاً على الكرسي الروكوكو، ينظر إلى التمثال الأسود النحتي.

أطلق ستيفينسن اسم سفينة على شقّته. ويمكن تسميتها أيضاً كنيسة صغيرة مُدمّرة، تنبت من الأثاث المُترّب من حوله، من الثياب المُبقّعة التي كانت عليه، مثل عازف جاز

أسود أو طبّاخ في سفينة، من الناس والأحداث. ولكنْ، يا لها من راحة، يشعر بها. لقد ذهب ستيفينسن. فجأة عرف أنه هو وستيفينسن دخلا مرحلة تمرّد وتصفية حسابات، روحياً أم جسدياً. ولكنْ، أين يقف؟

الآن وقد ذهب ستيفينسن.

"الأكل جاهز" صاحت آنا ماريا من غرفة الطعام. نهض ياستراو، ودخل الغرفة. شعر وكأنه كان في طريقه إلى بناء شيء جديد ثانية قليلاً قليلاً، حبّة غبار على حبّة غبار، وابتسم لآنا ماريا.

"شكراً للبارحة" قالت مثل بنت صغيرة مهذّبة.

قعد ياستراو على الكرسي، ومع البيض والخبز والقهوة، كانت جلستهما دافئة.

"لا ينقصنا إلا أن نتزوّج" علق ياستراو مبتسماً.

افتعلت آنا ماريا اختناقاً، وهي تبلع لقمتها، وأدارت بنظرها بعيداً خجلة. قالت راجية بعدها "لا، لن نتحدّث عن هذا".

وضع ياستراو يده على ذراعها العاري.

"عندك حقّ" أجابها فرحاً. "سحقاً ... بإمكاني تعيينكِ كمديرة منزل".

فأجابتْهُ بهزّة رأس مُتهكِّمة "نعم، أنا، في الحقيقة، هو الشخص المناسب، ...، وسخة مثل هذا المكان".

ونظرت إلى النوافذ "مثل زجاج النوافذ هذا".

"آ، ماذا بها؟" ضحك ياستراو "الطيور لم تستغلّها بعد".

"لا، لأن ذلك يعني فألاً حسناً" قالتْها بحسرة "والفأل الحسن، لا، غير موجود هنا، لا".

كان صوتها قد ارتفع بعدائية.

"بلى، أعتقد أني لمحتُ شيئاً منه" قال ياستراو بهدوء، وصبّ له قهوة. "وستكونين مديرة منزلي، وأنا سأذهب، لأستعيد وظيفتي".

"ما الذي ستفعله؟" سألتْهُ مُتفاجِئة.

فأجابها ياستراو بابتسامة صغيرة "لقد قدّمتُ استقالتي في الـ -داو بلاذيت- بالأمس".

"كانت تلك هي الحماقة، ... نحن ...".

"ولكنْ كيف سنعيش إذاً؟" قاطعتْهُ آنا ماريا. "نحن، أقصد حضرتكَ، بالطبع".

"بإمكاني الرجوع، واسترداده ثانية" قال ياستراو ببطء. كل شيء سيكون قد تمّ حلّه! استمتعَ بالفكرة كبهجة صغيرة مضيئة، كتخفيف من عبء.

"ولكن هذا غير ممكن".

"بلى، بإمكاني ذلك"،

"آه، الناس كلهم مجانين، حضرتكَ وستيفان ..." هزّت آنا ماريا رأسها حتّى نزل شَعْرها الكثيف على جبهتها.

"أجل، عدوى جنون ستيفان انتقلت إليّ، ولكنه قد راح الآن".

"أين هو؟ هل تعرف حضرتكَ؟" سألتْهُ آنا ماريا بارتباك. "آه، أرجو ألا تُخبره عن وفاة أمّه، أنا مَنْ سيدفع الثمن. لا تفعل حضرتكَ ذلك، هل ستفعل؟".

"لا لا، وهو قد اختفى الآن" قال ياستراو ليُطمئنها.

"ولكنه سيعود ثانية، سيعود، سيعود" قالتْها مضطربة. اشتعلت الحمرة من جديد، وانتشرت على رقبتها، وبحركة يد عنيفة، أبعدتْ شَعْرها عن جبهتها.

"لا لا، لِمَ سيعود؟" سأل ياستراو مُنزعِجاً قليلاً.

"سيأتي ليأخذني" قالتْها بحزن.

"لا لا".

"آه، هذا يعني أنكَ لم تفهم كلمة واحدة من كل ما قلتُهُ" وأحنت رأسها بحركة قوية، وأخفتْهُ بين ذراعَيْها. نحيب هادئ أخذ يهزّ كتفَيْها.

نهض ياستراو من مكانه، وراح يحشو غليونه.

"صحيح، سيعود بالطبع" قالها ببطء وتفكير. "ولكننا الآن اثنان ضدّه. سترين أن الأمور ستسير على مايرام".

شعر بهدوء عميق وتأثُّر بينما كان يُشعل غليونه.

"نحن الآن اثنان، أليس ذلك صحيحاً، يا آنا ماريا؟! نحن الآن ياستراو ومديرة منزله. للأسف نحن مُجبَران على العيش على الطريقة الأفلاطونية" أضاف بابتسامة صغيرة سوداوية، وهو يداعب غليونه. شيء لا يمكن مسّه! ... لربّما كان ذلك هو السعادة. كان لها قوام خشن، وشَفَتَان رطبتان أكثر من اللازم. شيء لا مساس به ... غير محظوظ ... الأنثوي.

رفعت آنا ماريا رأسها، وقد وضعت يَدَيْهَا على صدغَيْها، لكي تخفي بلحظة عينَيْها. لمعت في عينَيْها الدموع. "وستذهب إلى الجريدة، لتستردّ عملكَ، أليس كذلك؟ هل تعدني حضرتكَ بذلك؟ ستفعل حضرتكَ ذلك".

أشرقت عيناها فرحاً.

"مهلكِ، لا أدري حقيقة" قالها مُتنهِّداً.

"بلى بلى، ستفعل حضرتكَ، ستعدني، أليس كذلك؟ إنه وعد، صحيح؟ وحضرتكَ تفي بوعدكَ دائماً".

ابتسم ياستراو بتعب.

"سأحاول على العموم أن أقوم بفعل عقلاني، هلا اتّفقنا على ذلك؟".

"يبدو لي ذلك غريباً".

فأجابها بتردّد"نعم، ولكنْ، ممكن أن يحصل، أنني ... نعم، أن ألغي ... استقالتي. من الممكن أن يكون ... هو هذا تحديداً ... كنتُ أحاول، ولكنْ، لا أدري. لا يمكن أن أعدكِ بشيء".

ولكنْ، بهذا المزاج، توجّه ياستراو لاحقاً إلى الجريدة. كان بإمكانه أن يدخل على المحرّر إيفرسن، ليخبره بأن ذلك كان تسرّعاً منه. سيكون أضحوكة للعاملين كلهم في قسم التحرير. ولكنْ، ألن يكون أضحوكة أيضاً للكل، إن قدّم استقالته؟

مرّ به بْرونْ على درجات السّلّم، مرتدياً جزمة الفروسية، وقد كان في طريقه إلى حصان مُتخيّل.

وبأدب "مرحباً، ياستراو" وحركة يدٍ مَلَكِيّة، ولكنْ، من دون سؤال. كان ذلك غريباً حقّاً، فبْرونْ يملك قلباً طيّباً. كان محتمَلاً أنه سيقلق بشأن مستقبل ياستراو.

دخل ياستراو إلى البهو المعتم.

كانت الموظّفة الخفر في التحرير تشتمّ في سمّاعة الهاتف. تجمّد وجهها غضباً. وغوندرسن كان واقفاً عند الطاولة الخضراء الكبيرة، سأل إن كان هناك جديد؟.

"لا، كل شيء قديم" دمدم ياستراو مُتفلسفاً، وانزعج بالحال لذلك.

"هل شربتَ؟" سأل غوندرسن بطريقة موضوعية.

فيما عدا ذلك، لم يأت بكلمة. كان وكأنه يتأرجح في فضاء خال. حتّى غوندرسن، الفضولي، العضو في مجلس إدارة المناوبين الليليّيْن لم يسأله عن شيء البتّة. هل يجول بين ظلال؟ أم كان هو بنفسه ظلاًّ؟.

وشرطي البوّابة ضرب على كتفه بأبوية ودَعْمٍ، وواصل طريقه.

كان باب رئيس التحرير مُوارِباً، برز منه شريط ضيِّق من أشعّة الشمس في البهو.

كان سكرتير التحرير جالساً في غرفته. رفع رأسه "أهلاً بأوله ياستراو" قال خطفاً بلطف.

سمع سعال إيريكسن الأجوف من الخلف في الغرفة، وبابها المغلق.

كل شيء كان بمساره الاعتيادي اليومي. لم يعلم أحد أن ياستراو قدّم استقالته. اختفى الحدث. لم يحدث ذلك. لقد نسي رئيسه إيفرسن ذلك، وهو جالس بانحنائه بالتأكيد على سطح مكتبه كالعادة، وقد تدلّى شاربا فيل البحر من فمه، وعيناه عائمتان بعيدتان، وأفكاره في جزيرة رانغون.

وكعادته القديمة، جلس ياستراو على الكرسي خارج مكتب رئيس التحرير، وكأنه ينتظر دوره في الدخول. هل يودّ حقّاً الدخول إليه؟ لقد جلس مرتاحاً، قُبّعته في حضنه، ينظر إلى ما حوله مثل غريب، وقد شعر بسعادة حزينة.

كانت الموظّفة الخفر ساكنة. أعادت سمّاعة الهاتف، وهي محمرّة الوجه. صعدت غيمة البادور البيضاء بعد وهلة إلى وجهها.

"ليس هناك من أحد عند السيِّد إيفرسن" صاحت فجأة عبر القاعة. "بإمكانكَ الدخول، سيِّد ياستراو".

نهض ياستراو بابتسامة متواضعة.

"لم أكن أنوي الدخول" قال بصوت خفيض. "كنتُ نائماً في مكاني على الكرسي حسب".

"هل كنتَ سهراناً ثانية البارحة؟" سألتْهُ بفم جائع.

أومأ ياستراو برأسه إليها، وانسحب صاعداً إلى مكتبه. بإمكانه، على الأقلّ، أن يُنجز مراجعة واحدة. لقد وعد آنا ماريا بعمل شيء عقلاني.

وستكون، على أيّة حال، مراجعته الأخيرة.

سطعت المكاتب الصفر الأربعة تحت الشمس. لم يعد مهمّاً أنه قد حصل على الأسوأ من بين هذه المكاتب. لم يعد لديه هذا الشعور بالأسف.

الحروف التي كانت على زجاج النافذة -داوبلاذيت-، المرسومة بظلال قاتمة على مساحة الإعلان الضوئية المعوجّة للنافذة، كانت معكوسة على الأرضية المُلمّعة.

كتب كل جملة بوازع غريب، مردّه الوداع. ولكنْ، مايزال بمقدوره النزول، ليقول إن ذلك كان تسرّعاً منه. نعم، بمقدوره! نعم. بمقدوره. ومع ذلك، كان ما يكتبه وداعاً. كان يعلم بذلك. من المستحيل أن يكون موضوعياً في كتابته النقدية للمقالة. كانت اللغة تُفصح عن ذلك. كل كلمة كان لها معنيان. أبْعِدْ المشاعر جانبا الآن. قسوة! هه، ها أنتَ تقترب من الموضوعية بذلك.

دقّ حينها على الباب.

ألقى ياستراو نظرة مسرعة إلى الساعة. كانت الرابعة والنصف.

"ادخلْ".

كان بالطبع آرنه فولدوم، وقد جاء مباشرة من المكتبة. بدا شاحباً كالموت في الغرفة التي غمرها بحر من الضوء، وبأرضيّتها اللمّاعة. ناشفاً ورصاصيّ الوجه، بقُبّعته الديربي الأنيقة وعصا التبختر والسيجارة التي لا يمكن الاستغناء عنها.

"كنتُ متأكّداً من أنكَ هنا، بمساس الحاجة إلى الدردشة معكَ. هل تكتب مراجعة عن شيء مهمّ؟".

وجلس على الأريكة التي تصرّ.

"حقّاً، ترجمة رينان(*)" أجاب ياستراو. "أنا أعامله على أنه الأب رينان بنغمة البنوّة، هل تفهم؟".

"ذلك هو الأنسب حقّاً" قال فولدوم. "وهو الأسهل".

---

*) Ernest R 1823-92 كاتب وفيلسوف، صار له صيت، خاصّة لكتابه الجدلي عن المسيح تاريخياً، حيث ينفي عن المسيح طبيعته الإلهية.

استدار ياستراو بكرسيه، ليرقبه. ألم يعلم هو الآخر؟ ولكنْ، لم تكن لفولدوم تلك النظرة الرصاصية التي لا غور لها، والتي اعتاد أن يرصده بها. لم تكن شَفَتَاه النحيفتان مُطبقَتَيْن على السيجارة، والوجه القاسي كان مُتعَباً حسب، مُتعَباً جدّاً.

"لم يكن رينان في الواقع سوى مثقّف فظّ" قال ياستراو.

"فقط لا غير؟" سأل فولدوم بشيء من السَّرَحان.

نظر ياستراو إليه بريبة. هل يريد استدانة بعض النقود؟ قنص فولدوم نظرته باللحظة، وفهمها، فرسم ابتسامة رقيقة على وجهه.

"نعم، في الحقيقة" تابع ياستراو. لم يعد باستطاعة فولدووم تقويض وضعه أكثر. غير قابل للكسر! لا عليكَ إلا أن تقول لا حين يطلب منكَ الاستدانة، ربّما عليكَ أن تُغريه أوّلاً بذلك، وتقول لا بالتالي ...

"في الحقيقة، نعم" كرّر ياستراو بنغمة متعالية. "في الأحوال كلها، فقد كان مثاله الأعلى دكتاتوراً مثقّفاً، قاسياً، لا رحمة عندهِ، كما أنه لم يعدّ الثورة مرحلة انتقالية".

لمعت عينا ياستراو مَكْراً.

"دكتاتور الروحانية والجمال، يا له من مثال قدوة جميل" أجاب فولدوم، ورفع حاجبَيْه. "ولا ضير في القليل من القسوة، القليل من الدموية، لِمَ لا؟ ... عندما أجلس الساعة السادسة عند المائدة الطويلة في النُّزُل، يطيب لي أن أستذوق تلك الفكرة. جيكا الجمال(*). هل أقمتَ يوماً في نُزُل، يا ياستراو؟".

"بلى، كمرحلة انتقالية".

"انتقالية؟" كرّر ببطء وامتعاض. "ولكنْ، ليس لخمسة عشر عاماً، خمسة عشر عاماً".

"لا".

احتدّت نظرات فولدوم.

"إذاً، فأنتَ لا تعرف حقيقة معنى الكراهية. شرشف المائدة ذاك! أولئك الناس! صفوف الوجوه المنحنية تُبحلِق في شرشف المائدة! أنتَ لا تعرف أيّ شيء. ذلك يجعلكَ مخلوقاً سيّئاً.

---

*) Cheka مختصر لجهاز الأمن السوفيتي في سنوات الثورة 1922-1917

جيكا الجمال كانت ستحكم بالإعدام عليهم جميعاً" وأشّار بيد منبسطة، وكأنه يقطع صفّا من الرؤوس، "وأيّ خلاص!".

"أنتَ ولا شكّ دموي" قاطعه ياستراو، وهو يضحك.

"صحيح، تصبح شرّيراً، لأنكَ تجلس وتتحدّث مع تلك الرؤوس المصفوفة بكياسة، وبعدها تنسحب إلى غرفتكَ، إلى الإنفيرنو، الجحيم على طراز شارع سكيناغيذه، لتجلس وتقرأ مالارميه، مالارميه في أتعس مكان في العالم، عالم النُّزُل، أوف"، ونهض من مكانه شاعرا بالبرد " ومن ثمّ "... دعْها بلا انقطاع تلك المداخن الحزينة ..." شرع يردّد اقتباساً، ووقف عند النافذة تحت ضوء الشمس.

"لا بدّ أنه أحد أيّامك التعيسة اليوم، يا فولدوم" علّق ياستراو.

نظر فولدوم تجاهه، كما لو كان ينتظر تفهّماً منه.

"نعم، زارني اليوم الغلام الجلاّد، الولد (الأسطة) الذي لا يجيد حِرْفَتَهُ، الهاوي الغبي، حاول قطع رأسي ثانية، ولكن الفأس أخطأت ثانية، إنها هنا تجثم في فقرات عنقي"، وفرك عنقه بألم ؛ "يحاول هذه الأيّام أن يخلعها تماماً".

"نيكوتين" شخّصَ ياستراو العلّة من دون رحمة.

ابتسم فولدوم مُتعَباً.

"ليس النيكوتين وحده. إنها الحياة. أُقسم أني إنسان آخر تماماً، لو كنتُ قد سكنتُ في غرفة، تحيطني أشياء جميلة، وليست قِطَع الأثاث البشعة تلك في النُّزُل".

"آآآ، نحن حالُ سكنِنا رثّ جميعاً" أضاف ياستراو. بين الحين والحين، كان وهج الضوء الملوّن يلمع في خطوط المطر على الزجاج.

"أجل، نحن الخالدون الأشقياء" وفتح فولدوم يَدَيْه بحركة تراجيكوميدية، "نحن الذين نُضحّي بحياتنا من أجل جملة بهية".

نظر بحزن إلى ياستراو، ولكن وجهه الطويل القاسي بذقنه المُدبَّب الخشن لم يكن يدعو إلى التعاطف معه. وهج شَعْره الأحمر امتزج تحت ضوء الشمس مع صلابة وجهه الشاحب.

"هلا ذهبنا إلى مقهى، وتناولنا الطعام معاً، لأخلص من العودة إلى النُّزُل؟" اقترح ذلك بحذر.

صرّ ياستراو عينَيْه قليلاً، كما لو ان الشمس قد أغشت بصره، وهزّ رأسه مبتسماً "أنا مشغول".

"حسناً" قالها فولدوم بحدّة، وزمّ شَفَتَيْه، وللحظة حلّ صمت محرج. كان ياستراو سيشعر بأنه واجب مفروض عليه مثل ضغط على القلب، ولكن الأمر تغيّر الآن، لم يعد يعنيه. سِيَّان. رفع كتفَيْه معتذراً، ليحفظنا الربّ، وهَمّ بأن يضع رأسه جانباً مازحاً قبل أن يسحب فولدوم ورقة نقدية من فئة العشرة الكرونات من جيب الصديري.

"هل بإمكانكَ أن تُصرِّف لي هذه، ياستراو".

هزّ ياستراو رأسه مُتفاجِئاً.

"عليّ الانصراف، إذاً، ... أراكَ مشغولاً، مع السلامة، سيِّد ياستراو".

كان لكلماته رنين معدني خفيف، يعرفه ياستراو حقّ المعرفة. انطبق الباب انطباقة حذرة بصوت خفيض. ولكنه كان انصفاقاً، أليس كذلك؟ وغادره فولدوم.

ودّ ياستراو لو يقفز إثره. كان بإمكانهما أن يتناولا الطعام معاً. وهو بحاجة إلى رفقة. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟.

فولدوم بحاجة إلى أحد ما، ليتحدّث معه ... في عالم النُّزُل هذا. كان حزيناً ومُتعَباً مصاباً بنوبة ضعف.

نهض ياستراو، ووقف لدقائق عند النافذة، الغلام الجلاد! وفرك عنقه، كان لديه شعور مفزع بأن رقبته قد انكمشت. يقف وهو يحاول أن ينتزع الفأس منها! هل سيعرف الناس يوماً متى عليهم مساعدة بعضهم البعض؟!

لأن فولدوم قد مرّ بلحظة ضعف، نعم، قد حدث ذلك! بلى، لا لا، فولدوم ... ضعيف؟ ههه لا، من غير الممكن.

ولكنْ، بحقّ السماء! راح ياستراو يجوب الغرفة. سيشتاق إلى فولدوم.

"لا، لن أكون إنسانياً، اللعنة" قالها بصوت شبه عالٍ.

ياإلهي! هذه الغرفة بأرضيتها الملمّعة والطاولات الأربع اللامعة، أجهزة التدفئة المعلّمة بأغطية قناني البيرة التي كان هو أو أحد زملائه من الصحفيّيْن يفتحها مستعيناً بحافّة المدفأة، سلال المهملات التي تمتلئ أحياناً بقناني البيرة، علامة مُميّزة لبيئة قسم التحرير، والهواء الجافّ، بسبب التدفئة المركزية! هل يقول وداعاً لهذا كله؟ وداعاً، أيّها الهاتف العزيز. الوداع.

بإمكانه، بالطبع، أن ينزل إلى رئيس التحرير الآن، ويقول كان ذلك تسرّعاً منّي. بإمكانه ذلك. ولربّما كان السَّيِّد إيفرسن جالساً بانتظار أن يفعل ذلك؟ وهو قد وعَدَ آنا ماريا أيضاً، مديرة منزله، أن يفعل شيئاً معقولاً.

باللحظة، أمسك سمَّاعة الهاتف، واتّصل بالبيت "أهو أنتِ، آنا ماريا؟ معكِ، أوله ياستراو".

من الغريب أن يقول اسمه الكامل، وبطريقة رسمية!

"هل هو حضرتكَ؟" سمع صوتها. فاجأه كم كانت لُكْنَتُهَا المحلّيّة واضحة. "نعم، ستيفان عاد ثانية" قالت، ثمّ توقّفت للحظة، وأدرك لحظتها ياستراو بأنه لن ينزل إلى غرفة رئيس التحرير إيفرسن.

"مع حارس البناية هنا، يحتسيان البيرة معاً".

"أين كان؟" سأل ياستراو. قد عرف الآن حياته ثانية.

"كان عند بيرنهارد ساندرز".

"طبعاً، أنا الغبي، كيف لم يأتِ ببالي" أجابها ياستراو. كل شيء أبدي. نخب أبدية الروح!

"لا تعملي حسابكِ للعشاء، سآتي لاحقاً، لديّ شيء حكيم عليّ فعله".

ضَحَكَ. لنرفع نخب أبدية الروح!. ولِمَنْ كان غير مخلص لأصدقائه. أليس كذلك، ستيفينسن؟ لأن الإخلاص ليس أبدياً.

"أمامي مهمّة عقلانية" غنّى في الهاتف.

"لا أُصدِّق هذا" سمع صوتها ضعيفاً وقلقاً.

"على راحتكِ".

"ولكنْ، سيِّد ياستراو، حضرتكَ وعدتَ ... حضرتكَ قلتَ ... نحن اثنان ضدّه، والآن صرتُ وحدي" اشتكت له.

انحنى ياستراو نحو سمَّاعة الهاتف، وكأنه يُقبّلها على جبهتها. كم كانت مرعوبة وقلقة. كان بإمكانه أن يسمع ذلك، ودمعت عيناه.

"ولكني سأعود، ولكنْ، لاحقاً، أيّتها الصغيرة، سأعود بالتأكيد".

صوت بكاء مكبوت كان يغلي في قمع الهاتف.

سيِّد ياستراو. أنتَ ستأتي؟".

"نعم، بالطبع".

"أنا أثق بكَ".

وأعاد السَّمَّاعة إلى مكانها.

ولكنْ، لِمَ قال لها إنه سيأتي لاحقاً؟ لم يكن لديه غير أن يصعد إلى قسم التنضيد، ليُسلّم مقالته. ومن ثمّ ... آه، بلى. كان يريد أن يستجمع قواه. لكي؟ عشاء وقليل من الشراب والبيرة وحده تماماً. أن يترك وجهه، ليرتاح حسب. ولكنْ، لا يجب أن يتخلّى عن أحد!.

عندما صعد إلى التنضيد، وترك رسالة سريعة، غادر -داوبلاذيت- بهدوء.

قابل عند الباب الدّوّار سكرتير التحرير.

"أوله ياستراو، من المحزن أن تأخذ الموادّ كلها، ولا تترك لفولدوم شيئاً".

"ولكني لم أفعل ذلك".

"لا بدّ وأنكَ فعلتَها. كان عندي قبل لحظات، وتحدّث عن كتاب، لا أذكر لِمَن، هو يشعر أنه قد تمّ ركنه جانباً".

ضحك ياستراو.

"هل رأيتَ ولو لمرّة إنساناً، كان من القُوّة لدرجة أن بمقدوره أن يزيح فولدوم جانباً؟".

ابتسم سكرتير التحرير.

"ولكنْ، تذكّر ذلك للمرّة القادمة، يا أوله ياستراو" قال وحيَّاه. وبهدوء، انسحب أوله ياستراو، ليترك -داوبلاذيت- ويختفي مثل ظلّ.

لم يعلم أحد بشيء حتّى الآن.

ولم يستطع إلا أن يبتسم لمغادرته، من دون صوت. رنّ الصمت في أذنَيْه.

عليه الآن أن يتناول عشاءه مع الشراب والبيرة.

وابتسم ثانية.

لا تتخلَّ عنها! لا تتخلَّ ...

مقابل مدخل الفندق إلى جانب بار دس آرتيست، كان هناك كرسيان عميقان من الخيزران. وكأن الصيف قد أقبل. جلس على أحدهما المقامر بعِيْدان الثقاب -بي- الصغير، والذي لوّح بيده الشاحبة حين لمح ياستراو.

"ما الذي تفعله هنا في الهواء الطلق؟" سأله ياستراو.

"أجلس وأراقب الحياة، بينما هي تمرّ" طلع الصوت الواهن من عمق الكرسي.

"ظننتُكَ في كندا؟".

"كلا، يا مايسترو، خفتُ عندما رأيتُ بحر الشمال. إنه بحر بشع" ورفع جسده، ليعتدل بجلسته.

"ولكن، يا مايسترو، هلا دخلنا البار، ولعبنا لعبة عِيْدان الثقاب، لنرى مَنْ يدفع لكأس جِنْ مع التونيك؟" وسرّح بعناية شَعْره الخفيف.

"لا، بحاجة لأن آكل".

"حسناً، ربمّا لاحقاً، إذاً"، قال -بي- الصغير بشبه ابتسامة. "سأبقى هنا في مكاني، أراقب الحياة التي تعبرني".

وتابع بعينَيْه الزجاجيَّتَيْن عربة التِّرام التي مرّت في طريقها إلى ساحة البلدية. كانت عربة تِرَام عادية جدّاً.

الفصل السابع

تراللا! ها هي الشمس تغيب.

ركل ياستراو ساقَهُ بنشاط. بنطلون بمُربَّعات فاتح اللون، عازف جاز أسود أم طبّاخ سفينة في إجازة!

في شارع استيدغيذه! الأبدي! البيوت مثل شقّ طويل أزرق في بقعة المغيب الحمراء الأخيرة. نوافذ الطابق الرابع عكست سماء بلون الفيولا الأزرق.

كان الفضاء محمّلاً بصوت قيثارات. الأصوات من التِّرامات البعيدة تمور في تلك المساءات الصيفية. وعالياً بين السطوح غنّى إنجليزيا، الصدى كان واضحاً جدًّاً، شديد الوضوح.

And where hav you been Billy boy, Billy boy?
And where hav you been, charming Billy?

لا، لم يكن هو الذي غنّى. كانا الإنجليزيَّيْن. دويتو مبحوحا الصوت، وغرامافون محتقن. عالياً عالياً في الهواء بين السطوح. النوافذ المفتوحة. تيّار الهواء الذي يهبّ في شقّته والستارة التي طارت إلى الخارج.

آ، إنهما حارس البناية وستيفينسن! يقيمان حفلاً. لِمَ لا؟!

وياستراو كان يغنّي، وهو يصعد السّلّم. روح مساء صيفي تعبر نوافذ السّلّم كلها. ودخل شقّته مُدندناً. مارت الأبواب والجدران من الدبك والأُغنيّة وصوت الغرامافون المُلحّ.

And where hav you been Billy boy, Billy boy?

كانت آنا ماريا واقفة في المدخل المعتم.

"أوه، جيّد أنكَ عدتَ أخيراً" همست لاهثة، ومالت عليه.

"نعم نعم نعم" غنّى.

"وشربتَ أيضاً؟ بلى، أقدر أن أشمّ ذلك" انبرت قائلة بحزن، ودفعتْهُ.

"لا لا لا، لقد أكلتُ" دندن.

"وأنا التي ظننتُ أننا سنكون معاً" قالتْها بصوت نائح "أنتَ وعدتَني. وعدتَني، وأكّدتَ ذلك".

اتكأتْ إلى الحائط، ولم يكن بمقدوره لمح شيء غير عينَيْها في الظلمة. لمعتا مثل ماء في الليل.

"يا صغيرتي " حاول أن يواسيها، وأراد أن يُربِّت على خَدّها.

And where hav you been Billy boy, Billy boy?

كانت الأُغنيّة تخرخش بداخل الغرف. الكراسي دُفعَت جانباً، وانقلب أحدها.

"آه، إنهما ثملان جدّاً" تنهّدت آنا ماريا.

زفر ياستراو نَفَساً من الشراب. " لا تقلقي، سأحميكِ" قالها ببُحّة. كان من الصعب التّحدّث من دون لحن بيلي بوي. دفع الباب فجأة، ووقف في الصالة التي غمرها ضوء المغيب، حيث بدا اثنان مثل ظلَّيْن قاتمَيْن، يرقصان معاً الفوكستروت بخطوات دبة، يدوسان بقَدَم واحدة على الكرسي المقلوب، ويرفعان بانتصار أيديهما، ويصرخان.

دفع ستيفيسن حارس البناية عنه، ورافق الأُغنيّة بعواء صارخ، وعجز موسيقي، وحارس البناية الذي بدا من دون قوام ببدلة العمل الزرقاء الفضفاضة. كان يشبه تقريباً غولاً بقَدَمَي فيل حين انحنى جسده لشدّة الضحك، وهو يصفع فخذَيْه.

"ياه، يا لها من حياة!" قالها بأنين.

على المائدة، هناك ثلاث زجاجات من نبيذ البورت.

"هذه زجاجاتك" ضحك ستيفيسن. " أنا هه هه هه بعتُ بعضا من كتبك"

"أه، هه، الكُتُب الجميلة" تحسّر حارس البناية، ولوّح بيَدَيْه. تعثّر ستيفينسن ثانية، وسقط على صدر البدلة الزرقاء، وخطوات الفوكستروت بأقدام معوجّة مهتاجة في العَتَمَة.

And where hav you been, charming Billy?

لم يستطع ياستراو لمح شيء غير وجهَيْهما مثل أشكال بيضوية صفر من دون معان. لا شيء غير العيون التي لمعت، وكأنها تتحرّك في سائل.

"إنهما مجنونان" همست آنا ماريا. كانت تقف إلى جانب ياستراو عند الباب ذي الدَّرفَتَيْن.

"وهذه لا تريد أن تشرب! لقد صارت راقية" صاح ستيفيسن باستهزاء، ولكنه واصل دبكه راقصاً. عبرت لمسة ريح صيفية الصالة.

"نعم نعم نعم" قالها ياستراو بحسرة، وصبّ له كأساً من البورت، ورفعه.

"نخب الروح الأبدية" صاح، عندها توقّف الغرامافون حتّى إن الصياح تصادى عالياً جدّاً في فضاء الغرفة.

"لا لا" همس حارس البناية" هذا لا يصحّ".

دارت أبرة الغرامافون رواحاً مجيئاً، دوائر مركزية على الأسطوانة، وامتلأت الصالة بصوت صادم مثل تِرَام يسير على خطّ سكّة مسحوق.

أوقفت آنا ماريا الغرامافون.

"لمَ لا تشرب؟ ما الذي فعلتَهُ بها بينما كنتُ غائباً؟" صاح ستيفينسن.

"اش اشش" همس حارس البناية، وحرّك مخالبه الكبيرة لطلب السكوت.

"كنّا في تيفولي" دندن ياستراو، وشرب كأسه.

"أين كُنتُما؟" زمجر ستيفينسن.

And where hav you been, Billy Boy, Billy Boy?

رافق حارس البناية الأُغنيّة بحركة مسرحية هامسة، وضحك. "آه، يا لها من حياة! ... هلا أقفلْنا الشبابيك، أيّها العبيد السُّكارى".

"لا، وإلا سيصعب علينا التّنفّس" صاح سيتيفينسن.

"إشش إشش" قال حارس البناية.

"اشش اشش" كرّر ياستراو بميكانيكية.

"اللعنة، لي الحقّ بفتح فمي" صاح ستيفينسن.

"افتحْ كما يحلو لكَ على أن تصب به شيء" قال حارس البناية هامساً، وطمأنه، وهو يضع يداً ثقيلة على كتفه. قامتاهما ذابتا بأخويّة معاً في العَتَمَة.

"أليس من الأفضل أن نشعل الضوء؟" اقترحت آنا ماريا من الخلف.

"لا، للجحيم" صاح ستيفينسن.

اشش عادية، ثمّ "بصحّتكُم" وصمت لشرب الكؤوس.

حصل فجأة أن شكّل الثلاثة مجموعة خرساء هناك تحت وهج الضوء الخافت عند النافذة، وقد أطلّوا برؤوسهم بأشكالها البيضوية الصفر معاً. لقد أسكتوا بعضاً، وأشّوا بأصابعهم، صبّوا ورفعوا أنخاباً بحركات أشباح، من دون صوت، وفتحوا وأغلقوا أفواههم، وكأنهم كانوا يغنّون بينما صدى خطوات الأقدام تحت على رصيف شارع استيدغيذه كان يصلهم عبر النوافذ المفتوحة.

حينها نَعَبَ ستيفينسن بصوت مبحوح:

"ولكنْ، لِمَ لا تشرب؟".

"أفضل للجميلات ألا يشربنَ" أوضح حارس البناية. "وكلّما ابتعدنَ حصل العطاشى على المزيد، هه هه".

"ولكنْ، لِمَ لا تشرب" كرّر ستيفينسن بغباء.

"أنتَ تعلم السبب، ياستراو".

"دعنا نشرب الآن بسلام" أجابه ياستراو بمصالحة سَكْرى.

"ولكنْ، هناك سبب. ما الذي فعلتَهُ بها؟".

"آها هاها" ضحك حارس البناية بصوت خفيض، واستدار حول نفسه حتّى سمع حفيف بدلته الواسعة، وطشّ الكأس بنبيذه.

"أنا؟ أنا لم أفعل شيئاً" أجابه ياستراو. ولكنه شعر تحت الضوء الشاحب

كيف صرّ ستيفينسن عينَيْه حنقاً.

وفجأة دنا ستيفينسن بوجهه دفعة واحدة، وكأنه كان ينوي نطحه:

"لن تجرؤ، فهمتَ؟" زمجر قريباً منه.

"هه هه" ضحك حارس البناية ضحكة مكتومة. ولمعت عيناه فضولاً بينما كان يلعق قطرات النبيذ من على أصابعه.

"أجرؤ على كل شيء" واشرأبّ عنقه، وهو ينظر إليه بابتسامة طافية على وجهه "كل شيء".

خلال ذلك، انصفق الباب بضربة قوية. كانت آنا ماريا قد غادرت إلى المطبخ.

"كل شيء" كرّر ياستراو بلخبطة. "ولا تضحك بسخرية".

لمح ابتسامة ستيفينسن الجامدة في العَتَمَة.

بحلق حارس البناية مُحرَجاً إلى الباب المُغلَق.

"الأفضل لكما أن تعقلا، أيّها العبدان الثملان. ما الذي نفعله واقفين هنا مُحملقين ببعضنا؟! دعونا نجلس قليلاً. الوقوف والشرب يُسبّبان التعب ..." وحين جلس أخيراً، تنهّد، وقال "أجل، حقيقةٌ".

جلس الثلاثة عند المائدة صامتين. لم يكن بوسعهم أن يدركوا ما كان يفكّر به كل منهم في العَتَمَة. ولكنهم أنصتوا ثلاثتهم. ولم يُسمَع في المطبخ صوت.

"هذا كاف ليصحو الواحد من جديد" قال ياستراو بصوت مبحوح، وأمسك بالقنّينة. كانت فارغة. أمسك بثانية. كانت فارغة أيضاً. "اللعنة، لا يمكنني أن أرى شيئاً في هذه الظلمة."

لقط ستيفينسن الزجاجة الثالثة.

"الشرب يطير سريعاً" قال حارس البناية مُتفلسفاً.

"علينا بالمزيد" قال ياستراو. جلسوا في الظلمة، وقد صرّوا عيونهم، ليتمكنوا من رؤية فيما إذا كانوا سيحصلون على الشراب بالتساوي.

"وهل ذلك يستحقّ؟" علّق حارس البناية "ستقلب الجلسة إلى عراك، والمسؤول هو أنا، حارس البناية. لا تنسوا، فأنا مَنْ تقع عليه المسؤولية" وضرب على صدره. "ولكنْ .." وركس من جديد مُتخيِّلاً هيأة السلطوي التي انتحلَها. انتفخت بدلته الزرقاء مثل صدر متهدِّل. "ولكنْ، إن كان لديكَ نقود، سيِّد ياستراو،.. بإمكاني أن أتدبّر المزيد من الشراب، سواء كان يستحقّ أم لا" أضاف مُداعِباً.

جلس ستيفينسن ومرفقَيْه على المائدة مُحملِقاً في الظلام. لمعت حوافّ قِطَع الأثاث. ظهر ضوء مُضبّب تحت السقف. كانت فوانيس الشوارع قد أُوقِدَت.

"ما هذه الكآبة؟" دمدم.

"الغرامافون" صاح ياستراو، وحملق في كأس البورت الأسود.

"لديّ مشترٍ" أسرع حارس البناية قائلاً.

"اخرس".

"لا تريد، حسناً، إنه غرامافون رائع أيضاً".

"اخرس".

آه، كفاكَ اختيالاً، يا أوله" قالها الحارس بوقاحة الأولاد. "هل أنتَ بحاجة للشرب، أيّها السّكّير الخنزير، هه هه. سأذهب لأجلبه لكَ في الحال".

ووضع كفّه الكبيرة مفتوحة على المائدة.

"ولكنْ، عليك بالنقود".

ناوله ياستراو عشرة كرونات، وهو يتنهّد.

"ما التراجيدي في هذا؟" قاطعهما ستيفينسن. "أنا عطشان، و.. إدوين ..".

"هه، قطرة جافّة تنزل بلعومي" وضحك الحارس، وقبض بكفّه على العشرة كرونات بهدوء حتّى خشخشت. "آه" انبرى قائلاً وهو ينهض.

جلس ياستراو وستيفينسن وحدهما، يرشفان من كأسَيْهما.

فتحت آنا ماريا الباب، ودخلت بهدوء.

"لمَ لا تريدين الشرب معنا، يا بنت؟" سأل ستيفينسن من جديد.

"مهلكَ، على مهلكَ معها، هل سمعتَ؟" قاطعه ياستراو بفظاظة.

"هل تظنّ نفسكَ نبيلاً؟".

حرّك ستيفينسن مرفقَيْه من على المائدة، ليدير وجهه صوب ياستراو. كان وجهه كتلة سوداء في الظلمة.

"لا أظنّ أنكَ تجرؤ".

"ستيفينسن" صرخت آنا ماريا، وفزّ ياستراو في مكانه. كانت صرختها قد وصلت الشارع.

"عليكَ أن ...، أن تعاملها بلطف" تأتأ.

"الوقوع في الحُبّ أمر سيِّئ جدًّاً هه؟" واصل ستيفينسن ضاحكاً. "أن تُحبّ، ولا تجرؤ" ارتجف كتفا القامة التي كانت تشبه العنقاء في الظلمة، وكأنه كان مُستمِرئاً ذلك.

نهض ياستراو فجأة، وضرب بيده على المائدة، فتقافزت الكؤوس. أمسكت آنا ماريا به من الخلف.

"لا لا، لا تتعاركا. لا تتعاركا" صرخت "سأهرب إن فعلتُماها".

"عليكِ أن تعدّي القهوة محلّ ذلك" ضحك ستيفينسن.

تفاجأ ياستراو للمُقترَح الهادئ، فغطس في كرسيه. شعر بنفسه محارباً تافهاً.

"هل أقوم بذلك؟ هل أعدّ القهوة، سيِّد ياستراو؟".

تلمّست آنا ماريا بيَدَيْهَا الطريق، وكأنها تحاول أن تتجنّب معركة، حصلت بين الاثنَيْن.

"هل أعدّها، سيِّد ياستراو؟" كرّرت عليه.

"سيِّد ياستراو" قالها ستيفيسنسن مُتشدِّقاً عبر أنفه.

"أجل أجل، أعدِّيها" أجابها ياستراو، وحاول أن يهدأ. "والأفضل أن توقدي الضوء أيضاً".

سمع صوت ضغط الزِّرّ، واشتعل باللحظة المصباح الكهربائي في السقف، فأغشى بصرهم. فزّ كل من ياستراو وستيفينسن. لم يتمكّنا من النظر إلى بعضهما إلا بصعوبة. كانا أعشيَيْن. فركا جفنَيْهما. حاولا أن يُبصرا. وبرز وجهاهما واضحَيْن. كان خَدًّا ستيفينسن بارزَي العَظْمَيْن قاسيَيْن بلون أصفر رمادي، شَعْره أشعث على تلك الجبهة العالية الشاحبة، والشفتان ظاهرتان إلى الأمام نصف مفتوحَتَيْن، كما لو كانتا قد تجمّدتا وسط نوبة غضب شرسة. أمّا ذقن ياستراو، فقد بدا ممتلئاً مُترهّلاً، وعيناه مرصوصتان منحرفتان منغوليّتان بعض الشيء. كان ستيفينسن مستعدّاً للهجوم، وياستراو مُتربّصاً، مُستغلقاً، ولكنه مُتوثّب.

راحت آنا ماريا إلى المطبخ.

"أنتَ لن تجرؤ إطلاقاً" عاد ستيفيسن من جديد.

لم يجبه ياستراو، نقل نظره حسب، كما لو أنه كان يبحث عن نقطة ضعف، يمكنه استغلالها عنده.

"لأني صادرتُها" زمجر ستيفينسن، وتقرّب بوجهه منه. "لقد أصبتُها بعدوى مرضي" أضاف بخشونة مُفاجِئة أغاظت ياستراو جدًّاً.

وردّ ياستراو له الصفعة، من دون تفكير "ولكنْ، لم تكن أنتَ، كان أباكَ".

أمّه ماتت، خطر ذلك بذهنه. جفنة في حقيبة.

سمع صوت قرقرة. واضطرّ ياستراو إلى النظر في عينَيْه. اصطدم بنظرة عينَيْه المفتوحَتَيْن على وسعَيْهما. ذلك اللمعان الزجاجي كان تقريباً أبيض اللون، وكأنه كان يُحملِق ويُحملِق، من دون قدرة على التفكير.

"أنتَ تعرف، إذنْ؟" قالها أخيراً باحتقار. "تعرف ذلك ... و..." نهض من مكانه دفعة واحدة، "... والآن تضحك ... مثل الباقين، كلهم، صحيح؟ صحيح؟ ذلك مضحك بشكل عجيب".

"أنا لا أضحك".

"بلى، والآخرون جميعهم".

"لا".

جلس ستيفينسن ثانية بضحكة يابسة خبيثة على فمه.

"هذه هي القصّة، إذاً، لأنكَ تحبّها".

هزّ ياستراو رأسه.

"بلى" أجابه ستيفينسن، وضحك بفجاجة. "ولكنها مريضة، ولن تشفى".

"لا أحد يعلم. من الممكن أن تشفى".

قلب ستيفينسن شَفَتَيْه، ولزم الصمت.

جلسا ساكنَيْن لدقائق طويلة طويلة جدًّاً. تحرّكت أذرعهما وجسداهما. كانا يتحرّكان بميكيانيكية. ولكن التفكير قد توقّف. الروح اتّخذت لها شكلاً ثابتاً، وألقت ظلاً في اللا شيء الفارغ.

أشعل ستيفينسن غليونه، وجلس يلعب طويلاً بعود الثقاب بيده. جعل ياستراو النبيذ يدور في الكأس مثل خبير عجوز بالأنبذة، يشمّه، ليقتنص رائحته، ولكنْ، من دون أن يقيّم، من دون أن يشعر بما هو يفعل.

"آه، كم أكره ...!" قال ستيفينسن فجأة. تداعت الكلمات منه بدفعات. "أكره ... كبار السّنّ كلهم ... الأوغاد. لقد أخذها، لأنه علم ... أني كنتُ أقضي الليل معها، أثاره ذلك، ذلك العجوز، جعل من ابنه ديّوثاً ... واستردّ رجولته ثانية، وإلا فلم تكن لديه رجولة، لم تكن، لم يكن يقدر ... ابتسامته! عندما كنّا نجلس إلى المائدة ... وأمّي!".

اعتدل ياستراو في جلسته. يحاول ألا يفلت لسانه بكلمة. "وأمّي" كرّر ستيفينسن. "إنها قوية، صفراء وشديدة، ... أنا أُشبهها. آه، لا لا".

أمال بصدره صوب حافّة المائدة، وفركه مُتألِّماً. توتّر ياستراو. عليه ألا يقولها. رماد أمّه في الجفنة، في الحقيبة. تخيّل ضوءاً غريباً يسقط على وجه ستيفينسن، وكل حركة في وجهه كان لها معنى مثل الناس في حضرة الميّت.

"آه، صرتُ أضحوكة، أضحوكة للأبد ... هل تفهم ما أعنيه؟ مضحوك عليّ للأبد. جرحي مضحوك عليه، تافه، مشاعري، حُبّي، اللعنة على الشيطان. لن أستطيع الخلاص من ذلك، عليّ الذهاب إلى مكان ما، إلى اللا شيء، أو الانتقام! نعم، الانتقام" وفرك صدره بحافّة المائدة، وحرّك جسده للأمام أكثر وأكثر. وياستراو فسّره كإشارة، رؤيا، كان يفعلها دوماً عندما يصحو خلال جلسة شرب. كشف ستيفينسن عن أسنان طويلة ضيِّقة بانفراج شَفَتَيْه، حمرة خفيفة انتشرت فوق حاجبَيْه، انقلب وجهه الجامد ألماً، فبدا مُضحِكاً في الوقت نفسه، مكشوفاً واضحاً تحت لمعان قِطَع الأثاث، من خشب البلّوط ذات اللون الأصفر الفاتح. كانت قِطَع الأثاث تلمع مثل الأشباح، كما لو كانت في صالون باخرة ليلاً، حين يضرب زبد البحر الداكن جدرانها.

"قذفتُ كل شيء بوجهه" تابع ستيفينسن بهدوء وبُحَة. "فعلتُ، فعلتُ، عجزه الجنسي! قلتُ له ذلك حين انتقلت العدوى إليها، فمن الطبيعي أن يُعديها ... و... ثمّ ...انتقل المرض لي أيضاً. لكني سأنتقم ... آه ... العجائز الأوغاد ... جعلونا مضحكة ... إلى الأبد".

نظر ياستراو جانباً إلى المطبخ بقلق. سمع آنا ماريا تتحرّك في المطبخ، وتحضر أكواب القهوة.

فتح ستيفينسن علبة الثقاب، وهو سارح، وراح يُفرغها على المائدة.

حينها دقّ الجرس.

"ها هو قد جاء بالنبيذ" قالها ستيفينسن مُتنفّساً ملء راحَتَيْه.

راح ياستراو، ليفتح الباب.

ولكنه لم يكن الحارس. كانت طفلة صغيرة بعمر الأربع سنوات تقريباً، رأس مُدوّر، وعينان مُدوّرتان، تحمل زجاجة البورت بيدها، وكأنها كانت دمية تقبض بيدها على بعض النقود.

"أبي يقول إنه لا يستطيع المجيء".

وتوقّفت تفكّر.

"وهذا الباقي من النقود" قالتْها بحماس، وهي تناول ياستراو كرونَتَينْ، كانتا ماتزالان دافئتَينْ من دفء يد الطفلة.

أخذ ياستراو قنّينة البورت. "وسلّمي على أبيكَ".

وعندما أتمّت الطفلة المهمّة، ولم يكن لديها ما تتذكّره، انثنت بفضول جانباً، لتطلّ من خلف ياستراو على المدخل.

"أين الولد الصغير؟" سألت وهي تنظر إلى ياستراو بعينَينْ ساطعَتَينْ.

"لقد سافر".

"بابا قال هذا أيضاً" أجابت بهدوء.

حين تأكّدتْ من ذلك، استدارتْ بالحال، شرعتْ تصعد درجات السّلّم العالية جدّاً بمعونة الدرابزين، وقد صعد فستانها القصير حتّى بطنها في تسلّق كل درجة.

حرّك ياستراو عضلات وجهه، لكي ينسى، ينسى.

"ها هو النبيذ" قال حين خطا في غرفة الطعام. رأى أن باقة عِيْدان رزّ الفاستالاون بالورد الورقي الملوّن وجنّيّ الميلاد في أعلاها قد سطعت بقُوّة. "ولكن إدوين لن يأتي".

وقفت آنا ماريا عند المائدة حاملة إبريق القهوة بيدها.

"هه، زوجته من دون شكّ قد تعبت منه" ضحك ستيفينسن، ومدّ يده ليتناول النبيذ. نظرت آنا ماريا للحظة إلى ياستراو. آه، قد تذكّر! وابتسم لها بحنان. بلى، كانا اثنَينْ. لم يخذلها. كانا اثنَينْ، وستيفينسن لم يكن خطراً.

"ما الذي سنفعله بالقهوة؟" قرقر ستيفينسن.

"ألم تطلبها بنفسكَ؟" قال ياستراو. كان موجوعاً. مَرأى الطفلة التي انثنت لتنظر بفضول من خلف قَدَم ياستراو إلى الداخل عند المدخل.

خلالها صبّت آنا ماريا القهوة، وجلست عند المائدة. كان فمها نصف مفتوح. كانت خائفة تلاحق ياستراو طوال الوقت بنظراتها. أومأ إليها، وهو شارد الذهن.

"آه" تنهّد ستيفينسن حين صبّ البورت "وعليكِ الآن أن تشربي معنا، يا بنت".

هزّت آنا ماريا رأسها نفياً، وهي مضطربة، ونظرت مُستفهِمَة من جديد إلى ياستراو. هل ما تفعله صحيح؟ ولكنها شعرت بقلق، لحظتها، لأن ياستراو اندفع ليُمسكَ بالقنّينة من دون وعي. لينسى، لينسى.

"هكذا، الحمد للربّ" ضحك ستيفينسن الذي تابع هو الآخر حركات ياستراو المندفعة. جلس مُتهالِكاً على المقعد مثل رجل مسلول، وهو يرقب ما سيحدث. "ونخبكم، نخب الـ ... ما الذي قلتُه من قبل ...؟ جموح الروح، هه هه". ضحك ياستراو، وشرب.

"ولكنْ، لِم لا تشربين؟" كرّر ستيفينسن بعناد سؤاله على آنا ماريا. "لماذا لا تشرب؟ هل تعرف لماذا، يا أوله؟ أيّها العجوز جاز؟ ما بها لا تشرب؟".

"اتركها وشأنها" أجابه ياستراو، وشرب بعصبية "اتركها وشأنها".

"سأتركها وشأنها، نعم، هه" انبرى ستيفينسن قائلاً بصوت هزّ جسم ياستراو المسلول. "ولكنْ ... لماذا لا تشرب؟ هل قمتَ ...؟".

وفجأة توقّفت عيناه اللامعتان على يد ياستراو التي كانت تُربّت على ذراع آنا ماريا لتهدئتها.

"هه!".

وعاد ليشرب، وراح يُحملِق في كأسه، وكأنه كان تحت تأثير تنويم مغناطيسي.

لزموا الصمت لبضع دقائق. كان ياستراو يشرب بنرفزة، بتبادل بين القهوة والبورت.

"انتبه، مهلكَ" قالتْها آنا ماريا مُتوسّلة.

"أجل أجل" أجابها ياستراو.

لقد أحسّ بانها أرسلت له نظرة من عينَيْها المفتوحَتَيْن، انبعث منها خوف، لا غور له، وقد أومأ لها.

"بإمكاني تقبيلكِ على جبهتكِ" قال لها ياستراو برقّة.

"هه" ضحك ستيفينسن.

"بإمكاني ذلك، بإمكاني" واصل ياستراو. حاولت آنا ماريا أن تسحب ذراعها، ولكنه أمسك بها بقُوّة. "بإمكاني".

"ما بها، لا تشرب؟" كرّر ستيفينسن، واعتدل بجلسته.

"أنتَ ثانية!" قالها ياستراو، وانحنى إلى الأمام، وقبّل معصم يد آنا ماريا.

"ماذا؟" انتصب ستيفينسن أكثر بجلسته. "ماذا؟ ولكنها ...!".

"اصمتْ" صاحت آنا ماريا بغضب، ونهضتْ.

"وإلا سأغادر".

راح ستيفينسن يعبث بعِيْدان الثقاب.

"هل تريدها؟" سأل بوهن.

لم يسمعه ياستراو. كان مُبحلِقاً بآنا ماريا. غامت عيناه.

هبَّ نسيم عبر النوافذ المفتوحة، كما لو أنهم يُبحرون.

حينها قبض ستيفينسن على بضعة عِيْدان ثقاب.

"لنلعب لعبة العِيْدان، ولنرَ مَنْ يحصل عليها" قال.

"ستيفان" ولم تقل آنا ماريا غير هذا، لأنها لمحت باللحظة ضوءاً في عينَي ياستراو من خلف الغيوم. ولم يكن ياستراو ينظر إلى شيء آخر سوى ستيفينسن. كان يُحلِق فيه.

"هيّا إذنْ، لنلعب".

أصاب آنا ماريا الخَرَسَ. لم تستطع التّحرّك. وقفت متراخية بمكانها مشلولة مثل امرأة ستُباع بسوق النخاسة، متداعية، عريضة الوركَيْن، منحلّة. هل يعقل هذا؟! مال ستيفينسن إلى الأمام، يتلمّس العِيْدان، ولمعت عينا ياستراو لمعاناً خطيراً في عمقيهما، لم تره هي من قبل.

"أحدنا سيختبر فيما لو كانت مريضة!".

مَنْ قال هذا؟ سرت رعدة في جسد ستيفينسن. قفز ياستراو من مكانه على المائدة، ليلتقط

عِيْدان الثقاب. كان هو مَنْ قالها. وصرخت آنا ماريا وهي تنقل نظرها مشدوهة بين الاثنَيْن. ودّ ياستراو أن ينهض. فَهِمَ فجأة. ولكن ابتسامة المقامر لاحت على شَفَتَيْه، بريق وحشي.

لم ترَ شيئاً آخر. لم ترَ غير الوجه المنغولي المُترهِّل. وشعرت بوجود ستيفينسن في البعيد تحت الضوء المصفرّ، جامداً بعينَيْن محتقنَتَيْن، بريق مُطفَأ لروح، كانت يوماً له. ولكنْ، لم يكن هناك غير الوجه المنغولي ما تراه، والذي كانت قد وثقت به!

"يا ربيّ" انطلقت منها وهي تضع يَدَيْهَا على قلبها. ثمّ ركضت. إلى المدخل. انصفق باب المدخل. وقف ياستراو متعكّزاً على الكرسي. كان يودّ أن يُوقِفَها، كان يريد أن يتراجع. حينها سمع خطوات مسرعة على السّلّم. صاعدة أم نازلة؟ لم يكن أحد ليعلم.

"حسناً فعلتْ أنها هربت، وإلا كنتُ قتلتُها" قال ستيفينسن بهدوء.

ترك ياستراو كل شيء مستسلماً. ولم يفعل شيئاً غير أن عاد وجلس في مكانه.

"حسن جدا" كرّر ستيفينسن بابتسامة صغيرة خجولة حول الشَّفَتَيْن الجامدَتَيْن، ومدّ ذراعَيْه إلى الأمام بطولهما، اندفعت خلالها كومة عِيْدان الثقاب على المائدة.

"بإمكاننا الآن أن نشرب بِسلام" تابع وهو يُومِئ برأسه. نهض ياستراو ثانية من مكانه.

ولكنْ ... أين ستذهب؟ يجب أن نعرف ...".

"حسناً فعلتْ أنها غادرت ...".

"ولكنْ ... ولكن ذلك أيضاً ...".

"خير ما فعلتْ، ما بكَ؟".

"أجل أجل" ونفض ياستراو رأسه مضطرباً. "ولكننا مجنونان، مجنونان، معتوهان".

"بلى، وماذا بعد؟"رفع ستيفينسن عينَيْه الرخوَتَيْن.

"دعنا نشرب" جلس ياستراو مُتثاقِلاً على كرسيه.

عندما قضيا على قنّينة البورت، قاما بصَبِّ القهوة في كأسَيْهما.

"أظنّ، أنا وإدوين جئنا ببضع زجاجات بيرة معنا" قال ستيفينسن. "هه، إدوين" وهو يرمش بعينَيْه.

"لقد قضيتُما عليها، بالتأكيد".

"صحيح" اهتزّ جسم ستيفينسن وهو يضحك من دون صوت. "ولكنْ، لا يصحّ أن نرفع نخباً بالقهوة ... لجبروت الروح".

"الأبدية" صحّح ياستراو مُمتعِضاً.

"حسناً، هل هذا هو ما تنوي الذهاب إليه؟" زمجر ستيفينسن.

"كفاكَ رطانة غبية، لأنها رطانة لا أكثر، أنتَ لستَ سوى ... طالب!".

نفث ياستراو مرارته كلها في الجملة. كان ذهنه حاداً، ولكنْ، من دون سيطرة عليه. الكلمات كانت تتشكّل قاطعة بلا حدّ. وكان على ستيفينسن أن ينحني ويُغطّي رأسه، لئلا تصيبه رمية سكّين. لمعت عيناه لثانية، بنظرة ملؤها الكراهية.

"مهلاً" قالها، وانحنى ثانية.

"هذه هي الأصول" قالها بحسم ثانية.

"جموح الروح، هه" ضحك ستيفينسن.

"إنها، اللعنة، عنجهية البروليتاريا، كل فظاظتكَ هذه".

"هلا حسمنا ذلك بطريقة أخرى؟" قالها ستيفينسن بإصرار، وهو ينود، ثمّ وضع قبضة يده على المائدة. قبض يده ببطء. كان هناك مثل هذه القبضة على المائدة قبل هذه.

"أنتَ، ولا شكّ معجب بعضلاتكَ".

ضحك ستيفينسن فجأة، كما لو ليصالحه. "اللعنة، لم أتصوّر أن القهوة ستجعل منكَ شرّيراً لهذه الدرجة".

"إنها ليست القهوة، بل كل شيء، لقد كنّا وحوشاً بتعاملنا معها".

"ولكنكَ كنتَ تُدلّعها".

"سَمِّهِ ما شئتَ".

"تبدو قدّيساً مُقرِفاً جدّاً".

وضع ياستراو كأس القهوة بعيداً عنه مُتفاجِئاً، ونظر طويلاً إلى ستيفينسن.

"هل لاحظتَ ذلك؟" سأل ببطء. "إنه المسيح".

"هه هه هه" ضجّ ستيفيسن "آه، أيّها الغبيّ".

"إنه هو، عندما أشرب، أو عندما ...، أكون مع النساء، خصوصاً نساء من نوع معيّن، ... يحضر، يصعد من هنا بداخلي، من الداخل، المسيح ونساؤه الخاطئات، وذلك كله، كما تعرف، إنه يسكن دمي، فأتصرّف مثله، أنا..إني أُقلّده".

"ألم تصل إلى أبعد من ذلك؟" قالها ستيفينسن هازئاً. توضّح الضوء في فوضى القناني الفارغة والكؤوس، وغشي أعينهم.

"أبعد؟ أنا جادّ في كلامي" قاطعه ياستراو مُحتدِماً.

"وأنا أيضاً، اللعنة، عليّ بغليون مَحشو بالتبغ لهذه الجدّيّة".

تلمّس ستيفينسن غليونه. سقط منه على الأرض. تناوله ثانية من على الأرض، وهو يئنّ.

"هل وصلتَ إلى أبعد من هذا؟" كرّر ستيفينسن سؤاله، وهو يلهث.

"ما الذي تقصده؟" سأل ياستراو مُنفعِلاً.

"أعني أنكَ قد كبرتَ، صرتَ عجوزاً، أنتَ الذي تثرثر بجموح الروح، وتراكَ الآن لم تصل إلى أبعد من قصّة الكتاب المُقدّس. هه، وأنتَ لا شيء سوى دروس الدِّين التي أخذتَها في المدرسة، هي التي تصعد فيكَ، أيّها المغفّل".

"لا، ليس كذلك..، إنه".

"آه، ماذا، إذنْ! إنكَ قفلتَ راجعاً حسب إلى قصّة الكتاب المُقدّس. هل تعتقد أنها روحانية، العودة إلى الطفولة؟ هذا هراء كله، ما حشوا به رؤوسنا في المدرسة، هذا هو كل ما هنالك، هو ما صعد من داخلكَ، ونحن نرفع نخب جموح الروح، ونتأثّر بعدها، إنها الروحانية هه، وإذا بنا لا نحصل على شيء غير بروباغاندا من أيّام المدرسة، ذلك الهوس كله بشأن الروح، وأنتَ لم تصل إلى أبعد قليلاً؟".

"بلى، أنا أبعد من ذلك" أجابه ياستراو. "لأن هذا الذي نحن فيه فوضى، هذا الذي نعيشه كله، نشرب ونزني، لا شيء غير ذلك، ... نحن فساد للعالم. سأذهب إلى شخص أعرفه".

"ماذا؟".

"أنا ذاهب! هل تريد الذهاب معي؟ هذان: الزنا والشرب، ولا شيء غيرهما، لم يعد بإمكاني احتمالهما. هل تذهب معي؟ أنا أعرف رجلاً لديه نظام لكل شيء، هو يعرف كل شيء. هل تذهب معي؟".

نظرا طويلاً إلى بعضهما. كانا صاحيَيْن، مُتهتِّكَيْن من الشرب.

"ماذا تقصد؟" سأل ستيفينسن. كان وجهه قد تغيّر. معاني وجهه توضّحت، وزوايا عينَيْه كلّها كانت محتقنة.

"الكاثوليكية، هذا ما قصدتُهُ. هناك ريح اعتناق دِين جديد. مباشرة إلى الكنيسة. إنهم بمساس الحاجة إلى معتنقين جدد في شارع ستينوسغيذه. هل تأتي معي ستيفينسن؟ أعرف رجلاً هناك، قد أدرك العالم بأجمعه، كل شيء له نظام عنده. نذهب ونهتدي بِدِينٍ في الحال، الليلة، نذهب مباشرة إلى الكنيسة، مباشرة. هل تأتي معي؟".

"آآآ، ..."أجاب ستيفينسن بهدوء.

"لا لا، لا تخذلني، سنذهب الآن. هذا المكان لا يصلح لنبقى فيه، انظر، تلك الفوضى على المائدة. إنها قذارة ... وتوقّفنا فجأة في خضمّ صخب الحفل، وتوجّهنا لنعتنق مذهباً ... وأنتَ ستاتي معي، أليس كذلك؟ لكي نصلح كل شيء".

"نعم" قال ستيفينسن خانساً. لقد أعطى وعداً بذلك. كسا وجهَهُ لمعانٌ شاحب.

هبّ في الصالة تيّار هوائي خفيف، خفيف مثل نسيم، تُبحر به سفينة.

أبحرا في فضاء السماء، بلون الفيولا الأزرق.

"ههههه" ضحك ياستراو منشرحاً، "ويا لها من فضيحة في الغد! اعتناق مذهب جديد! ما الذي سيقوله أبوكَ العزيز؟".

"أبي" نطق الكلمات بعُجالة، وفجأة لوّح بيده، وكأنه يقبض على حشرة "هه، سأكون قضيتُ عليه، هو وتعاليمه الدِّينية المُستحدَثَة، هه! ... سنسحقه، والله."

كانا متّقدَي الذهن بشكل كبير حين نزلا السّلّم. اللحظة كانت شديدة الوضوح. وجسداهما كانا سريعَيْن مثل حيوانَيْن. حرّكتهما على إيقاع الفكرة، كانا واحداً معها، ولم يكن هناك صدى

لما يفعلانه. حيوانان من دون صوت حسب، يطاردان عبر الطُرُقات الليلية، قافزَيْن جموح الروح، إلى القرار الأبدي.

"وسندخل الكنيسة مباشرة" قال ياستراو مُتحمّساً بحركات يَدَيْه. كان يركض مُتقدّماً ستيفينسن نصف خطوة، بجسد يستدير نحوه.

أومأ له ستيفينسن بصمت بينما انطلق سريعاً معه، ومشية اللصوص معروفة في هذه المنطقة. سريعاً. سريعاً. كان استيدغيذه بظلمة صافية وامضة مع تلك الفوانيس.

"هل تعتقد أنهم نائمون الآن؟" دمدم مع نفسه.

"لا، الكنائس الكاثوليكية تظلّ مفتوحة الليل بطوله، أنتَ تعرف هذا، وهو الصواب بعينه، فافرض أن أحداً ما فكّر أن يتعتنق مذهبهم ... فجأة". كان ياستراو يتحدّث بهدوء، ولكنْ، بحماسة."هناك أناس دخلوا الكنيسة، وشهدوا الله دفعة واحدة".

لم يتوقّفا عند الحانة الصغيرة. لم يكن هناك وقت للتفكير، بل للفعل واتّخاذ قرار، ويجب أن يكون الآن. شارع أبل كاثريناسغيذه! تلك الواجهات المظلمة المتباينة بأشكالها، وكأن المباني لم تُوضَع بمكانها الصحيح. شارع فيكتورياغيذه! موسيقى خافتة في مقهى "فاتي"، ثمّ شارع فيستربروغيذه المضاء، وبعدها سيكونان قد وصلا.

كان شارع ستينوسغيذه مُعتِماً مُوحِشاً، وكأنه لم يكن غير شارع فرعي سيِّئ السمعة. سياج من الحديد يحوط الكنيسة من الأمام، والأبواب كلها كانت مغلقة. الكنيسة راقدة على بيضها ببوّابات كبيرة مغلقة مَحميّة بسياج حدائق الفيلات، من الغريب ألا توجد لوحة أيضاً تحمل التهديد: تطلق الكلاب بعد الساعة السادسة صباحاً.

هزّ ستيفينسن البوّابة بغضب. "ما هذا؟" قرقر بحنق. "ونحن الذين نوينا الدخول، هل هذه مؤسّسة محترمة؟".

"لا تقلقْ أبداً" قال ياستراو مُواسِياً، وفكّر بسرعة البرق. "سنتحدّث مع الأب غارهامر".

ولكن ستيفينسن وقف داسّاً يَدَيْه في جيبَيْه، ينظر بغضب إلى هذه الكنيسة الضخمة القاتمة التي اقتحمت الليل والأبديّة. قمّةُ برجِ كنيسةٍ أسود يُبحر بين النجوم.

"مملكة الله تخشى الحرامية واللصوص ... ليلاً" قالها متذمّراً من تلك الكتلة الحجرية القاتمة التي لا مدخل لها.

"سنجعلهم يفتحونها لنا" قال ياستراو.

وبسرعة حيوانية، كانا يقفان عند سلّم مدخل السَّكَن، يدقّان الجرس.

كان بإمكانهما سماع الجرس وهو يدقّ في الكوريدورات وممرّات السلالم الفارغة.

"مرّة ثانية" قال ياستراو، ودقّ الجرس من جديد، دقّة متواصلة بعنف. "لا بدّ أن نُوقِظَهم!"ودقّ من جديد. لِمَ لم يأتِ أحدهم راكضاً؟ لا بدّ وأن يكون البيت مُحتشِداً بقامات الرهبان التي ترفرف ببدلاتهم السود، والملائكة والشياطين واليسوعيّيْن. ألا يمكنهم سماعنا؟ مثل لصّ في الليل ويوم الحساب. نهاية العالم. كارثة.

دقّ الجرس، ودقّ.

"لا بدّ وأنهم يخشون الظلمة؟" دمدم ستيفينسن. كان يقف في الخلف مُتَّكِئاً على الدرابزين.

وأخيراً سمعا صوت خطوات بطيئة ثقيلة، مفتاح دخل في قفل الباب الداخلي، وانفتح الباب بحذر نصف فتحة. أطلّ وجه مذعور شاحب، وتأتأ بلهجة غريبة غير مفهومة.

"نريد التّحدّث مع الأب غارهامر" قال ياستراو بأدب، وقد خلع قُبَّعته، وانحنى قريباً من الباب، من دون أن يفكّر بأنفاسه الكحولية. رَفَّ منخرَا الخادم، وسطع وميضُ خوفٍ شديد في عينَيْه فجأة.

"مَنْ؟ مَنْ لأقول له؟".

"المحرّر أوله ياستراو، -داوبلاذيت-".

انغلق الباب بسرعة، ودار المفتاح في القفل من الداخل بحذر. واختفت الخطوات الثقيلة على بلاطات الكوريدور.

"بيت مُقفَل!"، تذمّر ستيفينسن "ونحن واقفان هنا".

"انتظر، انتظر" همس ياستراو مُتحمّساً. "لا تراجع، سندخل مباشرة، ونكون قد اعتنقنا الكاثوليكية هذه الليلة، لمَ لا؟".

كانا يقفان في شارع عادي كوبنهاجني، وينويان القفز إلى الأبدية. كان تقريباً من الصعب الانتظار.

"ألن يأتي؟" سأل ستيفينسن وقد نفد صبره.

وأخيراً سمعا الخطوات الثقيلة ثانية، وانفتح الباب، بحذر أكبر من قبل.

"الأب نائم" قالها بهمس خفيض جداً.

"ولكنْ، ولكنْ ..." حاول ياستراو أن يجرّ نَفَساً.

وكأن الليل قد انهار، بلوكات إسمنتية ضخمة تهوي إلى الأسفل.

"اللعنة على الشيطان، هل يُقفِلُ بيتُ الله ليلاً؟" قالها ستيفينسن بفظاظة.

ولم يسمع ياستراو كم كانت تلك الكلمات الخفيضة عنيفة، ولم يكن لديه إحساس بالكفر، لم يسمع غير الباب الذي انغلق من دون صوت، لم يسمع غير التكّة التي صدرت عن المفتاح وهو يُدار في القفل، الانغلاق، كم كان بانتظار الأبدية!

"لن أقبل بذلك" واصل ستيفينسن، ودقّ الجرس من جديد. "سأثقب طبلات آذانهم" ودقّ ودقّ ثانية.

كان مثل الضرب على حجر، من دون توقّف بنوبة غضب. ما الذي سيمكن فعله إن استيقظ الآباء كلهم؟ سيبقون مستلقين في أسِرَّتِهِم مُنصِتِين. ما الذي يمكن فعله، إن كان للحجارة المجلودة روح؟

"ولكنْ ... ولكنْ ... الكنائس الكاثوليكية مفتوحة ليلاً. إنها مفتوحة، تعال، يا ستيفينسن".

ركضا نازلَيْن السّلّم إلى السياج الحديدي. تسلّقه ياستراو بصعوبة. كان سميناً، وقد علِقَ بالأطراف المُدبَّبة الحديدية "أظنّ أن بنطلوني تمزّق"! شعورٌ دُونيّ! يمزِّق المرءُ نفسه على عتبة الأبدية. يتمزّق بنطلوننا. الريح تهبّ، نصير تافهين، أضحوكة، هنا عند مدخل الأعلى من كل شيء.

كان ستيفينسن قد سبقه في العبور، ركض مثل مهووس، مثل قرد في قفص، هزّ قضبان البوّابات والأبواب الجانبية، لَعَنَ وهَدَّدَ ورَعَدَ.

وأخيراً عبر ياستراو أيضاً. كان الهواء يضرب أحد صفحَتَي فخذَيْه من الداخل. وكان عليه أيضاً أن يحاول مع المداخل كلها. لربّما لم يتمكّن ستيفينسن من فتحها. آه من تلك الأعمدة المرمرية، كانت تعيق الحركة. لم يكن بوسع المرء القفز جيئة وذهاباً عبرها، يجب أن يلتفّ ويلتوي ويقفز. وكان لا بدّ من الدّويّ طالما البوّابات لا تنوي أن تستسلم. الأيدي عارية بينما كانا بحاجة إلى آلة عملاقة لتكسير الصخر. دناءة! مثل أيدي أطفال أمام جدار حجري. ولا صدى يأتي من داخل الكنيسة. لم يسمعا شيئاً. كل شيء كان من غير صدى. محاولة اعتناق الدِّين الفاشلة، هجومهما العقيم على الأبدية قُوبِلَ بالخرس المظلم ذاته.

حينها آلم ياستراو أصابعه، وتعرّقت يَدَاه. من التفاهة أن يؤذي أصابعه، ولكن ذلك كان بسبب العارضة الحديدية للبوّابة الصلبة ذات الزوايا الحادّة. تلك البوّابات كانت مُسلّحة.

"اسمعْ، يا ستيفينسن" قال ياستراو مُتألّماً، وقد كفّ عن الهجوم.

"أعرف باراً قريباً، لا يقفل أبداً ليلاً".

"تمام".

وتسلّقا السياج ثانية. وقد هبّت الريح عبر بنطلون ياستراو. "أعرف باراً مفتوحاً ليلاً" كرّر بطيئاً باحتقار.

ولكن ستيفينسن كان حيوانياً، ركض ذاهباً عائداً على الرصيف. "هيّا، هيّا" ولحظتها عبرا صندوق تعليق إعلانات الصحف للكنيسة، حيث كانت مجلّة دول الشمال الأسبوعية للمسيحيّيْن الكاثوليكيين مُعلّقة خلف الزجاج. رفس ستيفينسن قَدَمَه إلى الخلف بحركة بهلوانية، ضربة مُسدّدة بساق واحدة، وكسر بكعبه زجاج الصندوق الذي صَلْصَلَ متطايراً.

لم يتوقّف ياستراو. كان يسير بسرعة فائقة. الأفعال كلها كانت من دون صدى. سمع فجأة وقع شظايا الزجاج المتساقط على الرصيف.

ولكنه كان مشغولاً كُلّيّةً بالإنجيلية المُحدَّثة المرّة.

"هيّا، يا ستيفينسن، تعال، أعرف باراً، لا يقفل إطلاقاً".

وتبعه ستيفينسن طائعاً.

الفصل الثامن

"لا تشعل الضوء" قالها ياستراو بتنهّد، وركس في مكانه على الأريكة. انعكس وهج الإعلانات الضوئية كضباب مصفرّ في الصالة المظلمة.

"إنه التكرار، كل ما حصل" قالها ستيفينسن مُستهزِئاً. كان جالساً على أحد كراسي الروكوكو جامداً في مكانه حانقاً.

أغلق ياستراو عينَيْه مُتألِّماً، كان يشعر بأن فرائصه ترتعد مثل أرضية مخزن للمكائن، كتلة ضخمة ليّنة ترتجف بلا انقطاع. القلب يخفق مثل محرّك، يضخّ الدم عبر الشرايين من عمق صدره الحالك الظلمة إلى أقصى جفنَيْه مثل تيّار وامض موسيقي من الضوء. زهور ورق الجدران، الأصفر، المحمرّ، الذهبي تجري في غدير بنور الشمس، بينما هو مُستلق في القاع، يُحملِق مغمض العينَيْن في الماء المائج، هكذا يتحوّل كل شيء، أعصابه صارت صوراً أمامه. حساسيّته كانت غير طبيعية، حتّى ما كان يجري في أمعائه من عمليات كيميائية، كان بإمكانه أن يشعر بها، سريعة التّأثّر، وحذرة، فجأة عنيفة، وكأن الفعاليات، وكأنها تستجمع قواها، وتندفع كل مرّة بداخله. كان يتقلّب على الجمر.

"التكرار، هذا هو" كرّر ستيفينسن.

"كفاكَ كاثوليكية" تحسّر ياستراو، وقد وضع يده على عينَيْه. "ها نحن قد حاولنا".

"التكرار، يا يعيش، يعيش! خذْ لكَ شراباً" تشدّق ستيفينسن بكلامه "ويا أهلاً وسهلاً، أيّها العجوز! ... هل استمتعتَ بوقتكَ؟".

"أوه، كفى" قال ياستراو، وتقلّب على الأريكة يميناً ويساراً.

شَرَبا لأربع وعشرين ساعة متواصلة.

"يا له من تحوُّل إلى الكاثوليكية!" ختم ستيفينسن الكلام.

"ولكنْ، باعتقادي ..." قال بعد ذلك بقليل. ولم يُكمل جملته. نهض بصعوبة من مكانه

على الكرسي، وراح يجول بين الغرف. سمعه ياستراو يدخل غرفة النوم، يعبث من حوله، ويطلق شخرات صغيرة. كان هناك صوت صَلْصَلَة.

"ها هي، بيرة الحارس، نسيناها".

دخل ستيفينسن ثانية، وضع الزجاجات بقُوّة على المائدة الروكوكو.

"لنشربها، وننمْ".

فتح ياستراو عينَيْه، فرأى قامة ستيفينسن الطويلة تميل على المائدة مثل خيال ذئب على مرتَفَع. كان يتعكّز على زجاجَتَيْن، كما لو كانتا أطرافه الأمامية.

نهض ياستراو بتنهيدة من على الأريكة. بصعوبة، مرّ في ذهنه الكون بوميض سديمي لمجرّة درب التّبّانة، وأمسك من ثمّ بقنّينة البيرة.

انساب سائل بارد ومُهدِّئ في أحشائه وأطفأ جمره.

وانطلقت تنهيدة عميقة من كرسي الروكوكو. "التكرار" قالها ستيفينسن مُتذمّراً، وهو جالس عند المائدة. "لا شيء غير التكرار. كيف حالكَ؟ جِنْ مع التونيك! ... ونحن اللذان نوينا اعتناق الأبدية!".

"صحيح، ويا له من حظّ أننا لم نتمكّن من الدخول!" ضحك ياستراو، وتحسّس الشّقّ في بنطلونه.

"هل قلتَ حظّاً؟" سأله ستيفينسن حانقاً. لمَعَ الانعكاس من الإعلانات الضوئية في الزجاجة حين اعتدل في جلسته.

"تخيّلْ لو كنّا الآن قد اعتنقنا دِيناً؟" قالها وهو يشعر بقشعريرة في بدنه "إنه شعور مقرف لمُجرّد تصوّري ذلك".

"لم تُقصِّر والله، تستحقّ الشُّكر" قال ستيفينسن بجفاء، ونهض من مكانه. لكنه بُمْ، وسقط ثانيةً في مكانه.

لم يجبه ياستراو. كان هناك شيء ما لم يستوعبه. كان ستيفينسن ثملاً، بسبب مشروب عتيق في دمه، ولكنه بدا وكأنه قد اتّخذ قراراً ما.

"اسمعْ، أنتَ تستحقّ الشُّكْر فعلاً" واصل ستيفينسن بنوبات غضب على دفعات. "أنتَ مثل أبي. علاقتكما ذاتها مع المسيح، وفي الوقت نفسه، لا علاقة لكما به."

"هراء" قال ياستراو بانزعاج وتعب، وقام بحركة من يده، وكأنه يودّ كنس ما قيل. لم يأبه ستيفينسن إليه. اشتدّ لذع ما يقوله أكثر وأكثر.

"لنقل كبار السّنّ، إنهم خَرِفون، دعهم يندمون على العالم الذي خلّلوه، وصنعوا منه المُخلّل. ولكنْ، أنتَ خرف وغبي في الثلاثين من عمركَ، اللعنة عليكَ."

"ما الذي يحدث لنا؟" سأل ياستراو، وأحنى جسده للأمام. أبحرت العَتَمَة من حوله برائحة -الموريلد-(*). لم يدعه ستيفينسن اللجوج وشأنه. "ما الذي جرى لنا؟" كرّر وهو يرصده، ويخفض جبهته استعداداً للهجوم.

"ما الذي جرى لكم، وليس لنا؟ هه، أنتم لا تفكرون بعمق كذلك" زمجر ستيفينسن، ولوّح بالقنّينة بيده حتّى طار بعض من البيرة، وسقط بصوت ناعم على السّجّادة. "هه" ثمّ ضحك، "أنتم تريدون أن تخترقوا الحياة بالخداع، قليل من المشاعر، قليل من العدالة، قليل من التّفهّم للجهات كلها".

كاد ياستراو أن يثور قبل أن تسقط الجملة عليه مثل لمعان في الظلمة.

"أنتَ كنتَ تريد أن تفهمني طوال الخطّ، كان من الأفضل لكَ أن ترميني خارجاً، حتّى في المرّة الثانية".

وجفّف ستيفينسن فم الزجاجة بباطن يده، وراح يتغرغر بها.

غمز ياستراو بابتسامة مربكة، ومال أكثر إلى الأمام، وكأنه ينوي الزحف نحو تلك القامة المعتمة على الكرسي.

"عليكَ أن تتذكّر أنكَ أضحوكة ... إلى الأبد" قالها ببطء وخبث.

"أنا؟ أنا؟" قالها ستيفينسن بحدّة "ولكنْ، لستُ أنا السينتمينتالي، بل هو وأنتَ وهؤلاء الآخرون".

وفجأة التقط إحدى أغطية قناني البيرة المعدني، وألقى بها، حيث لاحت صورتا الأمّ والابن مثل بقع ضوئية في العَتَمَة.

الغلاف المعدني ضرب الزجاج، فسقطت إحدى اللوحَتَيْن على سطح الطاولة.

(*) Morild ظاهرة طبيعية تطفو فيها على سطح البحر والضفاف، بانتشار بقع ألوان فسفورية، تختلف بحجمها مصدرها تفاعلات كيميائية لطحالب معيّنة.

صرخ ياستراو من دون تفكير "اشكرْ ربّكَ أن زجاج الصورة لم ينكسر".

"ما الذي سأشكره عليه؟!" ضحك ستيفينسن، وقذف بغطاء آخر. طار إلى زاوية المدفئة. "السينتمنتالية!" واصل ونهض. "أمّه وابنه! هه"، صور القدّيسين ... معبد ... أناس .."ومدّ ذراعه المظلمة صوب الصورتَيْن، وفي اللحظة، قفز ياستراو من مكانه، وصرخ بصوت حادّ.

"لعلّكَ لا تعرف أن أمّكَ ماتت".

حلّ الصمت فجأة. وقفا في الظلمة أمام بعضهما بمسافة، تحسّسا عبرها أنفاس بعضهما. لمعت الأعين. كانا ظلَّيْن خطرَيْن، لم يتمكّنا من قراءة وجهَي بعضهما. الأذرع ارتفعت قليلاً لكل من جَسَدَيْهما، وكأنهما يوشكان على الانقضاض على بعضهما باللحظة التالية، ليقبضا على عنق بعضهما وخنقه.

"هل ماتت أمّي؟" سأل ستيفينسن بنغمة شاكية، والذراعان هبطتا إلى الجانبَيْن. "لا تقل إن الخبر صحيح؟" أسرع، وأضاف بفظاظة. "لا يمكن، لا يمكن، رغم أن العجوز ... آه، لذلك كان مرتدياً ثياب حِداد، وأنتَ لم تخبرني؟ كنتَ تعرف، ولم تخبرني، كل هذه الفترة و... و...؟! أيّها ... أيّها..".

وبحركة غير متوقّعة، نطّ بقفزة واحدة على ياستراو، فسقط كل منهما على المائدة التي اهتزّت. انسحب جهاز الهاتف، وسقط على الأرض، ودوّت قطعة معدنية انفصلت بسقوطها. كان ستيفينسن هو الأقوى والأشدّ بأساً بينما تدحرج ياستراو بجسمه اللّيّن إلى حافّة المائدة الحادّة التي كانت تقطع في ظهره. حفّت لكمة جانب خَدّه، فشعر بشيء حارق يصيبه. وبموجة غضب،ه راح يركل بقَدَمَيْه سيقاناً، ويركل ثانية، ثمّ قفز برئير، ولكنه اصطدم بقَدَم المائدة هذه المرّة.

أين كان ستيفينسن؟ كان هناك أنين بين المائدة والأريكة، وقُبِضَ على ساق ياستراو، والقبضة تسلّقت إلى أعلى، وكأن جسده كان يُسحَب عبر فتحة برميل ضيِّقة. ولكنه سيقضي عليه. لكمة تمّ تسديدها في الظلمة. لقد ضربت كتفاً ما. شعور بالانتصار للرّدّ بالمثل. مَنْ ذا الذي يجرؤ على المجيء هنا وهدم بيته ؟ معبد! سيحصل على معبد له في الظلمة هناك. كان معبداً بالفعل، أطلال، صور قدّيسين. صورة قدّيس! هاك تفضّل! في وجهه! وواحدة أخرى. وأخرى!

آلام واخزة في فخذه! صرخ ياستراو، وهو يحاول التّخلّص من ستيفيسن. دودة مصّاصة الدماء سوداء عملاقة نَمَتْ من الأرضية، جسد التحم مع السّجّادة والظلمة والأريكة، حيوان من دون شكل، ولكنْ، لا يمكن نفضه والتّخلّص منه.

لقد غرز ستيفينسن أسنانه عالِقاً في جسمه.

ولشدّة خوفه، راح ياستراو دَفْع الرأس الداكن، راح يصرخ، ويصرخ، ويصرخ، وهو يرفس بقَدَمَيْه. حيوان من دون قوام. حيوانية! ظلمة ذات أسنان.

ثمّ وقف ستيفينسن فجأة بطول قامته أمامه. جأر بصوت مبحوح عَيّي، "أمّي" ووصل صوته إلى أمكنة مجهولة.

ولم يُمكنه فعل شيء غير أن يرمي بنفسه عليه، فلم يكن بمقدوره استخدام تلك الذراعَيْن الطويلَتَيْن القويَّتَيْن. وتقلّبا بعدها في فضاء الغرفة المظلمة. صرّ كرسيّ. صَلْصَلَت كؤوسٌ. وانقلبت المائدة الكبيرة بالصورتَيْن. تدنيس للمُقدّس! هل كان هذا في الأحوال كلها جزءا من سلوكهما؟ تدمير كل شيء، الدّوس على كل شيء. دمار عبثي! هَدْم!

تدافعا ملتفَّيْن إلى المدخل، متعالقَيْن لاهثَيْن. قسّى ياستراو بطنة اللّيّنة المترهّلة، ومال بجسمه الثقيل إلى الأمام، لكي يزيح ستيفينسن عنه. أن يزيح ذلك اللحاف الذي شلّ حركته. تحسّس ياستراو فجأة نقطة ارتكاز بكعبه. الجدار من خلفه، كانت قُوّة، لا يمكن غلبتها. نقطة أرخميدسية. وبحركة وحشية تطويقية، أمسك ياستراو بقُوّة بكتفَي ستيفينسن، الرجل بأكمله كان بين يَدَيْه، ثمّ ضربه بأحد نوافذ باب المدخل، فدخلت رقبة ستيفينسن عبرها، وتطاير زجاج النافذة مُصَلْصِلاً على درجات السّلّم.

حضن ياستراو باللحظة عدوّه، متخوّفاً مرعوباً، انزلقت يده ممسكة برقبته، تتحسّس الصداقة السّكرى وهي تنهض فيه والحزن والتعاطف والخوف، لئلا يكون ستيفينسن قد أصابه شيء ما. كان يتوقع أن تترطّب يده بالدم.

"لا أظنّ أنك قد جُرِحْتَ، يا صديقي" قال بلطف مُتنهِّداً، ثمّ سحبه إلى الصالة الكبيرة، كي لا يقع تحت غواية ضربه من جديد في النافذة الأخرى لباب المدخل.

كان ستيفينسن يترنّح مرتبكاً.

تحسّست يد ياستراو عنقه ثانية وثالثة "ليس هناك نزف، يا صديقي" قال مبتهجاً، وقبّله على خَدَّيْه. أخذ رأسه بين ذراعَيْه، الصداقة والروح الطّيّبة، القديم، القديم، الصداقة التي لا يمكن فهمها، وعادت، من ثمّ، موجة النقمة، لتصحو فيه من جديد، فصفع ستيفينسن على خَدّه صفعة مُدوّية.

حينها نهض ستيفينسن بقامته فجأة أمامه، فتمايل، ورجع ياستراو إلى الخلف. صار لستيفيسن الآن مكان من حوله. لم يعد هناك جسد ياستراو الضخم، ولا تطويقه لذراعَيْه، ولا وزنه الثقيل من حوله. كان بإمكانه الآن أن يضرب، وقد كانت ضربة واحدة فقط، قوية مباشرة، سدّدها إلى ذقن ياستراو.

تهاوى ياستراو إلى الخلف، وسقط في عَتَمَة. كانت السماء تُمطر شظايا زجاج، مطراً خفيفاً، صوت يرفرف في العَتَمَة، الآن صوتان. اشتبكا مثل طائرَيْن ضخمَيْن. كانا يتعاركان حافيَي الأقدام على الأرضية.

"أيّها العبيد السُّكارى!".

واشتعل الضوء فجأة.

استعاد ياستراو وعيه للحظة، وصّر عينَيْه. عامت الصالة بضوء محمرّ، وهناك عند زرّ الكهرباء، كان الحارس أحمر الشَّعْر واقفاً، ولا عليه غير قميص فقط. كان يبدو غاضباً.

"ما هذا التّصرّف؟" قال لستيفينسن مُتذمّراً.

عادا للعراك من جديد، وغاب الضوء الأحمر في ضباب.

"هلا حملنا هذه الكركوبة إلى الأريكة".

شعر ياستراو بأنه كان محمولاً.

"آخ" وضحك الحارس "ليس من السهل أن تكون راقصاً حافي القَدَمَيْن".

واستسلم ياستراو إلى النوم.

"الأصحّ رقصَ على الزجاج المكسّر، هه هه".

وقع خطوات الأقدام العارية قبل أن تخيّم الظلمة، ويحلّ الصمت من حول ياستراو.

الجزء الرابع
وتُطفأ الشموس كلها

الفصل الأوّل

رنّ الهاتف من جديد.

فتح أوله ياستراو عينَيْه. بلى، قد رنّ الهاتف قبلها، كان يرنّ في الحلم.

ولعادة قديمة لديه، مدّ يده، ليرفعه. الطاولة قريبة منه، ولكن الجهاز كان على الأرض. آه، عراك البارحة! تذكّر صوت الزجاج، مزعج مثل السّكّر بين الأسنان. الآن وفي ضوء ما بعد الظهر، كانت الكراسي مقلوبة، والباب إلى المدخل مشرّعاً. كان بإمكانه أن يرى تلك الثقوب التي اتّخذت أشكال نجوم في النوافذ الزجاجية للباب، والضجيج من السّلّم قد وصل إلى مسامعه في الصالة.

حاول أن يعثر على الهاتف بيده. لا يريد التفكير، التفكير.

"معكَ أوله ياستراو" قال في سمّاعة الهاتف، وبقي مستلقياً على ظهره، وقد غشي ضوء النهار عينَيْه.

"معكَ فولدوم، أتصلُ من المكتبة، الأمر مستعجل".

"ارفعْ صوتكَ" أجابه ياستراو مُنزعِجاً.

"أتصل بكَ بشأن جولتكَ الاضطرارية إلى شارع ستينوسغيذه".

"أعلى".

"لا يمكنني رفع صوتي أعلى من ذلك" قالها فولدوم بصوته الواهن. "لا بدّ وأنه الجهاز. ولكن الشائعات انطلقت بخصوص محاولة اعتناقكَ ديناً، حتّى إنها وصلتْني. أعشاش زنابير الكاثوليكية كلها تطنّ الآن".

"هه هه، إنهم بحاجة إلى إنعاش أيضاً هناك" وضحك ياستراو.

"لا يجب أن تأخذها بهذا المنحى، عزيزي أوله، لا تنسَ أنهم يسوعيون، هم يفكّرون بتحويلها إلى قضية جدّيّة. لهذا أسرعتُ ... " اختفى الصوت إلى خشخشة غير واضحة.

"أكاد لا أسمعكَ نهائياً".

"اللعنة، ماذا أصاب هذا الهاتف؟ أنا أسمعكَ بوضوح، ولكنْ، حاول أن تسبقهم".

"مَنْ؟ ماذا؟"

"هؤلاء، الذين في شارع ستينوسغيذه. يقال إن هناك زجاج نافذة مكسوراً".

"وماذا في هذا؟"

"عليكَ أن تذهب إلى الأب غارهامر لتعتذر منه، وتسدّد قيمة الزجاج".

"هه، كفى، يا هذا".

"كما تشاء، ها أنا قد أنذرتُكَ" قال فولدوم ببطء. "ولكني فكّرتُ بأنها مادّة دسمة للصحف الصغيرة، تَذَكّرني، إنكَ متورّط مع اليسوعيّينْ. رئيس المراجعين في جريدة داوبلاذيت، ومحاولة اعتناقه لدِين جديد، زجاج مكسور، هذه ليست بمادّة مملّة للأخبار المحلّيّة إطلاقاً".

ضحك ياستراو. شعر فجأة بالانعتاق. كم بدا كل شيء سِيَّان لديه. لا يمكن الآن مَسّه.

"هذا قد يُضعف موقفكَ في الجريدة وهو مُسبَّقاً ليس جيِّداً".

"وليكن، دعهم يفعلون" ضحك ياستراو.

"أنا اتّصلتُ من أجلكَ، عليّ العودة الآن إلى صالة القراءة. مع السلامة، وها أنا قد بلّغتُكَ، وأنا أعتقد ... في رأيي أن عليكَ الذهاب إلى الأب غارهامر، والاعتذار منه. نكمل حديثنا لاحقاً، مع السلامة".

"مع السلامة، وشكراً للُطفكَ" أجاب فولدوم باستخفاف. صار غيرَ قابلٍ للجرح الآن. كل ما يؤلمه من قبل في الجريدة، كل ما من شأنه أن يُضعف ويقوِّض منصبه لم يتعدّ كونه محض صوت، سيُغرقه بمرور الوقت صوت خشخشة، صوت واهن في سمّاعة هاتف معطّل. لا شيء يمكن أن يجرحه بعد الآن.

أعاد السَّمَّاعة إلى مكانها على الأرض، ونهض. لم يعرف فولدوم إذاً بأنه قد قدّم استقالته في الجريدة، وبأنه أخيراً قد وصل الآخرة. يا له من أمر ممتع! الكل عاجز الآن عن إيذائه. نصائحهم القيّمة، تحذيراتهم، سوء نِيّاتهم ومكائدهم. إنها لا شيء سوى أصوات غير واضحة في سمَّاعة هاتف مكسّر.

والواقع الذي يحوّطه، قِطع الأثاث المقلوبة، ظَهْر الكرسي المقلوب، الزجاجة المكسورة لنافذة باب المدخل، هل بإمكانه بالفعل أخذ ذلك كله بجدّيّة؟ الكثير الكثير ينكسر في الإنسان حتّى إنه يجد ذلك في النهاية مضحكاً. أليس هناك ما يُسمّى "المطبخ المرح" في تيفولي، ولمبلغ خمس وعشرين أوره، بإمكانكَ أن تكسّر ما شئتَ من الصحون؟

في هذه النقطة، كان ستيفينسن مجنوناً.

ولكنْ، هنا في هذه النقطة، كان ياستراو الأقوى.

كيف حال ستيفينسن، يا ترى؟ هل غادر مثل آنا ماريا؟ هل وصل الدمار إلى نهايته؟

شعر ياستراو بفمه يفترّ عن ابتسامة. تُسمّى ابتسامة دهاء ومَكْر. وراح ليدخل غرفة نومه.

شمس الضحى ساطعة قوية في الغرفة. كان ستيفينسن نائماً بشكل مائل على السرير بكامل ملابسه. يشخر مفتوح الفم.

للحظة، أخذ ياستراو يتأمّل هذا الوجه اليابس. قد خلا من الألغاز الآن. شَفَتَان غاضبتان. أسنان ضيِّقة كثيرة، جبهة عالية جدّاً كانت تغطّي على منطق من فقد صوابه. لم يكن حليقاً كذلك. التفّت ياقته حول تفّاحة آدم مثل شريط باندج وسخ لكفٍّ مضمومة.

أضحوكة إلى الأبد!

تناول ياستراو أدوات الحلاقة، وذهب إلى غرفة المعيشة ثانية. قام بصوبنة ذقنه. كان يجول مرتدياً بلوزة صوفية، وبنطلوناً بقَدَمَيْن حافيَتَيْن. أين آنا ماريا الآن؟ كان يُصوبن وجهه بفرشاة الحلاقة بقُوّة. آه، تلك الطفلة الصغيرة المذعورة! كانت حمّالات بنطلونه متدلّية حول ساقَيْه. لقد كان شيطاناً مهرّجاً! إنها، ولا شكّ، تدور الآن في الشوارع والأزقّة. شرع يكشط أحد خَدَّيْه بالموس أمام المرآة. لا بدّ وأنها ستذهب إلى الحضيض! انقلب وجهه وهو يحلق، وارتسمت ابتسامة على شَفَتَيْه المقلوبَتَيْن. ابتسامة داهية! لقد كان غير قابل للجرح.

طرق باب المدخل. تحرّكت ساقاه حركة تنمّ عن انزعاجه. تسرّب الهواء إلى ساقَيْه. ذلك الشّقّ الكاثولكيكي في بنطلونه! كيف سيخيطه؟.

واستدار.

كانت امرأة تُطلّ مصعوقة عبر الثقب الكبير بشكل النجمة في زجاج نافذة الباب. رأى جزءاً

من وجهها، شيئاً من العينَيْن المضيئتَيْن الحادَّتَيْن. وقد وقعت عيناها هي أيضاً عليه. توجّب، عليه، على أيّة حال، أن يفتح الباب. ولكن وجهه أبيض برغوة الصابون في أحد خَدَّيْه. وقد كان يرتدي بلوزة صوفية، وبنطلوناً قد تمزّق، مَن الذي يعلم أن الشقّ كان ناتج معركة روحية؟ عليه، رغم ذلك، أن يفتح. مَنْ هناك؟.

فتح الباب، وللمفاجأة، فقد رفع يده بماكنة الحلاقة التي كان تقطر صابوناً.

"مستحيل، سيِّدة كرويه؟".

نعم. كانت هي. وقفت عند الدرج مرتدية الرمادي الفاتح. ولكن عينَيْها اتّسعتا مذهولتَيْن، تكاد تعميان بينما مال جسدها إلى الأمام، وكأنها توشك أن تسقط عليه.

"إذاً، العنوان صحيح!" غمزت بعينَيْها، واستعاد وجهها انطباعه الرمادي العميق. نعم، اسمكَ مكتوب في اللوحة على الباب، ولكنْ...".

انحنى ياسترا وبأدب، وابتسم. قارب الصابون أن يجفّ، ويشدّ خَدّه.

"نعم، المعذرة، سيِّدتي، كمَا ترين أعيش حالة حصار".

"أرى ذلك" أجابت وهي تسحب نَفَساً طويلاً.

"هل أجرؤ على دعوتكِ، لتري الأطلال؟" كما لو أن ارتجاجاً حدث في دماغه، كانت أشعّة الشمس ساقطة على مدخل السّلّم، وانعكاسات ضوئية طويلة لامعة في بدلة السَّيِّدة كرويه الرمادية.

"آآآ، لا أدري حقيقة إن كنتُ أجرؤ" قالتْها بابتسامة، وضحكت فجأة "أليس من الأفضل أن تُقفل الباب الآن، وتدخل لتأتيني بكتاب جويس، تناولني إيّاه عبر هذا الثقب".

"إنه سميك جدّاً، الكتاب، وإن كنتِ تريدين حضرتكِ الحصول عليه، فيجب أن تتجرئي، وتدخلي".

خطت السَّيِّدة كرويه ببطء إلى الداخل. كانت تطأ بقَدَمها على الأرض بحذر، وكأنها تسير في مستنقع. نظرت إلى ما حولها بذهول ويعجز وحدها، وعندما توقّفت وسط الصالة ضمّت قَدَمَيْهَا إلى بعضهما، ونظرت إلى الأسفل أمامها، كأنها كانت تخشى أن تتلوّث. أرعبتْها الكراسي المقلوبة، الصور التي طافت على أرضية الغرفة، شظايا الزجاج، القناني وأغلفتها.

"يا له من منظر؟".

"نعم، لقد جرى نقاش هنا" أجابها ياستراو، ولوّح بماكنة الحلاقة. وكانت هناك ابتسامة تُسمّى ابتسامة دهاء ومَكْر.

بيتر بويسن يُحيّي السعداء كلهم!

"هل من الصعب جدّاً على رجل أن يعيش وحده؟" قالت السَّيِّدة لويسه، وهي تتفحّص وجهه. "هل حضرتكَ هكذا؟".

جلس ياستراو على الأريكة، وفرك وجهه بخجل، وقد التصقت أصابعه بالصابون الذي تخثّر.

"عليّ أن أُنهي حلاقتي" أسرع بالقول "هل تجرئين على البقاء وحدكِ ريثما أهمّ بـ ...؟".

"بلى، يمكنني ذلك" أجابت بسخرية "ولكنْ، لا أخفي عليكَ شعوري بأني مروّضة حيوانات."

كانت تقف منتصبة القامة بينما كانت تبتسم.

جمع ياستراو ملابسه كلها، القميص، الياقة، الجاكيت والصديري، لفّها مثل صرّة، ورمى بها في غرفة الطعام.

"سأعود بالحال" قال لها. هل رأت الشّقّ في بنطلونه؟ الشقّ المخزي. لا شيء مهين مثل شقٍّ في بنطلون، والحمّالات أيضاً، أن يرتدي بنطلوناً، من دون حمّالات، وهذه، والحمد لله، موجودة. كانت مُتدلّية، تتأرجح من خلفه مثل ذيل مهرّج، أمسك بهما، وقد احمرّ وجهه، وهو يهمس "سأعود بالحال" وأغلق بعدها الباب ذا الدَّرفتَيْن من خلفه، وصار وحيداً في غرفة الطعام.

أتمّ حلاقته على عجل بينما كان يتحرّك بقلق في مكانه. خشيتُهُ أن يستيقظ ستيفينسن الآن. وقف عند باب غرفة النوم، وأنصت بينما كان يحلق ذقنه. لا، إنه نائم. كان بإمكان ياستراو أن يسمع ذلك. ولكنه يسمع خفقان قلبه هو أيضاً، بسبب إجهاده. آه، لو كان لديه قنّينة بيرة! والسَّيِّدة كرويه؟ سمع صوت تحريك كرسي. غير مسموح لها ذلك. اللعنة، غير مسموح لها نهائياً أن تقوم بترتيب شيء في المكان، أن تكون ربّة بيت. عليه، إذنْ، الاستعجال بارتداء ملابسه. ذهب ليغتسل في المطبخ خوفاً من إيقاظ ستيفينسن. ارتدى الصديري والجاكيت. لو لم يكن ذلك الشّقّ في البنطلون. ما الذي سيفعله؟ عليه أن يتناول معطفة الخفيف من المدخل.

عليه أن يدعوها لنزهة.

وبمعطفه الصيفي، وقُبَّعته اللّيّنة وبكتاب جويس السميك تحت ذراعه، خطا إلى داخل الصالة، حيث السَّيِّدة لويسه. كانت جالسة على أحد الكراسي، وأخذت مكانها الصحيح الآن. ورأى صور الأمّ والإبن كانتا قد وُضعتا على الطاولة أيضاً. ابتسم ممتنّاً لها، ولكنه لحظ خلالها ما وخزه، إن زجاج صورة الابن قد تصدّع.

"المكان هنا يغمّ النَّفْس حقّاً" قالها بنرفزة. اخترقه الضوء الذي انعكس من صدع صورة الابن."هلا غادرنا؟".

"بالطبع، يا ليت" أجابت السَّيِّدة لويسه، ونهضت. "ها هو الكتاب أيضاً، كما قلت سميك حقّاً".

قابلا حارس البناية على السّلّم الذي كان يجرّ بضع ألواح. عندما رأى السَّيِّدة لويسه غمز بعينه السماوية لياسترا.

"جئتُ بهذه الألواح لسَدّ الثقب في باب المدخل مُؤقّتاً، وإلا فالكل، في الحقيقة، سيدخل ويخرج على راحته، أليس صحيحاً؟".

أومأ له ياستراو برأسه.

"واتّصلتُ بمحلّ تركيب الزجاج، ليتمّ تصليح النافذة، يا لي من حارس عمارة! أليس كذلك؟! هه هه، أستأذنكما".

وكتم ضحكة وهو يواصل صعود درجات السّلّم بالألواح.

"أين سنتوجّه؟" سأل ياستراو عندما وقفا على الرصيف. كان يشعر طوال الطريق بعينَيْها الرماديَّتَيْن تتابعانه.

"أينما تحبّ. لديّ وقت كاف. زوجي قد سافر كما تعلم".

"أليس طريفاً أن تكوني أرملة اليوم من باب التغيير".

"أنا، في الحقيقة، أرملة طوال الوقت" قالتْها بمرارة، واكتسى وجهها فجأة بانطباع جافّ قديم.

نظر إليها ياستراو بجدّيّة، وقد تجنّبت النظر إليه هذه المرّة.

"هلا تمشّينا في حديقة فريديريكسبيرغ؟"، لفظتْها حديقة فريسبر، وحرّكت فمها مثل طفلة. "هل نذهب؟ بلى، نروح، بلى بلى" وأمسكت بذراعه باندفاع، ولكن عينَيْها لم تكن في عينَيْه.

"حديقة فريديريكسبيرغ" كرّر ياستراو ببطء. هل يمكن أن يكون أولوف يلعب هنا الآن؟! كان أهل زوجته يسكنون بالقرب من الحديقة. كان هناك صدع في زجاج لوحة ابنه! مثل ضوء! لقد أصابتْهُ في الصميم.

"حسناً، لنذهب" قالها مع تنهيدة، وشعر أنه كَمَنْ يُسلِّم نفسه للقَدَر.

ارتكب بعض الأخطاء في أثناء سيره في زحمة مرور ما قبل الظهر في شارع فيستربروغيذه. كانت البلاطات، وكأنها ستنفتح، وتبتلعه، كان يرفع قُبَّعته، ويُمسِّدها، ويعيدها إلى جبينه المتعرّق. ولكنه تابع الحديث من دون توقّف، لينسى دواره. كان من شأن قنّينة بيرة أن تُهدِّئه.

"لن تتمكّني من قراءة هذا الكتاب أبداً" قالها مازحاً، وهو يُلوِّح بكتاب جويس. "الكتاب مع دليل استخدام مُرفَق به".

كانت السَّيِّدة لويسه تتهادى في مشيتها إلى جانبه. كانت صامتة تماماً، وخشي ياستراو أن تُوجِّه له فجأة أسئلة ما. كان يعلم أنها ستصبّ فيه مثل شلال، مياه ذكية ولامعة، تُلقي بانعكاساتها الضوئية عميقاً بداخله إلى ذاته، الكهف المظلم، وسيكون عليه أن يبوح بكل شيء، ويُسلّم نفسه. لمع الثوب الرمادي، والعيون الرصاصية تخطف نظرات طويلة، وتنطفئ ثانية، كما لو أنها تنغلق بداخلها، وتعود لتفكّر، تفكّر من جديد، بينما كانت، بهدوء، وبوعي كامل، تُجاري خطواته.

كان شارع فريديريكسبيرغ أليه المشجّر واسعاً جدًّاً، كَمَنْ يطلّ على بحر. لم تكن هناك سكك حديد للتِّرامات، إسفلت منبسط، وهو لم يفكّر من قبل في أن السكك من شأنها أن تجعل الشوارع تبدو ضيِّقة. شعر بذلك الآن. وشعر أيضاً لحظتها بحنين لسكك التِّرام.

والمدخل إلى حديقة فريديريكسبيرغ! جدران صفر وحي بيوت فلاحي الحديقة الصفر وأغطية المجاري من الحديد المشبّك من طراز القرن الثامن عشر! حالما يدخل المرء هذا المتنزَّه يشعر وكأنه داخل إلى مملكة أوروبية صغيرة، يشعر بجمال ذلك الوَهْم المَلَكي الذي يحلّق في الوهج الأصفر. وتمثال ذلك الرجل البسيط، المستبدّ المتريّض(*) بدا وكأنه يُرحّب بهما أجمل ترحيب.

"دنمارك!" ضحك ياستراو بتلقائية.

"نعم، وأنا أحبّها" قالت السَّيِّدة لويسه.

---

*) الملك فريديريك السادس 1768-1839

"بالطبع، فحضرتكِ متزوّجة من رجل محافظ أيضاً".

فسألتْهُ "هل تسخر منّي، لأنكَ خرجتَ من المؤسّسة الزوجية؟".

وصلته بنغمة، شابها بعض الجفاء برأيه.

"هل الحياة أفضل في الحصار الذي تعيشه؟" وأسرعت لتضيف تحسّباً لجوابه "وقد تكون مرتاحاً لذلك".

شعر ياستراو بأن عليه ألا يواصل.

استدارا عبر الممرّ إلى اليسار. ذرى الأشجار الكبيرة الخضر كانت تنثّ هواء بارداً من فوق رأسَيْهما، ومن بين جذوع الأشجار المهيبة، أغراهما مطعم جوستي الصغير بطراز المعبد الروماني، رمادي ومثالي بطابع قدسي وثني زائف.

ولكن أمام جوستي على المساحة المبلّطة بين صفَّيْن من البيوت الصيفية، كان المكان مزدحماً بالأطفال. عربات الأطفال كانت تتدافع من دون توقّف، خارجة وداخلة.

المُربِّيات صغيرات السنّ كنّ يدفعن العربة آلياً بيد، وباليد الثانية يشربنَ القهوة. العديد من عربات الأطفال وهي تُحدث الصرير ذاته في الحركة. كم كان العالم ممتلئاً بالأطفال! ولدان صغيران ركلا الحصى على البلاطات، مثل صوت ارتطام الموجة. من خلف قضبان البيوت الصيفية، كان هناك أطفال يلعبون لعبة الاختباء، ثمّ ظهرت من بين الأحراش طفلة صغيرة ذات وجه مدوّر بغُرّة تشبه دمية يابانية. وعلى سطوح الطاولة، كان يُسمَع صوت وقع طرقات معدنية صغيرة لمخالب العصافير الأليفة التي تتقافز قلقة بحثاً عن فتات الكيك والسّكّر. تلك الأصوات كلها تجمّعت، وهيمنت على ياستراو، كان لها فعلها في نفسه مثل مدٍّ من الحزن. الأطفال!

وبشعورٍ بالهَمّ بشكل غريب، عَرَضَ ياستراو على السَّيِّدة لويسه من أجل أن تتقدّمه، وتخطو داخل المطعم.

"أليس من الأفضل أن نجلس خارج المطعم؟" قالت له "جوّ شمس رائع !".

"لا لا لا" أجابها بحزن. لا يريد تحريضاً. تقدّمها، ودخل، وعثر على طاولة في أقصى الخلف بعيداً جدّاً، بعيداً جدّاً، بعيداً قدر الإمكان عن الأطفال.

"بالإذن من حضرتكِ، سيِّدتي، سأطلب لي زجاجة بيرة" كان يجلس قبالتها، وهو ينظر بسخرية منهكة في عينَيْها العميقَتَيْن الرصاصيَّتَيْن "مثل السُّكارى كلهم عليّ ببيرة الصباح، لكي أهدأ".

"سِكّير! أنتَ، ولا شكّ تتباهى بذلك" قالت له بابتسامة متألّقة، وسحبت كتاب جويس إليها.

"لا، ولا شكّ ذلك كل ما هو أنا!".

"ولكنكَ ناقد أيضاً، بل وناقد جيّد!".

"لا، ولا شكّ ذلك ليس أنا، أنا سِكّير".

ضحكت السَّيِّدة لويسه.

وجاءت القهوة خلال ذلك، ووُضعت أمامها، وأمامه وُضعت البيرة. نظرت إلى الزجاجة الخضراء بتهكّم. ارتسمت حول فمها الكثير من التعابير لامرأة مجرّبة.

"ماذا تقصد بأن حضرتكَ سِكّير؟ ما هو السِّكّير؟" سألتْهُ فجأة بانزعاج للمناكفة. كان وكأنها بلحظة قد قرّرت أن تقتحمه. رفع كأسه، ورشف منها، وهو يشعر بهدوء حزين.

"أريد أن أُسهّل الأمور على نفسي" قال لها، "وأرصد ما يصعد على السطح منّي". تناهى إلى سمعه صوت صخب الأطفال في البعيد، شعر بأن عليه أن يكون صريحاً معها. كانت عينا امرأة ذكيَّتَان تُحدِّقان فيه. "سيِّدة كرويه، سيِّدة لويسه هل تسمحين بمناداتكِ بذلك؟ ... أنتِ تعرفين، ولا شكّ، تلك الكهوف التي ترينها في أحواض الأسماك، تلك التي بالضوء الأخضر الكابي والأحمر والسمك الأخضر الذي ينزلق ويظهر في الأمام والطحالب التي تودّ أن تعوم كما لو لتطلع من الحوض، هكذا أريد أن أكون، وهو ما أشعر به حين أشرب".

"لا يحتاج هذا كله، كي تشرب من أجله، حضرتكَ، هكذا نشعر جميعاً" أجابتْهُ، فابتسم.

"ولكنْ، حينما تقع العين على شيء غير متوقّع، سمكة برأس مثل منقار، وجسد حادّ مثل سكّين أو بالأحرى مثل مبرد بعينَيْن شرّيرتَيْن، تلك الأشياء كلها التي لا تتوقّعين أنها بداخلكِ أو تشبهينها".

"ونخرج من بعدها إلى ضوء النهار، وتلك الكائنات كلها ستختفي".

"حقّاً؟".

"لا، ليس هكذا، ولكنْ ننساها".

بدت على يقين في إجابتها له. شبكت يَدَيْهَا المتنرفزتَيْن، وكأنها ودّت أن تضرب الطاولة، وراحت تتحدّث بسرعة مضاعفة لسرعته في الحديث. بين حين وحين، كان يتحدّث ببطء عبر أنفه بلهجة كوبنهاجنية خفيفة.

"ألا ترين هذا معي، إن من الطرافة رؤية هذه الحيوانات؟".

"لا".

"ولكني أرى ذلك، وذلك هو الشيء الوحيد الذي أجده طريفاً جدًّاً".

"ذلك لا يحتاج لتكون حضرتكَ سِكّيراً، وأنتَ لستَ كذلك أيضاً" قالتْها، كما لو أنها كانت تريد أن تُنهي الموضوع.

"لسبب غير مفهوم؛ بلى! لأن عينَيّ تقعان على حيوانات، لم أكن قد رأيتُها. حيوان يغمز بعينه يبعث رعدة كهربائية في جسمي. مؤخّراً، أحسستُ بالمسيح بهذه الطريقة".

قالت السَّيِّدة بتهكّم "ولكنكَ قلتَ حيوانات!".

"حسناً، لنقل قامة ما أو أشكالاً روحية أو ما تشائين، حضرتكِ. وبالمناسبة، عادة ما يرمز إلى المسيح بالسمكة، أليس كذلك؟ ولكن عينَيّ على العموم وقعتا عليه، قامته وقفت من دون حراك في روحي، صامدة، ولهذا السبب ترين هذا الشّقّ في بنطلوني" قال ذلك في محاولة منه لإضفاء النكتة، فقد كان قد حرّك ساقه، فشعر بالهواء يتخلل الشّقّ المهين في بنطلونه.

"هل أنتَ مجنون؟" قالتْها مباشرة، وهي تُحدِّق في وجهه. تملّكها القلق.

"لا، ولكني لستُ ناقداً، ... أؤكّد لكِ أن قامة المسيح كانت أمامي، وقد غمزت لي بعينها" وضحك من ثمّ "ولكنْ، لي صديق عزيز نبّهني إلى أن المسيح، بالطبع، لا بدّ وأن يكون حالة استذكار من أيّام المدرسة، ... وذلك لم يعجبني، لأني أريد أن أوقظ هذا الحيوان أو ال "الشكل الروحي" الذي برز من عمق حوض السمك. سمكة برأسٍ مصفّحة وملحقات وحافّات حادّة وعين جاحظة. هل تعرفين كيف حضرتكِ حين يضرب أحد ما عينه بنفسه، ليرى رؤى، رؤى ملتهبة".

طمأنتْهُ بقولها "حضرتكَ تودّ العود إلى فنّكَ" وأغلقت فمها، كما لو أنها فهمت.

"لا" طلعت قوية منه.

"ولكنْ، يا إلهي، ما الذي تريده حضرتكَ، إذاً؟".

"هناك شيء أريده، أريد، ... حين أشرب أشعر بين الحين والحين أني للحظة قد قنصتُهُ. الكحول هي البديل الوحيد للدِّين، هل نقولها بهذا الشكل ... للمزح، ليس إلا؟".

"تريد أن تنسى، هذا كل ما في الأمر" علّقت بحسم. لحظ ياستراو أنها كانت طالبة.

"نعم، الأفكار، كل ما هو غير أساسي ومهمّ، نعم. ومن جانب آخر، فأنا لا أدري إن كان ما أقوله الآن هو مُجرّد خيال، لأني ببساطة سِكّير، رجل عطشان. بكلمة أخرى، مُجرّد حجّة".

ورفع كأس البيرة، وحيّاها مناكفاً. بدت السَّيِّدة لويسه متفهّمة في ظنّه. ذلك لن يحصل.

"أريد أن أجلس مرتاحاً، وأشرب، وفي الوقت نفسه، أُوهِمُ نفسي بأني أعمل بجدّ. الطحلب الذي يرى نفسه سمكة" أضاف على مهل بعد أنِ أنهى رشفه للكأس. "أيّها النادل، واحدة أخرى".

"أنتَ بحاجة إلى حُبّ" قاطعتْهُ بطريقة خبيرة.

نظر ياستراو إليها، وضحك. "آه، صحيح، كنتُ، بالمناسبة، على وشك ذلك مؤخّراً. كانت سمكة غريبة، تلك المشاعر. لا تكاد تُرى. لم تأخذ شكلاً. وانتهى الأمر بأن لعبنا أنا وصديق لي لعبة عِيْدان الثقاب بشأنها".

"ما الذي فعلتَهُ؟".

تناول ياستراو علبة ثقاب من على الطاولة، وشرح لها بهدوء قوانين اللعبة، بينما كانت عينا السَّيِّدة تتّسعان أكثر وأكثر. انتصب ظَهْرها، وجمدت في مكانها لشدّة احتقارها. توضّح لياستراو قوامها النحيف. وفاجأه كونها أساساً ورغم ذكائها المتّقد مُملّة.

قاطعتْهُ قائلة "فعلتَ هذا بامرأة، كدتَ تحبّها؟".

توقّع ياستراو أن تنهض، وتغادر.

"نعم. هذا هو السؤال. هل أحببتُها؟" قالها ببطء. "هل ترين سيِّدة لويسه؟ كان من شأن أيّ إنسان عادي أن يقبض على تلك المشاعر، ويمنحها الشكل الاعتيادي، كما قرأنا ورأينا ما يفعله الآخرون، كانوا سيُسمّونه حبّاً، ويتصرّفون كما يتصرّف عاشق حين يحبّ، ولكني أريد لهذه المشاعر أن تأخذ شكلها الخاصّ بها، لا مُجرّد حُبّ، هذه الكليشيه، هل تفهمينني؟".

"لا".

"ولكن الأمر انتهى بطريقة هزلية، هل تفهمين؟ لقد انتهى بلعبة عِيْدان الثقاب، وهكذا كان الأمر أيضاً مع تجربتي في الدِّين، لقد انتهت بأعمال شغب، الأمر مضحك، أليس كذلك؟ هل تفهمين ذلك؟"

"لا".

"ولا تفهمين حضرتكِ كذلك أني قدّمتُ استقالتي من الـ-داوبلاذيت-؟".

انحنت السَّيِّدة لويسه إلى الأمام على الطاولة:

"ماذا قلتَ حضرتكَ؟ ألم تعد ناقداً بعد الآن؟"سألتْهُ بانفعال.

أومأ لها ياستراو برأسه مؤكّداً.

"ولكنْ، كيف ستعيش حضرتكَ؟".

"من الطبيعي أن تسأليني هذا السؤال، الله أعلم كم سأسمعه؟".

"ولكنْ، لِمَ فعلتَ حضرتكَ ذلكَ؟".

"نعم، هنا السؤال. لربّما كان زوجكِ سيِّدة لويسه هو السبب في ذلك. قال لي ليلة الانتخابات بأني كنتُ ناقداً جيِّداً من المحافظين، انطلاقاً مِنْ، وهذا هو ما قاله، إن الجمال يحافظ على التّوهّم بوجود حُرّيّة تفكير في البلد".

"حُرّيّة تفكير، ولكنها موجودة".

هزّ ياستراو رأسه.

"لا، إنه مُجرّد وَهْم، بإمكانكِ التفكير كيفما شئتِ، بالجمال، الأخلاق، وما لا أعرف ماذا ... ولكنْ، ما إن يكون لكِ رأي في الاقتصاد، لن يكون هناك تطبيق لحُرّيّة تفكير".

"آراؤكَ لا شأن لها، ولا تهاجم الاقتصاد" قالتها بينما كانت عيناها ترمشان بقلق، كما لو كانت تودّ تجنّب النقاش.

"لا، ليس بعد، ليس بعد. كما قلتُ لكِ ليست لي آراء، ولكنْ، إذا..".

"إذا، إذا"وهزّت رأسها.

"بلى، إذا، إن حدث يوماً، لنفترض أني عنيتُ شيئاً، وهذا صحيح، وذاك خطأ والرأي هذا كان يتعارض مع القوى الاقتصادية، فس ...".

"لا لا، ما تقوله بربيّ لهو غير واضح" تنهّدت السَّيِّدة لويسه. "حين تتحدّث الناس عن الشأن الاقتصادي وعن الرأسمالية يصبح الموضوع مملاً ... بالحال".

ابتسم ياستراو، لكنه تابع غير مبالٍ.

"أعتقد أن هذه الـ إذا ... بتصوّري، هي الاحتمالية أو فكرة الاحتمالية، أن أكون مُرغَماً على شيء، هو ما جعلني أنسحب من كل شيء".

"وأنا التي كنتُ أظنّ أني جالسة مع رئيس المراجعين في جريدة داوبلاذيت، الناقد المعروف" انبرت قائلة بطريقة هزلية، وبموسيقى في صوتها.

"صحيح، وما أنا الآن سوى رجل عادي بسيط، حاول قليلاً مع الروح المطلقة، وليجد معنى الحُرّيّة المطلقة، ... وقد أفلحتُ حتّى الآن في أن أكون سِكّيراً".

كان صوته حزيناً ساخراً من نفسه، وكان على السَّيِّدة لويسه أن ترفع رأسها، وتبتسم، وفجأة مدّت يدها مندفعة إليه عبر الطاولة باطمئنان. أخذها بتردّد، فضغطت على يده برقّة، تعبيراً عن امتنان للثقة.

"كدتُ أن أثور غضباً منكَ" قالت له بابتسامة كانت ماتزال رقيقة على شَفَتَيْها الصغيرتَيْن. "ولكني لا أستطيع، لا، لا أستطيع، أرى ذلك السِّكّير، صديقكم الحميمي أمامي، المصاب بالصرع في بار دس آرتيست، وأرى شقَّة حضرتكَ، قِطَع الأثاث المكسّرة، شظايا الزجاج، وأنتَ تُحدِّثني عن مقامرتكما أنتَ وصديقكَ بشأن الفوز بامرأة، وذلك كله يتحوّل، بالرغم من هذا، إلى شيء آخر حين تتحدّث عنه. كما لو أنها كانت نظرية".

حرّك ياستراو فمه بطريقة تهكّميّة، ولكنها جرّت يده.

"عليكَ بالابتعاد عن تلك الشَّقَّة، هل تسمعني؟ لا تعدْ إلى تلك الغرف كلها، أين ستأكل هذا المساء؟ تعال معي إلى البيت! زوجي ..." وضحكت. "حسناً، إنه بحال أفضل بكثير ممّا يستحقّ، ولكنْ، ستأتي معي. على حضرتكَ أن تفعل ذلك بدلاً من الجلوس هناك عالياً في تلك الشَّقَّة. أوه، كم كان منظرها رهيباً. أو بدلاً من الذهاب إلى مطعم، أنتَ، حضرتكَ، أيّها السِّكّير الحرون".

ووعدها بأن يأتي.

عندما افترقا عند المدخل بعدها بقليل، وقف طويلاً يُحدِّق بقامتها، ثوبها الرمادي اللامع، ساقَيْها النشيطتَيْن. كان بإمكانه أن يلمحها بعيداً في ذلك الشارع المشجّر. تلك الأشجار الفتية الضعيفة أكسبت الشارع رحابة.

ودّ أن يستدير ويعود إلى المتنزّه. كان هناك محلّ ألعاب الأطفال إلى اليمين، اليمين الشمالي، ولربّما كان أولوف يلعب هناك.

أشعل له ببطء غليوناً. ازدحم تيّار الناس أكثر وأكثر عند المدخل، ولكن أولوف لم يظهر! كان هناك الكثير جدّاً من الأطفال! والناس تمرّ به بإيقاع التّنزّه البطيء. صرّت عربة لعب أطفال. من الممكن أن تكون عربة أولوف.

نظر فجأة من حوله بعينَيْن جديدَتَيْن.

حديقة فريديريكسبيرغ! كانت حديقة الأطفال والمتقاعدين الوحيدين. وحديقة للشباب مساء. هناك كانوا يطاردون بعضهم في الظلمة طوال الممرّات الإسفلتية.

كان يعلم بذلك طوال الوقت.

ولكنْ، ألم تكن أيضاً حديقة للمُطلّقين؟.

ألم يتسلّلوا إلى هنا، ليحصلوا على لمحة من أطفالهم؟ ألم يقفوا وحيدين بأدب عند أطراف محلّ لعب الأطفال؟.

لم يدنوا أكثر، لم يُزعجوا الأطفال في أثناء لعبهم، جمدوا في مكانهم، من أجل السيطرة على أنفسهم، لئلا تخونهم، فتصدر منهم حركة يد عاطفية.

متنزّه خاصّ بالمطلّقين!

أخذ يراقب المارّة. ولكنْ، ليس من السهل رؤية مُطلّقين في حديقة عامّة. رؤيتهم في بار أسهل بكثير.

كان هناك أيضاً مَنْ جلس على صفَّيْن من المصاطب الطويلة التي أطلق عليها المقصّ. نظر إليهم من بعيد. وفجأة اضطرّ لأن يُحوِّل نظره، لأنه اصطدم بنظرة فضولية شبيهة بنظرة طير أسود، علقت باهتمام بيَدَيْه، والطريقة المعوجّة التي حمل بها الغليون. لمعت نظرة الطير، والشمس سطعت في حبّات الترتر اللامعة على القُبَّعة ذات الشريط المربوط عند الذقن التي استقرّت على شَعْر أبيض، فبدت مثل حشد من عيون سود تراقبه بفضول. سيِّدة عجوز ترتدي الأسود. استدار ياستراو مستاء جدّاً بكعبه مثل جندي. وشعر حينها بأن تلك العجوز تراقب الآن مناورته الحاسمة باهتمام، وهو لا يحبّ أن تتمّ مراقبته! غادر الحديقة. توجّه صوب المدينة، وفجأة استقلّ تاكسياً في الشارع المشجّر، لينقله إلى بار دس آرتيست.

الفصل الثاني

في بار دس آرتيست شبه المعتم، جلس ياستراو وكيير الخالد مقابل بعضهما البعض واهنَيْن. كانت ساحبة الهواء تصرّ من دون توقّف ماصّة دخان التبغ الأزرق إليها.

"جميل أن تقيم معنا هنا يا جاز".

ورفع كيير وجه الأسقف المنتفخ العريض، وصوّب عينَيْه الزرقاوَيْن العائمَتَيْن نحو ياستراو.

"شكراً لكَ" شخر ياستراو. "كان من المفترَض أن أكون مع سيِّدة البارحة، للعشاء، ولكني نسيتُ".

كان الجوّ رطباً خانقاً في ذلك البار المظلم، بينما تغمر تلك الظهيرة الشمس خارجه.

"ننسى كل شيء، كل شيء" نفخ كيير كأنه نبيّ، وحرّك يده. وهزّت جسده ضحكة كتومة، بعثت رجّة في الكرسي.

"ولكنْ، أنا ليس بمقدروي النسيان، يا جاز، لمحتُ أخيراً فأراً أبيض وليداً، كان هذا صباح اليوم عند البهو، ... ركض حوالي قَدَمَي الخادم، "اطرده" صرخت، "اطرده" وراح يضحك ذلك الوحش الذي يرتدي الزّيّ الموحّد".

فجأة انفجر كيير بالضحك.

"لم يكن له عينان بعد، ذلك الفأر الصغير. ولكن ذلك سيحصل، امنحْهُ وقتاً، كان يدندن بفرح ... ويهزّ أذنَيْه الصغيرتَيْن" وراح يغنّي "امنحْهُ وقتاً، امنحْهُ وقتاً"(*) دندن من جديد على إيقاع تدخينه للسيجار.

"امنحهُ وقتاً، امنحْهُ وقتاً" رافقه ياستراو بالدندنة.

"ولكننا لن نثير ضجّة" ورفع كيير يده محذّراً حتّى ظهرت ذراعه من حافّة كُمِّي القميص

---

*) أُغنيّة دنماركية شهيرة سائدة لشاعر وكاتب روايات تاريخية معروف بي. أس. إنجمانB.S.Ingemann1831

الأزرق النظيف. كان كعادته أنيقاً بمَلْبسه. لا أثر لخَلَل ما. لا رماد على الصديري، لا ربطة عنق معوجّة، ولا ياقة رثّة. وحده وجهه الذي باح بشيء، وجهه الذي هرم بأخاديده وجلده المترهّل والبقع الزرق والبُنِّيَّة.

"هدفي في الحياة كان دائماً أن أكون سِكِّيراً كبيراً هادئاً، وهو ما نلتُهُ".

دقّ بعناية سيجاره، ليسقط رماده.

"تطّلعْ قُدُماً، لا إلى الوراء أبداً" دندن بهدوء، وهو ينظر مَلِيّاً في عينَي ياستراو بوهن، بينما كان يواصل غناءه بصوت مبحوح، ويحرِّك من جديد سيجاره مثل عصا قائد فرقة موسيقية بإيقاع متموّج.

"تطلّعْ قُدُماً، لا إلى الوراء أبداً! ما يشتهي القلب

لربّما ما أدراكَ؟ يوماً قد تفوز بالحُبّ"

"بالمناسبة، فأنا كتبتُ الشِّعْر أيضاً" واصل بابتسامة صغيرة بعيدة " ذلك كان منذ خمس وعشرين سنة مضت، كنتُ حينها وسيماً".

"لم نعد كذلك الآن" ألقى ياستراو حسرته في كأس الويسكي. كانت حوارات وقت المغيب عميقة منتصف ظهر يوم صيفي. كانا قد أكثرا من الشرب كثيراً البارحة.

"نحن، نحن.." ضحك كيير الخالد. "على أيّة حال، لستُ سوى شابّ صغير، عليه أن يُقفل فمه الوسخ، ويُنصت بإجلال. كنتُ بعمركَ مخرجاً ومنتجاً في شارلوتنجبورك، وكنتُ أيضاً سكرتير تحرير. ولكن المرء يُصاب بالمَلَل، من كونه موهوباً هكذا. ما الذي سيصل إليه؟ كل شيء في زوال. وها أنا أرى فأراً أبيض وليداً".

وفتح ذراعَيْه الكبيرتَيْن المهندَمَتَيْن بحركة ساخرة يائسة؛ "المواهب كلها لن تُوصلَكَ بعيداً هكذا" أضاف وهو يتنهّد.

"تطلّعْ قُدُماً، لا إلى الوراء أبداً، ما يشتهي القلب ...".

ملأت أُغنيّة كيير المُتلكّئة المبحوحة تلك الأجواءالمفعمة ببريق كئيب رقيق من الزجاجات والنحاس الأصفر، ملأها كيير بجوّه كسِكِّير صادح وحيد بعيد في شارع خالٍ. في تلك الأثناء، قطَعَ صوتٌ أنفيّ لغَلَعَ عالياً؛

"كنتُ أعرف أنكَ ستكون هنا، يا صهري، هههه. كنتُ أعرف ذلك، ولِمَ هذه المضيعة للوقت! فكّر بمنطق، واتّخذ قراراً! إن كان لا بدّ من الشرب، فلأشرب!".

وفزّ ياستراو في مكانه، بسبب ضربة الكتف الصداقية التي جاءت مباغتة. كان أدولف سميث يورغنسن مَنْ جاء.

اتّكأ كيير الخالد شاعراً بالتهديد على الطاولة المدوّرة الكبيرة. طاف وجهه، وعامت عيناه بوميض من الحنق في الأزرق الحزين.

"لن أسمح لهذا الرجل بالجلوس إلى طاولتنا" قالها مُعترِضاً، وبحركة شاكية، أشار إلى صهر ياستراو الذي تراجع مشدوهاً إلى الخلف.

"عفواً عفواً لاقتحامي جلستكم، ولكنْ، هل لي أن أُقدِّم نفسي؟".

"لا" قيلت بعصف. "لا مكان للسُّوقيّيْن هنا" قالها كيير، وراح يلهو بكأس الويسكي بهدوء، وقد همّ الصهر بالانصراف.

نهض ياستراو بتكاسل، تلكّأ، ثمّ تبع صهره، ليجلسا عند طاولة مجاورة.

"رفقة سيِّئة، سيِّئة" دردم كيير، وهزّ رأسه بحزن، بينما كان ينظر في سطح الطاولة، ثمّ أضاف وهو يُومِئ إلى وعاء أعواد الثقاب "رفقة بغاية السُّوء، عزيزي جاز".

"ما بوسعي أن أقول، يا له من وقح" قالها الصهر متأثّراً بصوت حادّ.

"أليس هناك من شيء آخر، تودّ قوله لي؟" سأله ياستراو بوهن، وهو يرفع رأسه.

"هذا غير مقبول" قالها صهره، وهو يخلع القُبّعة والقفّازات، ويضع العصا جانباً. ولكنه هدأ بالتدريج. "دعنا ننسى هذا الفظّ، لدينا ما نتحدّث عنه، علينا أن ننظر في مسألة، إن لم يكن الطلاق، فنفكّر في الانفصال، على أيّة حال، لا يبدو أنكَ فكّرتَ بهذا، أليس صحيحاً، يا صهري؟ آه، هههه. يا لكَ من نذل مرح".

"هل تحتاج المسألة إلى تفكير؟" سأل ياستراو، وغطس في مكانه تعباً.

"لم تر يوهانه، ولا حتّى إذناً منكَ، وهذا غير مقبول منكَ. علينا أن نحلّ المسألة قانونياً. ألم تستلم رسالة من محامي يوهانه؟".

"محامٍ؟" ردّد ياستراو بوهن.

"نعم، لديها كما تعلم محام. يجب أن نكون على بيّنة من أمرنا، خطوط واضحة. ذلك هو مبدئي على الدوام".

"خطوط واضحة؟" ردّد ياستراو.

"من الصعب عليكَ فيزياوياً اليوم أن ترى خطوطاً واضحة"، انبرى الصهر قائلاً بضحكة متعالية. "هه هه هه، ولكنْ، اسمعني الآن، عليكَ أن تدفع مبلغ أربعمئة كرون ليوهانه خلال يومَين، هل سيتذكّر رأسكَ المطيّن ذلك؟".

"اربعمئة كرون، بلى، لديّ المبلغ، في حسابي بالتأكيد، أظنّ ذلك. وحين أسحب المبلغ، حين أسحبه، فسوف لن يبقى شيء".

نظر الصهر إليه نظرة سريعة.

"ألا يمكننا الذهاب الآن، وسحب المبلغ" سأله بنبرة رجل أعمال.

"سحب، سحب، سحب" زمجر ياستراو متقوقعاً في مكانه، ثمّ اعتدل بجلسته فجأة، وقال "حسناً، اسحب، وإلى الجحيم".

"ولكنْ ... ولكنْ ..." عبث الصهر بأصابعه على سطح الطاولة بقلق "ولكنْ، بحالتكَ هذه، لا يمكنك الذهاب إلى الصندوق للسحب".

ركس ياستراو بمكانه على الكرسي ثانية حتّى استقرّ ذقنه على صدره "لا، لا يمكنني بالتأكيد فعل ذلك" دمدم لربطة عنقه.

"ولكنْ، يا صهري" قال أدولف، وضرب براحة يده سطح الطاولة، فارتجّت الكؤوس. سرت رعدة في كلّ من بدن ياستراو وكيير. "ذلك الخسيس" قرقر كيير، وهو يُلقي بثقله على الطاولة.

"ولكنْ، يا صهري، علينا، علينا، علينا أن نُوضح الأمور".

رمشت عينا ياستراو فزعاً.

"أنتَ تخيفني، اللعنة، رأيي من رأيكَ، علينا، علينا، علينا أن نُوضح الأمور، نعم، علينا علينا علينا ...".

انتفخ خدّا أدولف غضباً، وصار فمه صغيراً مزموماً.

"أنا ذاهب" قالها بتهديد. "لا وقت لديّ لهذا اللغو، واعذرني إن تولّينا أنا ويوهانه القضية مع المحامي، وبمناسبة المحامي، ما اسم محاميكَ؟".

نظر ياستراو إليه بعينَيْن غائمَتَيْن، وانفجر ضاحكاً.

"الله يعلم ما اسمه".

"آخ، أنتَ لا تُطاق، ولكنْ سيصلكَ خبر منّي، وبالمناسبة، ما دمنا نتحدّث، بوليصة التأمين؟".

وضحك ياستراو ثانية، وهو يهزّ رأسه.

"انتهت صلاحيّتها".

"كذب، لا، معقول".

هزّ ياستراو كتفَيْه، ونفض جسده.

"يقول كذب، يقول كذب " وضحك.

... بخطوات ثابتة صارمة، بتعبير عن نبالة واحتقار منصف، بقُبَّعة منتصبة على الرأس وعصا وقفّازين ذات أطراف أصابع مُدبَّبة، تشير إلى الجهات كلها، مشى أدولف سميث يورغنسن بخطوات استعراضية إلى المدخل.

جاءت مُفاجِئة تماماً حين لحق ياستراو أن يصيح "سلامي إلى ميكيلسن".

وبدأ في تلك الأثناء الغرامافون في الزاوية بعزف خفيض لكيتار هاواي. كان لدى النادل الصغير مسدود الأنف الذي وقف من دون صوت خلف البار حاسّة للطرب، وسرعان ما أدار الغرامافون.

قام ياسترو مُترنِّحاً لطاولة كيير الخالد ثانية.

"جاز" قال كيير معاتباً، وقد رفع وجهه العريض نافضاً عنه وهنه "لا يجب أن تفعلها، لا يجب أن تفعلها".

انزعجَ ياستراو.

"كان دون مستواكَ بكثير، يا جاز. عليكَ أن تكون نحساً".

وركس الرأس العريض من جديد. ولكن ياستراو تنهّد، شعَرَ بالحَرّ لا يُطاق للحظة. والعَتَمَة ضايقتْهُ، ولم يستطع أن يسترجع استمتاعه ثانية.

"أودّ المغادرة" قال.

"المغادرة، أريد المغادرة"(*) دندن كيير.

"هلا استأجرنا سيّارة، وانطلقنا" اقترح عليه ياستراو.

هزّ كيير رأسه. ارتسمت تجاعيد قلق على جبهته.

"لا، أنا باق هنا" قال وهو يرفع ذراعه ببطء علامة الرفض.

"بلى، ستأتي معي".

"لا لا".

"بلى".

تلوّى جسد كيير الضخم بخجل.

"ولكني لا أريد، اللعنة".

"هل رأيتَ الغابة هذه السنة؟".

"لا أريد ذلك أبداً".

"يجب عليكَ أن تفعل".

"ما الذي أفعله بالغابة؟" قال متشكّياً "إنها خضراء حسب".

"ولكنها هذه السنة زرقاء".

انفتحت عينا كيير على وسعهما "ما الذي تقوله؟".

"بلى بلى، أشجار زان بأزرق نبيذي".

"أنتَ سكران، يا جاز".

"أريدكَ معي، معي، أريدكَ معي".

---

*) أُغنيّة نصّها الأصلي كتبه الشاعر النرويجي بيورنستيارنه بيورنسن Bjoernstjerne Bjoensen 1832-1910

"أرنولد" صاح كيير الخالد، واستدار ببطء في كرسيه. "هل أذهب مع هذا السَّيِّد السكران إلى الغابة؟ إنه يرى أشجار زان زرق".

"نعم، يا سيِّد كيير، أرى أن تذهب معه، لتتنفّس هواء منعشاً" ولوّح النادل بيده بأدب.

"حسناً، إذاً" قال كيير، ونهض يتنهّد، ثمّ وقف منتصباً بجلال ووقار. "طالما وافق أرنولد، فعلي إذاً الذهاب إلى الغابة".

تمشَّيا بخطوات بطيئة، يتأبّطان ذراعَي بعضهما البعض عبر البار، يدندنان بصوت خافت. انفتح باب البار إلى الجانب، فانفجر ضوء الشمس من حولهما. على الرصيف في الخارج تقلّبا قليلاً، وفركا أعينهما. الناس التي عبرتهما بدت بشرتها صافية، بشكل غريب، ولكن الوجوه كانت مشدودة. خطواتهم قصيرة هؤلاء الناس، وحركة أذرعهم أيضاً، وهم يتجاوزونهم.

كان هناك فضاء، فضاء كبير تحت تأثير ضوء شمس قوي جدَّاً من حول كيير وياستراو.

وجلسا أخيراً في السَّيَّارة.

وقف أرنولد عند الباب المؤدّي إلى البار، وفي المدخل للفندق، كان هناك البوّاب بزيّه الخاصّ، ومن خلف زجاج النوافذ، كان هناك الكثير من الوجوه الضاحكة التي أرادت أن تشهد الرحلة إلى شارلوتنلوند. لوّح كيير بيده العريضة، وحيّاهم، وقد استقرّت القُبَّعة اللّيِّنة مائلة على جبهته.

"آه" قال عندما استدرات السَّيَّارة عبر شارع فاريمانسغيذه "مبانٍ غريبة، أنا شخصياً لا أحبّها".

برز المتنزّه إلى يمينهم. امتدّت الأغصان فوق القضبان الحديدية الطويلة، وبدت الناس والأرصفة قلقة لامعة تحت الضوء والظّلّ بين أوراق الأشجار. بدأت الغيوم تنقشع بداخل ياستراو والرؤية تتوضّح. صفّرت الريح على جبهته، وهما يجلسان في سيّارة مفتوحة. اكتشف فجأة أن يَدَيْه متّسختان. وكأنه قد زحف على الأرض. وبلحظة، اندفع كيير إلى حضنه. تأرجحا باستدارة السَّيَّارة عند تقاطع فريدريكسبورك. تدحرجت القُبَّعة إلى قاع السَّيَّارة، وانحنى كيير وهو يئنّ، ليلتقطها.

"أوه أوه" تنهّد وهو مُنحنٍ "هل هناك مَنْ يعطف عليّ؟ ها هي، ها هي".

وبصعوبة، أفلح ياستراو بمساعدته، ليعود إلى مقعده ثانية، والقُبَّعة استقرّت مائلة من جديد على جبهته.

"هلا سافرنا إلى كندا، إلى -بي- الصغير؟" سأل كيير وهو يضحك محتاراً.

سارت السَّيَّارة بهما عبر جسر الملكة لويسه، وقد امتدّت على جانبَيْه البحيرات بضفافها الحجرية الجميلة. وفي البعيد، أضاءت الشمس بلون أصفر رائع، لون كان يحبّه ياستراو، وهو طفل، بعض المباني في جهة الأوستربرو النائية، مباني الزوايا عند شارع فيليموغيذه. اللون كان جميلا جدًّاً، حالما جدًّاً، مثالياً كما لاح في الأفق.

"أين صار -بي- الصغير؟" سأل ياستراو وهو يعتدل بجلسته. التمعت أعماق ذاكرته، وهج من سعادة بعيدة، كان سارحاً ويقظاً بآن واحد. لم يفهم هذه الازدواجية لديه في هذه الرحلة، تلك التجربة. وها هي الشمس تُلقي بضوئها الحقيقي على البيوت في النورابرو، أشعّة شمس هذا اليوم، تحتها الألَق اللامع من أشعّة شمس غابت، زاهية وسنتمنتالية.

"جاء -بي- الصغير العجوز، وأخذ -بي- الصغير، وهما في طريقهما الآن إلى نيويورك، ها ها، ولكنني على يقين من أن -بي- الصغير سيعود إلى بار دس آرتيست،" وأومأ كيير برأسه حتّى كادت قُبَّعته أن تسقط من على رأسه ثانية. "حتماً سيأتي، فما الذي سيفعله في أمريكا اللامَدَنية الوحشية؟ بين الهنود الحمر؟".

لاح ظلّ أخضر على وجهه ما جعله يهتزّ، فقد كانت السَّيَّارة منطلقة في شارع نورا أليه المشجّر الطويل، الذي نهضت فيه جذوع الأشجار مثل صفوف أعمدة على الجانبَيْن. وفي الأمام، تقاطعت الأغصان في أطرافها، لتُشكّل أقواساً. كان اللون مثل ضوء شمس عبر زجاج نافذة ملوّنة.

تأوّه كيير الخالد.

بينما كان هذا الشارع المشجّر مثل منظار في عالم ياستراو، داخله أخضر، وفي ثقبه المدوّر بعيداً بعيداً في النهايات بضعة بيوت ومبانٍ وتِرام أصفر عابر.

"تِرامنا من أجمل التِّرامات في العالم" قال ياستراو، وهو يرى كم كان لون الطقم الأزرق مثيرا مع شَعْر امرأة شقراء. كان جالساً وقد التفّت يداه حول بطنه البارزة، وقُبَّعته التي مالت نحو أذنه اليمنى، وراح يغنّي:

تخيّلْ حين ينقشع هذا الضباب يوماً(*)
تخيّلْ حين ينقشع هذا الضباب
حين ينقشع هذا الضباب يوماً

*) مطلع نشيد ديني

تخيّل حين ينقشع يوماً

"آه" أطلق حسرة طويلة حين مرّوا ما بين البيوت في شارع لنكبي فاي. رفع قُبَّعته، ليُجفّف جبهته المتعرّقة بمنديله. "آه، يا جاز، الشُّكْر للرّبّ، اعتقدتُ، وكأننا في كنيسة" ووضع يده الثقيلة على ركبة جاز، واستنشق الهواء عميقاً، وببطء "أنا لا أحتمل هذه الانفعالات، كم ... كم الساعة الآن؟" سأل فجأة مثل محموم. كان وجهه مزرقّاً، وكأنه على وشك أن يُصاب بسكتة في الدماغ.

سحب ياستراو ساعته من جيب الصديري، ونظر إليها.

كانت الساعة الرابعة والنصف.

وبلحظة، رأى في عقارب ساعته زاوية عقارب ساعة بار دس آرتيست، رأى الموكب أمامه، كيير بعينَيْه المطبقَتَيْن وجثّته العملاقة المترنّحة، والخادمان ببدلَتَيْهما الطويلَتَيْن، واللّذَيْن مالا عليه، ليدعماه وهو يسير بتوزان.

"الساعة الآن هي الثالثة" أجابه ياستراو، وتنفس براحة حين رأى كيير الخالد يعتدل في جلسته، ويستعيد طاقته.

"كما لو كنّا في كنيسة" كرّر بفم نصف مفتوح، دهشة مناكفة باسمة "ولكنْ، إلى أين نحن ذاهبون، يا جاز؟ أشعر بالعطش".

رفع ياستراو يده مشيراً إلى الأمام. انطلقت السَّيَّارة مسرعة عبر حاجز السّكّة الحديدية، صوب الطبيعة المفتوحة التي سرعان ما انقلبت إلى أحياء فيلات سَكَنية في طريق طويل مستقيم.

كانا يسمعان خشخشة أوراق ذرى الأشجار فوق رأسَيْهما بين الحين والحين، وبين الحين والحين، كان التِّرام يمرّ بهما بأزيزه مُخلِّفاً وراءه غناء طويل الأمد، والريح تهبّ عليهما في تلك السَّيَّارة المفتوحة.

"إنه ... وكأني أغرق" لهث كيير الذي جلس ضامّاً يَدَيْه حول بطنه الضخمة. كان يتنفّس بصعوبة.

"هذا ما لا يمكنني احتماله" قالها وهو يئنّ "شيء بشع هذا الهواء النقي، ليتَني بقيتُ في البار".

ووضع يده بتضرّع على كتف ياستراو "لِمَ جَرَرْتَني هنا؟ قلتُ لكَ إني لا أريد رؤية الغابة" ومن دون مقدّمات، دبك بقَدَمه على قاع السَّيَّارة بعصبية "لا أريد رؤية الغابة، لا أريد رؤية الغابة".

عند دوّار "فيمفاين" استدارت السَّيَّارة عبر شارع يسبيرغ أليه المشجّر بأشجاره السامقة المبجّلة، وحين شرعت الذرى الخضر بإلقاء صوت متموّج من فوقهما، خفض كيير من دون وعي رأسه، وراح يدندن؛ "تخيّل حين ينقشع هذا الضباب يوماً ... لا لا، بالطبع هذه أشجار" أمسَكَ وجهه بكلتا يَدَيْه "إنها الأشجار، ولكنْ ... كأننا في كنيسة. إنها أشجار".

نهض ياستراو بجسده في السَّيَّارة، "توقّف هنا" قال عند المطعم الذي يقع في غابة شارلوتنلوند.

زهور أنيمون صفر! لقد جنّ كل منهما. زهرات أنيمون صفر. وصله صوت الولد العاصي من الماضي البعيد، حيث اختلفت الحياة حينها.

"ها هي الغابة إذاً" تنهّد كيير، ونهض بتثاقل "هلا دخلنا، واحتسينا الأبسنث؟".

ظلّ واقفاً على الرصيف لبُرْهَة، وترك لعينَيْه تسرحان نحو أطراف الغابة، والذرى الشديدة الخضرة. الطريق الرئيس العريض الذي قطع الغابة بقسوة، وفتحها.

هزّ كيير رأسه مُرتبِكاً، وأخذ ياستراو من تحت ذراعه مبتسماً.

"Allons, enfants de la partie"(*) دمدم وهما يتقدّمان نحو المطعم الصغير.

عبّا كأسي الأبسنث الأوّلَيْن بصمت.

"لم أرَ في حياتي زهرة أنيمون زرقاء" قال ياستراو دفعة واحدة. كان حزناً، لا قاع له، ولا يمكن معالجته.

بينما كانت عينا كيير تدوران هائمتَيْن من حوله في صالة المطعم بذوقها الريفي.

"ولا أنا" قالها بحزن. "لم يرَهَا أحد، زهرة أنيمون زرقاء، أين تودّ أن تذهب؟ وما الذي سنفعله هناك، لو رحنا؟" قال لجاز مُتذمّراً. "ماذا، يا جاز؟ أنا لم أعد رحّالاً كبيراً. هرمتُ، وتعبتُ".

أسند رأسه بشَعْره الخفيف إلى يَدَيْه، وراح ينظر إلى مفرش الطاولة.

"ما الذي أفعله في الغربة" تنهّد قائلاً.

"لم أرَ في حياتي زهرة أنيمون زرقاء" كرّر ياستراو، واحتسى كأس أبسنث آخر، "ما الذي سأفعله؟".

---

*) تعالوا، يا أطفال بلادي، المقطع الأوّل من النشيد الوطني الفرنسي 1792

رفع كيير رأسه، ونظر إليه بحزن، لا يمكن النطق به.

"هذا يكفي" انبرى ياستراو قائلاً بطاقة فجائية. "هذا المكان لا يُحتمَل، أريد أن أذهب لزيارة سيِّدة، أريد ذلك، أن أفيَ بوعدٍ، أريد، وعليكَ أن تأتي معي. يجب أن تأتي معي، أنتَ بحاجة إلى تغيير".

"لا، لا نساء" أجاب كيير بهدوء. "عدْني بذلك" وأطلق حسرة. "يكفيني سوء المناظر والأشجار، حتّى تصوّرتُ أنني في كنيسة" وانفجر بالضحك.

"ولكنْ، يجب عليكَ أن تُرافقني"حركة ذراعي ياستراو صارت أكبر، وصوته علا أكثر حتّى سمع صداه مُزعِجاً في أرجاء الصالة. "لا خيار لديكَ" وضرب بيده على الطاولة "سأتّصل بها الآن، أريد التّخلّص من تلك الأزهار الزرق اللعينة القبيحة في رأسي".

وبحماسة غير متوقّعة، نهض من كرسيه، ووجد هاتفاً عند سلّم المطعم الخلفي.

"هلو، معكَ أوله ياستراو".

كان على وشك أن يقع على جهاز الهاتف.

وجاء صوت السَّيِّدة لويسه "هل هو حضرتكَ، سيِّد ياستراو؟ ظننتُ أنكَ ستخذلني".

"أبداً!" ورفع ذراعه بحركة مسرحية أنيقة مبالغ بها حتّى توجّب عليه أن يقفز على قَدَمٍ مثل زرزور على حافّة سقف، لئلا يفقد توازنه.

ضحكت السَّيِّدة لويسه مُشكِّكة في جوابه.

"أنا في الغابة في شارلوتنلوند مع صديق لي".

"لا تقلْ لي إنه ذلك الذي جاء ليُصلح زجاج النوافذ عندكَ؟" سألتْهُ بفزع مازح.

"لا لا، إنه رجل جنتلمان، من أكثر الرجال نبلاً من بين مَنْ عرفتُهم، ونحن في طريقنا إليكِ".

وأغلق فمه تماماً. حالفه الحظّ بقول جملته، من دون أن يتعثّر، واعتدل في وقوفه، اعتدل مُتحمّساً بوقوفه حتّى اقتضى ذلك الرجوع خطوة إلى الخلف، خطوة أخرى، وأخرى أيضاً بقَدْر المسافة التي يمنحها إيّاه سِلْك الهاتف.

"يا إلهي، ومَنْ هو؟".

قرّب ياستراو قمع الهاتف من فمه جداً "رجل جنتلمان" قالها بحيوية، "ونحن قادمان"

"هكذا إذنْ" قالت مستسلمة "ولكنْ، متى؟".

"هذه الدقيقة".

"من شارلوتنلوند؟" بدت عبر صوتها متحفّظة "حسناً".

"إذنْ، سنأتي".

أغلق ياستراو الهاتف بالحال. ولكنه ظلّ مُتسمّراً في مكانه مُبحلِقاً بالهاتف. يجب ألا يزور السَّيِّدة لويسه، هل يزورها؟ لا يجب أن يفعل ذلك. وهل سيذهب مع كيير إليها ... كيير رجل جنتلمان! وهو قطعاً كذلك. ولكنْ، ألم يحتسيا الكثير من الكحول؟ تلك الأنيمونة اللعينة! ولكنه وعدها بالمجيء. ليس من اللائق التّخلّف عن الحضور. ولقد نسي موعده معها بالأمس. غير لائق! لا يُغتَفَر! عليه أن يُصلح الأمر الآن. وأن يذهب.

كان كيير قد بدأ بكأس الأبسنث الثالثة.

"هل سنذهب إلى الغابة الآن؟" سأله وهو سارح، ولقد التصقت الشَّفَتَان ببعضهما.

"إنها بالانتظار" قال ياستراو، وعبّ كأساً أخرى في جوفه.

لم يفهم كيير شيئاً.

"هي؟ هي؟ امرأة؟" وابتسم له بنعاس. "نعم، كارل الثاني(*) عشر بالانتظار، نعم، دعنا ننطلق. الملك كارل البطل الشّابّ، إنها هناك(**) ..." وتوقّف عن غنائه الخفيض، وشرب ما تبقّى في الكأس.

ومشيا مُترنِّحَيْن ببطء إلى التاكسي. سطعت شمس ما بعد الظهيرة على الطريق بقُوّة تحرق العيون. أضاء فندق أبيض إلى الجانب الثاني من الطريق، وقد بدا متروكاً.

طلب ياستراو من سائق التاكسي أن يأخذهما إلى حيّ كريستيانهاون على العنوان -أوفرغذين نيذين فانيذ-.

---

*) إشارة إلى المرأة في اللوحة في بار دس آرتيست التي أطلقوا عليها اسم كارل الثاني عشر، وهو الملك السويدي الذي عُرف بكونه محارباً، حكم في الفترة 1718-1687

**) اقتباس شعري للشاعر السويدي إيسياس تاينر 1846-1782 Esiaisa Tegners

"ولا أشجار!" هَمْهَمَ كيير.

هزّ السائق رأسه، واتكأ كيير إلى الأمام صوبه.

"نعم، بلا شوارع مشجّرة، هل فهمتَ؟ على حضرتكَ ألا تسلك طريق الشوارع المشجّرة، رأسي لا يطيقها".

زحف ياستراو داخل السَّيَّارة، وغرق في مكانه. قمم خضر تحت ضوء الشمس، وسماء زرقاء لامعة. بيوت بيض. وعاصفة كانت في الطريق. زمجرة دوران المحرّك ملأت الفضاء في مغادرتهم للطبيعة. ذلك الشعور بالراحة حين تنطلق السفينة بالإبحار، بعيداً، بعيداً جدًّاً. وهواء البحر يهبّ بارداً.

"مستر جاكوب! مستر جاكوب! هل أنتَ نائم؟

ألا تسمع الجرس؟

دن دن دن".

وبضع واجهات مبان رمادية اللون، مبان قديمة بجدران متينة.

"مستر جاكوب! مستر جاكوب! هل أنتَ نائم؟".

كان ذلك هو صوت كيير الخالد المبحوح. حرّك أصابعه السمينة على الإيقاع مع غنائه، وياستراو كان يشعر بين الحين والحين بدفعة. "ألا تسمع الجرس؟ ألا تسمع الجرس؟ دن دن دن"، وذلك الوجه المنتفخ والعينَأن المحتقنتان، والظلال الزرق والخضر تنحني عليه، مشوبة بالأحمر من شمس ما بعد الظهيرة، وزوايا الفم الرطبة تلمع "مستر جاكوب!..".

سرت رعدة وقشعريرة في ظَهْر ياستراو، وآلام في كتفه بسبب جلسته المعوجّة في التاكسي. ومازال كيير يغنّي مبتهجاً، ومن خلفه، لاحت صفحات سقوف البيوت البُنِّيَّة من على مسافة غريبة متأرجحة. نسيم عليل وصوت ارتطام الموج الهادئ أيقظه، فنهض في مكانه.

قناة بماء أخضر. اللون الأخضر الغامق اقتحم دواخله.

"ها نحن قد وصلنا" لثغ، وزحف مُتيبِّساً، مُتوكِّئاً في محاولته ليخرج من السَّيَّارة. الرصيف يستدير، بيت بجدار رصاصي مزرقّ قبيح ومض أمام عينَيْه، وقد اضطر إلى الاتِّكاء على السَّيَّارة

ثانية، وأخيراً كان هناك شيء متين عريض، ليتّكئ عليه. كيير الخالد نزل من السَّيَّارة بهدوء مشدود، عريض ضخم الجثّة، وقد أمسك بذراع ياستراو. انفتح الباب إلى الشارع لوزن جَسَدَيْهما المضاعف. قامتان ثقيلتان. تدحرجتا عبر سلّم المدخل، وخاضتا وتلمّستا الطريق حتّى انتهيا إلى درابزين.

"أوف" تنهّد كيير. "عليّ التفكير لكلَيْنا".

"اللعنة، أحقّاً؟" فحّ وهو يتشبّث بالدرابزين. "هنا هنا" وأشار إلى باب، عليه لوحة بالاسم. كان مُثبتاً عليها الاسم أوتو كرويه. "عليكَ قرع الجرس، أو دعني أنا أفعل ذلك"، أفلتَ قبضته من الدرابزين إلى الباب، اندسّت قَدَمُهُ تحت مَداسة عتبة البيت، وقد اهتزّت ركبتاه، وهو يمدّ ذراعَيْه لجرس الباب، ليقرعه.

انفتح الباب باللحظة، وفي المدخل المعتم، لمع الفستان الرصاصي الحريري للسَّيِّدة لويسه. تجمّد وجهها، وبلحظة، صار مُترهِّلاً نصف هرم. عيناها وحدهما اللتان سطعتا بشكل غير طبيعي، وكأن الحمى قد أصابتْها.

"لقد وضعنا أنفسنا في ورطة" زمجر كيير الذي مال بجسده نحو الحائط. كان يودّ رفع يده بأدب، من أجل خلع القُبَّعة، ولكنه عزف عن ذلك، وترك ليده أن تنزل مستسلمة.

"لويسه، سيِّدة لوي .. سه"قال مُتوسِّلاً، وهو يتقدّم إلى الأمام، لئلا ينغلق الباب. خطت السَّيِّدة لويسه مفزوعة إلى الخلف، وضعت يَدَيْهَا الرشيقَتَيْن على صدرها، وهي تحاول أن تلتقط هواء.

"ولكنْ، ولكنْ، ... ولكنْ" كان هناك نشيج في صوتها.

"معكِ حقّ، الأمر بكُلّيّته خطأ، سيِّدتي" قال كيير، وحاول من جديد أن يُحيِّيها، ولم يفلح. كانت يده مُتدلّية.

حينها سُمِعَ صوت خطوات قادم من الطوابق في الأعلى. كان هناك أحد ما في طريقه إلى النزول. علَتْ لمحة من خوف على وجه لويسه، أضاءت عينَيْها بالبياض، وكأنها كانت تودّ النظر إلى أعلى عبر السّلّم، وعبر الطوابق كلها.

"هيّا، يا رجل، ساعدني" قالت لكيير بهمس وانفعال. "أوه، أخشى أن يرانا أحد ما!".

انحنت، وأمسكت بذراع ياستراو، وسحبتْهُ. انحنى كيير مُترنِّحاً، وحرّر قَدَمَهُ من تحت مَداسة العتبة، دفعهما، وتبع ياستراو. وباللحظة، انصفق الباب من خلفه. وقف كل منهما في المدخل المعتم لاهثاً منعتقاً.

عبرتهما الخطوات في الخارج.

"وما الذي سأفعله أنا بهكذا اثنَيْن، ..." تنهّدت السَّيِّدة لويسه. حاول ياستراو أن ينهض في مكانه.

"الأمر بكُلّيّته خطأ، سيِّدتي" قالها مُواسياً.

"حو حو حو حو" نبح ياستراو بحماقة، وقد ركع على أطرافه الأربع.

"أنا كلب، حو حو حو، سيِّدتي".

"الأمر بكُلّيّته خطأ، سيِّدتي".

وفجأة انفجرت لويسه بالضحك، ضحكة مدوّية غريبة. "هذا هو الجنون بعينه"، "ويا له من حظّ، فلقد منحتُ خادمتي إجازة اليوم!".

"كلب حو حو".

"جنون فعلاً، يا سيِّدتي، جنون".

"لا لا، على العكس، ذلك مضحك" قالتها وعيناها الجامدتان انفتحتا على وسعهما بينما كانت تضحك. "ياه! يا له من موقف مضحك، جنون. جنون! هل سيظلّ راكعاً هكذا على أربع وينبح؟!".

"حو!".

"ها ها" ورفع كيير إصبع السّبّابة الممتلئ بطفولية؛" وتعلّم كارو في الغابات الخضر أن الحَوْ تعني "حَوْ".

انحنت السَّيِّدة لويسه، وأمسكت بذراعه ثانية، وقد انحنى كيير هو الآخر، وبعد جهد، أفلحا بإعانته للنهوض على قَدَمَيْه، وقاداه إلى داخل الصالة المضيئة، حيث الطاولة التي كانت مفروشة ومُعدّة بالأطباق الباردة لثلاثة أنفار.

توقّف كيير لاشعورياً عند مَرأى زجاجة السنابس اللامعة.

"لا، دعونا نقصد مكتب زوجي" أصدرت لويسه أوامرها، وحاولتَ أن تضحك، ولكنها تأوهت تحت ضغط ثقل ياسترِاو.

"عذراً" لثغ ياسترِاو باكياً. في ثانية، لمعت الصورة في داخله. القناة الخضراء. تذكّرها. فتحا الباب، وقاداه إلى الأريكة.

الفصل الثالث

لمع ضوء الصباح من سقف غريب، وتحت الوهج الأبيض، برز ثلاثة رجال سود، وكأنهم من الجنّ في علبة ثقاب. لم يكن لديهم أذرع، والبدلات الطويلة اليسوعية السود التي كانوا يرتدونها اتّسعت واتّسعت حتّى تحلّقت الوجوه المترهّلة المسحوبة فوق ياستراو ذي العينَيْن السوداوَيْن المرصوصَتَيْن.

وبصقوا جميعاً بعدها حتّى التمع الهواء.

شعر ياستراو بقلبه ينقبض، لقد آلمه ذلك، فنهض أخيراً. كان الرجال مايزالون واقفين. رأى ذيال البدلات الطويلة مجتمعة مثل أغصانٍ لجذع واحد. ولكنْ، لم يكن ذلك السبب في خفقان قلبه الشديد. كان الشّرّ الذي أفصحت عنه تلك الوجوه الرمادية الثلاثة بتجاعيدها وثنياتها والأعين الضَّيِّقة. شر الزّهّاد الحارق الذي لا يعرف حدوداً، روح الشّرّ الكامن في القامات الثلاثة المترهبنة التي أفسدتْها التقوى، وأفسدها الازدراء، الشيطان الشاحب بهيئة هيدرة(*) يسوعية.

الشفاه التي بصقت مازالت مفتوحة مشدودة، كان يخشى أن تعاود من جديد، وبدفعة واحدة بصاقها، فيلتمع الهواء بذلك. ولكنه لم يشأ أن يستسلم. كان قلبه يضرب بشدّة، هو لا يريد أن يستسلم، كان يُحملِق بثبات بهم، يُحملِق ويصرخ، لقد آلموه إلى درجة كبيرة، حينها شحبت الوجوه، والبدلات السود صارت شَفَّافَة، وكل شيء أخذ شكلاً ثابتاً. رفّان سوداوان، رأى أحدهما من الجانب، وما بينهما كانت هناك صورة لرجل شابّ شاحب اللون، بوجه بيضوي مدهش، وعينَيْن بانخطاف صوفي، نسخة من قامات الفنّان أل غريكو المثالية.

تنفّس ياستراو ملء رئَتَيْه. صعد صدره وانخفض. أين كان؟ خوف جديد! لا، لا. سقف غريب. أخافه، ولم يجرؤ على النظر فيه، تسارع نبض قلبه بسببه. أين كان؟ أين؟ قناة بماء أخضر. مستر جاكوب! مستر جاكوب! تذكّر ذلك، فسرت رعدة في كل بدنه. ها هو مستلقٍ على أريكةٍ غريبة، بكامل ملابسه، حتّى جزمته.

(*) Hydra ثعبان ضخم وفق الأسطورة الإغريقية، له تسعة رؤوس، تنقلب إلى رأسَيْن، تنمو ما إن يُقطع إحداها

ومن جديد، انزلق نظره نحو السقف الأبيض الخطير. ولمع الضوء عند النافذة، وماجت انعكاساته اللامعة في السقف، قلقة ساطعة، بمرونة الماء الثعبانية.

انفتح الباب، امرأة شاحبة بالبيجاما الوردية، نحيلة مثل ولد تقريباً، وقفت عند الباب بعينَيْن رماديَّتَيْن، اتّسعت فتحتاهما.

"لِمَ كنتَ تصرخ؟".

جلس، وحملق بها تحت وهج ضوء الصباح. جفنا عينَيْها منتفخان، ووجهها مُتورّم بسبب الأرق. وجِلْد وجهها حول الذقن والرقبة كان مُتهدّلاً هرماً.

"هل صرختُ؟" سألها، وقد ارتسمت ابتسامة على فمه. شعر بجفاف شَفَتَيْه وحرقتهما، وأحسّ بدبيب في جِلْده، بسبب نمُوّ شَعْر ذقنه. فرك وجهه خجلاً، وابتسم ثانية، ابتسامة مُتعرّقة، ساخرة يائسة.

صدر السَّيِّدة لويسه كان يتنفّس بعنف من خلف قميص البيجاما الخفيفة.

"آه، لقد أفزعتَني جدّاً" قالتْها مُتأوّهة، وهي تحاول التقاط أنفاسها.

"مُجرّد هلوسة" أجاب ياستراو بالابتسامة الجامدة ذاتها. قالها، وكأن الهلوسة كانت جزءاً من معايشته اليومية.

بلحظة، نظرت السَّيِّدة لويسه إلى بيجامتها بحياء.

"وها أنا أقف هنا" ضحكت، وأكملت "عارية أمام رجل غريب"، لعلعت ضحكتها بتلقائية.

"فضيحة" انبرت قائلة وهي تلمّ ساقَيْها داخل بنطلون البيجاما الوردية. لمح نحول ساقَيْها وتدويرتَيَ ركبتَيْها.

"حسناً" أطال من زمن تعجّبه، فأخفت جسدها خلف القاطع، وأطلّت برأسها وشَعْرها القصير الأشعث ذي اللون الرمادي، ثمّ ضحكت ضحكة عالية، صاحت "ذلك هو الجنون بعينه".

"صحيح؟" سألها ياستراو وهو يرفع حاجبَيْه، بينما كان ينظر إلى يَدَيْه المتّسختَيْن. هكذا كانت تبدو يداه طوال اليوم التالي دوماً، جِلْد وسخ، أصابع مصبوغة بالنيكوتين، أظافير سود. كان بإمكانه أن يشمّها، كرائحة ملابس قديمة، تشبّعت بالغبار.

"أظنّ أن الأمر بأجمله هزلي" قال ياستراو.

"هل تظنّ ذلك حقّاً؟ أتدري حضرتكَ؟" قاطعتْهُ "وحضرتكَ وقح أيضاً، هزلي! ألا تفكّر بي وبالموقف الذي وضعتَني فيه؟".

رفع ياستراو نظره، وتأمّل في تلك العينَيْن الرماديَّتَيْن الساطعَتَيْن، ظلّ مُحملِقاً فيهما حتّى انتشرت حمرة خفيفة على وجهها المكسوّ بالبودرة.

"بلى، تماماً" قال، وأطبق شَفَتَيْه ساخراً.

"بالنسبة إلى حضرتكِ، فالموقف هزلي، أمّا أنا، فسيَّان عندي".

"ما الذي تعنيه بهذا؟" سألتْه بانفعال، وهي تخطو خارج القاطع بنصف جسدها. انفتح أعلى قميص البيجاما الوردية، وبان صدرها ساطعاً من الفتحة بلمعان نضرٍ شابّ، وأسرَت الحلمتان القاتمتان نظرَه، وسجنتاه بحجمَيْهما غير المتناسق، وتلك الهالة البُنِّيَّة الكبيرة من حولهما.

"أعني أن عليّ المغادرة " قالها، ونهض مُتوجِّهاً نحو الباب.

ولكنها اعترضت طريقه.

"لا، عليكَ أن تُوضِح لي ما عنيتَهُ بهزلي؟".

ونظرت مباشرة في عينَيْه نظرة وحشية مضطربة. كانت نظرة شديدة الحميمية. جِلْدها كان هرماً حول الأذن. هَمّ بيَدَيْن مقبوضَتَيْن أن يحملها برفق، ليزيحها جانباً، ويمرّ، ولكن إحدى يَدَيْه انزلقت إلى صدرها. هل كانت هي مَنْ تعمّدت ابراز صدرها؟ تحسّس عبر بيجامتها الخفيفة رقّتها وحرارتها، نحولها والقالب الأنثوي، ورأى نهدَيْها، نضرَيْن شابَّيْن تحت وهج ضوء الصباح عبر الثوب الوردي. كان ذلك هو وهج الشباب والصباح الذي اشتعل مثل حلم فيه. أمسك بها، قبّلها. شَفَتَاهَا كانتا من دون حراك. لم يكونا مُتمرِّسَتَيْن، ولكن وجهها كان حاسماً في قراره. وجه سيِّدة. رفعها عالياً، وحملها إلى الأريكة، بينما كانت عيناها مفتوحَتَيْن على وسعهما، يُحملِقان ويُحملِقان، كبيرتان جدّاً، وكأنهما قنصتا الغرفة بأكملها بضوء الصباح فيها والنوافذ والبيوت على الجانب الثاني من القناة.

كانت حَيّة ومُتعجّلة، من دون عاطفة. لم يكن دماً، حركة فقط، خبرة فقط من دون معرفة، وكان لقاء، وليس ذوباناً، من دون وحدة وانتشاء. ولكنها كانت تتكلّم "يا له من جنون!"، لم يكن جنوناً. "هل تحبّني؟ قلها" ومسّدت مرفرفة بيدها على رقبته. كانت خفقة جناح من طير صغير. "آه، أيّها البربري" وفركت خَدّها بخَدّه، فأصدر ذقنه النابت صوتاً. "وذقنكَ هذا غير الحليق،

أيّها الرجل الوحشي. وكل ما تريده هو السُّكْر" وصلتْ حدّ النشوة عبر صوتها حتّى ضحكت "آه، يا أنتَ، أيّها البربري غير الحليق، آه، أنتَ، أنتَ".

"لا أعتقد أن الأمر هزلي الآن" قالها ياستراو، وتوجّه نحو النافذة. تحرّكت غيوم صباحية بلون الأحمر الجوري، في سماء زرقاء شاحبة. غيوم مثل المنعكس من بيجاما السَّيِّدة لويسه. المباني بجوانب السقوف المائلة على الجانب الثاني من القناة كانت مكشوفة بألوانها البُنّيّ والأصفر، رقيقة مثل الجِلْد، وحمراء تشفّ بالدم، صدر السَّيِّدة لويسه.

"ما الذي تفكّر به؟" سألته السَّيِّدة لويسه. كانت تضع مسحوق البودرة على وجهها.

"لا شيء، هادئ فقط" أجابها. وكأن صوته يقول أنا غبيّ فقط، كل كلمة كان يقولها بصوت لم يتعرّف عليه كانت، ولا شكّ، كلمته. صوت هلوسة!

"حسناً" قالت السَّيِّدة لويسه مُتنهّدة، وهي على الأريكة. لوّنت شَفَتَيْها بأصبع أحمر الشفاه. "إنها الحياة، العاطفة" وضحكت. بمقدوره أن يسمعها وهي تجهد من أجل أن تضحك بانتشاء.

"الخياة لها أوجه عديدة، اشربْ حتّى يتورّم رأسكَ، كما قال صديقكَ" وضربتْ بيدها على الأريكة بقُوّة.

"ماذا عن كيير؟" سأل ياستراو. كان مايزال واقفاً عند النافذة، ينظر إلى القناة.

"استقلّ سيّارة، ولكنْ، أوله!" ووقفتْ فجأة خلفه، وشبكت يَدَيْهَا حول عنقه، وتعلّقت بظَهْره، وقد تطوّح جسدها.

"كان هو ذاته السِّكّير العجوز الذي رأيناه في البار. خفتُ جدّاً منه، وأنا سعيدة الآن، جدّاً سعيدة، كان بغاية التهذيب".

"هو هكذا دائماً" قالها ياستراو، وهو يكاد يختنق بين ذراعَيْها.

"وسكراناً أيضاً" وضحكت مُتعلّقة بظَهْره ثانية، وقَدَماها إلى الخلف، كادت أن تُوقِعه. "لقد ارتعبتُ جدّاً حين زحفتَ على أطرافك الأربعة، ونبحتَ، تملّكني الغضب، ثمّ ضحكتُ، لأني لم أعرف أنكَ كنتَ لي، كلبي العظيم، هل تصرخ دائماً في منامكَ؟" وحفرت ودسّت رأسها تحت ذراعه.

"اضغطْهُ! اضغطْهُ" صاحت وصوتها داخل ملابسه "لديّ مخّ أكثر من اللازم، لا أريده بعد الآن، اعصرْهُ، ليتفتّت قِطَعاً، هل تسمعني؟".

ضغط رأسها برفق، واعترتْهُ رجفة الوقت ذاته. الوجوه الشّرّيرة الثلاثة! كان ثالوث الشّرّ ما رآه، روح الشّرّ. والآن! هو صديقٌ لأوتو كرويه. من المستحيل أن يجرؤ وينظر في عينَيْه ثانية بعد الآن.

"آه، أنتِ" قالها بحزن، وترك ليده تداعب رأسها الذي مازال محشوراً تحت ذراعه. ضحكت شبه مختنقة تحت سترته. شَعْرها الرمادي بقصّته المبتورة كان نافراً مثل مقشّة. "كانت حماقة حلوة، تلك" فسحبتْ رأسها من تحت ذراعه بالحال.

"ما الذي تعنيه؟" سألتْهُ بعنف، وهي تقف أمامه. كانت قد لوّنت شَفَتَيْها بشكل صارخ جدّاً، فبدا فمها قاسياً وحشياً. شَفَتَان يابستان، غلّفهما الأحمر!

نظر إلى الأسفل إلى قامة المرأة النحيلة بالبيجاما الوردية، نظر إليها حيث وقفت أمامه في ذلك الجوّ الصحو، وفكّر، لم يجد في جسدها منحنيات رقيقة تجذبه.

"كانت حماقة" كرّر وهو يتأمّل عينَيْها. كانتا رصاصيَّتَيْن تعبَتَيْن. ولكنْ، عميقاً في تلك العينَيْن الرصاصيَّتَيْن استيقظ شيء قاتم ومُتفهّم. عادت إلى نفسها ثانية، السَّيِّدة ذات العينَيْن الخبيرتَيْن. نظرت إلى ياستراو الضخم، إلى الوجه العريض غير الحليق، إلى فمه المتعَب الذي ارتسمت عليه الخيبة، إلى العينَيْن المحتقنَتَيْن وهما تشعّان كالعادة بالشّكّ. نظرت إلى الخَدَّيْن وثنيات اللحم تحت الحنك، نصف وجهه الأسفل، وهو يكاد أن يفلت من شكله بترهّله رغم ذقنه الذي كان قوياً. وجه كبير لسِكّير. اشربْ حتّى يتورّم وجهكَ.

ضحكت، وأومأت له برأسها "كانت كذلك. نعم".

انطلقت ضحكتها مرتبكة، وفجأة أعطتْهُ ظَهْرها. رقبتها من تحت شَعْرها المبتور القصير كانت منحنية، وكأنها كانت تفكّر. "عليكَ أن تغادر الآن، هل سمعتَ؟" قالت وهي واقفة في مكانها.

"أغادر؟" سألها بصوت مبحوح.

كانت واقفة ماتزال معطية ظَهْرها له، وقد هزّت رقبتها بانفعال.

"نعم، نعم، لا أريد رؤيتكَ بعد الآن أمامي" قالت بحسم.

هل كان في طريقه لخسرانها؟ من الآن؟ هل عليه أن يقبض على فتوحاته، ويتمسّك بها. فتوحاته؟ حين يشرب يكون غازياً. غازياً؟

"نعم، أظنّ أن ذلك هو الأفضل، إذاً، وداعاً سيِّدة لويسه و..." توقّف من ثمّ "وشكراً لكِ".

استدارت جهته مُتفاجِئة. ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهها، وانفجرت بضحكة.

"وتشكرني حضرتكَ أيضاً. لا شيء لتشكرَني عليه، يا سيّدي" نزلت يداها إلى الجانبَيْن فجأة، انشدّ فمها بأسى، وهزّت رأسها. "لا شيء، الأفضل أن تذهب، ولا، لا، أنا التي كانت تتطلّع إلى تلك المغامرة الكبيرة. لا لا، مع السلامة، قلْ وداعاً إلى زوجة صغيرة تناسوها، وأهملوها. وداعاً! اذهب الآن، قلْ وداعاً لزوجة صديقكَ. هيّا، اذهبْ، ألا تسمع؟"، وركضت صوب الأريكة، وألقت بنفسها عليها، ووجهها في الوسادة.

"سأذهب إذاً" قال.

لم تنتحب، أخفت وجهها حسب.

مشى ياستراو بهدوء ومراعاة. وغادر.

وفي زاوية من شارع تورفغيذه، أشعل له غليوناً. الشوارع خالية مشرقة بألوان حجرية مختلفة، تجلّت في البلاطات والواجهات. ضجّت عربة بستاني بالوحدة، وهو قادم من "أمار"، ملحّفة مع حصانها وسائقها بأجواء كدر الصباح. صفقت حدوات الحصان باتّزان على الحجر والصدى، أخذ وقتاً بتردّده من جدران البيوت.

تمشّى ياستراو ببطء صوب جسر كنيبل. أمال رأسه إلى الوراء، كعادة المتنزّهين كلهم صباحاً، تابع بعينَيْه خطوط سقوف البنايات صوب السماء الزرقاء الشاحبة والغيوم المحمرّة، السَّيِّدة لويسه، ابتسمت متأمّلة انعكاسات وهج النهار في النوافذ العليا. الطوابق الأربعة كلها كانت خالية مشعّة مثل فقاعات صابون. الستائر وأصص الزرع والإنسانية قد اختفت خلف أغشية عائمة رطبة ذائبة في السماء المعكوسة على زجاج النوافذ.

ولكنه لا يريد أن يفكّر. فرك يَدَيْه، ليتأكّد من أنه هو ذاته، وتهادى مُواصِلاً سيره، يخطو بحذر على بلاطات الطريق، وهو يشعر بقَدَمَيْه اللّتَيْن كانتا تُؤلمانه جدًّاً. وبين الحين والحين، كان يخطو بعزم. كان هو هو ذاته.

أطراف الثعابين الخضر الملفوفة على مبنى البورصة! هناك الكثير من السعادات في الصباح، صافية وكل على حدة، بمعنى ما. هواء الصباح كان ساكناً حتّى إن دخان غليونه تصاعد كثيفاً على مهله.

لقد غزا امرأة. هل جعله ذلك يرى الأمور بوضوح؟ كان الجوّ صحواً هذا الصباح. كانت أيضاً

سماء صباحية في أوّل مرّة له مع امرأة، حينها وقف وتأمّل ذرى الأشجار مَلِيًّا في شارع رابك أليه المشجّر. الفراغ الصافي ذاته. زجاج النافذة للطابق الرابع الذي عكس ضياء سماء صيفية.

بدت ساحة هويبرو فارغة أيضاً، بُنِّيَّة بعض الشيء، ومُرحِّبة مثل غرفة معيشة. لِمَ شاء أن يسلك طريق شارع المشي إلى بيته؟ كان الجوّ دافئاً كوبنهاجنياً، وشارع المشي يعدّ من ضمن جولة الصباح.

زوجة صديق! ولكنْ، ألم يكن ذلك هسيتيريا؟ كان أوتو يعبد آلهة غريبة. ألم يستحقّ ذلك؟ كان ذلك عقاباً مُنتظَراً.

هدل الحمام فوق سطوح شارع المشي. ومضة من نافذة ستوديو لمصوّرٍ. ظلّ ضعيف على الشارع، شفاف بُنّيّ. لمعت واجهات المباني والبلاطات، وصوت الحمام البهيج المتواصل، كما لو كانت الفناءات في الخلف مزدحمة بهم. خفقات قوية بين الحين والحين، انطلاقة جناحَيْن وريش أبيض متطاير في الهواء.

صوت هديلها يُسمَع، كما لو كانت في قصور مُقفِرة. في فناءات القصور المُقفِرة. كوبنهاجن ذات صباح صيفي باكر.

كانت المحكمة إلى اليسار من ساحة النوتورف بأعمدتها الضخمة، معبد بُنّيّ مصفرّ اللون، ومن خلف تلك الجدران، كانت غرفة الحجز.

سرت رعدة في كامل جسده.

كان يرتدي حمّالات بنطلون، والبنطلون كان في مكانه، كما يجب. ولكنْ، هناك أشكال عديدة للمهانة. حسناً فعل حين طلب من فتاة الفندق أن تخيط له الشّقّ في بنطلونه بالأمس، المِزَق الكاثوليكي! جرحٌ إثر معركة روحية. منذ متى غادر بيته في شارع استيدغيذه؟ أوّل البارحة حين جاء حارس البناية وهو يجرّ الألواح الخشبية، ليسدّ بها باب المدخل، ويغطي الثقوب. قد مرّ زمن طويل جدًّا! في تلك الأثناء، تعرّف على السَّيِّدة لويسه.

"داوبلا..ذيت" "داوبلا ... ذيت" سُمع صوت يصدر من وهد معتم تردّد في ساحة البلدية، حيث المباني المغمورة بسديم أبيض. شارع فريديريكسبيرغغيذه.

وحين صادف بائع الجرائد، لم يشتر الجريدة. غريب! يرغب في أن يمتنع عن عادة الانتشاء المحموم بالجريدة الطازجة، والتي تعبق رائحتها مازالت بأسطوانات المطبعة.

نظر إلى ساحة البلدية المضيئة الشاسعة بامتدادها. جاءت فتاة بوجه أبيض مسرعة عند الزاوية، حيث -المظلّة-. تعرّف عليها عبر مظهرها الخارجي. تساءل إن كانت هي، التي أطلق عليها من قِبَل قسم التحرير بـ -الناي-. كانت هناك أخرى أسموها -الوجه-. ولا لم تكن هي.

أخيراً وقف بقَدَمَيْه المتوجِّعَتَيْن عند البوّابة في استيدغيذه. لِمَ لم يتوجّه إلى الفندق؟ لماذا؟ لا بدّ وأن ستيفينسن سيكون مستلقياً هناك نائماً، وكأن البيت بيته. وهل عادت، يا تُرى، آنا ماريا؟

ما إن فتح باب البوّابة الثقيل حتّى أغلق عينه، كان مرهقاً جدّاً، والظلمة بدت له مملوءة بنار ودخان. كان القلق محموماً، يتربّص به.

"هلو! صباح الخير" وقف أمامه حارس البناية بهالَتَي عينَيْن حمراوَيْن، وقد برزت من جيبَي بدلة العمل زجاجتا بيرة. "ليس من السهل أن تكون محارباً"، قالها مُترنِّحاً. أومأ له ياسترو برأسه.

"أرافقكَ جزءاً من الطريق، وأنتَ تصعد السّلّم كما يقال، واصل الحارس "الرفقة تُقصّر الطريق".

"أنا تعبان".

"أنا يلزمني غفوة صغيرة مباشرة قبل الصباح، والذي هو في الحقيقة اليوم. وللعلم، فقد تحدّثتُ بطلاقة مع الخبّاز بالسياسة، هو الذي يريد أن يشتري غرامافونكَ، ولكني أطلب عمولة لي، يا ياستراو. أررر، ياستراو الشّرّيب السِّكّير".

كانا في طريقهما لصعود السّلّم الذي غمره ضوء الصباح والغبار، كانت النوافذ بحاجة إلى تنظيف.

"الشّرّيب السِّكّير" ضحك حارس البناية، وهو يضربه على كتفه.

"وأنا الذي تصوّرتُ أنكَ رجل من نوع محترم وقدير، واتّضح أن حضرتكَ إنسان عادي، إنسان. ولقد رفعنا الكلفة، وصرنا أصدقاء، حقيقة. صدِّقني، بذلتُ جهداً لتثبيت تلك الألواح على باب المدخل، هههه، وكأن جريمة قد حصلت في شقَّتكَ".

نظر ياستراو إلى بابه، وتوقّف في الحال. الزجاج المعتم بنقشه، والثقب الكبير الذي أخذ شكل نجمة بزواياها الحادّة المتفجّرة، ومن خلفها الألواح الخشبية الفجّة التي ثبّتت لمنع أحد من إدخال ذراعه عبر الثقب، وفتح الباب من الداخل، كان لكل ذلك بواقعيّته التامّة شديد الأثر عليه، ما جعله يلهث، ليجرّ نَفَساً. كان هَدْمَاً! شديد الوضوح أمامه، ولحارس البناية الحقّ، فلقد بدا المنظر وكأن جناية بشعة قد ارتُكبت خلف ذلك الباب المحصّن.

"عمل جيّد، في الحقيقة" قالها حارس البناية ضاحكاً، وترنّح، واصطدم به.

"هل لازال ينام في شَقَّتي؟" سأله ياستراو لاهثاً. لم يكن بمقدوره أن يُبعد نظره عن الباب المُدمّر. كان ذلك هو المدخل إلى بيته! بيتٌ!

"ذلك المغفّل؟ نعم، إنه يلعب دور سيِّد البيت. الآنسة ينسن تموت رعباً منه. إنه زبون صعب جدّاً، وهو من عائلة محترمة علاوة على ذلك".

"الآنسة ينسن" سأل ياستراو مُرتبِكاً مُرهقاً، واستدار جانباً، ليتّكئ على الدرابزين.

"نعم، الفتاة التي هربت تلك الليلة. ولكنْ ..." وترنّح قليلاً، وواصل "درجات السّلّم هذه تتأرجح، لا يمكنني الوقوف".

"تعال، لنجلس" أجابه ياستراو، وجلس على درجة السّلّم معطياً ظَهْره للباب المرعب.

"حسناً، لنجلس" قال حارس البناية. "أوف، ليس من السهل أن تكون محارباً، لا لا، في الحقيقة لا".

راح ياستراو يُحملِق في الفناء عبر فتحة النافذة الصغيرة في السّلّم.

"الآنسة ينسن، آنا ماريا" قال بهدوء. "هي لجأتْ إليكَ، إذاً؟".

"نعم، ليس إليّ في الحقيقة، لزوجتي تحديداً" أجاب حارس البناية ضاحكاً، وهو يتكئ بذراعَيْه براحة على درجة السّلّم، وهو ينظر في بطنه التي انتفخت ببدلة العمل التي يرتديها. "ولكنْ، ما هذا الذي أراه على بطني؟ زجاجتا بيرة، لسيِّدَيْن، كان قلبي دليلي، أحسستُ أني سأقابلكَ على السّلّم، تفضّل".

نزَعَ عنهما الغطاءَيْن، وتركهما يتدحرجان على درجات السّلّم. تعانقت الزجاجتان، صَلْصَلَتَا، ورفع كلّ منهما نخباً، وشرب.

"يا ياستراو" قال حارس البناية وهو يتأوّه في فمّ الزجاجة التي أصدرت صفيراً مجوّفاً. "هلا بعتَ ذلك الغرامافون الجميل؟".

"لا" طلعت منه بانزعاج، وأكمل "ولكنْ، هل مازالت آنا ماريا مقيمة عندكَ؟ هل هي فوق في شقّتك الآن؟".

حكّ حارس النباية شَعْر رأسه الاحمر.

"آنا ماريا؟ آآآ، تقصد الآنسة ينسن؟" وضحك على مهل. "لقد وعدتُها ألا أقول شيئاً لأحد، ولكن ذلك غير ممكن حين يكون اللقاء مثل هذا على درجات السّلّم، صعوداً، في الطريق إلى الفراش، آه، مفعول هذه البيرة روعة، عجيب كيف يبقى مذاق البيرة ممتازاً هكذا على الدوام".

عقد ياستراو حاجبَيْه.

"من المستحيل أن تكون عندكَ إمكانية لهذا" قال.

"البيرة؟ لا" أجاب حارس البناية فاغر الفم، ودسّ بعدها الزجاجة في فمه المفتوح بعد أن تمكّن أخيراً من فتحه.

"ولكنْ، لتُكلّفني ما تُكلّف" نفخ وهو يقولها، ونظر إلى ياستراو، وغمز بعينَيْه البريئَتَيْن الغائمَتَيْن.

"قلْ لي هل مازلتَ تُفضّل ألا تبيع الغرامافون؟ خالص كلامنا؟" قالها فجأة، ودفعه بمكر.

"قصدتُ أن لا إمكانية لكَ على إعالتها، وهي تقيم عندكَ" قالها ياستراو بعناد، وكأنه كان ينحت في ذلك الوهن الصباحي الذي فيه، وشرود حارس البناية السابح دفعة واحدة.

"لا، ليس لديّ ذلك، كلا".

"ما الذي ستفعله بشأنها، إذاً؟".

"ههه" ضرب حارس البناية على فخذَيْه. "وهل تتصوّر أن زوجتي سترضى بذلك؟ لا، إذاً، أنتَ لا تعرفها، وهي، بالمناسبة، مازالت شابّة أيضاً وحيوية. لا بدّ وأنكَ رأيتَ ذلك، اللعنة على الشيطان. تعطي الرجل ما يكفي، لينشغل به، ورجل واحد لا يكفي للقيام بهذه المهامّ، أليس كذلك؟ بصحّتكَ! البيرة شيء عظيم!".

شرب ياستراو من دون متعة. كان واهناً.

"أنا لا أفهم" قالها وهو ينظر في درجات السّلّم.

"ولا أنا، اللعنة" ضحك حارس البناية. "ولا أفهم كذلك ما هو الذي لا تفهمه، هل هو الغرامافون؟".

"لا أفهم كيف بإمكانكَ أن تأوي آنا ماريا؟".

"آنا ماريا؟ مَنْ؟ الآنسة ينسن" ورفع الحارس الزجاجة موضحاً "بلى، إنها تساعد زوجتي،

وزوجتي تساعدها في البحث عن عمل في الإعلانات، أوه، هذه الكلمة طويلة للفظها في الصباح الباكر، وهي تعيرها بعض الملابس، فاهم؟ أنتَ تعرف، لكي تبدو محترمة كما يقال حين تطلب عملاً. إنها، في الحقيقة، إنسانة طيّبة، زوجتي أقصد، قلبها كبير! ثديها كبير! وركها كبير! مؤخّرتها كبيرة! كل شيء فيها كبير، هههه، أظنّ ليس صحيحاً التّكلّم هكذا عن الزوجة؟".

نهض ياستراو، ونظر إليه.

"أنتم أناس طيّبون" قالها. لا يعرف إن كان يعني ما قاله، ولكنه شعر بحاجة شديدة للطيبة.

"ماذا؟ هل تسخر؟" سأله الحارس بهزّة شكّ من جسده.

كان ياستراو في طريقه لينزل السّلّم.

"ماذا؟ هل ستذهب؟".

"نعم، لا أريد النوم هنا" أجابه ياستراو، وهو يُومِئ إليه من الخلف. لقد أدرك فجأة ذلك. لا يريد رؤية هذا الباب بعد الآن. كان مُرعباً. لن ينساه أبداً، أبداً، بالزجاج المكسّر والألواح. كان وكأنه قد رأى حياته هو خراباً.

"يظهر أن الجلوس معي لم يعجبكَ، هه؟ ماذا عن الفواتير؟ هه؟".

"أيّة فواتير؟".

"مصلح الزجاج والألواح وذلك كله. هل كنتَ تتصوّر أنها منحة؟" قالها بفظاظة، وهو يدسّ بوجهه المنمّش من فوق الدرابزين.

كان ياستراو قد نزل بضع درجات. أدار بحذر رأسه صوب الحارس حتّى التقطت عيناه جزءاً من الزجاج المحطّم لباب المدخل. كان الحارس جالساً مايزال على درجة السّلّم، وقد مدّ وجهه الغاضب إليه.

"أرسلها إلى الفندق الذي أنزل فيه" قالها ياستراو بتعالٍ.

"سأفعل".

وعاد وغطس في مكانه ثانية. ولكنْ، بينما كان ياستراو ينزل درجات السّلّم كانت تصل أذنَيْه كلمات الحارس مُجزّأة.

"... لا نعرف كيف نتعامل معهم، إلهي، كنّا حلوين حين جلسنا هنا، ...فجأة تصعد النبالة برأسهم، و... اللعنة، أناس طيّبون، و... أنتَ كذلك، غرامافون محترم".

وحين قارب أن يخرج، سمع تنهيدة ودبك أقدام، وباللحظة، طَقْطَقَت الزجاجات درجة بعد درجة، وهو ينزل السّلّم.

كان حارس البناية مَنْ نهض، وهو في طريقه إلى الصعود لشقَّته، كي يأخذ إغفاءة قصيرة قبل أن يبدأ صباحه.

بشعور مَن قطع أميالاً عديدة، مشى ياستراو ببطء إلى ساحة البلدية. عند موقف الباصات وسط الساحة الخالية، كانت هناك فتاة، ترتدي الأسود الذي لمع مثل طلاء حول مفاتنها. بدت بجواربها من النايلون بلونها اللحمي والفستان الضَّيِّق، وكأنها ترتدي مايوه سباحة، تتلألأ ببَلَلها تحت ضوء الصباح. مشى ياستراو بخطّ مُقوّس قريباً منها. اهتاج للحظة. كان غازي النساء. ولكن وجهها كان مَطلياً تماماً بالمكياج والفم الأحمر بدا تعباً وقحاً.

كانت للسَّيِّدة لويسه عينان رصاصيَّتان عميقتان. كل شيء بدا بعيداً جدًّاً، وغير حقيقي.

توجّه من بعدها بشعور أكبر بالتعب نحو الفندق.

كانت هناك اللائحة البيضوية الكبيرة المعلّقة خارج الفندق، بار دس آرتيست مكتوبة على شكل قوس، كما يرسم أحدٌ جسراً، والخطّ المستقيم تحت الجسر كان للكلمة المحرّضة: رقص.

كان ذلك هو بيته.

وبشعور غامر من الهدوء، توجّه إلى مدخل الفندق، ودقّ على الجرس.

"هل سمعتَ، يا سيِّد ياستراو؟" قال البوّاب هامساً حين فتح له الباب. "منذ نصف ساعة، نزل السَّيِّد كيير من غرفته، بكامل حلّته حليق الذقن، ينوي دخول البار ظنّاً منه أن الساعة دقّت الواحدة".

أخفى موظّف الاستقبال شاربه الأسود الصغير خلف يده المبسوطة، وضحك.

"لا تعلم حضرتكَ كم استغرقنا من الوقت، من أجل أن نُقنعه بأنه الصباح، هه هه! آه، أضحك، ما إن أفكّر بذلك، وهل تعلم ما الذي قاله إثرها؟ لا، لا يمكنكَ أن تحزر، قال إن عقارب ساعته أصابها عطل ما، لأنه كان في الكنيسة وهو لا يطيق هكذا حياة من دون نظام، وهو لم يسكر

تماماً الساعة الرابعة والنصف، هه هه هه، وبالمناسبة، فقد قال إن حضرتكَ هو مَنْ سَحَبَهُ إلى الكنيسة. هل هذا صحيح، سيِّد ياستراو؟".

"لا، كنّا في الغابة. وحين رأى الأشجار، الأغصان وذرى الأشجار، أصابه الخوف، وظنّ أنه كان في كنيسة" قال ياستراو بابتسامة مُرهَقة.

"آا نعم" قال موظّف الاستقبال، وأفلت ضحكة مكتومة. "معقول؟ سيِّد كيير لا يُقدّر بثمن".

ومن بعدها "صباح الخير، سيِّد ياستراو" قالها البوّاب، وأغلق الباب على المصعد، بشكل رسمي.

في تلك الأثناء، عبر التِّرام الشارع ضاجّاً ومُعلناً عن بدء يوم جديد.

الفصل الرابع

كان ياستراو جالساً في مطعم الفندق، يتناول غداءه بعد مرور يومَيْن. بإمكانه أن يرى عبر الستارة أشعّة الشمس البرّاقة عالياً بين السقوف في الفناء الصغير للفندق، ولكن انعكاس الضوء الذي وصله كان شاحباً مريضاً. منظر الجدار العازل الأبدي ضدّ الحريق يصيبه بكآبة، لذا، راح يفرك يَدَيْه بمنديل التقديم بعصبية.

من شبه المستحيل أن يجلس ساكناً في مكانه. من غير المحتمل انتظار الطبق الثاني. يُقدِم بين الحين والآخر على تفتيت قطعة الخبز لنفاد صبره.

تناول كأس السنابس، وقرّبه بحذر من فمه، ولكن الشراب ارتعش. كانت يداه. من المحال أن يجعلهما تهدآن. أمسك إحدى يَدَيْه، وراح يراقبها طويلاً، ثلاثون ثانية. كانت ترتجف.

ولكنْ، عليه أن يتناول كأساً أخرى.

من المؤكّد أن كيير لم ينهضْ بعد. افتقده. يُخيّل إليه أنه الإنسان الوحيد الذي يعرفه. الوحيد. وهما يسلكان الطريق ذاته. ولكنْ، كيير، هذا السّنّ المنخور يملك ثروة، يديرها محاميه. التردّي من أجل الوصول إلى القاع، يتطلّب ثروة؟ القاع؟ هراء! لقد سحَبَ رواتب الثلاثة الأشهر مدفوعة من الـ-داوبلاذيت-. ومعظمها كان من قسط المتعة. والباقي؟ هل عليه أن يعدّ المتبقّي لديه؟

لن أتمكّن من الشرب حتّى الموت، عليّ، إذاً، أن أكون صاحياً، من أجل أن أكسب نقوداً لأجل أن أتمكّن من شراء الكحول. وإلا كيف؟ يمكن أن يتحوّل ذلك إلى حكمة! ولكن الحكمة شيء سيّئ، إلا إذا ضغطنا الجملة مثل منظار، واختزلنا حجمه. شراب الأكفافيت بمثابة دواء. أغمض عينَيْه، وهو يُفرِغ كأساً أخرى.

"هناك مكالمة لكَ، سيِّد ياستراو".

انحنى النادل بابتسامة متواطئة. نعم، أوّل البارحة. بلى بلى. كان هنا في المطعم أوّل البارحة، وبهذا الوضع. مَنْ رآه؟ ما الذي قاله؟ ابتسامة النُّدُل تعكس معرفتهم. آه، لقد عاش في جوّ

ابتسامات النُّدُل؛ كانوا على مقربة منه؛ لا يمكن طَرْدهم بعيداً بمنديل. بقٌّ! وابتساماتهم كانت ذاتها التي دارت في أسراب من حول كيير الخالد، المتساهل، كاتم الأسرار، الحميمي، الشاكي المحذّر.

"هاتف؟ شكراً" قال، وهو ينهض.

ولكنْ؛ مَنْ ذا الذي يمكن أن يتّصل به؟ توقّف منتصف الصالة الخالية. رجل فرنسي بلحية بيضاء كبيرة كان على وشك أن يمسح فمه بمنديل. كان هو الضيف الوحيد في المطعم، وبائع الأنبذة من بوردو. قالا بونجور مسيو لبعضهما البعض. يفعلان ذلك عند كل وجبة غداء. ويضحكان بعدها. هه هه!

وعاد العالم شبه معتم ومقفر ثانية، بينما كانت الشمس تسطع في الشارع خارج الفندق خلف الستائر. خلف الستائر دوماً! الناس، الدَّرَّاجات، السّيّارت، التِّرامات، الوميض الذي يطارد، ولكنْ، مَنْ ذا الذي يتّصل الآن؟ هل يمكن أن تكون السَّيِّدة لويسه؟ لم يسمع صوتها منذ آخر مرّة. غريب! هل تغرّب عن كل شيء؟ ما المقصود بتجربة؟ المطعم، البار، كيير الخالد الذي يكرّر نفسه، شبه معتم، موسيقى الغرامافون، مذاق العملة النقدية على لسانه، الاشمئزاز لفكرة احتساء الويسكي، وهو إحساس يتكرّر كل يوم، ذلك كله مستمرّ من دون توقّف. كان التّيّار، النهر، إنها، ولا شكّ، السَّيِّدة لويسه؟ وماذا لو كانت هي؟! حسناً، ثمّ ماذا؟ صوت من ضفّة النهر بينما يمرّ أحدهم عائماً.

طائفاً! طائفاً! طائفاً! سيتوقّف ذلك من تلقاء نفسه. عليه أن يكتب مقالاً، ليحصل على نقود. الآن، اليوم، لا، لا، ربمّا في الغد. ولكن ذلك سيتوقّف من تلقاء نفسه.

كان قادراً على الابتسام ممازحاً نفسه. يُطلق عليها ابتسامة دهاء ومَكْر، لأن هذا الانحلال والتداعي لا بدّ وأن ينتهي أتوماتيكياً. كانت تلك معرفته الداخلية، سرّه المتلألئ الماكر.

أمسك بالهاتف.

"De profundis clamo[*]؟"

"ماذا بحقّ الشيطان؟" كان ياستراو على وشك أن يُغلق السَّمَّاعة.

"هذا أنا الذي يصرخ من الأعماق، فولدوم".

(*) De profundis clamo من الأعماق أصرخ إليك. الاقتباس اللاتيني من مزامير داود (مزمور 130) حيث ينادي داود الله وهو في شدّة حاجته

"أوه" أجابه ياستراو، وقد بانت معاني التعب على وجهه. هل سيتحدّثان الآن عن الزجاجة المكسورة في شارع ستينوسغيذه ثانية.

"إنه لذكاء منكَ، يا أوله" تابع فولدوم من دون مقدّمات. "لقد خرجتَ في الوقت المناسب".

"هل تظنّ ذلك حقّاً؟".

أخيراً وصل الخبر لفولدوم. والآن يعلو الطنين في قسم التحرير.

"ولكنْ، كان بإمكانكَ أن تقول لي ذلك من قبل" شاب صوتَ فولدوم بعضٌ من الاستهجان. "لربّما كان بإمكاني مَنع إمَّعَة من أن يحلّ محلّكَ، لا ندري الآن أبداً مَنْ سيكون سيِّد لا شيء هذا ".

"نعم، عندك حقّ في ذلك، يا فولدوم" أجابه بوهن.

"لا أشعر بأنكَ كنتَ مخلصاً لي كزميل، ألا تعترف بهذا؟" بدا صوته متأثّراً بشأن ياستراو.

"بلى" قال ياستراو.

"الوعي بالذات شيء حسن" ضحك فولدوم. "وطالما أنكَ تقرّ بذلك عليكَ أيضاً أن تقرّ بأنكَ مَدين للأب غارهامر باعتذار. أعرف أن فاتورة تصليح قطعة الزجاج تلك موجودة على مكتبه، أربع أو خمس كرونات، شيء تافه".

"هل سأُجْبَر على كانوسا(*)؟".

"لا، يا أوله، مُجرّد أن تُظهر احترامكَ له، لا تنسَ أني أنا الذي كان لي الشرف بتقديمكما إلى بعض".

"تبدو مهتمّاً جدّاً بهذا الموضوع تحديداً".

"أو تحديداً بكَ، يا أوله، وأعلم أن الأب غارهامر بانتظار زيارتكَ كل يوم، وبالإمكان مقابلته بحدود الساعة الرابعة".

كان صوت فولدوم رقيقاً وصادقاً.

"فكِّر بالأمر، يا أوله، أنتَ تعرفني، بالنسبة إليّ، فلا فرق لديّ".

---

*) Canossa مصدر القول إن القيصر هنريك الرابع (1106-1050) أجبر على التّوجّه إلى كانوسا في شمال إيطاليا من أجل أن يرفع البابا اللعنة عنه، بسبب اعتدائه على الكنيسة الكاثوليكية، وبقي لأربعة أيّام وسط الثلج خارج قلعة البابا، بانتظار أن يعفو البابا عنه.

إنه يودّ إجباري على الذهاب إلى هناك، فكّر ياستراو حين أغلق السَّمَّاعة. يُجبرني! يودّ أن يهينني. هناك في شارع ستينوسغيذه. أن أتقرفص. أن أجلس في حجرة الاستقبال وأتقرفص بإذلال. تمرّين على الاعتراف؟

De profudis clamavi ad te, domine(*)

آثم نادم يدفع ثمن قطعة صغيرة من زجاج مكسّر. ولكن فولدوم أسماها زجاجة نافذة. والشائعات! الشائعات أخذت، ولا شكّ، على عاتقها تكبيرها إلى زجاج نافذة كنيسة بلوحة ملوّنة، وإطار من الرصاص، والآن عادت وصارت قطعة زجاج ثانية. يحارب المرء وببطء ريثما يتوصّل إلى الحقيقة.

لاح وجه ياستراو في المطعم، من خلال المرآة الطويلة على العمود الفاصل بين النافذَتَيْن، كامل جسده، الجاكيت الأسود الضَّيِّق، البنطلون ذو المُربَّعات بلونه الفاتح، مثل عازف جاز أسود أو طبّاخ سفينة في إجازة. في الأحوال كلها، فمن الجيِّد أن يأخذ المرء فكرة عن صورته من قِبَل الغير. لربّما تمدّ البعض بمعلومات مطلوبة جدًّاً. كانت هناك أيضاً تلك المرايا المقعّرة في تيفولي، حين ينقلب المرء بديناً مُدوّراً فجأة، وفجأة يصير متطاولاً سامقاً بوجه، يبدو زاهداً، وفجأة بسيقان طويلة وجذع قصير، ثمّ جذع طويل وساقَي غُرَيْر قصيرتَيْن.

وهل كان ذلك كله مَردّه المرايا المقعّرة؟ أصحيح هذا؟

كيف انعكست صورته في رأس تلك المرآة عند البوفيه هناك خلف النخلة الاصطناعية؟ مصباح كهربائي مشتعل، والصالة معتمة جدًّاً، وتلك المرأة كانت جالسة هناك، بدينة شاحبة لغثيانها من فرط الأكل، ابتسمت له بعطف. وكيف يا تُرى انعكس وجهه في آنا ماريا؟ المرايا المقعّرة في تيفولي؟ هل كانت مرعوبة منه، كما كانت مرعوبة من ستيفينسن؟

والسَّيِّدة لويسه؟

في تلك الأثناء، بسمع وقع خطوات سريعة حيوية عبر الصالة، فاستدار بهدوء. كان سيِّداً ذا شَعْر غامق اللون مرتدياً معطفاً أنيقاً فاتح اللون، حاملاً قُبَّعته اللّيّنة في يده المتأرجحة.

"ها أنتَ هنا! وشراب السنابس صباحاً، ههها!".

امتقع وجه ياستراو، وشعر بدوار حين قابل تلك الابتسامة الرقيقة الساطعة.

---

*) من الأعماق، أصرخ إليكَ، يا ربّ. مزامير داود، 130

"طاب يومكَ، كرويه" قالها بصوت مبحوح.

لكن كرويه جلس على الكرسي مقابله غير عابئ، محتفظاً بالمعطف، ورامياً القُبَّعة على الطاولة الفارغة.

"أنا مشغول. بيرة، يا أيّها النادل. نعم، لا، لن آكل شيئاً. لا، وكيف حالكَ، يا ياستراو؟ بطريقكَ إلى الجحيم، أجرؤ لأقول".

نظر ياستراو إلى يَدَيْه الجبَّارَتَيْن، معصَمَيْه القويَّتَيْن وطَرَفَيِ الكُمَّيْن الناصعَي البياض. بهاتَيْن اليَدَيْن، داعب السَّيِّدة لويسه والعديد من النساء غيرها، العديد.

"الحطام لا يعاني أبداً" أجابه. "الأمور تسير على هواها، تستسلم للمقاومة".

"أرى أنكَ بمزاج مراسيم دفن؟ وذلك منسجم أيضاً مع هذه الإضاءة هنا" انحنى صوبه ليُسارِره "بالمناسبة، لويسه تبعث لكَ بالسلام. إنها معجبة بكَ جدًّاً".

نظر ياستراو في عينَي كرويه. كانتا سوداوَيْن طيّبَتَيْن، وقد لمعت ابتسامة عريضة على وجهه.

"وأنا كذلك" قال ياستراو.

ولكن حالكَ يبدو لي سيِّئاً جدًّاً" واصل كرويه، وسحب كرسيه قريباً من الطاولة. "هل ألقيتَ بالحبال كلها؟".

"نعم، بإمكانكَ أن تقول هذا".

كانت ربطة عنق كرويه ناعمة مدوّرة الأطراف.

"زواجكَ؟".

"نعم".

"حتّى طفلكَ؟".

"نعم".

لا يزرّر كرويه، ولا شكّ، أعلى زرّ في الصديري.

"و-داوبلاذيت- أيضاً كما سمعتَ؟".

"نعم".

"بِنِيَّة التّفرّغ للكتابة، لكي تُصدر كتاباً؟".

"لا".

كان لكرويه جبهة واطئة، من الصعب تجنُّب النظر إليها، لاحَ شبه ارتفاعة فوق كل عين، جذر القرنَيْن(*).

اتّكأ كرويه إلى الخلف، وقنَصَ نظرة لعينَي ياستراو، وابتسم ابتسامة ساخرة، كشفت عن أسنانه.

"ما الذي تريد فعله، إذنْ؟ أن تشرب؟".

أزاح ياستراو نظره بعيداً باللحظة. شعر بتأثّر شديد لعمق مودّته. بدا كرويه صقيلاً لامعاً درجة تؤذي العينَيْن. وغريب أن السَّيِّدة لويسه...

"ليس صحيحاً أن تظلّ مقيماً هنا. ستُدمّر نفسكَ، ليس إلا" تابع كرويه، وسحب له سيجاراً. "تفضّلْ، تعال، انتقل عندي. لديّ أريكة للنوم في مكتبي في البيت".

"هل لديكَ أريكة؟" سأل ياستراو بتلكُّؤ. ثلاث قامات سود مثل ثلاثة أغصان لجذع واحد. ثلاثة وجوه تبصق. الروح الشّرّيرة. يا له من جنون! هل تحبّني؟ قلها! قلها! قلها!. آه، أيّها البربري! غير الحليق.

"وكأنكَ لا تُصدِّقني، يا ياستراو".

"بلى، أُصدِّقكَ" أجاب بصعوبة، وحملق، وأمسك بيَدَي كرويه.

"لا أظنّكَ معي، أنتَ سارح أو لديكَ خمار".

يعرف ياستراو أن كرويه لم يكن غبياً. ولكنْ، هذا جائز؟ أن يكون من السهل التعالي على إنسان؟ أن تغشّ وتخدع حسب! وستكون مُتعالياً! ذلك كامن في ورقة اللعب المَخفية في اليد. نظر ياستراو مباشرة في عينَي كرويه.

"نظرتكَ غريبة، ياستراو؟".

---

*) مجاز لاستخدام شائع، يشير إلى خيانة الزوجة لزوجها

"شربتُ كثيراً في الفترة الأخيرة" أجابه وهو لازال ينظر في عينَيْه مباشرة. كم كان ذلك سهلاً!

"ولكنْ، لا يمكن أن تبقى على هذا الحال، يا رجل" قاطعه كرويه، وهو يقطع بعناية ببعض من القسوة طرف السيجار، وينفخ الغبار عنه. دارت عينا ياستراو من جديد، لتتأمّلا جبهته وشَعْره الجميل بلونه الأسود المشوب بالزرقة.

"ولكنْ، قلْ لي ما الذي تبغيه؟".

"أحياناً أُوهِم نفسي أن لديّ هدفاً فلسفياً في هذا، أردتُ أن أدخل إلى ما وراء المعنى، ما وراء آرائي" قال ياستراو "أردتُ أن أرى ما يكمن خلفها".

"نعم، وكان هناك شبق وكحول، صحيح؟" ضحك كرويه، وأشعل سيجاره."هل أنتَ واقع في الحُبّ؟"

"كلا" أجابه ياستراو بابتسامة، وفجأة تجرّأ، شدّ من مفاتيحه مثل دوزنة آلة موسيقية ليقول "إن كنتُ كذلك، فسيكون في حُبّ زوجتكَ".

"مستحيل!" أجاب كرويه، وقد اتّسعت عيناه، وومضتا، ثمّ ابتسم، وقال بلهجة ساخرة "بالمناسبة، أنا لا أظنّكَ تعرف الحُبّ، يا ياستراو، لا أظنّ، لم أعتقد عمري بذلك".

"ألا تظنّ ذلك؟" قالها ياستراو مُحرّضاً، وفجأة بضحكة قوية يائسة "أنتَ مُحقّ، يا كرويه".

أومأ كرويه برأسه مُتفهِّماً.

"النساء، بالنسبة إليّ، ينقسمان بوضوح إلى صنفَيْن، الصنف الذي نحبّه، والصنف الذي نقدّسه" قال ياستراو، وهو يشعر بحاجة، ليكون قريباً صادقاً مع هذا الرجل الذي خانه، أن يسلخ جِلْده، أن يقرّ بذنبه، ومن دون اعتبار لشيء، وبالرغم من ذلك، أن يفلت سالماً. "هناك ماريا المجدلية، وهناك مادونا، وبالنسبة إليّ، فمن المستحيل جمعهما معاً في واحدة".

"ولكنكَ تزوّجتَ؟" قال كرويه مباشرة.

أومأ ياستراو برأسه.

"ما السبب في انفصالكَ؟".

"لا أدري حقيقة، هل كنتُ أنا الذي خنتُها أم هي؟" وراح مُحملِقاً أمامه بنظرة فارغة، ثمّ أضاف "أنا مشتاق إلى ابني جدًّا"،

أخرج كرويه السيجار من فمه، وصفّر.

"وأمّكَ؟" سأله.

"هل تجري تحقيقاً معي؟" أجابه بضيق.

"لا، كلا كلا" أجابه كرويه بشيء من الرّقّة. "اعذرني، ياصديقي القديم، أرجوكَ. مُجرّد أفكار خطرت ببالي، ونسيتُ نفسي بعدها. لا أريد جرحكَ، تحديداً لم أقصد، ولم آتِ من أجل هذا، يا عزيزي، أيّها الأبله".

مال برأسه جانباً بطيبة، ونظر بحنان إلى ياستراو. شَفَتاه الطويلتان الحسّاستان كانتا برقّة شفاه امرأة.

أسند ياستراو جبهته بيده، وراح ينظر بمفرش الطاولة موشكاً على البكاء. كان ذلك من شأنه أن يخفّف عنه. ولكنْ، ألن يكون ذلك محض دموع كحولية وصداع رأس وندمُ مخجل؟ عليه أن يتوجّه اليوم أيضاً إلى شارع ستينوسغيذه.

De prfundis clamavi? De prfundis clamavi?

عليه أن ينتهي من هذه المسألة، أن ينفض يَدَيْه منها. ولكنْ، متى اتّخذ قراره بذلك؟.

مسح وجهه بيَدَيْه، وشدّ، وعدّل من تعابير وجهه. عليه أن يجتاز ذلك.

"جئتُكَ من أجل شيء آخر تماماً" قال كرويه مباشرة. ومضت عيناه من جديد، بهجوم مباغت. "هل ترغب في أن تكون سكرتيراً للبروفيسور غيبرهاردت في برلين؟".

"سكرتير؟" اعتدل ياستراو بجلسته دفعة واحدة.

أومأ له كرويه برأسه "كما أذكر، فأنتَ تعرف الطباعة المختزلة، أتذكّر أني رأيتُ إشارات الاختزال في أحد مخطوطاتكَ".

أطلق ياستراو تنهيدة.

"نعم، صحيح، ولكن هذا لا يعني أن لديّ شهادة ماستر في الاقتصاد، فما الذي يمكنني أن أفيد غيبرهاردت به؟".

"بكل شيء، أعلم ذلك" طلعت منه حادّة. "نحن نتبادل الرسائل أنا وغيبرهاردت، وفي الرسالة

الأخيرة، طلب منّي أن أساعده في الحصول على سكرتير. وسأتحدّث معه الليلة في الهاتف في برلين، وسأرتّب الأمر، إذ عليكَ أن تبتعد عن هذه المدينة الملعونة، وهذا هو صلب الموضوع".

نظر إليه ياستراو بابتسامة منهكة. كان هذا كرماً محرجاً من جانب كرويه. ليت بالإمكان رفض عرضه. هل علم كرويه بشيء؟ لو كان فقط بإمكانه الرفض.

"هناك صعوبات" أجابه.

"ما هي؟" قالها كرويه، وقد بانت أسنانه.

"وظيفتي في -داوبلاذيت-. الثلاثة أشهر لم تنته بعد".

"سأتدبّر هذا. عليكَ أوّلاً أن تغادر المدينة.

لا يحتاج الأمر لغير إشارة منّي لدى المحرّر إيفرسن. هل تتصوّر أن من صالح الجريدة أن تتسكّع أنت بهذه الحالة هنا وهناك".

"يبدو أني سأبعث إلى منفاي" قال ياستراو بألم، ورصّ عينَيْه مرتاباً.

"هل هناك غير ذلك من الصعوبات؟".

"الكثير، أنا لا أعرف برلين".

"هراء" قال كرويه. "هل لديكَ شيء ما لأكتب لكَ عنوان غيبرهاردت".

بحث ياستراو في محفظته وجيوبه. لم يكن غير الجواز الذي كان دوماً معه وبوليصة التأمين.

"بإمكانكَ الكتابة على هذه" قال ودفع البوليصة على الطاولة إليه. "بإمكانكَ الرسم عليها والزركشة" وضحك.

تفحّص كرويه البوليصة، وكتب على هامش أبيض عنوان البروفيسور. لانداوشتراسه. برلين - ويليمسدورف.

"جميل إن استخدمتُها ككتاب جيب. أعتقد ليس هناك المزيد من الصعوبات، صح؟".

"بلى، الكثير، ما قولكَ بمعاملة طلاقي؟ لم تنته بعد".

"سأتدبّر أمرها، المحامي وكل ما إلى ذلك، الشيء الوحيد الضروري هو أن تبتعد عن هذه المدينة المدمّرة".

"مذ متى أصبحتَ أخلاقياً هكذا؟" سأل ياستراو وغمز للصحفي الذي يحب النساء.

"لا علاقة لموضوعنا إطلاقاً بذلك" قال كرويه مبتسماً. بدا غير آبه بالمرّة، واثقاً من نفسه وصريحاً. وقد بان جسمه الضئيل داخل معطفه الصيفي المجعّد. "بهذا لم تعد هناك من صعوبات أخرى، أليس كذلك؟ ستُترك لكَ رسالة لدى الاستقبال، إمّا هذا المساء أو مساء الغد، لتنطلق بعدها بالحال بقطار الأكسبريس جنوباً. سيكون من صالحكَ أن تتعلّم شيئاً حول العلوم السياسية، القليل من المعرفة بالكيان الرأسمالي. ألا تظنّ أن لذلك أهمّيّة فعلية تقابل اهتمامك الأخّاذ بشِعْر الشباب؟".

"بلى، ربمّا مساوٍ له، ولكنْ، ليس أكثر" أجابه ياستراو.

ابتسم كرويه ابتسامة تهكّميّة. "إذاً، نحن متّفقان، يا ياستراو، أنا مشغول".

"ولكنْ، ليس لديّ القدرة على دفع تكاليف السفر إلى برلين" أجابه ياستراو بعد أن وضع عائقاً جديداً للمناكفة، ولكن كرويه، وبحركة سريعة منه، صفق محفظة نقوده على الطاولة. "أنتَ لا تُطاق حقّاً بموضوع النقود، هاك مئة كرون".

التقط ياستراو المئة كرون، قام بثنيها وهو سارح، ودسّها بجيب الصديري.

"لِمَ صرتَ مُحبّاً للناس هكذا؟" سأله وقد شابَ صوتَهُ بعضٌ من تهكّم.

"يزعجني النظر إلى الحطام، إن استعرتُ تعبيركَ تحديداً" جاء جوابه سريعاً. "عليّ الذهاب الآن، إن شئتَ يمكنكَ أن ترافقني إلى مكتب السفريات، لتشتري البطاقة بالمرّة".

ورافقا بعضهما.

ولكن ياستراو لم يكن بإمكانه أخذ كرويه على محمل الجدّ تماماً. الضحية. الضحية النبيلة. نظر بتعالٍ إلى أناقته، قامته الصغيرة، وابتسم للسلطوية التي منحها لنفسه. استدار كرويه للحظة جهة فتاتَيْن موظَّفَتَيْن حاسرتيَ الرأس، وراح يتطلّع مأخوذاً بمنظرهما، ما دفع ياستراو للضحك. القُبَّعة اللّيّنة استقرّت على جبهة كرويه، وأخفت الارتفاعَيْن، جذرَي القرنَيْن!

"من الصعب عليّ الإيمان بأنكَ إنسان طيّب، يا كرويه" قالها، وضحك من جديد.

"أنتَ سدّدتَ الخمس وسبعين كرون في المرّة السابقة" قال له كرويه.

"هل يفاجِئكَ ذلك؟".

"لستُ معتاداً على مثل هذه الأمور، ها هو مكتب السفريات، وداعاً ورحلة سعيدة".

وقفا حيث الازدحام في زاوية من شارع المشي.

"هل أشكركَ، يا كرويه؟" سأل ياستراو فجأة بصوت متهدّج صادق. لم يجرؤ على النظر إليه، لأنه شعر بدموعه تترقرق في عينَيْه. وعبر لمعان الدمع في عينَيْه، رأى قامة كرويه الأنيقة بالابتسامة العريضة الرقيقة والعينَيْن الدافئتَيْن. "مع السلامة، وتحيّاتي لزوجتكَ" قال. هل كان هذا استهزاء؟ ندم بالحال على ما قال. كان مثل خدش سكّين لمع تحت سديم الشمس الذي غمر حشد البشر.

يدٌ ملوِّحةٌ. اختفى كرويه. رحلة سعيدة. صدى الكلمَتَيْن ظلّ عالقاً في الهواء. خطفت سيّارة كبيرة باللحظة بالزاوية، وابتُلع كل شيء في خضم الحركة. ودخل ياستراو إلى مكتب السفريات.

اقترب شابٌ من خلف النضد. كان بشأن تلك البطاقة إلى برلين. ولكنْ، هل سيشتريها بالنقود التي استلفها من ذلك الرجل، كرويه. ذاك الذي ودّعه برفسة منه. "تحيّاتي لزوجتكَ" لأنها كانت رفسة، بالرغم من عدم معرفة كرويه بذلك. ولماذا جاء على قول تلك الجملة الهازئة. "تحيّاتي لزوجتكَ"، من باب الأدب حسب؟ كان كرويه شاباً صغيراً شديد الثقة بالنفس. كان نبيلاً. لا يستحقّ شيئاً أفضل من ركلة على مؤخّرته. ولكنْ، لا شيء سيحمل ياستراو على السفر إلى برلين بنقود هذا الرجل. ستُعاد إلى كرويه، يجب. وعلى ياستراو الآن التّوجّه إلى شارع ستينوسغيذه، يودّ أن يمرّ، أن يعبر أوّلاً، لينتقل إلى الجانب الثاني من الشارع، ومن بعدها يعود إلى الفندق، يكتب بضعة مقالات، يرسلها إلى التنضيد، ويحصل على نقود مقابلها، وبعدها ... بعدها ...

لم يكن هناك من مجازفة في مقابلة كرويه. اختفى ما بين الحشود على أرصفة شارع المشي.

غادر ياستراو مكتب السفريات في الحال، وتوجّه إلى محل توقّف السَّيَّارات، واستقلّ سيّارة إلى الزاوية، من شارع فيستربروغيذه وشارع ستينوسغيذه. مال إلى الوراء، وراح يصفّر. عليه أن يجتاز ذلك. سرعة السَّيَّارة مثل عصفٍ، يداعبه من الداخل. النساء على الأرصفة. دوماً النساء. الشمس نادت على الوجوه الجميلة والقامات الرشيقة.

De profundis Clamavi.

ولكن أين كانت الأعماق؟ طالما يرى المرء وجه امرأة جميل، شعاع من أشعّة الشمس يقتحم

الأعماق. انظر، ها هي فتاة فاتنة على الرصيف، غرّة شَعْرٍ أسود، وعينا أستا نيلسن(*)، ومضة منهما. عليه أن يذهب أوّلاً، ليسدد فاتورة شظية زجاج تعسة، وذلك الجوّ الكاثوليكي كله ينتهي بورقة، فاتورة مدفوعة.

لو كانت تلك الفاتورة بحوزته. كل شيء مدفوع، كل شيء مدفوع.

في زاوية شارع ستينوسغيذه، قفز من السَّيَّارة، وأسرع صوب البناية الحمراء.

ولكنْ، فجأة بدا وكأن الشمس انزلقت خلف غيمة. مشى سريعاً، وعبر إلى شارع غامل كونج فاي. كانت مهانة، وقد استغلّوها عن عمد، أن يُجبروا وثنياً على الاعتراف. لم يكن بمقدوره ذلك. لا يريد ذلك. ولكنها مكالمات فولدوم المتواصلة التي ظلّت تطنّ برأسه طوال الوقت. كان عليه الهروب منها مثل خلية دبابير. لو كان قد سافر إلى برلين، لكانت مسألة أخرى. كان بالإمكان أن يكون مسافراً، ولكنه لن يفعلها. سيُعيد المئة كرون إلى كرويه ثانية. وإلا سيكون سلوكاً مُبتَذَلاً منه. وهو، في الأحوال كلها، لن يدع كرويه يساعده. ليمرّ أوّلاً من أجل أن يدفع ثمن كسرة الزجاج لدى تلك الكنيسة الكاثوليكية العادية.

ومن جديد، مشى عبر الشارع إلى الجهة الثانية. وقف في مكانه، ونظر إلى النافذة المُدبَّبة الأقواس بستائرها المخرّمة. سرح نظره على بناية الكنيسة وبوّاباتها المغلقة. لماذا تسلّق هو وستيفينسن فوق السياج الحديدي، وتدحرجا أمام البوّابة مثل ظلَّي شيطانَيْن؟ ظلال، أمزجة تكسّرت، وصارت رغوة على جدران الكنيسة، والآن طافت قصاصة ورق صغيرة عائدة مع الموجة، فاتورة! وهو يعرف ذلك الموج الوسخ الدنس بقصاصات الورق.

ظهر حينها وجه شاحب من خلف زجاج الباب. استقرّت العينان السوداوان للحظة عليه، وانتقلت غير آبهة بعدها في نظرها إلى الشارع.

شعر ياستراو بأنه مُراقَب، ولكنْ، بقي في مكانه، يتأمّل المبنى وأعلى برجه. اختفى الوجه.

مشى ياستراو بضع خطوات إلى الوراء على الرصيف المقابل، ثمّ تقدّم وعاد من جديد.

كان مايزال مرصوداً كما شَعَر. للنوافذ عينا رقيب. وكان قد شخّص الوجه ثانية من خلف الستارة في غرفة الاستقبال. العينان السوداوان اللتان تراقبانه، ولا شكّ كان ذلك هو البوّاب. ولا شكّ قد لاحظ أنه انكشف، لأنه أخذ بالتّحرّك أمامه بوضوح، عدّل بيده من وضع الستارة

(*) Asta Nielsen 1881-1972 ممثّلة دنماركية من أوائل بطلات الأفلام الصامتة.

بعناية، شخص بعينَيْه إلى الأعلى، يتأمّل السماء، وكأنه يستكشف الطقس، ونزلت عيناه على واجهة المبنى حتّى توقّفت بتلقائية عند ياستراو.

وبشعور من الحنق والوقاحة، بَحْلَقَ ياستراو فيه ثانية طويلاً، ومن دون حياء حتّى جعله يبتعد عن النافذة. ولكنْ، كانت هناك حركة محسوسة ماتزال للعينَيْن السوداوَيْن المحاطتَيْن بظلّ شحوب زاهد.

ولِمَ راح ياستراو يُحلِق فيه هو الآخر؟ كانت حركة صبيانية ضيقاً منه بالمراقبة. هل عرف البوّاب مَنْ هو؟ بذلك فالتراجع صار غير ممكن، وليس أمامه سوى طريق المهانة ... إلى كانوسا!

لذا عبر الشارع، ودقّ الجرس. إلى كانوسا! يرتسم تعبير سخرية خفيفة مرّة من الذات على شَفَتَيْه. كسرة زجاج تشظّت، كانوسا البشعة! لقد رآها فعلاً. "مجلّة دول الشمال للمسيحيّيْن الكاثوليكيّيْن" موضوعة في صندوق الإعلانات المعلّق. مُجرّد قطعة زجاج عرّضتْهُ لهذه المهانة. تصبّب عَرَقُهُ. أُجْبِرَ على المجيء إلى هنا، صدفة؟ مكالمات فولدوم العشوائية؟ لا، إنه يحيط بما يدور. والمشكلة أن المذنب ليس هو، لم يكن هو مَنْ كَسَرَ الزجاج.

انحنى إلى الأمام بامتعاض وتثاقل حين فتح البوّاب الباب. وقبل أن يفتح فمه، ويقدّم نفسه، قال له البوّاب "سأُعلم الأب غارهامر بمجيئكَ. هل يودّ السَّيِّد المحرّر الانتظار في الداخل؟".

كان من غير الممكن سبر غور وجه البوّاب، نظرة عينَيْه ذليلة، وهيئة الأخوّة من رجال الكنيسة الكاثوليكية تبدو خاضعة. ولم يكن هناك أثر لاستخفافٍ في صوته الخفيض. مع ذلك، شعر ياستراو أن زيارته كانت متوقّعة جدًّا، والبوّاب قد تعرّف عليه، ولا شكّ.

جلس ياستراو من جديد في غرفة الاستقبال. إناء البطاقات الشخصية كان على الطاولة، وإلى جانبه كتاب التعاليم الدِّينية الكاثوليكية. ومن غير اللائق ألا يفتحه!.

ولكنه نسي الكتاب حين وقع نظره على المِشْجَب العمودي الذي انتصب في الزاوية، وكأنه في بار، في غرفة الانتظار عند طبيب، آلة تعذيب قديمة، عارض أمام عجلة، والقُبَّعة الرصاصية التي علّقها كانت تشبه جثّة معذّبة.

أجل، هناك دوماً حُكْم ما مُنذِر، سيصدر بحقّ أحد ما، له طابع العصور الوسطى والعنجهية البربرية. ما نفع الإنسانية الحديثة، إذاً؟ لا شيء! لا شي! في كل مكان، هناك مَنْ يجلس عند طاولة قبيحة، وإناء بطاقات شخصية، بانتظار الحُكْم النازل عليه أو الإلهام من السماء، ولا شيء غير البطاقات الشخصية أو أعداد قديمة من مجلّة العائلة، لتُواسيه، بينما هو ينتظر وينتظر.

وهل انفتح الباب الآن؟ وهل سيظهر طبيب، يرتدي صدريته البيضاء؟ وهل سطعت الشمس في غرفة المعاينة من خلفه؟.

حينها دخل الأب غارهامر، جسم ضئيل ونحيل، وقور وخجول بداخل بدلته اليسوعية، فنهض ياستراو وهو يتنفّس بعُسر. ثالوث الشّرّ. القامات الثلاث السود ببدلات سود من دون أذرع. طمأنَتْهُ رؤية يَدَي الأب اللّتَينْ فركهما بتواضع. لم يكن هناك انشداد في شَفَتَيْه، وكأنه يهمّ بالبصق. هل لمعت بصقة في الهواء؟ لا، لعلّها ومضة مُتأتّية من الشارع.

نظر ياستراو بقلق إلى الأب غارهامر، وقنص ابتسامة على مُحيّاه. لم يكن هناك ظلّ انتصار على وجهه، هل كان، وإن كان هناك نوع من احتيال، فقد غلّفه بطيبة الخالات. لربّما كان خطأ منه المجيء من أجل ورقة المصالحة تلك، فاتورة الزجاجة المكسورة. أن تكون ذليلاً، أن تلعب دور الذليل، لتُسيطر على الأمر.

"جميل منكَ أن تأتي لتراني" قال الأب غارهامر، وجلس عند الطاولة. "لا، أرجوكَ، ابقَ جالساً".

انحنى ياستراو صوب الطاولة. لم يستطع التّكلّم.

"كيف حال صديقنا فولدوم؟" سأله الأب. ومازالت الابتسامة ذاتها على مُحيّاه. "من النادر أن يأتي، وهذا ما يقلقني" وقد ضغط على الكلمة الأخيرة، وكأنه تلفّظها بالألمانية.

"لقد اتّصل بي عدّة مرّات".

"هكذا إذاً" وابتسم الأب غارهامر، وكأنه يفكّر بصديق بعيد. "أظنّ أنه المقرّب إليكَ، صديقكَ الصدوق".

"آآآ ..."قال متردّداً.

ولكن الأب أومأ "بلى، أعتقد ذلك".

"(*)Der liebe Vuldum"

"يهمّه الالتزام الأخلاقي إلى أبعد حدّ، وهذا ما يجعلني قلقاً عليه. من شأن ذلك الاهتمام أن يدمّر روحه".

---

*) قالها الأب بالألمانية الحبيب فولدوم

واستدار الأب ناحية ياستراو.

"حضرتكَ أيضاً تواجه صعوبات حالياً، سيِّد ياستراو".

انثنى ياستراو، وتفرقص بذِلّة في مكانه.

"نعم نعم نعم" قال، وفجأة وجد الكلمة الأصحّ."لا يمكن بناء منظومة أخلاقية على أساس علمي" قالها بحزن.

ربّت الأب على يده.

"هل تعرف، يا سيِّد ياستراو؟ لم أكن أعلم أنكَ تدرك ذلك" قالها بلطف.

"كنتُ أعرف ذلك طوال الوقت" أجابه ياستراو، وبعاطفية. "ولكني الآن، الآن أُحسّ بذلك، وهذا هو الأسوأ".

"نعم، ذلك هو الأسوأ، ولكن حضرتكَ تسعى لتكون نبيلاً، هذا هو ظنّيَ بكَ، سيِّد ياستراو".

ومن جديد، شعر ياستراو بالدموع تتجمّع في عينَيْه. هذه هي المرّة الثانية، المهانة الثانية. ولكن عليه أن يبتسم، ليمسحها. نظر إلى وجه الأب، وقال دفعة واحدة "تعرف حضرتكَ أني كنتُ هنا ذات ليلة، وكنتُ ربّما عنيفاً".

"بلى، أعرف ذلك" أجابه الأب بابتسامته الباهتة. "يمكن القول إنها كانت عنيفة بعض الشيء".

"ولقد كسرتُ شيئاً".

"ليس بشيء ذي بال، سيِّد ياستراو. عندما يمرّ المرء بأزمة، يمكن أن يحدث الكثير".

"أودّ تسديد ثمن ذلك" جاءت منه فظّة تقريباً.

بحث الأب غارهامر في جيب بدلته السوداء، وسحب فاتورة صغيرة. كان محتفظاً بها. فتح ياستراو الفاتورة أمامه. أربعة كرونات لتصليح قطعة الزجاج المكسور. قصاصة ورق. عادت القصاصة لتطفو مع الموجة. حملق بخطّ مصلّح الزجاج الراجف الذي كُتِبَ بقلم الرصاص.

"أربعة كرونات فقط؟"سأل متكدّراً.

"نعم، مقدار صغير جدًّاً من العنف" أجاب الأب بلهجة مُتهكّمة، بدت ساذجة وجميلة بلُكْنَتِهِ الأجنبية.

شعر ياستراو بالحياء، وهو يضع خمسة كرونات على الطاولة. ولكن الأب تناولها بطريقة عملية تماماً.

"نحن لا نحمل نقوداً معنا، ولكن البوّاب سيأتي لكَ في الحال بالكرونة المتبقّية لكَ. كان جميلا منكَ أن تزورني. هلا سلّمتَ على السَّيِّد فولدوم. عليكَ أن تعذرني، فعليّ الإسراع بالذهاب. ولكنْ، كان يجب أن نتحدّث معاً، وأن تسدّد ثمن تلك الزجاجة الصغيرة. لم يكن هناك داع لذلك. نحن نتفهّم ذلك".

"إلى اللقاء" قال الأب مبتسماً، واختفى.

جلس ياستراو من جديد وحيداً في غرفة الانتظار. فرك عينَيْه، ونظر من حوله.

ثمّ نهض، وتوجّه إلى المِشْجَب العمودي، ورفع قُبَّعته، ثمّ وقف عند النافذة، ينظر إلى الشارع، هادئاً فارغاً، كما لو أنه انتهى من عملية لأحد أسنانه.

فاتورة تصليح الزجاجة دخلت محفظته بعناية.

بعدها بقليل، ضُرِب على الباب. دخل البوّاب، وناوله الكرونة، ورافقه إلى الباب بوجه جامد.

وصل ياستراو تقريباً إلى ساحة البلدية قبل أن يتذكّر ويُشعل غليونه.

الفصل الخامس

في وقت متأخّر من المساء.

الباب الخلفي لبار دس آرتيست مفتوح على فناء الفندق المظلم، يهبّ عبره نسيم خفيف إلى الصالة الخانقة. أدار الغرامافون برتابة مخدّرة. والنادلان اللذان يرتديان البدلات الطويلة كانا منشغلَيْن، يروحان ويجيئان. والحاسبة لم تتوقّف عن العمل لكثرة الزبائن. والساقي لوندوم كان يهزّ خلاط الكوكتيل بيَدَيْه، بتموّج على إيقاع الجاز، بينما كان العَرَق ينحدر من وجهه المدوّر الأحمر، وجه إله الغابة(*). كان يسيطر على البار بأكمله بابتسامة حامضة حلوة.

لم يكن من المتوقّع أن يكون مساء احتفالياً منتصف الصيف الحارّ هذا، بفوضى انتشاء وضجيج من قِبَل الزبائن.

حتّى كيير الخالد الذي توّج طاولته المدوّرة المعهودة كان حيوياً. كانت عيناه الزرقاوان منطفئتَيْن من خلف نظّارته المرتكزة على أنفه، من دون أذرع. ولكن وجهه المُترهّل كان مشتعلاً، وكان يرفع يده مُحيّياً بأبوّة بين الحين والحين.

كان ياستراو مُتّكِئاً إلى ظَهْر كرسيه جالساً قبالته. أمّا الصحفي إيريكسن الذي كان في عزّ جنونه، فبدت تجاعيد وجهه المُنهَك متشابكة مثل ورقة مجعّدة، وكان يجرّ تارة طيّة معطف كيير، وتارة معطف ياستراو وهو يُسارِرهما بآرائه الصريحة عن كل شيء.

قال "الحياة هي أقذر ما تعرّضتُ إليه، من غير المعقول ألا يذكر نيتشه ولو حرفاً عن ذلك".

"صحيح، هذا ما يدفع إلى الجنون، كل ما لم يقله نيتشه" قرقر ياستراو الذي كان صاحياً وكدراً.

أمّا الرابع، فقد كان كيمبن موينسن، المكتبي الضخم الذي يتعاطى مع الكُتُب القديمة.

(*) Satyr: إله الغابة في الميثولوجيا الإغريقية نصف جذعه الأعلى إنسان، والنصف الآخر لماعز، وهو شيطان شبق.

كان له وجه قمري، أُطلِقَ عليه كتابسِن، لأنه يتعاطى مع الكُتُب، وهو من جزيرة فون، يضحك حتّى يكاد خَدّاه أن ينفجرا.

"ما الذي يضحككَ؟" سأله الصحفي الصغير إيريكسن، وهو يمدّ وجهه صوبه. "قفاكَ أرحمُ من وجهكَ".

"حَسِّنوا ألفاظكم، يا سادة" قال كيير الخالد محذِّراً، وهو يرفع يده. "لا ضرورة لكي تتّسخ أفواهكم بهذا الكلام، بصحّتكم، أيّها السادة".

ولكن المكتبي بَصَقَ في كأسه، وقد اهتزت جثّته الضخمة، وهو ينفجر بالضحك. وارتعشت أزرار ثيابه، وبقيت ترتعش لفترة طويلة بعد ذلك.

في الداخل، كان الجوّ يفور لعراك بين محامٍ وبائع إعلانات. يتعاركان على الدوام. لذلك فهما يطاردان بعضهما باستمرار مثل زوجٍ من الكلاب المسعورة.

"هل هما مَنْ يتشاجران ثانية؟ سأل الصحفي إيريكسن، واستدار في كرسيه مزدرياً ما رأى. "عليكَ بمَلْص أفخاذهم، ورَمْيهم خارج البار، يا لوندبوم".

"على مهلكَ، ليس بهذه القسوة، يا سيِّد إيريكسن" قال له لوندبوم.

كان قد تقدّم إلى البار، وقد استند بيده بودّ إلى كتف الصحفي الصغير، وراح ينظر بعيداً إلى مصدر الضّجّة.

ثمّ فجأة سمع صوت ارتطام كرسي بالأرض.

"سيقطعان الآن بعضهما إِرْبَاً إِرْبِاً" قال إيريكسن مضطرباً في مكانه.

فجأة هبّ كل من الخادم عريض المنكَبَيْن مزدوج الحنك من المطعم والبوّاب ذي الزّيّ الموحّد، ووقفا عند الرجلَيْن المتخاصمَيْن.

"يرجى الالتزام بالهدوء هنا".

"أنتما تزعجان الضيوف الآخرين في البار".

"من تظنّ نفسكَ، أيّها الخادم".

عمَّ البار بأكمله صمتٌ منقطع، شمل حتّى الطاولة المُدوّرة.

أمسك كل من الخادم والبوّاب بالمحامي الجامح من تحت ذراعَيْه، وأجبراه بقُوّة وأدب الوقت ذاته على الخروج عبر الباب. كان الضيوف قد كتموا أنفاسهم جميعاً للحظة.

دنا ياستراو بعدها بكأس الويسكي إلى فمه مستريحاً.

وقد أدرك حينها أنه لم يكن الوحيد في هذا. كان ردَّ فعلٍ تلقائي، تملّك الجميع في البار الوقت ذاته، كيير، إيريكسن، بوينسن، الكل، فكرة جمعية واحدة، رفعة كأس جمعية واحدة.

في غمار هذه الأجواء، تمّ شطف الذكرى المزعجة بالمشروب، وبلع ما حصل. سمع صوت الغرامافون من جديد، وعاد الساقي لوندبوم إلى النضد، يستعرض طقسه الموزون، بهزٍّ خلاط الكوكتيل بين يَدَيْه.

سعادة قصيرة متموّجة، ولأن كيير الخالد راح يغنّي بإيقاعه الخاصّ. ذلك ما زاد من فضول ياستراو أكثر وأكثر.

"ليحلّ السلام على البلاد والمدينة(*)" ترنّم كيير مع حركة يد هادئة، من دون أن يقاطعه صوت الجاز الساطع من الغرامافون. كان أصمّاً بما يخصّ الترخيم، وهذا التصادم بين الإيقاعَيْن كان لدى ياستراو مثل نظر أحول العينَيْن.

"هات ويسكي هنا ثانية" طلبَ من جديد.

"وجدتُها، وجدتُها، ها قد عرفتُ مَنْ تشبه"، انبرى الصحفي إيريكسن مهلّلاً، وأشار مباشرة إلى وجه بوينسن "أنتَ تشبه حوتاً شاحباً، أجل تشابه فلقَتَيْن" وضرب على فخذه.

نفض كيير رأسه مستسلماً. "حوت شاحب! حوت شاحب! آآه، حوت شاحب" وضحك ضحكة مكتومة، واهتزّ جسم بوينسن بأكمله، وكأنه قد طعن بحَرْبَة. كان مستمتعاً بوقته أيّما استمتاع.

ولكن ياستراو زمّ شَفَتَيْه. كان يقضم بيت قصيدة، لن تكتمل. لم تتعدّ بضعة أسطر متأرجحة. كان ينقصه التركيز، لم يعد كما كان في أيّام شبابه، حين كانت الكلمات تتدفّق في قصائد طويلة مثل تيّار.

كنتُ أظنّ الخطيئة

---

*) نشيد للشاعر ب. س إنجمان لحّنها الموسيقي توماس لاوب في العام 1922

مثل غورٍ سحيقٍ مُوحِلٍ مظلمٍ
ولكنني أعرف الآن أنها
سَهْلٌ مليءٌ بزواحف تافهة

كانوا يمزحون ويضحكون، وجوه حيوانات ثلاثة مُنهَكَة، رطبة بالعَرَق والكحول، مُبقّعة بالأحمر مُترهّلة، بسبب حَرّ الصيف. كان المساء خانقاً. لم تكن هناك من مرآة، ليرى فيها نفسه، وجه البهيمة الرابعة!

"أنتَ محبوب" قال بوينسن الضخم مغنّياً، وهو يمدّ يده بكأس الويسكي صوب إيريكسن، الذي كان يدور بمكانه على الكرسي "وأنتم أيضاً جميعكم، أيّها الأولاد، من الـ -داوبلاذيت-، يا لكم من مجموعة مرحة! أنا أعرف فولدوم أيضاً".

"هل قلتَ فولدوم؟" صرخ إيريكسن مستعراً. "أنتَ، يا جاز، هل سمعتَ ما قال، لقد قال فولدوم، هل يقصد إهانتي، هذا الحوت الشاحب من جزيرة فون، القادم من سفر الرؤيا".

اعتملت المشاعر بداخل بوينسن. علقت عيناه إعجاباً بإيريكسن.

"رجل ظريف، أليس كذلك؟".

"ظريف! يا إلهي، يا لكَ من ساذج" احتدّ صوت إيريكسن "عصيدة" بصوت نشاز، "عصيدة!" وفجأة عقد حاجبَيْه، وسدّد قبضته في الهواءِ صوب وجه بوينسن قائلاً:

"صدِّقني، أيّها البدين التعس، تمرّ عليّ ليالٍ، أقضيها راكعاً على ركبتي متضرّعاً، أصلّي، أقول أصلّي، لربّما يصعب تصديق ذلك، ولكني صلّيتُ، مرّة بعد مرّة، تضرّعتُ إلى ربّي أن يشملني برحمته، ويدع التِّرام يسحق يوماً هذا الفولدوم الملعون".

ضحك كيير الخالد بصمت، ولكن ياستراو صرّ عينَيْه متفهّماً، وأومأ له برأسه.

"أجل، أنتَ تفهمني، يا جاز، نحن في القارب نفسه، لا فائدة من قفزكَ منه، يا عزيزي أوله، أنتَ في القارب، بالرغم من هذا، يا إلهي كم سأشتاق لكَ، حقّاً، أنا أُحبّكَ جدّاً جدّاً، أنتَ شخص رائع، ولكنكَ مملّ".

عيناه المثلّثتان كانتا مُحتنقَتَيْن، قلقَتَيْن وحائرَتَيْن.

"جاز، جاز، جاز، سأشتاق إليكَ، وهذا يبكيني، أشتاقكَ منذ الآن، صدقاً، هذا ما أحسّ به، اللعنة".

عَصَرَ يدَ ياستراو، وبدا الأسى على معاني وجهه المتأثّرة.

"ولكن ذاك الفولدوم" قاطع بوينسن المشهد العاطفي "هل هو شخص سيِّئ؟".

"سيِّئ؟ هاهاها!" صرخ إيريكسن، ولوح بيَدَيْه في الهواء بطريقة درامية. "هذه ليست الكلمة الصحيحة. سيِّئ! ما تقصد أيّها المدّعي؟ إنه ..." وقبض كفّه.

"مهلكَ مهلكَ، يا إيريكسن" حذّر كيير الخالد مصوّباً نظرته المتعبة إليه. "لقد جلس فولدوم هنا، عند هذه الطاولة، طاولتي هذه الظهيرة" ورفع رأسه الكبير بسلطوية "لا أريد سماع كلمة سيِّئة عنه".

"كلمة سيِّئة؟ إنها الحقيقة، اللعنة" صرخ إيريكسن.

"لا أريد سماع الحقيقة على طاولتي" صاح كيير الخالد، وضرب بيده المبسوطة على سطح الطاولة. "الكلمة لا تخلو من الشوائب" وقهقه.

"الحقيقة لا تخلو من الشوائب، هل سمعتَني؟" كرّر على مسمعه.

"ولكنْ، هل يمكن الوثوق به؟" سأل بوينسن. "أرجو ذلك، على الأقلّ".

"هل أقرضتَهُ نقوداً، أيّها الحوت الضخم؟ آه" ضحك إيريكسن وهو يُلوّح بيَدَيْه حتّى انصفقت أصابعه ببعضها.

"لا، أنا لا أُقرض أحداً نقوداً، ولكني بعتُهُ كتاباً بالدَّيْن، اعترافات بول هلغيسن الدنماركية ...".

اعتدل ياستراو بجلسته.

"لن ترى نقود الكتاب أبداً، أيّها الحوت البالينى" صاح إيريكسن. "أبداً، أبداً! لقد باعه إلى غريمكَ".

وانثنى جسمه لاستغراقه بالضحك.

استدار كيير الخالد تعالياً إلى الجنب، ودعم كوعه على الطاولة، بينما أخذ يتأمّل اللوحة الضخمة لتلك المرأة العارية الطازجة، كارل الثاني عشر.

"ولكنْ .." تنهّد بوينسن وهو ينظر ضائعاً أمامه "ولكنْ ولكنْ..".

"إنه ..." قال إيريكسن بصوت عالٍ جدّاً، ولكنْ، تمّت مقاطعته، إذ استدار كيير الخالد بغتة.

"سادتي" قال بصوت غليظ مبحوح "لقد جلس الرجل على هذه الطاولة، وإن كان لا بدّ من قول الحقيقة، فهو يكتب أفضل منكم ثلاثتكم، قلتُ قد جلس على هذه الطاولة".

أغلق فمه مُنزعِجاً، وأخذت عيناه تتنقل بوجهٍ سلطوي من واحد إلى آخر.

"لقد جلس عند هذه الطاولة، وهذا يكفي وزيادة، هل حشرتُ نفسي بالصدْفة معكم؟ هل أنا بصحبة ناس سيِّئين؟ لا يمكن أن أتخيّل ذلك."

"إذاً، لن أبقى جالساً هنا" انفجر إيريكسن بالقول "لأني صحبة سيِّئة. ثقْ أني كذلك، لا تدري كم هي سيِّئة صحبتي، عفنة تماماً".

ونهض إيريكسن "اطلبْ لي تاكسياً" قال بوجه مجعّد وحاجبَيْن منكسَيْن على عينَيْه. "أوف" صَرَخ، ونفض جسده. "أنا صحبة سيِّئة، يا لوندبوم، وأنتَ أيضاً، أيّها العجوز خلاط السّمّ السويدي ومُفسد الشباب. اطلبْ لي تاكسياً، هل سمعتَ، أيّها الشيطان؟".

"على مهلكَ، سيِّد إيريكسن، على مهلكَ" قالها لوندبوم الذي جاء ليُرافقه بخضوع ومناصرة إلى خارج البار.

"كان فظّاً" قال بوينسن وهو يضحك، وسحب منديله الذي كان كبيراً بحجم شرشف، وجفّف وجهه.

"ألا تعتقدون حضراتكم أني سأحصل على نقودي لذلك الكتاب؟".

"هه"أجابه كيير وهو يرفع يده "هه هه".

"ولكنها ثمن الكتاب، كتابي من محلّ بيع الكُتُب لي ...".

"بصحتكَ، على أيّة حال" أجاب كيير وهو يدقّ كأسه بكأس بوينسن.

نهض ياستراو ليحرّك قَدَمَيْه متوجّهاً نحو البار، جلس هناك عند النضد، يلتقط اللوز المُملّح.

"السَّيِّد إيريكسن رجل صعب جدّاً" قالها لوندبوم بحسرة، وكان قد عاد للتّوّ لمكانه في البار. "يشرب أكثر ممّا في صالحه" وقد وضع وجه الشيطان المحبوب الأحمر جانباً.

"أجل" أجابه ياستراو. "آه، هلا أدرتَ الغرامافون؟".

وراح ياستراو يتأمّل الطاولة المُدوّرة من بعيد، وقد أخذ كيير وبوينسن يتحدّثان معاً. ثمّة

مادّة لقصيدة شِعْرِيّة. أجل. ولكنْ، هناك مادّة أخرى تدور حول مجموعة حيوانات في بار. يجب كتابتها. الرؤوس المنفوخة الثقيلة التي كانت تحت ضغط الانفجار. أواه، كم هو خانق هذا المساء، ويسكي بارد مرّة أخرى، ليصعد، من ثمّ، إلى غرفته، ولكنها خانقة أيضاً، النافذة المُطلّة على الشارع مفتوحة، وضجيج الليل كله يقتحم الغرفة عبرها. كانت الشوارع الليلية ضاجّة جدّاً. ومن ثمّ، ذلك السقف وانعكاسات مصابيح السَّيَّارات عليه. السقف الغريب. متى سيرى سقفاً، لا يخاف منه، سقف يثق به، لا يخفق قلبه بشدّة لمرآه. آه، من تلك السقوف. منذ ذلك الحلم بالرجال الثلاثة السود، ثالوث الشّرّ. يقفز كل صباح، يصاحبه ضغط على صدره. لا، لن يصعد إلى غرفته الآن.

"أسطوانة أخرى، يا لوندبوم".

"لا، الوقت متأخّر، ونحن على وشك الإقفال".

"ويسكي آخر".

"حسناً حسناً، رغم الوقت المتأخّر والشرطة ..." ومال برأسه جانباً.

"آه، من طيبة قلبكَ".

"هكذا إذاً" أحنى لوندبوم رأسه، وابتسم خجلاً. "هل تظنّ ذلك؟".

"لوندبوم، يجب أن تحتفظ بشيء ما تذكاراً منّي، لأني سأموت قريباً" قالها ياستراو، ومال على البار.

أومأ لوندبوم له برأسه، ودفع بكأس الويسكي إليه.

"صدقاً وحقيقة، يجب أن يكون لديك شيء للذكرى منّي" دمدم ياستراو وهو يعبث في جيوبه. لم يعثر على شيء. مهلاً، بلى، بوليصة التأمين، كُتبَ في زاوية منها عنوان. بخطّ كرويه. آخ، برلين، فيلمرسدورف.

تناول ياستراو قلمه، وكتب على البوليصة؛

مقيّدة إلى السَّيِّد آرفيد لوندبوم

خلاّط كوكتيل المنطقة الإسكندنافية الأعظم

المايسترو ذو اليَدَيْن الناعمَتَيْن.

من قِبَل: أوله ياستراو.

"تفضّل، أيّها الأحبّ من بين اللصوص" قالها وهو يناوله البوليصة.

"الشكر لكَ! الشكر لكَ! سأحتفظ بها لحضرتكَ".

"إنها لكَ" قال ياستراو وهو يؤكّد منحه الورقة بيده. "والحساب من فضلكَ" أضاف وسحب ورقة نقدية مَطويّة من فئة مائة كرون من جيبه.

برلين - فيلمرسدورف

تدلّت قَدَمَاه، فضربت مقدّمة حذائه جانب لوح نضد البار ذي الطلاء الماهوغاني. البروفيسور جي. غيبرهاردت! راح يركل بقَدَمه بإيقاع خفيف. لانداوشتراسه 4 برلين-فيلمرسدورف.

دفعت يدا لوندبوم الناعمتين بالنقود على سطح النضد إلى ياستراو. النقود ثانية. لازال بإمكان ياستراو أن يسافر. لازال! لازال! وقد دقّ بمقدّمة حذائه جانب النضد؛ برلين، فيلمرسدورف، برلين، فيلمرسدورف.

"مازال الوقت لم يحنْ من أجل الخلود إلى النوم، أليس كذلك؟" غنّى أحدهم بأذنه، شعر بجثّة بوينسن الضخمة من خلفه.

"لا لا، مازال الوقت مبكّراً" غنّى ياستراو، بينما كان مرتكزاً على كوعَيْه على سطح النضد.

"تأتي معي إلى العصر الذهبي؟".

تنفّس ياستراو ملء رئَتَيْه، وهو يُومِئ له إيجاباً. على غرفته ذات اللون الأزرق الرمادي أن تنتظر الآن، بورق جدرانها ذي الزهور الناعمة، بكرسيها المخملي، وسقفها الأبيض المخيف، على ذلك كله ، أن ينتظره وينتظر وينتظر.

"هل سيأتي كيير أيضاً؟" سأل واستدار بكرسيه العالي، فرأى كيير الخالد سكراناً جامداً على الكرسي عند طاولته. ولقد جاءه الخادم بفاتورة الحساب، ووضعها أمامه. حملق كيير بها بعينَيْن مطفأَتَيْن. "مضبوطة" دمدم. ستّة، وسبعون، ثمان وخمس ... اثنان وتسعون، مضبوط" مدّ يده صوب القلم في جيب الصدر، أخطأ مكانه المرّة تلو الأخرى. ساعده الخادم، تأكّد من الحبر فيه، ثمّ ناوله إيّاه بيده.

وبحركة السائر في الحلم، وقّع كيير العاجز اسمه، صابّاً كل طاقته في وضع النقطة، ثمّ سقط القلم من يده، فسقطت جثّته على الطاولة، وكأنه أسقط عصاه التي كان متعكّزاً عليها.

في العادة، يتمّ تسليم تلك الفاتورة في اليوم التالي إلى محاميه.

"لنذهب" قالها بوينسن بتردّد. مالَ كلّ منهما على الآخر أنيسَينْ ببعضهما، وهما يسيران معاً، ليستقلا سيّارة.

"برأيي أن كيير يشرب أكثر من اللازم" قال بوينسن بنغمة، يعلوها امتعاض خفيف، بينما كانا يركبان السَّيَّارة في ذلك المساء الصيفي الخانق. كان هناك قامات بيض مترنّحة على الرصيف المعتم، قلق وسعادة، وكأن كوبنهاجن لم تستطع الخلود للنوم، وصوب الشمال، لاح ضوء خفيف في السماء، وكأن الحرارة كان لها سقف في الجانب الآخر، وقد أوجدت لها مخرجاً.

"لقد اتّخذ قراراً بشأن حياته" ضحك ياستراو بوهن، ومال إلى الوراء.

"أنتَ لستَ سكراناً، صح؟".

"لنقل أنا لستُ صاحياً، والليل مُحمّل بعبق عطر جميل"، وتابع وهو يغنّي ويستنشق الهواء البارد في خضمّ السرعة التي انطلقت بها السَّيَّارة "ولن نذهب مطلقاً إلى البيت".

لزم بوينسن الصمت حتّى لاحت قمم أشجار حديقة فريديريكسبيرغ المظلمة. لاحت داكنة جدّاً إزاء السماء الليلية المنيرة. تحرّك جسمه الضخم قليلاً قبل أن يقول "هل تظنّ أني سأحصل على نقودي؟".

"أيّة نقود؟".

"ثمن الكتاب الذي بعتُهُ لفولدوم".

"آآآ، لا" وسرح ياستراو خلالها بكُلّيّته نحو بوينسن السمين المُترهّل حين استدارت السَّيَّارة، ودخلت الحديقة مُتوجّهة صوب المدخل المضاء المؤدّي إلى نادي العصر الذهبي. "هه، لا، ستحصل عليها، ولا شكّ".

حين انفتح باب السَّيَّارة، وصلت لأسماعهم في الحال موسيقى الجاز، خافتة احتفالية. اعترت أعضاء ياستراو رعدة، فضحك عالياً.

"لن نعود إلى البيت مطلقاً" كرّر قوله.

ولكن السعادة تبخّرت لحظة أن دخلا النادي. شعرا بنفاد طاقَتَيْهما، وضغط شعورهما بالفراغ، وفقدان الحماسة لم يمكن مقاومته. كانت هناك امرأتان وحيدتان، تتحرّكان بإحساس

بالتفاهة في حلبة الرقص، تدوران بين الجدران الذهبية التي سطعت بالمَلَل، ثمّ جلستا أخيراً بوجهَيْن متعبَيْن مترهّلَيْن. كانتا تتحرّكان بين الآونة والأخرى في مكانَيْهما بشعور بالضِّيق، ويُعدّلان من وضع فستانَيْهما، من دون طائل. مانيكانات في نافذة، لا يأبه لها أحد. الموسيقى وحدها حاولت أن تبدو غير آبهة، ولكنها كانت أيضاً عشوائية، كتلة تصعد بحركة لولبية إلى أعلى من دون رغوة، تفور لتهبط من بعدها. وخلال إعادة المطلع، ارتفع صوت أنثيَيْن نحيلَتَيْن بخشوع في فضاء القاعة الرتيبة مزغردَتَيْن:

لا تنسَ غير حزنكَ
... حتّى الغد

وقد اصطفّ النُّدُل بزيّهم الموحّد الأنيق مثل جثث عند المداخل وتجاويف الجدران.

"يا له من مساء ميّت هذه الليلة!" قال بوينسن بلهجة أهل جزيرة فون لأحد النُّدُل.

تنهّد النادل، كما لو لم يكن بمقدور أحد أن يفعل مثله. انعكست للحظة معاناة العالم أجمعه على وجهه الرسمي.

لكن ياستراو اخترق الصالة بحيوية، فما الذي ينتظره غير غرفة في فندق بورق جدران مزهر، لا شيء غير خفقان القلب حين يرتمي على السرير مُبحلِقاً في السقف الغريب المَطليّ بالأبيض.

اختيرت لهما طاولة، وطلبا بدورهما ساندويتش الخبز الأسود المفتوح. عطس بوينسن في مكانه على المقعد.

"هل تُسمّي هذا مكان ترويح وترفيه عن النفس".

راحا يتأمّلان النسوة ببرود.

"صفّ من الأقنعة المعلّقة على حائط" علّق ياستراو مُمتعِضاً، واهتزّ جسد بوينسن الضخم لكتمانه الضحكة.

أومأت له امرأة بشَعْر كستنائي أصفر، وقد ارتسمت حول شَفَتَيْها لمحة رُقي.

"هل تعرفها؟" سأل بوينسن.

"لا، ولكنْ، بإمكاني تصوّر ما يمكن أن تقوله، بأنها تغسل شَعْرها بالشمبانيا، وما إلى ذلك".

"ولكن شَعْرها جميل!".

"بلى، ألا ترى؟ هذا هو أوّل ما ستقوله لها، ليأتِ ما بعد ذلك" قال ياستراو بامتعاضه ذاك. إنه يعرف هذه الأجواء، وأدرك باللحظة أنه لن ينتشيَ الليلة، وأن غرفة الفندق بانتظاره.

"الأب كان لديه حقّ، يا للعنة! عبر التكرار، سيعرف المرء الجحيم".

"أيّ أب؟".

"آه، أبٌ ما".

"بدأتَ تكدّر الجوّ، يا صديقي" قالها مُلحّنة.

خلالها توقّفت الموسيقى، وقد تأكّدا على الأقلّ من وجود مجموعة طَرِبة بينهم حين تناهت إلى آذانهم سماع أصوات سيِّدات وسادة، جلسوا في الركن من الصالة.

"إمّا أن يكونوا موظّفين أو لصوص جيب" علّق ياستراو مُتعِضاً. الويسكي كله الذي كرعه طوال اليوم والليلة الفائتة قد ركد بداخله، قديماً بائتاً مثل مستنقع. شعَرَ بخزي أن يكون صاحياً، إنه صاحٍ، وليس هذا الصحو لامتناعه عن الشرب، صحو ليس طبيعياً، هو صاحٍ وسيِّئ أيضاً.

خفّف الساندويتش بعض الشيء من حدّة وضعه.

نهضت إحدى السَّيِّدات من تلك المجموعة الصغيرة الصاخبة. مشت بخطوات غير راسخة، وقد وضعت يَدَيْهَا على خَدَّيْها. تابعها ياستراو بنظره. هل يعرفها؟ وفي منتصف الصالة، أنزلت يَدَيْهَا، هزّت رأسها، وأخذت نَفَسَاً عميقاً. كانت ترتدي الأسود، مع قلادة من الكهرب.

"أظنّ أنها أكثرت من الشرب" قال بوينسن. "هل تعرفها؟".

أومأ ياستراو برأسه إيجاباً، وتابعها بنظره بينما هُرعت فجأة بسيرها متوجّهة نحو المنزع. وذاك النادل الذي كان مُنهَكَاً هو مَنْ ساعدها، لئلا تقع على الأرض.

"إنها جميلة".

"نعم".

"ألا تدعوها إلى طاولتنا؟".

"لا، دعنا بسلام" أجابه ياستراو بهزّة من كتفه. لحظتها صدحت ضربات البيانو، وبعدها بوقت قصير، ناح الساكسفون مُنضمّاً إليهم، محاولة يائسة من جديد لتخدير الزبائن.

لم يفلح بوينسن في محاولته، لكي يخفي تثاؤبه.

قال ياستراو شاكياً: "لا فائدة، لن أستطيع أن أثمل الليلة، أحياناً وحين أكون بحالة نفسية متدنّية لا يمكنني أن أسكر. مرّت لحظات حين كنّا في البار، شعرت خلالها بأن هناك أملاً ...".

"وفق هذا، فأنا بحالة متدنّية على الدوام" أجابه بوينسن بهدوء. نظر ياستراو إليه متسائلاً.

"أنا لا أسكر إطلاقاً" واصل بوينسن، ورفع كأس شراب السنابس، وهو يبتسم بعينَيْه الصغيرتَيْن اللّتَيْن غارتا في وجهه السمين.

"بإمكاننا البقاء، إذنْ، هنا" قال ياستراو وهو يتنهّد. "ولكن الشراب! أنتَ على حقّ".

رفعا الكأسَيْن متبادلَيْن النخب، وشربا.

"ها هي تعود ثانية" قال الرجل من جزيرة فون.

رفع ياستراو نظره، ليرى إلسا السوداء التي تحرّكت بحذر ما بين الطاولات. فجأة لمحت ياستراو، فأومات له إيماءة خفيفة برأسها، ثمّ ابتعدت بنظرها، ونسيتْهُ، زاغت عيناها وهي تبتسم للصالة والسقف قبل أن تقنص نظرته ثانية، وتتوقّف عندها.

"أنا أعرفكَ من قبل" قالت ورفعت سبّابتها بتردّد.

"تفضّلي، آنستي، اجلسي" قال بوينسن بتهذّب، ونهض من مكانه بكامل جثّته.

وضعت يدها خلف أذنها، وقد قلبت وجهها قائلة: "هل قلتَ آنسة؟ أنا مدام، مدام كوبف" قالت وهي تترنّح في أثناء انحنائها لأداء التَّحيَّة.

"مدام رأس"(*) قال بوينسن بينما كتفاه يختضّان من دون صوت.

"اجلسي حضرتكِ، أفضل لكِ من الوقوف".

"أنا أعرفكَ جيِّداً" كرّرت برخاوة، وهي توجّه الحديث لياستراو، ثمّ جلست.

"لماذا تعقد حاجبَيْكَ هكذا؟" واصلت هجومها، واتّكأت إلى الوراء متهالكة على الكرسي.

"أنا أعرفكَ جيِّداً، ولكنْ، ما هو هذا الذي معكَ؟ واحد ثخين، هل يملك نقوداً؟ آه، اللعنة، أنا سكرانة. هل هو صحفي أيضاً؟".

سرت رعدة في جسد ياستراو، وضحك بوينسن.

---

*) Kopf تعني رأس بالألمانية

"هل ترغبين بكأس من الويسكي، سيِّدتي؟".

"ننن عم" أجابت، ولوّحت بيَدَيهَا عالياً حتّى كادت أن تخرّ وتقع على الأرض. "ولكنْ، كأسي هناك، هناك، ولكنْ" وأحنت رأسها، وكأنها بلعت شهقة مباغتة "أريد من فضلكَ واحدة هنا أيضاً".

"حلوة، ولكنها مُملّة!" قال الرجل من فون.

"ماذا قلتَ، أيّها السمين؟" ورفعت يدها إلى أذنها، وقالت بوهن بعدها موجّهة كلامها إلى ياستراو "هل هو صحفي مثلكَ ومثل آرنه؟".

"آرنه؟".

"نعم، القرد الأحمر، هل رأيتَ؟ أنا أعرفكم، ذهَبَ السُّكْر".

"هي تقصد فولدوم" قالها ياستراو بضيق لبوينسن.

"إذنْ، أنتِ تعرفين فولدوم؟".

صرّ عينَيْه جيِّداً، ونظر إليها. لقد ترهّل خَدَّاها والفم الكبير البارز بدا خائباً.

لم تجبه. أطلقت ضحكة مدوّية، وأمسكت بكأس الويسكي، وأفرغتْها جرعة واحدة.

"لا لا، ما الذي تفعلينه؟" قال بوينسن قلقاً.

"ماذا قلتَ؟".

"اسمعي، أيّتها السَّيِّدة" قالها ياستراو، وقد نهض من مكانه "أليس من الأفضل أن نوصلكِ إلى البيت، سيِّدتي؟ وضعكِ سيِّئ".

"هل تودّ الذهاب معي إلى البيت" قاطعتْهُ بإيحاء، وهي ترفع رأسها بحركة رجال أعمال تلقائية.

"لا لا، نودّ أن نستقلّ سيّارة، لنوصلكِ إلى بيتكِ" قال بوينسن وهو يضيف بصوت خفيض "معاذ الله".

"هل تريد الذهاب معنا إلى البيت؟" ومالت على سطح الطاولة تماماً، وهي تضحك.

اقترب نادل منها، ولكن ياستراو أشار له مطمئناً.

"هذا السمين لن يأتي معنا، أوف، لا".

"لا لا، لن يأتي معنا" أجابها ياستراو مباشرة مُنزعِجاً، وأومأ بوينسن له إيجاباً، وقد بدا الضِّيق على وجهه.

كان ياستراو صاحياً يقظاً ومحترزاً بشكل غير طبيعي.

كان يرى كل شيء بخطوط شديدة الوضوح والنحس، تحت إضاءة شاحبة حادّة، موهمة مظلّلة إلى حدّ بعيد، وبما يخصّه، فلم يكن بمقدوره أن يثمل. لذا، كان يتعامل باللحظة بسرعة وفظاظة منفّرة، لأن كل شيء لم يكن ذا قيمة.

نهض، وقادها إلى الخارج.

جلسا في السَّيَّارة. كانت ترتدي معطفاً من الفرو رمادياً. غمر حديقة المتنزّه خارج النادي ضوء صباحي خافت. كان لحاء الأشجار بمختلف أشكاله وألوانه، وبان حجر الممرّات، والأوراق الخضر نضرة حسّاسة.

"إستيدغيذه" قالتها بمكيانيكية للسائق.

"إستيدغيذه؟" كرّر ياستراو، واستدار بالحال نحوها.

ولكنه أدرك باللحظة أنه لن يحصل على جواب معقول منها. تحت ضوء النهار الطبيعي، وحيث بدت الأشجار والبيوت حيّة، بدا وجهها مثل قناع. كانت البودرة من حول عينَيْها، والتي غطّت التجاعيد على وشك أن تتناثر حبّاتٍ. والبقعتان عند الصدغَيْن اللتان لوّنتهما بحماقة وغباء، لكي يبدو وجهها أصغر، فاللون الأحمر حول الخَدَّيْن قد صعد أكثر من اللازم، كثيراً.

"إستيدغيذه" دمدمت. شعر ياستراو بالقلق. كان يودّ أن يسألها، ولكنه كان يجلس إلى جانب شخص أصمّ. كان الهواء لسرعة السَّيَّارة يضرب وجهَيْهما الساخنَيْن، وهما في طريقهما إلى دوّار فريديريكسبيرغ. لربّما تستعيد وعيها. لِمَ راح قلبه يخفق بشدّة؟ ارتفعت كنيسة فريديريكسبيرغ مثل خيمة تحت السماء.

كان يُحملِق إلى الأمام. لو افترضنا أنها، لو، لو أنها تقيم في بيت من تلك البيوت؟ النوافذ ذات الستائر المُسدَلَة. انعكاس وهج الشمس الأبيض الذي امتصّ أفكاره كلها صار فكرة، بيضاء مضيئة. لو افترضنا، ... لو ...

"يبدو أنكِ انتقلتِ؟".

"نننن".

نعم، إنها هي، تلك النوافذ، تلك الشّقّة. ولكنْ، لِمَ هذا الخوف؟ القلب؟ كان يدخّن كثيراً، يشرب كثيراً. تلك الستائر المُسدَلَة التي لمعت بوهج أبيض في دواخله، ضوء بروجكتر شاحب طارده واخترقه، تحسّسه، وجاسَ جرحه. ما هو الجرح؟ ولكنْ، إن كانت إلسا السوداء تقيم مقابله، فذلك يعني شيئاً. اللعنة، الأمر بكُلّيّته ليس مصادفة.

فجأة انهارت إلسا السوداء. راحت تنشج. هل أيقظها نسيم الصباح البارد؟ تحرّك ياستراو في مكانه حانقاً. كان نشيجاً عصبياً، بسبب السهر والشرب من النوع الذي لا يودّ ياستراو أن يُضيّع عطفه عليه. هل يمكن للمرء أن يضيع عطفه هباءً؟ إنه يعرف هذا النحيب، معروف لدى هذا النوع من النسوة ... فكّر ... هذا النوع من النسوة ... كان قد ابتعد عن المسيح.

همست إلسا السوداء "آه، أنا ثملة جدّاً، وفي جعبتي لغو فارغ كثير وأوجاع، آه، بودّي لو أضربكم جميعاً، ما الذي تريدونه منّي؟".

"اسمعي، لا أريد غير إيصالكِ البيت" قال ياستراو غاصباً نفسه على تصبيرها، وهو يدير وجهه إليها قليلاً. توضّحت المباني في شارع فريديريكسبيرغ المشجّر، يعلوها تدرّج لوني خفيف من الرمادي المزرقّ، وبدت النوافذ نعسة.

"هراء" قالت، وهي تهزّ رأسها. امتزجت الدموع بالبودرة، وسالت في الأخاديد تحت العينَيْن.

أحنى ياستراو رأسه.

"ألا تودّ الذهاب معي إلى البيت حقّاً؟ ألستَ صديقي؟"

واتّكأت برأسها على كتفه، وراحت تنشج ثانية.

"أحزاني كثيرة جدّاً" تكفي لرواية كاملة، لو كتبتَها، أنا رواية كاملة. أقول لكَ، أنتَ لا تدري، آه، بودّي لو أقول كل شيء ... أقول، أن أجد أحداً ما، لأقول له، هلا أتيتَ معي؟ كي نتحدّث معاً، هكذا أشعر، وأنا الآن بحاجة كبيرة لذلك".

نظر ياستراو إلى شَعْرها الأسود الذي تطاير في الهواء. كانت نافذة محلّ تنظيف الريش هو

ما سرق نظره، السديم الكوني من الريش الرمادي الذي يصعد دوّامات كإعلان للمحلّ. زاوية شارع ستينوسغيذه. بعيداً عن المسيح! وميض أحمر للكنيسة الكاثوليكية والمدرسة. عيادة أسنان روحية. واستدارت السَّيَّارة نحو شارع فيكتورياغيذه.

"هل ستصعد معي؟".

"لا لا".

"لا؟ ألن تأتي معي؟ أنا ثملة جدَّاً. ولكني بحاجة للتّحدّث مع إنسان ... ولكنْ، غداً ... ستأتي غداً. هل تعدني؟ أنا بمساس الحاجة لذلك. سَلْ عن مدام كوبف، اتّفقنا؟ ستأتي؟".

ورفعت وجهها المصبوغ، وفتحت عينَيْها. كان هناك غشاء ضبابي، يغطّيهما.

"ياه، أنا تعيسة جدَّاً، وأنتَ لا تبالي" انبرت قائلة "كلكم هكذا".

"أعدكِ، سآتي غداً" أجابها ياستراو بما يملك من صِدْق.

ولكنْ، لحظتها خيّمت غيمة مظلمة فوق روحه. البيت الذي يسكن فيه، ها هو يقترب. الواجهة المُوحِشة تكبر وتكبر. أراد أن يتأمّل النوافذ لشقَّته، لقد عكست سماء الصباح. الزجاج، يا إلهي، أعنّي، عكست السماء.

"أنا أقيم هنا" قالت إلسا السوداء بميكانيكية.

توقّفت السَّيَّارة.

قفزت مترنّحة وهي تتوجّه إلى الباب الرئيس.

"هل أساعدكِ؟" صاح ياستراو من داخل السَّيَّارة.

ولكنها لم تجبْهُ. تمكّنت من فتح الباب بحركة ميكانيكية، ومن دون وعي، واختفت. لم تستدر. لم تُلوِّح له. لم تشعر بما حولها.

عودة إلى النوافذ البيض المُسدَلَة.

"واصل، إلى ساحة البلدية" صاح ياستراو بالسائق مُمتعِضاً، وهو يستدير إلى الخلف، ليتأمّل بيته الذي كان يقيم فيه.

الفصل السادس

عند مدخل الفندق، جلس كل من ياستراو وكيير الخالد يتأمّلان الحياة وهي تعبرهما، الناس الذين بدوا منشغلين بشكل غريب، الدَّرَّاجات الهوائية، الشاحنات والتِّرامات. مصوّر صحفي يخطف بسيّارته الصغيرة الرصاصية وهو يلقي التَّحيَّة. وضع كيير الخالد يده بهيبة على صديريه المجعّد، وأحنى رأسه "وعليكَ السلام" بينما أخرج ياستراو الغليون من فمه تحيّةً.

سرعان ما صار من الصعب على ياستراو الجلوس ساكناً في مكانه. لم يكن لديه وقت حقيقة لذلك. عليه كتابة مقال، وبيعه. ولكنْ، بالإمكان الانتظار إلى الغد. وانقلبت تلك الدَّرَّاجة الهوائية. من غير المعقول أن يركنوا الدَّرَّاجة ودعامتها على حافّة الرصيف، التفّت إحدى العَجَلَتَيْن حتّى سطعت أسلاكها. اختراع جميل. حشرة.

"سيِّد ياستراو" كان المتحدّث هو موظّف الاستقبال بشاربه الأسود. وقف إلى جانب كرسي ياستراو. "هناك سيِّد اتّصل، وترك لحضرتكَ رسالة عبر الهاتف. قال كل شيء قد تمّ ترتيبه، وبإمكانكَ السفر إلى برلين هذا المساء".

أدار كيير الخالد ببطء وجهه ساخراً وهو يصفّر. شكر ياستراو الموظّفَ، ولكنه تابع بصوت خفيض: "هل تسمح لي حضرتكَ بتقديم الفاتورة؟".

"هه" ضحك كيير وهو على كرسيه، وأرجح إحدى قَدَمَيْه، بينما تفحّص ياستراو القائمة مستكيناً، ثمّ دفع الحساب.

"هل ستسافر، وتتركنا، يا جاز" هل ستترك كوخكَ؟" سأل كيير، وانفجر ضاحكاً.

هزّ ياستراو كتفَيْه.

"مثل -بي- الصغير، هه هه، لن تقدر على فعل ذلك" واتّكأ كيير إلى الوراء في الكرسي المضفور. راح يتأمّل السقوف أمامه في الجانب الثاني من الشارع حتّى انعكست السماء في نظراته العائمة. كان هناك شوق ساكن فيهما.

"أنا نفسي حاولتُ ذلك، يا جاز، ولكننا نعود لا محال إلى بار دس آرتيست. هل تعرف أسد النمل؟".

"هل هو اسم حانة؟".

"هه، لا. إنها حشرة، حيوان" وضحك كيير. "إنها تحفر حفرة في الرمل بجوانب مائلة، لكي ينزلق النمل إليها، فتقنصه ..".

"يبدو أنكَ صرتَ ضليعاً في هذا المجال".

"لا، ولكني ذكي حسب، ومادمتَ لا تريد الإنصات إلى سيِّد الحكمة، فلتنهض، وتسافر إلى برلين، أو كندا، هه" وضحك كيير الذي جلس، وكأنه إله في كرسيه. "هه، ولقد وصلني شيء من -بي- الصغير، بالمناسبة، لقد أضحى ما يشبه الرّحّالة، لقد اكتشف باراً في لندن، كما كتب لي. هه".

لم يجبْهُ ياستراو.

"لعلّه جالس هناك يفكّر. آخ" تابع كيير غارقاً في ذكرياته. "وها أنتَ ستسافر، إلى برلين، ولكنكم ستعودون، ستعودون، أنا على يقين من ذلك".

وراح يدندن لنفسه؛ وحين في الغد تعودون ... احكوا لي عمّا رأيتُم(*) .

"عليكَ حقّاً الاهتمام بأسد النمل".

زعقت صفّارة عالية منطلقة من ساحة البلدية. توقّف المرور أمامهم، توقّف التّرام، ومرقت سيّارة إسعاف بعَلَم أصفر مرفرف مرعبة بانطلاقها، تطارد بسرعة مثل رعشة تسري في البدن.

تابعا الإسعاف بأعينهم، وحين اختفى صوت الصّفّارة وهي تتوغّل في النورافولد، نهض كيير مُتنهِّداً. "سأصعد لأبحث في القاموس عن أسد النمل" قالها مُتحسّراً، وقد ازرقّ وجهه، بسبب جهده، وخاض بقَدَمَيْه المصابَتَيْن بالتهاب المفاصل متوجّهاً إلى المدخل.

لكن صوت سيّارة الإسعاف لم يفارق رأس ياستراو. الحادثة. طير صارخ في الفضاء. وحيث الرقص على موسيقى الغرامافون حتّى الصَّمَم.

---

*) Christian Winthers 1796-1876: في إشارة إلى قصيدة مغنّاة للشاعر من ديوان "طرْ، أيّها الطير"، المطلع حين في الغد تعود / احكِ لي عمّا رأيت.

وفجأة يصرخ ...

ماذا لو كان أولوف مَن انطلقت الإسعاف لتنقله. ولكن اتّجاهها كان صوب النورافولد، لذا لا يمكن أن يكون هو. بعيداً. غير مَرئي. هذا الولد، هذا الولد! ماذا لو حصل له حادث، لن يصل ياستراو حينها خبر. هناك الكثير من الأخطار. الأيدي تمتدّ، وتحميه.

ومن دون أن يشعر، امتدّت ذراعاه إلى الأمام ضامّاً كفَّيْه، رأى فجأة كم كانت تلك الحركة سخيفة ... وكأنه كان سارحاً يُحدّث نفسه.

من خلفه، كان كيير الخالد يجرّ أنفاسه، ثمّ ينصفق الباب. لقد دخل البار للمنازلة، بشأن أسد النمل والقاموس. هكذا تسير الأمور مع مَنْ يملكون نقوداً. مدخوله كما يقال. يقال!

سرعان ما سينتهي هذا كله. بتلقائية. أن تدمّر نفسكَ أمرٌ يقتضي إمكانية مادّيّة. ماذا عن المقالة. بالإمكان كتابة مقالة واحدة. ما الذي يجري الآن؟ ما الذي يثير الاهتمام؟ بالإمكان كتابة مقالة عن الصيف في المُدُن الكبرى، حارة مغبرّة؛ غبار شِعْري!. آه، لغو فارغ. لا شيء سوى الروح ما يهمّه، وعليه اللعنة، لو كان يعرف ما هي.

نخب أبدية الروح. جبروت الروح، قالها ستيفينسن متشدّقاً. كيف حاله؟ هل لا يزال مقيماً في شقّته، وإلسا السوداء تسكن مقابله في الجهة الثانية، خلف الستائر البيض المُسدَلَة؟ كانت تعيسة. لأنها كانت ثملة جدّاً. لا، لا يجب أن يكون إنسانياً جدّاً في تعامله هكذا بعد الآن. ذلك النوع من المشاعر ينتمي إلى الماضي حين برز المسيح أمامه طالعاً من حوض الروح، ولقد قلّده في حركاته الورعة، إنهم يُقلّدون ما يفعل. للتقليد(*).

بيَدَيْن مُنقذَتَيْن، ولدٌ يقف على حافّة هاوية، وتأتيه اليدان المنقذتان. سيكون الأمر ذاته. لربّما كانت على حافّة هاوية، ربّما، ومن ثمّ، جاءت يداه المنقذتان، بضع أياد منقذة ... وأولوف ... عند الهاوية ... ومن ثمّ، جاءت ... بضع أيادٍ منقذة. لماذا؟ مَنْ يدري؟ ولكنْ، لماذا؟ أيدٍ. أيدٍ. الفضاء يمتلئ بالأيدي. وهم يُقلّدونني، وحين أُهدِّد، يُهدّد الجميع.

نهض ياستراو. ينوي الذهاب إلى إلسا السوداء. كان (الكاسكيت) مُعلّقاً في الداخل، في البار.

ومض ضوء الشمس أمام عينَيْه، وهو يدخل المكان المعتم.

(*) De Imitatione: كلمة لاتينية تعني العمل على خُطى المسيح، وفي التعليق إشارة إلى كتاب كان مصدر جدل في تلك الفترة، حمل العنوان إيّاه.

ورقص بين زجاج القناني الملوّنة اللمّاعة على الرفوف. كان النادل آرنولد الوقح ذو الوجه الكوبنهاجني الشاحب قد برز من خلف النضد عند البار، وعند الطاولة المُدوّرة جلس كيير الخالد، وكأن غيمة مطر قد غلّفته، كئيباً منحنياً على كأس كوكتيل لوندبوم.

"كيف تسير الأمور مع أسد النمل؟" قالها ياستراو، وهو يتناول (كاسكيته).

"إنه حيوان مُملّ" دمدم كيير وهو يُحلِق بالكوكتيل.

"وهذا فندق مُملّ" تابع بعد توقّف، "لا قاموس ، وبار مملّ، وكوكتيل مملّ".

كان الفراغ يحوطه في مكانه في العَتَمَة.

دفع ياستراو باب البار إلى الخارج، وعاد إلى ضوء الشمس في الشارع ثانية. رأى ضباباً أزرقاً شفّافاً يصعد من الإسفلت. لعلّها عَتَمَةَ البار التي تبخّرت؟.

وبوضوح تامّ، تراءت أمام عينَيْه بلحظة صورة كيير الذي جلس مع كوكتيل لوندبوم مثل ضفدعة. نعم، كان كيير يشبه ضفدعة تختفي في الظّلّ.

غريبٌ كم يشبه الإنسانُ الحيوانَ!

خلالها كان ياستراو يعبر مبنى الـ -دوابلاذيت-. تطلّع مثل غريب عالياً إلى الجدران الحمر. هل سيستقبلون مقالاً منه؟ ولكنْ، لا، ستكون هذه من ضمن الحساب. لا مخرج لديه إذاً! يتحتّم عليه الذهاب إلى برلين. سيُجبر على ذلك، كما أجبره فولدوم على الذهاب إلى شارع ستينوسغيذه. كانت إلسا السوداء تعرف فولدوم. نعم، بائع الورد الذي توجّه مباشرة عبر البار حاملاً بيده ثلاث وردات نضرات. ولكنْ، لِمَ يكرهها فولدوم إلى هذه الدرجة؟ "كما ترون حضراتكم، فلا نساء في الصالة".

يكاد يسمع صوت فولدوم.

"هل تعرف ما هو أسوأ من الجرح المغطّى بالبودرة؟" صوته من جديد، كلمة كلمة، صوت فولدوم. ولكنْ، هل كان على ذراع إلسا السوداء هكذا علامة. هل كانت مريضة، مريضة، مريضة؟

لاحت صالة السينما عند الزاوية. -سوط الإنسانية- مكتوبة بالحروف السود. "الفلم الذي يجب أن يراه الجميع. ممنوع على الأطفال تحت سنّ الـ 16".

الشمس ساطعة في الساحة من حول نصب الحُرّيّة، وبدا الإسفلت، وهو يعوم مثل سطح صقيل، وكل شيء بدا من حوله مفتوحاً، وضوء الشمس منهمر.

حروف سود. سوط الإنسانية.

لم يكن ذهابه إلى إلسا السوداء من قبيل تعويضه بحُبٍّ مجّاني، حدّ معرفته. هل كان نبيلاً؟ اليدان المنقذتان لأجل المساعدة ...

يكاد يمقت فولدوم لقوله ذاك بشأن الجرح.

ولكن الأمر برمّته سخيف وتافه، في كونه ذاهباً من أجل التّحدّث طويلاً معها. هل يتوقّع شيئاً آخر؟ امرأة. امرأة. امرأة.

وقف في استيدغيذه. كانت ابنة الحارس تدور وترقص مع لعبتها القطنية، وتغنّي عند البوّابة، ملأ الصدى الحادّ لصوتها الفضاء بالسعادة. ولكنه أدار لها ظهره. اقتضى الأمر منه أن يدير ظهره، لأنه سيقصد المبنى المقابل عبر الشارع. عليه أن يطيح برمزية تلك الستائر البيض المُسدَلَة. لم يكن يحبّها. كانت جملة أعصاب وكحول، سقوف بيض، ستائر مُسدَلَة، إسعاف، عناوين أفلام، كلها محض أشباح. والرجال السود الثلاثة وتلك الهلوسة الصريحة. ترى كيف يسير الحال مع فأر كيير الأبيض الوليد؟.

دقّ الجرس. فتحت الباب امرأة عجوز بابتسامة متقشّفة وعينَيْن مفتوحَتَيْن. خفضت بصرها بعض الشيء، لتخفي فضولها.

"نعم، مدام كوبف موجودة، مَنْ حضرتكَ؟".

"المحرّر أوله ياستراو" أجاب بطريقته التقليدية.

تسلّلت من دون صوت إلى الداخل مثل عُثّة.

بعد وهلة، انفتح الباب إلى المدخل، ووصله الصوت المجامل ذاته "تفضّلْ، حضرتكَ، ستنتظر قليلاً، لأن السَّيِّدة لم تستيقظ بعد".

دخل ياستراو إلى غرفة بأثاث من الخشب الماهوغاني، وذوق عادي للترف، لمعان وضخامة. وأريكة استلقاء عريضة، بوسائد لا حصر لها، نسخة رخيصة من الحلم الشرقي، بحر من الرفاه، ولوحة بيضوية لرجل وامرأة يستريحان تحت شجرة، سعيدَيْن في أحضان الطبيعة، فكرة اخترقت وعيه بألفة. توقّف ياستراو، ينظر مَلِيّاً بالستائر المُسدَلَة. سرقت نظره، واستحوذت على اهتمامه.

ها هو أخيراً يقف خلف تلك الستائر المُسدَلَة! لمح بشكل ضبابي نوافذ شقّته عبر الشارع.

كم بدا له المنظر غير مقبول! لقد تمّ سحب الستائر بشكل خاطئ، زجاج النوافذ معتم، بسبب الوسخ. حاول أن يلتقط حبّة هواء، كانت تلك نوافذه في يوم ما. تعرّف عليها ثانية. هل لازال ستيفينسن يقيم في بيته؟ يجدر به أن يُوصِل خبراً ليوهانه، بإمكانها أن تنقل أثاثها. هل يكتب رسالة؟ من المستحيل كتابة رسالة. لا، ليس لديه طاقة على فعل ذلك.

كانت هناك علبة تبغ حمراء على سدّة النافذة. نعم، من نوع خلطة كريفن. ستبدو الحياة مثل هذا المنظر، إن تحرّرت الروح من الجسد، فوضى عارمة، مُجرّدة من هدف. الذكرى الوحيدة التي خلّفها كانت ذكرى تدخينه التبغ الأحمر، خلطة كريفن في علبة حمراء. رماد "فيسوف" سيغطّي بومباي برمّتها! قد ترك وراءه علبة تبغ.

"هذا أنتَ، إذاً" سمِعَ صوتاً من خلفه. كانت إلسا السوداء التي نظرت من شقّ باب غرفة نومها. "السَّيِّدة لوند قالت لي إن أحد المحرّرين قد جاء، ياقته وسخة، واتّضح أنه أنتَ. لأعود إلى فراشي ثانية إذاً، آه، لا تتخيّلْ كم أنا تعبة!" وسمعها تتثاءب "تعالَ، بإمكانكَ الدخول".

الستائر مُسدَلَة في غرفة نومها، وكل شيء كان يعوم في ضوء شبه بُنّي، ولكن ياستراو لمَحَ السرير ذي المظلّة يغمره الأبيض ما بين شراشف وأغطية. كان أنيقاً غائماً مشرشباً ذا قمّة مُدبَّبة. وعلى المخدّة في سرير الأميرة هذا، وضعت إلسا السوداء رأسها، كان وجهها مضبّباً، وبسبب وهج الضوء شبه البُنّيّ بدت وكأنها بنت من أصل غامق.

انحنى ياستراو مُحيّياً، وابتسم. يا له من سرير مثالي! مثل اللوحة البيضوية، روكوكو وشرق وحكايات خرافية وبورجوازية. شعَرَ بنفسه أشبه بمُتشرّد.

"صرتِ امرأة غنيّة، ولا شكّ منذ المرّة الأخيرة للقائنا" قال. ولكنها من المحتمل ألا تتذكّر المرّة الأخيرة، رغم ...

"نعم نعم، الوقت ذاك" قالت وقد عقدت حاجبَيْها.

"الذكرى تزعجكِ، كما أرى" أجابها بسخرية. كان لا يزال يقف عند الباب.

"أرجو ألا تظنّ أني من ذلك النوع الذي يجول في الشوارع! لستُ منهنّ، عليكَ أن تعرف ذلك"ونهضت بانفعالٍ وشبه سخطٍ في السرير. انزلق اللحاف جانباً، وبرز الكيمونو ذو اللون الأحمر الساطع.

نظر ياستراو إليها مُستفهِماً، ولكنها تابعت

"انتظرتُ زوجي، ولم يكن لديّ كونياك في البيت، ومن ثمّ .."رفعتْ يَدَيْهَا عالياً، وأطلقتْ

ضحكة حادّة "ثمّ سقطتُ على الأرض، وبعدها خرجتُ إلى الشارع. لم يكن لديّ وقت لأذهب إلى البار لصيد سمكة، وكان من الممكن أن يأتي زوجي في أيّة لحظة، ولن يكون من الممكن بالنسبة إليّ بهذه الحالة ...، صح؟ ولكني أترجّاك ألا تدور بين الناس، وتقول إني أبيع جسدي، لأني أُقسم لكَ أنا لا أفعل ذلك" قالت ذلك باضطراب مثير الشفقة.

"إذاً، كانت تلك صدفة ...".

"ما الذي تريده منّي صدْقاً؟ هل لزيارتكَ علاقة بليلة البارحة؟" وفركت جبهتها تعبة "يا للحظ! كنتُ مخمورة، جدَّاً؟ لا أتذكّر حتّى حرفاً، كيف وصلتُ البيت؟ لا لا، هل كنتُ معكَ؟ معكَ هنا في البيت؟ هل نمتَ معي؟ لا لا، لا أظنّني فعلتُ ذلك. إلى أيّ حدّ كنتُ سكرانة؟ خذْ لكَ كرسياً أيّاً كان اسمكَ، واجلسْ، وكنْ لطيفاً. كنتُ بالتأكيد سكرانة جدَّاً".

"طبعاً، اللعنة على الشيطان" أجابها ضاحكاً، وقد وجد كرسياً، وجلس عند حافّة السرير.

قلبت إلسا وجهها، كأنها متألّمة "لا تلعنْ، هل سمعتَ؟".

"عفواً" أجابها ياستراو بابتسامة.

"ولكنْ، على أيّة حال، مرحباً" قالت فجأة، ومدّت يدها إليه. "ولِمَ زيارتكَ هذه؟".

لاحت لمحة تهكّم حول فمها، وكأنها كانت تودّ أن تمسح كل عاطفيّتها بضحكة.

"ألا تذكرين؟ قد وعدتُكِ بزيارة؟" قالها ياستراو ببطء.

"لل..لا" قالت وهي تهزّ رأسها.

"كنتِ حزينة جدَّاً".

"هل بكيتُ؟" سألت باحتقار. "حسناً، إذاً، يكفي، لستُ بحاجة إلى سماع المزيد. ولقد وعدتَني أن تمرّ لتواسيني. هذا لطف منكَ".

نظرتْ إليه بابتسامة خفيفة على شَفَتَيْها، وسرحتْ في مكان آخر.

وضعتْ رأسها على المخدّة ثانية بوضع يَدَيْهَا تحت رقبتها تنظر في مظلّة السرير فوقها، ثمّ قالت "يا أنتَ، لا أعرف ما اسمكَ، ولكنك صحفي مثله، فولدوم" وكأنها اضطرّت إلى لفظ اسمه.

"أجل، فأنتِ تعرفينه".

"آه، هل تُصدِّق، إن قلتُ لكَ إنه يكرهني، جدَّاً جدَّاً؟" ونظرت إلى ياستراو. "فقط لأني شتمتُهُ

ذات ليلة في بار العصر الذهبي، ووصفتُهُ بالقرد الأحمر، قلتُ له أيّها القرد الأحمر! يا لكَ من قرد أحمر! ولا يمكنكَ تخيُّل وجهه! ولكني لا أبالي به بالمرّة إطلاقاً".

"أجل، كنتُ جالساً ليلتها في بار دس آرتيست ...".

"هو أنتَ مَنْ كان معه؟ هل رأيتَ بعينكَ كيف كان؟ بسبب هذا فقط، وهو بالفعل أحمر الشَّعْر، فما الذي سيقوله؟".

تنبّه ياستراو إلى نظره الذي علِقَ بذراعها. الكيمونو الذي انزلق، والذراع التي ظهرت بعضلها البارز، قوية وخشنة.

ولكن نظره علق فقط بالكدمات الزرق وطبع الأصابع. هناك مَنْ قبض على ذراعها بقسوة.

"ولكنْ، اسمعْ، آه، نسيتُ ما كنتُ أودّ قوله" ونظرت إلى الأعلى، في مظلّة السرير. "بلى، تذكّرتُ، لِمَ تشرب هكذا كثيراً؟ لا أجد ذلك يليق بكَ".

هزّ ياستراو كتفَيْه.

"هذا غباء، في رأيي" وراحت تنصحه مواصلة الحديث، والفم بلونه الأحمر الغامق بدا ساذجاً. "يمكن ترك ذلك للآخرين".

استلقت بهدوء، وكأنها تنتظر تأثير وقع كلماتها عليه، ولكن ياستراو لم يستطع أخذها على محمل الجدّ، فضحك.

"أجل، لا تضحكْ، فيرا تقول إنكَ رجل لطيف جدّاً حين تكون صاحياً".

"لا أعرفها" أجاب ياستراو.

"إنها تجلس في البار القريب من المحطّة، كل يوم فترة الظهر. وأنا كذلك. في الحقيقة، كان من المفروض أن أكون هناك الآن. ما الساعة الآن؟".

سحب ياستراو الساعة، وراح ينظر فيها تحت الضوء الخافت.

"الرابعة والربع".

"حقّاً؟ يا للمشكلة التي تنتظرني لتسكّعي، هه!".

وضحكت بانشراح.

"مشكلة مِنْ قِبَل مَنْ ... صديقكِ؟" سأل ياستراو بهدوء. كان اهتمامه محايداً.

"رجل صديق؟" ضحكت باستخفاف. "لا لا، وفوق هذا، فهذه صارت موضة قديمة، ولكنْ، ليس لديّ صديقة كذلك، بينما كلهنّ لديهنّ، تخيّلْ أنهنّ يقوينَ على ذلك؟". سلّطت نظرة عينَيْها السوداوَيْن المتسائلتَيْن عليه.

"إنهنّ لا يهوينَ الرجال، إنها النقود، آه، إنهنّ مجنونات، لا ينمنَ أبداً" وهزّت رأسها. "إنه، في الحقيقة، النادل الذي يُسبّب لي المشاكل، وهذا واجبه بالطبع".

"الأمر برمّته ليس سهلاً".

"ما هو الذي ليس سهلاً؟".

"هذه الحياة التي تحيينها" قالها ياستراو بلطف، وكره نفسه الوقت ذاته لِلُطفه.

ولكن إلسا السوداء نظرت إليه مناكِفة، ثمّ سحبت اللحاف إلى أعلى أنفها، وراحت تضحك. شعر ياستراو بنفسه مُبشّر الأحياء الفقيرة(*).

"أعتذر لزيارتي" قالها بهدوء.

"لا، كان ذلك حقّاً لطفاً منكَ. الرجال لا يفون بوعدوهم، اللعنة، وها أنا ألعن" قالت باحترام. "ألا ترغب بفنجان قهوة، سأدقّ الجرس للسَّيِّدة لوند، ألا تظنّ أنها لطيفة؟".

"إنها ملاك".

ودخلت السَّيِّدة لوند أخيراً من دون صوت، تفوّهت ببضع كلمات، واختفت.

وبغتة انحنت إلسا السوداء من على سريرها صوبه، وجذبتْهُ لتهمس في أذنه "هي تظنّ أن لي صديقاً غنّياً. لا تعرف أننا اختلفنا، صديقي وأنا. أششش".

"في هذه الحالة، فستضطرّين لـ ... ستضطرّين للنزول إلى الشارع ثانية" قال ياستراو.

"أنا؟" قاطعتْهُ مستاءة. "لا، أبداً! لن أترك نفسي تنحدر إلى القعر، سأشنق روحي قبلها" ومدّت لسانها طويلاً خارج فمها، وكأنها مشنوقة.

"ولكنْ".

---

*) كانت هناك حركات تبشيرية نشطة أوائل القرن العشرين، تدعو للصحوة، حيث يدور أعضائها للتبشير بين الأحياء الفقيرة ممّنْ يعيشون في البيئات الخلفية للمجتمع في كوبنهاجن.

"هل تريد القول إني غبية، نعم، أنا كذلك، أنا مجنونة إلى أبعد حدّ" وراحت تدبك في السرير غضباً. "جاء زوجي البارحة، الجبان، إنه من نوع انتحاري موسمي، عمل لي مشهداً، رمى نفسه على الأرض، وحين هممتُ بفتح الباب، ضربه برأسه الرقيق، بينما هو متمدّد على الأرض يئنّ، لذا تركتُ له البيت، وخرجتُ لأشرب، شربتُ وشربتُ وهكذا، بعدها، أنتَ تعلم أفضل منّي كيف انتهى".

"إذاً، أنتِ مازلتِ متزوّجة؟" جاء سؤاله هادئاً. كان ينظر إليها مَلِيَّاً، كما لو كان لو ينظر إلى حيوان غريب. عَظْمَتَا الخَدَّيْن برزتا بوضوح تحت عينَيْها.

"نعم نعم".

"وصديقكِ الذي هو صديقكِ هل يعرف زوجكِ كوبف بشأنه؟".

"لا أدري ما الذي يعرفه كوبف؟ كوبف ضعيف، وصديقي، بالمناسبة، كذلك، صيدلاني عجوز، قلتُ له ذلك. أشش".

دخلت السَّيِّدة لوند من دون صوت، تحمل صينية القهوة.

"هل يتفضّل السَّيِّد المحرّر بالابتعاد قليلاً" ثمّ جاءت بطاولة صغيرة، وضعتْها بين كرسيه والسرير.

تزحزح ياستراو بكرسيه قليلاً، فاصطدمت قَدَمُهُ خلالها بشيء ما، أصدر صَلْصَلَة. انحنى لينظر إلى الأسفل. كان ذلك حزاماً، التقطه من على الأرض.

اختفت السَّيِّدة لوند خلالها بخفّة، وجلست إلسا السوداء معتدلة على السرير.

"يا إلهي، غداً سيوبّخني النادل يانسن" قالت وهي تضحك مرتجفة داخل الكيمونو بينما كانت تهمّ بشرب قهوتها.

"أنتِ متهوّرة" قالها ياستراو وهو ينفض رأسه استسلاماً.

"ستنتهين إلى الشارع بهذه الطريقة" ولكي يمنح كلامه طابعاً أخلاقياً، ضرب بالحزام على الطاولة. سارعت إلسا السوداء، لتجلس باعتدال "ما هذا؟ دعني أرَ. أعطني إيّاه" وتناولت من يده الحزام، ونظرت إليه، وألقت بنفسها إلى الوراء ضاحكة بصوت حادّ.

"ماذا؟" سألها ياستراو مضطرباً. شعَرَ بعدم ارتياح فجأة، وسط الضوء المعتم شبه البُنّي،

وتلك البنت المستلقية التي تشبه امرأة مغربية، تتقلّب يميناً ويساراً في فراشها. وبان جسدها من تحت اللحاف، من النوع القوي، الفظّ في الحقيقة، من دون جاذبية طافحة. كانت تلوّح بالحزام عالياً، تلاحقه بنظرات عينَيْها اللاصفَتَيْن.

"أين وجدتَهُ؟".

"على الأرض".

ضحكت من جديد، وهي تؤرجحه وسط الضوء المغيبي. وكأنها كانت تلعب مع ثعبان. كان الحزام يصدر صوت صَلْصَلَة خفيفة، خفيفة جدّاً.

جَمَد ياستراو أمام تلك المرأة غير المروّضة بشكل غير معقول.

تحرّكتْ، وكأن شدّاً عضلياً قد أصابها، فاستلقت. "هل تعرف ما استخداماته؟" قالت لاهثة.

لم يجبْها ياستراو. كان يشعر بظلال وسط العَتَمَة شبه البُنِّيَّة. خوف مكتوم وكريه.

"أنا أشدّ الصيدلاني به" وضحكت.

"الصيدلاني؟" كرّرها ياستراو بنَفَس منقطع. كان يقاوم أحاسيسه.

"نعم، صديقي الغني، إنه عجوز، وما إلى ذلك، هو يريد ذلك" ولوّحت بالحزام، وساطت به بضحكة ونشوة. تحرّك السرير، ووقع اللحاف تحت الضربات. "هكذا هكذا هكذا، ويبكي بعدها ويصرخ ويعود شاباً ثانية. هكذا هكذا هكذا. أربط يَدَيْه إلى الوراء بهذا، ولديّ سوطُ كلابٍ هناك، هو الذي أعطاني إيّاه. آه، إنه مجنون" وبضحكات مجنونة، طوّحت بالحزام في الهواء، فضرب الجدار، وسقط على الأرض.

"أوف، شيء كريه" وركست متكوّرة مقطوعة النَّفَس على السرير.

"هل هو صيدلاني؟" تجرّأ ياستراو على سؤالها.

"أجل، وغنيّ جدّاً، هو الذي أثّث لي البيت، ألا يعجبكَ الأثاث؟ إنها شقَّة أرستقراطيّيْن تقريباً، ألا تظنّ ذلك؟ هل رأيتَ صالوني؟".

وسحبتْ نَفَساً وهي تئنّ.

"يجعلني أجنّ، آه، لو تعلم" قالتْها متنهّدة، وضغطت بيدها على قلبها، بينما كانت مستلقية بفم مفتوح، تتنفّس بوضوح.

لم يجرؤ ياستراو على التّحدّث. كان يخشى أن يتأكّد إحساسه والقامة المعتمة تحوم من فوقه، ظلّ إنسان لا يعرفه، إنسان منبعث من الفوضى. الجيل السابق. هل سنصير جميعاً هكذا؟ آه، يا إلهي، غطّى وجهه بيَدَيْه، وأخفى وجهه. هل هي أبدية الروح الملعونة؟.

"هل تدري لِمَ جنّ جنوني؟!" قالت إلسا السوداء، وهي تحاول التقاط أنفاسها. "لأن زوجته ماتت ...".

مال ياستراو إلى الأمام بجذعه، ووجهه لا يزال مخفياً بين يَدَيْه.

" ... لقد جاء إلى هنا ... مرتدياً ثياب الحِدَاد السود ... القُبَّعة العالية ..".

نعم، ذلك الظّلّ. كان هو إذاً! تشويه الحياة. وهو الذي يكتب عن المسيح. "ربّي، لِمَ تركتَني؟".

"انقلبَ إلى صبيّ بعمر التسع سنوات ...".

بلى، ستيفينسن رآه. بلى، يرتدي ثياب الحزن. لم يعرف حينها أن أمّه قد ماتت.

" ... ولأنه كان حزيناً، بالطبع، فالعجوز..".

الجفنة في الحقيبة.

"وبعدها انفعل، وراح يبكي زوجته، ولهذا لم أحتمل، كتبتُ له رسالة. اللعنة، لم أعد أحتمل".

اعتدل ياستراو في جلسته. لم يشأ أن ينظر إلى إلسا السوداء. لم يرغب بشيء البتّة.

"ولكنني كنتُ غبية، أعرف ذلك" علّقت إلسا السوداء مباشرة. "لأني لم أسمع خبراً منه منذ ذلك اليوم. فيرا تسخر منّي".

"ولكنْ، اسمع" قاطعتْهُ فجأة، ونهضت من السرير. "أنا جائعة، هلا خرجنا، لنتناول طعاما في مكان ما".

"لا أدري" قال ياستراو مُرتبِكاً. "نقودي، ... وأنا سأسافر إلى برلين، لستُ متأكّداً، ولكنْ ...".

جرّ محفظة نقوده من جيبه الداخلي.

ولعادة قديمة لديها، التقطت إلسا السوداء المحفظة، وفتحتْها، تناولت النقود الورقية، وفرشتْها على السرير.

"هذا فقط؟" وعقدت حاجبَيْها. "ولكنْ، لامشكلة، لديّ نقود، ونحن بحاجة إلى طعام".

ناولتْهُ محفظة نقوده فارغة، وجمعت النقود من على السرير.

"أنتَ صديق، أليس كذلك؟" قالت بلطف، ومدّت ساقها العارية خارج السرير.

"هل هذا تعريفٌ عصري لـ ...؟".

فنظرت إليه مستفهمة.

الفصل السابع

فرقعة مثل إطلاقة مسدّس. صَلْصَلَة كأس.

استيقظ ياستراو دائخاً، وتنفّس رائحةَ غرفةٍ غريبة، تلفّ به ظلمة كثيفة مُعطّرة. شَعَرَ بدفءٍ حيواني، بالقرب منه، جسد عار يتنفّس.

من عمق الظلمة، كان هناك ضجيج، وشيء ما يتدفّق، وكأنه كان يجري من تحته. يرافق الصياح صدى، وكأنه ينطلق من ممرّات القبو. ومن خلف كل الأصوات والضجيج، كان هناك صوت يتلاشى مثل تدافع فوق أرض غابة جافّة، كومات، يتصاعد ويتصاعد. لم يكن ذلك حلماً. الظلمة كانت للحظة في سَوْرة، تدوم من حوله، بعدها وكأن الدنيا انقلبت. كانت تلك الربكة تأتي من الشارع، والأصوات اقتحمت غرفة النوم التي كانت تطلّ على الفناء.

تحرّكت إلسا السوداء في نومها.

ثمّ سمع صوت نحيبٍ وسط الليل. سَرى الصوت مثل عصف أَشْعَلَ النار في دمه، بينما كان يُحدِّق ببصره في ظلمة الغرفة، ويتنصّت. فارَ دمه. الركض، السباق على درّاجة هوائية، صبيٌّ بلسانٍ طالع من البلعوم، الركض الركض، حريق، الرّشّاشات.

وبقفزة واحدة، جلس على نهاية السرير. كانت هناك هسهسة في الغرفة المجاورة، وفجأة اكتشف خطاً رفيعاً أحمر نارياً في الظلمة، وكأنه قد حدّق طويلاً في جمر متوهّج. نقل بصره، ولكن الخيط الناري ظلّ في مكانه، ولم يتبع نظرات عينَيْه، كان حقيقياً. كان هناك شقٌّ، ولا شكّ، في إطار الباب.

"حريق!" صرخ، وقفز من السرير، وكاد أن يتعثّر بقنّينة نبيذ البورت التي تدحرجت على الأرض، حيث كانا مستمتعَيْن بليلتهما جالسَيْن على السرير يشربان. التفّت الظلمة مثل كرة يُنظَر إليها من الداخل. فتح الباب إلى الصالة بقُوّة، وفجأة جمد في مكانه، وقد غشاه احمرار الشعلة، وهج مضطرب منطلق من ألسنة النار الطويلة خارج الشبابيك. هل هناك حريق في الشَّقَّة تحت في الأسفل؟ هل تحوطهم النار تماماً؟ في حوضٍ من لهيب؟ أم أن الحريق في الجهة المقابلة؟.

"ماذا هناك؟ يا إلهي" قالت إلسا السوداء، وقفزت عارية من السرير "حريق حريق، تعالوا".

وقف ياسترواو عند الباب بفمٍ مفتوح مُبحلِقاً ومُبحلِقاً. كانت الستائر الُمسدَلَة تتطاير واللهيب يظهر ويختفي، كأنه أمر غير حقيقي. وقد اشتمّ رائحة الحريق الحارّة التي اندفعت من النافذة المفتوحة.

"الحريق في بيتي" قال بهدوء.

صدر صوت فجائي من اللهيب المتأجّج، وكأن النار تلقّت وقوداً من جديد. رأى شرارة ترقص مثل يراعة في الستائر. ركض بالحال، وقنصها، ثمّ عصرها مثل حشرة. قطعة ورق متفحّمة تخفق مثل فراشة.

"يجب أن نُغلق الشبابيك" قالت إلسا السوداء.

سحب الستارة المُسدَلَة إلى الجانب، وأقفل الشّبّاك المفتوح، ولكن الزجاج بدأ يتناثر. تفجّر بسبب الحرارة. ضحكَ. ما الذي نَفَعَ؟ مفتوحة كما كانت. والشرر المتطاير سيدخل النوافذ رغم كل شيء، ويشعل النار. موجة هواء حامية جعلتْهُ يلهث في تنفّسه. تعرّق صدره. كان عارياً.

ولكنه كان قد نسي كل شيء عدا النار.

كان يُحدِّق في النار بضياع. إنها شقَّته تلك التي تحترق في الجهة المقابلة. لم يدرك ذلك تماماً إلا هذه اللحظة. شيء ما انفتح في داخله. غرفة الطعام كانت بحراً من اللهيب، غطاء الموقد انفجر، بسبب النار المندلعة في غرفة المعيشة، ارتفع الحريق، وانخفض، اللهيب بدا مثل انفجار بركاني، حين صعدت النار في إحدى الستائر، ونزلت ثانية، صعدت ثانية، بينما انضغط الدخان الأسود خارج النوافذ المتفجّرة، قلع بقايا الزجاج التي تساقطت مثل قشور. وبشعور غريزي، ومن دون وعي، أمسك بالستارة المُسدَلَة، وأخفى بخجلٍ عريه، وكأن اللهيب كان فضولياً.

"بيتي يحترق" كرّر في غيبوبته.

كانت إلسا السوداء تقف إلى جانبه.

"بيتكَ؟" قالت غير فاهمة.

نظر إليها. الحرارة ملأت عينَيْه بالدمع، وقد تراقصت أمامه الظلال الحمر، ظلال النار، ظلال الدم. سبح جسد المرأة العاري بشكل مائل عبر الموجة البنفسجية. رفعت ذراعَيْها عالياً.

انكشف اخضرار غامق في إبطَيْها المظلَّلَيْن. إلسا السوداء! صدرها صار كبيراً تحت الانعكاس الأحمر الذي كان يومض على جِلْدها المُصفرّ. منحنيات أنثوية. لحظتها انطفأ لهيب أمامه في الجهة المقابلة، كان قد التهم ستارة جديدة، ذراع امرأة آمرة، جسد امرأة متطلّب، مرن، غاوٍ، ملتهم، نار مشتعلة. امرأة.

"بيتكَ؟" كرّرت وهي تحبس نَفَسَهَا.

وقف مُقمَّطاً بالستارة. هل كان خجلاً منها؟.

بدت لحمة حمراء مرعوبة تحت وهج النار، قطعة لحم في محل جزّار، صدرها أكبر من كل شيء.

"أجل، أنا أقيم في تلك الشَّقَّة" قال لاهثاً، والتقت نظراتهما التي لمعت بسبب الحرارة. انعكست النار الحمراء في الدمع غير المحسوب الفائض. لمع كل شيء.

"البيت يحترق، اللعنة، كل شيء" قالها وذراعه العارية تُلوِّح بدرامية بينما كان واقفاً ملفوفا بشواله. "البيت يحترق" صاح مُهلِّلاً، وقد حمل صوته نشوة متأرجحة، أدبية "السفن كلها تحترق".

أصاب أذنَيْه الصَّمَمُ، بسبب الضجيج في الشارع تحتهم، كان مستمرّاً، مستمراً، كما لو أنه قَرْع أجراس. كل شيء كان يلمع هناك. خوذات الشرطة، خوذات إطفاء، حجر الطريق والرصيف لامعٌ بالماء، بدرجة لونية حمراء غامقة مثل لون الماهوغاني. خراطيم رصاصية طويلة التفّتْ على الحجر، نفثت نوافير مياه قوية عبر الثقوب على طولها. وفي منتصف الشارع، ارتفع سلّم ذو عجلات عمودياً، واتّكأ بحركة بطيئة على الجدار والنوافذ المحترقة، حيث كانت ألسنة اللهب الشاحبة الملتفّة تلتهب وتخفت محبوسة بين الخشب والحجر.

"ماذا نفعل، مدام؟".

كان ذلك صوت السَّيِّدة لوند المُوَلْوِل. كانت ترتدي ثوب نوم داخلياً فضفاضاً. بدا شَعْرها المليء باللفافات مثل عشّ بومة.

"يا إلهي، عراة!" واختفت بصرخةِ عفاف.

"لا يمكن أن نبقى هكذا واقفَيْن هنا" صرخت إلسا السوداء، وركضت إلى غرفة النوم. ولكن ياستراو استدار وهو يضحك. عام الصالون بالأحمر والأخضر. أثاثه، بيته، كل شيء يحترق. هللوا! انعكست النار على ظهر إلسا. ماج اللحم بانعكاسات حمر في أثناء ركضها الأنثوي المضحك، وتقافزت حُرّة مضطربة.

ولكنه لم يستطع البقاء في مكانه كذلك. عارٍ بين قطع أثاث غريب. والهواء الفاتر كان يلفح جِلْده بدفعات. ركض إلى غرفة النوم، وهو يسعل، وأغلق الباب من خلفه.

كانت إلسا السوداء تتخبّط في الظلمة. سمع ياستراو وقع قَدَمَيْها الحافيَتَيْن. القناني الفارغة المتدحرجة على الأرض، كما لو كانت في يخت. راح يتلمّس طريقه إلى ملابسه.

"عليكَ أن تذهب إلى الشَّقَّة" قالت له وهي تئنّ.

"لماذا؟" ضحك، ووقف على ساق واحدة، لكي يُدخل الثانية في البنطلون.

"أثاثكَ".

"ليس أثاثي".

"لم أكن أعلم أبداً أنكَ تسكن هناك".

"هههههه".

...، "يا إلهي، ماذا نفعل؟ ماذا نفعل؟" كان ذلك صوت السَّيِّدة لوند التي دسّت رأسها من هناك عبر الباب. لقد أشعلت ضوء المدخل، فتسلّل خطّ من الضوء إلى غرفة النوم المظلمة. رسمت لفافات شَعْرها صورة ظلّ حادّة، تشبه تاجاً من الورق الأخضر حول صدغَيْها.

"يا لها من نار!، أليس كذلك، سيِّدة لوند؟"ورقص ياستراو من حوله على ساق واحدة. لازال يشعر بنبيذ البورت في دمه.

"أخشى أن تشتعل ستائرنا" ردّت السَّيِّدة لوند. "الشَّرَر يتطاير ويدخل النوافذ".

"حسناً حسناً، قادمة، اللعنة على الشيطان، لا تأتي المصائب إلا عندما أستريح وأنام".

كان صوت إلسا السوداء مبحوحاً.

هبّت منطلقة بالـ (كيمونو) الأحمر. رآها وهي تخطف عبر خطّ الضوء من المدخل. انحنى ليلتقط سترته. انفتح باب غرفة المعيشة ثانية ووهج النار أنار السرير ذا المظلّة بضوء وردي بينما عاد واعتدل بوقوفه. آه، كيوبيد وأجنحة الملاك! اقتحمت الغرفة غيمة خانقة من الدخان.

"ستختنقون، ستختنقون".

انتهى من ارتداء بنطلونه وقميصه. باغته القَدَر عارياً. راح يُصفّر.

"لِمَ لا تأتي لتساعدنا، أيّها الرجل الأحمق؟" صاحت إلسا السوداء في غمرة الضجيج الصاعد من أسفل الشارع عبر زجاج النوافذ المتكسّر. حلّقت كل من السَّيِّدة لوند وإلسا السوداء أمامه مثل ظلَّيْن سوداوَيْن، يسقطان على خلفية حمراء مضطربة مدخّنة. بيته! احترق، احترق. احترق بالكامل. يا للراحة والانعتاق! راح يصفّر برتابة، وصوت عال على إيقاع موجات النار المندلعة، صاعدة صاعدة. والظلان السوداوان سقطا بتوازنٍ على الكراسي. سكك الستائر الطويلة تسقط مثل صواري السفن. الستائر تُرفرف. وفجأة لمعت صورة شرر طال إحدى الستائر.

برز طرف لهيب صغير أصفر. صرخة، ثمّ اختفت. وفجأة سقط وهج أحمر حادّ في الصالة. أُنزلت الستائر المُسدَلَة، والماهوغاني لمع وسط الظلمة. عكست سطوح الأثاث النار وكأن نبيذاً قد ساح عليها.

صفير عال رتيب. احترق البيت، احترق البيت. الأثاث كله، البيت كله، الكراسي، الطاولات والكُتُب.

البيت يحترق.

هناك صورة فوتوغرافية لأمّه. احترقت. هناك صورة فوتوغرافية لابنه. احترقت. تفطّر الزجاج. مثل شوكة، تخزّ قلبه. ولكن كل شيء احترق. الألواح المصقولة التي غطّت زجاج النافذة المتكسّر في باب مدخل البيت؟ الغرامافون، الكراسي الركوكو، ضبّة عِيْدان الرزّ، كلها التهبت. والأثاث من خشب البلّوط. آه، هه هه. البيت يحترق. البيت يحترق.

لربّما كان عليه أن يرتدي كامل ثيابه.

ولقد أهدى بوليصة التأمين إلى لوندبوم! أُعطيت إليه. نعم نعم، يا صهري العزيز. أين بوليصة التأمين؟ غدا حين تقرأ الجريدة، يا صهري العزيز، ستفتح فمكَ وتُغلقه مثل سمكة.

ظلّ يصفّر من دون انقطاع.

حرّكت السَّيِّدتان الأثاث. بينما قام ياستراو بشدّ ربطة عنقه بعناية أمام المرآة تحت الوهج الأحمر الدموي.

"أيّها الغبي، لِمَ لا تساعدنا؟" تحسّرت إلسا السوداء التي وقفت عاجزة عند نهاية الأريكة العريضة بوسائدها القابلة للاشتعال.

"حالاً".

ولم يقل غير هذا. تلاشت الكلمات وسط سعاله. غيمة دخان أسود التفّت وسط النار، تعتَيم كثيف قوي ثقيل، اقتحمت فقاعة من السخام والدخان النافذة الوسطى، مدارٌ أسود تفجّر بملامسة الهواء مثل دخان مدخنة مصنع، صعد عالياً، وسخّم واجهة البناية، وأخفى السقف.

جاء ياستراو لمساعدتهما. بدا متهوّراً. "إنها شقَّته التي تحترق" قالت إلسا السوداء، وهي تشير نحوه بينما كانت تجاهد لزحزحة الطاولة.

لم تجب السَّيِّدة لوند. لا مزاج لها للمزح الآن. وضعت دلواً مملوءاً بالماء على سدّة النافذة.

"هل احترق السقف؟" سأل ياستراو.

انحنى إلى الأمام، ونظر عبر راية الدخان التي كانت ترفرف عالياً صوب سماء الليل الصيفي. كانت تصل بين الآونة والأخرى نفخةٌ من الشرر المتطاير من الحريق، وترفرف عالياً رقائق حمر وصفر بين النجوم الهادئة الشاحبة.

صوت أزيز وهسيس. الماء يتناثر على إطارات النوافذ هناك، والبخار الأبيض يتصاعد ببطء. تمكّن من رؤية رأس يرتدي خوذة إطفاء، رجل إطفاء على السّلّم.

"لا، يبدو أن الحريق في شقَّتي فقط" قال ياستراو.

لم تجب السَّيِّدة لوند، ولكنها أدركت فجأة أن الحريق كان فعلاً في شقَّته. تعرّقت لشعورها بالمهانة لتعليقه. اشرأبّ عنقها، وبهزّة، استدارت ممتعضة، وضربت بالخرقة الرطبة شرارة تطايرت وعبرت سدّة النافذة.

"يا له من أبله!" انبرت قائلة.

دقّ الباب خلالها.

أسرعت السَّيِّدة لوند إلى المدخل. الحركة تلك أنقذتْها. راحت لاهثة.

كان ياستراو وإلسا يجوبان في الغرفة، وهما يسعلان. الغرفة وكأنها قد أُضيئت بمصباح سقف أحمر خفيف. خفيف جدّاً، لأن الحريق كان قد توغّل عميقاً داخل غرف الشَّقَّة المقابلة، والنار على وشك السيطرة عليها. ارتفعت غيوم من الدخان عبر النوافذ التي كانت محض جذوع أشجار متفحّمة، وبين الآونة والأخرى تئزّ دوّامات من الجمر.

"يا إلهي، أثاثي!" أنَّتْ إلسا السوداء وهي تبصق وتتنحنح.

حاول ياستراو أن يتنفّس، وطعم الدخان كان على وشك أن يسدّ بلعومه.

قاما بنقل الكراسي إلى الجدار الأبعد.

"آه، لقد خُدِشْتَ كثيراً" اشتكت إلسا السوداء.

"ما تقولين عن أثاثي، إذاً؟"علّق ياستراو.

"أنا لا أفهمكَ" أجابتْهُ منزعجة.

سعل ياستراو.

سُمعَ صوت رجل في المدخل، ورجل إطفاء يدخل. كتل الدخان كانت ثقيلة جدًّاً، حجبت الرؤيا في الغرفة، ولكن الإطفائي أشعل مصباحاً يدوياً، وجعل مسقط ضوئه يدور على الأرضية والأثاث، ثمّ توقّف عند الدلو على الأرضية.

"تدبير معقول" قال وهو ينفخ نَفَساً. "إنها وقحة مثل حشرات، تلك الشرارات الشيطانية".

وتأمّل كتل الدخان.

"ولكنْ، الحمد لله، لم يبقَ غير الدخان وبقع المياه".

بقي واقفاً، وبيده المصباح اليدوي مضيء. كان بالإمكان سماعه وهو يتنفّس مثل حصان مُتعَب. كان يودّ التّوقّف لوهلة.

"هل تمكّنتُم من إنقاذ شيء؟" سأل ياستراو، صوته كان حامياً هادئاً.

"لا شيء".

وصدرت عن يده حركة رسّام، كشف عنها ضوء مصباحه القريب منها.

"إنه في الحقيقة ..." صدر الكلام من إلسا السوداء، ولكنْ، سرعان ما جاءتْها ركلة بساقها.

وحينها سأل ياستراو بانفعال وتأثُّر، ومن دون مقدّمات:

"هل هناك في الداخل مَن احترق؟".

"لا لا، حسب علمي" ودار ضوء مصباحه. كان على الإطفائي أن يغادرَهم. وقفت إلسا السوداء مضاءة وهي ترتدي الكيمونو. فركت بقَدَمِها ساقَهَا العارية.

ثمّ قفز ياستراو، وقبض على ذراع الإطفائي "هل أنتَ متأكّد من ذلك؟" كاد صوته أن يختفي، بدا مُتذمّراً "هل أنتَ متأكّد أن لا أحد قد احترق في الداخل؟".

"بلى، ولكنْ، سيتمّ فحص ذلك" قال الإطفائي بتعالٍ، وتملّص من قبضة يده.

"توقّعْ حدوث كل شيء في هذه الشّقّة" أجابه ياستراو وهو يتبعه.

"نعم، يبدو ذلك، اللعنة" قال الإطفائي، وتوقّف. كان يودّ أن يلتقط أنفاسه أيضاً. "ولكن العائلة مسافرة، كما يبدو. الرجل صحفي، كتلة من الأعصاب، هذا ما قاله حارس العمارة. هه هه، حارس العمارة، ولا شكّ قد تحمّصت أصابع قَدَمَيْه، هو يسكن مباشرة فوق الشّقّة التي احترقت. عليّ الانصراف الآن. لم يحترق أحد، ولا حتّى حشرة".

"كيف اشتعل الحريق؟" جاءت متعجّلة.

"يعتقدون أنه تماسّ كهربائي. لم يكن هناك أحد في الشّقّة في الأيّام الأخيرة، ولا حتّى ذلك الساكن المستأجر".

"هكذا، إذنْ، هههه، هل أنتَ متأكّد من هذا؟" وقبض ياستراو على ذراع الإطفائي ثانية.

"هذا ما يقال دوماً، تماسّ كهربائي حين لا يعرف السبب. ولكنْ، فكّر مثلاً بجمرة سيجارة على غطاء الأريكة، صح؟ تكون جاهزة للاشتعال، صح؟ صح؟ ممكن أن تتحوّل إلى حريق، أليس كذلك؟" وراح ياستراو يضحك بصوت عالٍ، وجسمه يهتزّ. "صح، صح، صح؟ ... ثمّ تخيّل أن امرأة مقتولة على تلك الأريكة، ستكون احترقت، والقاتل لن يتمّ اكتشافه، أبداً".

"أوه.." تأفّف الإطفائي. "لقد تبلّلتُ تماماً بسبب الحرارة هنا".

دسّ ياستراو يَدَيْه في جيبَيْه، وضحك، وبدت إلسا السوداء منشرحة وسط الظلمة.

"فعلاً، وكلامي مُجرّد لغو فارغ".

"هذه طريقتي أيضاً بالنظر إلى الأمر" أجابه الإطفائي بتهكّم، ومشى.

"أنتَ مجنون، يا أوله" قالت ألسا السوداء.

"حقّاً؟" وهزّ ياستراو رأسه. "حقّاً؟ قد يكون ذلك صحيحاً، ولكنْ، لا، لقد قال بنفسه إن المستأجر لم يكن في الشّقّة في الأيّام الأخيرة. إذاً، كلامي لا أساس له من الصّحّة. نعم، ربّما، هل لديك شيء أشربه، يا إلسا؟".

وقفا في الظلمة، وفي الجهة المقابلة، تصاعدت كتل الدخان الأسود، وفي الداخل، لم يكن إلا بضعة ألسنة متأجّجة وخطوط أضواء منطلقة من مصابيح الإطفائيّيْن تتقاطع، وكأنها تتبارز. صوت خرير الماء لازال مسموعاً، والشارع في الأسفل بدا أكثر هدوءاً.

"آه، شيء لأشربه؟".

"أجل، دعنا نذهب إلى المطبخ، لنرى" قالت إلسا السوداء، وأخذته من تحت ذراعه، نصف نصف ضاحكة نصف حانية. "أنا أفهمكَ، ولكنْ، ألا تظنّ أن من الأفضل أن تذهب إلى شقّتكَ، لترى مقدار ما احترق. شيء مرعب. غير معقول، أثاثكَ كله! ولكني لم أكن أعرف أنكَ تقيم في هذه الشَّقَّة المقابلة".

أشعلت الضوء في المطبخ، وجلس ياستراو مُنهكاً على الكرسي، مُتهالِكاً في مكانه.

"ولكنْ، يا ربّي، أيّ كلام هذا الذي قلتَهُ للإطفائي. امرأة مقتولة على أريكة. هل تعرف ما كنتَ تقول" وضحكت وهي تفتح باب الثلاجة.

"لربّما كانت هناك امرأة مستلقية مقتولة ..." وتحسّر وهو يُحدِّق في أرضية المطبخ. كان العَرَق يتصبّب بغزارة منه. "آه، لوتعرفين، لو تعرفين ما مررتُ به. لربّما كانت هناك امرأة مستلقية مقتولة على الأريكة".

و ... ارتفع الصوت "كانت هناك امرأة مستلقية مقتولة على الأريكة، والسجائر، ... نعم، لقد حسبها الشيطان جيّداً، لن يكتشف ذلك أحد أبداً. آه، يا إلسا، إلسا. سأجنّ بسبب هذا".

"مهلكَ مهلكَ" حاولت إلسا السوداء تهدئته "اشرب الآن هذا الكونياك رغم أنكَ تشرب كثيراً جدًّاً".

أفرغ ياستراو الكأس في جوفه.

"أجل، أنا أعلم جيِّداً، إنه مُجرّد خيال، بالطبع خيال" هدأ صوته أكثر، كان يرتفع بين الحين والحين راجفاً متردّداً، ولكنه ينحسر ثانية. "آه، لو تعلمين، إنها أغرب حياة تلك التي عشناها في هذه الشَّقَّة. كنّا نبحث عن شيء روحي، نودّ اكتشافه، ستيفينسن، ابن ستيفاني، ... هه هه؟".

"هل تعرف ستيفاني؟" بدت مذهولة.

"أجل أجل، ابتسم ياستراو بتعب ظاهر، وهزّ رأسه. "أعرفه، وهو يستأهل كل الضرب الذي ضربتيه،آه، الأمر برمّته ميئوس منه، بلا معنى إطلاقاً، كله".

"هل كنتَ تعرف عندما أخبرتُكَ؟".

وهزّ ياستراو رأسه ثانية إيجاباً.

"بلى، طبعاً، والأمر سِيَّان عندي تماماً، كله، كل شيء. إنه لم يعد حقيقياً، مثل الرجال الثلاثة السود. رأيتُ حقيقتهم، تبدّدوا، تبدّدت تلك الهلوسات الملعونة كلها. ما الذي يعنيني بهذا كله، إن كانت هناك امرأة مستلقية مقتولة على الأريكة أم لا؟! يعلق نظري جامداً في ذلك، ثمّ يتبدّد، ويصير أرففاً سوداً، ولوحة أل غريكو، وأُحدِّق ثانية بتركيز أكثر، فيتبدّد هذا أيضاً، الأرفف وأل غريكو، كل شيء".

نظرت إلسا إليه قلقة. ظنّت أنه قد جُنّ.

"اسمعْ، الأفضل لكَ أن تنام الآن، لترتاح قليلاً" قالتها، ووضعت يدها على جبهته "أنتَ محموم! أنتَ منفعل جدّاً، أنتَ مريض".

"لا، لا" قالَ، وهزّ رأسه. "دعيني فقط أجلس هنا، كي لا أرى النار".

"ولكنها انطفأت. الأفضل لكَ أن تستلقي على سريري، هيّا".

لا أطيق أن أُغلق عيني. إنها تحرقني. دعيني أجلس هنا، الجوّ بارد هنا، والمصباح مضيء، والألوان البيض، آه، لو تعرفين بين الحين والحين أشعر أني مجنون، دعيني فقط أجلس هنا، ألن تذهبي لتساعدي السَّيِّدة لوند؟ لم يعد هناك من خطر الآن، كما أظنّ".

"أرى من الأفضل لكَ أن تستلقي" أصرّت على رأيها، فتكسّر صوت ياستراو، وانفجر بالنحيب "لا، اتركيني، لا تلحّي عليّ، دماغي سينفجر، أريد أن أبقى جالساً قليلاً هنا، قليلاً، هنا وحدي و...".

"حسناً، سأذهب" أذعنتُ لطلبه، ولكنْ، بخيبة خفيفة هازّة كتفَيْها، وذهبت.

كان هناك صوت طنين خافت، يُسمَع في البعيد. سمع عويل خراطيش سيّارة الحريق، وقد انطلقت من المكان. لمح الوقت ذاته قنّينة الكونياك، وبسرعة البرق، وبفعل غير متوقع قد فاجأ به نفسه ذاتها، قفز إلى القنّينة، وصبّ له كأساً ثانية.

كان في أقصى حالات انفعاله.

قفز قفزة واحدة إلى الباب. لم يكن هناك من أحد في المدخل. عاد إلى المطبخ ثانية.

أفرغ الكأس، ثمّ قفز إلى الباب ثانية. إنها نقلت الأثاث مع السَّيِّدة لوند. وقُبَّعته هناك، حيث المِشْجَب. تسلّل ليأخذها، وعاد إلى المطبخ ثانية، أمسك بقنّينة الكونياك، وراح إلى المدخل، فتح باب المدخل، من دون صوت، وأغلقه، من دون صوت. وبخطوات واسعة، كان ينزل السّلّم. القنّينة! القنّينة! دسّها في جيب السترة الداخلي، وضمّ جانبَي السترة إلى بعضهما.

نزل تحت تماماً، وفتح الباب إلى الشارع. كان هناك أناس متجمّعون على الرصيف، يُحدِّقون إلى الأعلى في النوافذ المدخّنة. ماكنة الإطفاء في طريقها إلى الانسحاب. لازال الوقت شبه معتم. تمكّن من التّسلّل بمحاذاة الجدار، والاختفاء عند الزاوية.

لقد تمكّن من الهرب، من دون أن يلحظه أحد.

ذلك الشروق الهادئ المضيء! لازالت المباني معتمة. الشوارع غارقة تقريباً بمياه مزرقّة اللون، وقد بدت الأبواب والنوافذ غائمة، وكأنها تحت الماء، وكأنها تموج بحياة غير مَرئية. في الأعلى، كانت السماء صافية. استيقظ الصباح هناك، ولم ينزل بعد إلى الأرض.

عبقَ حجر الطريق بعطر.

انطلق ياستراو في سيره. شعر بنفسه مثل ظلّ. كان يخّب مجهَداً في مشيه. لا يهمّ إلى أين. توقّف عند زاوية شارع، وضع القنّينة في فمه، وأخذ جرعة. عليه أن يفكّر. أن يكون وحيداً، ويفكّر. ستيفينسن، لقد قتلَها. لقد حدث ذاك. لقد حدث ما حدث. ولكن ذلك بشع. هل اعترتْهُ قشعريرة؟ ذلك بشع. هل خنقها ستيفينسن؟ يخنقها؟ لديه ذلك الشعور ببلعوم ليّن بين يَدَيْن؟ وذلك الجسد الأنثوي الحارّ وهو يرتخي ويرتخي، في البدء تكون مقاومة ورعب في النظرة، والفم مغلقاً، خالٍ من الصرخة، لأني سأُمسك بالبلعوم، أضغطه، والرأس يروح ويجيء ... وكيف؟ هل يزرقّ الوجه؟ هل تطلع العينان خارج المحجَرَيْن؟ يزحف اللسان خارج الفم؟ كيف؟.

وقف ياستراو ساكناً في ذلك الشارع المقفر، غارقاً بتعابير وجهه المخيفة، وكأنه مصاب بمرض داء الرقص.

ولكن ستيفينسن قد قتلها. هذا الحيوان! الحيوان! عيناه! ذلك اللمعان الخطير للزجاج في عينَيْه. تلك الجبهة غير الطبيعية. أسنان المجرمين، كثيرة بعددها وصغيرة رفيعة بحجمها. الوجه الشاحب المتعرّق الشرس والشفاه البارزة القاسية. ولكنْ، آنا ماريا؟ كيف كان وجهها؟ لا يمكنه تذكّر وجهها. كيف؟

أغمض ياستراو عينَيْه، فاشتعلت بالأحمر.

حريق! نعم، بيته، الأثاث. لم يبقَ من شيء! ذكريات! آه، دع ذلك كله يحترق أو قمْ برشّه مثل أوراق الورد الجوري. لا فرق. اللهيب وأوراق الجوري. كان ممرّ الفيستربرو مفتوحاً وضاوياً ونصب تمثال الحُرّيّة من الغرانيت بألوان الجوري. في لحظات معيّنة أحياناً وتحت إضاءة معيّنة كانت هناك وردات جورية في الحجر. لهيب وأوراق ورد جوري. لا فرق. هل للجثّة خدود وردية؟ الجثّة؟ آنا ماريا؟ لا، لم تمت. بالطبع، لم يقتلها ستيفينسن. ذلك من المستحيل، طالما كان لون نصب الحُرّيّة من لون الجوري.

قرّر أن يستدير، لا يريد أن يدخل ساحة البلدية التي تلوّنت برقّة جاذبية، بدرجات اللون البُنّيّ المحمرّ. لِمَ لمْ تحترق؟ ساحة البلدية بأكملها! يجب أن تلتهم النار الذكريات كلها. كان يودّ الاستدارة والتّوجّه بمحاذاة تيفولي، ومنها إلى الجسر الطويل، وجزيرة أمار. أطراف المدينة بأشجارها الخضر ستجعله يبرد، وهو بحاجة إلى التفكير ببرود. كانت شَفَتَاه ساخنَتَيْن مُتورِّمَتَيْن. لم يكن لديه تبغ، ولكنْ، لديه كونياك.

وقف ساكناً في ساحةٍ، وضع القنّينة على فمه، ومال بعنقه إلى الوراء. وحيداً في رصيف طويل طويل. بلاطات لا نهاية لها. سلّم سماوي قد انهار.

الصباح انبلج أبيض مثل انعكاس طباشير أبيض.

ولكنْ، بلى! لقد قتل ستيفينسن آنا ماريا. لقد ارتُكِبَتْ جريمة. قلبه يُحدِّثه بذلك. لقد حدث شيء مُروّع كارثي. مُروّع وكارثي. وأخيراً أخيراً قد حدث! حمداً لله. ولكنْ، لماذا؟ لماذا حمداً لله؟ كان ياستراو يسير وهو غاضب، وكأنه في مسيرة. ذلك مريع. شيء حيواني. أن تقتل إنساناً! تخيّل ذلك! حياة، موت. في ثانية أنتَ حَيّ، وفي ثانية أخرى، ميّت. ولقد حصل ذلك في بيته، بين قِطَع أثاثه الذي يعرفه. الأثاث الذي كان من خشب البلّوط، الغرامافون، ضبّة عِيْدان الرّزّ. قد رآها أولوف. لقد رآها. الصّبيّ. تلك القامات التي كانت تتقلّب من حوله. يد ستيفينسن المصفرّة الفظّة، وآنا ماريا من دون ذقن. ها هو يتذكّرها، لم يكن لديها ذقن. لِمَ لم يقبّلها على ذلك الذقن الصغير الذي كان يبوح بعجزها؟ لقد تمّ ارتكاب جريمة بحقّ طفل. العون! العون!

يجب أن يقدّم بلاغاً للشرطة.

تمّ ارتكاب جريمة حريق مُتعمّد. لا، حريق مُتعمّد، من أجل ارتكاب جريمة قتل.

ولكنْ، هل قتلها ستيفينسن حقّاً؟ ألم يكن ذلك من وحي الخيال؟ ولكن الجريمة ارتُكِبَتْ. هو يعرف ذلك الشيطان ستيفينسن. ألم يخطّط لذلك؟ راح مُتربّصاً يراقبها، وتنبّه إلى حقيقة حمقها حين تستلقي وتدخّن على الأريكة، وكيف ترمي بأعقاب السجائر المشتعلة أرضاً. والجريمة، تلك كانت أبدية الروح؟ لقد قتلها ستيفينسن.

وإلا فلا معنى لكل شيء.

هبَّ عليه النسيم العليل من شاطئ الكالفابود. ولكنْ، ما هذه الكرة الحديدية المشوكة، هل هذه نجمة الصبح(*)؟ بناية رصاصية صلبة مُزيّنةٌ باثنَتَينْ من نجمة الصبح .. رصيف عريض مثل ساحة.

جدار من الغرانيت.

نحّى أكثر وأكثر عنه. تلك البناية، محض بلوك حجري، شيء فظّ. إنها المركز الرئيس للشرطة. حاول أن يأخذ نَفَساً. سيذهب إلى ضابط ما في الشرطة، ليقول له "اعتقلني"، لا لا، ليس اعتقلْني، سيقول لقد تمّ ارتكاب جريمة، حريق مُتعمّد ... هناك جريمة قتل في شارع استيدغيذه ... باعتقادي.

تمشى باتّجاهه شرطي، له شارب مُعتدّ بنفسه. عليه الآن أن يفعل، أن يفعلها! حدَّق الشرطي به.

"صباح الخير" قال ياستراو، وتقدّم تجاهه بخطوة متردّدة.

جريمة حريق مُتعمّد وقتل! لا، لا تُسمّى هكذا. اسمها جريمة حريق مُتعمّد وقتل.

"صباح الخير" صوت صباحي مبحوح.

"يا له من مركز ضخم!" قال ياستراو فجأة.

"حذار أن تتعرّف عليها بشكل أفضل" قالها الشرطي بطريقة نافرة سلطوية.

اعتدل ياستراو في سيره مُمتعِضاً، وعَبَرَهُ.

مزعج! مُتعال! مشورب! صوت مبحوح! عليهم إذاً أن يبحثوا بأنفسهم، فالذنب لم يكن ذنبه. عليهم أن يجدوا بأنفسهم حريقهم البشع. وليس من داع لمساعدتهم، فهذه تزيدهم تعالياً.

---

*) سلاح يدوي استُخدم في القرون الوسطى. يتكوّن من كرة صلدة بأشواك حديدية بارزة مثبّتة بمقبض طويل أو سلسلة حديدية للتّحكّم بها.

ولم يكن هناك من داع للبلاغ. مَنْ هو هذا الياستراو، لكي يجرؤ ويُبلّغ عن قاتل؟ جريمة؟ لم يعرف ما يعني جريمة؟ هل له الحقّ أخلاقياً، لكي يُبلّغ عن جريمة؟ هل بلّغ عن جريمة؟ لا، لم يُبلّغ عن جريمة.

إنها مهمّة المجتمع، وليست مهمّته، لأن الدولة ليست أنا.

هبّ نسيم عليل على جسر لانكبرو. لأني لستُ الدولة. صار بمحاذاة خندق مليء بالماء لمع مثل صفيح، ساتر ترابي قديم بأشجار خضر، وأبعد قليلاً، كان هناك ساتر آخر أجمل مسوّر مثل متنزّه. كان يرغب بالصعود على الجزء الآيل للسقوط، ليختفي تحت أشجار هرمة، بعيداً عن المجتمع. إنه لا ينتمي إلى المجتمع الراقي المخملي. كانت مساحات كبيرة من الحشيش ذابلة مُداسة، حفرت أخاديد وممرّات في السواتر حتّى صارت تشبه حوتاً هزيلاً، برزت أضلاعه. وفي محاذاة النهر، كان هناك درب اللصوص. لا يُبلّغ أحد عن الجرائم. لا يفعل المرء غير الاستلقاء هنا، وإفراغ قنّينة الكونياك.

كم عبقت السماء! وكم عبق الماء! وتحرّكت الطيور بين الأشجار. لقد وجد له بقعة حشيش وشجرة مالت صوب الخندق. كانت شجرة تصلح للاستراحة. بإمكانه الآن الاستلقاء وتأمّل السماء الزرقاء الشاحبة. هناك بضع غيوم متحرّكة قاتمة، وتحت الغيوم، هبّت تيّارات هواء باردة. ومتشرّد لا بيت لديه. ملجأ للمتشرّدين. من الممكن أن تنحو الأمور هذا المنحى.

سرت رعدة باردة في جسده. فردٌ ملوّثة ثيابه بالتراب والحشيش الذابل. فردٌ في الطبيعة، و... طير مسلسل على شجرة! ولقد عرف ذلك مُسبّقاً. شرعت الطيور تغنّي. أغمض عينَيْه، أطبقهما تماماً. وكأنه سمع صوت سِلك من النحاس يسوط في الهواء! طير ما بدأ من على شجرة معيّنة. "وها نحن ننهض" الطيور لها عادات طيور، تنتشر السقسقات بين أوراق الشجر حتّى تصبح غير مُحتمَلَة.

ولم يعد هناك المزيد من الكونياك.

استيقظ بقشعريرة في جسمه، وخفقان في قلبه. رأى فوق رأسه غصناً. وسمع صوت التِّرام بعيداً. سماء،أشجار، تراب، مياه. كان التِّرام يسير في الجهة الأخرى من الخندق. لقد نام في درب اللصوص في ساتر كريستيانس هاون!

نزل ببطء إلى الماء، شَطَفَ يَدَيْه ووجهه، وجفّفه بمنديله. كان مُقرفاً أن يستخدم منديلاً قذراً طوال اليوم. ترطّب جيبه. مدّد جسده، وتمطّط. ما الذي حدث؟ لِمَ كان إنساناً آخر مختلفاً؟

هل طرأ تغيير على ذاته؟ آه، لقد ... كلا، آنا ماريا. اعتصر قلبه. لا لا. القلب واقع في قبضةِ يدٍ وحشية، القبضة تعصره مثلما تعصر الإسفنجة. آه، لا، لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. إنه هو مَن جُنّ. لو كان لديه نقود أو تبغ. لا ولا حتّى فلساً واحداً. لو مُجرّد فلس واحد لشراء سيجارة. لا، رأى قنّينة الكونياك على الأرض. وضعها أمام الضوء. بلى، كان شيء يلمع بداخلها.

القطرة الأخيرة من الكونياك غطّت لسانه كله.

لحظة. ضغطت قبضة اليد على القلب ثانية. لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. ولكنه كان واقفاً خلف الستارة، خلف الستائر المُسدَلَة، ولقد رأى أن كل شيء ممكن أن يحصل في الحياة. احترق البيت. ودّع تلك الأشياء كلها التي كان في يوم ما يحبّها جدّاً. حريق! ولكن ستيفينسن ...

لم يستطع ياستراو أن يبقى في مكانه. كان حزيناً جدّاً. ولم يتمكّن كذلك من السير براحة. لو كان لديه نقود، لكان استقل تاكسياً. عليه التّحدّث مع حارس العمارة. لِمَ لمْ يفكّر بذلك ليلة الحريق؟ ولكنْ، هل بالإمكان أن يتحدّث معه، من دون أن يكون مَدعاة سخرية من قبله؟ ماذا لو كان كل هذا جنوناً وكذبة وخيالاً؟ هل يدخل شارع إستيدغيذه، ولكنْ، ليس لديه نقود، ليدخل ويشتري ويتمكّن بذلك من سؤال أحدهم، وكأن الشيء مصادفة، و... لا، سيضحكون عليه!

مشى متقطّع الأنفاس عبر الفيستربوليفارد، وجسر تيتين، وبعدها سار خلف المحطّة الرئيسة إلى شارع استيدغيذه.

حينها شاهد امرأة ترتدي بدلة بُنّيّة، تخرج من المخبز حاملة بيدها خبزاً ملفوفاً بالورق. يلتفّ حول أعلى جذعها العريض حزام أسود.

"آنا ماريا" صرخ وركض نحوها.

استدارت صوبه.

برَكَ باللحظة على ركبَتَيْه أمامها، وحضن ركبَتَيْها.

"آه، الحمد لله" قالها مُتألّماً.

كان هناك عربة لبيع البيرة إلى جانبهم. سائسٌ يجرّ صندوق بيرة، وضعه على الرصيف مُتفاجِئاً حتّى صَلْصَلَت القناني، وراح يضحك.

حاولت آنا ماريا أن تتملّص من قبضته "حضرتكَ مجنون، سيِّد ياستراو، ما الذي سيظنّه الناس؟".

سقطت قطعة المعجّنات من الورق الملفوفة به.

نهض ياستراو بسرعة، وحدّق بها بنظرات عينَيْه الهائمة التي لمعت بالدموع.

"لا يهمّ، يا آنا ماريا، سأذهب".

"ولكنْ، هل تعرف أن ...؟".

كان ياستراو قد تركها، وأكمل سيره في الشارع، بينما كانت آنا ماريا تتبعه بنظراتها. كانت ملابسه متغضّنة، ياقته وسخة، ثنية قُبَّعته مغطّاة بالتراب.

"تفضّلي، آنسة" قال سائس عربة البيرة الذي جمع لها المعجّنات من على الأرض، وقدّمها بأدب.

لم تجرؤ على النظر إليه. شعرت بأنه كان يهزّ رأسه تعبيراً عن هرئه، ولقد سمعته يقول بصوت خفيض.

"مسطول".

ثمّ ركضت إلى داخل البوّابة، وانفجرت بالبكاء.

الفصل الثامن

ظلّ ياستراو مستلقٍ لساعات عديدة، يُحدِّق بالورود الصغيرة لورق الجدران، وينصت إلى المطر الذي كان يرشق فناء الفندق الخلفي. كان يدور بين الحين والحين، لينظر إلى القطرات التي تسيل في أخاديد طويلة على الزجاج، بالبطء ذاته الذي تدور به الأفكار في رأسه.

لا يريد النهوض وارتداء ثيابه. ما الذي سيقوله لموظّف الاستقبال؟ إنه لا يملك نقوداً؟ إنها عملية نصب، أن تدخل وتطلب غرفة، من دون أن يكون عندكَ نقود، ألا يكون لديكَ ولا فلسٌ واحدٌ في جيبكَ، وتحجز غرفة! ذلك ما فعله الساعة الثامنة صباحاً. ولكن كل شيء فيه نصب، طالما لا تملك نقوداً. حتّى هذه، غرفة الفندق الحقيرة الصغيرة ليس له الحقّ فيها.

كان جائعاً. هزلت بطنه. هناك الكثير الذي يفكّر به. تجمع كل ما في رأسه من أفكار في قوس قزح واحد كبير. كان جائعاً. ولكنه لم يستطع أن يتغلّب على نفسه، ويفعلها، أن ينزل إلى الاستقبال، ويتحدّث مع موظّف الاستقبال، هذا الذي يُمسِّد لحيته بيده بوقار، كيف سيطلب من الاستقبال أن يأتيه بأحد النُّدُل إلى بهو الفندق؟ لأنه لا يرغب بالتّحدّث مع أحد منهم في المطعم. وبهذا، سيتّفق معهم، حول الأكل بالدَّيْن. ولكنْ، لا، سيكون ذلك مُقرِفاً، نظرات النُّدُل الشّكّاكة تلك، لا، لن يستطيع أن يحمل نفسه على فعلها.

رشقُ المطر العنيف لازال مستمرّاً، غشاءٌ ثقيل قاتم على الزجاج، وبالرتابة المعتمة الكئيبة ذاتها غطّتْهُ تلك الأفكار. كان سِكّيراً. لذا فعليه أن يقنط! عليه أن يقنط! ولكن المطر يرشق ويرشق، والإيقاع الرتيب يجعله يشعر بعجزه تماماً، لاطاقة لديه لرفع يَدَيْه. كان تكراراً وتكراراً. إنه الجحيم. كان يُحلِّق على السرير وسط ذلك الجحيم المعتم. يهبط الجحيم عليه أيضاً بحركة مستمرّة، لا تنتهي، مثل المطر، ستارة ذات خطوط رمادية مائلة وعَتَمَة صلدة.

ماتراها الساعة الآن؟ سمع قبل قليل ساعة ساحة البلدية تدقّ دقّة النصف ساعة، ولكنْ، أيّة ساعة؟ هل يمدّ يده إلى جيب صديريه المُلقى عل ظَهْر الكرسي، ليلتقط ساعة جيبه؟ هل ينهض؟ ووقف مرّة واحدة.

سمع صوت ارتطام شيء ثقيل ببابه، شيء يسحل ويتقلّب في الممرّ، ضجيجٌ بدا مُزعِجاً بربكته، وانبعثت أصوات أكثر رعباً في ظلّ هذا المطر الأبدي وتلك العَتَمَة الأبدية. أصوات خطوات ثقيلة مترنّحة وعصا تتعكّز، وتطرق الأرضية، وتطلق في كل مرّة ضربة مفرقعة، وكأن طرفها سينفجر، ومن ثمّ، تأتي بضع خطوات صغيرة سريعة، متعثّرة تحاول عبثاً أن تضبط مسار الخطوات الثقيلة. وغلب الانطباع لديه بالشؤم لتلك التأوّهات الغاضبة. كان ذلك موكب المعاق هو الذي مرّ خارج غرفته في الممرّ.

إذاً، فالساعة الآن هي الرابعة والنصف.

سمع ياستراو الباب وهو يفتح في الغرفة المجاورة. جرّ كيير الخالد نَفَساً لروح معذّبة مكروبة. ثمّ سمع جسم كيير الخالد وهو يقلب ببطء على السرير والنُّدُل الذين يكتمون ضحكات، وهم ينضون عنه ملابسه.

الساعة الرابعة والنصف.

المطر يصبّ بكثافة أشدّ قتامة ونحساً. تتقلّب ظلال مشؤومة في المدخل، أم تراها مستلقية تحت سقوف قبيحة، تجعل القلب يخفق بشدّة! وأحدهم يشعر بالجوع. ياستراو جائع.

آه، ألا يمكنه الانتظار بضع ساعات؟ يسمع مزاريب المطر، منافذ التهوية والمجاري في الخارج. ألا يمكنه النوم ليستيقظ صباح الغد؟ ولعلّ الجوّ يكون صحواً غداً، وحين تكون السماء صافية، يستيقظ الأمل مثل أُغنيّة فناء، تغمره أشعّة الشمس. لربّما تمكّن في الغد من تدبّر أمر وجبة غداء. هكذا سيكون أفضل. لن يكون هناك أحد ما قبل الظهيرة في المطعم، ولذا سيكون أمر التفاوض مع النُّدُل أسهل عليه.

بيته احترق.

اعتدل في جلسته، وكأن ذِكْر الحريق أشعله. البيت قد احترق. لم يقل ولا كلمة لموظّف الاستقبال حين حجز في الصباح الغرفة، والموظّف ظنّ أنه كان سهراناً طوال الليل. بيته احترق. يمكن قول شيء بخصوص ذلك، وبوليصة التأمين التي أهداها إلى لوندبوم. ولكنها تعود لزوجته.

وماذا في هذا، ...؟، ألا يمكن التحايل على ذلك، لكي يحصل على مهلة ... استراحة لبضعة أيّام؟.

هناك مَنْ يطرق الباب.

هل يدَّعي النوم؟ مَنْ عساه يكون؟ ومهما كان الشخص الذي يطرق، فسيكون في ذلك، ولا شكَّ، إزعاج. وفجأة انفتح الباب. لقد نسي أن يُقفله. وها هو أوتو كرويه يقف أمامه.

"يا إلهي!" قالها حين رأى ياستراو على السرير.

"ما الذي تريده؟" قالها ياستراو حانقاً.

"أن أُرسلكَ إلى برلين، يا عزيزي، وبالحال" وهزَ رأسه يأساً وهو ينضو عنه معطفه المطري المبلّل، ويضعه على الأريكة الصغيرة، والقُبَّعة المبلّلة على الطاولة. "قرأتُ في الجريدة عن شقَّتكَ التي احترقت. ما الخبر؟ هل هي مُؤَمَّنة؟

جلس ياستراو على السرير، يتابعه بنظرات تهكّميّة. كانت حركات يَدَي كرويه اليقينية مضحكة، وروح المساعدة الرائعة لديه غير محتملة. هل كرويه إنسان محترم؟ هه هه. إنه ديّوث. وهو محترم أيضاً، لهذا ينتقم بهذه الطريقة.

"سألتُكَ فيما لو كان لديكَ تأمين؟".

"لقد أهديتُهُ إلى لوندبوم" قال ياستراو بابتسامة متعرّقة صغيرة، ظلّت عالقة من دون معنى على الوجه التعيس المنهَك، وبدت عليه لمحة من جنون.

"هل كانت مجدّدة؟" سأله كرويه مُواصِلاً.

"طبعاً، هل تظنّ أن هداياي بلا قيمة؟" قالها باستخفاف.

نظر إليه كرويه. الوجه الوارم، العينان المغلقتان، مظهره المتهتّك المهمل، وفي الوقت نفسه، عناده وتلك الابتسامة المتعالية، ذلك كله كان مَدعاة لقلقه. كان ياستراو جالساً على السرير، وبقميصه المجعّد وشَعْره الأشعث المتلبّد يبوحان عن فوضاه الداخلية، بدا حيواناً أكثر منه إنساناً.

"حسناً. سأحصل على تلك البوليصة" قال كرويه.

"وبعدها؟" أجاب ياستراو ساخراً، وقد بدا رجلاً غير قادر على تدبّر أمره.

"ولكنْ، لِمَ لمْ تسافر، يا رجل؟" وتناول كرويه كرسياً، وجلس واضعاً ساقاً على ساق.

"الحظّ، ولما عرفتَ مكان البوليصة أيضاً!".

صرّ كرويه عينَيْه، وتغاضى عن تعليق ياستراو للمناكفة. كان مؤلماً ومتناقضاً درجة أن كرويه لم يشأ الاعتراف به. إن استسلم لمزاح هذا الوجه المنغولي الذي سطع بشكل مخيف في عَتَمَة هذا اليوم الماطر، سيركب ياستراو رأسه، ويصير عنيداً، كتلة لا يمكن تحريكها، رسول مجنون يجلس على طرف السرير الرطب، وقد تجمّع اللحاف عند ركبَتَيْه.

"قل لي هل بدّدتَ نقودكَ على الخمر؟ لأن البروفيسور غيبرهاردت بانتظارك، هل تفهم؟ وأنا لا أريد أن أخذله إطلاقاً".

لم يجبه ياستراو. نظر بعينَيْن شاحبَتَيْن أمامه عبر الظلمة، وفجأة بدأ بصوت بعيد يُدندن

ولهيب الجريمة يشتعل

أزرق مثل غاز يذوي

"ماذا قلتَ؟" وهزّ كرويه رأسه مُنزعِجاً.

"أجل، من الممكن أن يكون الأمر تافهاً. وقد تكون على حقّ" كلمات غير متوقّعة، قالها بوهن.

"اسمعني، نحن نتحدّث عن حقائق" قاطعه كرويه بشكل فظّ. "هلا ركّزنا على ذلك؟".

"يا ليت" وانحنى ياستراو انحناءة مهذّبة في سريره، ورسم ابتسامة خادم على وجهه "حسناً، لنركّز على الحقائق، ليس لديّ نقود لدفع إيجار الغرفة هذه، لذا بالإمكان الآن تسديد تهمة الاحتيال على الفندق".

صوته تحوّل حينها قوياً وقريباً.

"أنتَ مجنون" قاطعه كرويه.

"ربّما" وضحك ياستراو "ولكني جائع".

"ليس لديكَ نقود؟ أينها؟ ولكنْ، لديك البطاقة، أليس كذلك؟ أنتَ دخلتَ مكتب السفريات، لتبتاعها".

"نعم، لقد دخلتُ، هذا صحيح" أجابه ياستراو، وهو يرفع سبّابته بتهكّم "ولكن هذا لا يعني أني اشتريتُ البطاقة، لقد دخلتُ مكتب السفريات، وبعدها خرجتُ منه".

"وماذا عن المئة كرون؟".

"إنها لا تدوم إلى الأبد، فالمرء بحاجة إلى نساء وكحول وغيره من ترف".

تمايل ياستراو بجذعه للأمام والوراء، وأغمض عينَيْه نشواناً بمزحه.

"أوف، أنتَ رجل، لا رجاء منه".

لم يجبْهُ ياستراو، وواصل تمايله، حركة واحدة متواصلة، مثل مريض مخبول، وقد أُصيب بعدوى إيقاع رشق المطر على إسمنت الفناء الخلفي.

"لا لا، لا يمكنني احتمال ذلك" صاح كرويه متضايقاً، وقفز من مكانه. "انهضْ، لترتد ثيابكَ الآن، لنذهب ونأكل أوّلاً، فلربّما استعدتَ رشدكَ. وهذه، بالمناسبة، رسالة لكَ، كانت تحت في الاستقبال".

ورمى بالرسالة على السرير.

"اقرأ الرسالة التي أرجو ألا تُبعدكَ عن الاتّفاق، وارتدِ ثيابكَ، وانزل تحت إلى المطعم، سأكون بانتظاركَ. سأُكلّم لوندبوم خلالها بشأن البوليصة".

أصدر كرويه أوامره، واضحة محدّدة حانقاً على ياستراو وهدهدة الكآبة تلك ولحسن الحظّ، فقد توقّف عن تلك الحركة التي لا تُطاق. كان للرسالة تأثير. تناول كرويه معطفه المطري على ذراعه، بينما سرح ياستراو بعيداً، وهو يُومِئ ويُحدِّق بالرسالة. كان خطّ اليد المكتوب على المظروف كبيراً وضعيفاً.

"اتّفقنا؟" سأله كرويه.

"أومأ له ياستراو ثانية إيجاباً، وفتح الرسالة. كانت قصيرة جدًّاً.

عزيزي ياستراو.

سمعتُ أن شقّتكَ احترقت. لم أكن هناك منذ ثلاثة أيّام. أي ليس أنا الذي أشعل النار فيها. يجب أن تعرف ذلك.

الأب غارهامر يهديكَ السلام.

ستيفان ستيفاني

"آه، هل لديكَ سيجارة؟" صاح ياستراو قبل أن يغادر كرويه الغرفة.

وطارت إليه علبة سجائر من الباب.

"هل أثارت الرسالة أعصابكَ؟".

"كلا" أجابه ياستراو وهو يحاول أن يُخرج له سيجارة من العلبة.

"الحمد لله" وانغلق الباب.

وقف ياستراو، وأشعل سيجارة له، سحب نَفَساً من النيكوتين، وفرش رسالة ستيفينسن على السرير، وقرأها ثانية. ستيفان ستيفاني؟ يا للجحيم! لِمَ كتبَ اسم أبيه ستيفاني؟ ما الذي حدث؟ آه، لا يمكن التفكير، وهو لا يرتدي غير القميص! لماذا استرجع الاسم الذي يكرهه من جديد؟ مدّ ياستراو يده، وتناول بنطلونه وجواربه. كان هناك ثقب في إصبع القَدَم الكبير. ملابسه كلها في شارع استدغيذه قد احترقت، ... والكُتُب! جزء من مبلغ التعويض يجب أن يذهب إليه. وبذلك فهو ليس نصّاباً محتال فنادق. وهو لن يتمكّن من السفر إلى برلين قبل أن تنتهي قضية التأمين.

ولكن ستيفاني! التوقيع كان باسم ستيفان ستيفاني. هه! وما قصّة تلك التَّحيَّة من الأب غارهامر؟ الأب غارهامر يهديكَ التَّحيَّة. لا يعرف ستيفينسن الأب غارهامر، فكيف حصل هذا "يهديك التَّحيَّة!"؟ وكأن الأب غارهامر كان جالساً على الطاولة مقابله، بينما كان يكتب ستيفينسن رسالته. ماذا يعني هذا؟ الأمر يحتاج إلى توضيح. جزمته كانت قذرة، تراب ساتر كريستيانسهاون. عليه أن يتّصل بالخادم ليأتي ويمسحها، وهو بحاجة أيضاً إلى فرشاة لتنظيف ثيابه. هو ليس محتال فنادق. لا بدّ وأن يستلم بعض النقود من التأمين، لذا اتّصل، وجاءتْهُ الفرشاة.

كان ظَهْر سترته وسخاً جدًّا! ستيفان! ستيفان! ستيفاني! كان عليه أن يزرع هذَيْن الكوعَيْن في الأرض لشدّة وسخهما. ولكنْ، ستيفاني! لماذا ستيفاني؟ والقُبَّعة! ثنية الإطار المحشوّة بالتراب. والأب غارهامر، ... الأب، ... غارهامر!

رمى ياستراو فجأة القُبَّعة والفرشاة على الجدار. لن يستيقظ كيير الخالد في نومته العميقة. و... بالطبع! لِمَ لم يفكّر بها من قبل، ستيفينسن كان يودّ أن يعتنق الكاثوليكية في تلك اللحظة. ياه! نعم، كان يبغي العثور هو الآخر على أبديّته. طريق لا بدّ منه!

Sub specie aerterni(*)

بلى، بالطبع. لقد أظهر حوارهما في تلك الليلة المجنونة الأخيرة وجه ستيفينسن حين كانا

*) من منظار الأبدية (لاتينية)

معاً. ما الذي يخفيه ذلك القناع الجامد الحاسم الذي وضعه على وجهه غير ذلك؟ بالطبع، اعتناق دين وهداية! وتلك خصلة كاثوليكية بحتة بالفعل. ابن المعروف ستيفاني، وهم بحاجة إلى ستيفينسن تحت هذا الاسم، نعم نعم، تحت اسم الأب المعروف. بروباغندا. تحيا الدعايات الدِّينية المقدّسة!

أواه! دسّ ياستراو رأسه في طست الماء، عطس وتمخّط. شعر بالراحة لاغتساله.

من الطبيعي أن يقفز ستيفينسن، ويدخل الكاثوليكية. إنه المنطق. التكرار الأبدي. بإمكانه الآن أن يُرضي غروره المجروح بفكرة الأبدية، أن يُبرّده مثلما برّد ياستراو رأسه في طست الماء. غطّ في الأبدية، وطرطش!

Sub specie aerterni

من منظور الأبدية، فإمّا لا أحد تافه أو الكل تافهون. ها هو ستيفينسن قد وجد له بيتاً.

رفرف ياستراو بالمنشفة، بينما كان يهمّ بالتنشيف. هذا الدِّين يناسب ستيفينسن، إلى حدّ كبير، مطلقاً ولا يقبل النقاش. الدِّين! جلس ياستراو على السرير، وهو يضحك بصوت عالٍ وحيداً في غرفة الفندق البائسة.

ها قد صار لستيفينسن موقف الآن. الآن سيحتاج إلى قبضة يده، سيستخدمها لِيَلكم. هل هو شبابه؟

الوصول بالأشياء إلى أقصاها ... أرثودوكس! لا تحرّكه العاطفة.

وغروره الذي لا حدّ له!

ماذا عن ياستراو نفسه؟ لا لا، هو ليس الشباب عينه. هو بعمر الخامسة والثلاثين. له بطن تبرز إلى الأمام حين يرتدي القميص والبنطلون. وهناك ما يشبه بقعةِ صلعاء في الخلف من رأسه. وبداخله هذه الكتلة غير المتجانسة كمنت الروح.

الروح! الروح! الروح! حدّق في المرآة، واكتشف أن لخَدَّيْه لوناً غامقاً، وأن شَعْر ذقنه قد طال. بلى، هو يعرف هذا الوجه. إيكيه هومو!

هو ذا الإنسان! ولكنْ، ألم تكن تلك كذبة في أنه قد سعى إلى الجانب الروحي؟ هو ذو الوجه المنغولي؟ أبدية الروح وجبروتها!

وعلى أيّة حال، فما الذي انتهينا إليه؟

زواج مدمّر ووظيفة مدمّرة. هذا ما وصله. عراك وزجاج مكسّر. تغرير دنيء ومروق.

Ecce Homo

هل هو ذا الإنسان؟ والويسكي، الويسكي، الويسكي!

أحنّ إلى حطام سفينة
وإلى هَدْمٍ وموتٍ مُفاجِئ

شِعْر ستيفينسن في تلك الفترة من الماضي، البعيد، البعيد.

أخذ ياستراو نَفَسَاً عميقاً. بضع كلمات منظومة، أعادت له شيئاً من الراحة، وحرّرتْهُ. بإمكانه أخيراً أن ينزل إلى المطعم.

سلّم المفتاح بالطبع في صالة الاستقبال.

"يبدو أنكَ تعرّضتَ لحريق، سيِّد ياستراو؟".

"دعنا من الحديث عن هذا. ولكن التأمين سـ..." وابتسم ابتسامة عريضة مطمئنة، جعلت النادل ينحني.

كان المطعم مزدحماً بالزبائن رغم أنه كان صيفاً. لقد جرفهم المطر إلى الداخل. وقد تمّ إيقاد المصابيح الكهربائية بوقت مبكّر أيضاً، لطرد ظلال الأجواء المطرية. وصوت البيانو والكمان يعلوان على صوت رشق المطر.

جلس كرويه يتفحّص بوليصة التأمين عند الزاوية المُطلّة على فناء الفندق الخلفي، على الطاولة التي اعتاد ياستراو أن يجلس عندها.

"يظهر أن لوندبوم قد احتفظ بالبوليصة كما أرى" ضحك ياستراو.

نظر إليه كرويه، وعقد حاجبَيْه.

"يبدو أنكَ قد تحدّرت إلى طبقة اجتماعية أدنى!".

"أعرف، الياقة، الياقة" قالها ياستراو بعصبية، وجلس. "أعرف أنها قذرة جدًّاً، ولكنْ، أنتَ تدري، كل شيء احترق، ملابسي كلها".

أوقف كرويه نادلاً، وطلب منه لائحة الأطعمة. ثمّ قال؛ "سنأكل الآن، وبعدها، بعدها نجد حلاً لكل هذا البلوى البابلية".

"أنا مضطرّ أن أبقى في المدينة هنا، إلى أن ننهي مسألة التأمين ....".

"لحظة، لا تفكّر هكذا" قال كرويه وقد أظهر أسنانه، "لا، ستذهب إلى برلين، لتعمل سكرتيراً، وتدخل عالم المال والاقتصاد، وباختصار تدخل الواقع، هذا هو الأفضل".

لم يشأ ياستراو أن يبتسم. كان من الأسهل أن يكون مُتعالياً على رجل لديه ذانيك الارتفاعَيْن في جبهته، جذرا القرنَيْن. ولكن هذا الرجل تحدّث عن واقع. لماذا الاستسلام لهذا التعالي الرخيص؟

تمّ تقديم اللحمة المشوية، وصُبّ السنابس. حدّق ياستراو في جبهة كرويه، حدّق ببله، ليوقف فكرة خبيثة في رأسه. شعَر بمساس الحاجة، ليوجّه سؤاله أخيراً، كي يتنفّس؛ "لماذا أنتَ مهتمّ هكذا بشأن مساعدتي؟".

صوّب كرويه نظرة عينَيْه الغامقَتَيْن نحوه، وابتسم بشَفَتَيْه العريضَتَيْن، ابتسامة متفكّهة ساطعة وطيّبة، وقال؛ "صدقاً، لأن زوجتي معجبة بكَ".

كاد ياستراو أن يختنق بشرابه الذي حرقه، وجعله يتعرّق. شَعَرَ بلهب أحمر يعلو وجهه بينما كان يسعل.

"على مهلكَ مع هذا الشراب الغالي" وضحك كرويه.

وعندما هدأ ياستراو أخيراً، والدموع مازالت في عينَيْه، واصل كرويه حديثه "سأقول لك سرّاً، زوجتي، ولسبب أو لآخر، لديها، ولسبب غبي أيضاً، ثقة بكَ، وهو ما أثّر بي بالطبع، كيف لي ألا أساعدكَ؟".

"هكذا!" دمدم ياستراو. لم يستطع النظر في عينَي كرويه.

وواصل كرويه "لأني لا أدري، لقد أعرتُكَ المئة كرون، ويبدو أني سأضطرّ إلى أن أعيركَ مئة أخرى، وعليكَ في الحقيقة الاعتراف في كونكَ البنك غير الموثوق به الذي سأضع نقودي فيه. ولكنْ، كما قلتُ، لويسه مؤمنة بكَ، وما الذي نعمله حيال هذه الثقة الجميلة، حيال ثقة الجمال؟ وهي، بالمناسبة، لن تستسلم قبل أن تراكَ وقد صرتَ في برلين. نعم، هي هكذا!".

ولوّح بيده بحركة أنيقة، ليُظهر استسلامه لحيرته أمام هذا اللغز.

"وأنا شخصياً قلق أيضاً بشأنكَ، وأظنّ أنكَ بعملكَ مع غيبرهاردت في الاقتصاد والمال لربّما تستعيد صوابكَ"،

"وبالمرّة ترى الواقع ...، وتصير من المحافظين" علّق ياستراو بتهكّم.

"أجل أجل" قالها كرويه مُتنهِّداً "وأكون قد أنقذتُ إنساناً من الضياع. بالمناسبة، هل تقرأ مقالاتي؟".

"لا، أنا أقشعرّ من التجارة والفكر المحافظ".

"تقشعرّ؟ يا إلهي!" قالها وهو يرفع يَدَيْه عالياً بيأس "هذا هو الرجل المعضلة الذي بودّي مساعدته، لا، لا، ولكن مذاق اللحمة هذه جيّد" قالها بنقلة مُفاجِئة بقصد التّهكّم.

"نعم، فأنتَ تؤمن بالحقائق والواقع" أجابه ياستراو بالنغمة ذاتها.

"بلى" وأخذ كرويه جرعة من السنابس بعدها.

استيقظت روح المناكفة في وميض نظرة ياستراو، وانحنى قريباً من كرويه، وقال وهو يسرّه "خطر ببالي أنكَ سألتَني مرّة عن أمّي".

نظر كرويه بقلق إليه مُحاوِلاً أن يتجاوز نغمته.

"بلى بلى، سألتُكَ" أجابه بشبه اعتذار "ولكنْ، ثِقْ، أقسم لم يكن ذلك من أجل أن أجرحكَ".

"كنتَ تريد أن تُثبت أني عاشق إيروتيكي بائس" استمرّ ياستراو بالحديث ببطء أكبر.

قال له كرويه بحركة يد مرتبكة "دعْنا ننسَ ذلك الآن".

"وكنتَ تريد أن تُثبت عقدة أوديب، أليس كذلك؟" تنهّد كرويه "بلى بلى، أنا نادم على ما قلتُهُ، وأؤكّد لكَ ذلك".

"لا، ليس هذا" قاله له ياستراو "لا، ولكنْ، هناك لغز عليكَ حلّه".

"هل تظنّ أننا في مدرسة؟" أجابه كرويه، وقد لمعت أسنانه.

ضحك ياستراو. "ولكنْ، اسمعني" قال له "يتمّ دفع رجل لتعلّم الاقتصاد والمال".

فقاطعه كرويه قائلاً "الشيء الوحيد الصح".

"أمّه ماتت ... وهو يعبدها ... وهو يعلم أنها كانت امرأة بروليتارية ... بمعنى الكلمة" بدا

الحماس والانفعال في صوت ياستراو. اختفى وميض المناكفة في نظرة عينَيْه التي بدت وكأنها في حالة تنويم مغناطيسي من حريق بعيد. اتّسعت حَدَقَتَا كرويه بعد أن عرف ما وراء كلمات ياستراو.

واصل ياستراو بصوت أليم "الاقتصاد والمال هو أمر فعلي تماماً، أليس كذلك؟ أم أنا غلطان؟ أليس ذلك أكثر موضوعية من الشِّعْر؟ لذا أودّ سؤالكَ" قالها وهو يُطلق ضحكة عالية "هذا الرجل هل سيصبح محافظاً أم شيوعياً؟".

"آمل، على الأقلّ، ألا يصبح من الراديكاليّينْ(*)" أجاب كرويه، ولوّح بيَدَيْه، ثمّ أفرغ الكأس في جوفه، وصبّ جديداً، وواصل "يا لها من عقدة حقيقية! ولكنْ، مع ذلك أودّ أن أجازف وأرسلكَ إلى البروفيسور يوليوس غيبرهاردت، وكما تدري أنا أيضاً أؤمن بكَ".

ورفع كتفَيْه "ولماذا أؤمن بكَ؟ لأن زوجتي تؤمن بكَ ... ولماذا تؤمن هي بكَ ...؟ بإمكانكَ القول لأن ذلك هو قمّة الغباء، ولذا لا محال، أنتَ مضطرّ إلى السفر".

"ولكنْ، ليس لديّ نقود".

"قلتُ لكَ سأعيركَ نقوداً للمرّة الثانية، بإمكانكَ القول إن ذلك قمّة الغباء".

"ولكنْ، لا مزاج لي للسفر الليلة، والتأمين ..." قالها بتراخٍ، فقاطعه كروية قائلاً "سنتحدّث عن التأمين بعد أن نتناول القهوة".

"ولكني، مع ذلك، لن أسافر هذا المساء" قالها بعناد واهن.

"أنتَ تعني" بامتعاض مصطنع "بأني سأجازف بمئة كرون من جديد، بسبب هذا المكان الخطير، بالإضافة إلى بار دس آرتيسبت؟" حدّق طويلاً بياستراو، ومسك فجأة بكأسه، يقظاً ساطعاً، وكما في المناسبات الكبرى متعجرفاً وأنيقاً "إن لم يكن هذا غباء في غباء، فلن تكون لويسه تلك المرأة والإنسانة الرائعة التي أعرفها، على العموم، نرفع نخبها، نخب لويسه".

تناول ياستراو كأسه، وقد بُوغتَ. غشي بصره بينما لمعت عينا كرويه. هل يعلم شيئاً؟ هل كان هذا سخرية منه؟ هل كان هذا الالتزام منه انتقاماً تهكّمياً؟ أم محاولة هادئة لإبعاده؟

---

*) الراديكالية هي حركة ليبرالية أوروبية، شملت تغيّرات ثقافية وسياسية يسارية بتوجّهاتها من الفترة 1820. وتأسّس خلالها حزب اتّحاد اليسار، ثلاثة من أعضائه الدنماركيّينْ كانوا قد قاموا بتأسيس جريدة البوليتيكن في حينها (1884). في العام 1905 انشقّ هذا الجناح من اتّحاد اليسار الأوروبي، ليؤسّس حزب اليسار الراديكالي الدنماركي، الذي تكرّرت الإشارة إليه من خلال مجريات الأحداث في الرواية.

لا بدّ من قول شيء. حملق ياستراو في جبهة كرويه، مَنْ كان الأقوى بينهما هذان الاثنان، الأيل أم المنغولي؟ ولكنْ، كان لا بدّ من قول شيء!

"نخب تلك القُوّة الدافعة الخفية".

"ونخبنا، لنبدأ العمل" قال كرويه ووضع مفكّرته على الطاولة، وفي غضون الساعات اللاحقة، وضعا قائمة بممتلكات ياستراو التي احترقت، والتي أدرجها كرويه على الورق.

بين الآونة والأخرى، كانا يرشفان شيئاً من الويسكي. ويا لها من طريقة راقية للانتقام! أشعل ياستراو سيجاراً جديداً. هل كان هذا انتقاماً، أن يساعده، ويُبعده؟

هل كانت حرباً بين الأيل والمنغولي؟

لم تكن حرباً. كان كرويه يعين ياستراو بهدوء على مغادرة كوبنهاجن. هذه هي الحرب بكُلّيّتها.

وهو يتذكّر الآن ليلة الانتخابات تلك حين جلسا في قسم التحرير عند عمود الأسماء، حين راح كرويه يتصيّد الأرواح المحافظة. ألم يفعل ذلك؟ كل إنسان هو مثل موشور، وما يشعّ بالخير يقتضي قياسه. بالإمكان قياس انكسار الضوء!

"يا إلهي، الساعة الآن الحادية عشرة!" صاح كرويه حين نظر إلى ساعته.

"عليّ الذهاب إلى الجريدة، ولكنْ، لا بأس، عندي الآن كل شيء، وسأُسلّم البوليصة مع القائمة إلى المحامي، ولديّ عنوانكَ في برلين، لا أظنّ ينقصنا شيء".

نهض من مكانه، ودسّ بعناية مفكّرته وبوليصة التأمين في جيبه الداخلي.

"ومع السلامة، إذاً. ولكنْ، هذه المرّة حقيقة ...."وعلت من جديد تلك الابتسامة على وجهه. رأى ياستراو في تلك اللحظة وجه هندي أحمر، رأى تلك الجبهة الضَّيِّقة، الأنف الحادّ والشَّعْر الأسود المزرق. ولم تكن الابتسامة صادقة تماماً. كانت إيروتيكية، وإشعاعها كان قاسياً.

"هاك القرض الجديد" ودفع إليه بورقة من فئة المئة كرون على مفرش الطاولة. "ولا تشكرني، أرجوكَ، وسلامي الحارّ إلى البروفيسور يوليوس".

نهض ياستراو بتثاقل من مكانه، ومدّ يده، ليصافحه.

"وداعاً" قالها بقُوّة.

"هل أُوصِلُ سلاماً منكَ إلى لويسه" ولمعت عينا كرويه السوداوان لثوان.

"أجل، سلّم".

"تذكّر، كما اتّفقنا، لا تُنفق النقود على الشرب".

لم يجبْه ياستراو. وقف وهو يعبث بالورقة النقدية. هل يعيدها إليه؟

"حين يدفع لي التأمين حقّي، سيكون بإمكانكَ سحب الوَرَقَتَيْن" قال له.

"صحيح، إذنْ، أنا علاوة على ذلك، مؤمَّنٌ في هذه الصفقة" وضحك كرويه، ولوّح بيده مُودّعاً، ومُغادِراً المطعم. وعند البيانو، استدار، وحيّاه ثانية، وانطلق.

جلس ياستراو مستنداً بكوعَيْه على الطاولة مُحدِّقاً بالورقة.

طواها ودسّها في جيب الصديري، وتوجّه إلى تواليت الرجال.

فتح صنبور المياه، واندفع الماء في المغسلة، وفي خضمّ صوت تدفّقه، سمع بضع نغمات، ثمّ توضّحت أكثر وأكثر. تجمّعت تلك النغمات، وانضمّت إلى الكمان، وفجأة رقصت أنغام سندنج لـ -خشخشة الربيع-(*) صاعدة نازلة مع تيّار الماء المتدفّق. لم يقدر على مسك نفسه من الرقص في مكانه. شعّت المغسلة الخزفية البيضاء مثل عرس، فهو يملك نقوداً في جيبه الآن. الآن لديه الحقّ في كل شيء. الكمان في تيّار الماء المتدفّق، موسيقى المقاهي، الغرامافون في البار. هو الآن في بيته البهيج الطنّان. على مدى كم ساعة؟ ما الذي يعرفه؟ كان في الصباح شريداً ممدّداً على التراب، وفي المساء صارت أنغام الموسيقى كلها، النوافذ المشعّة كلها، بهجة البار المعتمة، صوت تكسّر الثلج في خلاط الكوكتيل، كلها له؛ إنها له، له!

كم هي تكلفة البطاقة إلى برلين؟ لم يكن يعرف. ولكنْ، لديه فائض من النقود لليلة أخرى.

لم تكن ياقته نظيفة. ولم يكن حليق الوجه، ولكنه كان مَنْ كان، كان هو.

وبإيقاع هادئ فرح، ما هذا الفالس القَدَري الذي عزفوه؟ هُرع عبر المطعم إلى بهو الاستقبال، ودخل، من ثمّ، إلى بار دس آرتيست.

كان الغرامافون يطنّ. الضوء الخافت وانعكاس الجدران البُنّيّة المحمرّة لها تأثير مُهدِّئ. وقد وقف لوندبوم خلف البار بوجهه الأحمر، وهو يهزّ خلاّطه اللّمّاع بحركات مائجة طويلة.

"مبروك لكَ، للحريق" صاح أحدهم، فابتسم ياستراو.

---

*) مقطوعة موسيقية للبيانو للمؤلّف الموسيقي النرويجي كريستيان سندنج. 1941-1856) (Christian Sinding)

أومأ لوندبوم له بتحيّة مهذّبة من بعيد.

آه، ذلك البار البهيج البيتوتي! ذلك النحاس الأصفر للبار الذي يذكّره بالتّرامات والرحلات الطويلة، أو المكائن المسوّرة كحواجز. الكراسي العالية التي يجلس عليها المغنّون السود عادةً مرتدينَ البناطيل بألوان العَلَم الأمريكي، حبّات اللوز المُملّحة التي تُضاعِف العطش مجاناً. والفواتير الرطبة. واللوحة الضخمة لكارل الثاني عشر العاري، التي تحيل بتحفّظٍ إلى متع أخرى، بمتناول اليد أيضاً.

"أحباب الرّبّ أبداً لن يلتقوا آخر مرّة"(*)

سمعها بصوت خفيض مجوّف، وعند الطاولة المُدوّرة، كان كيير الخالد جالساً يغنّي. كان مبتهجاً يدقّ إيقاعاً، وقد تهلّل وجهه، لأن وحدته تبخّرت الآن؟

"آه، يا جاز، انتظرتُكَ، وكنتُ أعرف أنكَ لا بدّ وأن تأتي".

وفتح ذراعَيْه مُرحّباً.

"وسيأتي -بي- الصغير أيضاً قريباً. سنجتمع سنجتمع، أحباب الرّبّ ...".

ركس ياستراو في الكرسي ذي الذراعَيْن، وتنفّس مُتفاجِئاً.

"أرنولد، أعطني ويسكي، ليكون عندي ما أتشبّث به" قال بأنّة "هل سيعود -بي- الصغير حقّاً؟"

"بلى بلى بلى، لأن أمّه تحتضر. -بي- الصغير و-بي- العجوز لم يصلا إلى أبعد من ليفربول، وسيعودان. -بي- الصغير سيعود بالطائرة".

هلّل كيير الخالد "سيعود طائراً، يا جاز. يعود طائراً، يردّد صوت الترومبيت".

تأمّل وجه ياستراو بنظرة هائمة، طفت على وجهه ابتسامة وقورة، تدلّ على الرضا والخطّ الغائر في حنكه كان مليئاً بالمناكفة.

"إنها فرحة المساء، هذا المساء، ياجاز، ولقد وصلني أنكَ خرجتَ سالماً من حادث الحريق. بصحّتكَ. بصحّتكَ. ومبروك، بلى، لا بدّ من فعل شيء، فكرة عظيمة أن تُشعل النار، ليحترق كل شيء، إنها حيلة فلاحين قديمة وذكية. مبروك لكَ ما أكله الحريق".

---

*) يُتلى هذا النشيد ضمن مراسيم الدفن

كانت التحايا عبر كؤوس الويسكي لا غير. قطّب لوندبوم وجهه عند البار، ليرسل ابتسامة شيطان، وهو يُومِئ لهم. كان كل شيء دافئاً وحميمياً، والجميع تمنّوا له كل الخير.

"حسناً فعلتُ أنا حين احتفظتُ ببوليصة التأمين".

"نعم، يا فخامة العجوز" أجابه ياستراو بصيحة مجلجلة، "المزيد من الويسكي، المزيد من الويسكي، المزيد من النساء".

"لا لا، ليس النساء" قالها كيير الخالد وهو يتحسّر ورفع يده المبسوطة هلعاً "لا، أرجوكم".

"حسناً حسناً، المزيد من الويسكي، ويسكي".

وجلس من جديد عند الطاولة المدوّرة، وأمامه كان كيير الخالد المتوّج بضخامته الملكية. هنا، وفقط هنا، كان الهدوء الذي انعدم في هذا العالم. المروحة تقرقع على رؤوسهم، والباب الخلفي مفتوح إلى فناء الفندق المظلم، والمطر الهاطل، وستارة الباب الحمراء التي تتطاير خفيفاً بمداعبة النسيم الرطب، وعند الزاوية، كان الغرامافون يطنّ بأُغنيّة "لا للمزيد من المكائن لي ...".

"نخب الجنتلمان الوحيد في العالم، بصحّتكَ" قالها ياستراو بنشوة.

ولكن كيير وضع الكأس بالحال على الطاولة، واشرأبّ بعنقه، وحاول أن يبرق بعينَيْه الذابلَتَيْن

"تلك هي نميمة، يا عزيزي جاز" قالها بحزم.

"نخبكَ، على أيّة حال".

"حسناً، هذا مختلف" أجابه كيير، وشرب كأسه. ثمّ راح يتذوّق شَفَتَيْه "الشيء المختلف تماماً ..." قالها بتأنٍّ، فقاطعه ياستراو "الحُكْم راجع لي، إن كان كذلك".

"لا" طلعت منه بشكل قاس. "هناك جنتلمان أوحد في العالم، ألا وهو هـ. سي. ستيفاني".

"هذا مثل ...".

ولكن كيير رفع رأسه، ليُسكته.

"هذا هو ما أقوله، أيّها الشّابّ. ذات يوم ... أظهر أنه جنتلمان؛ ... ولكنْ، ليتَني أذكر ذلك. كانت مناسبة معيّنة، وسأتذكّرها لا بدّ، المشكلة أني أنسى، أنسى"، وركَسَ في مكانه، وحرّك يَدَيْه بيأس وحزن، وفَقَدَت نظرته طابع الرشد، وصار فجأة عاجزاً ومتسائلاً "ولكني متأكّد من كونه جنتلمان" أضاف بشكل قاطع.

ابتسم ياستراو بريبة.

"وهل تعرفه؟" سأله بغضب.

"لا، ولكنْ ...".

"كيف لكَ إذاً أن ..." توقّف كيبر، وهزّ رأسه. "عزيزي الشّابّ، أيّها الشّابّ ... بابتسامتكَ تلك المُشكّكة ... بها يمكنكَ أن تقتل سمعة رجل جيّد، وستيفاني رجل خيّر، ذات مرّة عندما كنتُ شاباً ووسيماً ذات يوم .. ذات مرّة حين كنتُ شاباً أظهر لي حقّاً أنه كان جنتلماناً. ولكني لا أستطيع تذكّر شيء. لا أستطيع ... ولكنْ، هل تشكّ بكلماتي، هل تجرؤ؟".

وضرب بقبضة يده سطح الطاولة، فدَوَتْ.

"تحسّسْ كلماتي، ياجاز، ستيفاني رجل جنتلمان، ذات مرّة حين كنتُ شاباً ...لا، لا".

وبدفعة واحدة، عصر بكلتا يَدَيْه رأسه، وراح ينحب.

من أين أتت تلك القشعريرة؟ نهض ياستراو من مكانه. لا بدّ وأنه النسيم الرطب الذي يهبّ من فناء الفندق. قام بغلق الباب.

"آه، ما الذي يحصل لكل شيء؟ يختفي كل شيء، يذهب بعيداً".

التقت عينا ياستراو بعينَيْه الزرقاوَيْن الهائمَتَيْن وسط هذا الوجه المتورّم، كانتا تبحثان عن مُعين، مع ضحكة حمقاء، يحاول من خلفها أن يخفي عجزه.

"سرعان ما سيعود -بي- الصغير، هل سمعتَ ذلك؟ إنها بهجة المساء، هذا المساء! سيعود طائراً".

فرك ياستراو يَدَيْه. وكأنه يشعر بالتراب تحتهما. ساتر كريستيانهاون. كان قريباً جدّاً من الأرض الندية والحشيش المُداس، العودة إلى التراب. وهو سيُدفَن يوماً، عاجلاً أم آجلاً.

الضوء الاصطناعي يغطّي البار. كانت هلوسة محض تحت ضباب أحمر حين شعر بالتراب والحشيش، وكأنهما شيئان حقيقيان. هل استلقى حقّاً على الأرض في تلك اللحظة عند ساتر كريستيانهاون، في درب الحرامية، ومات؟ والغرامافون يطنّ أم أنها الريح التي تحرّك الأشجار؟ بين الأوراق الذابلة.

ويسكي ثانية. كم بدت الفاتورة واقعية!

"آخ، يلزم الكثير لتملك حياة، ولكنْ، بصحّتكَ، على أيّة حال" قالها كيير الخالد بتحسّر.

من الجيِّد أن يشرب المرء. لِمَ داهم ياستراو ذلك الشعور بالتراب على يَدَيْه؟ ألا يمكنه التّخلّص منه؟

"كل شيء يذهب بعيداً، هه؟" وحرّك كيير كتفَيْه بلا عزاء. "لا يمكنني التّذكّر" وحرّك يده بقنوط "لو لم يكن كارل الثاني عشر معلّقاً هناك، لكنتُ نسيتُ كيف هو شكل المرأة، ولكني الآن، على الأقلّ أتذكّر".

وضحك بصوت مكتوم.

بينما غرق ياستراو في مستنقع من الحزن. غرق وغرق. ومن أجل المجاملة فقط، كان يقول هه أو يشرب من كأس الويسكي. ومذاق الويسكي كان مثل طعم مياه جوفية.

"وأنا كنتُ متزوّجاً، يا جاز".

"يعني مثلي".

"وقد خانتْني. اسمها إيستر، أم أنا الذي قد خنتُها. لا أذكر. كل شيء ذهب بعيداً" ونظر بجزع في الفراغ. "هه هه" وضحك "لا بدّ وأننا كنّا خائنَيْن، كلانا، الأمر سِيَّان. كل شيء ذهب بعيداً، اختفى كل شيء".

"أنا أيضاً مُطلّق" أجابه ياستراو، ولكنه توقّف. اعتراه شعور مزعج باستيقاظ الصدى فيه ما جعله يصمت. قد خانتْني! أم أنا الذي خنتُها. ولكن الأمر سِيَّان، لأنه كان ممدّدا عند ساتر كريستيانهاون ميّتاً. وهلوسته الأخيرة كانت ضباباً أحمر، بار دس آرتيست، وجه لوندبوم الأحمر، الشمس تنزل، ومضة من خلاط الكوكتيل، المياه عند الساتر.

ولكنه لم يستطع أن يرى عبر تلك الهلوسة.

لا، الأصوات العنيدة التي تطارده، وتهاجم أذنَيْه. عَلَتْ أُغنيّة. أغلق عينَيْه. كان كيير الخالد الذي يغنّي بصوت مبحوح؛

لم أنظر إلا للوراء. فضوء الحياة انطفأ فيّ
حينها تردّدت في الروح أُغنيّة لتُواسيني
انظر أمامكَ لا للوراء! ما يهوى القلب
لربّما تناله يوماً تحت الشمس

حيث يندفع نبع الحياة عالياً هناك تسكن أفكاري
حيث تزهر شجرة الحياة هناك تزهر أفكاري
انظر أمامكَ لا للوراء! ما يهوى القلب
لربّما تناله يوماً تحت الشمس

علا الصوت وتصادى بينما استراح ياستراو على الأرض العارية.

"أششش، ذلك يزعج الضيوف".

"اسكتْ، أيّها الوثني السويدي، حين تستيقظ الغرونتفية(*) بداخلي ... أكون بحاجة إلى تنفيس، يا آكل لحوم البشر السويدي".

ولازالت الهلوسة ثابتة، واضحة. ظلّ لوندبوم يأشِش كيير الخالد الذي حوّل أداءه إلى أُغنيّة صامتة، وراح يفتح ويُغلق فمه من دون صوت.

ولكن التراب على يَدَيْه. هل كان هناك تراب حقّاً؟ كان في جيبه منديل حقّاً. كان رطباً، وجيبه كان مثيراً للقرف. كانت هناك قبور ممتلئة بمياه جوفية.

ومن جديد ارتفع الصوت المبحوح

ولكنْ، تنال الروح ما تهوى
تحت الشمس
ستكون هناك شموس أخرى ونجوم
وتُطفأ كل الشموس والنجوم ...

"أشش، على حضرتكَ أن تسكتَ، وتكون مهذّباً، يا سيِّد كيير، هل سمعتَ؟".

---

*) N.F.S. Grundtvig (1783-1872): نسبة إلى الكاتب ورجل الدِّين غرونتفي. الغرونتفية هو توجّه كنيسي وحركة شعبية حدثت في القرن التاسع عشر في الدنمارك، آراؤها تشمل الدِّين والثقافة والوطن، وهي تُعنى بالمسيحية السعيدة كما سُمّيت، والتي تحتفي بالحياة، وليست تلك التي ترى الحياة على الأرض والحياة ما بعد الممات كنقيضَيْن.

الخاتمة

جلس كل من ياستراو كيير الخالد على الكراسي المضفورة عند مدخل الفندق، يتأمّلان الحياة التي كانت تنزلق أمامهما. بدت الناس مشغولة بشكل غريب.

بدا الوجهان الوارمان المحتقنان مثل حيوانات ديكور.

صفّر ياستراو بخفّة.

"يا له من لحن سخيف" قاطعه كيير مُنزعِجاً، وقد سقط رماد سيجاره على ملابسه.

أوقف ياستراو صفيره، بينما بقي كيير يتحرّك قلقاً في مكانه على الكرسي. نفض عنه الرماد، وهزَّ طرف الجاكيت، وتأفّف، ونفخ.

"هذا اللحن يجعلني أحتقن".

"أيّ لحن".

"يا إلهي" قال كيير بجزع. "ولا تعرف أيّ لحن كنتَ تُصفّر، أنتَ تجلس هكذا بهدوء بينما هيّجتَني، كان عالمياً، يا جاز، عالمياً".

اهتزّ ياستراو. لم يكن على علم بشيء. ولكنْ، ما كان يعني ذلك؟ لم يكن سوى لحن عاطفي من اللاوعي؟ شيوعية عاطفية؟ اعتدل بجلسته على الكرسي متضايقاً. الجوّ ينتهي دوماً بكسر زجاج النوافذ، بكلفة أربعة كرونات.

"سأسافر إلى برلين" قال لكيير.

تحرّك كيير، وضحك "و-بي- الصغير سيصل اليوم. إقلاع ومغادرة، ولا أحد غير كيير باقٍ".

"ولكنْ، ليس لديّ نقود".

خَلَدَ كيير إلى الصمت فجأة. جلس صامتاً، وقد تدلىّ رأسه، وانغلق فمه. بينما كان ياستراو يفرك جسده على الكرسي قلقاً خجلاً وقانطاً".

"ليس لديّ نقود للسفر".

"نعم، سمعتُ".

"هل تعيرني المبلغ؟".

سريعاً، سريعاً! ها هو قد قالها، ولكن الصمت كان جالباً للنحس. ضجيج الشارع بسبب المرور هيمن عليهما.

"لم أكن أتوقّعها منكَ" أجابه كيير مع نظرة استياء جانبية. "لقد خيّبتَ أملي، ياجاز".

"لستُ غنياً" قالها ياستراو بحنق.

أدار كيير له ظَهْره نصف استدارة.

"إنه أمر مزعج، يا جاز، ذلك لأنكَ تصرف نقودكَ على الشرب".

ضحك ياستراو عالياً.

"أمر مزعج، يا جاز" وتحرّك كيير في مكانه، وكأنه قد اقشعرّ من البرد.

"أيّها البوّاب" صاح فجأة.

أطلّ البوّاب بشاربه المهذّب.

"هل بالإمكان أن ترسل أحداً إلى مكتب السفريات، من أجل شراء بطاقة إلى برلين؟".

"هل تودّ السفر، سيِّد كيير؟".

"كلا، أعوذ بالله، يا لها من فكرة رهيبة، أريد بطاقة حسب، أودّ جمع البطاقات".

وقف بعد قليل أحد العمّال أمام كيير، ليستلم منه التعليمات والنقود.

ولكنْ، حين همَّ العامل بالانطلاق، ليشتري البطاقة، نادى عليه ياستراو.

"ماذا تريد؟"سأله كيير.

"اسمع، أريد أن أرى بعينَي الورقات النقدية من فئة عشرة كرونات، دعني أراها، لربّما كانت مزوّرة" قال ياستراو.

ناوله العامل الورق بتردّد.

"هل جننتَ؟" قاطعه كيير، وهمّ بأن ينهض من مكانه.

كان ياستراو جالساً والورقات بيده، لم يرغب بشيء غير رؤيتهم. كانت تلك القصاصات التعيسة التي لم يجرؤ كيير على ائتمانه عليها. هل عليه أن يمزّقها بيَدَيْه؟ حملق وحملق. رأس الإله هيرميس داخل شكل بيضوي. ثلاثة أسود مع كرونات على جباههم.

"هل فقدتَ عقلكَ حقّاً؟".

بحركة برمة، أعاد ياستراو المبلغ ثانية.

هزّ كيير رأسه.

"ستفقد صوابكَ، ولا شكّ ياجاز؟".

"كنتُ أريد أن أرى النقود حسب، أرى النقود".

"هكذا!".

وبعد برهة.

"كيير، هل تعرف الحالة التي تصيبنا أحياناً، حين يكون أحدنا بمزاج حسن ذات يوم، ثمّ يلتقي في طريقه شحاذاً بوجهٍ هزيلٍ مُنهَكٍ، إنسان يعاني الضّيق، تعطيه المال من أجل أن يدعكَ ذلك تنساه، من أجل ألا يفسد عليكَ مزاجك الحسن".

اعتدل كيير في كرسيّه، وقال له؛

"لديكَ طريقة نبيلة في قول كلمة شكراً".

... انتهت ...

فهرس المحتويات

توم كريستينسن (١٨٩٣-١٩٧٤): شاعر وروائي وناقد وصحفي. حصل على شهادة الماجستير في الأدب الدنماركي والألماني من جامعة كوبنهاجن ١٩١٩. تمتّع كريستنسن بمكانة مرموقة وتقدير كبيرَيْن في حياته، ومُنحَ وسام شرف من مدينته لاحقاً. كان من المساهمين بتأسيس الأكاديمية الدنماركية عام ١٩٦٠، وحصل على العديد من الجوائز الأدبية، من ضمنها السَّعَفَة الذهبية عام ١٩٥٤.

في عام ٢٠٠٦ أُدرجت روايته هدم تحت (قائمة الكانون - قائمة الأدب المعتمد لوزارة الثقافة الدنماركية) وعُدَّ من أهمّ الإضافات للأدب الدنماركي مِنْ قِبَل أهمّ كتّاب جيله.

كان كريستنسن من بين أكثر كتّاب جيله مقاومة وعناداً وتأثّراً بالأفكار التي استجدّت، والحركات الفنيّة والأدبية الجديدة، عدا عن طبيعته المتمرّدة الصدامية التي تجلّت في شبابه الأوّل سعياً لاكتشاف نفسه.

في عام ١٩٢٧ قدم استقالته من وظيفته في جريدة البوليتيكن وانتقل إلى شمال جزيرة شيلاند لينصرف لكتابة «هَدْم» والتي استغرقته ثلاثة أعوام بعد توقفه تماماً عن تعاطي الكحول.

دُفن توم كريستينسن في جزيرة ثورو جنوب الدنمارك، وهو المكان الصغير المنعزل الذي قضى فيه معظم حياته وعلى حجارة قبره الضخمة تمّ حفر بيت شِعْر، كتبه كريستينسن في العام ١٩٢٧:

أنْحَني قَدْرَ استطاعتي
ليبدو العالمُ كبيرا

المتوسط

تتناول رواية "هَدْم" للروائي توم كريستينسن حياة شاعر وصحفي معروف، يعمل في أكبر الصحف الدنماركية، يعيش حياة مستقرّة، بدخل ثابت، وعائلة، وأطفال، وشقّة راقية، قرّر فجأة أن يهدم حياته. هذا القرار، كما سوف نرى، يتجاوز طابع التمرّد الشخصي إلى اضطرابات مرحلة زمنية كاملة.

تدور أحداث الرواية في فترة من تاريخ الدنمارك، جرى فيها الكثير من المتغيّرات سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وهي الفترة ما بين الحربَيْن التي تناولها الأدب الأوروبي بتوسّع. عُدّت الرواية وثيقة لما أُطلق عليه جيل ما بين الحربَيْن الضائع، وظهرت انعكاساته واضحة عبر فصول الرواية متمثّلة في استعراض دقيق ممتع لإيقاع المدينة، ونبضها، في مرحلة أواخر العشرينيات.

إن البطل الذي يدير أسئلته، ويتفحّصها، يواصلها نحو الحدود الوجودية كالأبدية، والخلود، بيد أنه يعود بها إلى الواقع الإنساني الفعلي، متسائلاً إن كان اتّباع الرغبات، بممارسة الجنس وشرب الكحول والانغماس بالملذّات هو الطريق نحو الأبدية؟ وما القِيَم الأخلاقية؟. هذه المشاغل الذهنية التي اهتمّ بها الروائي توم كريستينسن في روايته هذه لم تكن غريبة عن اهتمامات الجيل الذي عاش الدمار، ولازمه الشّكّ في المُثُل العليا بعد حدوث انحراف أخلاقي، خلّفتْهُ الحرب العالمية الأولى. ومن الواضح أن ما وصفه في رحلة آلام بطله كان موضوعة حيّة عصرية وجوهرية في الأدب العالمي.

المتوسط

DANISH ARTS FOUNDATION

لقد عشتُ ليوم وليلة مع ياستراو والآخرين، لكن رفقتي لهم انتهت الآن، وها أنا أجلس مريضاً بشوقي للمزيد منهم. أشعر بفراغ كبير حقّاً بانتهائها.

لا أدري إن كنتُ قد أُخِذتُ يوماً بكتاب ما في حياتي، وزوجتي شهدتْ كيف كنتُ أقرأ - أقرأ وأستشهد - وهي قد شرعت بقراءتها الآن. عمل عبقري عظيم. أرجو منكَ أن تتقبّل منّي خالص التهنئة. لديّ كُتُبي، ولا ينقص العالم كُتُبٌ، ولكنْ، عليّ الآن أن أتواضع، فلا كتاب مثل كتابكَ.

رسالة كنوت هامسون (نوبل للآداب ١٩٢٠)
يوم ٦-١٢-١٩٣٠ إلى توم كريستينسن

تُعدّ الرواية من الأعمال الكلاسيكية الرائعة للأدب الدنماركي، فهي فضلاً عن التفاصيل الدقيقة التي تُقدّمها عن حالة البطل، تتناول بتحليل عميق الشّكّ الذي يصيب الإنسان في بحثه عن الحقيقة، معنى وجوده وأهمّيّته. ما معنى الدّين ودوره؟ هل تختلف الكاثوليكية في نظرتها إلى الإنسان؟ وما الذي يقرّب الإنسان من المسيح؟ هل هو سُكْره وانسحابهُ؟ أم إيمانهُ الدِّيني؟



ISBN 978-88-85771-66-6
9 788885 771666
المتوسط